سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ عبدالله الغنيمان (٢)

شرح كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

تصنيف الإمام
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي
المتوفى سنة (١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ
عبدالله بن محمد الغنيمان
غفر الله له ولوالديه وذريته ولمشايخه

المجلد الأول

دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

شرح
كِتَابِ التَّوحِيدِ
جزء

ٱلَّذِي هُوَ حَقُّ ٱللَّهِ عَلَى ٱلعَبِيدِ

ح دار طيبة الخضراء ، 1443هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
التميمي ، محمد عبد الوهاب
شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد 2/1
محمد عبد الوهاب التميمي - مكة المكرمة ، 1443 هـ
2 مج؛ 17×24 سم
ردمك: 978-603-8350-14-0 (مجموعة)
ردمك: 978-603-8350-15-7 (ج1)
1- التوحيد 2- العقيدة الإسلامية
أ. الغنيمان، عبد الله محمد (مؤلف مشارك) ب. العنوان
ديوي 240 1443/2870

رقم الإيداع: 1443/2815
ردمك: 978-603-8350-14-0 (مجموعة)
ردمك: 978-603-8350-15-7 (ج1)

الطبعة الأولى (1443هـ - 2022م)

دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع

dar.taibagreen123
dar.taiba
@dar_tg
dar_tg
dartaibagreen@gmail.com
yyy.01@hotmail.com
012 556 2986
055 042 8992
مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان (٢)

شرح
كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى

شرح

فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان

غفر الله له ولوالديه وذريته ولمشايخه

المجلد الأول

طبع على نفقة

حمود بن علي الربيعان

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته وذريته وللمسلمين

دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد
وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
وبعد فهذه الطبعة الثانية لشرح كتاب التوحيد الذي ألفه إمام
الدعوة إلى التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى اجتهدت
في شرحه وإيضاحه ولاسيما المسائل التي يذكرها في آخر كل باب
كما اجتهدت في رد الشبه التي يتعلق بها المخالف والجواب عنها أرجو
من الله تعالى أن ينفع به وهو المستعان وعليه التكلان
كتب في ١٧/٦/١٤٤٢هـ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كُفوًا أحد، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه، وبعد:

فهذه الطبعة الثانية لشرح «كتاب التوحيد» الذي ألَّفه إمام الدعوة إلىٰ التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالىٰ اجتهدتُ في شرحه وإيضاحه ولاسيما المسائل التي يذكرها في آخر كل باب، كما اجتهدتُ في ردِّ الشُّبه التي يتعلق بها المخالف، والجواب عنها. أرجو من الله تعالىٰ أن ينفع به وهو المستعان وعليه التكلان.

عبد الله بن محمد الغنيمان

كُتب في ١٤٤٣/٦/١٧هـ

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، لا إله إلا هو قائمًا بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن أهم ما يقوم به العبد في هذه الحياة العمل علىٰ تحقيق عبودية الله تعالىٰ عملًا واعتقادًا وقولًا؛ لأن هذا هو طريق النجاة من العذاب، والفوز بالسعادة الأبدية، ولهذا صارت دعوة الرسل لأممهم أن يعملوا بذلك، ويقوموا به كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وخاتم الرسل محمد ﷺ دعا الناس إلىٰ عبادة الله تعالىٰ وحده لا شريك له، وبيَّن ذلك بأنواع البيان، فلم يبق لأحد ممن كلف بالعبادة عذر، وحذر مما يضاد العبادة بما أتاه الله من البيان والبلاغ، ووضح ذلك لمن صحبه، أو نظر في سيرته صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أصحابه بعده قاموا بذلك أتم القيام، وتتابع العلماء علىٰ ذلك مع حدوث البدع والانحراف في عبادة الله تعالىٰ، وإخلاص العمل له.

وكلما بَعُدَ عهد النبوة عن الناس زاد جهلهم، ولهذا كثر انحرافهم في هذه العصور المتأخرة، وكلما كثر الانحراف وزاد الجهل بعث الله من يدعو إلىٰ توحيد الله تعالىٰ وإخلاص العبادة له، وكان من آخرهم داعية التوحيد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ومن آثاره العظيمة كتابه كتاب التوحيد، فقد نفع الله به

وانتشر بين طلاب العلم، ولا يزال الناس بأمس الحاجة إليه في بقاع الأرض كلها، وهو جدير بأن يترجم بجميع اللغات وينشر بين الناس.

ومع سهولة لفظه ووضوح معناه كثرت شروحه، وكنت ألقيت دروسًا على الطلاب منه، فقام أحدهم بتسجيل تلك الدروس جزاه الله خيرًا، ثم فرغها، فاستعرضتها وصححت الأخطاء حسب ما ظهر لي، ومعلوم أن كل عمل الإنسان عرضة للخطأ، ولا بد أن يبقى فيه ما يحتاج إلى تصحيح أو تعديل، وأرجو من الله تعالى أن ينفع به، فهو أهل الفضل والإحسان.

كتبه

عبد الله بن محمد الغنيمان

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحابته، ومن سار علىٰ نهجه ودعا بدعوته إلىٰ يوم الدين، وبعد:

هذا الكتاب «كتاب التوحيد»، كتاب عظيم لا نظير له في هذا الباب فيما نعلم، لا من الكتب المتقدمة ولا من المتأخرة، ولهذا بعض الناس الذين لم يعرفوا الحقيقة يظنون أن هذا الكتاب ليس للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، يقولون: هذا من أسلوب البخاري والدارمي رحمهما الله والعلماء الكبار، ولكن هذا توفيق الله جل وعلا، إذا وفق الله عبده سدده.

وهو أيضًا رحمه الله ألف هذا الكتاب في غربته، يقول حفيده عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: إنه ألف كتاب التوحيد هذا في البصرة، حيث وجد هناك من العلماء الذين لهم باع في علم التوحيد، وعلم الحديث، وعلم التفسير وغيره، فتبصر وعرف الحق، ثم بدأ دعوته هناك، ولكن لم ترق لكثير من الناس هذه الدعوة فتألَّبوا عليه وأخرجوه من البصرة، فاتجه إلىٰ الزبير في وقت شدة الحر فكاد يموت، إلا أن الله قيض له صاحب حمار في الطريق فأنقذه وحمله إلىٰ الزبير(١)، وكانت نيته أن يذهب

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٧-٨). وفيه: قال ابن بشر: «ثم خرج منها إلىٰ نجد وتجهز إلىٰ البصرة يريد الشام، فلما وصلها جلس يقرأ فيها عند عالم جليل من أهل المجموعة- قرية من قرىٰ البصرة- في مدرسة فيها ذكر لي أن اسمه محمد المجموعي. فأقام مدة يقرأ عليه فيها وينكر أشياء من الشركيات والبدع، وأعلن بالإنكار واستحسن شيخه قوله، وقرر له التوحيد، وانتفع به. ثم إن =

إلىٰ الشام نظرًا للحديث عن النبي ﷺ في صفة الفرقة الناجية، ففي رواية معاذ بن جبل رضي الله عنه: «وهم في الشام»(١)، فكأنه لاحظ هذا المعنىٰ، وأراد أن يجعل دعوته هناك، ولكن الله ﷻ أراد بأهل نجد خيرًا، وضاعت نفقته فثناه ذلك عن الذهاب إلىٰ الشام فرجع، وذهب إلىٰ الأحساء، ثم رجع إلىٰ بلده وبدأ دعوته فيها، ثم إنه كثر تلامذته ومريدوه ينهلون من علمه وذلك لما له من الأثر البالغ في نشر العلم، ثم انتقل إلىٰ العُيينة وساعده أميرها، ثم إن أميرها بعد ذلك صار من أهل الباطل الذين يهدمون الحق بأكاذيب وتلفيقات وتزوير علىٰ دعوته، فتألب عليه كثير من أمراء البلاد وعلمائهم وعوامِّهم، وناوأُوه وحاولوا أن يقضوا عليه وعلىٰ دعوته، فذهب إلىٰ الدرعية وقيض الله له أنصارًا هناك من الذين قبلوا الحق من الأمراء وغيرهم فنصره الله ﷻ، وأظهر دعوته، وصارت هذه الدعوة هي المسيطرة، فانتشر العلم في البلاد عامةً وفي بلاد نجد خاصةً، وكذلك تم بسبب هذه الدعوة المباركة توحيد البلاد فعم نفعها، وصار خيرا كثيرا، ولا تزال هذه الدعوة إلىٰ اليوم، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أنصارها.

= الشيخ تجمع عليه أناس في البصرة من رؤسائها وغيرهم، فآذوه أشد الأذىٰ، وأخرجوه منها وقت الهجيرة ولحق شيخه منهم بعض الأذىٰ، فلما خرج الشيخ من البصرة وتوسط في الدرب فيما بينها وبين بلد الزبير أدركه العطش وأشرف علىٰ الهلاك، وكان ماشيًا علىٰ رجليه وحده فوافاه صاحب حمار مكاري يقال له أبو حميدان من أهل بلد الزبير فرأىٰ عليه الهيبة والوقار وهو مشرف علىٰ الهلاك، فسقاه وحمله علىٰ حماره حتىٰ وصل الزبير. ثم إن الشيخ أراد أن يصل الشام فضاعت نفقته التي معه، فانثنىٰ عزمه عن المسير إليه. فخرج من تلك الديار وقصد الأحساء، فلما وصل إليه نزل علىٰ الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي، ثم إنه خرج من الأحساء، وقصد بلد حريملاء».

(١) رواه البخاري رقم (٣٦٤١) ولفظه عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم علىٰ ذلك**» قال عمير: فقال بن يخامر: قال معاذ: وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم بالشام. ورواه مسلم رقم (١٠٣٧) دون قوله: وهم بالشام.

والمؤلف رحمه الله جمع في كتاب التوحيد مسائل هذا الفن حسب الحاجة نظرًا لما كان عليه الناس في وقته، ولا تزال الحاجة إليه ماسة في الوقت الحاضر ولن تزال؛ لأنه هو أصل الدعوة التي جاء بها رسول الله ﷺ، وقد اشتمل علىٰ كثير من مسائل هذا العلم، ومعلوم أن هذا هو الأصل الذي يجب أن يُعتنىٰ به أكثر من غيره.

وهو رحمه الله لإخلاصه في دعوته، ولكونه قد تضلَّع في هذا العلم وأعطاه الله جل وعلا ذكاء وفطنة وعقلًا وصبرًا صار له الأثر البالغ حتىٰ صارت دعوته تشبه دعوة الرسل في هذا المجال. ومن المعلوم أن لكل دعوة أعداء، فقد قام المناوؤن للدعوة من أهل العلم وغيرهم في محاولة إبطال دعوته والتشنيع عليها، وكل قوم لهم وارث، وسيستمر هذا إلىٰ أن يرث الله جل وعلا الأرض ومن عليها، والحق له أنصاره والباطل له أعوان وأنصار، وهذه سنة الله جل وعلا في خلقه، ومن أراد الحق فإنه واضح في كتاب الله جل وعلا، وسنة رسوله ﷺ، ومن كلام العلماء الذين يوضحون ذلك لمن لا يكون واضحًا له، والتوحيد الذي دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، هو توضيح العبادة، وكتابه هذا أكثر مسائله حسب الحاجة التي دعت إليه في وقته، وكان الناس قد خالفوا مقتضىٰ ذلك في كثير من أحوالهم وأعمالهم ولم يكن في وقته من يقوم بهذا الأمر -التوحيد- وإنما كان العلماء مشغولين في أحوالهم ومعيشتهم، وليس لديهم اهتمام في تقرير التوحيد ومعرفة الشرك، يجتهدون في كتب الفقه وفي حواشيه، وفي معرفة دراسة المتون وحفظها، والناس في مجال العبادة يقصدون القبور والأشجار وغيرها ولا أحد ينكر ذلك إلا نادرًا، وقد يكون هذا شأن الناس في العالم الإسلامي في الجملة.

فهذا الكتاب مع اختصاره، جمع معظم مسائل توحيد العبادة التي يحتاجها الإنسان، وإن كان هناك مسائل جدت تحتاج إلىٰ بحث؛ لأن حوادث الناس لا نهاية لها، ولكن كل ما يحدث للناس فحكمه موجود في كتاب الله جل وعلا؛ لأن الله لم يفرط

في الكتاب من شيء، بل جمع وأوعىٰ، غير أن الله ﷻ يعطي من يشاء فهمًا يدرك به المراد من ذلك، والفهوم تختلف، والله يمنح من يشاء من المعرفة ومن الهداية والنور الذي يمشي به إذا لجأ العبد إلىٰ ربه صادقًا وانطرح بين يديه وأقبل عليه، فإن الله لا يخيب من سأله ﷻ.

والمؤلف رحمه الله لم يذكر خطبة للكتاب يبين فيها مراده ومقصده، وإنما قال: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، ثم قال: «**كتاب التوحيد**»، فجعل البسملة بمنزلة الخطبة اقتداء بكتاب الله ﷻ، وبمكاتبات النبي ﷺ للملوك، وكذلك اقتداء بالأئمة الكبار، فالبخاري رحمه الله بدأ كتابه الصحيح بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: باب بدء الوحي، ويظهر أن الشيخ رحمه الله اقتدىٰ به. وقد جاء في الحديث الذي رواه الرهاوي وغيره: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع**»[1]، وفي رواية: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله، فهو أقطع**»[2]، أو قال: «**هو أبتر**»[3]، والمقصود بالحمد لله هو ذكر الله ﷻ، وقد بدأ الشيخ رحمه الله بذكر الله فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقد جاء في رواية: «بذكر الله»[4]، يدل علىٰ أن المقصود ذكر الله ﷻ، وهذا دل عليه القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود: ٤١]، وذكر الله يحصل حتىٰ ولو لم يكتبه.

---

(١) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين من حديث أبي هريرة.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٢٦٦٨٣)، وهو عند النسائي في الكبرىٰ (١٠٣٢٨)، وصحيح ابن حبان رقم (١)، وابن ماجه رقم (١٨٩٤).

(٣) رواه أحمد رقم (٨٧١٢): «**كل أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله ﷻ فهو أبتر - أو قال: أقطع -**» ورواه الدارقطني رقم (٢).

(٤) رواه أحمد في المسند، انظر: الحاشية ٣، ورواه النسائي رقم (١٠٣٣١) بلفظ: «**كل كلام لا يبدأ في أوله بذكر الله فهو أبتر**».

✍ **وقوله** رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

«**الباء**»: في للاستعانة، وهذا هو المناسب؛ يعني: أستعين ربي علىٰ ما أبدأ فيه، وعلىٰ تمامه، وعلىٰ فهمه والعمل به، ، وعلىٰ حصول المراد الذي أردته؛ أي: ينفع، فالأمور المضمرة هي التي ينويها الإنسان في قلبه وهي التي أرادها بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم» أي :مستعينًا بالله جَلَّ وَعَلَا علىٰ ذلك.

«**الله**»: عَلَمٌ علىٰ الذات الذات الكريمة الشريفة، **والعَلَمَ**: معناه الشيء الذي يكون دالًا دلالةً واضحة علىٰ ذلك، وهذا الاسم لا يطلق إلا علىٰ الله جَلَّ وَعَلَا.

وأصل «الله» كما يقول علماء اللغة: «**الإله**» فحذفوا الهمزة الأولىٰ، ثم أُتىٰ باللام التي للتعريف، ثم أُدغمت اللام باللام الثانية، ثم فُخم فصار «الله» بالتفخيم والتعظيم، واختلف هل هو مشتق، أو جامد؟

والفرق بين المشتق والجامد: أن الجامد الذي يجعل عَلَمًا علىٰ هذا الشيء يميزه عن غيره كأسماء الناس.

أما المشتق: فما كان له أصل أخذ منه، ولا يلزم أنه أخذ من شيء سبقه كما توهمه السهيلي وشيخه ابن العربي رَحِمَهُمَا اللَّهُ، فإن هذا غير صحيح، ولهذا أنكر السهيلي وشيخه علىٰ من قال: إنه مشتق(١).

ومقصود الذين قالوا: إنه مشتق أي : أن له معنًىٰ أُخذ منه؛ يعني: أنه يلاقي مصدره؛ كالأسماء الحسنىٰ؛ يعني: أنه أُخذ من «**أَلِه، يَأْلَه، إلهًا، وإلاهية وألوهية**»، ولهذا جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: "الله ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين"(٢) والعبادة هي تأله القلب، والقلب يَأله من يُحبه، ويَذل له ويُعظمه.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٦) قال: زعم أبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي أن اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالىٰ قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق.

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٢٣).

ولهذا جاءت الأسماء تابعة له، قال بعض أهل العلم: إن " الله" هو «اسم الله الأعظم»، وقد جاءت فيه أحاديث وآثار، وجاء فيه أيضًا قصص قد يَصْدق علىٰ كل أسماء الله الحسنىٰ، ومن ذلك ما ذكره الله ﷻ في القرآن في قصة سليمان: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، قال بعض المفسرين: هذا الذي عنده علم من الكتاب هو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم(١)، فدعا الله باسمه الأعظم فحضر عرشها في لحظة، ولهذا قيل: أخفىٰ اسم الله الأعظم حتىٰ لا يدعو به من لا يقدره.

قال ابن القيم رحمه الله (٢) وغيره: أسماء الله كلها عظيمة، ولكن هذا يعني: الاستجابة وإعطاء السؤال بحسب ما يقوم بقلب الإنسان من تقدير الله وتعظيمه، وذله لله ﷻ، وخضوعه وافتقاره له، فإذا وجد هذا فإن الله يستجيب له وإن كان العبد ظالمًا، ولهذا أخبرنا الله ﷻ في كتابه بما جعله آية دالة علىٰ وجوب توحيده مخاطبًا بذلك الكفار والمشركين بقوله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٤٦١) قال رحمه الله: وهو رجل من الإنس عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأكبر، الذي إذا دعي به أجاب. قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان. وكذا رَوَىٰ محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صدّيقًا يعلم الاسم الأعظم. وكذا روي عن قتادة. تفسير ابن كثير (٦/ ١٩٢).

(٢) الجواب الكافي (١/ ٥) قال رحمه الله: وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته علىٰ المطلوب وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل وعند الآذان وبين الآذان والإقامة وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة علىٰ المنبر حتىٰ تقضىٰ الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم وصادف خشوعًا في القلب وانكسارًا بين يدي الرب وذلالة وتضرعًا ورقة واستقبل الداعي القبلة وكان علىٰ طهارة ورفع يديه إلىٰ الله تعالىٰ وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثنىٰ بالصلاة علىٰ محمد عبده ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل علىٰ الله وألح عليه في المسألة وتملقه ودعاه رغبةً ورهبةً وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وكل مضطر يفتقر إلىٰ ربه ﷻ ويذل له معظمًا خاضعًا مفتقرًا، فإن الله يستجيب له فهذه آية من آيات الله، وهو من مقتضىٰ ربوبيته ﷻ، ومعناه أنه هو رب الخلق، والرب هو الذي يقوم علىٰ تربيتهم علىٰ ما يصلحهم وما يحتاجون إليه، والشيء الذي يحتاجون إليه يستجيب لهم فيه، ولكنه حكيم عليم ﷻ، فقد يدعو الإنسان بشيء يضره فلا يستجيب له رحمة به، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث: إما أن تعجَّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا : إذًا نُكثر. قال: «**الله أكثر**»[١]، فكل داع لا يخيب، والله برحمته وإحسانه يفعل ما هو أصلح للعبد.

وقوله: «**الرحمن الرحيم**»: كلاهما جاء علىٰ صيغة المبالغة، الدالة علىٰ كثرة الرحمة، فقد جاء عن ابن عباس أنه قال: الرحمن الرحيم: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر؛ أي: أكثر رحمة[٢]. ومعنىٰ أنهما رقيقان: أنه يرجىٰ بهما الرحمة، وأحدهما أكثر رجاءً وهو الرحمن؛ لأن زيادة الحروف، وزيادة البناء تدل علىٰ زيادة المعنىٰ، ولهذا يأتي في الدعاء: «**رحمن الدنيا والآخرة**»[٣]، أما رحيم فهو أخص، ولهذا جاء أنه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] رحيم بالمؤمنين، ولم يأت رحيم بالخلق، وإنما أتىٰ رحمن، وعلىٰ هذا قال ابن القيم ؒ:

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (١١١٣٣)، والترمذي رقم (٣٥٧٢) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٢٥).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٥٥٨) ولفظه: عن أنس بن مالك ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «**ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل دينًا لأدىٰ الله عنك؟ قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة، تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك**»، ورواه البزار.

الرحمن: دال علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم: دال علىٰ تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال علىٰ أنه يرحم خلقه برحمته[١]؛ يعني: أن الرحمن يدل علىٰ تعلق الرحمة بالله ﷻ، وأما الرحيم، فهو يدل علىٰ تعلقها بالمخلوق، وعلىٰ هذا يكون أحدهما دال علىٰ الذات والآخر دال علىٰ الفعل، وعلىٰ كل حال أسماء الله يجب التفقه فيها، وسؤال الله بها؛ لأن الله أمرنا بذلك، وهي كلها حسنىٰ، قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ودعاؤه بها هو عبادته، والعبد لا ينفك عن عبادة بأسماء الله ﷻ، والمؤمن دائمًا يعبد ربه بأسمائه حتىٰ في الأكل والشرب والنوم، والجلوس، والمشي، وغير ذلك، فيقول: «بسم الله» مثلًا، عند دخول المنزل، و«بسم الله» عند النوم، و«بسم الله» عند الأكل والشرب وهكذا، فهذا من العبادة، ومن دعائه بأسمائه، ومنها ما هو واجب حتم مثل: الذبح، فإن الله حرَّم الذبيحة حتىٰ يُذكر عليها اسم الله، فهو من عبادته، وكما جاء في الحديث الذي صححه بعض العلماء، وقال به الإمام أحمد رحمه الله، وهو قول في مذهبه، قول الرسول ﷺ: «**لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**»[٢]، وعلىٰ هذا يكون واجبًا ذكر الله علىٰ الوضوء، وإن كان هذا من أفراد مذهب الإمام أحمد، ومذهب الإمام أحمد معلوم أنه يقدم الحديث الضعيف علىٰ القياس.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٨).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٩٤١٨)، والبيهقي رقم (١٩٥)، وأبو داود رقم (١٠١)، وابن ماجه رقم (٣٩٩)، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد، ووافقه الذهبي.

البـاب الأول

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كتاب التوحيد**».

وهذه الكلمة أغنت عن الخطبة ودلَّت علىٰ مراده، ومقصده في هذا الكتاب؛ لأن التوحيد معروف أنه التوحيد الذي جاءت به الرسل، فمع هذا كأنه يقول: هذا كتاب أجمع فيه مسائل التوحيد ومكملاته وواجباته، ومناقضاته، ومنقصاته مما يجب أن يُبتعد عنه، وهي كافية عن التصريح وبسط العبارة.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اقتدىٰ بالأئمة الذين يسلكون هذا المسلك مثل: البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن من قرأ كتابه، وتأمَّله، دلّه علىٰ أنه يُعلِّم من يقرأ كتابه ويُفهمه أن يتدرب علىٰ الاستنتاج، واستخراج المعاني من النصوص بما يضعه من التراجم، ولهذا تجده مثلًا إذا وضع الترجمة لا يأتي بالحديث الصريح الواضح الجلي، دائمًا يأتي بحديث يحتاج إلىٰ تفكر وإمعان النظر حتىٰ تستخرج الحكم منه، ولهذا يقول النووي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وضعه لتدريب الطالب علىٰ الاستنتاج والاستخراج والتفكر، وهذا من أنفع ما يقدم لطالب العلم؛ لأنه بذلك يتحصل علىٰ أشياء كثيرة ويتدرب علىٰ الاستنتاج من النصوص والاستنباط منها، فيوفر عليه وقتًا طويلًا، أما إذا صار يطلب ذلك من كلام الناس فيحتاج جهداً أكثر ووقتاً أطول، ثم من وراء ذلك كله فتحُ الله جَلَّ وَعَلَا

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ١٣-١٤) وقد يفعل ذلك لغرض شحذ الأذهان في إظهار مضمره واستخراج خبيئه وكثيرًا ما يفعل ذلك، أي هذا الأخير حيث يذكر الحديث المفسر لذلك في موضع آخر متقدمًا أو متأخرًا فكأنه يحيل عليه ويومئ بالرمز والإشارة إليه وكثيرًا ما يترجم بلفظ الاستفهام كقوله: باب هل يكون كذا أو من قال كذا ونحو ذلك، وذلك حيث لا يتجه له الجزم بأحد الاحتمالين وغرضه بيان هل يثبت ذلك الحكم أو لم يثبت فيترجم علىٰ الحكم ومراده ما يتفسر بعد من إثباته أو نفيه أو أنه محتمل لهما وربما كان أحد المحتملين أظهر وغرضه أن يبقىٰ للنظر مجالًا ... الخ.

وتفهيمُه لمن أراد.

قوله: «**كتاب**»: الكتاب يدل على الجمع، ولهذا يقال لجماعة الخيل: الكتيبة. ويقال: تكتب بنو فلان إذا اجتمعوا، فالكتاب هو الذي يجمع أبوابًا ومسائل في الفن المقصود به، وهو مصدر: كتب، يكتب كتابًا وكتابة وكتبًا.

وقوله: «**التوحيد**»: مصدر: وحَّد، يوحِّد، توحيدًا. والتوحيد يقول كثيرٌ من الشراح معناه: جعلته واحدًا، ومقصوده: جعلته يعني: اعتقدت وحدانيته، وإلا لا أحد يجعل الله واحدًا. اعتقد يعني: عقد قلبه على ذلك، اعتقَدَ وحدانيته وعملتُ بها، فإن العقيدة لا تكفي بل لا بد من العمل ولا بد من الدلائل، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: دلائل التوحيد سأذكرها، وهذا كتاب أجمع فيه أدلة التوحيد التي أوجب الله جَلَّ وَعَلَا على عباده أن يعرفوها ويعملوا بها.

والتوحيد معناه أن يكون العمل واحد لله جَلَّ وَعَلَا. فالتوحيد هو إخلاص العمل وتصفيته وتخليصه من شوائب الشرك التي تقدح في الإخلاص، وشوائب البدع التي تقدح في العمل.

فالتوحيد لا بد فيه من الإخلاص والمتابعة؛ يعني: أن يكون التوحيد عبادة لله خالصة على الطريقة التي جاء بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أي: بالشرع الذي جاء به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا اتفق العلماء على أن العبادة لا بد أن تشتمل على أمرين أساسين وإلا تكون مردودة وفاسدة:

أحدهما: الإخلاص، أن تكون خالصة لله جَلَّ وَعَلَا، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

الثاني: المتابعة، أن تكون على ضوء ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كتاب الله وسنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أي: ما دل عليه الكتاب والسنة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحدث في أمرنا هذا**

ما ليس منه فهو رد»(١)، وفي رواية: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**(٢)، كلاهما من حديث عائشة ﵂، فإذا لم يشتمل العمل على هذين الأصلين فهو عمل مردود.

وسُمي الإسلام توحيدًا؛ لأنه مبني على الإخلاص بخلاف النصرانية وغيرها فهي مبنية على الشرك والتنديد والتعديد، وكذلك عبادة سائر الناس من وثنيين وكتابيين وغيرهم فهي لا تخلو من الشرك، وإن كانت من أهل الكتاب.

والتوحيد كما هو معلوم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

توحيد **الربوبية**، وتوحيد **الأسماء والصفات**، وتوحيد **العبادة**، وإن شئت قلت إلى قسمين، فهو من باب الإيضاح والبيان. قال العلامة ابن القيم ﵀: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد(٣).

توحيد في المعرفة والإثبات هو: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة(٤).

وهذا التقسيم استقرائي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والاستقراء: هو التتبع والنظر في الأدلة من كلام الله ﷻ، وأحاديث رسوله ﷺ، وإلا لم يأت النص عليها؛ لأن هذا لا يحتاج إلى نص؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فالعبادة هي التوحيد، الخالص لله وحده، ثم قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، هذا هو توحيد الربوبية: ثم قال:

(١) رواه البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).
(٢) رواه مسلم رقم (١٧١٨).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩).
(٤) فتح المجيد (ص٣٧).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢٢]. فالخلق من صفاته، فهذا هو توحيد الأسماء والصفات: ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فهذا توحيد الألوهية، فالآية فيها الأقسام الثلاثة.

وهكذا قوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة].

«﴿ٱلْحَمْدُ﴾»: هو: الثناء على الجميل الاختياري الذي يفعله المحمود. والحمد كله لله ﷻ، فهو المستحق للحمد كله.

«﴿لِلَّهِ﴾»: عَلَم على الذات المقدسة. كما جاء عن ابن عباس أنه قال: «الله» ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين(١)؛ يعني: انه هو المألوه الذي تألهه القلوب وتعبده وتوحِّده، والقلب لا يطمئن إلا بعبادته، فتبين بهذا أن معنى "الله" غير معنى الرب.

«﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»: الرب: هو المالك المتصرف الذي يملك ويتصرف، ويقوم على المملوك بما يحتاج إليه من رزق وحياة وحماية وغير ذلك.

«﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»: اسمان لله، ففيه توحيد الأسماء والصفات، وهذا كثير جدًا في القرآن إذا تتبعه العبد وأمعن النظر فيه، كما قال ﷻ في آخر سورة من القرآن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]، فهذه الأقسام كأنها صريحة وواضحة في هذه السورة كما هي صريحة وواضحة في سورة الفاتحة، فكل القرآن إذا تأمله العبد يجد هذا.

ونقول إن هذا التقسيم استقرائي وليس بالنص؛ لأنه لم ينص على أنها ثلاثة

(١) تفسير الطبري (١/ ١٢٣).

فقط، والأدلة علىٰ هذه الأقسام واضحة وجلية.

ومن الجهل العظيم الذي يقول به بعض من يناصر الشرك وعُبَّاد القبور - نسأل الله العافية - يقولون: إن أول من نطق بهذا التقسيم وتكلم به ابن تيمية، ثم جاء ابن عبد الوهاب وتبعه علىٰ هذا، وإلا الناس كانوا لا يعرفونه، الناس خلقوا موحدين، فهذا الجهل وعدم فهم كلام الله ﷻ، إما أن يكون جهلا عظيما، أو عناد كبيرا.

۞ **القسم الأول: توحيد الربوبية**، وهذا كثيرٌ في القرآن وهو واضح وجلي، وقد جعله الله ﷻ دليلًا ملزمًا للمشركين علىٰ توحيد العبادة كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ يعني: أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلقهم وهو الذي خلق من قبلهم، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وهو الذي جعل لهم الأرض علىٰ هذه الكيفية مستقرة يستطيعون الانتفاع بها والسير عليها كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وكذلك هو الذي خلق السماء فوقهم، وهو الذي توحد بإنزال المطر، وإنبات النبات لا يشاركه في ذلك أحد، النبات الذي يأكلون منه وتأكل منه أنعامهم، قال ﷻ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، فهو سبحانه تفرد بهذه الأشياء ليس له مشارك، فهم يعلمون هذا تمام العلم، ولا أحد يشك في هذا منهم، فإذا كانوا يعلمون ذلك فكيف

يجعلون له أندادًا في الدعاء والتأله؟ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]؛ يعني: لا تعبدوا معه غيره ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] أنه هو المتفرد بهذه المذكورات، فيجب عليكم أن تعبدوه وحده. وهذا المعنىٰ كثير جدًا في كتاب الله ﷻ يُلزم المشركين بالعبادة الخالصة لله وحده، فإنه هو المستحق لها.

فإذًا الشرك الذي وقع منهم هو شركهم في الألوهية كونهم يطلبون من الشجر والحجر أو من الأموات النفع، والدفع، والشفع -يشفع له- يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله زلفىٰ، فهم يقرُّون أن معبوداتهم عبيد مخلوقة معبدة كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك[1]. ولكن هذه المعبودات لها مقام عند الله تشفع لهم فقط هذا هو شركهم في الواقع، أما أن أحدًا كان يعتقد أن مخلوقًا شارك الله ﷻ في الخلق والإيجاد، أو الإحياء والإماتة، أو التصرف في الكون فهذا ما وقع، فتوحيد الربوبية واضح وجلي لم ينكره أحد إلا ما جاء شذوذًا من بعض الطغاة الذين يعاندون ويكابرون ويدعون الناس إلىٰ عبادتهم، وإن لم تكن صراحةً، وقد تكون صراحة مثل ما قال فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. وكذلك الطاغوت الآخر الذي قال لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهو كاذب، هي دعوىٰ باطلة، فهذا شذوذ في الواقع وخروج عن الفطرة، وإلا إذا حقت الحقائق ووقع الأمر عادوا كما قال فرعون

---

(١) رواه مسلم رقم (١١٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «ويلكم قد قد» فيقولون: إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت.

-عليه لعنة الله- لمَّا أدركه الغرق فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، **فقال الله تعالىٰ:** ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩١، ٩٢]، الآن لما عاينت الموت ما يفيد الإيمان في هذه الحالة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**تقبل توبة التائب ما لم يعاين**»[(١)]؛ يعني: يعاين ملك الموت، أو يعاين خروج روحه، فهم في حقيقة الأمر يقرون به قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، كما قال تعالىٰ حكاية عن موسىٰ وهو يناظر فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولكنهم في الظاهر يتظاهرون بإنكاره اتباعًا لما هم عليه من الملك والعبودية؛ يعني: أنهم يُعبدون، وهكذا الطواغيت الذين يأمرون الناس بطاعتهم من دون الله فهذه عبادة لهم وهم بهذا يدعون إلىٰ عبادة أنفسهم، ولا تخلو الأرض من مثل هؤلاء، فالتوحيد يبطل هذا الاعتقاد وهذا القول تمام الإبطال، ولهذا يريدون أن يعمُّوا الأمر علىٰ الناس، ويريدون أن يضعوا بدل التوحيد سماحة الأديان ومشاركتها في الاعتقاد، كما يقولون، وكما يَدعون إليه، ولكن دعوتهم ستبوءُ بالفشل بإذن الله ﷻ، فإن الله ﷻ فطر خلقه وضمن لنبيه ﷺ أن تقوم طائفة من أمته علىٰ الحق ظاهرين منصورين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا منهم.

فالمقصود أن توحيد الربوبية كان المشركون مقرِّين به ولا ينكرونه، ولكن

(١) الزهد لأبي حاتم الرازي (١/ ٧٢) عن أبي مجلز، قال: «لا يزال العبد في توبة ما لم يعاين الملك» وتفسير الطبري (٨/ ٩٤) وفيه كذلك عن الضحاك: «إنما التوبة علىٰ الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب»، وله التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملَك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلىٰ ملك الموت، فليس له ذاك.

لم يُدخلهم ذلك في الإسلام كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]. جاء عن ابن عباس أنه قال: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به[١]. وكذا قال مجاهد، قال: إيمانهم قولهم: الله خالقنا، ويرزقنا ويميتنا، وهم يشركون به[٢]. وهذا كثير أيضًا في القرآن، فإقرارهم بتوحيد الربوبية أمر ظاهر، ومع هذا لا يجدي وحده، ولا ينفع، ولا يجعل الإنسان مسلمًا، والله ﷻ أخبر عن المشركين أنهم إذا سُئلوا من خلق السماوات والأرض قالوا الله، فهم يعلمون هذا تمامًا، ومع هذا هم في النار إذا ماتوا علىٰ شركهم.

❁ **القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات**، وهو مبني علىٰ انفراد الله ﷻ بما سمَّىٰ به نفسه وما اتصف به، لا يشاركه فيه أحد من الخلق، وهذا القسم ظاهر جلي، والخلق مقرون به حتىٰ كفار قريش لم يأت أنهم أنكروا من ذلك إلا اسم (الرحمن) ﷻ، وهذا الإنكار من باب المكابرة، وإلا السور المكية مملوءة بأسماء الله ﷻ وأوصافه، ولم يأت عنهم أنهم أنكروا شيئًا من ذلك، قال ابن كثير رحمه الله: والظاهر أن إنكارهم هذا؛ يعني: (الرحمن)، إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالىٰ بالرحمن. قال ابن جرير رحمه الله وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهال:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ... ألا قضب الرحمن ربي يمينها[٣]

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم ... وما يشأ الرحمن يعقد ويُطْلِق[٤]

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٨).
(٢) تفسير الطبري (١/ ٨٨).
(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٨).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٢٧).

وأسماء الله ﷻ في القرآن كثيرة جدًا، فهي أكثر من ذكر الأحكام؛ لأن الله قضىٰ بعلمه وحكمته أن كل ما كان الناس إلي شيء أحوج كان وجوده وكثرته تناسب ذلك، فالله ﷻ علم أن الناس يلحدون في أسمائه، وأنهم يضلون فيها فأكثر من ذكرها ﷻ، فقد وقع الخلل في هذا القسم من جانبين:

جانب التقصير والجفاء، ومن جانب الزيادة والغلو، فوقع التشبيه ووقع التعطيل.

وعبادة الله ﷻ العبادة الصحيحة الحقيقية النافعة لا يمكن أن تكون إلا بعد معرفة أسمائه، وفهمها، والتفقه فيها، ولكن كون هذين القسمين الأول والثاني ظاهرين وجليين لم يتكلم المؤلف رحمه الله عليهما.

❁ **القسم الثالث: توحيد الألوهية**، وهو الذي وضع الكتاب من أجله؛ لأن الخلل والخلاف وقع فيه كثيرًا، وهذا الخلل ليس حديثًا بل هو قديم، والرسل إنما أرسلت لأجل أن الناس أخلوا بهذا القسم من التوحيد وصار بعضهم يلجأ إلىٰ بعض العباد ويعبدونهم ويسألونهم جلب النفع ودفع الضر ، سواء سؤالًا يقصد به النفع الحاضر، أو النفع المؤجل الذي يكون شفاعة يوم القيامة ونحوها.

ثم الذي يضاد التوحيد الشرك، ولفظة الشرك تدل علىٰ أنهم يعبدون الله ولكنهم عبدوا معه غيره، وبذلك صاروا مشركين، والشرك أيضًا أقسام ثلاثة مثل أقسام التوحيد؛ يعني: كل قسم من أقسام التوحيد فيه شرك:

فالشرك في الربوبية، مثل: جحد فرعون ونحوه، أن الله هو الخالق، قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فهذا تجاهل منه؛ وكذلك شرك الفلاسفة الذين يقولون: إن هذا العالم أزلي قديم ليس له مبدأ، وسيبقىٰ كذلك بلا نهاية فهذا شرك أيضًا في الربوبية، وهو من الشرك الظاهر الجلي.

أما الشرك في الأسماء والصفات، فمثل: شرك النصارىٰ الذين جعلوا مع الله إلهًا أو خالقًا وجعلوه عيسىٰ، ومثل شرك الحلولية والاتحادية من الصوفية الذين

قالوا: إن الله حال في الكون، أو أن الله الكون كله، وهذا من أقبح الشرك، وهو يناقض كتاب الله ﷻ، ومراده ﷻ فبعضهم يجعله الغاية في التوحيد والمعرفة كابن عربي حيث يقول:

العبد رب والرب عبد ليت شعري من المكلف
إن قلت رب فهو ميت وإن قلت عبد أنىٰ يُكلف

ويقول:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه(١)

يعني: كل ما ينطق به فهو كلام الله، حتىٰ نبح الكلاب عنده - تعالىٰ الله وتقدس ، وكذلك أتباعه مثل: ابن الفارض الذي يسمونه صاحب نظم السلوك، وشيخ الإسلام يسميه «نظم الشكوك»(٢)، بل نظم الشرك في الواقع، حيث إنه يجعل العبد يصلي لنفسه، ويعبد نفسه ليس هناك فرق(٣)، ولما قيل للتلمساني: ما الفرق عندكم بين الزوجة والأجنبية والأخت، والكل واحد؟ قال: لا فرق بين ذلك عندنا، وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حرامًا، فقلنا هو حرام عليهم، وأما عندنا فما ثم حرام(٤).

---

(١) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (التفسير) (١/ ٢٤٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٧٣-٧٤) يقول ﷺ: وابن الفارض من متأخري الاتحادية صاحب القصيدة التائية المعروفة بنظم السلوك، وقد نظم فيها الاتحاد نظمًا رائق اللفظ فهو أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب، وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك الله أعلم بها وبما اشتملت عليه، وقد نفقت كثيرًا وبالغ أهل العصر في تحسينها والاعتداد بما فيها من الاتحاد، ولما حضرته الوفاة أنشد:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنًا واليوم أحسبها أضغاث أحلام

(٣) أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١/ ٦٩) يقول:

لها صلواتي في المقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلىٰ حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلىٰ ولم تكن صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

(٤) جامع الرسائل (١/ ٢٦٦).

فالمقصود أن هذا من الشرك القبيح، الشرك في الأسماء والصفات، ومن ذلك: اشتقاق أسماء للمعبودات من دون الله مثل: تسمية الصنم إلهًا، فهذا شرك كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما صريحًا قال: «اللَّات» بالتشديد: كان رجلًا يلت السَّويق للحجاج[١]، فلما مات عكفوا على قبره[٢]. وعنه رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله. عن مجاهد قال: اشتقوا «اللات» من الله، واشتقوا «الْعُزَّى» من العزيز[٣].

أما الشرك في الألوهية فهو واضح وهو أن يجعل شيئًا من العبادة لغير الله، وهو ينقسم إلى قسمين: أكبر وأصغر كما هو معلوم.

الأكبر: جعل شيء من العبادات التي ثبتت أنها عبادة لله جل وعلا للمخلوق، فإذا فعلت العبادة لمخلوق فهذا هو الشرك الأكبر مثل: الدعاء والرجاء، والخوف والمحبة، والذبح، والنذر، والاستعاذة، والاستغاثة، وما أشبه ذلك من العبادات الثابتة لله جل وعلا.

أما الشرك الأصغر: فإن كثيرًا من العلماء عدل عن التعريف بذكر الضابط إلى تعريفه بالأمثلة فقالوا: كيسير الرياء، وكالحلف بغير الله، ومثل قول الرجل: لولا الله وأنت، ولولا كذا لكان كذا، وما أشبه ذلك، وهذا تعريف ابن القيم[٤].

أما التعريف الذي يقول: إنه كل وسيلة إلى الشرك الأكبر فإنه يكون شركًا أصغر فهذا غير منضبط؛ لأن هناك وسائل توصل إلى الشرك الأكبر وليست من

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٨٥٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٣) قال: وقرأ ذلك ابن عباس ومجاهد، وأبو صالح «اللَّات» بتشديد التاء وجعلوه صفة للوثن الذي عبدوه، وقالوا: كان رجلًا يَلُتّ السويق للحاج؛ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٥)-(٥١٦).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٤٤)، إغاثة اللهفان (١/ ٥٩).

الشرك الأصغر، مثل: الصلاة عند القبر لله ﷻ، فكون الإنسان يصلي عند القبر مخلصًا في صلاته لربه ﷻ، فهذه وسيلة إلىٰ الشرك الأكبر، وليست من الشرك الأصغر، بل هو من المحرمات التي جاء النهي عنها.

على هذا نقول: التوحيد المقصود به أن يوحد الله ﷻ في فعله، وأن يوحد في أسمائه وصفاته، وأن يوحد في حقه الذي أوجبه علىٰ خلقه، فتوحيد الله في أفعاله، وكذلك في خصائصه -من الأسماء والصفات التي تخصه- وكذلك في حقه الذي أوجبه علىٰ خلقه أن يُجعل واحدًا في هذه لا شريك له، لا يشاركه مخلوق في شيء من هذه الأمور الثلاثة، فعله الذي هو تصرفه، وخلقه وإحياؤه، وإماتته، وأسماؤه، وصفاته، فهو الرحمن الرحيم، الحي القيوم، وهو علىٰ كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، فجميع أسمائه يجب أن تكون خاصة به وأنه لا يشاركه فيها أحد من الخلق، وهذان أمران واضحان.

أما حقه الذي أوجبه علىٰ خلقه فهو الذي فيه الكلام الكثير، وهو الذي فيه الخلل وهو الذي يحتاج إلىٰ البحث، والتفقه، والنظر، وإرجاع أفعال الناس فيه إلىٰ النصوص من الكتاب والسنة حتىٰ تستقيم علىٰ الصراط المستقيم.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله: «**وقول الله**»: بالجر والرفع، إما استئناف، أو عطف علىٰ كتاب التوحيد، وهذا في كل ما يأتي إلىٰ آخر الكتاب.

قوله: «﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾» [الذاريات: ٥٦]: يخبر ﷻ أنه خلق الجن والإنس لعبادته، وهل هذا خبر أو أمر؟ فإذا كان خبراً فإنه يرد عليه إشكال كما استشكله بعض المتكلمين فقالوا: إن هذا خبر، والخبر يجب أن يكون مطابقًا للواقع، وأخبار الله ﷻ لا تُخالف الواقع، فهي صدق وحق ولا يمكن أن يكون خبره مخالفاً للواقع فأين صدق هذا الخبر؟ فالواقع إذا نظرنا إليه ليس كذلك، أكثر الخلق

لا يعبدون الله ﷻ، ولفظ الآية لا يدل على أنه أمر، وإذا قلنا: إنه خبر بمعنى الأمر؛ لأنه يأتي الخبر ويقصد به الأمر ويكون ذلك أبلغ؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤]، وهذا خبر بمعنى الأمر، ولهذا ثبتت النون في ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ فهم يقولون: إذا جاء بهذه الصيغة فهو أبلغ من كونه يأتي أمرًا مجردًا، ولكن هذه الآية على خلاف ذلك فإن قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾، خبر ظاهر، ولهذا جاء الإشكال الذي أورده المتكلمون، وهم في الواقع لم يفهموا الآية، ولم يفهموا مراد الله ﷻ، فهذا الخبر عن الغاية التي خُلقوا لها، والحكمة التي أُوجدوا لها، ولهذا يقول العلماء: إن هذه الآية تدل على الحكمة من إيجاد الخلق، والحكمة المقصود بها هي: الغاية التي وجد الخلق من أجلها، ولا يلزم من ذلك أن يمتثلوا ذلك وأن يفعلوه، فالله ﷻ يخبر أنه خلقهم وأوجدهم ليوجدوا هم العبادة حتى يستحقوا بذلك الجزاء، ولم يذكر أنه ﷻ هو الذي يُوجد العبادة فيهم وقد جعل الله ﷻ لهم القدرة على ذلك، أعطاهم العقل، وأعطاهم الفكر والنظر، وأعطاهم القوى التي يعملون ما أُمروا به، ومكنهم من ذلك وصار الاختيار إليهم، فهو ﷻ خلق الخلق للجزاء بعد أن يأمرهم وينهاهم، فيتميز من يستحق الإحسان والإكرام، ومن يستحق العذاب ولا يكون ذلك إلا بالأمر والنهي، وقد جعل لهم عقولًا وأفكارًا يميزون بها بين ما يضر وما ينفع، وجعل فيهم قدرات وإرادات، وهذه الإرادات والقدرات التي خُلقت فيهم صح بها أمرهم ونهيهم، وصح أن يضاف ذلك إليهم، وإذا فعلوا ذلك وامتثلوا أمر الله ونهيه استحقوا ما رتب على هذا فليس في الآية إشكال بل هي واضحة، وظاهرة والحمد لله.

وقد ذكر الله ﷻ أيضًا غير هذا من الحِكَم التي من أجلها خلق الخلق، ولكنها ترجع إلى هذا كلها؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ يعني: أنه

خلقهم ليعرفوه بصفاته وأسمائه وأفعاله ﷻ، وهذا داخل في التوحيد، وكذلك قوله ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢]، فهذا أيضًا ابتلاء داخل في العبادة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، يقول علماء البلاغة: إذا جاء النفي، ثم جاء الإثبات بعده، فهذا يدل على الحصر، وهذا من أبلغ الكلام مع الإيجاز؛ يعني: أن الجن والإنس إيجادهم وخلقهم محصور بالعبادة، في عبادة الله ﷻ فقط.

وقدَّم الجن إما لتقدم خلقهم على الإنس، أو لغير ذلك لما هو أعلم به ﷻ، وسمُّوا جنًّا لاجتنانهم واستتارهم، وإلا فهم على وجه الأرض معنا، ولكننا لا نراهم، والجن هم أولاد الشيطان، أولاد إبليس وذريته، ومعلوم أن لهم عقولًا وأفكارًا وتمييزاً فهم أهل للتكليف، وأهل للجزاء والعقاب، وقد أخبر ﷻ أنه سيملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين؛ يعني: ممن لا يعبده ﷻ.

والمقصود هنا من الآية ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ المطابقة للكتاب، وهذا هو الإسلام الذي بعثت به الرسل، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: إلا لآمُرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي(١). وعن مجاهد قال: لآمرهم وأنهاهم(٢).

والعبادة: فعلُ أمر الله واجتناب نهيه، هذه هي العبادة، كما دلت عليه هذه الآية.

والعبادة لها تعريفات، عرَّفها أهل الأصول بقولهم: ما أُمر به شرعًا من غير اطرادٍ عُرفي أو اقتضاء عقلي(٣)؛ يعني هذا: أن العبادة هي ما أمر به الشارع من غير أن يدل عليه العرف المطرد عند الناس، ومن غير أن يكون دل عليه العقل.

(١) تفسير البغوي (٧/ ٣٨٠).

(٢) درء التعارض (٤/ ٣٣٢).

(٣) الفروع وتصحيح الفروع للمرداوي (١/ ١٦٣)، والمبدع شرح المقنع ابن مفلح (١/ ٨٣).

وعرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة[١]؛ يعني: أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، فالباطن ما يكون في القلب من المحبة والخوف والخشية، والرجاء، والإنابة وما أشبه ذلك، والظاهرة مثل: الذكر، والقراءة، والصدقة، وما أشبه ذلك، وهذا التعريف جامع مانع.

والعبادة مأخوذة من التعبيد: وهو التذليل من الذل، يقال: طريق معبد[٢]، إذا ذُلل بوطء الأقدام[٣]، وصار سهلًا سلوكه، ليس حَزنًا ولا صعبًا، فالعابد ذلت نفسه وانقادت، ففعل الأمر طائعًا منقادًا، بل مغتبطًا محبًا لمن يعبده، ويرغب في ذلك ويتلذذ به، فلا بد أن يكون فيها ذل، وخضوع، وتعظيم، فمجرد فعل الأمر بلا ذل، ولا خضوع، ولا تعظيم، لا يكون عبادة، فالواقع أن عبادة الله جل جلاله هي ألذ شيء، فالإنسان الذي لا يعرف العبادة علىٰ حقيقتها في الواقع ما وجد ألذ ما في الدنيا؛ لأن الناظر في لذات البطون والفروج يرىٰ أنه يشترك فيه الكلاب والبهائم، والعاقل وغير العاقل فهي ليست غريبة، وليست من الخصائص التي يختص بها أهل العبادة، وهكذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة[٤].لكن هذه الجنة تتفاوت عند الناس تفاوتًا كثيرًا جدًا، بعضهم يجد شيئًا من اللذة قليلًا، وبعضهم يجد شيئًا كثيرًا جدًا مثل ما قال إبراهيم بن أدهم: والله لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف[٥]. ويقول بعضهم: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٤٩).
(٢) الصحاح في اللغة للجوهري ص(٤٤٠).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢٣١) ويقال: طريق معبد: إذا كان مذللًا بكثرة الوطء.
(٤) الوابل الصيب (١/ ٦٧).
(٥) حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠).

وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، ونحو هذا من الكلام(١).

ولهذا يتحمل العبد الضرب، والقتل، والسجن، والتعذيب، وغير ذلك في هذا السبيل، ولا يبالي، ويحتسب ذلك عند ربه ﷻ، ويتحدىٰ بذلك الطغاة، فهو عبد لله ﷻ، وليس عبدًا لطواغيت الأرض، فهذا هو المطلوب من العبد أن يكون علىٰ هذه الصفة، ولكن الناس يتفاوتون كما حصل للصحابيين اللذين وضعهما الرسول ﷺ في شعب للحراسة حتىٰ لا يأتي العدو، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل فأصاب رجلٌ امرأةَ رجلٍ من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلًا أتىٰ زوجها، وكان غائبًا، فلما أخبرٍ الخبر حلف لا ينتهي حتىٰ يهريق في أصحاب محمد دمًا، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ منزلًا فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟ قال: فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بفم الشعب. قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلىٰ شعب من الوادي، وهما عمار بن ياسر، وعباد بن بشر، فلما خرج الرجلان إلىٰ فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه: أوله أم آخره؟ قال: بل اكفني أوله، قال: فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتىٰ الرجل فلما رأىٰ شخص الرجل عرف أنه ربيئة «طليعة» القوم. قال: فرمىٰ بسهم فوضعه فيه، قال: فنزعه ووضعه فثبت قائمًا، قال: ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه. قال: فنزعه فوضعه وثبت قائمًا، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه قال: فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهب صاحبه فقال: اجلس فقد أثبت، قال: فوثب فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به فهرب. قال: ولما رأىٰ المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله أفلا أهببتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥٤).

أقطعها حتىٰ أنفذها، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فأذنتك، وايْمُ الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها، أو أنفذها(١). فلذة القرآن، والتأمل في كلام الله ﷻ أنساه ألم الجراح، والدماء التي تسيل، وهكذا في غزوة بدر لما حرَّض رسول الله ﷺ الصحابة علىٰ القتال قائلًا: «**والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**»، وفي رواية عند مسلم أنه لما دنا المشركون قال النبي ﷺ: «**قوموا إلىٰ جنة عرضها السماوات والأرض**»، وعندما سمع ذلك عمير بن الحُمَام رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أجنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخٍ بخٍ. فقال رسول الله ﷺ: «**ما حملك علىٰ قولك: بخ بخ**»، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتىٰ آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمىٰ بما كان معه من التمرات، ثم قاتلهم حتىٰ قتل(٢)، وقال خالد بن الوليد: فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة(٣). وهكذا الصحابة إذا سقط أحدهم قالوا له: هنيئًا لك الشهادة، يهنئون الميت المقتول، كل واحد يود أنه هو ذلك المقتول.

المقصود من الآية قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ المطابقة للكتاب، والعبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت خالصة لله ﷻ، بدليل أن الكفار كانوا يعبدون الله ﷻ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، مشهور جدًا، ما كانوا يلبون به في أيام الحج يقولون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»(٤)، وهذا مما أدخله الشيطان عليهم في أول الأمر، وأول من فعل ذلك عمرو بن لحي

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٦٣).
(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص(٣٤٩).
(٣) تاريخ الرسل والملوك (٢/ ١٨٤).
(٤) رواه مسلم رقم (١١٨٥).

الخزاعي الذي غيَّر دين إبراهيم عليه السلام، فإنه كان يقود الحجيج إلىٰ المشاعر؛ لأنه هو رأسهم، فجاءه الشيطان متمثلًا بصورة إنسان كلما صار يلبي قال: «لبيك لا شريك لك»، قال له: «إلا شريكًا هو لك»، فأنكر ذلك فقال له: «تملكه وما ملك» عند ذلك استساغها، وتبعه العرب علىٰ ذلك؛ والمقصود أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ بأنواع من العبادات ولكنهم يجعلون بينهم وبين الله وسائط يدعونهم لتقربهم من الله زلفىٰ كما ذكر الله ذلك في القرآن: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، ومعنىٰ ذلك أنهم كانوا يتخذونها شفعاء لتشفع لهم، وإلا فهم يقرُّون بأن الله ﷻ المالك لكل شيء، وأنه المتفرد بالملك وحده، فهي -أي: العبادة- لا تكون إلا إذا كانت بامتثال الأمر العابد الذي جاء به الرسول ﷺ وإخلاص هذه العبادة للمعبود وحده، وهذا هو المراد هنا.

مما ينبغي أن نعرفه أن العبادة تنقسم إلى قسمين من ناحية اللغة:

القسم الأول : عبادة تكون قسرية قهرية لا يثاب عليها، وهذه التي تكون بمشيئته الكونية، وهو ﷻ كل ما في الكون خاضع له ذليل منقاد لحكمه ولقدره لا يتأبىٰ عليه شيء، فلهذا قال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ يعني: ذليلًا خاضعًا منقادًا لا يمتنع علىٰ أمره، وهذا يشمل البر والفاجر والمؤمن، والكافر.

القسم الثاني: هو المعتبر، وهو أن تكون صادرة من العبد باختياره وقدرته فهو يعبد ويذل؛ يعني: تصدر العبادة منه عن اختيار وليس عن قهر ، بل عن اختيار منه، فهذه التي أمر الله ﷻ بها، وهي المقصودة في هذه الآية، وهذه يكون معناها عبد بمعنىٰ: عابد متذلل خاضع بالأمر، والنهي.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالىٰ:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

الواو هنا واو القسم. واللام موطئة للقسم وقد للتحقيق.

لأن المخاطب إما مشغول بأمر من أمور الدنيا، وإما أنه غافل، فإذا جاء الكلام مؤكدًا بالقسم ونحوه، ففيه شيء من لفت النظر، والانتباه لهذا.

قوله: «﴿بَعَثْنَا﴾»: والبعث هو الإثارة، إثارة الشيء من مكمنه، يقال: بعثت البعير إذا أثرته من مبركه، وبعثت الصيد إذا أثرته من مكانه. وهنا البعث المقصود به الإرسال، يخبر ﷻ أنه أرسل في كل أمة من الناس رسولًا يأمرهم أن يعبدوا الله وحده، وأن يجتنبوا الطاغوت وهذا هو التوحيد.

فقوله: «﴿فِي كُلِّ﴾»: كل: هذه أداة عموم، تدل علىٰ أن كل أمة جاء فيها رسول داعيًا يقيم الحجة علىٰ الخلق، ويدعوهم إلىٰ عبادة ربهم، فالله ﷻ أرسل رسله تترا، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]؛ أي: تتابع، وقد تكون رسلًا متعددة في آن واحد، فلكل جماعة رسول.

قوله: «﴿أُمَّةٍ﴾»: المقصود بها الجماعة من الناس والجن؛ لأن الرسل أرسلوا إلىٰ بني آدم، وإلىٰ بني الجن فهم الذين كُلفوا كما في الآية الأولىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذا قسم من الله ﷻ بالواقع الذي وقع فيخبرنا بذلك.

ولفظ (الأمة) في كتاب الله ﷻ جاءت بعدة معاني:

أحدها: الجماعة من الناس، والأمة التي يبعث إليها الرسول لا تكون أمة لهذا الرسول إلا إذا كانت مستجيبة له، ويأتي يوم القيامة معه من أجابه فقط، أما الكفار فهم خرجوا عن دعوته.

المعنىٰ الثاني: بمعنىٰ الرجل القدوة الذي يُقتدىٰ به، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ يعني: أنه قدوة يقتدىٰ به في الخير.

المعنىٰ الثالث: بمعنىٰ: الوقت، الطائفة من الزمن؛ كقوله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨]؛ يعني: إلىٰ وقت محدود، وكقوله ﷻ في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]؛ يعني: بعد ذهاب وقت علىٰ قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

المعنىٰ الرابع: الملة، والنحلة؛ كقوله ﷻ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ يعني: علىٰ نحلة ينتحلونها ويتعبدون بها.

وقوله: «﴿رَّسُولًا﴾»: الرسول هو الذي يوحىٰ إليه، ويكلف بإبلاغ هذا الوحي والدعوة إليه، وقد يكون غير النبي، وقد يكون بمعناه؛ يعني: أن الرسول يطلق علىٰ النبي والنبي يطلق علىٰ الرسول، ولكن إذا اجتمعا فكل واحد يكون له معنىٰ، والصواب في هذا أن النبي الذي يبعث في أمة مسلمة، ويوحىٰ إليه في أمور خاصة.

أما الرسول فلا بد أن يكون أرسل إلىٰ قوم كافرين وكلف بإبلاغهم ودعوتهم، وأوضح مثال لهذا ما جاء في حالة نبينا ﷺ، فإنه أول ما نزل عليه قوله ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فبهذا الوحي الذي جاءه من الله صار نبيًا؛ لأن النبي مأخوذ من الإنباء وهو: الإخبار بالوحي، وليس فيه الأمر، فلم يأمره الله ﷻ، ولا كلفه في شيء، وإنما أوحي إليه، ثم فتر الوحي؛ واختلف فيه العلماء منهم من قال: إنها سنتين، ومنهم من قال: إنها أقل من ذلك، ثم لما نزل عليه قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾

[المدثر: ١، ٢] صار بذلك رسولًا؛ يعني: كلَّفه الله ﷻ بالنذارة والأمر، فكان أولًا نبيًا، ثم صار رسولًا.

والأنبياء في بني إسرائيل كثير كما هو معروف، والرسالة تتطلب أربعة أمور:

- **أولًا:** مُرسِلٌ، وهو الله ﷻ.
- **ثانيًا:** مُرسَلًا، وهو الرسول البشري أو الملكي.
- **ثالثًا:** مُرسَلٌ به وهو القرآن أو الأمر.
- **رابعًا:** مرسل إليهم، وهم الخلق، الجن، والإنس، ولا بد أن يكونوا قومًا كافرين.

قوله: «﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾»: هذا هو ثمرة الرسالة، بل هذا هو مقصودها؛ يعني: أن الرسول أرسل ليأمر قومه ليعبدوا الله.

والعبادة هي إخلاص العمل لله ﷻ، أن يكون العمل المأمور به خالصًا لله ﷻ، ولا يكون عبادة إلا إذا كان خالصًا لله، أما إذا كان فيه شرك؛ يعني: فيه عبادة لغير الله فلا يكون عبادة شرعية، وإن كان عبادة في اللغة، فيسمى في اللغة عبادة، ولكنه في الشرع ليس عبادة.

قوله: «﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾»: هذا من لازم العبادة؛ يعني: لا يمكن أن تكون العبادة صحيحة إلا باجتناب الطاغوت.

والاجتناب أبلغ من الترك؛ يعني: كونوا في جانب وهو في جانب بعيدين عنه، ابتعدوا عنه كل البعد؛ وهذا يدل على أنه لا تمكن عبادة الله، وإخلاص العمل له إلا إذا اجتنبت الطاغوت.

قوله: «﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾»: الطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو: التجاوز في الحد. وكل ما تجاوز حده فهو طاغوت؛ لأنه خرج عن الوضع الذي خُلق له، وأمر به

فطغىٰ، ولهذا يقول ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ يعني: زاد عن العادة والمعتاد، والحد الذي حد للخلق، العبودية لا يجوز أن يتجاوزوها ويتعدُّوها، فإذا جاوزوا العبودية، وطلبوا أن يكونوا شركاء للمعبود إما بالتشريع أو بالاتباع في غير طاعة الله ، بأن يكونوا متبوعين مطاعين في معاصي الله ﷻ، فإنهم يكونوا تجاوزوا الحد.

والطاغوت عرَّفه ابن القيم ؒ بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع[١]. فالذي يُعبد من دون الله يكون طاغوتًا، والذي يُطاع في معصية الله يكون طاغوتًا، والذي يُتبع بلا دليل يكون طاغوتًا، فهذه طواغيت العالم لا تخرج عن هذه الأمور الثلاثة.

وجاء عن الإمام مالك ؒ قوله: الطاغوت ما عُبد من دون الله[٢].

هذا وإن كان شاملًا يحتاج إلىٰ استثناء، فإذا كان المعبود من دون الله مثلًا رجلًا صالحًا فإنه لا يكون راضيًا بذلك، بل يكون ساخطًا، فلا يكون طاغوتًا وإنما الطاغوت الذي أمر بعبادته.

وأما التعيينات التي جاءت عن السلف، كما جاء عن عمر ؓ قال: الطاغوت الشيطان، وقال جابر: الطاغوت: هم الكهان، كل قبيلة فيها كاهن ينزل عليهم الشيطان. وبعضهم قال: الطاغوت حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف. فهذا للتمثيل، وإلا الطاغوت أعم من هذا؛ وعلىٰ كل حال طواغيت العالم كُثر، وكل ما صدَّ عن عبادة الله ﷻ، ووقف أمام الناس يمنعهم من عبادة الله فهو طاغوت من الطواغيت سواءً كان حسيًا أو معنويًا، والإنسان يجب أن يتأمل هذا الأمر؛ لأن هذا أمر مهم، وأمر عظيم جدًا؛ فقد يكون الإنسان واقعًا في شيء من ذلك، ثم إن هذا

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٤٠)٧.

فرض فرضه الله ﷻ على جميع عباده أن يمتثلوا ذلك؛ أن يعبدوه، وأن يجعلوا العبادة له، وأن يجتنبوا الطواغيت.

ومعنى الآية: أنه ﷻ يخبر أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولًا يقول لهم: اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت؛ وهذا هو معنى لا إله إلا الله، وهذه الآية لها نظائر في كتاب الله كثيرة، وهي أصل العبادة التي بُعثت بها الرسل ففيها إثبات حق الله ﷻ، وفيها أيضًا النبوة التي يتفضل الله بها ﷻ على عباده بأن يُرسل لهم رسولًا يُبين لهم الحق، وينهاهم عن الباطل، ويدلهم على ما فيه خلاصهم، ونجاتهم من عذاب الله ﷻ.

✍ **قال المؤلف** ؒ: **وقول الله تعالى**: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

قوله: «﴿وَقَضَىٰ﴾»: كلمة قضى جاءت لمعان عدة منها: فرغ من الشيء؛ كقوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت: ١٢]. ومنها: وصى. ومنها: قدَّر، وهذا كله جاء في القرآن، والمعنى يعرف بالسياق؛ يعني: أن السياق والقرينة هما اللذان يحددان المراد.

بعض المفسرين يقول: ﴿وَقَضَىٰ﴾ أمر، وهو كذلك. والقضاء فيه معنًى زائد، ففيه إلزام بهذا، فالمراد: ألزم، وأوجب. فالله ﷻ أمر أمرًا حتمًا لا يجوز مخالفته بحال من الأحوال.

«﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾»: هذا خطاب للرسول ﷺ وهو متجه لكل مخاطب.

قوله: «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾»؛ يعني: أنه أمر أمرًا شرعيًا أن لا تكون العبادة إلا له وليس الأمر كونيا، ولهذا خالف أكثر الناس هذا الأمر؛ لأنه أمر شرعي،

أما لو كان أمرًا قدريـًا فلا يمكن لأحد مخالفته، والواقع يدل علىٰ هذا.

قوله : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ عام في كل من تَأَتَّىٰ إليه الخطاب من المكلفين ألا يعبدوا إلا إياه، وهذا هو التوحيد؛ يعني: أن تجعلوا العبادة له وحده، فتقديم ما حقه التأخير يدل علىٰ الحصر في هذا، وكذلك إذا كان بالنفي والاستثناء ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، فإن هذا حصر يدل علىٰ الاختصاص، فهو الذي ﷻ يجب أن يخص بالعبادة وحده، كما أنه هو الذي تفرد بالخلق كذلك يجب وحده، فكيف يخفىٰ هذا علىٰ بعض الناس، فيتوجه إلىٰ الميت فيسأله يقول: اشفع لي، أو انصرني علىٰ فلان أو يقول: اكشف ضري، أو يقول مثلًا: أنا أريد ولدًا، أو أريد كذا وكذا، فهل هم لا يفهمون أن الطلب، والسؤال عبادة؟ نقول: نعم؛ لا يفهمونه؛ لأنه خفي عليهم شيئان:

أحدهما: خفيت عليهم العبادة معناها وشمولها.

الثاني: خفي عليهم معنىٰ الإله.

فبخفاء هذين الأمرين دخل الضرر علىٰ المسلمين، وهو تقصير منهم، وإلا فالأمر فيه وضوح، فالعبادة كما مر تعريفها لا يجوز أن تكون لمخلوق أصلًا، والسؤال، والدعاء من أشرف العبادة، فلا يجوز أن تكون لغير الله ﷻ؛ أما كونك تسأل مخلوقًا شيئًا يملكه، وهذا المخلوق عندك حاضر يستطيع إعطاءك إياه، فهذا فيه تفصيل كما هو معروف، لكن سؤال أمر غيبي، أو أمر لا يقدر عليه إلا الله، فهذا لا يجوز أن يقع لمخلوق شرعًا، ولا يجوز أن يقع لمخلوق أصلًا، فإن وقع فهو الشرك الأكبر.

وقوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: يدل علىٰ الإخلاص أيضًا؛ فالآية كل ألفاظها تدل علىٰ الإخلاص.

وقوله: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾»: إذا جاءت الواو العاطفة علىٰ أمر سابق فمعنىٰ

ذلك أن الأمر موجود، فكأنه قال: «وقضىٰ أيضًا أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا»، وهذا يدل علىٰ تأكد حق الوالدين علىٰ الولد، وأنه أمر حتم، ولهذا قرنه الله ﷻ بحقه تعظيمًا لذلك.

و﴿إِحْسَـٰنًا﴾: إحسانًا نصب علىٰ المصدرية، وفعله محذوف من معلوم من لفظه؛ يعني: «وأحسنوا بالوالدين إحسانًا»؛ يعني: كل الإحسان الذي تستطيعون، ولم يعين شيئًا معينًا ولهذا جاءت ﴿إِحْسَـٰنًا﴾ نكرة ليعم جميع الإحسان، فلا يكون إحسانًا خاصـًا، بل يشمل جميع معاني الإحسان، والإحسان معناه: المبالغة في تحسين العمل وتزيينه، بأن يكون غاية في ذلك وهذا حسب الاستطاعة.

ثم قال ﷻ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] كل هذه تأكيدات، ومبالغة في إكرام الوالدين والاعتناء بحقهما غاية الاعتناء، والتحذير من إهمال ذلك، مما يدل علىٰ أن الأمر مهم جدًا، ولهذا جاء في الحديث أنه: «**لا يدخل الجنة عاق**»[(١)]؛ - نسأل الله العافية -. وقرن الله ﷻ ذلك بحقه مبالغة في ذلك حتىٰ قال:

«﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾»؛ يعني: أي فعل أو كلمة يمكن أن يفهم منها التضجر، وعدم الارتياح، وإذا فعله العبد فإنه لم يقم بما أوجب الله ﷻ عليه، وهذا جاء تبعًا، ولكن هذه الأمور التي منها إكرام الوالدين، وبرهما، والإحسان إليهما وغير ذلك من إكرام الضيف، وإكرام الجار، كلها أوامر من الله بها يكمل التوحيد، ويتم بها ، وإذا خالفها العبد نقص توحيده وصار ناقصًا يستوجب العذاب -نسأل الله العافية-.

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٦٨٨٢)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٤٩١٤)، وابن حبان رقم (٣٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو ولفظه: «**لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر**»، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (١٩٨٢٣) من رواية أبي سعيد الخدري.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦].

هذا من الأمر بالعبادة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وأمره جل وعلا يجب أن يمتثل.

قوله: «﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾»: العبادة كما سبق إنها تكون بامتثال أمر الله جل وعلا واجتناب نهيه، علىٰ وجه ترغب في ثوابه، وترهب من عقابه؛ ممتثلًا لأمره مؤمنًا به، ولا تشرك به شيئًا.

وقوله: «﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾»: هذا تأكيد لقوله جل وعلا: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾؛ لأن العبادة إذا وقع فيها الشرك فليست عبادة شرعية، فلا تكون العبادة عبادة صحيحة إلا بترك الشرك، ولكن قد يتوهم أن من عبد الله جل وعلا، وإن كان معه شيء من الشرك، أن هذا يُجدي، وينفع، فبيَّن جل وعلا أن هذا لا يكون نافعًا.

فعبادة الله جل وعلا مع الشرك باطلة، ومردودة، وإلا فالخلق؛ أي: الكفار الذين بُعثت فيهم الرسل، كلهم يعبدون الله، ولكنهم يعبدون معه غيره فصاروا مشركين.

وقوله: «﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾»: نكرة تدل علىٰ نفي الشرك كله، دقيقه وجليله وظاهره وخفيه؛ لأن الشرك أنواع كما سبق، فكل نوع من أنواع التوحيد يدخله الشرك علىٰ قسمين كما هو معلوم، ولكن الشرك في العبادة هو أكثرها وقوعًا في الناس ولهذا ركز عليه، ولا يزال الشرك بكثرة في بني آدم، ويستمر إلىٰ أن ينتهي الخلق، وقد ثبت: أن شرار الخلق من تقوم عليهم الساعة الذين يعبدون غير الله ويتهارجون تهارج الحُمُر[(١)].

وهذه الآية في سورة النساء تسمَّىٰ آية الحقوق العشرة؛ لأن فيها الأمر بعشرة أشياء وبدأها بالأمر بعبادته: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، مما يدل علىٰ أن

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان.

العبد إذا لم يعبد الله فإن كل أعماله باطلة، ولا قيمة لها، سواءً أحسن بوالديه، أو لم يحسن بهما، أو أحسن بالناس أو لم يحسن بهم، فلا بد للعبد من إخلاص العمل حتىٰ يكون عابدًا لله ﷻ، فإن لم يكن كذلك فهو كافر، أو مشرك.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

هذه الآية في آخر سورة الأنعام في ذكر ما كان المشركون يحرِّمونه علىٰ أنفسهم بلا دليل، وإنما هو تحكُّم منهم وتزيين للباطل الذي زينته لهم شياطينهم، ووجدوا عليه آباءهَم فحرَّموا أشياء، وأباحوا أشياء بآرائهم، وأهوائهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام(١). ولهذا أخبر الله ﷻ أن الأنعام ثمانية أصناف، وأنها كلها ذكورها وإناثها ما اشتملت عليه أرحام الأمهات؛ يعني: أنها كلها سواء، فكيف يحرمون الذكر أو الأنثىٰ، ويحلون الثاني، مجرد آراء زينتها لهم شياطينهم من الجن والإنس، وكذلك إذا كان ميتًا في بطن أمه حكمهم فيه بالتحكم، وكذلك إذا كان الأنثىٰ جاءت بعدة بطون متواصلة كلها إناث حرَّموها، وحرَّموا ركوبها، فكلها آراء باطلة ليس عليها من برهان، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ﴾ الآيات

قوله: «﴿قُلۡ﴾»: هذا أمر لرسول الله ﷺ موجهًا له، ومع ذلك قال لنا: ﴿قُلۡ﴾، ومعنىٰ هذا: أنه ﷺ بلغنا كل ما سمع من جبريل عليه السلام، وسُئل عن هذا ﷺ فقال: «**قيل لي فقلت**»(٢). ولهذا استدل العلماء بهذا علىٰ أن كل ما في المصحف هو كلام

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٣٥).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٩٧٦).

الله، ومن جحد حرفًا واحدًا منه فهو كافر.

قوله: «﴿تَعَالَوْا﴾»: أي: هلموا وأقبلوا.

وقوله: «﴿أَتْلُ﴾»: أقرأُ عليكم، وأقص، وأذكر، وأخبركم بما حَرم ربكم عليكم حقًا، لا تخرصًا، ولا ظنًا، بل وحي منه، وأمر من عنده، وليس بالأوضاع التي وجدتم عليها آباءكم فإن هذه لا تغني من الحق شيئًا.

ثم بدأ بأعظم المحرمات فقال:

«﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾»: هذه «ألا» معها «أن» أدغمت فيها، وتقدير الكلام حرَّم عليكم أن تشركوا به شيئًا؛ يعني: أنه حرم عليكم الشرك، وبدأ بالشرك من المحرمات؛ لأنه أعظمها، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»[1]، ولهذا حرم الله الجنة على من يموت وهو مشرك، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهو لا يغفر أن يشرك به كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، فحرَّم الله ﷻ أن يقع العبد في شيء من الشرك سواء كبيرًا، أو صغيرًا.

قوله: «﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾»: كلمة شرك يفهم منها أنهم كانوا يعبدون الله ولكن هذه العبادة ليست خالصة؛ أي: أنهم يجعلون من العبادة شيئًا لغير الله وهذا هو الشرك، أما الذي لا يعبد أصلًا فلا يقال: أنه أشرك، بل يقال: هذا أعرض ولم يعبد أصلًا، ومعروف أنهم كانوا يتعبدون بأنواع العبادات مثل الصوم، والحج، والصدقات والإحسان إلى الغير، والدعاء، وغير ذلك وكذلك الذبح، والنذر يتقربون إلى الله

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٤٧٧)، ومسلم رقم (٨٦).

بأنهم يذبحون القربان عند البيت تعظيمًا لله ﷻ، ولكنهم يشركون في هذه العبادات مع الله غيره، وهذا الشرك أخبث الأعمال وأنجسها، لأن المشرك ألحق المخلوق الضعيف الذي هو نظيره، أو هو أقل منه درجة بالكامل العظيم من جميع الوجوه، فالعبادة لا تصلح إلا لله ﷻ فالشرك أعظم الجرائم وأعظم الذنوب.

وقوله: «﴿شَيْـًٔا﴾»: نكرة تعم أنواع الشرك، سواء الشرك الذي عرفنا أقسامه بالحصر، والتقسيم والسبر بالنظر ما لله من حقوق، وما له من أوصاف، وما له من أفعال، فالشرك يدخل فيها كلها سواءً شرك التعطيل، أو شرك العبادة، أو شرك التشبيه، أو شرك الاشتقاق من كونهم يشتقون من أسمائه ﷻ للمخلوقات شيئًا مثل كونهم يسمون اللات، أو العزىٰ، أو ما أشبه ذلك، أو يسمونها الإله، وهذا مشهور جدًا يسمون الصنم إله والمعبود إله؛ لأن الإله هو الذي يألهه القلب.

فكلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ تعم الشرك الأكبر، والأصغر بأنواعه؛ والشرك الأكبر الذي هو صرف شيء من عبادة الله لغيره من مات عليه، فهو في النار قطعًا.

وأما الشرك الأصغر الذي هو مثل يسير الرياء، أعظم من الكبائر؛ لأن صاحب الكبيرة إذا مات علىٰ كبيرته، فهو تحت المشيئة، أما الشرك فلا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية [النساء: ٤٨]؛ والشرك الأصغر لا يُخرج من الدين الإسلامي، فإن دخل النار، وعوقب فيها فإنه يخرج منها.

والشرك الأصغر: كيسير الرياء، ومصانعة الناس، ومثل أن يعمل عملًا صالحًا يبتغي به غرضًا من الأغراض، ويتبع هذا الشرك في الألفاظ مثل: الحلف بغير الله، وقول: لولا الله وفلان، وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب ما يقوم بقلب القائل، والآية تعم الشرك الكبير، والصغير، والعملي، واللفظي، وفي هذا دليل ظاهر في الرد علىٰ المرجئة الذين يجعلون الإيمان بالقلب، أما الأعمال فهي لا تضر؛ لأنه إذا وجد عندهم الإيمان فإنه لا تضر معه معصية.

ومعلوم عند أهل السُّنَّة أن الإيمان مركب من أجزاء ثلاثة: من النية، والعلم، ومن القول والعمل، فلا بد أن تجتمع هذه الثلاثة كلها حتىٰ يكون العبد مؤمنًا؛ وهذه الآيات كلها تدل علىٰ قول أهل السُّنَّة، أنه لا بد من العمل، ومعلوم أن الله أرسل رسله معهم كلامه الذي هو أمره ونهيه ليمتثلوا الأمر، ويجتنبوا النهي، وهذا هو الإسلام؛ لأن الإسلام هو الانقياد لله بالطاعة والاستسلام له، وعدم الاعتراض.

والعبد يجب أن يهتم غاية الاهتمام بمعرفة أنواع الشرك، وأقسامه وقليله وكثيره حتىٰ لا يقع في شيء منه وهو لا يدري، ولا يعذر في كونه يشرك بالله؛ لأن الشرك بيَّنه الله بيانًا واضحًا، فلا يقول ما عرفت معناه فهذا تفريط منه فهو واضح في كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ وذلك بأن يكون الذل والخضوع لله وحده، والرسول ﷺ بيَّن أن الإنسان إذا عمل من أجل شيء أنه يكون مشركًا، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري[1]: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة...**» الحديث، فهو سماه عبدًا للدينار، والدرهم، والخميصة والخميلة، ففي آخر الحديث تفسيرًا لذلك: «**إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط**»؛ يعني: أنه يعمل من أجل حصوله علىٰ الدنيا فسماه عبدًا لذلك؛ والعبادة تختلف، والأوضاع تتجدد والأصنام تتغير، ففي زمن الرسول ﷺ فيه أصنام مجسدة، من حجر، وشجر ومن بشر، وغير ذلك، وفي الوقت الحاضر تغير الوضع صار هناك أصنام معنوية مثل: كون الإنسان يتعلق بهذه اللعبة قلبه ويترك فروض الله جل وعلا، ولا يبالي بها، هذه عبادة، والمال كذلك يتعبد القلوب فيكون همه الحصول علىٰ المال، ولا يبالي في أمر الله جل وعلا، وكذلك الطاعة والاتباع، وغير ذلك، وإذا فهمت العبادة فهم هذا كله.

قوله: «﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾»: ثم ذكر مثل ما في الآية الأولىٰ، الإحسان بالوالدين مقرونًا بوجوب عبادته تعالىٰ وحده.

---

(١) رقم (٢٨٨٧).

وقوله: «﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾»: كان العرب منهم طوائف يقتلون أبناءهم، ويئِدون البنات، والموؤودة هي الطفلة التي تدفن وهي حية، وأول من فعل ذلك بنو تميم، وذلك أنه صار بينهم وبين قبيلة من قبائل العرب قتال فغلبتهم هذه القبيلة وسبت بعض بناتهم، بعد ذلك قالوا هذا عار كون البنت تسبىٰ، تُؤخذ من أهلها فصاروا يقتلونهنَّ، ثم وجد من يخاف الفقر من كثرة الأولاد ويقتلونهن والبنت لا تُغير، ولا تدافع بخلاف الولد فإنه يُغير، ويقاتل وصاروا يدفنون البنات، ومنهم من يفعل ذلك حتىٰ في الذكور خوفًا من الفقر، ولهذا قال ﷻ: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ يعني: خوف الفقر، فإن رزقهم علىٰ الله فهو يرزقهم ويرزقكم، وهذا جاء في آيتين، مرة قدم ﷻ رزقهم عليهم ومرة قدم رزق الأولاد علىٰ أنفسهم، مما يدل علىٰ أنهم لا تصرف لهم بذلك فهم رزقهم تكفل به الله، وهذا يكون نهيًا خاصًا عن هذه الحالة الخبيثة، ولهذا جاء في الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»**، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: **«أن تزاني بحليلة جارك»**[(١)]؛ يعني: زوجة جارك، فذكر من كل نوع أعظمه، مع أن القتل جاء تحريمه مطلقًا، فدل هذا أنه أفحش الذنب وأعظمه، وذلك أن الولد محل الرحمة، والإحسان، والرعاية، فإذا قتل انعكست القضية.

فإذا انضم إلىٰ هذا كونه يخاف الفقر، انضم إليه ذنب ثالث، وهو اعتقاد أن الرزق عنده هو، هو الذي يأتي به، وهو الذي يمكن أن يُكثِّره أو يُقلِّله، يُكثره بقلة الأولاد ويُقلله بكثرة الأولاد، جاء في أول كتاب الدارمي رحمه الله بسنده: أن رجلًا أتىٰ النبي ﷺ فقال: **«يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية، وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت** -يعني: صارت تعرف إذا دعيت أجابت، وإذا

(١) سبق تخريجه (ص٤١).

نهيت انتهت- وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها فدعوتها يومًا فاتبعتني فمررت حتىٰ أتيت بئرًا من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه يا أبتاه، فبكىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ كف دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ، فقال له: كف فإنه يسأل عما أهمه، ثم قال له: أعد علي حديثك فأعاده، فبكىٰ حتىٰ كف الدمع من عينيه علىٰ لحيته، ثم قال له: **إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا فاستأنف عملك**»(١).

فهذه شنيعة فكيف نزعت الرحمة، ونزعت الرأفة من قلب الأب حتىٰ أصبح بهذه المثابة وهذا من أمور الجاهلية، وأمور الجاهلية من أخبث الأشياء وأقبحها، ولكن يقارنونها بمحاسن الإسلام، وأوامر القرآن التي جاءت مطابقة للفطرة، والعقل وكذلك هي إحسان، فإذا قُرنت بها أمور الجاهلية الخبيثة مثل هذه تبيَّن حُسن الإسلام بيانًا واضحًا، وهذا محفوظ عنهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، وهذه من الأمور العظيمة في السورة التي قال عنها رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عباس: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، قال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، و**﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، **و**﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]»(٢).

والله ﷻ قال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]؛ يعني: هي تسأل، فكيف الذي وأدها، فإذا كانت هي تسأل بأي ذنب قتلت، وهي ما ليس لها ذنب، ذنبها أنها مولودة أنثىٰ، وهذا أمر الله ﷻ.

وبعض العلماء يلحق بهذا، الامتناع من إنجاب الأولاد خوفًا من العجز عن تربيتهم وعن كونه يوفر لهم ما يحتاجونه، من كل شيء، فيمتنع من كونهم يكثرون،

---

(١) رواه الدارمي رقم (٢).

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٢٩٧) وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم في المستدرك رقم (٣٣١٤) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ولكن هذا لا يدخل فيه؛ لأن هذا من الأسباب، والأسباب قد يفعلها الإنسان لأمر يكون جائزًا كمرض زوجة وما أشبه ذلك، وأما إذا كان الحامل عليها الخوف من الفقر فلا يجوز بحال من الأحوال وهي دعاية يهودية ونصرانية جاءت لقصد إقلال المسلمين، وعدم تكثيرهم؛ لأنهم يخافون من كثرتهم، ولهذا يُضيفون إلىٰ هذا مبررات مثل: ما يزعمونه من أن الأرض سوف تمتلئ بالسكان، وتقل الموارد وتحصل المجاعات، وكل هذا كلام باطل.

ثم ذكر بعد هذا تحريم المحرمات فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: «﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾»؛ يعني: ابتعدوا عنها، فإن الذي يقرب من الشيء قد يقع فيه فكونوا بعيدين عن هذا، حتىٰ لا تقعوا فيه؛ وبهذا يُستدل علىٰ أن العبد يجب عليه أن يحمي نفسه ودينه بالابتعاد عن مواطن الخوف، ومن ذلك قرناء السوء، ودعاة الخناء.

قوله: «﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾»: هذه تعم الذنوب التي هي فاحشة، والفاحشة هي: ما فحش في نفوس أهل الاستقامة والنظر. وفحش؛ يعني: كبر. وقد ذكر الله هذا كثيرًا في القرآن؛ يعني: الفواحش، ولهذا فسرت بأنها الذنوب الكبيرة.

وقوله: «﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾»: فهذه حالتان تستوفيان كل الذنوب، حالة الظهور، وحالة البطون -ما ظهر وما بطن- من العلماء من يقول: ما ظهر: ما كان بينك وبين الناس قد علموه، وما بطن: الشيء الذي تستره، يكون بينك وبين ربك. ومنهم من قال: الظهور ما كان بفعل الجوارح، باللسان واليد ونحوهما.

والباطن: ما كان في القلب؛ من النيات، والمقاصد، والغل، والحسد، وغير ذلك وأعمال القلوب أعظم من أعمال الجوارح. والصحيح أنها تعم هذا وهذا، فهي تعم كل فاحشة.

ثم قال: «﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾»: تقييدها بحق؛ يعني: أن الذي يجب عليه القتل شرعًا لا يدخل فيه هذا، وهذا معلوم كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة**»(١)، فهذه الأمور الثلاثة إذا قتل فيها فهو مقتول بحق. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**»(٢)، مع أن قتل الكافر ليس من الكبائر بل هو من الصغائر إذا لم يكن معاهدًا، أما إذا كان محاربًا فإنه من الفضائل، بل فيه الأجور الكبيرة، والله أمر به، فالمعاهد هو الذي يعطيه المسلمون عهدًا بالأمان.

ثم قال: «﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾»: والوصية: هي إعلام الغير بأمر مهم، مع العظة، والتخويف، وهي أمر مؤكد على من يُلزم به. فالله جل وعلا أكد علينا هذه المذكورات.

وقوله: «﴿لَعَلَّكُمْ﴾»: «لعل» هذه للتعليل. قال القرطبي رحمه الله: هذا بالنسبة لنا، وليس بالنسبة لله جل وعلا، ومعنى ذلك أن الله يعلم كل شيء، يعلم ما سيصير، فلا يليق به جل وعلا أن يُضاف إليه هذا التعليل، هذا مقصود القرطبي رحمه الله (٣)، التعليل ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ هذا علة الأمر، حتى نعقله وإذا عقلنا تذكرنا وإذا تذكرنا اتقينا، ولهذا جاء آخر الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والتي بعدها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، التعليل بالنسبة لهذه الأوامر أننا إذا عقلنا وعرفناها

(١) رواه البخاري رقم (٦٨٧٨)، ومسلم رقم (١٦٧٦).

(٢) رواه البخاري رقم (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٢٢٧) قال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعلّ» على بابها من الترجي والتوقع، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر، فكأنه قيل لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا. هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان.

كما ينبغي وامتثلنا، أنه يحصل لنا ذلك ولا بد، خلاف المعرض، أو الذي لا يهتم بها لا يحصل له شيء من ذلك.

✍ ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قوله: «﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾»: هذا من أبلغ النهي؛ لأن النهي عن القربان يدل على أن يبتعد كل البعد عنه.

قوله: «﴿الْيَتِيمِ﴾»: اليتيم: هو الذي فقد والده في الصغر، وهو معدود من الضعفاء فقد لا يستطيع حماية حقه، ولهذا خُصَّ بذلك، ويدخل في هذا أيضًا من كان في معناه مثل المرأة، والأجير الذي لا يستطيع الانتصار لنفسه، فقد جاءت النصوص تحذر من هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقوله: «﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾»: استثنى هذا فقط، والتي هي أحسن: القيام عليه بمصالحه من التنمية، والتجارة به حتى لا يذهب، وهذا بالنسبة لمن تولاه. أما الذي ليس عليه ولاية فالنهي عام مطلق بالنسبة إليه؛ يعني: لا يقربه مطلقًا.

يقول العلماء: إذا كان الوصي على اليتيم له مال، فالأولى أن لا يأكل شيئًا من الربح، وإن لم يكن له مال، ولا يستطيع القيام عليه وتنميته والتجارة به إلا بترك مصالحه جاز أن يأكل من الربح الشيء الذي يناسب ذلك؛ لأن ذلك من مصلحته؛ لأنه لو تركه مثلًا يمكن ينتهي، تأكله الزكاة، والصدقة، وغير ذلك.

وقوله: «﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾»: يعني: اجعلوها وافية، وهذا قول بعض العلماء يقول: إن المقصود به المكيال نفسه لا يجوز تغييره، ولا يجوز إنقاصه، وكذلك قوله : "الميزان" الموازين نفسها يجب أن تبقىٰ كما هي.

ومنهم من يقول: إن الكيل والميزان هو الذي يوضع في المكيال والميزان يجب أن يوفىٰ، والآية تشمل هذا وهذا.

وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل.

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: المعنىٰ أنكم إذا امتثلتم الأمر، ثم وقعتم في خطأ غير مقصود لا تستطيعون التخلص منه فإن هذا معفو عنه.

وقوله: «﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾»: هذا نهي عن الظلم مطلقًا، وأمر بالعدل بالقول بعد العدل بالفعل، فأمر ﷻ بأن يعدل الإنسان بالقول سواء علىٰ القريب والولي، أو علىٰ البعيد، والعدو، فالقول يجب أن يكون بحق، وعدل مطلقًا، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ يعني: الذي تقولون فيه هذا، وإن كان قريبًا منكم يجب أن تقولوا الحق، ومثل ذلك إذا كان بعيدًا، فيجب علىٰ العبد أن يكون متقيًا لربه ﷻ. يقول العلماء: إن العدل إذا كان يُفعل خوفًا من الله، فعلامة ذلك أنه لا يتغير بالنسبة لمن فُعل معه، محبوبًا قريبًا، أو مبغضًا بعيدًا يكون سواء، ولا يتغير بكون هذا الذي قيل فيه صديقًا لك، أو غير صديق.

ثم أمر بالوفاء بالعهد، فقال ﷻ: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾، والوفاء بالعهد مطلقًا، وهذا هو الظاهر من السياق أن العهد: كل ما عُهد إليك بفعله من أوامر الله، ومن أمور الخلق، وإن كان الشارح رحمه الله خص هذا بالمواثيق التي تُبرم بين الناس.

ثم بعد ذلك أوصىٰ وصية عامة، فقال ﷻ:

✍ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يعني: أن هذه الأوامر التي تقدمت في السورة، والنواهي التي نهىٰ عنها هي صراط الله، وصراطه هو شرعه الذي جاء به رسوله ﷺ، ولهذا قال: «﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾»؛ يعني: امتثلوا الأوامر، واجتنبوا النواهي.

والصراط المقصود به: الطريق الذي يُسلك، سمَّاه صراطًا؛ لأنه يكون واسعًا لمن سلكه ومستقيمًا واضحًا سهلًا، وهذا هو صفة الإسلام، ومنهم من قال الصراط؛ يعني: الكتاب. ومنهم من قال: النبي. ومنهم من قال: الإسلام. وكله حق، فكلها تدل علىٰ شيء واحد.

وقوله: «﴿مُسْتَقِيمًا﴾»؛ يعني: أنه سهل، واضح، وسلوكه ليس فيه ما يعثر من الشوك، والأمور التي قد تكون مؤثرة علىٰ السالك.

وهذا الصراط معنوي: وهو امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه. والصراط في كتاب الله صراطان:

معنوي: وهو دينه، وشرعه الذي جاء به الرسول ﷺ.

وحسّي: وهو الصراط الذي ينصب علىٰ متن جهنم للعبور عليه إلىٰ الجنة. ومعلوم أن الجنة. في السماء كما قال ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، والنار تكون في الأرض، ولكن ليس هناك عبور إلا من فوق النار، فينصب الصراط فمن كان مستقيمًا علىٰ هذا الصراط المعنوي، استقام علىٰ ذاك الصراط «الحسَّي»، ومن تعثر علىٰ هذا تعثر علىٰ ذاك ولم يستطع السلوك، والسلوك علىٰ الصراط الذي ينصب علىٰ النار يكون بالأعمال وهذا أمر واضح.

وقوله: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾»: السبل: هي طرق الفساد، من البدع، والمعاصي، والمخالفات.

وقوله: «﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾»: يعني: أنها تأخذكم المآخذ التي ترديكم.

وقوله: «﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»؛ يعني ذلك المتقدم وصاكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ يعني: إذا فعلتم هذا جعلتم بينكم وبين المخوف واقيًا يقيكم.

قال المؤلف رحمه الله: قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣][(١)].

ابن مسعود رضي الله عنه هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب أبو عبد الرحمن صحابي كريم من السابقين الأولين، حضر مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد التي شهدها، وأرسله عمر رضي الله عنه معلمًا وقاضيًا إلىٰ الكوفة، توفي عام (٣٢) هجرية.

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه، وكذلك رواه ابن المنذر، والطبراني، وابن أبي حاتم وغيرهم.

ومعناه: من أراد أن ينظر إلىٰ وصيته التي كأن الرسول ﷺ كتبها وختمها فلم يزد فيها ولم ينقص منها، ولم تتغير، فليقرأ هذه الآيات؛ يعني: أن هذه الآيات هي مضمون ما أرسل الله جل وعلا به رسوله ﷺ، فهي آيات محكمات وفيها الأمر بعبادة الله جل وعلا والنهي عن الشرك، وكذلك القيام بحقوق الله، والقيام بحقوق خلقه، وأن هذا صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده يوصل إلىٰ الجنة، وليس لأحد طريق، أو مسلك يسلكه في النجاة إلا هذا الصراط، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

والرسول ﷺ لم يوص، وإنما أوصىٰ بكتاب الله كما جاء في صحيح مسلم عن

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٠٧٠) ولفظه: «**من سرَّه أن ينظر إلىٰ الصحيفة ...**»، والطبراني في الكبير رقم (١٠٠٦٠)، ابن أبي حاتم رقم (٨٠٨٣).

زيد رضي الله عنه قال: «**قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا بماء يدعىٰ غدير خم بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنىٰ عليه ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدىٰ والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ علىٰ كتاب الله ورغب فيه**»، وفي رواية: «**كتاب الله عز وجل هو حبل الله، من اتبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ ضلالة**»(١)، فحض علىٰ كتاب الله جل وعلا، والتمسك به، وكذلك سُنَّته ﷺ(٢). أما دعوىٰ الطائفة المخذولة الرافضة أنه أوصىٰ لعلي بن أبي طالب بأنه يكون خليفته، فهذا لا يستند إلىٰ أثاره من علم، فهو من الكذب والتزوير والدجل، ودينهم كله مبني علىٰ الكذب وهم يعلمون هذا، ولكنهم زنادقة؛ يعني: علماؤهم، وإنما يعتمدون الكذب للتلبيس علىٰ العوام.

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي في الصحيحين قوله ﷺ في مرضه: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا**»(٣)، فهذا جاء مبينًا أنه أراد أن يكتب لأبي بكر رضي الله عنه بأن يكون هو الخليفة، ثم عدل عن ذلك، وكان قال لعائشة رضي الله عنها: «**ادع لي أباك، وأخاك حتىٰ أكتب له كتابًا لئلا يتمنىٰ متمن أو يقول قائل**»، ثم عدل عن ذلك وقال: «**يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»(٤)، ودل الصحابة علىٰ ذلك بأمره أن يتولىٰ الصلاة بهم في مرضه ﷺ وقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، ولما روجع في ذلك غضب وقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»(٥)، وغير ذلك من الأمور التي

(١) رواه مسلم رقم (٢٤٠٨).

(٢) سنن البيهقي الكبرىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: «**يا أيها الناس أني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسُنَّة نبيه**» ومالك في الموطأ رقم (٣٣٣٨)، والحاكم في المستدرك رقم (٣١٩).

(٣) البخاري رقم (٣٠٣٥)، ومسلم رقم (١٦٣٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) مسلم رقم (٢٣٨٧).

(٥) البخاري رقم (٧١٣)، ومسلم رقم (٤١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

فيها إشارات، وإن كان بعض أهل السُّنَّة يقول: إن أمر أبي بكر بالنص وليس بالإشارة، ولكن الصحيح أن الأمور التي أشار إليها واضحة، وقد فهمها الصحابة، ولهذا عدل عن الكتاب صلوات الله وسلامه عليه، ولو أراد الكتاب لم يمنعه أحد ولكنه علم أن الصحابة سيتفقون علىٰ أبي بكر، ورأىٰ أن اتفاقهم عليه أبلغ في التمسك بذلك. فالمقصود أن الرسول ﷺ أوصىٰ بمضمون هذه الآيات العظيمة.

قال المؤلف رحمه الله: وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ علىٰ حمار فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله علىٰ العباد، وما حق العباد علىٰ الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله علىٰ العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد علىٰ الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»، قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»، أخرجاه في الصحيحين (١).

معاذ رضي الله عنه: هو معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي من كبار علماء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهو معروف بعبادته، وكذلك بعلمه حتىٰ جاء فيه قول النبي ﷺ: **«معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة»**(٢)، فسِّرت الرتوة بأنها رمية سهم، أو بأنها مد البصر، أو بأنها مرتفع أمام العلماء، وهذه الثلاثة المعاني التي ذكرها صاحب النهاية ابن الأثير، وقال في فتح المجيد: وهذه الثلاث أشبه بمعنىٰ الحديث(٣).

قوله: «كنت رديف النبي ﷺ»: الرديف: هو الذي يركب علىٰ دابة خلف الراكب.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٨٥٦)، ومسلم رقم (٣٠).

(٢) أخرجه موصولًا ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٤٨)، (٣/ ٥٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٨) من حديث عمر.

(٣) فتح المجيد (ص٥٦).

قوله: «**علىٰ حمار**»: فمعاذ ﷺ كان رديف النبي ﷺ علىٰ الحمار، وهذا الحمار كان أهداه المقوقس للنبي ﷺ، وجاء أن اسمه «عُفير» مع بغلة، وجارية اسمها مارية التي جاءت بولده ﷺ إبراهيم ﷺ وهذا كان لما أرسل إليه الرسول ﷺ بكتابه يدعوه إلىٰ الإسلام، وقد عرف أنه رسول الله حقا، ولكنه ضن بملكه كعادة الملوك، فإن الملك يمنعه من اتباع الحق غالبًا.

وفيه: أن الرسول ﷺ صفته ليست صفة الملوك، فما كان يتكبر عن ركوب الحمار بل يركبه، ويردف عليه مما يدل علىٰ تواضعه.

وفيه: أنه يجوز أن يحمل علىٰ الحمار، أو غيره أكثر من واحد إذا كان مطيقًا لذلك.

وفيه: فضيلة معاذ ﷺ حيث جاء أنه رديفًا له، وجاء الإرداف لعدد من الصحابة، فأردف أسامة(١)، وأردف ابن عباس كما جاء في الترمذي أنه كان راكبًا خلفه، فأوصاه بوصيته المشهورة(٢).

قوله: «**فقال لي: «يا معاذ»**»: استدلوا بهذا علىٰ أن العلم يجوز أن يخصَّص به شخص دون آخر لمصلحة أو أمر عام، ولكن هذا لا يدل علىٰ التخصيص، وفي آخر الحديث ما يدل علىٰ هذا ففيه نوع تخصيص، وليس تخصيصًا عامًا وهو قوله: «**أفلا أبشر الناس**»، قال: «**لا تبشرهم**»، ولكنّ معاذًا فهم أن هذا ليس خاصًا به، وأن النهي ليس مطلقًا؛ يعني: بالنسبة لكل من يخبر بذلك، وإنما يدل هذا علىٰ أن الناس يختلفون في تقبل العلم، فمنهم من يفهمه علىٰ وجهه ومنهم من لا يفهمه، فالذي يخشىٰ أن لا يفهمه علىٰ وجهه لا يلقىٰ إليه إلا بعد المقدمات، وبعد الفهم، ولهذا السبب أخبر به معاذ عند موته، ولو كان خاصًا به لم يخبر به.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٢٨٠).

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٥١٦).

وقال الراوي: «فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا»(١)؛ يعني: خوفًا من الوقوع في الإثم؛ من كتمان العلم.

وعلىٰ هذا قوله: «يا معاذ»، هذا كخطابه ﷺ لسائر الأمة، فإنه ﷺ إذا خاطب رجلًا، أو امرأة فهو خطاب للأمة كلها، وهذا أصل يذكره أهل الأصول، فكلام الرسول ﷺ للرجل، ككلامه للأمة كلها؛ لأنه ﷺ رسول للأمة يخاطبها بما أمره الله ﷻ.

قوله: «أتدري»: استفهام من الدراية وهي العلم والمعرفة. وأسلوب الاستفهام جاء كثيرًا في كلامه ﷺ وهذا من أبلغ التعليم، وأحسنه؛ لأن الإنسان إذا سئل عن الشيء الذي لا يعلمه ثم أُخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك أدعىٰ لفهمه وحفظه، فإن نفسه تتشوق للجواب، فيكون أحرص علىٰ تلقفه وتثبيته في نفسه أكثر مما إذا ألقي إليه بدون سؤال، وأصحاب كتب التربية يسمون هذا حوارًا ويزعمون أن هذا شيء مبتكر، وهذا لجهلهم بأحاديث الرسول ﷺ وطريقته، وهذا بخلاف طريقة الإلقاء ويقولون: إنها ليست جيدة كونك تلقي فقط، لا بد أن يكون السامع مشاركًا معك فإذا شارك يكون أبلغ للقبول، وأقرب للفهم.

قوله: «ما حق الله علىٰ العباد؟»: كلمة حق تدل علىٰ الثبوت، واللزوم؛ يعني: الشيء الذي ثبت، ولزم، ولا محيد لهم عنه، بحيث إنهم لا ينفكون عن فعله، فإذا تركوه عذبوا.

وهو مأخوذ من الثبوت، والاستقرار. يقال في اللغة: حق في المكان إذا ثبت واستقر فيه، ويقال للكلام الصدق حق؛ لأن وقوعه متحقق، فالحق مأخوذ من هذا؛ لأنه ذو ثبوت، واستقرار وعدم تزعزع، بخلاف الباطل فإن من صفات الباطل الزهوق والذهاب، والتزعزع، ولهذا يقول ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا

(١) رواه البخاري رقم (١٢٩)، ومسلم رقم (٣٢).

هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقوله ﷻ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، فالباطل صفته أنه يكون له صولة أول الأمر، ولكنه سريعًا ما يزهق ويتمزق أمام الحق؛ لأنه لا ثبات له، ولا استقرار، أما الحق فهو ثابت مستقر.

وحق الله ﷻ علىٰ عباده جاء تفسيره في الحديث تفسيرًا واضحًا بقوله:

«**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»، وهذا كلام جامع، فحقه تعالىٰ علىٰ عباده أن يعبدوه مخلصين له الدين، يخلصون له العبادة ممتثلين ما أمرهم به، وأوجبه عليهم وأعظم حقه ﷻ هو التوحيد، وكذلك من أعظم حقه اجتناب الشرك، وكل ما نهاهم عنه وحرمه عليهم، فهو من حقه ألا يفعلوه.

والمراد بالعبادة فعل الطاعات، واجتناب المعاصي. والعبادة في اللغة: هي الذل، والخضوع، قال الأزهري: معنىٰ العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع. ويقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كان مذلَّلًا بكثرة الوطء[١]. وقال الجوهري: أصل العُبودِيَّةِ الخضوعُ والذلُّ. والتعبيدُ: التذليلُ يقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ[٢]، وقال: والعِبادة: الطاعةُ. والتَعبُّدُ: التنَسُّكُ[٣].

أما العبادة في الشرع، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة.

وقيل هي: كمال الحب مع كمال الخضوع؛ لأن الحب الكامل، مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب والانقياد له، والعبد هو الذي ذلّله الحب والخضوع لمحبوبه، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته، وذله له.

(١) تهذيب اللغة (١/ ٢٣١).
(٢) الصحاح في اللغة (١/ ٤٤٠).
(٣) المصدر السابق (١/ ٤٤١).

وعطف على العبادة عدم الشرك، قال: «**ولا يشركوا به**»؛ لأن العبادة لا تنفع عند الله تعالى، ولا تعتبر إلا إذا كانت خالصة منه؛ أي: إذا كان العبد سالماً من الشرك، وإلا تكون العبادة غير شرعية، وإن كانت العبادة تسمى عبادة في اللغة، ولكنها في الشرع لا بد من شرط خلوها من الشرك، والمشركون كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره، ولهذا اشترط نفي الشرك في اعتبار العبادة ويكون التقدير في هذه الجملة يعبدونه في حال عدم الإشراك به، هذا حقه عليهم، وقال ابن حبان: عبادة الله إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، ولهذا قال في الجواب في رواية: «فما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟»، فعبَّر بالفعل، ولم يعبر بالقول[1].«إذا فعلوا ذلك؟»، وهذا تعريف الإيمان عند أهل السُّنَّة، والإيمان هو العبادة.

وقوله: «**وما حق العباد على الله؟**»: وهذا جاء تفسيره في الحديث تفسيرًا واضحًا **بقوله**:

«**أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»، المعنى : أن لا يعذب من يعبده ممن لا يشرك به شيئًا، ولا بد من هذا التقييد؛ لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لا ينفع، وهذا معلوم من نصوص الشرع، ولهذا قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء[2]؛ يعني ترك الشرك يستدعي التوحيد، ويلزم منه أن يكون العبد موحدًا، فإن هذا مقتضاه. وقال رحمه الله: يستدعي إثبات الرسالة باللزوم؛ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا إذا كانت بما جاء به الرسول ﷺ، ثم قال: إذ مَن كذَّب الرسول، فقد كذَّب الله، ومَن كذب الله فهو مشرك، وهذا مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته؛ أي: مع سائر الشرائط[3] المعتبرة للصلاة.

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٩).
(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ٢٢٨).
(٣) المصدر السابق.

فالمراد من مات حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به، فحقه أن لا يعذب وأن يدخل الجنة.

قوله في الحديث: «شيئًا»: هذه نكرة في سياق النفي، فهي تدل على العموم؛ أي: أنه لا يقع منه شرك لا قليل، ولا كثير، ولا خفي، ولا جلي، فمن لا يقع منه الشرك على هذه الصفة مع عبادة الله تعالى فهو من السابقين إلى الجنة بغير حساب، ولا عذاب.

وقوله: «وحق العباد على الله»: هذا يدلنا على أن للعبد على ربه حقًا.

وقد استشكل بعض الناس هذا فقال بعضهم: معنى هذا أنه من باب المقابلة فقط[1]، والمقابلة تقال في كلام يقابل كلام، والمعنى غير مقصود، ولكن هذا لا يوجد في كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ.

ومنهم من قال: الحق معناه: «صدق الوعد»؛ يعني: كونه ﷻ يبلغهم ما وعدهم والله لا يخلف الميعاد، فوعده حق[2]. قال شيخ الإسلام: من أثبت شيئًا زائدًا على هذا، وهو أن للعباد على الله حق، ولكن ليس على ما يفهم؛ لأن المفهوم من اللغة: أن الحق يحقه من هو أعلى على من هو عليه الحق، والعباد لا يصلون إلى هذا،

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣٢/ ١٣٢)-(١٣٣): قوله: ما حق العباد على الله يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون أراد حقًا شرعيًا لا واجبًا بالعقل كما تقول المعتزلة وكأنه لما وعد به ووعده الصدق صار حقًا من هذه الجهة. والثاني: أن يكون هذا من باب المشاكلة، وهو نوع من أنواع البديع الذي يحسن به الكلام. وقال النووي في شرحه على مسلم (١/ ٢٣١) بعد ذكره كلام صاحب التحرير: وقال غيره: إنما قال حقهم على الله تعالى على جهة المقابلة لحقه عليهم، ويجوز أن يكون من نحو قول الرجل لصاحبه: حقك واجب عليَّ، أي متأكد قيامي به. ومنه قول النبي ﷺ: «**حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام**» والله أعلم.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ١٢). وحق العباد على الله تعالى: هو ما وعدهم به من الثواب والجزاء؛ فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق، وقوله الحق الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر، ولا الخُلف في الوعد، فالله تعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر إذ لا آمر فوقه، ولا بحكم العقل؛ إذ العقل كاشف لا موجب كما بيناه في الأصول.

أنهم يحقون على الله شيئًا، ولكن هذا الحق هو ﷻ كتبه على نفسه تفضلًا وإحسانًا منه كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فهو حق أحقه الله على نفسه ﷻ وليس العباد، أما العباد فهم ملكه من شاء تفضل عليه وهداه، ويسر له العمل الذي يرضى به فضلًا منه، وليس لقوة العباد شيء من ذلك، ولهذا أخبرنا ربنا ﷻ عن أهل الجنة أنهم يحمدون الله ويقولون: أن هذا بفضل الله، ولولا فضله ما بلغنا هذا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وهذا في كل شيء، فالعبد لا يؤمن بقوته ولا بعقله ونظره، وإنما فضل من الله يتفضل به عليه؛ فالمؤمن يجب أن يستشعر في قلبه أن هذا فضل الله أن جعله مؤمنًا فيشكره، ويسأله الثبات على هذا، ويسأله المزيد من فضله، فإذًا يكون الحق في قوله في الحديث: «**حق العباد على الله**» أنه بشيء أحقه الله ﷻ على نفسه وهو إثابتهم، وعدم تعذيبهم.

ومعلوم أن الله لو يؤاخذ العباد بكل ما هو واجب عليهم ما استطاع أحدٌ أن يسلم من عذاب الله أبدًا، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لن يُدخل أحدًا منكم عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة**»(١)، ولكن العمل سبب، والمسبب الذي يترتب عليه كله من الله ﷻ، وإذا نظر العبد إلى هذا المعنى بعقله، وجد أنه بأمس الحاجة بل بالضرورة إلى دفع المؤلم وجلب المنعم، ودفع المؤلم وجلب المنعم كل واحد له سبب، فإذًا تكون الأمور أربعة: أصل، وسبب، وإذا نظرنا فإذا كل هذه الأمور الأربع بيد الله ﷻ، لا يملكها أحد، فإذًا يجب أن يعبد الله، ويفتقر إليه، ويسأله دائمًا.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٨١٦) واللفظ له.

فهذا الحق من فضله ﷻ، وكرمه، وليس استحقاق وجزاء من باب المعاوضة كما تقوله المعتزلة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: للناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

منهم من يقول: للمخلوق علىٰ الله حق يُعلم بالعقل.

ومنهم من يقيس الخالق تعالىٰ علىٰ المخلوق كما هو مذهب المعتزلة، وكلا هذين القولين باطل.

ومنهم من يقول: لا حق للمخلوق علىٰ الله تعالىٰ بحال، ولكن يعلم ما يفعله بعبده بحكم وعده، وخبره، وهذا قول الجهم، والأشعري، وبعض من ينتسب إلىٰ السُّنَّة، وهناك قول غير هذه الأقوال، وهو أنه أوجب الله علىٰ نفسه حقًا لعباده المؤمنين كما حرم الظلم علىٰ نفسه، ولم يوجب ذلك عليه أحد، ولم يُحرم ذلك عليه أحد، بل هو فضله وإحسانه، وكرمه، ولا يقاس بمخلوقاته تعالىٰ، بل هو برحمته وحكمته وعدله كتب علىٰ نفسه الرحمة، وحرَّم علىٰ نفسه الظلم كما في الحديث الذي في صحيح مسلم وغيره: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»[1]، وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فمن قال ليس للمخلوق علىٰ ربه حق فهو صحيح إذا أراد أنه ليس عليه حق بالاعتبار، والقياس علىٰ خلقه، كما يجب للمخلوق علىٰ مثله، كما يظن ذلك جهال العباد، يظنون أن لهم علىٰ الله حقًا بعبادتهم؛ لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسان بعبادته، وعمله يصير له علىٰ الله حق من جنس ما يصير للمخلوق علىٰ المخلوق، ولهذا تجد الجهال وأنصاف المتعلمين يلهجون كثيرًا إلىٰ الله تعالىٰ بسؤاله بحق فلان وفلان، ويعتقدون أن هذا

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

أقرب لحصول مطلوبهم، وهو من جهل الإنسان بربه وظلمه وعدم تقديره حق قدره، وأكثر ما يقع الشرك في المسلمين من هذا الباب - نسأل الله العافية - كما هو صنيع عباد القبور، وعباد الأولياء، وغيرهم فالأمر ليس كما يظن هؤلاء أن من أطاع الله ﷻ، ومن عبده يكون كمن يطيع سيده ورئيسه المخلوق، يجلب له منفعة، ويدفع عنه مضرة، ويبقى يتقاضى العوض، والمجازاة على ذلك، ويقول عند الجفاء: ألم أفعل كذا وكذا؟ يمنُّ عليه بما فعل وإن لم يقله بلسانه، فهذا حقيقة ما يكون في قلبه، وتخيل هذا في حق الله ﷻ من جهل الإنسان وظلمه، ولهذا بيَّن تعالى أن عمل العبد يعود نفعه عليه وأن الله غني عن الخلق، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن قال: للمخلوق على الله حق فإنه صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله ﷻ بوقوعه، وأن الله لا يخلف الميعاد، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته، ورحمته وإحسانه، وهذا القول هو الحق الذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسُّنَّة، وأما القول الأول فهو ضلال بيِّن، حيث لم يفرق قائله بين ما يجب على الخالق تعالى، وما يجب على المخلوق، ومعلوم أن الفروق بين الخالق والمخلوق لا تخفى، ويجب أن تعلم ما جاءت به النصوص، ومن عميت بصيرته، وأصبح يقيس الخالق على المخلوق ليس من هذا في شيء - نسأل الله العافية -.

ومن الفروق أن الرب تعالى غني بنفسه عن كل ما سواه، وممتنع عن أن يكون محتاجًا لغيره بوجه من الوجوه، وأما الخلق فساداتهم وملوكهم، وكبراؤهم وعظماؤهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية من خدمهم وعساكرهم ووزرائهم، وغيرهم.

ومنها أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة، ويفرح بتوبة التائب

فهو الذي يخلق ذلك وييسره، فلا يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته، فالمخلوق كثيرًا ما يحصل له ما يحبه من غير فعله بل بفعل غيره.

ومنها أن الرب -تعالىٰ وتقدس- أمر العباد بما يصلحهم، ونهاهم عما يفسدهم ليس لمصلحته هو ﷻ، قال قتادة رحمه الله: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم بخلًا عليهم، بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم بخلاف المخلوق فإنه يأمر غيره بما يحتاج إليه، وينهاه بُخلًا عليه.

ومنها أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحياة، وهو المنعم بالهداية، وحصول الإيمان، وتزيينه في القلب، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان، وهذه كلها نعم الله ﷻ، والعبد ليس له في ذلك قدرة علىٰ أن يحصل علىٰ ذلك بنفسه، وهو فقير إلىٰ ربه ﷻ.

ومنها أن نعمه تعالىٰ علىٰ عباده أعظم من أن تحصىٰ، فلو قُدر أن العبادة جزاءً لنعمه لن يقوم الناس بشكر قليل منها، فكيف والعبادة من نعمه.

ومنها أن العباد لا يزالون مقصِّرين في حقه محتاجين إلىٰ عفوه ومغفرته، فلن يدخل الجنة أحد بعمله كما ثبت ذلك في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يدخل أحدًا عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «**لا ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة، فسدِّدوا وقاربوا، ولا يتمنَّيَنَّ أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وأما مسيئًا فلعله أن يستعتب**»[1]، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلىٰ مغفرة ربه، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥]، ومن ظن أنه قائم بما يجب عليه لله ﷻ، وأنه غير محتاج إلىٰ مغفرة ربه، وعفوه، وهدايته وتوفيقه، فهو ضال ظالم.

(١) سبق تخريجه (ص٥٨)، وهذا اللفظ للبخاري.

وقوله في الحديث: «الله ورسوله أعلم»: هذا لا يدل علىٰ أن معاذًا رضي الله عنه لا يعرف أن العبادة واجبة علىٰ العباد، وسوف يأتي في كلام المؤلف أنه نص علىٰ هذا، ولكن الرسول ﷺ ينزل عليه الوحي كثيرًا، فلا يدري هل المقصود علىٰ ما كان ثابتًا سابقًا بالنصوص، أو أنه أمر تجدد؛ لأنه يُحتمل أنه يأتي أمر جديد، ويوضح هذا ما حدث في حجة الوداع، فإن الرسول ﷺ لما قام يخطب سألهم؛ فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: «**أتدرون أي يوم هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، قال: **أليس يوم النحر؟** قلنا: بلىٰ، قال: **أي شهر هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه»، فسكتوا يعرفون قطعًا أنه شهر محرم أنهم في ذي الحجة، لكن سكتوا خوفًا أن يكون فيه تغيير أمر من الله نزل به وحي حتىٰ قال: «**أليس ذو الحجة؟** قلنا: بلىٰ، قال: **أي بلد هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه قال: **أليست بالبلدة الحرام؟** قلنا: بلىٰ»، فهم يعرفون أنها مكة، فتوقفوا وسكتوا حتىٰ قال لهم: «**فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلىٰ يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟** قالوا: نعم، قال: **اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب، فرُبَّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١).

هذا هو السبب في كون معاذ يقول: «الله ورسوله أعلم»، وفيه الأدب الذي يجب أن يسلكه طالب العلم، أنه إذا سئل عن الشيء الذي يشكل عليه، أو ليس عنده فيه برهان أنه يتوقف، ولا يتكلم بالجواب؛ لأن الأمر فيه صعوبة، وفيه خطورة؛ لأن العبد إذا قال الحكم: كذا وكذا، فإن معناه إنه يخبر عن الله جل وعلا، وقد جاء تعظيم مثل هذا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ

---

(١) رواه البخاري رقم (١٧٤١)، ومسلم رقم (١٦٧٩).

ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]؛ فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله ﷻ، والحكم ما حكم به، كل قضية في الناس لله فيها حكم، لكن إذا اضطر الإنسان إلى الجواب؛ لأن الناس لا بد لهم من يفتيهم؛ لأنهم لو تركوا لضاعوا، إذا كان العبد متقيًا لله واجتهد فإنه إذا أخطأ في هذا فإن خطأه معفو عنه بشرط أن يكون أهلًا للاجتهاد كما جاء في الحديث عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة، قاض عرف الحق فقضى به، فهو في الجنة، وقاض عرف الحق فجار متعمدًا، فهو في النار، وقاض قضى بغير علم فهو في النار**»(١). هذا في قضية خاصة بين اثنين، فكيف بالإفتاء، الذي يكون عامًا، فهو أعظم من القضاء، ولهذا ابن القيم رحمه الله سمى كتابه «إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين»، وصعب توقيع العبد عن رب العالمين، فقد يقع في القول على الله بغير علم، وقد جاء في الآية التي في سورة الأعراف أن القول على الله بغير علم فوق الشرك، وزيادة قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فينبغي لمن سُئل أن لا يتكلف الجواب بدون يقين، ولكنه يكل العلم إلى عالمه، وكان السلف - رضوان الله عليهم- يتحاشون كثيرًا من أن يتكلموا في المسائل التي قد يكون فيها ظنون، ولهذا ذكر المزي رحمه الله عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: قال لي ابن خلدة -وكان نعم القاضي-: يا ربيعة أراك تفتي الناس، فإذا جاءك الرجل يسألك فلا تكن همتك أن تخرجه مما وقع فيه، ولتكن همتك أن تتخلص مما سألك عنه(٢).

(١) المستدرك رقم (٧٠٦٢)، وأبو داود رقم (٣٥٧٣)، والترمذي رقم (١٣٢٢)، وابن ماجه رقم (٢٣١٥)، والبيهقي رقم (٢٠١٤١).
(٢) تهذيب الكمال للمزي (٢١/ ٣٢٩).

والمقصود من الحديث بيان أن حق الله علىٰ عباده هو عبادته الخالصة من الشرك وهي طاعته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهىٰ عنه، فلا يُخالف ما جاء عن الله ﷻ، أو جاء عن الرسول ﷺ لغرض، أو منفعة عاجلة، أو آجلة، أو غير ذلك.

ومن ذلك؛ يعني: حق الله تعالىٰ علىٰ عباده اتباع ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا إلحاد فيه، ولهذا ترجم علىٰ هذا الحديث البخاري رحمه الله في كتاب الرقاق بقوله: «باب من جاهد نفسه في طاعة الله تعالىٰ»، ومراده أن الرسول ﷺ قد بيَّن ما يجب لله علىٰ عباده من عبادته واتباع أمره، واجتناب نهيه، وكذلك عبادته بأسمائه وصفاته، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين وما يستحقه من فعل هذا، فإنه بين ذلك بأنه حق علىٰ الله ﷻ أن لا يعذبه، وهذا غاية ما يطلبه العبد أن يسلم من العذاب في الآخرة، ويفوز برضىٰ الله ﷻ وجزائه وإحسانه.

قوله: «أفلا أبشر الناس؟»: فهو رضي الله عنه يستأذن النبي ﷺ أن يبشر الناس في هذا، حيث أنه أخبر أن من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا أن الله لا يعذبه، فهذه بشارة عظيمة؛ ففيه أنه يُستحب أن يبشر المؤمن بما يسره، وهذا أمر متقرر عند الصحابة - رضوان الله عليهم - وأنهم تلقوا عن النبي ﷺ أن بشارة الناس عمل يُرجىٰ خيره.

«قال: لا تبشرهم فيتكلوا»: يعني: يتكلوا علىٰ ثواب الله، وجزائه، أنه لا يعذب من لا يشرك به شيئًا فيدع العمل، ففي هذا أن النبي ﷺ يطلب من أمته أن يعملوا، ويجتهدوا في العمل، وهذا في أحاديث ونصوص كثيرة.

والاتكال أن يعتمد علىٰ الظاهر، ويدع العمل، وليس كل أحد يتكل؛ لأن العبد لا ينفك عن الذنوب، ولا يستطيع أن يجزم أنه جاء بالمطلوب علىٰ الوجه الذي يرضاه الله ﷻ، فهو دائم خائف، بين ذنب لا يدري هل غفر له، وقبلت توبته منه وبين عمل لا يدري هل قبل أو رد، ولهذا جاء كثيرًا في القرآن أنه يقرن بين الخوف والرجاء، قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ

﴿ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، ومن ذلك أن الله ﷻ يذكر أهل النار وما أعد لهم، ثم يتبع ذلك بذكر أهل الجنة، وما أعد لهم من النعيم أو بالعكس، وهذا معنىٰ كون القرآن مثاني والله أعلم.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

لأن العبد لو عبد الله وهو واقع في الشرك لا يكون قد أتىٰ بالعبادة، وتسمىٰ عبادة في اللغة؛ لأن العبادة في الشرع هي الخالية من الشرك. قوله: «**والخصومة فيه**» المقصود الخصومة التي وقعت بين الرسل وأممهم التي قصَّ الله ﷻ علينا قصصهم، فإن كل رسول يقول لأمته: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وهذه العبادة التي أمر الله بها هي التوحيد.

الثانية: أن من لم يأت به، لم يعبد الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

يعني: من لم يأت بالتوحيد الخالص لم يكن عابدًا لله ﷻ؛ وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾؛ يعني: مع وجود العبادة منهم، نفىٰ عنهم العبادة الشرعية المطلوبة، وهي التي تكون مع الإخلاص، واجتناب الشرك، وإن كانت العبادة اللغوية واقعة منهم، ولذلك لا تعتبر عبادتهم عبادة لله جل وعلا لوجود الشرك، فخلو العبد من الشرك شرط في كونه عبدًا لله.

الثالثة: الحكمة من إرسال الرسل.

وهي الدعوة إلىٰ التوحيد، والنذارة من الشرك، وما يكون من الأوامر والنواهي، والشرائع يكون تبعًا لهذا.

❁ **الرابعــة: أن الرسالة عمَّت كل أمة.**

لأنه قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: ٣٦]، والأمة إما أن تكون أمة عامة في زمنٍ واحدٍ، أو أممٌ متعددة في زمنٍ واحدٍ، ولهذا أحيانًا يكون عدد من الأنبياء في وقتٍ واحدٍ، كما أخبرنا ﷻ أنه بعث إبراهيم عليه السلام وبعث لوط عليه السلام في وقت واحدٍ.

❁ **الخامســة: أن دين الأنبيــاء واحد.**

يعني: التوحيد، بخلاف الشرائع، فإنها كما قال الله ﷻ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

❁ **السادسة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].**

الشيخ رحمه الله ينهىٰ عن الأمور التي كانت في وقته واقعة بين الناس، فمن الناس من يعبد الله بزعمه، ويعبد الطاغوت، ويعتقد أنه مسلم، والطاغوت سبق تعريفه: أنه كل ما عُبد من دون الله؛ فإن كان حيًا عاقلًا فلا بد من أن يقيد بأن يكون راضيًا بهذا. أما إن كان ميتًا، أو جمادًا، أو غير ذلك، فهذا معلوم أنه لا أمر له، ولا اختيار فقد يُعبد، وعبادته هي: طلب البركات منه والتوجه إليه بالدعوات، وطلب إزالة الملمات، وتفريج الكربات، أو الطواف علىٰ قبور من يُسمون أولياء، والجلوس عندهم عكوفًا عند قبورهم تبركًا، أو يطلب الشفاعة، يقول: اشفع لي، أو ما أشبه ذلك هذا كله من عبادة الطاغوت.

فالكفر بالطاغوت شرط لوجود الإيمان؛ لأن الكفر بالطاغوت هو اجتناب الشرك وهو مثل قوله ﷻ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، فلا بد أن يكون الطلب والطواف، والعبادة جميعها خالصة لله ﷻ، ليس لأحدٍ من الخلق فيه شيء.

السابعـة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل، أولها: النهي عن الشرك.

السلف المقصود بهم الصحابة؛ لأن ابن مسعود يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية النبي ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ ...﴾، ومعلوم أن ابن مسعود لا يقصد أن النبي ﷺ كتب وصية فختمها، وإنما يقصد أن هذا مضمون وصية رسول الله ﷺ، فإنه وصَّىٰ بكتاب الله، وهذه الآيات الجامعة التي فيها الأمر بعبادة الله، واجتناب الشرك، وإقامة العدل، والقول الحق، واتباع الصراط الذي جاء به الرسول ﷺ.

الثامنـة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

يعني: أنه لم يوص إلا بكتاب الله كما قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية النبي ﷺ فلينظر إلىٰ هذا. وسبق أن ذكرنا حديث ابن عباس الذي في الصحيحين: قال: لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، قال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال: قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه».

ولكن لو أراد النبي ﷺ أن يكتب ما أحد يحول بينه وبين ذلك، ولهذا فسر هذا بالرواية الأخرىٰ أنه عدل عن هذا وقال: «**يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، وقد نبَّه علىٰ هذا بقوله: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، تقول عائشة رضي الله عنها: علمت أن الذي يقوم مقام النبي ﷺ بعده إنه يُكره لدىٰ الناس فراجعته في ذلك فقلت: إن أبا بكر رجل «أسيف» إذا قرأ القرآن لا يسمع الناس من البكاء، لو أمرت عمر، فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»، تقول: فذهبت إلىٰ حفصة فقلت لها: اذهبي إليه فقولي: إن أبا بكر كذا وكذا، فذهبت وقالت حسب ما أمرتها عائشة، فغضب عليه الصلاة والسلام، وقال:

«إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس...» إلىٰ غير هذا، ففيه أحاديث أخرىٰ، ولهذا قال بعض أهل السُّنَّة: إن استخلاف أبي بكر بالنص، والصحابة -رضوان الله عليهم- كثير منهم قال: رضي لنا رسول ﷺ أبا بكر في ديننا، فنحن نرضاه لدنيانا(١).

التاسعة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

الواقع أن الصحابة - رضوان الله عليهم - يعرفون التوحيد تمامًا، ولكن من اقتصر علىٰ هذا من عبادة الله وحده، واجتناب الشرك، أنه يكون ناجيًا وسالمًا من العذاب في الدنيا والآخرة، هذا قد لا يعرفه أكثر الصحابة، ولهذا قال معاذ: الله ورسوله أعلم.

العاشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

كتمان العلم مثل ما قال في آخر الحديث: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»، إذا كان يوهم أمرًا يعود علىٰ السامع بالضرر جاز أن يخص العلم بالبعض، ويكتم عن الذي لا يفهمه ولا يدركه.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٣/ ١٨٣) عن الحسن قال: قال علي: لما قبض النبي ﷺ نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي ﷺ قد قدم أبا بكر في الصلاة فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لديننا فقدمنا أبا بكر.

الباب الثاني

✍ **قال المؤلف** رحمه الله**: باب فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب.**

لما ذكر رحمه الله وجوب التوحيد، وأنه فرض على كل مسلم وأنه لا بد منه، ولا يعذر أحد بتركه ولا بجهله؛ ناسب أن يذكر مع هذا الوجوب أنه فضيل، وأنه يُكفر الذنوب.

قوله في الترجمة «**وما**».

هذه يجوز أن تكون موصولة، فيكون المعنى: هذا باب فضل التوحيد وذكر ما يكفِّر من الذنوب. ويمكن أن تكون مصدرية، ويكون المعنى: هذا باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب. وهذا أرجح، وأظهر، والسبب أن الموصولة قد يفهم منها أن هناك ذنوباً لا يكفرها التوحيد، وهو غير مراد، وأما إذا كانت مصدرية فلا يحتمل ذلك؛ يعني: أن كل الذنوب تكفر بالتوحيد وهذا هو المراد؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وغفرانه الذنوب جميعًا للموحد الذي وحد الله جل وعلا ولم يشرك به شيئًا.

والتوحيد كما سبق إخلاص العبادة لله تعالى بما أمر وشرع، فالعبادة لا تكون إلا بأمره وشرعه. وفضله يتبين من ذكر بعض هذه النصوص وغيرها كثير.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله**: وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [الأنعام: ٨٢].

هذه الآية بعد قول الله جل وعلا في محاورة إبراهيم عليه السلام ومحاجته قومه لما خوَّفوه

بآلهتهم التي يعبدونها كما هي سُنَّة المشركين مع رسلهم، يخوفونهم بآلهتهم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، ثم جاء الحكم سواءً كان هذا من تمام كلام إبراهيم عليه السلام الذي حكاه الله عنه أو أنه حُكم فصل الله جل وعلا به بين إبراهيم عليه السلام وقومه؛ لأن هذا كان في آخر المناظرة التي جرت بين إبراهيم عليه السلام وقومه؛ لأن إبراهيم عليه السلام على القول الصواب الذي لا يجوز خلافه ناظرهم في معبوداتهم وليس كما توهم بعض أهل الكلام أن إبراهيم أول ما نظر إلى هذا الكون وشاهد هذا الكوكب وقال: هذا ربي، ثم شاهد ما هو أكبر منه فقال: هذا ربي... الخ، وإبراهيم عليه السلام ما كان من المشركين فهو يناظرهم يقول: أهذا الكوكب ربي؟ ثم أفل، وغاب وذهب، هذا هو الصحيح، وليس الأفول كما يقول الرازي وغيره: التحرك(١)، ومن تحرك فلا يجوز أن يكون إلهًا؛ لأن الحركة حدث والحوادث بُنيت على كون الذي تقع منه، وتوجد منه الحوادث مخلوق(٢)، وهذا أصل المعتزلة والأشاعرة الذين استدلوا بذلك على وجود الله، وهذا باطل وضلال، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- دعت أقوامها إلى أن يوحدوا الله جل وعلا ويعبدوه، ويقولوا: لا إله إلا الله.

فالمقصود أن الكوكب يغيب ويذهب، فكيف يُدعى، كيف يدعوه عابده وهو ذاهب وغائب، والمعنى: أن الإله الذي يجب أن يعبد يجب أن يكون مراقبًا حاضرًا يسمع ويعلم، يسمع ما يقوله عابده، ويعلم حاله، وإذا لجأ إليه كشف ما به، والكوكب ليس كذلك، وكذلك يقال في القمر والشمس، ولهذا قال الله تعالى بعد

---

(١) تفسير الرازي (٦/ ٣٤٨) فتفكر فرأى النجم، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فلما شاهد حركته قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

(٢) تفسير الرازي (٦/ ٣٥٠): أفول الكواكب يدل على كونها عاجزة عن الخلق والإيجاد وعلى أنه لا يجوز عبادتها، وبيانه من وجوه: الأول: أن أفولها يدل على حدوثها. وحدوثها يدل على افتقارها إلى فاعل قديم قادر ويجب أن تكون قادرية ذلك القادر أزلية. وإلا لافتقرت قادريته إلى قادر أخر، ولزم التسلسل وهو محال، فثبت أن قادريته أزلية ...

ذلك: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وهذا ظاهر جدًا أنها مجادلة ومحاجة، ومناظرة وليس كما يزعمه هؤلاء أن ابتداء إبراهيم عليه السلام أنه فكر في هذه الأشياء فقال: هذا ربي، ثم انتقل مما هو أصغر إلىٰ ما هو أكبر هذا ضلال.

إبراهيم عليه السلام آتاه الله رشده من صغره كما أخبر الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ولكن هم علىٰ عادة الكفار الذين يخوفون الرسل بآلهتهم فقال لهم إبراهيم عليه السلام متعجبًا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: ٨١]، ثم قال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] هل الذي عبد الله وحده، ولم يشرك به شيئًا أم الذي عبد معه الكوكب، أو القمر، أو الشمس، أو غيرها من الشياطين؛ ثم جاء الحكم، والفصل بين هذين الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والآية فيها أربع صفات، وإن شئت فقل: ثلاث صفات وجزاء: الإيمان، وأنهم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأنهم مهتدون، والجزاء قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، والإيمان هو أهم هذه الأشياء، وهو قبول ما جاء عن الله جل جلاله علىٰ لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مع علمه، والعمل به ظاهرًا، وباطنًا.

والإيمان ليس مجرد تصديق القلب أو علم القلب، لا بد مع ذلك من العمل ولهذا جعل أهل السُّنَّة الإيمان مكونًا من ثلاثة أجزاء: من قول وعمل وعقيدة، وإن شئت قلت: من قول، وعلم، وعمل. والعقيدة هي عقيدة القلب، والعلم: هو العلم النافع الذي يعمل به.

والإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، فمن الناس من يكون إيمانه كاملًا، ومنهم من يكون متوسطًا، ومنهم من يكون ناقصًا، ولهذا اختلفت درجاتهم في الجنة.

قوله: «﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾»: اللبس في اللغة: الخلط، والمزج. خلط الشيء من غير جنسه؛ كلبس الحق بالباطل، وذلك بأن يُخلط حتىٰ يمكن أن يُقبل عند من لا يعرفه، كما أخبر الله ﷻ عن اليهود أنهم يصنعون ذلك.

قوله: «﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾»؛ يعني: أنهم لم يخلطوا إيمانهم بظلم، وهذا يدل أولًا: علىٰ أن الإيمان ليس مجرد العلم إذ لو كان مجرد العلم فكيف يلبَّس ويخلط، العلم لا يقبل الخلط إلا أن يكون غير العلم بل هو جهل، فلا بد أن يدل هذا علىٰ أن الإيمان عمل سواءً كان عمل القلب مع الجوارح علىٰ القول الصحيح الذي هو الحق، أو أنه عمل القلب، أو عمل الجوارح.

ثم اللبس هنا ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قد فهم الصحابة - رضوان الله عليهم - أنه مطلق اللبس؛ يعني: مطلق الظلم، ولهذا لما نزلت هذه الآية شق ذلك عليهم كثيرًا، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك علىٰ أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[(١)]، فجعل لبس الإيمان بالظلم هو الشرك الذي يمنع من الأمن، ومن الاهتداء.

قوله: «﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾»: الأمن والاهتداء يحصلان في الدنيا والآخرة، فمن آمن ولم يلبس إيمانه بظلم فإنه مهتد في الدنيا إلىٰ اتباع الرسول ﷺ

(١) البخاري رقم (٦٩٧٣)، ومسلم رقم (١٢٤).

وسلوك الصراط الذي أُمر بسلوكه، وهو آمن من العذاب في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو آمن من العذاب الذي يعذب به الكفار؛ لأن الدنيا لا يمكن أن يكون العبد سالمًا فيها من كل شيء أبدًا، هذا مستحيل؛ لأنها خُلقت للمشاكل، والابتلاء، والامتحان، ولهذا لا يمكن أن يسلم أحدٌ فيها من العذاب الظاهر؛ يعني: عذاب البدن، أو عذاب النفس، أو الابتلاء بالغير، وما أشبه ذلك، وهذا من أكبر الأدلة علىٰ زوالها، وأنها غير باقية وهذا أمر معلوم، وإنما يكون آمنًا من العذاب الذي يصيب الكفار كما أصاب قوم نوح وقوم لوط، وقوم صالح، وغيرهم ممن ذكرهم الله ﷻ، فالمؤمن الذي دخل في هذا آمن مما أصاب أولئك هذا في الدنيا.

أما في الآخرة فالآمن مطلق، يكون آمنًا من العذاب في قبره، وفي موقفه إذا بعث من قبره، وفي منقلبه بعد الحساب، فهو آمن مطلقًا، هذا بالنسبة للأمن.

أما الاهتداء فهو واضح أنه اهتداء إلىٰ قبول ما جاء به الرسول ﷺ وسلوكه هذا الصراط المعنوي، وأما في الآخرة فهو مهتد إلىٰ منزله في الجنة، وإلىٰ خلاصه من كل ما يقع فيه أصحاب الشرك الذين لبسوا إيمانهم بظلم.

يبقىٰ الإشكال الذي وقع للصحابة -رضوان الله عليهم- والذي شق عليهم، وصورته أن الذنوب ظلم، ومعلوم أن الظلم ينقسم إلىٰ أقسام ثلاثة:

القسم الأول: ظلمٌ هو الشرك، وهو أظلم الظلم، وهذا لا يُقبل منه شيء أصلًا، وهذا الذي قال الله فيه في آيات متعددة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وأخبر ﷻ أن المشرك إذا مات علىٰ شركه فهو في النار خالدًا فيها، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهذا مقطوع فيه، فمن مات مشركًا فهو في النار قطعًا، وهذا لا يكون له أمن؛ لأنه لم يهتد في الدنيا، وهو لم يؤمن في الدنيا ليأمن من عذاب الله في الآخرة، لذلك هو خالد في النار.

القسم الثاني: ظلم العباد، أن يظلم غيره من الناس، وهذا لا بد من استيفائه كما جاء في الحديث؛ فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، فيؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه**»[1]، فلا بد من أداء الحق لمستحقه، ولا بد من المحاسبة والمقاضاة، فإذا كان بين العباد شيء فإن الله ﷻ يقضي بينهم، ويعطي كل إنسان حقه، وهذا أقل من الذي قبله.

القسم الثالث: ظلم الإنسان نفسه فيما بينه وبين ربه في التقصير في الأوامر وارتكاب النواهي، أو بعضها. وهل ظلم الإنسان نفسه في ترك الواجبات وفعل المحرمات، أو بعضها يوجب النار؟ أو هو داخل في قوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؟

أولًا: يجب أن نتفطن أن كلام الله ﷻ لا يتضارب، وكلام رسوله ﷺ لا ينقض بعضه بعضًا، وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، والرسول ﷺ في توجيهه للصحابة رضوان الله عليهم ما فهموا أن من آمن ولم يشرك مطلقًا يكون آمنًا مطلقًا، ومهتديًا مطلقًا؛ لأنه ورد في آيات كثيرة مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، إلىٰ أن قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ

(١) البخاري رقم (٦٥٣٤).

﴿أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة، وأحاديث الرسول ﷺ.

وكان الصحابة -رضوان الله عليهم- يهتمون كثيرًا في دخول الجنة، والواجب على العبد أن يهتم بهذا، فكانوا يهتمون بالأسباب التي تدخل الجنة، وكانوا يسألونه، وجاءت عدة أسئلة في أحاديث متعددة أنه سُئل ما العمل الذي يُدخل الجنة، فأخبر بهذا العمل: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**»، هذه الأمور التي رتب عليها دخول الجنة، فإن ترك العبد بعضها لم يأت بالشرط فيصبح الشرط مختلًا، ففي المسند وغيره عن بشير بن الخصاصية قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه، قال: فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله أما اثنتان فوالله ما أطيقهما الجهاد والصدقة، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسي، وكرهت الموت، والصدقة فوالله ما لي إلا غنيمة وعشر ذود هن رسل أهلي، وحمولتهم، قال: فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: **فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذًا؟**»، قال: قلت: يا رسول الله أنا أبايعك، قال: فبايعت عليهن كلهن(١). فجعل الصدقة والجهاد أيضًا من الشرط الذي يدخل العبد به الجنة، والأحاديث في هذا كثيرة؛ فالآية معناها مع جواب الرسول ﷺ أن من لا يقع منه الشرك الأكبر يكون آمنًا من الخلود في النار، وآمنًا من العذاب الذي يكون للكفار في الدنيا، وليس هذا أنه لا يقع له عذاب في الآخرة أو في الدنيا.

أما من حيث مناقشة اللفظ وفهمه، فإذا نظرنا إلى هذه الأنواع الثلاثة فإذا هي

(١) المسند رقم (٢١٩٥٢).

كلها تسمىٰ ظلم، ثم الظلم الذي هو المانع للاهتداء والأمن هو الشرك، والشرك فيه الكبير المنافي للإيمان المحبط للعمل، وفيه الصغير الذي لا ينافي الإيمان، ولكن ينافي كماله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: وقوله: «**إنما هو الشرك**» إن أراد الأكبر فمقصوده: أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظُلم العبد لنفسه -كبخله- بحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر. وحبه ما يبغضه الله تعالىٰ حتىٰ يقدم هواه علىٰ محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنب في الشرك بهذا الاعتبار[1].

فالذنوب تدخل في الشرك الأصغر؛ لأن بغض العبد للحق الذي وجب عليه حبًا للمال هو شرك؛ لأنه قدم حب المال علىٰ ما أوجب الله عليه وعلىٰ محبة الله وامتثال أمره فصار نوعًا من الشرك الأصغر وهذا كثير. وهكذا يقال فيمن يرتكب محرمًا اتباعًا لهواه وشهوته، فإنه قدم شهوته وهواه علىٰ طاعة ربه ﷻ فيكون نوعًا من الشرك، ولكنه الشرك الأصغر الذي لا يكون العبد به كافرًا خلافًا لأهل البدع.

فعلىٰ هذا نقول في نوعي الظلم؛ ظلم العباد وظلم الإنسان نفسه إنهما قادحان في كمال التوحيد ومنقصان للثواب الذي رتب عليه، فلو دخل الجنة تكون منزلته ليست بمنزلة الذي جاء بالتوحيد كاملًا، هذا واضح، فعلىٰ هذا فاللبس في الآية يجوز أن يكون مطلقًا، وليس الشرك الأكبر فقط وهذا هو الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ﵏ وغيرهما من المحققين، وهذا الذي تدل عليه النصوص الكثيرة في كتاب الله ﷻ وأحاديث رسوله ﷺ، غير أن المانع من الاهتداء التام، والأمن التام مطلقًا، هو الشرك الأكبر، أما وجود النوعين من الظلم -ظلم

(١) ابن تيمية (الكلام علىٰ حقيقة الإسلام) ص(١٢٢)-(١٢٤).

العباد وظلم العبد نفسه- فهما مانعان من كمال الاهتداء وكمال الأمن، وبقي معه شيء من الخوف وعدم الأمن، ونوع من الضلال بسبب الذنوب التي ارتكبها وتقديم هواه، وما تزينه نفسه علىٰ أمر الله، وأمر رسوله ﷺ فهذا نوع من الضلال فهو قادح في توحيده ومنقص له، وكذلك هو مؤثر علىٰ حالته في الآخرة من كونه يكون له الأمن مطلقًا وبلوغ منزلته من كمال التوحيد.

فهنا تبين لنا معنىٰ اللبس: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم﴾؛ يعني: وحَّدوا الله بالعبادة، هذا الذي يُريد المؤلف رحمه الله .

و﴿ءَامَنُواْ﴾ فسَّرها بالتوحيد، والتوحيد هو العبادة الخالصة لله ﷻ؛ لأن العبادة إذا لم تكن خالصة فليست عبادة في الشرع، وإن كانت عبادة في اللغة، وعلىٰ هذا فنقول: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ أي: عبدوا الله وحده، ولم يُدخلوا في عباداتهم شيئًا مما يُنقصها، أو يذهب بكمالها، أو يذهبها بالكلية، فهم أصحاب الأمن في الدنيا والآخرة، وهم المهتدون في الدنيا حيث وفقهم الله ﷻ للإيمان الخالص، وعبدوا الله وحده، وهم كذلك المهتدون إلىٰ طريق الجنة في الآخرة، والآمنون بعد الموت من كل ما يقع فيه أهل الضلال وأهل الكفر، فيكون هذا هو المقصود.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمتُه ألقاها إلىٰ مريم وروحٌ منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل»[1].

عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد من أجلِّ أصحاب رسول الله ﷺ، وهو أحد النقباء الذين بايعوا في العقبة، وهو بدري وشهد سائر

(١) البخاري رقم (٣٤٣٥)، مسلم رقم (١٢٤).

المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفي في فلسطين على القول الصحيح وكانت وفاته قرابة خمس وثلاثين أو ست وثلاثين من الهجرة، وبعضهم يقول أنه أدرك زمن معاوية، وله اثنتان وسبعون سنة.

قوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**»: الشهادة لا بد فيها من العلم واليقين وعدم التردد، فهي تدل على العلم؛ يعني: أنه علم معنى هذه الكلمة، ونطق بها بعد العلم، ولا بد من التزام ما دلت عليه؛ لأن الذي يشهد بما لا يعلم يكون كاذبًا كما قال الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ يعني: أنهم كاذبون في شهادتهم مع قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، فهم ينطقون بلا علم ولا اعتقاد؛ وقال ﷻ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، فكلمة: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية؛ يعني: حال شهودهم بالحق الذي هو لا إله إلا الله يعلمون معناها، وما دلت عليه ويلتزمون حقها.

وقوله: «**أن لا إله إلا الله**»: هي خبر ولكن المقصود الامتثال والعمل، «**الإله**» اسم جنس؛ ويعنى بالجنس: الشائع في نوعه مثل بقرة فهل يخطر ببالك بقرة بعينها، أو أنه يصدق على أي بقرة، وكذلك شجرة وامرأة؛ وكذلك إله يصدق على كل مألوه سواءً بحق، أو بغير حق، فمن تعلق قلبه بشيء فقد اتخذه إلهًا، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فهو يطلق على المألوه بالحق وعلى المألوه بالباطل، ولهذا كره العلماء اسم عبد الإله، ولا بد من تقييد الإله في شهادة أن لا إله إلا الله بأنه بحق، لأن الآلهة كثيرة فهي ملء الدنيا، فالإله لا يلزم أن يكون متجسدًا مرئيًا، فقد يكون معنىً ويكون مألوهًا وقد يكون شهوة، وقد يكون رئاسة، وقد يكون طاعة لمخلوق، فلا بد أن يكون المؤمن قلبه وتألهه متعلقًا بالله ﷻ

وحده، والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب وتميل إليه حبًا وخوفًا، فإذا قلت: «**لا إله**» هذا نفي لكل مألوه أن يكون إلهًا؛ لأن «**لا**» هي النافية للجنس، وهي تحتاج إلىٰ اسم وخبر؛ لأنها تعمل عمل إن كما هو معروف، و«**إله**» اسمها، أما خبرها فمقدر معروف بهذا الشيء؛ يعني: لا إله بحق إلا الله، أو لا إله حقٌّ إلا الله.

وتقدير النحويين بقولهم: لا إله موجود إلا الله، أو لا إله كائن إلا الله؛ لأن المحذوف لا بد أن يكون مشتقًا، واسم المفعول، واسم الفاعل مشتق، فهذا باطل؛ لأن الآلهة موجودة بكثرة.

والشهادة تقتضي العلم كما سبق كما قال ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، يقول البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح: باب العلم قبل القول والعمل لقوله ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فبدأ بالعلم. اعلم أمر من الله ﷻ يقتضي أن يكون العمل مسبوقًا بالعلم، وإلا لا يكون مجديًا، وهكذا شهادة أن لا إله إلا الله فإن المتكلم والناطق بها لا بد أن يكون عارفًا عاملًا بما دلت عليه وما تقتضيه، وأن يأتي بحقها ولوازمها، ومن حقها جميع الأوامر التي أمر الله ﷻ بها، ولهذا لما روجع أبو بكر رضي الله عنه عند قتال مانعي الزكاة بين أن الزكاة من حقها، فعن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه علىٰ الله**». فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ منعها. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[1]. ثم بعد ذلك اتفق

(١) رواه البخاري رقم (١٣٩٩)، ومسلم رقم (٢٠).

الصحابة علىٰ هذا، فمعنىٰ هذا أن كل ما أوجبه الله ورسوله علىٰ العباد أنه من حق لا إله إلا الله، فإذا لم يأت بها فالشهادة لم تتم.

وقوله: «وحده»: تأكيدًا لشهادة أن لا إله إلا الله؛ يعني: أنه هو المألوه وحده، وفي هذا إبطال الآلهة التي يألهها الخلق غير الله؛ يعني: أنه هو المألوه الذي تتعلق به القلوب حبًا وخوفًا ورجاءً وإنابة وجميع أعمال القلب.

وقوله: «**لا شريك له**»: تأكيدًا للنفي؛ يعني: أن التأله له، ينفي الاشتراك في شيء معه في التأله، ولا شريك له في التوجه والعبادة، فلا بد للعبد أن يكون عارفًا عاملًا بمعناها، وبما دلت عليه، وبهذا يتبيَّن أن الذين لا يعرفون معناها يقعون في المتناقضات الظاهرة تجدهم مثلًا يقولون: لا إله إلا الله ويطوفون بالقبور، ويستنجدون بأصحابها ويدعونهم في السر والعلن، وهذا هو الشرك الأكبر الذي تبطله هذه الكلمة لو كان عاقلًا لها، عارفًا لمعناها لم يفعل هذا الفعل والكفار قديمًا يعرفون معناها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرض أبو طالب، فأتته قريش وأتاه النبي ﷺ يعوده وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل، فقعد فيه، فشكوا رسول الله ﷺ إلىٰ أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا، قال: ما شأن قومك يشكونك يا ابن أخي؟ قال: «**يا عم، إنما أردتهم علىٰ كلمة واحدة، تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية**»، فقال: وما هي؟ قال: «**لا إله إلا الله**»، فقاموا فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال: ونزلت: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ١-٥][(١)]، فأبوا وقالوا: هذا انتقال من دين إلىٰ دين آخر، أنترك ديننا ونترك دين آبائنا وما كانوا عليه، فننتقل إلىٰ دين جديد، فهم يعلمون ذلك

(١) أحمد في المسند رقم (٢٠٠٨)، والترمذي رقم (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٨٧٦٩)، والبيهقي في الكبرىٰ رقم (١٨٤٢٨)، وابن حبان رقم (٦٦٨٦)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٦١٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

تمامًا، ولهذا لما قال الرسول ﷺ لعمه أبي طالب، وقد حضرته الوفاة وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله.** قال أبو جهل، وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب..»(١)؛ يعني: أن هذا القول ليس مجرد قول فقط بل هو قول يعقبه انتقال من دين إلىٰ آخر، وهذا هو الإيمان، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب رحمه الله: لا خير في مسلم يكون أبو جهل أعلم منه بلا إله إلا الله(٢).

فالمقصود أن الشهادة تقتضي العلم، وتقتضي عقد القلب عليها، وتقتضي العمل بها فلا بد من ذلك، وإن لم يكن العبد كذلك فإنها لا تنفعه فهي مبنية علىٰ النفي والإثبات، تنفي جميع التأله وتثبته لله وحده جل وعلا، تنفيه عن الخلق عمومًا ليس مخلوق يصح أن يكون إلهًا، والألوهية والعبادة لله وحده ولهذا سُميت هذه الكلمة كلمة الإخلاص، ومن قالها صادقًا مخلصًا فإنه لا بد أن يأتي بما أوجبه الله عليه ويترك ما حرمه الله عليه، فهي كلمة لها وقع عظيم في الأثر الذي يكون في القلب، وفي العمل الذي يكون في الجوارح، وكلام العلماء علىٰ هذه الكلمة كثير جدًا، وهو كله يدور علىٰ جعل العبادة خالصة لله، وأنه لا يجوز أن يكون فيها شيء لغير الله جل وعلا، وهذا هو الدين الذي بعث الله جل وعلا به الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، ولهذا تضمنت هذه الكلمة الدين كله.

وقوله: «**وأن محمدًا عبده ورسوله**» جاء باسمه العلم حتىٰ يتميز ويُعين فلا بد أن يكون معلومًا؛ لأنه لا بد من معرفة النبي ﷺ، فقد جاء في الحديث عندما يوضع العبد في قبره يُسأل عن ذلك، فعن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقولان: ما كنت تقول**

(١) رواه البخاري رقم (١٣٦٠)، ومسلم رقم (٢٤).

(٢) المسألة الرابعة من باب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل لا إله إلا الله»، فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال: انظر إلىٰ مقعدك من النار قد أبدلك الله مقعدًا في الجنة فيراهما جميعًا. وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»[(١)].

ولا يكفي كون العبد يعرفه باسمه ونسبه، بل لا بد أن يتيقن أنه رسول الله بدلائل النبوة وهي كثيرة جدًا، فمنها أنه أتىٰ إلىٰ قوم كفار وحده، وصار يتحداهم ويقول: إن لم تؤمنوا بما جئت به سوف يسلطني الله عليكم فأقتلكم وآخذ أموالكم، وهو وحده ليس معه جنود، وليس معه من يحميه، فلا يمكن أن يقول هذا عاقل أمام أعدائه إلا إذا كان واثقًا تمام الثقة بما يخبر به، وأنهم لن يصلوا إليه، فهذا من أكبر الدلائل علىٰ أنه رسول الله، ثم صار يخبر بالأمور فتقع كما أخبر بها، ويدعو فيستجيب الله له، وكذلك حاله كما قالت خديجة ﵂: كلا والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتعين علىٰ نوائب الحق[(٢)].

وكذلك في قصة هرقل مع أبي سفيان، فعن أبي سفيان بن حرب أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ[(٣)] فيها أبا سفيان، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، فوالله

---

(١) رواه البخاري رقم (١٣٣٨)، ومسلم رقم (٧١٤٥) واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري رقم (٣)، ومسلم رقم (٤٠١).

(٣) مادّ أبا سفيان: أي صالحه، وقد كان الصلح من قريش مع النبي صلّىٰ الله عليه وسلّم عشر سنين، وقيل: أربع سنين ثم نقضت قريش العهد. [انظر فتح الباري ١/ ٣٤].

لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة

والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1].

وهو ﷺ يخبر بالمغيبات، وغير ذلك من الأمور التي تجعل العبد يستيقن حقًا لا ريب فيه أنه رسول الله. والمسلم قد لا يشك في هذا فهو تلقىٰ هذا من صغره، ولكن لا بد من العلم؛ لأن العبد لو أخذ هذا بالتلقي فقط والعادة التي وجد عليها الناس فقد يتعرض لشبهة، بخلاف من علم هذا عن يقين ومعرفة فإن الشبه سوف تتحطم أمامه.

فإذا شهد أن محمدًا عبده ورسوله، فلا بد أن يتحقق أنه رسول أرسله الله ﷻ، وأنه عبد تعبده الله بطاعته، وبامتثال أمره، وتبليغ رسالته التي كلفه بها إلىٰ خلقه، ولا بد أن يتيقن هذا في قلبه، وتيقن هذا كما سبق ينتج من النظر في سيرته ﷺ ودعوته وفي الآيات التي جاء بها، فهي التي تُثبت ذلك، وتنمي هذا العلم في قلبه، وتجعله محققًا لا يقبل الشك، ولا التردد، وهذا لا بد منه للمسلم.

وذكر اسمه العلم لا بد منه، ولا يدخل في قوله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال العلماء: أن يقول: رسول الله، نبي الله؛ يعني: لا تقولوا: محمد. أما في هذا فلا بد من ذكر اسمه العلم؛ لأنه أمر لا بد فيه من التعيين والتحقق؛ ولأن الرسل كثيرون، كما يتعين ذكر اسمه العلم في الصلاة، وفي الآذان.

ولا بد مع العلم من العمل بما تقتضيه هذه الشهادة، ويكون العمل بها: بتصديقه أولًا؛ لأنه رسول الله حقًّا جاء من عند الله، ثم وجوب طاعته بامتثال ما أمر

(١) رواه البخاري رقم (٧)، ومسلم رقم (١٧٧٣).

به، واجتناب ما نهىٰ عنه، وأنه لا يجوز العدول عن ذلك، وأنه لا يسع أحدًا العمل بغير رسالته، وأن من لم يفعل ذلك فهو في النار.

قوله: «**عبد الله ورسوله**»: قدَّم وصفه بالعبودية قبل وصفه بالرسالة علىٰ سبيل الابتداء بما هو وصفه سابقًا وأبدًا، ثم الارتقاء بوصف الرسالة.

وجمع بين هذين الوصفين منعًا للإفراط والتفريط كما وقع فيه كثير من الناس منعًا من الغلو، ومنعًا من الجفاء. فالغلو: أن يرفع فوق منزلته، وأن يجعل له مع الله مقامًا، إما من حقوق الربوبية، أو الألوهية، فقد وقع هذا ممن ينتسب إلىٰ أتباعه، بل ممن ينسب إلىٰ العلم حتىٰ قال بعضهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواء عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلا فقل: يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وقال كذلك:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم[1]

يعني: أنه يستغيث بالرسول ﷺ من الله، فالمعنىٰ يقول: إذا غضب الله يوم القيامة الغضب الذي لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله فأنا أستجير بك من غضبه، وأحتمي بك منه - نسأل الله العافية - فهل يكون هذا إلا أن يكون مشاركًا لله ﷻ علىٰ هذا الوصف -تعالىٰ الله وتقدس-، فذكر هنا وصفه بالعبودية؛ أي: أنه عبد معبد لله ﷻ وليس له مع الله شيء ولا يستحق من الألوهية شيئًا، ولا من الربوبية، وإنما هو عبد مكلف قام بعبودية الله حسب استطاعته وما مكنه الله منه؛ وقد ذكر الله رسوله بلفظ العبد في أشرف المقامات التي شرفه بها؛ كمقام

(١) هذه الأبيات للبوصيري.

التحدي كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وفي مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقام إنزال الوحي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فكلها ذكرها بلفظ العبودية مما يدل على أن العبد إذا قام بعبودية ربه فهذا منتهى الشرف، وغاية الكمال.

وإذا أضيف شيء قائمٌ بنفسه إلى الله تعالى فلا يكون ذلك إلا من باب الإضافة إلى الربوبية الخاصة أو الربوبية العامة، أو أن يكون ذلك مما يحبه الله ﷻ، ويرتضيه فيكون من باب التشريف والإكرام، أما إذا كان المضاف إلى الله ﷻ معنى من المعاني لا يقوم بنفسها؛ كالسمع والعلم والبصر، فلا بد أن يكون هذا صفة، والصفة لا بد أن تقوم بموصوف، لا تقوم بنفسها، فعلى هذا يكون المضاف إلى الله نوعين:

إما أن يكون غير قائم بنفسه بل هو معنى فيكون من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أو يكون عينًا قائمة بنفسها فيكون من باب إضافة المخلوق إلى خالقه إضافة تشريف، أو إضافة عبودية والله يحبه، كبيت الله، وناقة الله، ورسول الله، وما أشبه ذلك.

وكذلك رسوله -يعني: وصفه بأنه رسول الله- يدل هذا على أن العبد يجب أن يكون جامعًا في اعتقاده بين محبته لرسول الله ﷺ ومتابعته، فلا يكون جافيًا، ولا يكون غاليًا؛ لأن من الناس من رفع رسول الله ﷺ إلى مقام الربوبية، ومنهم من جعله إلهًا يعبده ويدعوه، ويستغيث به، ومنهم من قصر في محبته ومتابعته، فلم يطعه، ولم يتبعه، فلا بد من محبته ﷺ وتكون محبته مقدمة على محبة الولد

والوالد والنفس والأهل والمال والدنيا كلها، لأن هذا أمر ديني أَمَرَ الله ﷻ به.

وقوله: «**وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله**»: جمع في هذا الحديث بين محمد ﷺ وعيسىٰ عليه السلام؛ لأن كل واحد لا بد أن يشهد أنه عبد الله ورسوله، لأن الغلو حصل في هذين النبيين الكريمين، فعيسىٰ عليه السلام ضلَّت فيه طائفتان من الناس، فالنصارىٰ زعموا أنه الله، أو أنه ابن الله، أو أنه شريك الله - تعالىٰ الله وتقدس -، واليهود زعموا أنه ابن بغي قاتلهم الله، فلا بد من مخالفة هذه العقائد الفاسدة، ولهذا يقول النووي رحمه الله علىٰ هذا الحديث: هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع، أو من أجمع الأحاديث المشتملة علىٰ العقائد فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر علىٰ اختلاف عقائدهم وتباعدهم، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف علىٰ ما يباين به جميعهم[١].

ويقول القرطبي رحمه الله: وفيه بيان لما يلقنه النصراني إذا أسلم[٢]. فلا بد أن يلقن هذا الحديث يقال له: إشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه. الحديث.

وقوله: «**وعيسىٰ عبد الله ورسوله**»؛ يعني: أنه عبد معبدٌ تعبده الله وتجري عليه أحكام العبودية، ليس له شيء من الألوهية وليس له اشتراك مع الله في ربوبيته، وهذا علىٰ كل أحد من الخلق مقربيهم وغيرهم، والمؤلف رحمه الله يقول في المسائل: فيه التنبيه علىٰ الجمع بين محمد وعيسىٰ عبدي الله ورسوله. فمقصوده في هذا أن الجفاء والتطرف وقع في النصارىٰ واليهود وأنه يقع في هذه الأمة، فلا بد من الاعتدال في هذا لا بد أن يشهد أنه عبد الله، ومعنىٰ عبد أي : أنه مملوك له معبد ليس له مع الله شيء في ملكه وتدبيره، وأنه لا يُسأل ولا يَستقِلُ بشيء دون الله. أما الشفاعة فهي ملك لله ﷻ، وليس له منها شيء، وإنما الله ﷻ يكرمه بإذنه له،

---

(١) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (١/ ٢٢٧).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٧٥).

يرفع قدره، وإذا أراد أن يرحم من شاء من عباده أمره بالشفاعة إظهارًا لكرامته، ورحمة لهذا المشفوع له، وإلا فالشفاعة ملك لله ﷻ كما قال ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٣، ٤٤].

والرسول عبد مثل العباد الآخرين، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، المثلية واقعة من جميع الجوانب إلا أنه شرفه الله بالوحي وبالرسالة، فلا بد أن يشهد العبد بهذا أنه عبد من عباد الله الذين تعبدهم الله، وأنه ليس له من الأمر شيء، هذا مراد المؤلف ؒ، وهو الواجب.

ثم الجانب الثاني وهو الجفاء، وهو كون العبد لا يشهد أنه رسول فلا يطيعه ولا يتبعه فلا بد أن يشهد أنه رسول، ولا بد من أن يعطىٰ حقه من الحب والاتباع، فنحبه ﷺ أكثر من محبة النفس والولد والوالد، والناس أجمعين.

وكذلك عيسىٰ يجب أن تعتقد أنه عبد معبَّد، غير أنه خُلق من أنثىٰ بلا ذكر بيانًا لكمال قدرة الله ﷻ، ولهذا خُلق بنو آدم علىٰ أربع صور:

الأولىٰ: الأصل الذي هو من التراب، وهو آدم ؑ.

الثاني: أنه خلق أنثىٰ من ذكر، وهذا أيضًا عجيب وهي زوجه، ولهذا قال العلماء: فيه حكمة كون الرجل يميل إلىٰ المرأة، والمرأة تميل إلىٰ الرجل؛ لأنها جزءٌ منه.

الثالث: خلق من ذكر وأنثىٰ.

الرابع: ما حصل لعيسىٰ ؑ من أنثىٰ بلا ذكر.

ويشهد العبد أن عيسىٰ ؑ رسول الله أكرمه الله بالرسالة كغيره من الرسل، وهو من أولي العزم من الرسل.

قوله: «وكلمته»: الضمير يعود على الله ﷻ، والكلمة مضافة إلى الله. وهذه الكلمة ضل فيها طائفتان: طائفة النصارى، وطائفة الجهمية. الجهمية قالوا كلمة الله مخلوقة -يعني: كلام الله مخلوق- لقوله: «وكلمتُه»؛ فوصف عيسى بأنه كلمة وعيسى بلا شك مخلوق فإذا الكلام مخلوق هذه شبهتهم. والنصارى قالوا: إنه جزء من الله -تعالى الله وتقدس- لأنه قال: «وروحٌ منه». والحق: أنه كلمته أوجده بكلمته، قال الله له كن فكان، فكان بالكلمة، وليس هو الكلمة، الكلمة وصف لله، ولكنه تكون بها كغيره من المخلوقات التي إذا أرادها ﷻ قال لها: كوني فكانت. وجاء وصف ذلك في القرآن أن الله أرسل الملَك متمثلًا ببشر في خلوتها وتعبدها: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، فأخبرها أنه ليس بشر إنما هو ملك: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] مولودًا مباركًا، ونفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في فرجها فحملت به، وجاءت به وهذا من آيات الله ﷻ، ولهذا جعله الله آية.

وقوله: «وروحٌ منه»؛ يعني: أنه أرسل بهذه الروح التي نفخ فيها أرسل بها جبريل عليه السلام إليها، فكونه فعل ذلك بأمر الله أطلق على ذلك أنه روح منه مع أن هذا وصف به آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، ولكن مريم نفخ فيها جبريل، فجبريل هو الذي نفخ، والروح هي النفخة، ولكن جبريل لا يفعل شيئًا استقلالًا وإنما هو بأمر الله، ولهذا صح أن يضاف إلى الله -وروح منه- والمفسرون يقولون: إنه مثل سائر الأرواح؛ لأن كل مخلوق يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح إذا بلغ حدًّا معينًا في بطن أمه مثله مثل سائر الأرواح، قال أُبي بن كعب: عيسى روحٌ من الأرواح التي خلقها الله تعالى، واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل فيها.

وقوله: «منه» يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: إنه مخلوق بأمر الله، كائن منه، وهذا كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ يعني: أنه كائن منه؛ كما أن معنى الآية الأخرى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه؛ أي: أنه مُكوِّنُ ذلك، وموجودة بقدرته وحكمته. انتهى[1].

«﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾»؛ يعني: خلقًا وتسخيرًا، فهو لا يمكن أن يوجد حركة، أو سكونًا إلا بأمره وتدبيره جل وعلا، فلا بد من معرفة هذا المعنى أنه روح منه؛ يعني: نُخالف ما يقوله الضلال.

وقوله: «**والجنة حق والنار حق**»: الحق هو الثابت، يقال: حق في المكان إذا ثبت فيه، واستقر، أو هو الصدق الذي يطابق الواقع.

فالجنة التي وعدها الله جل وعلا المتقين حق ثابت بلا ريب، فهو حق وأمر حق، والنار حق أعدها الله لأهل المعاصي، ولأهل الكفر، والله ذكر في كتابه كثيرًا أنهما معدَّتان موجودتان.

وفي هذا دليل على أن الجنة موجودة، والنار كذلك موجودة بلا شك، والمعتزلة يقولون: الجنة غير موجودة الآن، ستوجد، فهم قاسوا الرب سبحانه على أفعالهم، ولهذا سمَّاهم أهل السُّنَّة مشبهة الأفعال نفاة الصفات، يشبهون أفعال الرب بأفعالهم من باب القياس يقولون مثلًا: لو أن شخصًا بنى بيتًا وأودعه أصناف الأثاث والمأكولات، ثم أغلقه لا يكون هذا حسنًا، وكذلك الجنة إذا كانت مخلوقة ومعطلة من السكان وكذلك النار فهذا لا يصلح وهو عبث والله يتعالى عن العبث، فهي تخلق عند الحاجة إليها فهم يحكمون على الله بآرائهم.

وقد تكاثرت النصوص في ذكر الجنة والنار، وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله أطلعه

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٧٥).

عليهما؛ فعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»(١)، ولما كسفت الشمس وصلىٰ بالناس حصل منه التقهقر، ثم تقهقرت الصفوف خلفه ثم تقدم، فلما سئل عن ذلك قال: «**عرضت عليّ الجنة والنار دون هذا الحائط حتىٰ أني رأيت في النار عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه؛ لأنه أول من غيَّر دين إبراهيم** عليه السلام**، ورأيت في النار امرأة في هرة حبستها حتىٰ ماتت لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض فرأيتها تخمش وجهها في النار**».

وقال كذلك: «**ورأيت الجنة حتىٰ هممت أن آخذ منها قطفًا** (يعني: عنقود عنب) **ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ثم بدا لي أن لا أفعل**»(٢). ولهذا نص العلماء علىٰ وجوب اعتقاد وجود الجنة والنار وأنهما معدتان، الجنة أعدت للمتقين، والنار أعدت للكافرين.

قوله: «**أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل**»: هذا جواب الشرط «من شهد»، ومعنىٰ أدخله الله علىٰ ما كان من العمل؛ يعني: أنه يدخله الجنة وإن كان عنده تقصير وإن كان عنده ذنوب، ففي هذا دليل واضح علىٰ فضل التوحيد، وأنه يكفر الذنوب، وهذا ما أراده المؤلف من إيراد هذا الحديث.

قول المؤلف رحمه الله: **ولهما في حديث عِتبان: «فإن الله حرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»**(٣).

التحريم: هو المنع من الشيء مطلقًا، فمعنىٰ حرم أنه امتنع أن يدخل النار فلا يدخلها أصلًا، وهذا جاءت فيه أحاديث كثيرة حتىٰ قال شيخ الإسلام ابن

(١) البخاري رقم (٣٢٤١)، ومسلم رقم (٢٧٣٧).
(٢) رواه مسلم رقم (٩٠٤).
(٣) رواه البخاري رقم (٤٢٥)، ومسلم رقم (٣٣).

تيمية ﷺ: قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردله، وما يزن ذرة.

وتواترت أيضًا أن كثيرًا ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار، ثم يخرج منها. وتواترت الأحاديث بأن الله حرَّم علىٰ النار أثر السجود من بني آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون، ومعلوم أن الذي يسجد ويصلي أنه يقول: لا إله إلا الله.

وتواترت الأحاديث بأن الله يُحرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكن جاءت مقيدةً بالقيود الثِّقال. والأحاديث في هذا ثلاثة أقسام:

◀ **أحاديث جاءت في**: أن من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ الذي مر معنا، وليس فيه أن النار محرمة، أو هو محرم عليها.

◀ **وأحاديث فيها**: أن من قال لا إله إلا الله أنه يحرم علىٰ النار، أو أن النار تحرم عليه مثل: حديث معاذ ﷺ الذي في الصحيحين عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ -ومعاذ رديفه علىٰ الرَّحل- قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك -ثلاثًا- قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله تعالىٰ علىٰ النار**»، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا، قال: «**إذًا يتكلوا**»، فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا(١).

◀ **وأحاديث كثيرة ومتواترة**: أن الله حرم علىٰ النار أثر السجود أن تأكلها مثل اليدين والركبتين، وأطراف القدمين، والجبهة، والأنف، ومعنىٰ هذا أنَّ مِنَ المصلين مَن يدخلون النار.

◀ **وأحاديث فيها**: أنه يُخرج من النار من كان في قلبه ما يزن شعيرة من الخير، وفي أخرىٰ مثقال ذرة، وفي أخرىٰ مثقال خردلة، والجمع بين هذه الأحاديث:

(١) رواه البخاري رقم (١٢٨)، ومسلم رقم (٣٢).

أولًا: أحاديث الرسول ﷺ لا يناقض بعضها بعضًا، بل يصدق بعضها بعضًا.

وأحسن الجمع في هذا أن الأحاديث التي فيها دخول الجنة، ودخول النار ليس فيها إشكال؛ لأن الأحاديث التي فيها أنه يدخل الجنة ليس فيها أنه يحرم علىٰ النار، يجوز أنه يعذب في النار ثم يدخل الجنة، ويجوز أن يدخل الجنة بلا عذاب، فالرسول ﷺ أخبر أن من أمته سبعين ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وبيَّن أن سبب سبقهم إلىٰ الجنة أنه بإخلاصهم التوحيد، ولكن التي فيها إشكال الأحاديث التي فيها تحريم النار عليهم، أو تحريمهم علىٰ النار، فقالوا إن أحسن الجمع في الأحاديث التي فيها أنه يحرم علىٰ النار، أو أنه محرم هو علىٰ النار، أنه فيمن قالها بالقيود التي جاءت مقيدة بها في الأحاديث صادقًا مخلصًا يبتغي بذلك وجه الله، وأنه إذا قال هذه الكلمات علىٰ هذه الصفة يكون تائبًا غير مُصِرٍّ علىٰ ذنب أصلًا، تائبًا توبةً نصوحًا، ثم يموت بعد ذلك علىٰ هذه التوبة، وعلىٰ هذا القول الذي صدر منه بصدق وإخلاص وابتغاءٍ لوجه الله؛ لأنه إذا جاء بها علىٰ هذا الوجه فإن الذنوب كلها تكون مكفرة بل قد انقلبتْ ذنوبه حسنات.

أما الذين يدخلون النار، فقوم قالوها ولم يسلموا من الشرك الأصغر والذنوب، فكان قولهم قد أضعفته السيئات، فرجحت سيئاتهم علىٰ حسناتهم فلم يصلوا في نطقهم لها المرتبة التي تجعلهم تائبين غير مصرِّين علىٰ الذنوب، وتفاوت الناس في هذا تفاوتًا عظيمًا حتىٰ قال ابن القيم رحمه الله: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه علىٰ الله عز وجل، والآخر ساهٍ غافل، فإذا أقبل العبد علىٰ مخلوق مثله، وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالًا ولا تقربًا، فما الظن بالخالق عز وجل [١]. كلاهما ينطقان بشيء واحد ويعملان عملًا واحدًا لا يختلفان في العمل، ولكن يختلفان بما في قلبيهما.

---

(١) الوابل الصيب (ص٤٦).

ولهذا يكون المعنىٰ أن العبد إذا تكلم بهذه الكلمة فإما أن يكون مخلصًا صادقًا موقنًا، ثم إخلاصه وصدقه يجعله تائبًا من جميع الذنوب التي عملها توبة نصوحًا فلا يصبح مصرًّا علىٰ أي ذنب، ثم يموت علىٰ هذه الصفة، وإن عمل أعمالًا أخرىٰ من الذنوب فإنه يسارع إلىٰ التوبة، وإلىٰ إحراق هذه الذنوب بهذه الكلمة صادقًا موقنًا فيموت علىٰ هذا مباشرةً، فالقائل لها لا يخلو إما أن يقولها علىٰ هذه الصفة، أو يقولها تقليدًا من دون أن يعرف المعنىٰ، وبدون أن يعمل بالمدلول، فمثل هذا لا تنفعه فهذا يكون من أقرب الناس إلىٰ قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فيكون له نصيبًا من هذا ويخاف عليه أن يكون ممن إذا امتحن في قبره أن يقول: ها ها لا أدري سمعت الناس يقولون هذا فقلته، أو يكون ممن يقولها بصدق، وإخلاص ومحبة ويقين، ولكن بعد ذلك طرأ عليه من الذنوب، ومن الشرك الأصغر الذي رجح سيئاته علىٰ قولها، فاستحق دخول النار، والعذاب، ثم بعد ذلك يخرج من النار إلىٰ الجنة، فتكون الأقسام ثلاثة:

◄ **قسمٌ لا ينتفع بقولها**؛ لأنه لم يقلها عن علم، وصدق، وإخلاص، بل قالها تقليدًا وعادة فقط فهذا بالإجماع أنه لا ينفعه، لو أن رجلًا مثلًا: لا يعرف المعنىٰ، ولا يعرف اللغة ولكن سمع الناس يقولون شيئًا فقاله بلسانه؛ يعني: سمعهم يقولون: لا إله إلا الله، فقال ذلك بلسانه وهو لا يعرف مدلولها ولا معناها، وكذلك رأىٰ الناس يصلون فصلىٰ، ورأىٰ الناس يصومون فصام، ورآهم يحجون فحج وهو لا يعرف المعنىٰ، ولا يعرف المراد، فهل يكون هذا مسلم؟ الجواب: أنه ليس بمسلم، لا بد أن يكون المسلم عالماً بما في قلبه، معتقداً أن دين الإسلام حق ، أما مجرد نطق فهذا لا ينفع، ومعلوم تفاوت الناس في العلم وكذلك في قول هذه الكلمة، فجاءت الأحاديث دالة علىٰ تفاوت الناس وليس بين الأحاديث إشكال.

◄ **وقسمٌ قالها بصدق، وإخلاص، ويقين**، لكنه خلط عملًا صالحًا، وآخر سيئًا، فطرأ

عليه من الذنوب والشرك الأصغر ما أضعف تأثير هذه الكلمة فرجحت سيئاته علىٰ حسناته، فإن كان قائلها قد اجتنب الشرك الأكبر، وبقي عنده الشرك الأصغر، والأصغر تدخل فيه المعاصي كبخله- بحب المال- ببعض الواجب فيمتنع من بذله فهذا نوع من الشرك الأصغر، وحبه ما يبغض الله حتىٰ يقدم هواه علىٰ محبة الله ونحو ذلك، فإذا كان هذا الذي قالها عنده شيء من الصغائر ومات علىٰ التوحيد فالصغائر يرجىٰ أن تكفر باجتناب الكبائر، كما قال ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فلا يكون من أهل النار، وأما إذا كان مصرًا علىٰ شيء من الكبائر، فالكبائر جاءت النصوص الكثيرة بالتوعد عليها في النار مثل: أكل الربا، وأكل مال اليتيم ونحو ذلك، فهو إلىٰ مشيئة الله ﷻ إن شاء أن يعذبه في النار عذبه، وإن شاء أن يعفو عنه عفا، فالأمر إلىٰ الله ﷻ فهذا وإن استحق دخول النار، والعذاب، فإن مصيره إلىٰ الجنة.

وفي هذا ينفصل أهل السُّنَّة عن المعتزلة، والخوارج الذين يكفِّرون بالذنوب أما الخوارج فعندهم الناس قسمان فقط: بر تقي، وفاجر شقي، ليس فيهم وسط وهم يقترحون علىٰ الله أن يكون الخلق هكذا، وهذا تحكم وجهل فأكثر الخلق ليسوا كذلك.

وأما المعتزلة فجعلوا الفاسق في منزلة بين المنزلتين لا هو في الإيمان ولا هو في الكفر بين الكفر والإيمان؛ كالشاة العائر التي تكون بين القطيعين من الضأن، مرة تلتفت هنا ومرة تلتفت هنا، هذا في الدنيا فهو لا يُعطىٰ حكم المؤمن ولا يُعطىٰ حكم الكافر ولكن في الآخرة يكون في النار، فهم يتفقون مع الخوارج في الحكم عليه ويختلفون عنهم في التسمية، وهذه بدعة ابتدعوها ما سبقهم إليها أحد واختصوا بها، والعجيب أنهم جعلوا هذا أصلاً من أصول الإسلام؛ لأن أصول الإسلام عندهم خمسة هذا أحدها، وكلها خلاف ما جاء به النبي ﷺ. والمعتزلة لهم وجود اليوم ولهم كتب انتشرت الآن بكثرة، بل يوجد منهم دكاترة، وموجهون،

ومدرسون، وناس يتبنون هذا المذهب، وإن كان قد يضاف إليه بعض الصفات من التحسين والأمور التي لا قيمة لها ولا تعتبر.

فالمقصود أن الإنسان لا بد أن يعرف الباطل حتىٰ يجتنبه خشية أن يقع فيه، ولا سيما إذا كان الباطل له أنصار، وله كتب، وله من يقرر ذلك ويكتب فيه. والفرق السالفة التي سلفت وإن كان أئمتها ودعاتها قد ذهبوا، فلا بد من أن لهم وارثًا يتبعهم، فإن لكل قوم وارثًا، ولكن قد تختلف الأساليب وتختلف العبارات، والمعنىٰ واحد.

◄ **وقسم قالها بصدق وإخلاص ويقين مبتغيًا بذلك وجه الله**، وتاب من الذنوب توبة نصوحًا، ولم يكن مصرًّا علىٰ ذنب أصلًا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذًا لا يبقىٰ في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهية لما أمر الله، فهذا الذي إذا مات علىٰ هذه الصفة يكون محرمًا علىٰ النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك. فإن هذا الإيمان، وهذا الإخلاص، وهذه التوبة، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يترك له ذنبًا إلا مُحيَ عنه، بل قد تنقلب ذنوبه حسنات كما سبق.

وقوله: «يبتغي بذلك وجه الله»: هذا هو الإخلاص، والإخلاص لا بد فيه من الصدق، والعلم؛ العلم بمعنىٰ هذه الكلمة والصدق معناه أن يأتي بالعمل. فكفار قريش يعرفون معنىٰ هذه الكلمة وأن الذي يقولها ينتقل من دين إلىٰ دين؛ لأنه لو كان مجرد قول مثل ما عليه كثير من الناس اليوم يقولونها تقليدًا وعدم معرفة لمعناها الحقيقي لسارعوا إلىٰ قولها، ولم يكن بينهم وبين رسول الله ﷺ أي خلاف، ولكنهم عرفوا أن من قال: لا إله إلا الله يكفر بكل معبود من دون الله وأن يكون عبدًا مخلصًا لله ﷻ، ممتثلًا لأمره، مجتنبًا لنهيه فتكون عبادته لله وحده، وليس لأحد منها شيء، فإذا قال هذه الكلمة بصدق وإخلاص ويقين مبتغيًا وجه الله، ولم يأت بما يناقض هذه الكلمة أو ينقصها وتاب توبة نصوحًا ومات علىٰ ذلك فإنه يدخل الجنة، ويكون محرمًا علىٰ النار، وتكون ذنوبه معفوًا عنها بفضل الله

وكرمه، وإلا لا يمكن العبد أن يتخلص من الذنوب نهائيًا فلا بد منها وهي التقصير في الأوامر، وكذلك ارتكاب بعض النواهي، هذا أمر لا ينفك منه أحد من خلق الله إلا من شاء الله، ولهذا جاء في الحديث عن أنس أن النبي ﷺ قال: **«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوَّابون»**(١).

فالمقصود أن هذا الحديث يدل على أن من قال هذه الكلمة عالمًا بها وبمدلولها وعاملًا بما تقتضيه مخلصًا بذلك فإن النار تكون عليه محرمة، فمعنى ذلك أنه يُعفى عنه جميع ذنوبه، وهذا ظاهر جدًا في فضل التوحيد، وأنه يكفر الذنوب؛ كالحديث الذي قبله.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا ربِّ علِّمني شيئًا أذكرُكَ وأدعوك به. قال: قُل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كلُّ عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السماواتِ السبعَ وعامِرهُنَّ غيري والأرضين السبعَ في كِفةٍ، ولا إله إلا الله في كفةٍ، مالت بهن لا إله إلا الله»، رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه وقال: على شرط مسلم، وأقره الذهبي على ذلك(٢).

يجوز أن يكون هذا من باب الوحي، وأن يكون من باب المخاطبة؛ لأن موسى هو كليم الرحمن، كلمه بلا واسطة، موسى في الأرض، والله جل وعلا على عرشه وكذلك آدم عليه السلام شاركه في هذا، ولكن على غير هذه الصفة ، وكذلك محمد ﷺ حينما عرج به إلى السماء وخاطبه الله جل وعلا، وفرض عليه الصلوات.

قوله: «يا ربّ علمني»: معلوم أن الرسل من بني آدم يحتاجون إلى التعليم، ويحتاجون إلى التنبيه، ولهذا موسى من أولي العزم، ويطلب ربه جل وعلا أن يعلمه شيئًا

(١) الترمذي رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه رقم (٤٢٥٠)، والمسند رقم (١٣٠٧٢)، وابن أبي شيبة رقم (٣٤٢١٦)، والمستدرك رقم (٧٦١٧).

(٢) السنن الكبرى رقم (١٠٩٨٠)، والمستدرك رقم (١٩٣٦)، وصحيح ابن حبان رقم (٦٢١٨).

يخصه به فهم فقراء إلىٰ الله ﷻ، ولا علم لهم إلا ما علمهم الله إياه.

قوله: «**شيئًا أذكرك وأدعوك به**»؛ يعني: أثني عليك به، وأتوسل به إليك حتىٰ تقربني إليك، وترفع درجتي، وهذا هو الأدب الذي ينبغي للمسلم أن يتبعه قبل أن يدعو يثني علىٰ ربه، والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته التي يتعرف بها إلىٰ عباده؛ والرسل يلجأون إلىٰ ربهم بل هم أشد الناس خوفًا من الله، وأعلم الخلق بالله، وهم أرعىٰ الناس لحدود الله ومحارمه، ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي**»[١].

قوله: «**أدعوك به**»؛ أي: أسألك، وقد جاء من أسباب الإجابة أن يكون العبد بهذه الصفة يثني علىٰ ربه أولًا، ثم يصلي علىٰ نبيِّه ﷺ، ثم يذكر مسألته، وهذا لا يجوز الإخلال به؛ لأنه من أسباب الإجابة، والمسلم بحاجة دائمًا إلىٰ الابتهال إلىٰ الله ودعائه، وكما جاء عند الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة**»[٢]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، وحكم الأمر هنا واجب، ولهذا جاء في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٣]، وابن آدم إذا سُئل غضب؛ لأنه فقير، فعلىٰ هذا يجب أن يكون العبد متعرفًا علىٰ طريقة الرسول ﷺ في هذه العبادة وهي التي يشير إليها هذا الحديث؛ ومعنىٰ ذلك أن هذه هي طريقة الرسل هكذا يثنون علىٰ ربهم ثم يدعونه، ويدلنا أيضًا علىٰ أن هذه العبادة

---

(١) رواه مسلم رقم (١١١٠).

(٢) الترمذي رقم (١٤٧٩)، وابن ماجه رقم (٣٨٢٨)، وأبو داود رقم (١٤٧٩)، وأحمد في المسند رقم (١٨٣٧٨).

(٣) الترمذي رقم (٣٣٧٣)، والمسند رقم (٩٦٩٩)، والمستدرك رقم (١٨٠٦).

لا يستغني عنها عبد كل عبد مضطر إليها، وإن كان الناس يُعرضون عن هذا الشيء، ولا يلجأون إلىٰ الله إلا في الضرورات، أو عندما يحتاجون إلىٰ ذلك.

قوله: «قال: قل يا موسىٰ: **لا إله إلا الله**»: في هذا أن لا إله إلا الله ثناء ودعاء معًا، الثناء كونه الإله الحق الذي يملك كل شيء وبيده تصريف كل شيء؛ لأن هذا من لازم لا إله إلا الله.

ودعاء؛ لأنه يأله ربه، ويخضع، ويذل له، فهو عبده الذال الخاضع المنيب المستكين الذي لا يرجو إلا إياه، ولا يخاف غيره، ولا يُسأل إلا إياه.

وكأن موسىٰ عليه السلام أراد شيئًا يختص به دون سائر الخلق، أما هذه الكلمة فالمسلمون كلهم يقولونها، ولكن في هذا أن هذه الكلمة مع كثرتها، وسهولتها هي أفضل الذكر والدعاء، وحكمة الله جل وعلا وإحسانه أن الشيء إذا كان الناس إليه أحوج فوجوده يكون أكثر وأعم، وهذه سُنَّة الله جل وعلا، فانظر مثلًا إلىٰ الماء لو كان عند بعض الناس فقط ماذا يكون والهواء أو الأمور الثابتة مثل: الملح لو كان عند بعض الناس يحتكره ولكن كثر جدًا لكثرة الحاجة إليه، وهذا من معاني الربوبية؛ لأن من معاني الربوبية كونه يربي خلقه، ويربِّهم بالنعم التي يحتاجون إليها، والناس إلىٰ هذه الكلمة أعظم حاجة إلىٰ الأكل والشرب، والهواء، والتنفس ، ولهذا كانت سهلة ميسورة، وهي أفضل الكلام، وأفضل الذكر، وأفضل الثناء علىٰ الله جل وعلا، وأفضل ما يتوسل به إليه؛ لأنها هي كلمة الإخلاص، وهي الكلمة التي تجمع عبادة الله وتجعلها خالصة له جل وعلا إذا فهم معناها، وعُمل بمدلولها، وقد جاءت الأحاديث في بيان فضلها عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ كحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «**خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير**»، رواه الإمام مالك، والترمذي[1]، فهي

(١) الترمذي رقم (٣٥٨٥)، وموطأ مالك رقم (٩٤٥).

أفضل الذكر وأكثره ثوابًا وأكثره تكفيرًا للذنوب؛ لأنها مبنية على الإخلاص، والإخلاص لا يعدله شيء، ولهذا يجب أن يأتي بها العبد كاملة يقول: لا إله إلا الله. ولا يصنع كما تصنع جهلة المتصوفة المبتدعة يقولون: (الله، الله) أو بعضهم يقتصر على لفظ: هو، وقد ألف ابن عربي كتابًا سمَّاه «كتاب الهو»، وهم في هذا كالكلاب التي تنبح إذا ذكروها، فهذا من البدع التي يحبها الشيطان، ولم يأت بها نص لا من كتاب ولا من سُنَّة.

أما زعمهم أن هذا من شدة التعلق بالله ولأنهم لا يستطيعون أن يقولوا: لا إله إلا الله خوفًا أن يموت قبل أن يكملها فيموت بين النفي والإثبات، فهذا من الهراء والادعاء الذي لا يقبل أصلًا ولا معنى له.

«لا إله إلا الله»: وإن كان لفظها خبر، فالمقصود بها الإنشاء كما قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، والإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب خوفًا وحبًا وذلًّا له، وأن هذه تدل على أن التوحيد له ركنان:

النفي والإثبات، لا بد من النفي، ولا بد من الإثبات؛ النفي معناه: أن تنفي ألوهية كل مألوه، وتثبت التأله لله ﷻ، وفي الركن الأول إبطال الشرك، وإبطاله يقتضي الكفر به، والبعد عنه، وكذلك معاداة أهله ومحاربتهم، ولا يكفي كونك عدوًّا لهم، لا بد أن يكون هذا في القلب، ولا بد أن تبدأهم بالعداوة، ولا بد من جهادهم.

قال: «كل عبادك يقولون هذا»: «يقولون» بإثبات النون، نظرًا لمعنى «كل»، ولكن في أكثر الأصول «يقولوا» بحذفها نظرًا للفظ كل، ولأن كل معناها الجمع، والثاني لفظها الإفراد، فالمعنى أنه جائز إثبات النون وحذفها، والمعنى أنه يريد عليه السلام شيء يخصه به دون الخلق، ومن طبيعة العبد أنه يفرح بالشيء الذي يختص به هو، ولكن في ضمن هذا التنبيه على فضل لا إله إلا الله.

قوله: «قال: يا موسىٰ لو أن السماوات السبع »: هذا نص في أن السماوات سبع، وهذا جاء كثيرًا في النصوص، ولهذا أكثر ما يرد ذكر السماوات بالجمع بخلاف الأرض جاءت في القرآن بالإفراد إلا في آية واحدة، وليست أيضًا صريحة في قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] مثليه فقط، ولكن جاء في الأحاديث النص علىٰ أنها سبع كما في صحيح البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين أناس خصومة في أرض فدخل علىٰ عائشة فذكر لها ذلك، فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن رسول الله ﷺ قال: «**من ظلم قِيد شبر طُوقه من سبع أرضين**»[1].

وقوله: «وعامرهن»: هذا نص أن لكل سماء عامر، والعامر هم العباد الذين يكونون فيها يعمرونها بالطاعة. السماوات الذين فيها عمَّار، أما الأرض فالذين فيها أكثرهم مفسدون وليسوا عامرين، ولهذا جاءت الآيات التي يُخاطب بها الرسل قومهم، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإفساد في الأرض بالمعاصي، والإفساد من بني آدم ومن الجن، وهؤلاء هم الذين يكونون ملء جهنم، كما هو معلوم في كتاب الله ﷻ. فالمقصود هنا عامرهن؛ يعني: عامر السماوات، والعمارة بالطاعة، ومعلوم أن سكان السماوات ملائكة، فهي مملوءة من الملائكة، ولهذا جاء ذكر الملائكة في القرآن إذا تأملته بلفظ الجماعات كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات: ١- ٢] يذكرهم بلفظ الجماعة لكثرتهم فهم كثيرون جدًا، فعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرىٰ ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش،**

(١) البخاري رقم (٣١٩٥)، ومسلم رقم (١٦١٢).

ولخرجتم إلىٰ الصُّعُدات تجأرون إلىٰ الله، لوددت أني كنت شجرة تعضد»[(١)]، والسماء علىٰ عظمتها، وسعتها معمورة بطاعة الله ﷻ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يلهمون التسبيح، والتحميد والتقديس مثل ما نُلْهَم النفس.

هذه الكثرة التي في السماء، وهذه السعة جاء أن السماء لها سُمْك مسيرة خمسمائة عام فهي ليست مجرد سقف، فيها درجات وفيها مساكن بعضها فوق بعض، وهي متفاوتة، ففيها أماكن كثيرة وعمَّار كثيرون إذا تصورت هذه الكثرة، والسماء الدنيا محيطة بالأرض من جميع الجهات، من أي جهة ذهبت في الأرض إذا السماء فوقك؛ لأن الأرض شبه البيضة في قلب السماء، والسماء التي فوق السماء الدنيا محيطة بها من جميع الجهات، فالثانية أوسع من الأولىٰ بكثير جدًا والثالثة أوسع من الثانية، وهكذا إلىٰ السماء السابعة، وهي أوسع السماوات كلها ثم الكرسي، والسماوات كلها كأنها سبعة دراهم ألقيت في أرض فلاة بالنسبة للكرسي، ثم العرش الذي هو أكبر المخلوقات وسقفها، وهذه أمور يجب أن يُفكر فيها العبد حتىٰ يدله ذلك علىٰ عظمة الله ﷻ، فيخلص له العبادة ويفتقر إليه ويسأله، وهو يعني: العبد ذرة من الذرات المخلوقة، وهو مذكور عند ربه لا يخفىٰ عليه شيء من تصرفاته وكلامه، وحاله، ويحمد الله أن جعله عبدًا له ليس عبدًا للشياطين، أو عبدًا لفرجه أو بطنه كما هو الواقع لأكثر الناس، وهذا أنفع ما يكون للإنسان أنه يفكر في هذه الأشياء.

قوله: «**وعامرهن غيري**» استثنىٰ نفسه ﷻ، وهذا يدلنا علىٰ أن الله ﷻ في السماء، وقد جاء قوله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] من هو الذي في السماء أمنَّاه؟ لا يجوز أن يكون نأمن من عذاب الله،

---

(١) الترمذي رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه رقم (٤١٩٠)، وأحمد في المسند رقم (٢١٥٥٥)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٨٨٣).

وقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، كما يقول أهل السُّنَّة: ﴿فِي﴾، إما أن تكون بمعنىٰ: (علىٰ)؛ كقوله ﷻ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]؛ يعني: علىٰ الأرض ليس معناه أنكم تدخلون في قلب الأرض، وكقوله عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: علىٰ جذوع النخل وليس أنهم يصلبون في قلب الجذع؛ فمعنىٰ هذا: أن ﴿فِي﴾ تأتي بمعنىٰ علىٰ، أو تكون السماء المقصود بها العلو، وكلاهما ثابت في النصوص، هذا وهذا وكلاهما حق، أما أن يفهم أن ﴿فِي﴾ تدل علىٰ الظرفية فهذا فهم خاطئ ولا يجوز أن يفهمه عبد بالنسبة لله ﷻ، فالله ﷻ لا ظرف له، ولا يكون شيء مقلًّا له ومظلًّا له -تعالىٰ الله وتقدس-، وأما العرش فليس معناه أنه يقله لأنه بحاجة إليه، بل العرش بحاجة إلىٰ الله، فهو الذي يمسك العرش بقدرته ﷻ، فهو الغني عن العرش وعن كل شيء، الغني بنفسه عن كل ما سواه، وهو أكبر من كل شيء، ولا ينافي هذا إخبار الرسول ﷺ أن الله ينزل آخر كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا(١)، وكذلك ينزل إلىٰ الأرض في يوم القيامة يحاسب خلقه(٢)، فهو ينزل إلىٰ السماء الدنيا وإلىٰ الأرض، وهو فوق عرشه ولا يكون شيء فوقه بل هو فوق كل شيء، ولهذا يقول أهل السُّنَّة: العلو صفة ذات، ومعناه أنها لا يجوز أن تفارق رب العالمين، دائمًا متصف به، أما صفة الفعل فهي تتعلق بمشيئته إذا شاء فعلها مثل النزول، ومثل المجيء، ومثل الخلق والرزق، والهدىٰ والضلالة وما أشبه ذلك.

وقوله: «**والأرضين السبع**»: ولم يقل: وعامرهن، والسبب أن أكثر من في الأرض مفسد، وليس عامر، ولكن دخلوا في العموم غير أنهم ما نص عليهم لفسادهم.

---

(١) رواه مسلم رقم (٧٥٨) ولفظه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مضىٰ شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله ﷻ إلىٰ السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطىٰ، هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، حتىٰ ينفجر الصبح**»، وفي المسند برقم (٨٩٦٢).

(٢) الترمذي رقم (٢٣٨٢)، وصحيح ابن حبان رقم (٤٠٨).

وجاء النص علىٰ أنها سبع، ولكن في القرآن لم تأت إلا مفردة إلا في موضع واحد وهو قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، اختلف العلماء في الأرضين هل هي مثل السماوات بينها فتوق؟ يعني: بين كل أرض وأخرىٰ مسافة أم أنها مجرد طبقات؟ ذكر القرطبي هذا في تفسيره، وقال: الراجح القول الأول أنهن بينهن فتوق وأنهن لهن عمار وسكن، وقال: إن هذا هو قول السلف، وهو الذي تدل عليه النصوص، والحق خلاف هذا، فالذي تدل عليه النصوص أنها سبع فقط، وليس لهن عمار، أما النصوص التي ذكرت عن ابن عباس وغيره فيظهر والله أعلم أنها منقولة من زنادقة أهل الكتاب، والذين يريدون أن يفسدوا عقائد المسلمين، ولم يصح عن النبي ﷺ في ذلك شيء، ويقول: إن في كل طبقة سكان يماثلون بأسمائهم وصفاتهم من علىٰ هذه الطبقة العليا؛ يعني: أن في طبقة من الأرض آدم ونوح إلىٰ آخره.

وقال بعض المفسرين: إن المقصود بالأرضين هذه الأقاليم، الإقليم الجنوبي والشمالي والوسط والغربي، وأصبح بعض الناس يسميها قارات، ولكن هذا ليس صحيحًا؛ لأن مثل هذا لا تكون طبقات ولا تكون المثلية متطابقة، والصواب أن الأرضين طبقات واحدة تحت الأخرىٰ وأسفلها السابعة التي هي المركز وهي نار متأججة لا تطاق وليس فيها فتوق، إنما هي طبقات لكل طبقة خصائصها التي خلقها الله ﷻ، فهي المثلية في الطبقات، وليس بين أخرىٰ وأخرىٰ مسافات كما قال القرطبي، وهذا شيء معلوم قد علم هذا الآن يقينًا ليس في هذا إشكال ولا شك بإمكان الإنسان أن يدور علىٰ الأرض من جميع الجوانب الآن فأين الفتوق؟ لأن الأرض كأنها بيضة في قلب السماء، وهي في وسطها والسماء فوقها من جميع الجهات، وبعض الناس لا يتصور هذا وهذا سهل جدًا؛ لأن الجهات جهتان فقط

الفوق والتحت، أما الباقي فهي وهمية أو إضافية؛ لأن يمينك يكون شمالًا لغيرك، وخلفك أمامًا لغيرك، وهكذا، وبهذا فسر شيخ الإسلام ﷺ الحديث الذي عند الترمذي وإن كان ضعيفًا: «**قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلًا بحبل إلىٰ الأرض السفلىٰ لهبط علىٰ الله، ثم قرأ:** ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣](١)، قال الترمذي: قال بعض أهل العلم: وقع علىٰ علم الله، وقال: هذا تأويل لا يجوز، ولكن الأرض الله قابضها بقبضة واحدة ومهما اتجهت فهو يقع علىٰ الله فهو أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، ويجب أن يُفهم علىٰ هذا فهي صغيرة جدًا بالنسبة للسماء والله محيط بالسماء، فكيف بالأرض والأرض صغيرة جدًا بالنسبة لله ﷻ بل بالنسبة للسماوات، ثم السماء التي تلي السماء الدنيا أكبر منها وأعظم وأوسع بأمور قد لا يتصورها الإنسان؛ لأن بينها وبين التي تليها مسافة طويلة جدًا، وكذلك التي فوقها فكل سماء تكون أوسع من التي تحتها إلىٰ السماء السابعة والجنة فوق السماء السابعة، ولهذا صارت الجنة عرضها كعرض السماء والأرض؛ لأنها أوسع من السماوات كلها وأعظم منها؛ لأن كل ما ارتفع اتسع، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] سعة هائلة جدًا، ثم الكرسي، ثم العرش الذي هو أكبر المخلوقات علىٰ الإطلاق وأعظمها، ولهذا يقال: العرش العظيم والسماوات لم يأت وصفها بالعظمة؛ والله أمرنا أن نتفكر في مخلوقاته؛ لأن هذا يدل علىٰ عظمة الخالق، ولهذا لما ذكر الله الاحتجاج علىٰ بني آدم الذين يشركون قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وعلىٰ هذا فقوله إن الأرضين سبعًا علىٰ هذا النهج؛ أي: أنها طبقات سبع، وكل طبقة تحت الأخرىٰ إلىٰ أن يكون المركز الذي هو أسفل كل شيء، وبعض

(١) رواه الترمذي رقم (٣٢٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

العلماء يرىٰ أن جهنم فيها، وأنها من سجين، والنيران فيها، وهذا شيء مشاهد أحيانًا يتفجر بركان من الأرض يقذف بالحمم والنيران التي إذا شاهدها العبد اهتال وذهب عقله، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**لا يركب البحر إلا حاج، أو معتمر، أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر نارًا، وتحت النار بحرًا**»(١)، والبحار سوف تسجر نيران يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

قوله: «في كفة»: يقول بعضهم: إن كل مستدير يسمىٰ كِفَّة، ومعناه أن الميزان يكون له كفتان، كفة يوضع فيها شيء يقابل الشيء الثاني حتىٰ يتميز الوزن بينهما، فهل هذا معناه: أن كلمة لا إله إلا الله لها جرم محسوس يشاهد؟

السماوات مشاهدة والمخلوقات مشاهدة، ولكن لا إله إلا الله كلام والكلام كما يقوله المتكلمون عَرَض، فالعرض هو الذي لا يقوم بنفسه لا بد أن يقوم بغيره مثل اللون والمرض والعلم؛ ومثل الكلام فهو لا يقوم بنفسه لا تجد كلامًا قائمًا بنفسه بارزًا، فالكلام صفة المتكلم، وأما الجوهر فهو الذي يشغل مكانًا، أو تُحس به وتشاهده يكون أمامك، وهذا الحصر الذي أخذوه عن الفلاسفة طبقوه وجعلوه توحيدًا، ولهذا يقولون: إن الله ليس بعرض ولا جوهر وعليه نفوا صفات الله -تعالىٰ وتقدس- ولهذا قال أهل السُّنَّة: إن هذا من أبطل الباطل، وهؤلاء الذين بنوا دينهم علىٰ العرض والجوهر بنوه علىٰ جرف هار فانهار بهم في نار جهنم، ولكن هذا لا ينفي كون هذا صحيحًا بالوضع بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فهو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

والجواب: أقول أن المقصود بوضع هذه في كفة إما ثوابها؛ يعني: ثواب لا إله إلا الله، والثواب يُجعل أجسامًا مشاهدة، أو أن لا إله إلا الله تكون في كتابة كما في

(١) رواه أبو داود رقم (٢٤٨٩)، والبيهقي رقم (٨٤٤٥). من حديث عبد الله بن عمرو.

حديث البطاقة وتوضع هذه الكتابة في كفة إما هذا، وإما هذا، وكلاهما حق جاءت نصوص تدل عليه، فقد جاء أن الرجل يوزن نفسه ويوزن عمله وقال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان حبيبتان إلىٰ الرحمن ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١)، فالكلمتان تكون في الميزان، ومعلوم أن الكلام عمل، وأن الأعمال التي يعملها العبد بالنطق والقراءة والذكر، ونحو ذلك يكون لها جرم يوم القيامة تُرىٰ وتوضع، ويكون لها ثقل ويكون لها خفة حتىٰ ما يقوم بقلب الإنسان من الإخلاص لله ﷻ، وكذلك قد يوزن أصحابها كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾** [الكهف: ١٠٥]»(٢)، ولما ضحك الصحابة -رضوان الله عليهم- تعجبًا من دقة ساقي عبد الله بن مسعود ﵁، فقال رسول الله ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُدٍ**»(٣). معنىٰ ذلك: أن الرجل يوزن، وقد يوزن عمله، وأمور الآخرة تختلف وتتنوع حسبما يريد الله ﷻ، والعلماء ينصون علىٰ وجوب الإيمان بالميزان، وأنه حق.

«**لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة**»؛ يعني: توضع هذه المخلوقات كلها المشاهدة وغير المشاهدة ووضعت «**لا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله**»؛ أي: رجحت بها، وهذا ظاهر جدًا في فضل التوحيد، وأن هذه الكلمة لا يقاومها شيء إذا قيلت عن صدق وإخلاص وعُمل بمدلولها علىٰ الوصف الذي جاءت النصوص به، وكما جاء في حديث البطاقة.

---

(١) البخاري رقم (٦٦٨٢)، ومسلم رقم (٢٦٩٤).

(٢) البخاري رقم (٤٧٢٩)، ومسلم رقم (٢٧٨٥).

(٣) رواه أحمد رقم (٣٩٩١).

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلًا من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعةً وتسعين سجلًّا كل سجلٍّ مد البصر، ثم يقول له: تنكر من هذا شيئًا أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذرٌ، أو حسنةٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلىٰ إن لك عندنا حسنةً واحدةً لا ظلم اليوم عليك فتخرج له بطاقةٌ فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفةٍ قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيءٌ بسم الله الرحمن الرحيم»(١).

✍ قال المؤلف رحمه الله: وللترمذي وحسنه عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لآتيتك بقرابها مغفرة»(٢).

هذا جزء من حديث أوله فيه: «قال الله: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيك بقرابها مغفرة»، والمؤلف اختصره واقتصر علىٰ موضع الشاهد منه، وهذا الحديث يجب أن يحفظه العبد ويعرفه، ولهذا وضعه الإمام النووي رحمه الله في الأربعين النووية(٣) التي هي أصول في الدين، واشترط أن لا يضع فيها إلا حديثًا صحيحًا والنووي من الجهابذة.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٦٩٩٤)، والترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه رقم (٤٣٠٠)، والحاكم رقم (١٩٣٧).
(٢) رواه أحمد رقم (٢١٥٤٤)، والترمذي رقم (٣٥٤٠).
(٣) الحديث الثاني والأربعون.

قوله: «قال الله ﷻ»: الأصل أن هذه الصفة من صفات الله ﷻ، وهي صفة الكلام «يقول، وقال»، فهو يتكلم، ويقول إذا شاء.

وهذا من الأحاديث التي تنسب إلىٰ الله قولًا أنه قالها ﷻ، وقوله ﷻ ليس مقصورًا علىٰ القرآن، فله أقوال يرويها رسوله ﷺ عن ربه ﷻ، وقد اختُلف في الحديث القدسي، والصحيح أنه ما أُضيف إلىٰ الله قولًا ومعنىٰ؛ لأن الأحاديث التي يقولها الرسول ﷺ كلها معناها من الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فلا بد أن يكون هذا فيه زيادة أنه قول الله لفظه ومعناه غير أنه يفارق القرآن بأنه لا يُتحدىٰ به ولا تصح الصلاة به ولا تلزم الطهارة له، وغير ذلك من الفروق بين الحديث القدسي والقرآن.

وقوله: «يا ابن آدم»: وهو خطاب لكل من يتأتىٰ له الخطاب من بني آدم.

قوله: «لو أتيتني بقراب الأرض»: «بقراب» يعني: قُرُب ملئها، تصور لو أن العبد أذنب ذنوبًا، فهل يُمكن أن تملأ الأرض؟

وكلمة لو كما هو معروف أنه لا يلزم أن تكون واقعًا، الحكم الذي يُذكر مقابلًا لها، ولكن هذا تمثيل لو قدر أن ذنوبك بهذه الكثرة قد ملئت الأرض أو قريبًا من ملئها، ثم «لقيتني لا تشرك بي شيئًا»؛ يعني: مات علىٰ التوحيد، علىٰ الإخلاص مخلصًا لله ﷻ لا تشرك بالله شيئًا ويلاحظ كلمة «شيئًا» نكرة تنفي الشرك الأكبر والأصغر، والخفي والجلي، وهذا شرط ثقيل فإذا مات لا يشرك بالله شيئًا يكون ممن لقي ربه بقلب سليم؛ أي: سالم من الشرك، والشرك قسمان: أصغر وأكبر، فمن مات علىٰ الشرك الأكبر فهو من أهل النار قطعًا، ومن ترك الأكبر وكان عنده الشرك الأصغر فإن كان قليلًا وله حسنات كثيرة فيكون مغمورًا بجانب الحسنات، أما إذا كان الأصغر كثيرًا، وله سيئات ولا يقوىٰ توحيده علىٰ تكفير الذنوب لكثرت الشرك الأصغر فهذا يعاقبه الله ﷻ إذا شاء ولكن مآله إلىٰ الجنة.

فالتوحيد الذي يكفر الذنوب هو أن يكون العمل خالصًا ليس فيه شيء من الشرك فيكون مكفرًا لجميع الذنوب.

قوله: «لقيتني»، وقوله: «أتيتني»: تدل على أن العبد لا بد أن يأتي إلى ربه، ولا بد أن يلاقيه فيكون متضمنًا للرؤية، ولهذا قال علماء أهل السُّنَّة: كل لقاء جاء في الكتاب والسُّنَّة، فهو يتضمن الرؤية؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] فمعنى ملاقيه؛ يعني: ملاقيًا ربك، لا كما تقوله الأشاعرة؛ يعني: ملاقيًا الثواب أو العقاب، وغير هذا من التأويل الباطل، بل ملاقيًا الله كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، ومنها الذي في الصحيحين حديث عدي رضي الله عنه، وفيه يقول الرسول ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئًا قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار، ولو بشق تمرة**»(١).

«**ما منكم من أحد**»: وكلمة «**منكم**» تدل على أنهم المسلمون وليس الكفار والمنافقون، بل هم الذين قبلوا عن الرسول ﷺ واتبعوه، هؤلاء هم الذين يلاقون ربهم ويكلمهم ويخاطبهم، قد يكون فيه تأنيب، وقد يكون فيه تخجيل، ولهذا في حديث ابن عمر الذي في الصحيحين قيل له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ والنجوى: هي مناجاة الرب لعبده، والمناجاة هي المكالمة الخاصة دون أن يسمع، قال: سمعته يقول: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه -يستره حتى ما يراه الناس؛ لأنه إذا قرره بذنوبه تغير وجهه، وإذا رآه الناس بهذا افتضح- فيقول: أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته- بيمينه فيخرج على الناس يقول**: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٣٩)، ومسلم رقم (١٠١٦).

[الحاقة: ١٩، ٢٠]- **وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»[(١)]، فيجب علىٰ من ابتلي بذنب في هذه الدنيا أن يستر نفسه ولا يفضح نفسه ويقول أنا فعلت كذا وكذا؛ لأنه قال: «**أنا سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم**»، وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه**»[(٢)]، الذين يجاهرون بالمعاصي ولا يبالون.

فالمقصود أن كلمتي «لقيتني وأتيتني»: كلاهما يتضمن المعاينة واللقاء، وأن العبد لا بد أن يلقىٰ ربه فليستعد لهذا، وكان بعض السلف يقول: واخجلاه من مناقشة ربي وإن عفىٰ عني. فلا بد للعبد أن يستحي من ربه.

وقوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة»؛ يعني: تكون المغفرة أكثر من ذلك، والمغفرة معناها مأخوذة من الغفر وهو الستر مع الوقاية، ومنها المِغفر الذي يوضع علىٰ الرأس عند الحرب يقيه من ضرب السلاح، فهو ستر مع وقاية، فمعنىٰ ذلك أن الله ﷻ لا يفضحه ويقيه آثار ذنوبه، هذه هي المغفرة حقيقتها فهو ﷻ يأتيه بقربها؛ يعني: بقرب ملأها مغفرة، وتصبح خطاياه مغفورة، وهذا يدل علىٰ كرم الله وجوده وسعة مغفرته مع أنه ﷻ لا يحتاج إلىٰ أحد هو الغني بذاته عن كل من سواه، وكل هذا فضل وعطاء بلا مقابل وبلا استحقاق؛ يعني: يعطيه العبد وهو لا يستحقه، وليس له علىٰ الله شيء يدل به، وإنما هو فضله يتفضل به علىٰ من يشاء ﷻ، وهذا واضح في فضل التوحيد إذا مات عليه العبد لقوله: «لقيتني» و«أتيتني»، وأنه يكفر

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٤٤١)، ومسلم رقم (٢٧٦٨).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٠٦٩)، ومسلم رقم (٢٩٩٠).

الذنوب. وأما إذا كان موحدًا ثم فعل ناقضًا من نواقض التوحيد فلا يصدق عليه أنه لقي الله بهذا التوحيد.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

۞ **الأولى: سعة فضل الله.**

وهذا تدل عليه جميع النصوص التي ذكرها المؤلف، ولهذا اغتر فيه كثير من الناس وصار عندهم جرأة على معاصي الله؛ لأن الله كريم يعفو، يقول بعضهم:

فاستزد ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وهذا اغترار من الشيطان.

۞ **الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.**

الفرق بين هذه المسألة، والتي قبلها أن هذه أخص من الأولى.

۞ **الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.**

يعني: مع كثرة ثوابه يكفر الذنوب؛ ويعني هذا أن فيه أعمالًا يكون ثوابها كثير لكنها لا تكفر الذنوب، ولا بد للذنوب إذا كانت كبيرة من التوبة. أما التوحيد فهو يكفرها وهذا خاص به، فالتوحيد يكفر الذنوب مع كثرة ثوابه، أما الصلاة والصوم والحج والصدقة فيها ثواب كثير وتكفير للذنوب لكن لا بد من اجتناب الكبائر.

فالتوحيد إذا جاء خالصًا صادقًا، ما يدع ذنبًا إلا كفره، فهذا يجب أن نفهمه أيضًا.

۞ **الرابعة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة** رضي الله عنه.

التأمل معناه: التفكير والتدبر، والخمس هن:

◂ الأولى: أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ورسوله.

- الثانية: وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله.
- الثالثة: وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه.
- الرابعة: وأن الجنة حق.
- الخامسة: وأن النار حق.

الخامسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عِتبان وما بعده تبين لك معنى قول: «لا إله إلا الله»، وتبيَّن خطأ المغرورين.

يعني: حديث عبادة بن الصامت فيه: «أن من شهد بهذه الخمس موقنًا أنه يدخل الجنة علىٰ ما كان من العمل»، وحديث عتبان فيه: «من قال: **لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» هذا هو المقصود، مقصود الشيخ أنه مقيد بالإخلاص، أن من قال هذه الكلمة مخلصًا، وحديث أبي سعيد الخدري فيه أنها لا تكون بهذه الصفة (يعني: من رجحانها بجميع المخلوقات) إلا إذا ابتغىٰ بها وجه الله ﷻ، وإلا كثير من الناس يقولها ومع ذلك يخف ميزانه، وقد يكون قولها بمنزلة اللغو لا يستفيد منها، فإذًا الأحاديث مجتمعة مفيدة بما ذكر فلا بد أن تكون معتبرة في جميعها، فلا تنفع هذه الكلمة إلا إذا ابتغىٰ بها وجه الله وكانت عن علم ويقين، وقام بموجبها.

السادسة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

وهذا ليس فيه تنقص للرسل؛ لأن الرسل كمالهم بالوحي الذي يوحيه الله إليهم.

السابعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه.

يعني: أنها ليست لكل أحد، وإنما هي لمن يقولها مخلصًا، وقد اجتمعت فيه شرائطها.

الثامنــة: أن لهن عمارًا.

يعني: السماوات والأرض: فالسماوات ظاهر جدًا كما في الحديث: «لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع»، ولم يذكر فيها عمار، ولكن لا بد أن فيها خلقًا يسبح الله ويقدسه، كل شيء يسبح الله ويحمده، وسبق أن العمارة هي الطاعة.

ومعصية الله إفساد ليس عمارة، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وإصلاحها بالرسل والطاعة، وإفسادها بالمعاصي.

التاسعــة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية.

المقصود إثبات الوجه والنظر والعلو، فالله استثنىٰ نفسه عما في السماوات، ومعنىٰ هذا أنه في السماوات؛ يعني: في العلو، و«في» تفسر بشيئين: أن تكون بمعنىٰ «علىٰ»، وهذا سائغ وموجود مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: علىٰ الأرض وعلىٰ جذوع النخل.

أو يكون المقصود بالسماء العلو، وهذا فسِّر به قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]؛ أي: أءمنتم من في العلو كما جاء صريحًا في آيات كثيرة.

ومسألة العلو ينكرها الأشاعرة اتباعًا للمعتزلة وغيرهم فهم يقولون: إن الله في كل مكان -تعالىٰ الله وتقدس- ويزعمون أنه إذا قيل: إنه في السماء لزم من ذلك التشبيه والتجسيم، يعني: يكون في جهة قالوا هذا يقتضي المكان، ولهذا يسمون أهل السُّنَّة المشبهة؛ لأنهم يثبتون علو الله، ولأنهم يجوزون السؤال عن الرب بكلمة أين؟

وقد جاء هذا عن النبي ﷺ [١]. ولهذا يسمون أهل السُّنَّة الأينية هذا سؤال عن المكان، والله ﷻ لا مكان له عندهم. ويقولون: إن الله كان ولا مكان، ثم خلق المكان، وهو الآن علىٰ ما كان عليه قبل خلق المكان. هذا كله من نحاتة أفكارهم، تركًا للنصوص الواضحة الجلية التي لا إشكال فيها.

فإثبات الصفات هو إثبات علو الله علىٰ خلقه، فإنه قال: «**لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري**»، هذا نص أنه ﷻ في السماء.

وفيه صفات عدة في هذه النصوص، خلافًا للمعطلة والمؤوِّلة مثل الجهمية.

العاشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله- أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان.

لأنه قال: «لقيتني لا تشرك بي شيئًا»، فأخبر أن مع قولها أنه لا بد أن يكون تاركًا للشرك مجتنبًا له وإلا لا تنفع.

الحادية عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- **عبدَي الله ورسوليه.**

يعني: أن الغلو وقع في هذين الرسولين صلوات الله وسلامه عليهما، فعيسىٰ ادُّعي أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، أو أنه الله -تعالىٰ وتقدس-، ولا زال هذا لاعتقاد عند كثير من أهل الأرض ويدعون إليه ويزعمون أنه حق مع أنه أبطل الباطل.

أما محمد ﷺ ما قيل فيه هذا، ولكن قيل المعنىٰ؛ لأن كونه ينص علىٰ أنه الله،

(١) كما في قصة الجارية عند مسلم رقم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي قال: وكانت لي جارية ترعىٰ غنمًا لي قبل أُحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «**ائتني بها**»، فأتيته بها فقال لها: «**أين الله؟**»، قالت: في السماء، قال: «**من أنا؟**»، قالت: أنت رسول الله، قال: «**اعتقها فإنها مؤمنة**».

أو ابن الله، فهذا تبطله النصوص الواضحة الجلية بأنه عبد الله ﷺ وأكرمه برسالته، ولكن أخذوا المعنىٰ الذي يكون للإله وجعلوه للرسول ﷺ وزين لهم الشيطان أن هذا من باب الحب، وباب الثناء عليه ومدحه، فكان حظهم من الرسول ﷺ هو الإطراء؛ يعني: تجاوز الحد بالثناء والمدح، وبذلك ارتكبوا ما نهاهم عنه وتركوا متابعته، وهذا كثير في أقوال الشعراء، وكذلك في دعوات الداعين الذين يتجهون إلىٰ النبي ﷺ ويسألونه.

الثانية عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

عرفنا من كونه وُجِد بالكلمة، قيل له: كن فكان، فكان اختصاصه بذلك؛ يعني: أنه وجد من أنثىٰ بلا ذكر.

الثالثة عشرة: معرفة كونه روحًا منه.

يعني: أنه وجد بالنفخة التي نفخها جبريل حينما أرسله إلىٰ مريم.

الرابعة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

يعني: أنه يدخل الجنة، وإن كان عنده ذنوب، وتقصير.

الخامسة عشرة: معرفة ذكر الوجه.

يعني: «يبتغي بذلك وجه الله» إثبات صفة الوجه لله تعالىٰ، ومعلوم أنه يقصد بذلك الإخلاص لله ﷻ، ولكن ذكر الوجه يدل علىٰ أن لله وجهًا، وقد تكاثرت النصوص في هذا وأهل البدع يقولون: إن المقصود بالوجه الذات وهذا باطل، بل لله وجهٌ ينظر إليه أهل الجنة ويتنعمون به.

الباب الثالث

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب؛ يعني: ولا عذاب.**

لما ذكر المؤلف رحمه الله وجوب التوحيد، وأنه فرض عينٍ علىٰ كل أحد، ثم ذكر فضل التوحيد وتكفيره للذنوب، ذكر في هذا الباب من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، فهذا الأمر يجب أن يهتم به كثيرًا ؛ لأن دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب أمر لا ينبغي التهاون به، ولكن يجب أن نعرف ما هو تحقيق التوحيد؟ التحقيق: أن يجعله حقًا كله، ليس فيه شيء من الباطل. فهو التخليص والتصفية من الشوائب والوسائل التي تلحقه، فتحقيق التوحيد:

هو معرفته والعمل به، وتخليصه وتصفيته من جميع الشوائب التي يمكن أن تنقصه أو تضعفه، ومعنىٰ ذلك أن يكون الموحد مجتنبًا للشرك، والبدع والذنوب.

وتحقيقه بلا علم لا يمكن، ومعرفته أن يعلم العبد أن الله ربه خلقه لعبادته فيعلم ما أمره به وما نهاه عنه ثم تنجذب روحه إليه، فيتصل به فيصبح قلبه سليمًا من أن يكون فيه مرادًا لغير ما أمر الله به، وأن لا يكون قلبه متوقفًا أو مترددًا في عبادة ربه ووجوب طاعته. ولهذا صار من حققه من الخلص الذين اصطفاهم الله جل وعلا، ولكن هذا ليس عزيزًا بحيث يقول العبد: أنا لا أدركه، كلا بل هو سهل ميسور وإنما يجب علىٰ العبد أن يبذل وسعه في معرفة ما لله عليه ويبذل وسعه في معرفة ربه بأسمائه وصفاته، فيعبده علىٰ ما قال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠]، فيكون قد وصل إلىٰ درجة يسبق بها إلىٰ الجنة بلا حساب ولا عذاب وهذا السبق يكون في الموقف حينما يجتمع الناس

للحساب ويقفون وقوفًا طويلًا ويلحقهم من العنت والعناء حتىٰ يتمنىٰ كثير منهم أن يخلص من الموقف ولو إلىٰ النار؛ لأن الموقف أمره شديد جدًا، وهؤلاء يسبقون والناس ينظرون؛ لأنهم ليس عليهم حساب، وجاء أن وجوههم تضيء كإضاءة القمر ليلة البدر، وأنهم يكونون متماسكي الأيدي، وأن قلوبهم تكون علىٰ قلب رجل واحد منهم، ليس فيها غل(١).

ثم هؤلاء لا يلزم أن يكونوا هم أفضل الناس، هم يسبقون إلىٰ الجنة، ويجوز أن يتأخر غيرهم ويكونون أعلىٰ درجة منهم، والفضل بيد الله ﷻ.

قوله في الترجمة: «بلا حساب»:

هل يكون هذا مخصصًا للعمومات التي جاءت في القرآن؟ لأن الله ﷻ أخبر أن الناس قسمان كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [الانشقاق: ٦-٩]، ثم القسم الثاني: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢]، وفي الآيات الأخرىٰ هذا التقسيم، والحديث يأتي بيانًا للقرآن وتفسيرًا له، ففي هذا الحديث الذي سيذكره أن هؤلاء الجمع يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فيكون هناك تقسيم وراء القسمة التي ذكرت في الآية، فيكون قسم ثالث أنه لا يحاسب وهو المذكور في هذا الحديث، وإن كان جاء تفسير قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق:٧-٨] جاء تفسيره مرفوعًا أن الحساب اليسير هو العرض؛ يعني: تعرض عليه أعماله كما في حديث عبد الله بن عمر الذي في الصحيحين قيل له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوىٰ؟ قال: سمعته يقول: «**يدني الله عبده المؤمن فيضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فإذا رأىٰ**

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٤٧)، وأحمد في المسند رقم (٢٢).

أنه قد هلك يقول الله ﷻ له: أنا سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم فيعطىٰ كتابه بيمينه»[١].

وجاء في حديث رواه البزار وغيره: «أن حسابه يكون بتعريفه بذنوبه» يقال له: ذنوبك كذا وكذا، وهذا نفس مضمون حديث ابن عمر، يُعرف بذنوبه، ثم يمن الله ﷻ عليه بالمغفرة، أما إذا نوقش الحساب فإنه يهلك ولا بد.

فقوله: «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب»؛ يعني: أن من مات وهو محققًا للتوحيد أنه يكون سابقًا إلىٰ الجنة بدون محاسبة ولا يلزم أنه لا يعرض عليه كتابه، ويقال: إنك عملت كذا وكذا.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وصف الله ﷻ إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأربع صفات:

الأولىٰ: أنه كان أمة؛ يعني: قدوة في الهدىٰ، داعية إلىٰ الخير متبع علىٰ ذلك، وقد جاء هذا المعنىٰ عن ابن مسعود رضي الله عنه فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله[٢]. وقد جاء عن الصحابة تفسير آخر للأمة كما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال: كَانَ علىٰ الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد علىٰ الإسلام غيره[٣]. فيكون المعنىٰ هنا: المنفرد وحده علىٰ الخير وهذا هو الذي يشير له المؤلف رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين[٤]. ومعلوم أن العبد إذا كان في طريق وحده والناس من حوله

(١) سبق تخريجه.
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٦١١).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ١٢٧).
(٤) انظر الاستنباط ٢٣٧.

مخالفون له أن الأمر يكون شديدًا وصعبًا ولا يثبت علىٰ هذا إلا من كان قانتًا لله ﷻ.

والمعنيان متلازمان لا خلاف بينهما، وقد جاءت نصوص أن إبراهيم عليه السلام لم يستجب له أحد إلا لوط ابن عمه، ثم أرسله الله إلىٰ قومه فلم يستجب له أحد فخرج من بلده ليس معه أحد إلا بناته حتىٰ زوجته خالفته في دعوته.

الصفة الثانية: قوله: «﴿قَانِتًا﴾»: والقنوت: دوام الطاعة؛ يعني: أنه دائم الطاعة لله ﷻ غير منفك عنها، ولا منتكس في وقت من الأوقات، فهذا يدل علىٰ تحقيق التوحيد وأنه مديم عليه مخلص لربه ولم يحد عن ذلك في وقت من الأوقات،

وقوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، فجعل القنوت للساجد وللقائم فمن أدام الطاعة فهو قانت.

الصفة الثالثة: قوله: «﴿حَنِيفًا﴾»؛ يعني: أنه متجه إلىٰ الحق قصدًا، مائل إليه قصدًا وإرادة واختيارًا، وتاركًا كل ما خالف ذلك، فهذا أيضًا يدل علىٰ كمال التوحيد والعرب كانوا يسمون الذي يحج ويختتن حنيفًا؛ لأنه خالف أكثر الناس إلىٰ ما كان عليه إبراهيم ﷺ، فالحنيف هو الميلُ إلىٰ الحق قصدًا، والحنف هو الميل إلىٰ الباطل قصدًا.

الصفة الرابعة: قوله: «﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾»؛ أي: كان موحدًا خالص التوحيد، ولم يكن من المشركين لا في الاعتقاد ولا في العمل، ولا في المكان وتكثير سوادهم بل كان بعيدًا متبرئًا منهم، ولا يلزم من هذا أنه لا يكون محاربًا لهم مبغضًا لهم ومعاديًا لهم، وقد تكلم المؤلف رحمه الله علىٰ هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين.

﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا، كفعل العلماء المفتونين: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خلافًا لمن كثر سوادهم، أو زعم أنه من المسلمين. انتهىٰ (١).

فالمقصود أن الله ﷻ وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات لتحقيقه التوحيد وهذا معناه أن تحقيق التوحيد يكون في اتباع ملة إبراهيم؛ لأنه عليه السلام جاهد في هذا السبيل وصار أمة وحده في ذلك فجعله إمامًا للحنفاء فيما بعد تبرأ من أبيه ومن قومه عمومًا، ولاقىٰ في هذا أشد العنت حتىٰ ألقوه في النار وهو صابر مطيع لله ﷻ، ولكن الله ﷻ جعل النار عليه بردًا وسلامًا.

فبهذه الصفات استدل المؤلف علىٰ أن من حقق التوحيد يكون بهذه المثابة تجتمع فيه هذه الأمور وأن يكون متابعًا لرسول الله ﷺ ويكون قانتًا لله مخلصًا له العمل ولا يكون عمله لدنيا ولا لغيرها، وإنما هو لله، وأن يكون مختارًا للتوحيد مغتبطًا به وأن يكون مبتعدًا عن المشركين محاربًا لهم وبهذا يكون محققًا للتوحيد مستحقًا بذلك السبق إلىٰ الجنة بلا حساب.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾** [المؤمنون: ٥٩].

هذا في معرض الثناء علىٰ سادة الأولياء الذين يرثون الفردوس فوصفهم الله تعالىٰ بأنهم بربهم لا يشركون، ومناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالىٰ وصف المؤمنين السابقين إلىٰ الجنات بصفات أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون، لا شركًا أصغر ولا أكبر، لا جلي ولا خفي، فهم لا يقعون في الشرك، فاجتنابه بتحقق التوحيد فمن سلم من الشرك كبيره وصغيره، جليه وخفيه، فقد حقق التوحيد، فمن كان كذلك فإنه يسبق إلىٰ الجنة بلا حساب ولا عذاب.

(١) انظر الاستنباط ٢٣٧.

قال المؤلف رحمه الله: **عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيت؟ قال: فما حملك علىٰ ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. فقال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. قال: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت علىٰ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسىٰ ﷺ وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة»**(١).

قوله: «**عن حصين بن عبد الرحمن**»: هو السلمي أبو الهذيل الكوفي، ثقة مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

قال: «**كنت عند سعيد بن جبير**»؛ يعني: في مجلس العلم والتعلم، وسعيد بن جبير هو الإمام الفقيه من أجلِّ أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبي موسىٰ مرسلة، وهو كوفي مولىٰ لبني أسد، لقي عددًا من الصحابة، وهو الذي قتله الحجاج في قصة مشهورة في محاورة بينه وبين الحجاج؛ لأنه كان ممن خرج عليه مع القراء

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٠٥)، ومسلم رقم (٢٢٠).

الذين خرجوا علىٰ الحجاج فتتبعهم وقتلهم. وسعيد أمسك في مكة ووكل به رجل يذهب به إلىٰ الحجاج، فلما رأىٰ الرجل اجتهاده في العبادة وتقواه قال: اذهب إلىٰ حيث شئت لا يسألني الله عنك. يقول له وهو يمشي به فقال: لن أذهب، إذا ذهبت فسألك الحجاج يقتلك ولكن أمرنا إلىٰ الله. قتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين.

قوله: «**أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة؟**»: الكوكب أحد الكواكب، والمقصود بها الشهاب الذي يُرىٰ؛ لأن الكواكب الثابتة لا تنقض.

«**انقض**»: سقط.

«**البارحة**»: هي أقرب ليلة مضت، قال أبو العباس: يقال قبل الزوال: الليلة، وبعد الزوال: رأيت البارحة. وهي مشتقة من برح: إذا زال.

وسعيد بن جبير سأل تلامذته عن سقوط الكوكب ليخبرهم بالحكمة التي من أجلها يسقط؛ لأن الجاهلية يعتقدون في ذلك اعتقادًا باطلًا، جاء في الصحيح عن عبد الله بن عباس ﵄ قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا**»، قالوا: كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يرمىٰ بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا ﷻ اسمه إذا قضىٰ أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتىٰ يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال -قال- فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا حتىٰ يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلىٰ أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به علىٰ وجهه فهو حق، ولكنهم ينقصبون**

فيه ويزيدون»[(١)]، فالشياطين يركب بعضها علىٰ بعض تسترق السمع من الملائكة ويرسل إليهم الشهاب فإما أن يقتله وإما أن يخبله، وقد يخطئه فيذهب بالكلمة التي سمعها إلىٰ وليه من الإنس فيقرها في أذنه فيزيد فيها مائة كذبة، والظاهر أن سعيداً أراد أن يخبرهم بهذا وإن سقوطها حفظًا من الشياطين التي تسترق السمع؛ يعني: الوحي الذي يوحيه الله ﷻ إلىٰ ملائكته ويأمرهم به حتىٰ لا يلتبس ذلك علىٰ الناس، ولما بُعث رسول الله ﷺ حُرست السماء حراسة شديدة فأصبح الشياطين لا يستطيعون أن يصلوا إلىٰ شيء كما أخبر الله ﷻ في كتابه عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩]، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، وأخبر الله ﷻ أن النجوم زينة للسماء ويهتدي بها في مسير البر والبحر، وأنها رجوم للشياطين وهذه هي الحكمة.

فيظهر أن سعيدًا أراد أن يبين هذا لتلامذته ولكنه عرض أمر آخر، وهو أنه لما قال: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة؟ قال حصين بن عبد الرحمن: أنا، ثم خاف حصين ﵀ أن يظن أنه لما رأىٰ الكوكب أنه يصلي أو يقرأ ويتهجد؛ يعني: يتلو أو يذكر الله فنفىٰ ذلك قال: «أما إني لم أكن في صلاة»، وإنما أرغمت علىٰ السهر فرأيته وهذا يدلنا علىٰ بعدهم ﵏ عن مدح الإنسان بما ليس فيه وحرصهم علىٰ الإخلاص والبعد عن الرياء والسمعة، بخلاف الذين يُظهرون أعمالهم يقولون: فعلنا كذا وكذا بدون مبرر، والسلف كانوا أحرص شيء علىٰ إخفاء أعمالهم وأبعد شيء عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

قوله: «ولكني لدغت»: قال أهل اللغة: يقال: لدغته العقرب، وذوات السموم: إذا أصابته بسمها وذلك بأن تأبره بشوكتها.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٢٩)، وأحمد رقم (١٨٨٢).

لما قال: لدغت، سأله شيخه: «**قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيت**»، وفي لفظ مسلم: «استرقيت»؛ يعني: طلبت من يرقيني، والرقية هي: القراءة والنفخ على المريض.

عند ذلك سأله قال: «**فما حملك على ذلك؟**».

سأله عن مستنده في هذا الفعل، فهذا يدل على أن السلف ما كانوا يعملون شيئًا إلا إذا كان لهم دليل، وهذا هو الواجب على كل مسلم أن لا يقدم على عمل إلا إذا عرف أن له دليلًا من الشرع.

«**قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب**» ابن الحارث الأسلمي، صحابي شهير، مات سنة ثلاث وستين.

أنه قال: «**لا رقية إلا من عين أو حُمَة**»؛ يعني: لا رقية أنفع وأبلغ من رقية العين والحمة، فهي من أنفع ما يُعالج به هذين النوعين.

وليس في هذا نفيٌ لتأثير الرقية في الأمراض الأخرى، فهي نافعة من جميع الأمراض كما جاءت الأحاديث في ذلك، وهذا أسلوب معروف في اللغة تقول: المفتي في هذا البلد فلان، أو تقول: لا مفتي في هذه البلد إلا فلان، فليس معنى ذلك أنك تنفي أن هناك أحد يُحسن الإفتاء، ولكن تقول: هذا أولى.

والعين: هي إصابة العائن غيره بعينه إذا رأى نعمة، أو شيئًا أعجبه، فبعض الناس عنده شر وحسد وأمر يُودعه الله في نفسه من غبطة الناس، فإذا رأى ما يُعجبه جعل الله شيئًا يخرج من نفسه، وقد يكون مقترنًا أيضًا بما يزينه الشيطان، فتؤثر على الذي غبطه بنعمة أو غيرها، فقد يصاب وقد يمرض، وقد تذهب النعمة بإذن الله ﷻ وقد جاء أن العين حق[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٤٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم رقم (٢١٨٧)، وعند مسلم رقم (٢١٨٨) من =

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]؛ يعني: يصيبونك بأعينهم، لكن الله يحفظ رسوله ﷺ فقوله: «**العين حق**»؛ يعني: الإصابة بها، وقد وقع شيء من ذلك من الصحابة عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتىٰ إذا كانوا بشعب الخزار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلًا أبيض حسن الجسم والجلد فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل فأتىٰ رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل والله ما يرفع رأسه وما يفيق، قال: «هل تتهمون فيه من أحد»؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامرًا فتغيظ عليه وقال: «**علام يقتل أحدكم أخاه، هلَّا إذا رأيت ما يعجبك بركت** -يعني يقول: اللهم بارك عليه- ثم قال له: **اغتسل له**، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صب ذلك الماء عليه يصبه رجل علىٰ رأسه وظهره من خلفه يكفئ القدح وراءه ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس»(١)، فالمقصود أن هذا قد يقع والإنسان قد يكون كارهًا.

أما الحمة فهي: ذات السموم، مثل العقرب، والحية، والزنبور، وهي كثيرة؛ لأنها إذا أصابت الإنسان حُمَّ بذلك؛ يعني: جاءته الحمىٰ؛ أي: المرض الذي ينتج من السم، فالرقية منها نافعة جدًا كما أنها نافعة من العين، ولا سيما إذا كان الراقي ممن يؤمن بالله ﷻ، ومن أهل الإيمان، والتوحيد، وقد يشفىٰ المصاب بالحال كما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد ؓ قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتىٰ نزلوا علىٰ حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل ممكن لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم

= حديث ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «**العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسلوا**».

(١) أحمد في المسند رقم (١٥٩٨٠)، ومالك في الموطأ رقم (٣٤٦٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٥٧٤١).

هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتىٰ تجعلوا لنا جعلًا، فصالحوهم علىٰ قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فكأنما نشط من عقال -يعني: كأن رجله كانت مربوطة بحبل ففكت فبرأ في الحال- فانطلق يمشي وما به بأس. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقي: لا تفعلوا حتىٰ نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا علىٰ رسول الله ﷺ فذكروا له فقال: «**وما يدريك أنها رقية**»، ثم قال: «**قد أصبتم اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا**». فضحك رسول الله ﷺ(١). فالمقصود أن الرقية من ذات السموم، وكذلك من العين من أنفع ما يعالج به ونفعها ظاهر جدًا.

وقد كثرت في وقتنا الرقاة والعزائم وصار الناس يلتجأون إلىٰ الراقي كثيرًا، وصار الراقي له في هذا مرتزق بل يأخذ من الناس أشياءَ كثيرة جدًّا، ومثل هذا لا يجوز بل هو من المحرمات؛ لأنه لا يجوز أن يأخذ شيئًا إلا إذا تيقن أنه شفي بسبب رقياه، أما بدون ذلك فهو من أكل أموال الناس بالباطل وكذلك قد يكون من الجاهلين، وإنما هو مكتسب وأمر الناس في هذا كثيرًا ما يخالف الشرع، ويخرج عن المعتاد الذي عرفه أهل العلم فبعضهم يتحيلون علىٰ الضعفاء مثل: النساء والجهلة، وقد يكون بواسطة الشياطين الذين يزعمون أنهم يستعينون بهم ويكذبون علىٰ الناس ويقولون: إنهم مسلمون، والجن عقلاء لا يأتون للإنسان يقولون: نريد خدمتك نفعل كذا وكذا، هذا ممتنع إلا أن يُقدم لهم شيئًا أفضل مما يقدمونه له كأن يعبدهم ويشرك بالله، أو أقل شيء يستهين بالمصحف، وما أشبه ذلك إذا فعل ذلك

(١) رواه البخاري رقم (٢٢٧٦)، ومسلم رقم (٥٨٦٥).

يأتون له ببعض الشيء الذي يريده، وليس كله وقد عُلم أن كثيرًا ممن يعالجون بهذه الطريقة بعضهم لا يصلي، وبعضهم يكون عاقًا لوالديه، وبعضهم يكون معروفًا بالمعاصي كيف تنفع رقياه بهذه المثابة، ثم يأتون بأشياء واضحة أنها دجل وهي إما سحر، وإما بواسطة الشياطين.

قوله: «**قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع**»؛ يعني: الذي يعمل بالعلم فإنه محسن؛ لأن العلم وجد للعمل، أما الذي يعمل بلا علم فإنه مسيء، فأنت أحسنت عندما انتهيت؛ يعني: وقفت حيث أوقفك العلم، فقد أحسنت والإحسان: هو المبالغة في تحسين العمل الشرعي وتزيينه، فمن عمل بالعلم الذي وصل إليه فقد أحسن.

قوله: «**ولكن**»: هذه كلمة استدراك تدل علىٰ أن هذا حسن، وهناك شيء أفضل.

«**حدثنا ابن عباس**»: هو ابن عم الرسول ﷺ، وقد دعا له الرسول ﷺ فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[١]، فكان كما دعا له رسول الله ﷺ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد[٢]. فكان من حملة العلم بل كان هو حبر هذه الأمة لا سيما في تفسير كلام الله جل وعلا، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

«**عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرضت عليَّ الأمم»**»: يجوز أن يكون عرض الأمم في الرؤيا، أو يكون تمثيلًا مثلها له الله جل وعلا كما تجيء يوم القيامة، وهذا هو الأقرب، والله أعلم.

ويجوز أن يكون عرضها عليه في اليقظة، فيكون مثل قوله ﷺ: «**إن الله زوىٰ لي**

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٢٣٩٧)، والحاكم في المستدرك رقم (٦٢٨٠) وهو في الصحيحين دون قوله: «**وعلمه التأويل**».

(٢) المستدرك رقم (٦٢٨٩).

الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»[١]، فأطلعه الله علىٰ مجيء الأمم علىٰ هيئتها يوم القيامة، وكلا الأمرين حق سواء كان نومًا أو يقظة، لا فرق بينهما فهو حق ثابت لا مرية فيه.

قوله: «**الأمم**»: جميع الأمم قبل هذه الأمة، وهذه الأمة آخر أمة، وأكثر الأمم ابتلاء وامتحانًا لحكمة أرادها الله ﷻ.

قال: «**فرأيت النبي ومعه الرهط**»: الذي في صحيح مسلم: «الرُّهيط»[٢] بالتصغير. والرهط: لا مفرد له من لفظه، وهم الجماعة من الثلاثة إلىٰ التسعة فقط؛ يعني: الجماعة دون العشرة، فالثلاثة رهط، والأربعة رهط، والسبعة رهط، أما العشرة فلا.

«**والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»: فهذا من العجائب، من عجائب بني آدم، فكيف يُبعث النبي إلىٰ أمة كبيرة، ثم لا يتبعه إلا الرهيط، ويبعث النبي، ثم لا يتبعه إلا هذا العدد القليل مما يدل علىٰ أن طبائع الناس تحملهم علىٰ اتباع الشيطان وعلىٰ مخالفة الرسل، ولهذا كان أكثر الناس هالكون، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

والواقع الذي يُشاهد الآن، يشهد لهذا، الأرض مملوءة من بني آدم، ومعظمهم وجلهم كفرة فجرة عبَّاد للشهوات وعبَّاد للدنيا، فالحق صعب علىٰ النفوس، فلا نظر لهم في ما بعث الله ﷻ به رسوله، بل كثير منهم أيضًا يعرف هذا فيعاديه أشد المعاداة ويحاربه كما هو الواقع، فلهذا صار ظن الشيطان صادقًا عليهم كما أخبر الله ﷻ عنه في ذلك: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، ثم أعجب من هذا كون النبي يبعث ولا يتبعه إلا الرجل الواحد أو الرجلان، وهذا إمام الحنفاء

(١) رواه مسلم رقم (٧٤٤٠).
(٢) مسلم رقم (٥٤٩).

إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، فإنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط ابن عمه كما قال الله جل وعلا: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]؛ أي: ترك قومه، ثم أرسل الله تعالىٰ لوطًا إلىٰ مدن كبيرة فيها أعداد كثيرة فلم يؤمن منهم أحد فخرج من هذه البلاد ليس معه إلا بناته حتىٰ زوجته كفرت به فهذا أعجب، ولهذا قال: «**والنبي وليس معه أحد**»؛ يعني: يرسل إلىٰ قوم فلا يتبعه أحد، وهذا يدلنا علىٰ أن أكثر بني آدم في النار، ولهذا ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يقول الله تعالىٰ: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، وترىٰ الناس سكارىٰ، وما هم بسكارىٰ، ولكن عذاب الله شديد**». قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: «**أبشروا فإن منكم رجلًا ومن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، فكبرنا، فقال: «**أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»، فكبرنا فقال: «**أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**»، فكبرنا، فقال: «**ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود**»[(١)]، وهذا واضح في أن يأجوج ومأجوج من بني آدم، وأنهم مثل غيرهم، وإنما هم كفرة معادون للحق ومنابذون له.

إذا كانت الرسل علىٰ ما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله كم عِدَة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا الرسل من ذلك ثلاث مائة وخمسة عشر جم غفير**»[(٢)]، فهم كلهم علىٰ هذا النحو، باستثناء موسىٰ عليه السلام فإن أتباعه أعداد كبيرة، فنوح أولهم كل الذين معه في السفينة مع الحيوانات وغيرها

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٤٨)، ومسلم رقم (٢٢٢).

(٢) أحمد في المسند رقم (٢٢٢٨٨)، والبيهقي رقم (١٨١٦٦)، والحاكم في المستدرك رقم (٤١٦٦)، وصحيح ابن حبان رقم (٣٦١).

والبقية هالكون، وكل هذه عبر يجب أن يعتبر بها العبد، فإذا كان علىٰ الحق يغتبط ويحمد ربه ويسأله الثبات علىٰ ذلك حتىٰ يتوفاه الله مسلمًا، ولا يكون في جهنم وكثير ممن يسمع هذا الحديث يتطلع أن يكون مع هؤلاء السبعين ألفـًا، والعاقل يقول: يا ليتني أموت مسلمًا ولا أكون خالدًا في النار، ولكن الله يُعطي فضله من يشاء فنجد بعض الناس مطمئنـًا بإيمانه واثقًا برحمة ربه ﷻ يزداد خيرًا كل يوم يكون أحسن من الذي قبله، وهذا فضل الله.

وذكرُ الأنبياء بهذا الوصف يدلنا علىٰ أن كل نبي يأتي معه من استجاب له فقط، أما الكافرون فليسوا معه فأمته الذين أطاعوه واستجابوا له، هم الذين يتبعونهم والنبي الذي لم يأت معه أحد يُسأل: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] يسألهم يقول لهم: لماذا لم تجابوا؟ قالوا: «لا علم لنا»؛ يعني: الأمر إليك، فإذا كان الرسل يجمعون ويسألون أول شيء فكيف حالة الذين كفروا.؟

ثم قال: «إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي»، فهذا يدل علىٰ أن الله وعده خيرًا كثيرًا، وأن النبي يفرح بكثرة أتباعه؛ لأن كثرة أتباعه كثرة في الخير له؛ لأن كل من عمل صالحًا بدعواه فله من الأجر مثل أجره من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وهذا ليس خاصًا بالنبي ﷺ بل كل داع إلىٰ الخير هكذا يكون، وكذلك ضده الداعي إلىٰ الضلال من ضل بدعوته فعليه من الوزر مثل أوزار من ضل بدعوته إلىٰ يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، وهذا يدل علىٰ أن بعض الناس يتحمل من الأوزار الذي لا تطيقه الجبال، ويتفاوتون في هذا تفاوتًا عظيمًا جدًا وكذلك بالعكس يتفاوتون في الأجر والخير.

قوله: «فظننت أنهم أمتي»؛ يعني: أنه رأىٰ أشخاصهم من بعد ولم يميزهم، وهذا لا يُعارض ما جاء عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه أخبر أنه يعرف أمته بالغرة والتحجيل. «قالوا: يا رسول الله تعرف أمتك؟ قال: **تردون عليَّ غرًّا**

محجَّلين من أثر الوضوء»[١]، فهذا لبعدهم لا يميز الغرة والتحجيل، ولهذا قال: **«فظننت أنهم أمتي»**.

«فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه»: والنبي ﷺ لو رأىٰ موسىٰ من قرب عرفه، وفي هذا فضل موسىٰ عليه السلام، وأن أتباعه من بني إسرائيل كثيرون.

«فنظرت فإذا سواد عظيم»: وفي صحيح مسلم: **«فقيل لي: ولكن انظر إلىٰ الأفق»**[٢]، الأفق: الجانب الذي إذا التفت ترىٰ السماء كأنها ملتقية بالأرض، **«فقيل لي: انظر عن يمينك فنظرت فإذا وجوه الرجال قد سدت الأفق، ثم قيل لي: انظر عن يسارك فإذا وجوه الرجال قد سدت الأفق»**[٣]؛ يعني: أكثر من قوم موسىٰ بكثير.

«فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»؛ يعني: لا يحاسبون ولا يعذبون، وقد جاءت صفتهم كما في الصحيحين أنهم: **«تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر، وأنهم يدخلونها متماسكي الأيدي»**[٤]؛ لأن الباب واسع مسيرة شهر ومع ذلك أبواب الجنة ثمانية[٥]، كل واحد بين مصراعيه مسيرة أربعين سنة، ويأتي يوم ولها كظيظ من الناس؛ يعني: يدخلون بزحام[٦]، وهؤلاء سيدخلون الجنة قبل محاسبة الناس.

وجاء في أحاديث أنهم أكثر من سبعين ألفـًا فقد روىٰ الإمام أحمد[٧]، والبيهقي

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٤٧).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٢٠).

(٣) رواه أحمد في المسند رقم (٣٨٠٦)، والبخاري رقم (٥٤٢٠)، ومسلم رقم (٢٢٠).

(٤) رواه البخاري رقم (٦٥٥٤)، رواه مسلم رقم (٢١٩) عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: **«ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف -لا يدري أبو حازم أيهما قال- متماسكون آخذ بعضهم بعضًا لا يدخل أولهم حتىٰ يدخل آخرهم وجوههم علىٰ صورة القمر ليلة البدر»**.

(٥) رواه البخاري رقم (٣٢٥٧) عن سهل بن سعد رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: **«في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمىٰ الريان لا يدخله إلا الصائمون»**.

(٦) رواه مسلم رقم (٢٩٦٧)، وأحمد في المسند رقم (١٧٥٧٥).

(٧) أحمد في المسند رقم (٨٧٠٧).

وغيرهم في حديث أبي هريرة: «**فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألف**»، قال الحافظ في الفتح: إسناده جيد.

قال: «ثم نهض ودخل منزله، فخاض الناس في أولئك»: خوض الصحابة - رضوان الله عليهم - في ذلك لحرصهم على الخير يسأل بعضهم بعضًا يقولون: من ترون هؤلاء السبعين؟ كل واحد منهم يود أن يكون منهم بلا شك هذا شيء معروف، ولكنهم عرفوا أن هذا لا يحصل إلا بالعمل، فصاروا يبحثون عن ذلك حتى يعملوا، وهم أحرص الناس على العمل - رضي الله عنهم أجمعين -.

وفيه دليل على جواز البحث في مسائل العلم والمناظرة فيها وإن كان هناك من إذا رُجع إليه بين المسألة وأزال الإشكال؛ لأن الرسول ﷺ عندهم قريب منهم ومع ذلك صاروا يخوضون في هؤلاء السبعين.

«**فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ - وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا وذكروا أشياء**»: وكلها اجتهاد، وفي هذا دليل على أن المسائل التي ليس فيها نصوص يجوز الاجتهاد فيها غير أن المجتهد لا يجوز له أن يجزم بالحكم مثل ما قال الصحابة - رضوان الله عليهم - هنا لعل الأمر كذا أو كذا إلا إذا كان عند الإنسان دليل يعتمد عليه.

قوله: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»: هذه أربع صفات، وجاء في صحيح مسلم: «**لا يرقون ولا يسترقون**»، فقوله: «**ولا يرقون**»، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يرقون» غلط، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة[1]. فلم يقل النبي ﷺ: «**لا يرقون**»، وقد سئل ﷺ عن الرقي فقال: «**من استطاع منكم أن ينفع**

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٢).

أخاه فلينفعه»[(١)]، وقال: «**لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيه شرك**»[(٢)].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد رقىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي ﷺ[(٣)]، ورقىٰ النبي ﷺ أصحابه[(٤)].

وقال ابن القيم: والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلىٰ غير الله بقلبه، والراقي محسن نافع[(٥)]. فالراقي محسن، ولا يكون الإحسان إلا رفعة في الدرجات ولا يكون مانعًا من السبق إلىٰ الجنة فلا بد أن يكون هذا خطأ ولهذا أسقطها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: «**لا يسترقون**»؛ يعني: لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم، والفرق بين الاسترقاء وكونه يرقي واضح في أن المسترقي: طالب مستجد ملتفت إلىٰ غير الله جَلَّ وَعَلَا، أما الراقي فهو محسن ليس عنده طلب، أو افتقار لغير الله جَلَّ وَعَلَا، بل يحسن إلىٰ غيره، وفرق بين هذا وهذا، فلماذا صار هذا من أوصاف الذين يسبقون إلىٰ الجنة بلا حساب ولا عذاب مع أن الرقىٰ جائزة وبعضهم يقول مستحبة؟.

الجواب: هناك علة أخرىٰ غير الرقية وهو الطلب والسؤال؛ أي: سؤال المخلوق، أما إذا رقيت أنت نفسك فهو أمر مستحب والرسول ﷺ أمر بذلك، وقال: «**لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيه شركًا**»[(٦)]، وأخبر بأنها حق، وهذا أنفع إذا رقىٰ

---

(١) رواه مسلم رقم (٢١٩٩).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٢٠٠)، وأبو داود رقم (٣٨٨٨).

(٣) رواه مسلم رقم (٥٨٢٩) عن أبي سعيد أن جبريل أتىٰ النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، قال: **باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك**»، وأحمد في المسند رقم (١١٢٢٥).

(٤) رواه البخاري رقم (٥٣٥١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ كان إذا أتىٰ مريضًا أو أتىٰ به قال: «**أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا**»، ومسلم رقم (٢١٩٢) وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي.

(٥) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).

(٦) سبق تخريجه.

الإنسان نفسه، فهو أنفع وأجدىٰ؛ لأنه يكون بذلك صادقًا مخلصًا ولا يرجو نفعًا من الناس ولا مدحًا، وكذلك إذا رقاك أحد بغير طلب أو سؤال منك، فالرسول ﷺ رقاه جبريل عليه السلام، وهو ﷺ من أعظم من حقق التوحيد.

فإذًا يكون السبب بكونهم لا يسترقون؛ يعني: لا يطلبون من غيرهم، فإذا كانوا لا يطلبون الرقية فهم كذلك لا يطلبون غيرها، فالمعنىٰ: أنهم يستغنون بالله ﷻ عن غيره من الخلق، ولا تتعلق قلوبهم بأحد من الناس، بل لكمال إخلاصهم وصدقهم مع ربهم لا يسألون أحدًا شيئًا، وقد كان الرسول ﷺ في آخر الأمر يبايع بعض الناس علىٰ هذا الأمر إذا بايع علىٰ الإسلام. فعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟**»، قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «**علىٰ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا والصلوات الخمس وتطيعوا** (وأسرَّ كلمة خفية) **ولا تسألوا الناس شيئًا، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه**»(١)، فكان أحد هؤلاء الذين يبايعون علىٰ ذلك يركب راحلته والناس تحت راحلته، ثم يسقط سوطه فينزل من علىٰ الراحلة فيأخذه، ولا يقول لمن عنده ناولني السوط؛ لأنه لا يسأل الناس شيئًا، يستغني بالله عن سؤال الناس، ولو كان شيئًا يسيرًا، وهذا يدل علىٰ كمال الإخلاص والصدق مع الله، والسبب في هذا أن سؤال الناس فيه نوع من الافتقار إليهم ويجعل القلب يلتفت نوع التفات إلىٰ من أحسن إليه، فيكون فيه نوع تعلق لمن بذل له هذا الشيء، والواجب أن يكون القلب مخلصًا لله ﷻ وتعلقه كله به ﷻ، ولهذا جاء في الحديث: «**اللهم لا تجعل لفاجر عليَّ نعمة فيوده قلبي**»(٢)،

(١) رواه مسلم رقم (١٠٤٣).

(٢) روح المعاني- ٢(٨/ ٣٥)، أخرجه الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: =

ومن هنا حرمت المسألة.

وقوله: «**ولا يكتوون**»؛ يعني: لا يتعالجون بالكي، والكي مكروه كما جاء في الصحيح عن ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ قال: «**الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهىٰ أمتي عن الكي**»(١)، وفي رواية: «**وما أحب أن أكتوي**»(٢)، وفي رواية: «**وأنا أكره الكي ولا أحبه**»(٣)، وقد جاء الإذن في الكي. قال أنس: كويت من ذات الجنب ورسول الله ﷺ حي، وشهدني أبو طلحة، وأنس بن النضر، وزيد بن ثابت، وأبو طلحة كواني(٤). عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ إلىٰ أُبي بن كعب طبيبًا فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه(٥). وعن أنس ﵁: أن النبي ﷺ كوىٰ أسعد بن زرارة من الشوكة(٦). وجاء في الصحيح أن عمران بن حصين ﵁ فيه بواسير(٧) فاكتوىٰ، وكانت تسلم عليه الملائكة، فلما اكتوىٰ اختفت فأصبحت لا تسلم عليه حتىٰ تاب، فلما تاب رجعت تسلم عليه فأخبر أحد تلامذته، وقال: لا تخبر بهذا حتىٰ أموت فلم يخبر به حتىٰ مات(٨).

فالكي مباح ولكنه مكروه، قال ابن القيم ﵀: فقد تضمَّنت أحاديث الكي

= «**اللهم لا تجعل لفاجر - في رواية: ولا لفاسق - عليّ يدًا ولا نعمة فيوده قلبي، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله**»، وأخرجه ابن مردويه عن كثير بن عطية عن رجل.

(١) رواه البخاري رقم (٥٦٨١).

(٢) رواه البخاري رقم (٥٦٨٣)، ومسلم رقم (٢٢٠٥).

(٣) أحمد في المسند رقم (١٧٣١٥).

(٤) رواه البخاري رقم (٥٧١٩).

(٥) رواه مسلم رقم (٢٢٠٧).

(٦) رواه الترمذي رقم (٢٠٥٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٤٨٥٩)، وابن حبان رقم (٦٠٨٠).

(٧) رواه البخاري رقم (١٠٦٦) قال: كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «**صلي قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا ..**». الحديث.

(٨) رواه مسلم رقم (١٢٢٦) وفيه عن عمران بن حصين قال: «وقد كان يسلم علي حتىٰ اكتويت فتركت ثم تركت الكي فعاد».

أربعة أنواع: أحدها: فعله. **والثاني**: عدم محبته له. **والثالث**: الثناء على من تركه. **والرابع**: النهي عنه. ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه بل يفعل خوفًا من حدوث الداء والله أعلم(١). وكونه مكروهًا؛ لأنه فيه ألم متحقق والشفاء فيه مظنون، والسبب في كونه يمنع من السبق إلى الجنة: لأنه يدل على التعلق في الدنيا بالأوهام فهو يدل على شدة حب الدنيا، وأن رغبته فيها أكثر من الآخرة فهو يقدم أمورًا لا تكون محبوبة لله ﷻ، وهذه لا تكون صفة المحققين للتوحيد، هذه العلة في كون الكي صار سببًا مانعًا من السبق إلى الجنة بلا حساب، والله أعلم.

وقوله: «**لا يتطيرون**»: والطيرة: هي التشاؤم بفعل الطير أو صوته أو الحيوان أو غيره. وهي ليست خاصة بالطيور، فالتشاؤم بالكلام والأشخاص والأيام وغيرها.

والطيرة شرك كما جاء في الحديث: «**الطيرة شرك**»(٢) فقوله: «**لا يتطيرون**»؛ يعني: لا تقع منهم الطيرة؛ لأن هذا توهم من الشيطان وإلا فإن الطيور والدواب وغيرها ليس في فعلها، أو نعيبها، أو كلام الناس شيء يدل على ما يقع، ولهذا يكون هذا من الشرك في الربوبية.

وقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**»: التوكل هو اعتماد القلب على الله ﷻ بعد فعل السبب، فهم يبذلون الأسباب ويتعاطونها ويعتمدون على الله ﷻ في حصول المطلوب، وهذا هو الجامع للخصال التي اجتنبوها هو توكلهم على الله ﷻ،

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٥٨).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٣٦٨٧)، وأبو داود رقم (٣٩١٠) ولفظه: عن عبد الله بن مسعود: عن رسول الله ﷺ قال: «**الطيرة شرك الطيرة شرك- ثلاثًا- وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**».

ولا يجوز أن نفهم أن التوكل هو ترك الأسباب بل التوكل هو فعل السبب الشرعي وليس السبب الممنوع، ثم اعتماد القلب في حصول المسبَّب علىٰ الله تعالىٰ مسبِّب الأسباب؛ لأن السبب ليس هو الذي يحصل به الشيء، ولكن الله جعله سببًا وجعل لكل شيء سببًا، فلا بد من فعل السبب، فتعطيل الأسباب نقص في العقل والدين، والالتفات إلىٰ الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع[1]. فأما الاعتماد عليها فهو شرك؛ لأن الإنسان لا بد أن يعتمد علىٰ ربه، ولكن لا يعطل السبب، فالحديث لا يدل علىٰ أنهم لا يباشرون الأسباب أصلًا، فإن مباشرة الأسباب -في الجملة- أمر فطري ضروري ولا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلًا علىٰ الله تعالىٰ كالاكتواء، والاسترقاء، فتركهم له؛ لأنه سبب مكروه لا سيما والمريض يتشبث فيما يظنه سببًا لشفائه بخيط العنكبوت.

فهذا جاء في شيء مخصوص وهو الاسترقاء والكي فقط، فلا يدخل فيها غير ذلك من الأدوية، فمباشرة الأسباب والتداوي- علىٰ وجه لا كراهية فيه- غير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعًا أو مستحبًا.

فالعلاج والتداوي جاءت به نصوص كثيرة، بل جاء الأمر به عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوىٰ؟ قال: «**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، أو قال: دواء إلا داء واحدًا**، قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: **الهرم**»[2]، وعن أبي هريرة مرفوعًا: «**وما أنزل الله من داء إلا وأنزل له**

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٧٠) ذكر هذا القول عن أبو حامد، وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما. منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٦٦).

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٠٣٨)، وأبو داود رقم (٣٨٥٥)، وأحمد في المسند رقم (١٨٤٥٤)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٤٣٠).

شفاء»[1]، وفي رواية أحمد: «**علمه من علمه وجهله من جهله**»[2]، فالرسول ﷺ تداوىٰ، وأمر بالدواء.

وقد اختلف العلماء في حكم التداوي: فذهب جمهور العلماء -الحنفية والمالكية- إلىٰ أنّ التّداوي مباح، غير أنّ عبارة المالكية: لا بأس بالتّداوي.

وذهب الشافعية، والقاضي وابن عقيل وابن الجوزيّ من الحنابلة إلىٰ استحبابه، لقول النبي ﷺ: «**إنّ الله أنزل الدّاء والدّواء، وجعل لكلّ داء دواءً فتداووا ولا تتداووا بالحرام**»، وغير ذلك من الأحاديث الواردة، والتي فيها الأمر بالتّداوي، قالوا: واحتجام النبي ﷺ وتداويه دليل علىٰ مشروعية التّداوي. وقال النووي في شرح مسلم علىٰ حديث: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله**»، وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ استحباب الدواء، وهو مذهب أصحابنا، وجمهور السلف، وعامة الخلف[3]، ومحلّ الاستحباب عند الشافعية عند عدم القطع بإفادته، أما لو قطع بإفادته كعصب محل الفصد فإنه واجب.

ومذهب جمهور الحنابلة: أنّ تركه أفضل، ونصّ عليه أحمد قالوا: لأنّه أقرب إلىٰ التّوكّل.

وقال شيخ الإسلام -ابن تيمية رحمه الله-: وأما التداوي فليس بواجب عند جماهير الأئمة، وإنما أوجبه طائفة قليلة كما قاله بعض أصحاب الشافعي وأحمد، بل قد تنازع العلماء أيما أفضل التداوي أم الصبر للحديث الصحيح حديث ابن عباس عن الجارية التي كانت تصرع، وسألت النبي أن يدعو لها فقال: «إن أحببت أن

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٦٧٨)، وعند مسلم رقم (٢٢٠٤) ولفظه: أنه قال: «**لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله ﷻ**».

(٢) المسند رقم (٣٥٧٨) من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) المنهاج شرح مسلم (١٤/ ١٩١).

تصبري ولك الجنة، وإن أحببت دعوت الله أن يشفيك، فقالت: بل أصبر، ولكني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها أن لا تتكشف»[(١)]، ولأن خلقًا من الصحابة والتابعين لم يكونوا يتداوون بل فيهم من اختار المرض؛ كأُبي بن كعب، وأبي ذر، ومع هذا فلم ينكر عليهم ترك التداوي[(٢)].

والذي يظهر أن الراجح ما ذهب إليه الإمام الشافعي رحمه الله، والله أعلم. فالتداوي ليس واجبًا؛ يعني: أن الإنسان إذا أصيب بمرض ثم امتنع من أن يذهب إلىٰ العلاج لا يكون آثمًا، ولا سيما إذا كان العلاج قد يصحبه أمور منكرة، فإن هذا يكون مبررًا لكونه يمتنع، والأمور المنكرة التي تصاحب العلاج كثيرة كما هو معروف في المستشفيات وغيرها.

فالمقصود أن الأدلة دلت بأن العلاج أُمر به، فالرسول ﷺ عالج، فكان يحتجم ويشرب العسل علاجًا، وكذلك تعالج من السحر وغير ذلك، فهي سُنَّته صلوات الله وسلامه عليه، فالمعالجة ما عدا الأسباب المكروهة التي منها الطلب من الغير والافتقار إليه، وكذلك الكي فإن هذا مكروه وتركه أولىٰ، ولا يكون من فعله سابقًا إلىٰ الجنة مع السبعين الألف، أما ما عدا ذلك من العلاج فإنه جائز بل مستحب، ولا يكون الذهاب إلىٰ الطبيب وإخباره وطلب أن يصرف له العلاج لا يكون من هذا الباب؛ يعني: الاسترقاء، فهو يأخذ منه الوصف حتىٰ يفعل السبب فقط، والذي يفعل السبب يكون معتمدًا علىٰ الله جل وعلا، والتوكل ليس معناه ترك الأسباب بل معناه فعل السبب، ثم الاعتماد بالقلب علىٰ الله جل وعلا في حصول المطلوب هذا هو حقيقة التوكل.

---

(١) البخاري رقم (٥٣٢٨) ولفظه عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلىٰ، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**». فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها»، ومسلم رقم (٢٥٧٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٢٦٩).

والتوكل فرض على كل شخص كما قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقد أخبر الله أن المسببات مربوطة بأسبابها، وأنه جعل لكل شيء سببًا، فلا بد من فعل السبب، وترك السبب قدح في العقل بل وحتى في الشرع، أما الاعتماد على السبب فهو شرك، فلا بد من النهج الصحيح في هذا بأن يفعل السبب على أنه سبب إلا إذا كان سببًا محرمًا؛ ولأن من الأسباب ما هو محرم، ومنها ما هو مكروه، فمثل هذا يُجتنب حسب الإمكان.

قوله: «**فقام عكَّاشة بن محصن**»: عكَّاشة بن صفوان بن محصن، من المهاجرين السابقين ومن أفضل الصحابة، وكان من أحسن الرجال منظرًا وكان شجاعًا فارسًا كما وصف بذلك، وقد حضر وقعة بدر وما بعدها من الوقائع، وقُتل في قتال الردة مع خالد بن الوليد سنة اثنتي عشرة قتله طُليحة الأسدي لما تنبأ، ثم أسلم طليحة وقُتل في قتال الفرس فهو رضي الله عنه مات شهيدًا، ولهذا يقول العلماء: تحقق قول النبي ﷺ فصار هذا من علامات نبوته ﷺ؛ لأنه قتل شهيدًا مستمرًا ثابتًا على دين الله ﷻ، فهذا دليل على صدق ما أخبر به ﷺ في الظاهر، وإلا يجب علينا أن نصدقه إذا قال ولو لم يظهر لنا ذلك فهو الصادق المصدوق، وعلامات نبوته كثيرة جدًا لكن كونها تكون في أمور غيبية فقد يُنازع فيها؛ لأن من أعظم الآيات التي جاء بها الرسول ﷺ هذا القرآن لكن أكثر الناس لا يعرفون كيف يكون هذا القرآن آية كيف يكون معجزة؛ لأنهم لا يفهمونه ولا يفهمون حتى اللغة التي نزل بها، فإذا كان لا يفهم اللغة فكيف يفهم أنه معجزة وأنه آية باهرة، ولكن إذا فهم اللغة، وفهم مواقع الكلام ظهر العجب في هذا القرآن، والإنسان يقرأ القرآن عدة مرات بل سنين، وفي كل مرة يتبين له شيء ما تبين من قبل، وهذا لا يمكن أن يكون في كلام الناس أبدًا.

وقوله: «**أنت منهم**»: وفي رواية البخاري: «**اللَّهم اجعله منهم**»[(١)]: ففيه طلب

(١) البخاري رقم (٦٥٤١).

الدعاء من الفاضل. وقوله: «ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة»: قال القرطبي رحمه الله: ولقوّة يقينه وشدّة حرصه على الخير ورغبته فيما عند الله سبق الصحابة كلهم بقوله: «ادع الله أن يجعلني منهم». ولما لم يكن عند القائم بعده من تلك الأحوال الشريفة ما كان عند عُكاشة، قال له: «**سبقك بها عُكاشة**»، وأيضًا فلئلا يطلبَ كلّ من هناك ما طلبه عُكاشة، ويتسلسل الأمر، فسدّ النبي ﷺ الباب بقوله: «**سبقك بها**»[1]. بل هذا من حسن خلق الرسول ﷺ، وجميل معاملته لأصحابه حيث جاء بالمعاذير التي لا تُحرج أحدًا، وبذلك توقف الطلب فلم يرده ردًّا بقوله له: أنت لست منهم أو أنا لن أدعو لك، أو من الكلام الذي قد يكون فيه شيء من تحسر النفس، أو الغضب للذي يقال له، بل قال: «**سبقك بها عكّاشة**»، هذا أسلوب جميل وتعريض حسن، ولهذا توقف الناس.

ولم يبيَّن هذا الرجل، وقد جاء في حديث إسناده واهٍ أنه سعد بن عبادة، كما قال الحافظ. فإذا كان واهيًا فلا يعتمد عليه، ثم إن سعداً رضي الله عنه من كبار الصحابة فبعيد أن يكون هو[2].

وأما قول بعض الشراح أنه منافق فهذا غير صحيح أيضًا؛ لأن المنافق لا يقول: ادع الله لي أن يدخلني الجنة؛ لأن المنافق أصلًا لا يؤمن بالجنة، وهو يُبطن الكفر، فالمنافق ليس عنده دافع لطلب الجنة إلا إذا كان يقصد الرياء.

وأما ما جاء في طلب عكّاشة في أن يجعله منهم وقيام الآخر مثله، فهذا عُد من أنواع الشفاعة؛ لأن الشفاعة هي: الدعاء بضم الدعاء إلى دعاء المشفوع له؛ لأنه

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٩٦).

(٢) رواه الخطيب في المبهمات (١/ ٢٥). قال الحافظ في فتح الباري (١١/ ٤١٢)، قال: جاء من طريق واهية أنه سعد بن عبادة أخرجه الخطيب في المبهمات من طريق أبي حذيفة إسحاق بن بشر البخاري أحد الضعفاء من طريقين له عن مجاهد، وهذا مع ضعفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة.

كان فردًا، ثم انضم إليه الشافع فصار شفعًا، فهي أخذت من هذا، والشفاعة لها باب خاص سيأتي؛ لأن الشفاعة أصل دخول الشرك على الناس.

قال المؤلف رحمه الله: **فيه مسائل:**

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

لأن أهل الإيمان يدخلون الجنة كلهم، فمنهم من يسبق بلا حساب ومنهم من يحاسب، ومنهم من يعذب، ثم يدخل الجنة.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك ومن البدع والذنوب، وليس معنى هذا أن الإنسان يمكن أن يكون ليس عنده أي ذنب، ولكن المقصود في هذا أن يكون تائبًا غير مصر على ذنب هذا هو المقصود، وإلا فالذنوب لا بد منها ليس يخلو من الذنب عبد، ولكن يجب على الإنسان أن يتوب؛ لأن التوبة واجبة وإذا تركها الإنسان فهذا ذنب؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

الثالثة: كون ترك الرقية والكي من التوحيد.

يعني: ترك طلب الرقية وليس المقصود الرقى نفسها، وإنما المقصود أن الإنسان لا يطلب من غيره أن يرقيه، ولا يدخل في هذا كون الإنسان يرقي نفسه أو غيره يرقيه من دون طلب منه، فإن هذا لا يكون مانعًا.

أما الكي ففيه خلاف، فمنهم من قال: طلبه أيضًا مثل: الرقية؛ لأنه قال: «**لا يكتوون**»؛ يعني: لا يطلبون أحدًا يكويهم. ومنهم من قال: تركه مطلقًا، فالكي مكروهٌ مطلقًا سواء طلب أحدًا يكويه أو هو قائم بكيٍّ نفسه، فالكي نفسه مكروه؛ لأن فيه ألم محقق وهو يدل على الرغبة في الدنيا أكثر من غيرها، وقد جاء النهي عنه بخلاف الرقية كما في التفصيل السابق.

الرابعة: حرصهم على الخير.

يعني: الصحابة، وذلك عندما تداولوا هذه المسألة.

الخامسة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

الكمية هي: الكثرة، والكيفية: هي كون منهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فهي أفضل الأمم كثرة وصفة.

السادسة: فضيلة أصحاب موسى عليه السلام.

أصحاب موسىٰ ما ذكر منهم أن فيهم أحداً يسبق إلىٰ الجنة بلا حساب وإنما جاءت كثرتهم حتىٰ ظن الرسول ﷺ أنهم أمته، فدل علىٰ فضلهم، وقد قال الله ﷻ في ذكرهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] يقول العلماء؛ يعني: علىٰ عالمي زمنهم، ليس علىٰ العالمين مطلقًا[1].

ولكن قول الله ﷻ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]، أكثر المفسرين علىٰ أن قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أنه ليس المقصود به هذه الأمة، بل الأمم الماضية[2]. فهذا أيضًا نص في السبق؛ لأن السبق هو إلىٰ الجنة، واستدلوا علىٰ هذا بأشياء منها ما ذكر الله في سورة آل عمران: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٤)، قال رحمه الله: والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجًا، وأكرم نبيًا، وأعظم ملكًا، وأغزر أرزاقًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأوسع مملكة، وأدوم عزًا، قال الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: والجمهور علىٰ أنه خطاب من موسىٰ لقومه وهو محمول علىٰ عالمي زمانهم كما قدمنا.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٥١٧) يقول تعالىٰ مخبراً عن هؤلاء السابقين أنهم: ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾. وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصري، رواها عنهما ابن أبي حاتم. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**».

وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، حيث أخبر الله ﷻ أن كثيراً من الأنبياء قاتل معهم رِبيُّون كثير، والرِّبِّي: هو الذي تربىٰ أو ربَّ غيره بالعلم والتقىٰ، وذكرهم بأوصاف جميلة، والله أعلم.

والرسول ﷺ رجا أن تكون هذه الأمة ثلثي أهل الجنة(١)، فالكثرة ليس فيها إشكال ولكن الصفة التي يفضلونهم بها.

❁ **السابعة: عرض الأمم عليه ﷺ.**

وهذا من المعجزات ولا إشكال فيه، بل هذا حق ويجب الإيمان به فهو رآها كما تأتي يوم القيامة.

❁ **الثامنة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.**

كل أمة تأتي مع نبيها، ولا يأتي معه إلا من استجاب له فقط، أما الكافرون فهم يُحشرون جميعًا من أولهم إلىٰ آخرهم.

❁ **التاسعة: ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة.**

يعني: ما ذكر في هذا الحديث ونحوه، فثمرته أن يثمر عند العبد البحث عن الحق والتمسك به، وأن لا يغتر بالكثرة، فلا يغتر بما يقوله بعض الناس عندما يؤمر بشيء يقول: كل الناس يفعلون هذا، أو ما أشبه ذلك، وهذه هي سُنَّة الجاهلين الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولهذا يقول ابن مسعود: لا يكن أحدكم إمَّعة قالوا: وما الإمَّعة يا أبا عبد الرحمن؟ قال: يقول: إنما أنا مع الناس إن اهتدوا اهتديت، وإن ضلُّوا ضللت، ألا ليوطن أحدكم نفسه علىٰ أنه إن كفر الناس أن لا يكفر(٢). بل يجب أن يكون العبد عنده فرقان من

(١) سبق تخريجه.

(٢) المعجم الكبير (٩/ ١٥٢) وقال: «اغد عالمًا، أو متعلمًا، ولا تغد إمَّعة فيما بين ذلك» مشكل الآثار =

العلم يفرق به بين الحق والباطل، وأن لا يغتر بالناس.

❁ **العاشرة: الرخصة في الرقية من العين والحُمه.**

العين: هي إصابة العائن بعينه. والحمة: هي ذات الحموم؛ يعني: ذات السموم.

وقوله: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»؛ يعني: لا رقىٰ نافعة ومجدية أكثر منها في هذا. والرخصة يقول العلماء بأنها لا تُفعل إلا عند الحاجة؛ لأنها هي الحكم الذي جاء علىٰ خلاف القاعدة الشرعية.

❁ **الحادية عشر: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.**

هذا أخذ من قول حصين بن عبد الرحمن: أما إني لم أكن في صلاة.

❁ **الثانية عشر: فضيلة عكّاشة** رضي الله عنه.

حيث إنه شُهد له أنه من السابقين إلىٰ الجنة بلا حساب، ولا عذاب، وهو من المهاجرين الأوائل.

❁ **الثالثة عشر: استعمال المعاريض.**

لقوله: «**سبقك بها عكاشة**»، والمعاريض هو أن لا يقابل الإنسان بما يكرهه أو يتكلم بالكلام الذي قد يكون فيه حرج للمتكلم، وهذا من الأدب، فالرسول ﷺ يُعلم الأدب بل يُعلم الخير كله، فإذا مثلًا بلغه عن أحد من أصحابه أمرًا فأراد أن ينهىٰ عنه فإنه لا ينص علىٰ فلان وفلان بل يقول: «**ما بال رجال يقولون: كذا وكذا**»[1].

= للطحاوي ص(٥٣٤٤) وقال: «**لا يكونن أحدكم إمعة**»، قالوا: وما إمعة؟ قال: «**يجري مع كل ريح**». مساوئ الأخلاق للخرائطي ص(٢٨٧).

(١) رواه مسلم رقم (١٤٠١) عن أنس أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام علىٰ =

ففي هذا جواز استعمال المعاريض، وقد جاء في الحديث: «**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**»[1]. والمعاريض: هي أن يخبر عن شيء قد لا يفهمه السامع، وهو يريد ذلك الشيء ويكون صادقًا.

= فراش، فحمد الله وأثنى عليه. فقال: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

(١) سنن البيهقي رقم (٢١٣٦٤) عن عمران بن الحصين، والصحيح أنه موقوف عليه، وكذلك جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الباب الرابع

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب الخوف من الشرك.**

لما بيَّن المؤلف وجوب التوحيد، وأنه فرض عين على كل أحد، وبيَّن فضله وما يكفِّر من الذنوب، وذكر أن من حقق التوحيد؛ أي: خلَّصه من شوائب الشرك والبدع والذنوب فإنه يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، بيَّن هنا الخوف من الشرك؛ يعني: أن المسلم يجب أن يخاف من أن يقع في الشرك، ومقتضى الخوف من الشرك أمور:

أولًا: أن الشرك أنواع كثيرة، فيه الجلي الظاهر، وفيه الخفي، وله وسائل وأسباب كثيرة، فإذا لم يتوقها العبد، فقد يقع في الشرك وهو لا يدري.

ثانيًا: أنه لا يغفر، والإنسان عمره واحد، فإذا وقع في شيء من ذلك ومات عليه فلا يمكنه الاستدراك.

ثالثًا: أن من مات عليه يكون خالدًا في النار لا يُرجى له خير، بل يكون منقطع الرجاء نهائيًا.

رابعًا: أن الإنسان لا يملك قلبه، فالقلوب بيد الله جل وعلا، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو من أكمل الخلق توحيدًا وعبادة وإخلاصًا لله الذي اتخذه الله خليلًا، وهو الذي ابتلاه الله بكلمات فوفَّاهن، وهو الذي أمره الله جل وعلا بذبح ابنه فامتثل ذلك، وهو الذي حطم الأصنام وصبر على أذى الكفار وعلى تعذيبهم، فألقوه في النار وصبر في ذلك محتسبًا لله جل وعلا، ومع ذلك كله يخاف أن يقع في الشرك.

خامسًا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم خافه على صحابته، فلا بد أن يكون من لا يدانيهم مخوف عليه، ولهذا كان العلماء يخافون من الوقوع فيه، ولا سيما ما ذكر المؤلف

في الحديث الذي فيه: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء**»، فإن هذا قد لا يسلم منه إلا النادر، نسأل الله السلامة.

وليس المقصود بالشرك عبادة الأصنام، أو عبادة الأشخاص خاصة، وإنما المقصود الوقوع في الكفر عامةً، سواء كفرًا أو نفاقًا، ولهذا قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق[1].

والشرك كما سبق يقع في أنواع التوحيد كلها: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وينقسم إلىٰ: شرك أكبر، وشرك أصغر.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وقول الله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أخبر تعالىٰ أنه: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: من عباده[2].

وبهذا يتبين أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله قطع الرجاء عن صاحبه، وأخبر أنه غير مغفور له، وإذا كان غير مغفور له فإنه يكون في النار قطعًا، غير أن الشرك كما هو معلوم ينقسم إلىٰ قسمين: شرك أكبر وهذا هو الذي إذا مات عليه الإنسان فإنه يكون في النار قطعًا، كما قال النووي رحمه الله في شرحه لمسلم فإنه يقول: وأما حكمه ﷺ علىٰ من مات مشركًا بدخول النار ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة، فقد أجمع عليه

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان باب ٣٦ خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥).

المسلمون، فأما دخول المشرك النار فهو علىٰ عمومه فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها، ثم حُكم بكفره بجحده وغير ذلك، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة، فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها دخل الجنة أولًا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها فهو تحت المشيئة فإن عُفي عنه دخل أولا، وإلا عُذب، ثم أُخرج من النار وخُلد في الجنة، والله أعلم[١]. فالذي يسلم من الشرك، إذا لم يكن صاحب كبائر فإنه يكون في الجنة قطعًا بدون عذاب، أما إن كان صاحب كبائر فأمره إلىٰ الله إن شاء عذبه، ثم بعد ذلك يُخرجه بعد تعذيبه في النار إلىٰ الجنة، خلافًا لما تقوله المعتزلة والخوارج، فالمعتزلة يجعلونه لا مسلمًا ولا كافرًا، ويجعلونه في الآخرة كافرًا في النار.

فقوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: ﴿أَن﴾ إذا دخلت علىٰ معمولها فإنها تكون مصدرية من أدوات العموم. فتدل علىٰ أن الشرك عمومه يدخل في ذلك، فأي شرك يقع فيه الإنسان فإنه غير مغفور له هذا لمن يموت عليه بلا توبة، وهذه مسألة خلاف.

وقد جاءت آيات أخرىٰ تدل علىٰ مثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهذا فيه أن الجنة حرام عليه، وأنه من أهل النار، ففي هذه الآيات لم يذكر نوع الشرك بل أطلق.

وقد اختلف العلماء في الشرك الأصغر هل هو داخل في الآية؛ يعني: أنه لا يغفر له، ودخوله في عموم اللفظ لا شك فيه؛ لأنه يسمىٰ شركًا، وقد سمَّاه الرسول ﷺ شركًا وتنديدًا وكفرًا، ففي الحديث أن ابن عمر سمع رجلًا يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير

(١) انظر: المنهاج شرح النووي علي مسلم (٢/ ٩٧).

الله فقد كفر أو أشرك»[١]، وعن ابن عباس ﭭ قال رجلٌ للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًّا؟! ما شاء الله وحده»[٢]، فهذا تنديد إذًا، والله ﻷ يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وشيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ مرة مال إلىٰ أنه يُغفر، ومرة مال إلىٰ أنه لا يغفر؛ لأن الآية واضحة في هذا، وهي عامة في الشرك كله.

ولكن بالنظر إلىٰ أن المعاصي قد تدخل في الشرك الأصغر، والمعاصي جاءت النصوص بأنها تغفر للعبد المسلم، وهي تحت المشيئة، فيكون الشرك الأصغر داخلًا في الذنوب، والآية تحمل علىٰ الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﻷ، ويؤيد هذا أن الشرك الأصغر لا يُخرج من الدين الإسلامي يبقىٰ العبد مسلمًا، وإن كان عنده الشرك الأصغر، والمسلم المؤمن لا يكون خالدًا في النار.

والذين يقولون إنه لا يغفر يقولون: إنه لا يكون مخلدًا في النار، ولكن لا بد يعاقب صاحبه عليه، وليس معنىٰ ذلك أنه يكون كافرًا أو يكون حكمه حكم المشرك الشرك الأكبر خالدًا في النار، فصاحب الشرك الأصغر يُعذب علىٰ حسب إجرامه وشركه، ثم يكون مآله إلىٰ الجنة؛ لأن الشرك الأصغر لا يكون صاحبه خارجًا من الدين الإسلامي، بخلاف الشرك الأكبر فإن صاحبة لا يدخل الجنة أصلًا بل الجنة عليه حرام.

ولهذا تردد شيخ الإسلام في هذا بين كونه يغفر أو لا يغفر، فإذا كان الأمر هكذا، فالواجب علىٰ الإنسان أن يبتعد عن الأمور التي يكون فيها اشتباه، وهذا وجه من وجوه الخوف من الشرك.

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٥٣٥) وحسنه، والحاكم في المستدرك رقم (٧٨١٤) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم (٧٨٣).

وقوله: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾»: هذا لمن مات بلا توبة، أما إذا تاب فالتائب إذا قبلت توبته؛ فكأنه لم يُذنب، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فقوله:﴿ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لا يخرج منها ذنب ويدخل في هذا الشرك.

وأما الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، فهذه لمن يموت علىٰ الشرك فإنه لا يغفر له، والآية تدل علىٰ أن من مات علىٰ الشرك الأكبر والأصغر فإنه غير مغفور له، ولكن إذا كان كبيرًا فهو من أهل النار خالدًا فيها، وأما إذا كان صغيرًا فإنه يعذب علىٰ حسب إجرامه وشركه، ثم يكون مآله إلىٰ الجنة، ولا يكون خارجًا من الدين الإسلامي إلا أن يكون شركه يسيرًا قد غُمِرَ بكثير الحسنات، فرجحت حسناته، فهذا يُغفر له ولا يدخل النار، وقد سبق ذكر الخلاف في ذلك أن هذا القول مرجوح لعموم الأدلة.

وقوله: «﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾»: من مات غير مشرك بالله ﷻ، فلا يخلو أن يكون صاحب كبيرة مصرًّا عليها أو لا يكون، فإن كان صاحب كبيرة مصرًّا عليها، ومات علىٰ ذلك فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بلا عذاب، وإن شاء أخذه بكبيرته وعذبه في النار أو في غيرها، ثم بعد ذلك يُدخل الجنة، وهذا مقطوع به عند أهل السُّنَّة والجماعة، وأما إذا كان غير مصرٍّ علىٰ كبيرة فإنه يكون في الجنة بلا عذاب؛ لأن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر، قال الله ﷻ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١]، وأما الكبائر فلا بد فيها من التوبة.

فكل ما دون الشرك فهو تحت المشيئة، وهو إلىٰ الله ﷻ، ولكن لا يُجزم بأنه مغفور له، أو غير مغفور له؛ لأن الله جعله إلىٰ مشيئته. ولا أحد يخلو من الذنوب، والذنوب قد تكون كبيرة والعبد لا يدري، وهي تنقسم إلىٰ ظاهرة وباطنة، وكل من

القسمين فيه الكبير والصغير، والباطن أعمال القلوب من الحسد والغل والحقد والبغضاء وغيرها، والأعمال الظاهرة التي تكون في الجوارح وهي كثيرة، والعبد قد يتصور الشيء أنه ليس كبيرًا مثل ما قال الله ﷻ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، فإذا كان العبد قد يحبط عمله وهو لا يشعر، وحبوط العمل بالكبائر، فالتقدم بين يدي الله ورسوله قد يحبط عمل الإنسان وهو لا يشعر، وكذلك الجهر بين يدي الرسول ﷺ بالقول ورفع الصوت فقط. فهناك أمور يتساهل فيها العبد وهي ليست سهلة، وهذا يدخل في الخوف وإن لم تكن شركًا، فقد تكون مانعة للعبد من دخول الجنة من أول الأمر، والعذاب في النار صعب جدًا وشديد، وعلىٰ المرءِ أن يتصور النار التي بين يديه هل يستطيع أن يضع فيها أصبعه فكيف بنار جهنم التي يُلقىٰ فيها العبد، ثم هو لا يموت فيها ولا يحيا.

فالمقصود أن الأمور التي وعدنا بها يجب أن نتصورها تمامًا؛ لأننا سوف نعايشها ونلاقيها.

فوجه الدلالة من الآية أن الله أخبر أنه لا يغفر للمشرك، فإذا كان الشرك لا يغفر فيتعين علىٰ العبد أن يبحث عن أنواعه، وعن أسبابه ووسائله فيجتنبها لئلا يقع فيه وهو لا يدري، فإن كثيرًا من الناس من الأذكياء بل من العلماء وقعوا في الشرك الأكبر؛ لأنهم جهلوا ذلك فوقعوا فيه، والسبب التهاون والتساهل، كما هو الواقع في كثير من بلدان المسلمين إلىٰ الآن، والناس يتجهون للقبور يسألون أصحابها ويرون أن هذا ليس بشرك، وإنما هو توسل جائز، فهذا من المصائب، والشرك الذي لا يغفره الله ﷻ يكون عند بعض الناس طاعة يتقرب بها إلىٰ الله ﷻ، وفي الآية دليل علىٰ أن الذنوب ما عدا الشرك لا يكفر بها المسلم، فيكون فيه الرد علىٰ الخوارج الذين يكفرون الناس بالذنوب، وكذلك فيه الرد علىٰ إخوانهم

المعتزلة الذين يجعلون صاحب الكبيرة خالدًا في النار وإن كانوا لا يسمونه كافرًا ولكنهم يقولون: إنه خرج من الإسلام، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، وإذا مات بدون توبة فأمره إلىٰ الله، كما هو مفهوم هذه الآية، فإن شاء عفا عنه وأدخلهم الجنة بلا عذاب، وإن شاء عذبه، ثم بعد ذلك يدخلهم الجنة.

وفي الآية أن المشرك إذا مات علىٰ شركه فإنه غير مغفور له، وأما إذا تاب فالله إذا شاء قبل توبته، فقبول التوبة، إليه ﷻ، غير أن الثقة بالله ﷻ ورجائه أنه يقبل التوبة بل يفرح بتوبة التائب أشد الفرح، وإن كان سبحانه لا ينتفع بطاعة الطائعين، ولا بتوبة التائبين، فهو الغني بذاته عن كل من سواه، ولكن الله ﷻ لكرمه، وجوده لا يحب أن يعذب عباده، وإذا تاب عبده فرح بذلك، ولهذا أرسل الرسل، وأنزل الكتب، حتىٰ لا يكون لأحد عذر أمام الله ﷻ، فإرسال الرسل وإنزال الكتب كافيًا لإقامة المعذرة؛ لأن الله ﷻ جعل في الإنسان عقلًا وفكرًا يُدرك بذلك منفعته، فإذا عرف أن الرسول ﷺ جاء بالحق والهدىٰ من عند الله يجب عليه أن يبحث عما جاء به الرسول ﷺ، وإن لم يفعل فاللوم عليه فهو الملوم والحجة قائمة عليه ليس له عذر، فلا ينتظر العبد أن يأتيه الرسول في بيته أو في خصوص نفسه ويقول: كذا وكذا، ولا عذر للعبد بقوله: أنا جاهل ولم أدر، فهذا لا ينفعه قوله، فإذا علم أن الله ﷻ أرسل رسوله وأنزل كتابه فيجب عليه أن يبحث هو عن الحق.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله ﷻ:** ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قوله: «﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾»؛ يعني: اجعلني في جانب بعيدًا أنا وبني عن عبادة الأصنام.

قوله: «﴿وَبَنِيَّ﴾»؛ يعني: أبناءه، والمقصود بهم أبناؤه لصلبه. وقد استجاب الله له وجعل بنيه أنبياء، وجعل كلمة الإخلاص في ذريته باقية إلىٰ يوم القيامة؛ يعني: التوحيد باقيًا إلىٰ يوم القيامة في ذرية إبراهيم، ومع أنه لا ينفع الانتساب لشريف أو لكريم علىٰ الله، لا ينفع إلا العمل، ومن أجل ذلك قص الله علينا قصة نوح عليه السلام

مع ابنه، وقصة لوط ﵇ مع زوجته، وكذلك إبراهيم ﵇ مع أبيه، ومحمد ﷺ مع عمه وأبناء عمه ما نفعهم انتسابهم إلىٰ هؤلاء والصلة القوية التي تربطهم هي دين الله، وما ينفع الإنسان إلا عمله وتوحيده.

قوله: «﴿ٱلۡأَصۡنَامَ﴾»: الصنم: يقول: أهل اللغة ما نُحت علىٰ صورة سواءً صورة إنسان أو صورة حيوان، وسواء كان التصوير تخطيطًا أو نحتًا، أو تصويرًا بالخشب، أو الحجر، أو الطين، وما أشبه ذلك. والوثن: ما عبد علىٰ غير هذه صورة، مثل الحجر والشجر، والقبر وما أشبه ذلك، فقد جاء دعاء الرسول ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»[(١)]، ولما جاء الرجل يستفسره عن الوفاء بالنذر في المكان المعين قال له: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»[(٢)]؛ لأن ذلك المكان جبل، والجبل يكون فيه حجارة غالبًا تعبد، وهذا هو الصحيح في التفرقة بين الصنم والوثن. وقد يطلق الوثن علىٰ الصنم كما أخبر الله ﷻ عن إبراهيم ﵇ أنه قال لقوله: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وهي أصنام كانوا ينحتونها ويعبدونها، فدل علىٰ أن الوثن أعم فيطلق علىٰ الصنم وعلىٰ غيره، فالأصنام المنحوتة أوثان، والقبور المعبودة أوثان، والحجارة أوثان، وغيرها مما يجعل له شيء من العبادة أوثانًا، والأصنام والأوثان قد تتنوع فقد تكون صنمًا منحوتًا، أو مصنوعًا بيد البشر، وهذا من العجائب يصنعونها بأيديهم، ثم يعبدونها، ولهذا قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ لأنهم هم الذين يعملون هذه الأشياء، ثم يتجهون إليها بالطلب، أو تكون هذه الأوثان والأصنام معنىٰ من المعاني، فإذا كان العبد يُقدم هذا المعنىٰ علىٰ طاعة الله ﷻ فيجعله هو مقصوده ويعمل لأجله فهذا يكون معبودًا؛

---

(١) رواه مالك في الموطأ رقم (٥٩٣) عن عطاء بن يسار.

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٣١٣).

بمعنىٰ: الصنم من دون الله ﷻ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرَّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»(١)، فسمَّاه عبدًا للدينار وهو قطعة ذهب، والدرهم الذي هو قطعة فضة، وكذلك عبدًا للكساء الذي يلبسه الخميلة والخميصة، ويكون عبدًا لما يطؤه. ومعلوم أنه لا يسجد لهذه الأشياء ولا يتجه إليها بطلب، وإنما يعمل لهذه الأشياء، وكذلك قد يكون عبدًا لوظيفته التي يعمل فيها، فإذا كان لا يهمه إلا هذه الوظيفة ويقدمها علىٰ طاعة الله ﷻ فهو عبدًا لهذا الوثن، فهذا وثن من الأوثان، وكذلك قد يكون عبدًا لفرجه أو لبطنه إذا كان يُقدِّم ذلك علىٰ طاعة الله ﷻ، فإنه يكون عبدًا لهذا الشيء، فهو عبد لما يعمل له، والعبد يجب أن يكون عبدًا لله خالص العبودية لله ﷻ، وإلا توازعته مظاهر الدنيا، فكل مظهر منها يأخذ منه نصيبًا فيصبح عبدًا لمعبودات كثيرة، وهذه سُنَّة الله، من لم يعبد الله ﷻ عَبَدَ غيره، ولا بد وإن كان أكثر الناس يزعم أنه لا يعبد شيئًا والواقع أنه يعبد أشياء كثيرة، قد تكون شهوته، وقد تكون رئاسة، وقد تكون محبوبته، وقد تكون صورة يتجه إليها، ومن ينظر في الواقع يرىٰ أشياء كثيرة من هذا القبيل.

ولهذا عرَّف ابن القيم ﵀ الطاغوت بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه علىٰ غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله(٢). فجعل الطاعة والاتباع بلا دليل، والطاعة في

(١) رواه البخاري رقم (٢٨٨٧).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٥٠).

المعصية عبادة للطاغوت؛ لأنه تجاوز به وضعه وحده، فكل شيء حده الذي خُلق له أن يكون عبدًا لله ﷻ.

والمقصود أن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ يدل على خوف إبراهيم عليه السلام من عبادة الأصنام، فدعا ربه أن يجعله وبنيه في جانب بعيد عنها، وفي هذا دليل على أن العبد لا يملك لنفسه الاحتراز ولا يملك لنفسه النفع، ولا دفع الضر، وإنما يجب عليه أن يسأل ربه ويتجه إليه وإذا لم يعصمه الله ﷻ فلا عاصم له، وإذا لم يهده فلا هادي له، والإنسان ضعيف وضعفه ملازم له، وهو غير مستطيع أن يجلب لنفسه النفع، وغير مستطيع أن يدفع عن نفسه الضر، فإذا لم يتعلق بربه ﷻ ويعبده ويسأله وُكل إلى ضيعة وإلى ضلال، وهلك وتخطفته الشياطين، شياطين الإنس والجن من كل جانب، لهذا خليل الرحمن الذي اتخذه الله خليلًا يتجه إلى ربه طالبًا سائلًا أن يُجنبه عبادة الأصنام التي ضلَّ فيها أكثر الناس، وقد استجاب الله له فجعله إمام الحنفاء، وقدوة لمن يُخلص عبادته لله ﷻ، وأمر أهل التوحيد أن يقتدوا به ويتأسوا به: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وكذلك بنوه جعلهم الله أنبياء، والظاهر أن المقصود بنوه لصلبه وهم: إسماعيل وإسحاق، وكذلك أولاد إسحاق يعقوب، فإنه حفيده، ثم صارت النبوة في ذريته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما أخبر الله ﷻ أنه جعل الكتاب والنبوة في ذريته.

ففي دعاء إبراهيم عليه السلام عبرة، وبعضهم استشكل هذا وقال: إن المقصود «رب اجنبني وبني أن نعبد الأصنام»؛ يعني: لما يصد عن عبادة الله أو يلهيني عنها، فإبراهيم دعا ربه أن لا يلهيه شيء عن عبادة ربه أو يشغله أمر من أمور الدنيا، فهذا غير صحيح بل إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن لا يقع في عبادة الأصنام وهذا واضح،

وهو ظاهر الآية، وهو الذي فهمه الصحابة والسلف الصالح بعدهم ولهذا: كان إبراهيم التيميّ يقول: من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم حين يقول: ربّ «اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ»(١)؛ يعني: من يأمن الوقوع في الشرك بعد خوف إبراهيم عليه السلام فليس فيه أحد يأمن.

والدليل على أنه قصد عبادة الأصنام قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فاعتبر بالكثرة، ووقوع الناس، فكثير منهم وقع في عبادة غير الله جل وعلا، فخاف أن يقع فيما وقع فيه الأكثرون.

وكذلك يدل على هذا أيضًا أنه جاء أمة كبيرة بالدعوة الواضحة الجلية التي لا إشكال فيها ولم يستجب له إلا رجل واحد فقط، هو لوط عليه السلام: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، والباقون صاروا يجادلون عن الشرك، وعن عبادتهم، فلما تحيل عليهم وقال لهم: أنه سيتخلف عن اجتماعهم الذي كانوا يجتمعونه فتخلف إلى أصنامهم وحطمها، وأخذ الفأس وعلقه في رأس كبيرهم، فلما رجعوا وجدوا أصنامهم محطمة فغضبوا غضبًا شديدًا: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقال بعضهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾؛ يعني: يسبهم ويعيبهم، ويخبر أنهم لا ينفعون ولا يضرون، هذا معنى يذكرهم، ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ على فعله حتى تقوم عليه الحجة، ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، ويشير إليه: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ يخبرونكم، ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾(٢)،

(١) تفسير الطبري ١(٧/ ١٧).

(٢) الآيات المذكورة في سورة الأنبياء من [٥٩-٦٦].

كيف تعبدون من لا ينطق ولا يرجع لكم قولًا ولا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا، وهذا أمر ظاهر جدًا، ولكنهم استمروا علىٰ ضلالهم وحجتهم في هذا أنهم وجدوا آباءهم علىٰ ذلك، أليس عندهم عقول وفكر؟ بلىٰ وعندهم كذلك الأسماع، ومع ذلك فهم يتمسكون بهذه الأشياء. وكذلك قوم نوح عليه السلام صار بعضهم يخاف أن يؤثر نوح عليه السلام في دعوته فصار يُوصي بعضهم بعضًا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [نوح: ٢٣]، تمسكوا بها إياكم أن يصدكم عنها نوح، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣]، فنصُّوا علىٰ هذه المسميات؛ لأنها هي الكبيرة عندهم، وإلا فهم يتمسكون بآلهتهم عمومًا، أليس هؤلاء عندهم عقول وأفكار وأسماع وأبصار؟ بلىٰ. فكيف يستبعد العبد أنه يقع في مثل ما وقع فيه هؤلاء.

وإذا فكرت في الناس الموجودين تجد أن بعضهم يعبد بعضًا، وبعضهم يعبد فرجه، وبعضهم يعبد بطنه، وبعضهم يعبد وظيفته، وبعضهم يعبد زوجته، وغير ذلك من محبوباتهم، فهم لا يخلون من معبودات ظاهرة؛ لأن من سُنَّة الله جل جلاله أن من لا يعبد الله يجعله يعبد المظاهر الأخرىٰ، يعبد أمثاله من العباد، ومن لا يعبد الله عبد غيره، فالإنسان لا ينفك عن عبادة شاء أم أبىٰ، فيجب علىٰ العبد أن يحرص أن يكون عبدًا لله جل جلاله، وأن يقدم محبوبات الله علىٰ محبوبات نفسه، وأن يكون عبدًا مخلصًا لربه جل جلاله.

فالمقصود أن قول هذا القائل أن إبراهيم عليه السلام لم يخف من الوقوع في عبادة الأصنام، لأن الله أعطاه المعرفة، وأعطاه رشده من صغره، وإنما خاف أن تصده الدنيا وملذاتها وأن تلهيه عن العبادة فقط، فجعل هذه كأنها أصنام هذا قول بعض المفسرين، وقد ذكره الراغب الأصفهاني في تفسيره علىٰ هذه الآية وارتضاه وقال: هذا هو الذي ينبغي، وهذا ليس مرضيًا بل هذا خلاف ظاهر الآية، وخلاف ما قاله العلماء، فإبراهيم عليه السلام كما سبق خاف من الوقوع في عبادة الأصنام التي وقع فيها أكثر الناس؛ لأن الأمر بيد الله جل جلاله إذا شاء أن يقلب القلب قلبه وجعله منتكسًا وجعل

الحق عنده باطلًا والباطل حقًا، فلا بد أن يتعلق العبد بربه وأن يدعوه ليلًا ونهارًا لعله يُسلمه مما وقع فيه الكثيرون، فإذا كان إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، وخليل الرحمن يخاف أن يقع في الشرك فكيف بالذي لا يمكن أن يصل ولا إلىٰ عشر معشاره من الهدىٰ والمعرفة بالله جل وعلا، فيجب أن يخاف العبد من الوقوع في الشرك، وهذا هو وجه الاستدلال بالآية.

قال المؤلف رحمه الله وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه؟ فقال: «الرياء».

المؤلف رحمه الله لم يذكر من روىٰ الحديث؛ لأنه رحمه الله كتب هذا الكتاب وهو بعيد عن مكتبته، وقد يكتب الشيء ليراجعه ثم ينساه، وهذا كثير في كتب العلماء.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد وغيره، والراوي هو محمود بن لبيد اختلف في صحبته، ورجح البخاري أنه صحابي، وكذلك ابن عبد البر والحافظ ابن حجر[1]، قاله الشارح رحمه الله. وقال ابن عبد البر وغيره: إن أكثر أحاديثه التي جاءت مرسلة؛ يعني: أنها بواسطة الصحابي، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم صحابي فإن هذا لا يضر؛ لأن الصحابة كلهم عدول[2]. والحديث متصل السند، وهو حديث حسن سنده لا مطعن فيه، ولفظ الحديث عن محمود بن لبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**؟ قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٣٦٢) محمود بن لبيد ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يثبت له منه سماع وإن ذكره بعضهم في الصحابة فلأجل الرؤية. الاستيعاب (١/ ٤٣٠): وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة. قال: وقال: إني لا أعرف له صحبة. قال أبو عمر: قول البخاري أولىٰ، وقد ذكرنا من الأحاديث ما يشهد له، وهو أولىٰ بأن يذكر في الصحابة من محمود بن الربيع فإنه أسن منه.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تقريب (٢/ ١٦٤): محمود بن لبيد بن عقبة بن رافع الأوسي الأشهلي أبو نعيم المدني صحابي صغير وجل روايته عن الصحابة، مات سنة ست وتسعين، وقيل: سنة سبع، وله تسع وتسعون سنة.

قال: الرياء، يقول الله ﷻ يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»(١).

قوله: «أخوف ما أخاف عليكم»: هذا الخطاب موجه للصحابة مع كمال إيمانهم، وتلقيهم العلم عن الرسول ﷺ، ومعلوم أن هذه ميزة لم تكن لأحد من الناس، ولهذا الإيمان عندهم أمثال الجبال رسوخًا ويقينًا.

وكذلك هم - رضوان الله عليهم - أفضل الأمة قال ﷺ: «**خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم**»(٢)، ومع هذا يقول لهم الرسول ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا علىٰ الصحابة فكيف بمن دونهم بدرجات كثيرة، فإنه يُخاف عليهم أكثر.

وقوله: «الشرك الأصغر»: هذا واضح في أن الذي خافه عليهم هو الشرك الأصغر، وليس الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأكبر قد يكون عند من يعرفه من المؤمنين ممتنع الوقوع؛ يعني: الدافع إليه معدوم أو ضعيف جدًا في قلوب المؤمنين الكاملين، لا وجود له بل يود أحدهم أن يلقىٰ في النار ولا أن يشرك بالله ﷻ.

قوله: «فسئل عنه؟ فقال: الرياء»؛ يعني: الذي خافه عليهم الشرك الأصغر، وهو الرياء الذي هو المصانعة التي يقصد بها حظ النفس فإنه يعمل العمل فيزينه ويحسِّنه من أجل رؤية الناس كما جاء في الحديث الآخر: «**أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل**»(٣)؛ لأن هذا له دوافع ودواعي تدعوا إليه، فإن النفوس مجبولة

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٢٣٦٣٠)، والطبراني في الكبير رقم (٤٣٠١).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٥٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند البخاري رقم (٣٦٥٠) من حديث عمران بن حصين.

(٣) رواه ابن ماجه رقم (٤٢٠٢) عن أبي سعيد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذكر المسيح الدجال فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» قال: قلنا: بلىٰ، فقال: =

علىٰ حب المدح والثناء والتقدم في الناس وأن يشار إليها، فهذا طبعي في الإنسان؛ يعني: حب الثناء عليه والمدح ولو بالباطل، وكل ما يرفع مقامه عند الناس وهذا من الفتن، وهذه تسمىٰ الشهوة الخفية، ولهذا خافه رسول الله ﷺ؛ لأنه متأصل عند العبد، وإذا كان كذلك فالذي يسلم منه قليل فالداعي إليه قوي، ولهذا خيف علىٰ المؤمنين بخلاف الشرك الأكبر فإن الداعي إليه معدوم، أو أنه ضعيف جدًا؛ لأن المؤمن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقىٰ في النار(١)، ولهذا جاء عن الرسول ﷺ معالجة لهذا الداء، حيث نهىٰ ﷺ عن المدح في الوجه فقال: «**إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب**»(٢)؛ لأن العبد يميل إلىٰ ذلك وإن كان يعرف نفسه، ولكن النفس ضعيفة فقد يُغالط ويقول لعلّي كما قال، فلا يجوز أن يقترف الأعمال التي تكون سببًا للانحراف عن الإخلاص، وعن الصدق مهما كانت؛ لأنها تقدح في دين المرء ثم يميل إليها لأنه يجد في ذلك راحة.

ولذلك حض الرسول ﷺ أن تكون الأعمال في البيوت؛ يعني: الصلاة ونحوها حتىٰ تكون بعيدة عن الناس فلا يتطرق الشيطان إلىٰ شيء من إفساد العمل، فبيَّن أن الصلاة في البيت أفضل منها في المسجد إذا كانت نفلًا. وكذلك الصدقة الخفية صدقة السر جاء أن صاحبها مع السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ يعني: أنه يُخفيها غاية الإخفاء والسبب في هذا حتىٰ لا يكون فيها شيء لغير الله ﷻ؛

= «**الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل**»، وهو في المسند بلفظ: «**أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل**».

(١) كما جاء في الحديث عند البخاري رقم (١٦) عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**» ورواه مسلم رقم (٤٣).

(٢) رواه مسلم رقم (٣٠٠٢) عن همام بن الحارث: أن رجلًا جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا علىٰ ركبتيه وكان رجلًا ضخمًا فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**» ورواه أحمد في المسند رقم (٢٣٨٢٣)، والترمذي رقم (٢٣٩٣)، وابن ماجه رقم (٣٧٤٢).

لأنه إذا أخفاها بهذه الصفة فلا يكون لأحد منها نصيب فتكون خالصة لله ﷻ.

والرياء داء دوي، ولهذا لا تسلم أكثر الأعمال التي تظهر من الرياء إلا من حماه الله ﷻ وسلمه، فلهذا يجب أن يُحذر، ويجب أن يعلم العبد أن الناس لا ينفعونه بشيء ولا يضرونه بشيء كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١)، فالأمر كله بيد الله، التدبير له وهو رب كل شيء ﷻ، فيجب أن يقطع العبد علاقته بالناس ويجعل تعلقه بالله ﷻ وحده، وهمه إخلاص العمل لله ﷻ غير أنه لا يدعو ذلك إلىٰ أن يحتقر الناس ويزدريهم بل يرىٰ للناس حقهم ويعمل علىٰ نفعهم، ولكن يجب أن يكون عمله خالصًا لله ﷻ وليس لأحد فيه شيء، وهذا أمر مهم جدًا، فالأعمال غالبًا تكون مشاهدة وبعضها يكون متعدي النفع مثل الصدقة فالإخلاص فيها قد يكون فيه صعوبة علىٰ كثير من النفوس لهذا لا بد من المعالجة والأعمال بالنيات، والنية هي التي يُبنىٰ عليها ذلك فإذا كانت خالصة لله ﷻ قُبل العمل ويجب أن تستمر معالجة النية؛ لأنها تتغير وتتقلب تقلبات كثيرة فلا بد من المجاهدة في هذا.

وفي الحديث أن الرياء شرك وأنه من الشرك الأصغر، فهذا يدلنا علىٰ أن الشرك فيه أكبر وفيه أصغر.

وأما كون الرياء من الشرك الأصغر فهذا ليس علىٰ إطلاقه، ففيه تفصيل: إذا كان العمل الباعث عليه هو الرياء فهذا ليس من الأصغر بل هذا من الأكبر فقد ذكره الله ﷻ عن الكفار في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وذكر ذلك عن المنافقين

(١) رواه الترمذي رقم (٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم (٢٦٦٩).

الذين هم في الدرك الأسفل من النار بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

أما الرياء الذي يكون شركًا أصغرَ، هو ما كان رياء يسيرًا فلا بد أن يُقيد الرياء بأنه الرياء اليسير كأن يكون الإنسان في عبادة فيحسِّنها ويزينها ويطيلها من أجل نظر الغير، فالمقصود أن الرياء إذا كان يسيرًا فهو شرك أصغر، والشرك الأصغر يُحبط العمل كما في آخر الحديث، حيث يقول الله لهؤلاء الذي يراؤون: «**اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»، فهذا ظاهر أن العمل حابط، وأنه ليس له جزاء عند الله. والشرك الأصغر كما عرفنا أن صاحبه غير مغفور له علىٰ أحد قولي العلماء، وأنه لا بد أن يُعاقب، ولهذا خافه الرسول ﷺ علىٰ الصحابة، وهذا لا يقتضي أن يكون العبد خارجًا من الدين الإسلامي ولا يكون خالدًا في النار، ولكن عمله الذي صاحبه هذا الشيء حابط بلا شك، وهذا العمل قد يكون فريضة، فإذا كانت فريضة فالأمر أعظم.

وطروءُ الرياء علىٰ العمل أقسام:

فإذا كان رياءً محضًا، بحيث لا يُراد به سوىٰ مُراءات المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين النفاق الاعتقادي في صلاتهم كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك وصف الله ﷻ كفار قريش الذين خرجوا إلىٰ بدر بأنهم يراؤون الناس فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وهذا ليس من الشرك الأصغر بل من الشرك الأكبر كما تقدم، وهذا لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرها من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدىٰ نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، فقد خرج مسلم في صحيحه من

حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتىٰ به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلَّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتىٰ به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار**»[١].

وفي الأثر: قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافًا لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكىٰ معاوية بكاء شديدًا حتىٰ ظننا أنه هالك وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦][٢].

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه وحبوطه أيضًا، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٣]، وخرَّج النسائي من حديث أبي أمامة الباهلي قال:

(١) رواه مسلم رقم (١٩٠٥).

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٣٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) رواه مسلم رقم (٢٩٨٥)، وابن ماجه رقم (٤٢٠٢) ولفظه: «**فأنا منه بريء وهو للذي أشرك**».

جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: **لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه**»(١).

وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ودفعه وأعرض عنه فهذا لا يضره إن شاء الله، وهذا بغير خلاف.

وأما إن استرسل معه واستدعاه، فإن كان العمل مرتبطًا آخره بأوله؛ كالصلاة، والصيام، والحج فهذا يبطل، وأما إذا كان العمل لا ارتباط فيه؛ كالقراءة، والذكر، وإنفاق المال، ونشر العلم، فإنه ينقطع ويبطل بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلىٰ تجديد نيته.

وأما إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقىٰ الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**»(٢)، وفي رواية: «**الرجل يعمل العمل لله فيحبه الناس عليه**»(٣)، وبهذا المعنىٰ فسَّره الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه، وابن جرير الطبري وغيرهم، وصحح الحديث ابن حبان.

وأعمال العبد التي تكون ظاهرة مثل: الصدقة، وقراءة القرآن، وتحسين الصوت به في الصلاة، وما أشبه ذلك، فهذه الأعمال قد يثاب عليها العبد، وقد يكون معاقبًا، فهي بحسب ما يقوم بقلبه من الإخلاص، فإذا كان يعمل العمل، وهو مخلصًا لله ﷻ وإنما يُريد أن يقتدي الناس به، أو أن يسمعهم القرآن ويحسِّن صوته به ويزينه حتىٰ يجلب الناس ليسمعوا القرآن ويتأمَّلوه، ويكون أدعىٰ لحضور

---

(١) رواه النسائي رقم (٣١٤٠).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٤٢).

(٣) أحمد في المسند رقم (٢١٤٠٠)، وابن ماجه رقم (٤٢٢٥).

قلوبهم، فهذا لا يدخل في الرياء لقول أبي موسىٰ الأشعري للنبي ﷺ لما مرَّ به وهو يقرأ، وقف يستمع لقراءته، فلما أصبح قال له الرسول ﷺ: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»(١)، فقال: يا رسول الله لو علمت بك لحبَّرته لك تحبيرًا(٢)؛ يعني: حسنته وزينته. فهذا ليس من الرياء؛ لأنه لم يرد أنه يمدح ويثني عليه في ذلك، وإنما أراد أن يفعل ذلك؛ لأن الرسول ﷺ يحب ذلك، فهو يفعل ذلك لمحبة الرسول ﷺ فقط، والرسول ﷺ كان يحب الصوت الجميل بالقرآن وقال: «**حسِّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا**»(٣)، وقال: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»(٤)، والصحيح من أقوال العلماء: أن التغني بالقرآن هو تحسين الصوت وتزيينه، وليس مثل ما قال بعضهم: الاستغناء بالقرآن، وبعضهم قال: يرفع صوته به، فرفع الصوت جاء النهي عنه في بعض الأماكن مثل: المسجد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اعتكف النبي ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة وهو في قبة له فكشف الستور وقال: «**ألا كلكم يناجي ربه فلا يؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفعن بعضكم علىٰ بعض في القراءة في الصلاة**»(٥)؛ لأن المسجد فيه من يصلي، وفيه من يقرأ، وفيه من يذكر الله.

وإن كان يحسِّن صوته ويزينه ليثنىٰ عليه ويمدح علىٰ ذلك فهذا من الرياء، فتحسين الصوت بالقرآن وتزيينه قد يكون رياء، وقد يكون مطلوبًا يثاب العبد عليه،

---

(١) رواه مسلم رقم (٧٩٣).

(٢) سنن البيهقي رقم (٢١٥٨٥)، وصحيح ابن حبان رقم (٧١٩٧).

(٣) رواه الدارمي رقم (٣٥٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول. والحديث ذكره البخاري معلقًا في باب قول الرسول ﷺ: الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، ووصله في كتابه خلق أفعال العباد رقم (٢٥٢)، وأحمد في المسند رقم (١٨٤٩٤)، وأبو داود رقم (١٤٦٨)، وابن ماجه رقم (١٣٤٢) ولفظه: «**زينوا القرآن بأصواتكم**».

(٤) رواه البخاري رقم (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد في المسند رقم (١٩٠٢٢)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٨٠٩٢)، والحاكم في المستدرك رقم (١١٦٩).

ووجه الاستدلال من الحديث من وجوه:

الوجه الأول: أن الرسول ﷺ خافه علىٰ الصحابة وهم أفضل القرون، وأكمل الناس إيمانًا وعلمًا، فغيرهم من باب أولىٰ أن يخاف عليهم.

الوجه الثاني: أن النفوس مجبولة علىٰ حب الثناء والمدح، والرفعة في الناس وأن يشار إليه وأن هذا فيه حظ للنفس، وهي شهوة كامنة في النفوس فتحمل العبد علىٰ مصانعة الناس وتحسين العمل لهم وتزيينه، فيحبط عمله بذلك.

الوجه الثالث: تسميته للرياء شركًا أصغرَ، والشرك الأصغر غير مغفور لصاحبه علىٰ أحد قولي العلماء، بل هو كما مر مؤاخذ عليه ومعاقب إذا كان كثيرًا.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وعن ابن مسعود** رضي الله عنه **أن الرسول** ﷺ **قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار»، رواه البخاري**[1].

وفي البخاري في كتاب الجنائز أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**». وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة[2]. ذكره البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه في كتاب التفسير، وهو الموضع الذي أشار إليه المؤلف، وكتاب الإيمان والنذور ولفظه: «**من مات يجعل لله ندًا أدخل النار**»[3] فقط.

والذي ذكر المؤلف بالمعنىٰ إلا أن يكون في بعض النسخ، ورواية الحديث بالمعنىٰ أمر متفق عليه.

وهذا قول ابن مسعود وهو مفهوم قول الرسول ﷺ، وقد جاء هذا صريحًا عن الرسول ﷺ، ولا فرق بين قوله: «**ندًا**»، وقوله: «**وهو يشرك**»؛ لأن التنديد يكون

(١) رواه البخاري رقم (٤٤٩٧) في كتاب التفسير.
(٢) البخاري رقم (١٢٣٨)، ورواه مسلم رقم (٩٢).
(٣) البخاري رقم (٦٦٨٣).

صغيرًا ويكون كبيرًا؛ لأن دعوة الند تطلق علىٰ من حلف بغير الله، أو من أسند الفعل لغير الله، وتطلق علىٰ من عبد غير الله، وكلها تكون مثل قوله: «**وهو يشرك**».

قوله: «من مات»: قيد هذا بالموت والموت ليس بعيدًا عن العبد، قريبٌ جدًا، مما يدل علىٰ أن العبد يُختم له بعمله الأخير؛ يعني: أنه يُعامل بعمله الأخير، والأعمال السابقة إما أن تكون ملغاة؛ لأن الذي بعدها أبطلها، أو تكون خلاف ذلك.

والعبد إذا انتهت حياته ليس له حياة أخرىٰ، يمكن أن يستدرك بها ما فات، ليس له إلا هذه الحياة، فإذا مات علىٰ الشرك فقد خسر نفسه الخسارة التي لا يرجىٰ معها ربح أبدًا.

«**وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار**»: الند: هو الشبيه، والنظير، والمثل، ولو في صفة من الصفات لا يلزم أن يكون مماثلًا من كل وجه، ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت! قال: **أجعلتني لله ندًّا؟! ما شاء الله وحده**»[1]؛ لأنه جمع بين مشيئته ومشيئة الله ﷻ، وإذا جُعل للمخلوق شيء مما هو حق الله ﷻ فقد جعل ذلك المخلوق ندًا لله، وهذا يدخل فيه توحيد العبادة، وتوحيد الصفات، وتوحيد الربوبية، كلها وقع فيها التنديد.

ويدخل فيه الشرك الأكبر، كأن يتجه بالدعاء إلىٰ غير الله ﷻ كمن يسأل الشفاعة من الميت عند القبر فإن هذا شرك صريح، وهو من الشرك الأكبر، وهو من شرك المشركين، فإن أصله طلب الشفاعة فأول ما وقع الشرك في هذا وهو أمر ظاهر؛ لأنهم ما كانوا يعتقدون أن اللات والعزىٰ ومناة وغيرها من أصنامهم أنها تخلق شيئًا من السماوات، أو شيئًا من الأرض، أو أنها تنزل المطر، أو أنها تنبت، أو أنها تحيي أو تميت، وإنما كما ذكر الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ يعني: تشفع لهم فهذا هو أصل الشرك،

(١) سبق تخريجه.

وقد قال الله ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] ليس لأحد شفاعة ولا يملكها إلا الله وحده.

ويدخل فيه الشرك الأصغر الذي منه شرك الألفاظ كأن يقول: مثلًا: لولا الله وأنت، أو أنا بالله وبك، أو يحلف بغير الله، أو ما أشبه ذلك، أو يضيف الأشياء إلىٰ أسبابها: لولا أن السيارة جديدة ما وصلنا بهذه السرعة، أو ما أشبه ذلك، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: الأنداد هو الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلانًا». هذا كله به شرك[1].

فقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، فالأنداد التي تُجعل لله ﷻ يدخل فيها التنديد باللفظ ويدخل فيها التنديد بالعمل، ويدخل فيها التنديد بالاعتقاد، ويدخل فيها التنديد بالدعوة، والعبادة، وكذلك بالتدبير، والملك وكذلك بالاشتراك بالاسم والصفة، فكل هذا يجب أن يكون العبد مبتعدًا عنه، ولا يمكن أن يكون مبتعدًا عنه إلا إذا علمه وعرف أسبابه، وهذا من أهم الأشياء كون الإنسان يبحث عن هذه الأشياء ويعرفها حتىٰ لا يقع فيها، وقد جاء عن حذيفة رضي الله عنه أنه كان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[2]. وكذلك الذي لا يعرف الشر فإنه يقع فيه وهو

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

(٢) رواه البخاري رقم (٣٦٠٦)، ومسلم رقم (١٨٧٤).

لا يدري، وقد قال عمر رضي الله عنه: «**إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**»(١)؛ يعني: إذا كانوا لا يعرفون الشرك والشرور، فإنهم قد يخرجون من الإسلام وهم لا يشعرون.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **ولمسلم عن جابر** رضي الله عنه: **أن رسول الله** صلى الله عليه وسلم **قال**: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار**»(٢).

قوله: «**من لقي**»: فسر اللقاء بأنه يتضمن المعاينة ولا بد أن يكون قبله عمل كما قال جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ولقاء الله لا بد منه، وهو قريب جدًا؛ لأنه ما بينه وبين الإنسان إلا أن يموت، والموت بين يدي العبد دائمًا، قال جل وعلا: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨] ملاقيك في أي طريق سلكته.

والمرء قد يموت وهو لم يستعد، بل قد يموت ولم يتقدم للموت رسول؛ لأن الموت له رسل في الغالب مثل: المرض، وما أشبه ذلك، وقد جاء موت الفجأة بكثرة، عن عائشة قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موت الفجأة فقال: «**راحة للمؤمن وأخذة أسف لفاجر**»(٣)؛ يعني: يؤخذ على غرة -نسأل الله العافية- فلا يتمكن من توبة ولا استعتاب، فإذا كان العبد لا يدري متى الموت، فيجب أن يكون مستعدًا دائمًا.

فاللقاء يتضمن المعاينة، ولهذا جعله الله جل وعلا دليلًا على رؤيته: «**من لقي الله**»، وفي حديث عدي رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه**»(٤)، وهذا خاص بالمؤمنين؛

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٩٠).

(٢) رواه مسلم رقم (٩٣).

(٣) رواه أحمد في المسند رقم (٢٥٠٤٢).

(٤) سبق تخريجه.

لأن الخطاب موجه إليهم، وأما الكفار فقد أخبر الله أنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، والكلام الذي نفي عنهم يكون كلام مسألة أو محاسبة؛ لأنهم لا يقام لهم وزنٌ بل يأمر بهم إلىٰ النار - نسأل الله العافية - فالذي ليس عنده إيمان فإنه يُذهب به إلىٰ النار بلا محاسبة ولا موازنة، وقد يكون هناك توبيخ لقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فهذا الكلام يكون عذابًا - نسأل الله العافية - وهذا خلاف الذي ذكره في الموقف: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه**»، وفي الحديث الآخر الذي في الصحيحين حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سئل: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوىٰ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتىٰ إذا قرره بذنوبه ورأىٰ في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطىٰ كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]**»(١).

ولهذا إذا بُلي الإنسان بمعصية يجب أن يستر نفسه ولا يُظهرها لأحد يقول: أنا فعلت كذا وكذا؛ لأنه في هذا الحديث يقول الله جل وعلا: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأغفرها لك اليوم**».

فالمقصود أن اللقاء قريب؛ أي: ملاقاة العبد لربه قريبة، ولهذا فسر كثير من شراح الحديث اللقاء بالموت، إذا مات فقد لقي ربه ولقي عمله؛ لأنه منذ أن يموت إما أن يبشر بالسعادة والخير والنعيم، أو تكون الملائكة تعذبه قبل خروج روحه كما ذكر الله جل وعلا في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]،

---

(١) سبق تخريجه.

أو أنها تضرب دبره ووجهه وتقول أخرج نفسك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ يعني: أخرج روحك، فالعبد يجب أن ينظر من أي القسمين هو، والأمر مثل ما روىٰ أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني: ما لنا عند الله؟ قال: «اعرض عملك علىٰ كتاب الله»، قال: وأي مكان أجده؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]. (١)

فقوله: «من لقي الله»؛ يعني: مات.

وقوله: «لا يشرك به شيئًا»؛ يعني: من مات وليس عنده من الشرك شيء. وقوله: «شيئًا» يدخل فيها الشرك الأكبر والأصغر والقليل والكثير والجلي والخفي.

وقوله: «دخل الجنة»: وهذا يدلنا علىٰ أن العمل بالخواتيم؛ يعني: أنه لو سبق أنه كان مشركًا، ثم تاب فمات غير مشرك فإنه يُحكم له بأنه من أهل الجنة، وكذلك بالعكس.

فقوله: «دخل الجنة»؛ يعني: من سلم من الشرك الظاهر والباطن في القول وفي الاعتقاد والعمل فإنه يكون من أهل الجنة إذا مات عليه، وهذا أمر مقطوع به للمؤمن عند أهل السُّنَّة، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصرًّا عليها دخل الجنة أولًا بلا عذاب، وإن كان صاحب كبيرة مصرًّا عليها فهو تحت المشيئة إن شاء الله عفا عنه بدون عذاب وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه في النار، ثم أخرجه وأدخله الجنة، هذه هي عقيدة أهل السُّنَّة. واقتصر علىٰ نفي الشرك هنا؛ لأن انتفاء الشرك يستدعي ما هو ضده، وضده التوحيد والإخلاص، وكذلك يستدعي أن يكون عاملًا بما جاء

(١) سنن الدارمي (١/ ٥٠٠) (ح ٦٧٣).

به الرسول ﷺ؛ لأن العبادة لا بد أن تكون أُخذت من رسول الله ﷺ وهذا كقولك مثلًا: من توضأ صحَّت صلاته؛ يعني: مع الشروط والأركان الأخرىٰ التي لا بد من فعلها، فلا بد من الالتزام بما جاء به الرسول ﷺ ليس مجرد اجتناب الشرك فقط، بل لا بد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج وغير ذلك، فلا يستدل بهذا من يقول من ترك الشرك ومات عليه يكون من أهل الجنة، ولو لم يصلِّ، فإن هذا ليس مقصودًا، فمقصوده أنه يكون ملتزمًا بما جاء به الرسول ﷺ مجتنبًا للشرك.

وقوله: «ومن لقيه يشرك به شيئًا»: هذا يدخل فيه الشرك كله كبيره وصغيره، دقيقه وجليله، فقوله: «شيئًا» نكرة فهي تعم أنواع الشرك سواء كان باللفظ، أو الفعل، أو الاعتقاد، أو غير ذلك من النيات والمقاصد، وسيأتي أن هذا من الشرك الأكبر، شرك المقاصد والنيات والإرادات؛ لأن هذا مبنىٰ العمل عليه. فهذا كله من الأمور العظيمة التي يخاف أن يقع فيها الإنسان، أو في شيء منها فيكون متوعدًا بالنار؛ لأنه قال: «**دخل النار**»، وبهذا استدل من قال: إن الشرك لا يغفر سواء كان كبيرًا، أو صغيرًا، وإنما الذي يكون تحت المشيئة الكبائر عدا الشرك، والعبد لا يخلو من الذنوب ، ولكن الذنوب لا تخلوا إما أن تكون كبائر، أو صغائر، فإن كان العبد مات مؤمنًا وله ذنوب صغائر فالصغائر تُغفر باجتناب الكبائر كما قال سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وإن كانت كبائر غير الشرك فهي تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له بلا مؤاخذة ولا عذاب، وإن شاء عُذب عليها، ثم يصير المؤمن مرتكب الكبيرة إلىٰ الجنة.

أما الشرك فإن كان من الشرك الكبير فإن الجنة محرمة علىٰ صاحبه، فيكون خالدًا في النار أبدًا، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما إن كان صغيرًا فإنه يُعذب به ويطهر

في النار، ثم يخرج إلىٰ الجنة.

وطائفة من العلماء يقولون: إن الشرك الصغير داخل في حكم الكبائر فما دامت الكبائر تحت المشيئة فهو كذلك؛ لأن الذي وقع في الشرك الصغير لم يخرج من الإسلام بل هو مسلم فهو مثل الزنا والسرقة وما أشبه ذلك، وهذا من باب القياس فقط؛ لأن الذين قالوا بالقول الأول استدلوا بأدلة، أما هؤلاء فقد قاسوا بأقيسة وليس معهم أدلة؛ يعني: نصوص، فالله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] هذا عام في الشرك كله وكذلك هذا الحديث، وعلىٰ كل حال، فإذا كانت المسألة فيها خلاف بين العلماء فالواجب علىٰ الإنسان أن يأخذ بالحيطة، غير أن الذين قالوا إنه يُغفر يقسمون الشرك إلىٰ أقسام؛ يعني: الشرك الأصغر يقولون:

إذا كان الشرك شرك ألفاظ مثل الحلف بغير الله، وقول: لولا الله وفلان وأنت، وما أشبه ذلك، فهذا الذي فيه الكلام.

أما إذا كان من الشرك الذي يكون محبطًا للعمل إذا قارنه مثل: الرياء فقد جاء النص فيه، فلا ينبغي أن يكون فيه خلاف، فإن الذين يراؤون الناس يقول الله لهم يوم القيامة: **«اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**[1]، ومعنىٰ هذا أنه لا يغفر، غير أن الشرك في عمل دون آخر.

ووجه الاستدلال من الحديث قوله: «**ومن لقي الله يشرك به شيئًا**»، فشيئًا نكرة تعم جميع أنواع الشرك، فمن مات علىٰ الشرك وإن كان قبل ذلك غير مشرك فإنه من أهل النار، فيكون دليلًا علىٰ أن الإنسان يُختم له بآخر عمله ويؤاخذ به العبد، ولهذا اهتم العلماء كثيرًا بآخر العمر وخاتمة العمر، وصاروا يسألون الله ويخافون

---

(١) سبق تخريجه.

من سوء الخاتمة -نسأل الله السلامة-.وكذلك من كون العبد يُختم له بآخر عمله ويؤخذ به، وكذلك الجنة فإنه اشترط لدخولها نفي الشرك مطلقًا أن لا يكون مشركًا لا بالألفاظ، ولا بالفعل، ولا بالاعتقاد، ولا بغير ذلك من شرك النيات والمقاصد. فهو نص جلي ومخوف جدًا، فيجب على العبد أن يخاف ذلك، وأن يحقق توحيده، وأن يعرف حق ربه، ويخاف يوم يلقاه؛ لأن لقاء الله ﷻ يتضمن المعاينة.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: أنه من الشرك الأصغر.

يعني: يسيره، وأما كثيره فليس من الشرك الأصغر.

الثانية: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

لأنه الخطاب وجِّه إلى الصحابة وهم أفضل الصالحين، فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف عليهم فكيف بغيرهم؟ هذا أولًا.

وثانيًا: أن الداعي له قوي؛ يعني: داعي الرياء قوي وهو حب المدح والثناء، بخلاف الشرك الأكبر؛ لأنه إما أن يكون الداعي إليه معدومًا عند المؤمنين، أو يكون ضعيفًا جدًا؛ لأن المؤمن لو أنه خيّر بأن يُحرق بالنار ولا يشرك بالله شيئًا لاختار ذلك.

الثالثة: قرب الجنة والنار.

أخذها من قوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**» أخذها من هذا.

الرابعة: الجمع بين قربهما في حديثٍ واحد.

يعني: العمل واحد ولكن النية والقصد والإرادة اختلفت.

الخامسة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

يعني: من أكثرهم عبادة، والعبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت خالصة، ولكن مقصودة في الصورة والظاهر، أما الباطن فلا بد أن تكون خالصة لله ﷻ، وموافقة لسُنَّة الرسول ﷺ، وإلا لا تكون عبادة شرعًا، وإن كانت عبادة في اللغة.

السادسة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

وصارت عظيمة؛ لأنها جاءت من إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: «**رب اجنبني وبني أن نعبد الأصنام**»، فهو اعتبر بما يقع من أكثر الناس قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] فخاف أن يكون مع الكثرة، فسأل ربه، وهذا يعطينا شيئين:

أولًا: أن الإنسان لا يملك قلبه، بل القلوب بيد الله ﷻ، فيجوز أن يقع في الباطل وهو يعرف أنه باطل إذا أزاغ الله قلبه، فقد يزين له الباطل ويحسن ويكره له الحق وإن كان يعرف أنه حق فيقع في خلافه.

ثانيًا: أن اعتبار أكثر الناس ونظرهم إلىٰ أن يكون مع الجمهور وهذا أمر ذكره الله ﷻ عن سائر الأمم، كل أمة إذا جاءها رسول قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، أي: إن قومنا علىٰ دين ما نتركه لقولك أنت.

وقوم نوح قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] الضعفاء والذين كل يوم يبدون لهم رأيًا، أما الكبار وأصحاب العقول، الذين يملؤون النظر إذا نُظر إليهم في أجسامهم وأقوالهم، فهؤلاء ليسوا بادي رأي، فهم لا يتبعون الرسل، ولهذا ما سأل هرقل أبا سفيان عن حالة الرسول ﷺ قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ - فتصور أبو سفيان في ذلك الوقت أن هذا فيه غضاضة علىٰ الرسول ﷺ - فقال: يتبعه الضعفاء. فقال له في الجواب: هكذا هم

أتباع الرسل[١] ما يتبعهم إلا الضعفاء أما الكبار فلا يتبعونهم، الذي يمنعهم إما الملك والسيطرة، أو الأموال، أو الاتباع.

السابعة: فيه تفسير- لا إله إلا الله- كما ذكره البخاري.

أنه ترك الشرك ومجانبته، وليس مجرد عبادة فقط، العبادة تقع من المشرك ولهذا كانت قريش تعبد الله وتعبد معه الأصنام، وهكذا كل مشرك فهو يعبد الله ولكنه أشرك في عبادته، فتفسير «لا إله إلا الله» اجتناب الشرك مع العبادة.

(١) رواه البخاري رقم (٧)، ومسلم رقم (١٧٧٣).

الباب الخامس

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله.**

يعني: ما حكم ذلك هل هو فريضة، أو أنه مستحب؟ فهو لما ذكر وجوب التوحيد وأنه فرض علىٰ كل مكلف وأنه الأمر الذي خلقت من أجله الخليقة، وأنه لا يجوز أن يكون العبد جاهلًا به أو مقصرًا فيه، فهو أمر ملزم لا بد منه، ثم ذكر مع فرضيته أنه يُكفر الذنوب كلها، ثم ذكر الخوف من الشرك والوقوع فيه، الخوف من أن ينزع منه هذا التوحيد، أو ينقص فيذهب كماله فيتعرض العبد للعذاب؛ لأن العبد إذا تحصل علىٰ هذه النعمة الكبرىٰ يجب أن يُحافظ عليها بكل إمكاناته، ناسب أن يذكر وجوب الدعوة إلىٰ التوحيد، الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فهذه هي الدعوة إلىٰ التوحيد، فإذا تحلىٰ العبد بالتوحيد أنه لا يقتصر علىٰ نفسه بل يدعو إلىٰ الله جل وعلا عباد الله؛ لأن هذا مما أوجبه الله جل وعلا علىٰ من عرف ذلك.

قوله: «**باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله**»: والمعنىٰ: الدعاء إلىٰ عبادة الله، وإلىٰ توحيد الله؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله في ضمنها شهادة أن محمدًا رسول الله، وهذا في ضمنه الدين كله الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن شهد لله بالوحدانية وبعبوديته لزمه أن يقبل كل أمْر أمَر الله به، وأن ينتهي عن كل نهي نهىٰ عنه، وكذلك يلزمه اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بما جاء به وهو شهادة أن محمدًا رسول الله، ويشهد بأنه رسول أرسله الله جل وعلا بالتوحيد والأمر الذي كلف به عباده، وأنه لا يعبد الله جل وعلا إلا بالشرع الذي جاء به، فشهادة أن لا إله إلا الله هي التوحيد؛ لأن الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب ذلًّا وإنابة وخوفًا ورجاءً، ولا يجوز أن يكون مألوهًا للقلب إلا الله جل وعلا.

والعبد لا بد أن يشهد هذه الشهادة، وقد اتفق العلماء علىٰ أن الإنسان لا يكون مسلمًا إلا إذا نطق بالشهادتين يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم إنه لا يكفي التلفظ بها، بل لا بد أن يعرف معناها، ثم يعمل بالمعنىٰ الذي عرف، أما مجرد النطق فهذا لا يكفي؛ لأن اليهود وغيرهم كانوا ينطقون بها، وهم كفار كما سيأتي في حديث علي رضي الله عنه.

وذكر العلماء حكم الدعوة أنها قد تكون فرض عين، وقد تكون فرض كفاية فهي تختلف باختلاف الحال.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾** [يوسف: ١٠٨].

قوله: «﴿قُلْ﴾»: الأمر في هذه الآية موجه إلىٰ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لنا مثل ما قيل له تمامًا لم يغير الصيغة، ونظائر هذا في القرآن كثير مثل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وبهذا استدل العلماء علىٰ أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ كل ما سمعه من جبريل عليه السلام، وأنه كلام الله جل وعلا، وأنه لم يترك حرفًا واحدًا منه حتىٰ الأمر الذي وجه إليه، وقد سئل عن ذلك فقال: «**قيل لي، فقلت**»(١)، ولهذا اتفق العلماء علىٰ أن من جحد حرفًا من القرآن أنه يكون كافرًا؛ لأن هذا ثابت قطعًا والصحابة أخذوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أُخذ جيلًا عن جيل إلىٰ الآن، وهذا من حفظ الله جل وعلا لكتابه، فإنه هو الذي تولىٰ حفظه بخلاف الكتب الأخرىٰ، فإنها لا تروىٰ هكذا، فلو حاول إنسان أن يغير في كلام الله شيئًا فكلٌّ يرد عليه حتىٰ الصبيان الذين في الكتاتيب فهم يعرفون

(١) رواه البخاري رقم (٤٩٧٧) ولفظه: عن زر بن حبيش قال: سألت أُبي بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**قيل لي، فقلت**». فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أنه باطل، وهذا من خصائص هذه الأمة رحمة من الله بها، بخلاف الكتب السابقة فإنها غُيرت، وبدلت، وزيد فيها، ونقص، وهذا الكتاب تسلط أهل الضلال علىٰ تحريف معانيه فقط؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يحرِّفوا شيئًا من ألفاظه حتىٰ قال أحد كبار الضلال: وددت أني أحك من المصحف قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤](١)، وأشار الآخر علىٰ الخليفة المأمون أن يكتب علىٰ ستزة الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرَّف كلام الله بنفي وصفه -تعالىٰ- بأنه السميع البصير(٢). فكتب وكان متأثرًا به، فلما كتب صار أضحوكة للناس وصار ساقطًا من أعين الناس، وقالوا هذا يتلاعب به أهل الباطل حتىٰ تجرأ علىٰ تحريف كلام الله جل وعلا.

وقوله: «﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾»؛ يعني: أخبر الناس عمومًا بأن حياتي ووجودي وعملي كله في الدعوة ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ التي أحيا عليها، وأعيش عليها هي الدعوة إلىٰ الله جل وعلا، وكذلك أموت عليها كما قال جل وعلا: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فكلامه ﷺ وعمله وفعله في حياته، وكذلك ما يموت عليه هو الدعوة إلىٰ الله جل وعلا.

قوله: «﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾»: فسبيل الرسول ﷺ الدعوة إلىٰ الله جل وعلا، والدعوة إلىٰ الله هي الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يوحد الله ويعبد وحده ولا يشرك به شيئًا كما جاء موضحًا في السنة كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله»**(٣).

(١) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (١/ ٢٣٦) والقائل هو: جهم بن صفوان.
(٢) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (١/ ٢٣٦) وهو: أحمد بن أبي دؤاد القاضي.
(٣) رواه البخاري رقم (٢٩٤٦)، ومسلم رقم (٢٠).

ومن المعلوم أن بني آدم ركبت فيهم العقول، وأنهم يعرفون ربهم، وما منهم أحد ينكر وجود الله أصلًا إلا من كابر وفسدت فطرته، فكانوا يدعون الله، ولكن يدعون معه غيره، فجاءت الرسل لإصلاح هذه الدعوة ولإخلاص العبادة لله وحده من أولهم إلىٰ آخرهم، وقد خُتموا بمحمد ﷺ الذي قام بهذه الدعوة خير قيام وأوذي في ذلك وتحمل أعباء الدعوة وما يترتب عليها، وكذلك أتباعه لا بد أن يكون لهم نصيب من ذلك.

وقوله: «﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾»: فيه الإشارة إلىٰ الإخلاص، وأن الدعوة يجب أن تكون خالصة من الشوائب التي قد يكون للنفس فيها حظوظ، فالدعوة يجب أن تكون خالصة لله ولا يكون فيها مقاصد أخرىٰ، فإن ذلك يفسدها ويجعلها غير مثمرة.

ففيه كما يقول المؤلف: التنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأن كثيرًا من الناس ولو دعا إلىٰ الحق فهو يدعو إلىٰ نفسه. حتىٰ يكثر أتباعه ويكون له صوت عند الناس وحتىٰ يكون له تلاميذ وله من يُعظمه، وله أيضًا أمور أخرىٰ من مقاصد الدنيا الفانية، فهو في الظاهر يدعو إلىٰ الله ولكنه يدعو إلىٰ نفسه، فيجب أن تكون الدعوة خالصة لله ﷻ لا يرجو منها دنيا ولا يرجو منها مدحًا، ولا مقامًا في أعين الناس وغير ذلك، بل إذا كان له شيء من ذلك فهي دعوة باطلة لا تنجح، والله ﷻ من سُنَّته التي سنها في خلقه أن الذي يكون مقصوده لغير الله أنه لا بد أن يتبين للناس، ولهذا تجد كثيرًا من الناس يقولون فلان مرائي، وهو لم يتكلم بشيء ولم يظهر شيئًا، فتظهر أعماله - نسأل الله العافية -.

قوله: «﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾»: البصيرة هي اليقين والعلم النافع؛ يعني: علىٰ بصيرة فيما يدعو به، وفيما يدعو إليه.

فيجب علىٰ الداعي أن يكون عالمًا بما يدعو إليه، عارفًا بما يترتب علىٰ ذلك ويكون علىٰ بصيرة، والبصيرة العلم والعقل، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير

ذلك: قول الله تعالىٰ لعبده ورسوله إلىٰ الثقلين الإنس والجن، آمرًا له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله؛ أي: طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلىٰ الله بها علىٰ بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه يدعو إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ علىٰ بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي[1].

البرهان العقلي، والبرهان السمعي متلازمان، والشرع لا يأتي بما يخالف العقل، بل هو الذي يرشد العقل ويدله.

قوله: «﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾»: العطف إما أن يكون علىٰ الضمير البارز ﴿أَنَا۠﴾، أو الضمير المستتر في ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾، فإذا كان العطف علىٰ الضمير المستتر في ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾؛ يعني: أدعو ومن اتبعني يدعو. فمعنىٰ ذلك أن أتباعه هم أهل الدعوة، ولا يلزم أن يكونوا أهل بصيرة، وأن من لا يدعو لا يكون من أتباعه.

وإذا كان العطف علىٰ الضمير البارز ﴿أَنَا۠﴾ فالمعنىٰ: أني أنا وأتباعي علىٰ بصيرة، فالدعاة الذين يدعون هم أهل البصيرة، والبصيرة هي بصيرة الدين، فأتباع الرسول ﷺ هم أهل البصيرة الذين عرفوا وعملوا ودعوا كما قال ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ولهذا فسر بالرسول ﷺ وبمن تبعه.

والمعنيان متلازمان؛ لأن الدعوة بلا بصيرة لا تنفع، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة والموعظة الحسنة: هي البصيرة؛ لأن الناس يختلفون، إنسان يريد الحق ولكنه يخفىٰ عليه، فإذا بُيِّن له الحق تبعه فهذا يُدعىٰ بالحكمة، وإنسان عنده إما شبه أو ما يمنعه من

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٢).

ذلك، فهذا يُدعىٰ بالموعظة ويجادل بالتي هي أحسن ولكن الجدال لا يكون لانتصار النفس وإظهار العلم هذا لا ينفع، ولكن الجدال بالتي هي أحسن؛ يعني: إبطال الباطل وإظهار الحق فقط، فالناس علىٰ هذا السبيل، وهذا هو الذي يكون علىٰ بصيرة.

فإذًا أتباع الرسول ﷺ هم الدعاة وهم أهل البصيرة؛ لأن الدعوة بلا بصيرة لا تنجح بل قد يكون الإنسان يُفسد أكثر مما يصلح إذا كان يدعو بجهل كما هو واقع كثير من الناس، وقد يكون يعاند ويكابر في ذلك، فهذا لا ينفع ولا يمكن أن ينتج شيئًا، وأن يحصل علىٰ أتباع فلا يكون له أثر حسن غالبًا. قال ابن القيم رحمه الله: فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلىٰ الله علىٰ بصيرة فمن ليس منهم فليس من أتباعه علىٰ الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه علىٰ الانتساب والدعوىٰ[1].

قوله: «﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾»: سبحان: اسم مصدر، مأخوذ من البُعد وهو السبح البعيد، ولهذا يقال: فرس سبوح إذا كانت تبعد في جريها، وتسمىٰ الكواكب بالسابحات لسيرها بسرعة وقوله: «سُبْحَانَ الله» تنزيه لله تبارك وتعالى، وتعظيم له؛ أي: أُنزه الله وأُجله وأُعظمه عن أن يكون له شريك، أو نديد تبارك وتعالى. وهذا يبين أن الشرك مسبة لله تبارك وتعالى، وأن التوحيد تنزيه لله، وإبعاد للموحد أن يقع في التنجيس الذي هو مسبة لله جل وعلا.

وقوله: «﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾»: لا في المنهج والعمل -يعني: الشرك- ولا في المكان والاجتماع ولا في الرأي والتفكير، فهو بعيد عن الشرك والمشركين، ولهذا استنتج المؤلف في المسائل قوله: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يُشرك.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٢).

والمقصود أن الله أمر رسوله ﷺ بأن يخبر أن حياته التي يعيشها ويحياها في الدعوة إلىٰ الله، وأن شأن من اتبعه كذلك، وهذا يدل علىٰ وجوب الدعوة إلىٰ الله ﷻ؛ لأن اتباع الرسول ﷺ واجب وهو فرض عين لا بد منه فكذلك الدعوة ولكن الدعوة تختلف باختلاف القدرة، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها غير أن الإنسان يجب أن يدعو باستطاعته، وأول ما يبدأ بنفسه، ثم ولده وأهله وأقربائه، ثم جيرانه، وهكذا حسب الاستطاعة، ولو أننا طبقنا هذه الآية علىٰ أنفسنا وعملنا بها لتحصلنا علىٰ خير كثير جدًا؛ لأنه لا يمكن أن تستقيم الأحوال ويعتز المسلمون وينتصروا علىٰ عدوهم إلا بالدعوة إلىٰ الله ﷻ، وبدون ذلك لا تستقيم أمورهم، ولو صارت لهم قوة.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **عن ابن عباس** رضي الله عنهما**، أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله -وفي رواية: إلىٰ أن يوحِّدوا الله- فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه**[١].

ابن عباس: هو ابن عم رسول الله ﷺ أطلق عليه أنه حبر الأمة من آثار دعوة النبي ﷺ فإنه دعا له قال: «**اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل**»[٢]، فظهر ذلك عليه حتىٰ قيل: هو ترجمان القرآن، توفي رسول الله ﷺ، وهو ابن خمس عشرة سنة علىٰ القول الصحيح، وتوفي هو في الطائف سنة ثمان وستين علىٰ القول الصحيح.

(١) رواه البخاري رقم (١٤٩٦)، ومسلم رقم (١٩).

(٢) سبق تخريجه.

قوله: «أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا»: الأحاديث التي يرويها ابن عباس رضي الله عنهما غالبها عن الصحابة، وقد جاء أن بعث معاذ في السنة العاشرة قُبيل حجة الوداع، فيكون هذا في آخر حياة النبي ﷺ.

وجاء أنه وصَّىٰ معاذًا رضي الله عنه، وقال له: «**لعلك لا تراني بعد هذا اليوم**»، فلم يره فكان مقدم معاذ من اليمن في خلافة أبي بكر، ثم ذهب إلىٰ الشام فمات في الطاعون المشهور بطاعون عمواس سنة ثمان من الهجرة.

ومعاذ بن جبل من سادة الصحابة وعلمائهم، جاء أنه يحشر أمام العلماء برتوة[(١)]، والرتوة قيل: إنها المرتفع، وقيل: إنها رمية الحجر، وفضائله رضي الله عنه كثيرة، منها ما رواه النسائي، وأبو داود بسند صحيح أنه ﷺ أخذ بيده يومًا، ثم قال: «**يا معاذ والله إني لأحبك**»، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا والله أحبك، قال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٢)]، وهذه منقبة عظيمة إذا كان الرسول ﷺ يحبه، ومعلوم أن الله جل وعلا ورسوله ﷺ يحبان كل مؤمن تقي، ولكن إذا نُص علىٰ شخص بعينه دل علىٰ إيمانه، والأمور التي تأتي في مدح شخص من الله ورسوله؛ كمدح الصحابة والثناء عليهم تدل علىٰ أنهم يموتون علىٰ الإيمان؛ لأن هذا يكون بالوحي فلا يمكن أن يمدح الله شخصًا يمكن أن يرتد كما يقوله أهل البدع المنحرفون، بل أهل الضلال.

قوله: «لما بعث معاذًا»: بعث معاذًا للدعوة والنيابة عن الرسول ﷺ في القضاء والحكم في تلك الأمور، ولكن أهم شيء الدعوة إلىٰ الله جل وعلا ولهذا بيَّنه، وهو محل الشاهد الذي أراده المؤلف.

---

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني رقم (٥٣٧٤) عن أبي العجفاء، قال: قال عمر بن الخطاب: لو أدركت معاذ بن جبل ثم وليته، ثم لقيت ربي عز وجل فقال: من استخلفت علىٰ أمة محمد؟ قلت: سمعت عبدك ونبيك ﷺ يقول: «**يأتي بين يدي العلماء برتوة**» ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٣٤٧).

(٢) السنن الكبرىٰ للنسائي رقم (٩٩٣٧)، وأبو داود رقم (١٥٢٤).

والبعث في الأصل إثارة الشيء من مكانه، وقد يطلق على غير ذلك كما في هذا الحديث، يقال: بعثت البعير إذا أثرته من مبركه، وبعث الصيد إذا أثاره من مكمنه، والله يبعث من في القبور؛ يعني: يحييهم ويخرجهم أحياء.

والبعث هنا المراد به الإرسال؛ يعني: أَرسله، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل: ٣٦]؛ يعني: كلفهم بالرسالة، أن يبلغوا الناس ما أُرسلوا به.

وقوله: «إلى اليمن»: اليمن: سُمي بذلك؛ لأنه كما يقال على أيمن الكعبة، كما أن ما كان أشأم منها فهو الشام، وقد يكون هذا الاسم له نصيب من الصحة، وقد يكون غير ذلك، والأسماء كما يقول أهل اللغة لا تعلل، والأسماء تكون لأدنى مُلابس وكثير منها لا يُعرف أصله وملابساته وسببه، غير أن الأسماء لتمييز بعض المسميات عن بعض فقط كما يتميز الشخص عن الآخر بالاسم.

وقوله: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»: المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وسُمِّيا بأهل الكتاب؛ لأن الله ﷻ أنزل عليهم التوراة والإنجيل فيهما الهدى والنور وفيهما أوامره ونواهيه، وقد وقع فيهما الزيادة والنقص والتحريف والتبديل، ثم نسخهما الله ﷻ بالقرآن، فالإنجيل مكمل للتوراة وليس ناسخًا لها، وإنما فيه التخفيف، وفيه وضع بعض الآصار التي كانت عليهم كما ذكر ذلك الله في كتابه، والذين كانوا في اليمن هم اليهود، أما النصارى فكانوا في أدنى اليمن.

وفي قوله: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»: هذا كالتوطئة للاستعداد، فهو يدل على أن الناس يختلفون في الدعوة والمجادلة، وإن الداعي يجب أن يكون عنده استعداد وتهيؤ يهيئ نفسه ويتسلح بالعلم، وأن الداعي لا يصلح أن يكون جاهلًا بل لا بد أن يكون عالمًا، فإذا ألقيت عليه الشبه يحلها ويبطلها، وكذلك تكون دعوته على بصيرة، فهذا فائدة قوله: **«إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»**؛ يعني: استعد لذلك وتهيأ، واعلم أن مخاطبتهم ليست كمخاطبة أهل الأوثان الجاهلين.

قوله: «**فليكن**»: أمر من الرسول ﷺ يجب امتثاله، وهذا ليس خاصًا بمعاذ رضي الله عنه، معاذ وغيره في هذا سواء، وهذا الحكم لا يتعلق بذي السلطة فقط، بل هذا عام بالخلق كلهم؛ لأن دين الله جاء عامًا للخلق كلهم، فكل واحد يجب عليه ما يستطيعه من الدعوة إلىٰ الله، ولكن هذا يتفاوت من شخص إلىٰ آخر، فبعض الناس يكون عليه الواجب أكثر وألزم، وولي الأمر في هذا عليه واجب ليس علىٰ غيره يجب أن يبعث الدعاة يدعون إلىٰ التوحيد فإن لم يفعل فهو آثم، وسوف يحاسبه الله يوم القيامة؛ لأن هذه سيرة الرسول ﷺ والذي يكون في هذا المنصب يجب أن يكون مترسمًا لطريقة الرسول ﷺ، فإن لم ينصح لمن يتولىٰ عليهم فإنه إذا لقي الله يوم القيامة يُحرم عليه الجنة، كما جاء عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة**»(١)، فالأمر ليس سهلًا.

فاللام في قوله: «**فليكن**» للأمر الوجوبي الذي لا يجوز التساهل فيه.

وقوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله**»: يرشده أولًا إلىٰ طريقة الدعوة، وأنه يبدأ بالأساس الذي يُبنىٰ عليه غيره وهو التوحيد، فأول ما يبدأ به تصحيح العقيدة وتصفيتها، فشهادة أن لا إله إلا الله معناها الإخلاص لله جل جلاله؛ لأنه هو الذي تبنىٰ عليه الأعمال الأخرىٰ، فإذا لم يكن العمل خالصًا لله وحده فالأعمال التي تبنىٰ عليه تكون فاسدة، ويكون كالذي يبنىٰ علىٰ جُرفٍ هار فيكون خسارة وعملًا بلا نتيجة، فهذا يدلنا علىٰ أهمية هذا الأمر، وأن الذي يقول ندعوا الناس إلىٰ إصلاح أخلاقهم وإلىٰ حسن معاملتهم، ونترك الأمور المشكلة التي فيها نفرة بين الناس، فلا نقول لهم لا تتوسلوا بالأولياء ولا تدعوا القبور، هذا خلل بالدعوة وجهل، ويقول: ندعوهم أولًا إلىٰ أن يصلوا وأن يتعارفوا فيما بينهم ويتآلفوا

(١) رواه البخاري رقم (٧١٥١)، ومسلم رقم (١٤٢) ولفظه: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**».

ويكثروا من الدعاء، فهذا عمل لا فائدة فيه؛ لأنه علىٰ غير طريقة الرسول ﷺ، وعلىٰ غير أساس، فلا بد من تصحيح العقيدة أولًا وتصفيتها؛ لأن الإنسان الذي يدعو ميتًا ويتوسل به صلاته وصدقته لا تنفعه، فكيف تدعو لعمل لا ينفع؟ هذا عبث ولا يجوز، ولهذا أرشد الرسول ﷺ إلىٰ أن يكون أول الدعوة هو تصحيح العقيدة: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، ومعناه أن العبد لا بد أن يتحقق من هذا القول يشهد به قلبه ويطابق قلبه لسانه، والشهادة لا تقال إلا علىٰ ما هو محقق قد عقد عليه القلب وآمن به، أما إذا كان عن ظاهر اللسان وخلاف العمل فهذه الشهادة لا تفيد ولا تجدي ولا تسمىٰ شهادة.

وقوله: «أن لا إله إلا الله»: معروف أن هذه الكلمة هي أصل الإسلام وهي مبنية علىٰ النفي والإثبات، فقوله: «**لا إله**» لا هذه نافية للجنس، وهي لا تدخل: إلا علىٰ الجنس، ولهذا إله اسم جنس يطلق علىٰ كل إله بالحق والباطل، ولهذا احتيج إلىٰ النفي والإثبات بعدها حتىٰ يكون التأله كله محصورًا لله ﷻ، فإذا قلت: إله فهذا يطلق علىٰ كل متأله سواءً كان حقًا أو باطلًا، وهذا التركيب النفي والإثبات هو الإخلاص وهو من أبلغ الكلام وأبينه، ومن لا يفهم هذا الشيء مع هذا البيان معناه أنه لا يفهم اللغة العربية، واللغة العربية فهمها مهم جدًا؛ لأنه يترتب عليه فهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب خوفًا ورجاءً وحبًا وإنابة وخضوعًا كما تقدم.

وقد يكون التأله باطلًا، ولهذا جعلت هذه الكلمة علىٰ هذا التركيب، فلها ركن هو النفي، ولها ركن آخر هو الإثبات، فإذا قال العبد: «**لا إله**» معناه نفي التأله مطلقًا، وإذا قال: «**إلا الله**» أثبت الإلهية لله ﷻ، وقد كان العرب يفهمون هذا تمامًا، وكان الرسول ﷺ إذا قال لهم قولوا: «**لا إله إلا الله**» نفروا من ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]؛ لأن لهم آلهة متعددة وكثيرة ومنها الله ﷻ

فإنهم يألهونه ويعبدونه، ولكن يعبدون معه غيره، وهذا الذي جعلهم كفارًا، ومن يموت علىٰ ذلك يكون خالدًا في النار؛ لأنه لا بد أن يُخلص التأله لله ﷻ، وهذا يدلنا علىٰ أن الذي يُبدأ فيه بالدعوة سواءً كان المدعو عنده علم أو ليس عنده علم، هي شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا باتفاق العلماء أن الإنسان لا يكون مسلمًا إلا إذا شهد أن لا إله إلا الله.

ومعلوم أن هذه لا تكفي، فلا بد أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالدين الذي لا يقبل سواه، فمن أطاعه واتبعه فهو من أهل الجنة، ومن خالفه فهو من أهل النار قطعًا، ليس هناك طريق آخر إلىٰ الله، أو إلىٰ النجاة إلا باتباع رسول الله ﷺ.

وإذا قال العبد: لا إله إلا الله فبذلك يدخل الإيمان، فإذا كان قوله عن علم ويقين، قال ذلك بلسانه وبقلبه فهو مؤمن، ولزمه بعد ذلك ما رُتب علىٰ هذا مما افترضه الله ﷻ، فإن التزم وإلا قتل، فإن الإنسان إذا قال أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولكن لا أصلي ولا أصوم ولا أزكي، نقول: هذا لا يقبل، إذا شهدت أن لا إله إلا الله وجب عليك أن تلتزم بأوامر الله، ولا يُقبل أنك تتراجع، فإن تراجع حكم عليه بأنه مرتد فيُقتل.

وجاء في رواية: «**إلىٰ أن يوحدوا الله**»، وفي رواية: «**إلىٰ عبادة الله**»، وفي رواية: «**إلىٰ أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»، فهذه روايات ثلاثة كلها ثابتة في الصحيحين، وهذا يدلنا علىٰ أن رواية الحديث بالمعنىٰ جائزة، ولكن يجب أن يكون الذي يروي بالمعنىٰ يفهم كلام رسول الله ﷺ تمامًا، فيعبر بالمرادف للكلمة، ولا يلزم أن يكون حفظ لفظ الرسول ﷺ؛ لأنه من المعلوم أن الرسول ﷺ ما قال هذه الألفاظ الأربع كلها في مخاطبته لمعاذ، وإنما قال واحدة فهذا كثير جدًا في الأحاديث.

وفي هذا دليل علىٰ أن أول ما يجب علىٰ العبد شهادة أن لا إله إلا الله وهو أمر متفق عليه عند أهل السُّنَّة، وإنما يخالف فيه المتكلمون الذين يقولون أول ما يجب علىٰ العبد النظر العقلي في الأدلة علىٰ وجود الله، أن ينظر العبد في الأدلة الكونية المشاهدة، أو العقلية المدركة مثل: كون المخلوق لا بد له من خالق، ولا يمكن أن يكون المخلوق خلقه مخلوق مثله، فإذًا لا بد أن يكون خالقه غني بذاته عن كل من سواه غير مشابه له بل هو كامل من جميع الوجوه حتىٰ لا يلزم تسلسل ولا يلزم باطل، وهذا هو الذي ينتهي إليه العقل، أو النظر أيضًا في المخلوقات هذه الموجودات وغيرها، وبعضهم يذهب إلىٰ أبعد من هذا ويقول الواجب الشك؛ لأن الشك يدعو إلىٰ النظر؛ يعني: يكون أول واجب الكفر والكفر يدعوه إلىٰ أن يفكر وينظر وهذا من أبطل ما يكون، ولهذا قال القرطبي رحمه الله في المفهم: لو لم يكن في الكلام إلا هذه المسألة لكفىٰ في التنفير عنه؛ لأن هذا يلزم منه الكفر(١).

فالمقصود أن أدلة الكتاب والسُّنَّة، ودعوة الرسول ﷺ تدل علىٰ أن أول ما يجب علىٰ العبد الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، والإيمان بالله هو شهادة أن لا إله

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٢(٢/ ٥٢): ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلا مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقًا بالذم، وجديرًا بالترك. **إحداهما**: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات الشك في الله تعالىٰ. **والثانية**: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالىٰ بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حزروها، فلا يصح إيمانه وهو كافر. فيلزمهم علىٰ هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأن من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه، وجيرانه، وقد أورد علىٰ بعضهم هذا، فقال: لا تشنع عليّ بكثرة أهل النار، أو كما قال: ثم إن من لم يقل بهاتين المسألتين من المتكلمين ردوا علىٰ من قال بهما بطرق النظر والاستدلال بناء منهم علىٰ: أن هاتين المسألتين نظريتان، وهذا خطأ فاحش، فالكل يخطئون، الطائفة الأولىٰ بأصل القول بالمسألتين، والثانية بتسليم أن فسادها ليس بضروري، ومن شك في تكفير من قال: إن الشك في الله تعالىٰ واجب؟ وأن معظم الصحابة والمسلمين كفار، فهو كافر شرعًا، أو مختل العقل وضعًا؟ إذ كل واحدة منهما معلومة الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن كذلك فلا ضروري يصار إليه في الشرعيات ولا العقليات. عصمنا الله من بدع المبتدعين، وسلك بنا طرق السلف الماضين.

إلا الله؛ لأن في ضمنها الكفر بالطاغوت، قال الله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ثم فيه أنه يبدأ بالأهم فالأهم، فإنه رتب الدعوة إلىٰ الصلاة والزكاة والصوم علىٰ الإتيان بشهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن لا إله إلا الله لا بد من معرفة معناها فمجرد النطق لا يكفي ولا بد من العمل بها، ولا بد من أن يكون الإنسان مغتبطًا بهذه الشهادة فرحًا بها يحبها، مسرورًا بها، ولا يبغي غيرها في حياته، ولا بد أن يكون في قولها صادقًا، فإنه إذا لم يكن صادقًا يموت منافقًا، ولا بد أن يكون مخلصًا، والإخلاص معناه: أن يكون العمل لله وحده فقط، لا يقصد شيئًا آخر.

ولا يمكن أن يكون الصحابة يدعون إلىٰ مجرد اللفظ فقط بلا عمل ولا معنىٰ؛ لأنهم هم أهل اللسان وأهل المعرفة، والعرب لما قال لهم رسول الله ﷺ: «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»[(١)]، فهموا من هذا الإخلاص، وأن معنىٰ ذلك ترك دينهم أصلًا واعتناق دين جديد ما كانوا يعرفونه، ولهذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٥]، مما يبين ويوضح هذا تمامًا، لما دخل الرسول ﷺ علىٰ عمه في مرض موته وعنده أبو جهل فقال: «**أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتىٰ قال آخر شيء كلمهم به هو علىٰ ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنه**»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][(٢)]، فأبو جهل كان يعرف معنىٰ لا إله إلا الله، ويعرف أنه إذا

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٦٥٦٥)، وأحمد في المسند رقم (١٦٠٢٣)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٩).
(٢) رواه البخاري رقم (٣٨٨٤)، ومسلم رقم (٢٤).

قالها ترك ملة عبد المطلب وصار علىٰ ملة محمد بن عبد الله ﷺ، فأعاد عليه الرسول فأعاد عليه أبو جهل نفس كلامه فقط، فمات علىٰ ملة عبد المطلب.

وقوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك**»؛ يعني: استجابوا وشهدوا أن لا إله إلا الله.

قوله: «**فأعلمهم**»: هذا يدل علىٰ أنه لا بد من معرفة ذلك والعلم به وأنهم يعلمون، ويلزم من هذا تعليمهم الوضوء، وتعليمهم ما يلزم للصلاة من الستر واستقبال القبلة وغير ذلك.

قوله: «**أن الله افترض**»: أصل الفرض هو القطع. والمقصود هنا هو اللزوم والوجوب الذي لا محيد عنه.

قوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات**»: هذا يدل علىٰ ما قلنا: أن الواجب علىٰ الداعي الذي يدعو إلىٰ الله أن يبيِّن للناس التوحيد أولًا وأن يدعوهم إليه قبل كل شيء، فإن صح عندهم ذلك واستقامت أحوالهم علىٰ التوحيد دعاهم إلىٰ الصلاة، والصلاة هي الركن الثاني بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وكل الأركان تبنىٰ علىٰ الركن الأول علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، لا بد أن يُصَحح ويدلنا علىٰ أنهم إذا ما استجابوا إلىٰ أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن يوحدوا الله أنهم لا يدعون إلىٰ الصلاة وهذا المفهوم واضح من النصوص، وهكذا الواجب علىٰ الداعية إلىٰ الله ﷻ أن يهتم بهذا الموضوع كما كان الرسول ﷺ يهتم به، وإلا تكون الدعوة غير مجدية وغير مفيدة ولا نافعة؛ لأنها دعوة إلىٰ أعمال الطاعة والأصل فاسد، فتكون هذه الأعمال غير معتد بها، ولا قيمة لها، فتكون الدعوة ضائعة علىٰ هذا الباب، وهذا الذي أقول يجب أن يفهمه الدعاة الذين يدعون إلىٰ الله ﷻ؛ لأن هذه طريقة الرسول ﷺ وهي التي تجدي وتنفع وغيرها لا ينفع، فإذا استجابوا لك وشهدوا أن لا إله إلا الله فانقلهم بعد ذلك إلىٰ أن تعلمهم وتخبرهم أن الله أوجب عليهم وافترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة؛ يعني: في أربع وعشرين ساعة، وهذه الصلوات لا بد أن تبين بركعاتها

وأوقاتها وشروطها وفروضها، وما إلىٰ ذلك، فالمفروض أن الداعية يكون عالمًا بذلك، ولهذا أجمل ذلك الرسول ﷺ، وذكر أنه افترض عليهم خمس صلوات، ولم يذكر عدد الركعات ولا الأوقات، ولم يذكر كل ما يلزم لها بناءً علىٰ أن الداعية فاهم ذلك، وأنه سوف يدعو الناس لذلك، وسوف يبينه، وهذا يدلنا علىٰ أن الأمور الواضحة لا تحتاج إلىٰ أن ينبه عليها ويكتفىٰ بها إجمالًا، وأيضًا يدلنا علىٰ أنه لا يجب علىٰ المسلم غير هذه الصلوات الخمس؛ يعني: أن الوتر غير واجب ولا سيما أن هذا الحديث كان في آخر حياة النبي ﷺ، وقد قال أبو حنيفة رحمه الله بوجوب الوتر، وهذا يحتاج إلىٰ دليل وإن كان دليلهم في الصحيحين: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا**»(١)، وكذلك حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أهل القرآن أوتروا فإن الله عز وجل وتر يحب الوتر**»(٢)، والعلماء جمعوا بين هذا وبين هذه الألفاظ التي جاءت في لفظ الوجوب، أو الأمر بأن الوجوب يدل علىٰ التأكيد في السُّنَّة كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الغسل يوم الجمعة واجب علىٰ كل محتلم**»(٣)، أن يغتسل يوم الجمعة في الأسبوع مرة، وجاءت أحاديث تدل علىٰ أن هذا ليس بواجب.

فعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فهو أفضل**»(٤)، وفي هذا أنه ﷺ اقتصر علىٰ خمس صلوات فقط، ولم يذكر لهم الوتر، أما العيدين فاختلف العلماء في حكمهما، فمنهم من يقول أنهما فرض كفاية، ومنهم من يقول: أنهما سُنَّة، ومنهم من يقول: إنهما

---

(١) رواه البخاري رقم (٩٩٨)، ومسلم رقم (٧٥١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٨٧٧)، (١١١٨)، والترمذي رقم (٤٥٣)، وأبو داود رقم (١٤١٦)، وابن ماجه رقم (١١٦٩)، والنسائي رقم (١٦٧٥).

(٣) رواه البخاري رقم (٨٥٨)، ومسلم رقم (٨٤٦).

(٤) مصنف عبد الرزاق رقم (٥٣١١)، وأحمد في المسند رقم (٢٠١٧٤)، وأبو داود (٣٥٤)، والترمذي رقم (٤٩٧)، وابن ماجه رقم (١٠٩١)، والنسائي رقم (١٣٨٠).

واجبتان[١]، ولم تذكر اعتمادًا على أن هذا يكون من عَرف الخمس صلوات أنه سيعرفها؛ لأنها لا تكون في السنة إلا مرة.

وفي **قوله: «خمس صلوات»**: نص على أن المتعيَّن على العبد الخمس الصلوات فقط، وما زاد على ذلك فهو نفل إذا جاء به صار له الأجر والثواب، وإن لم يأت به فليس عليه عقاب، ولكن يجب أن يقيم الصلاة وإقامة الصلاة ليس القيام والركوع والقراءة، إقامتها أن يأتي بها كاملة، فإذا تأمل العبد القرآن والأحاديث وجد أن كل أمر جاء بالصلاة بلفظ الإقامة وإقامتها لا بد أن تقام على الوجه الذي فرضها رسول الله ﷺ عليه حيث قال: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»**[٢]، ومن أعظم إقامتها حضور القلب فيها فحضور القلب واجب فرض؛ لأنه لا يكتب للإنسان إلا ما حضر فالجزء الذي لا يحضر القلب فيها غير معتد فيه وإن كان لا يؤمر بإعادة الصلاة؛ يعني: أنها تسقط عنه فريضة الصلاة ولكنه يعاقب عليها؛ لأنه قصر في هذا فالصلاة أمرها عظيم جدًا، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **«وجعلت قرة عيني في الصلاة»**[٣]، وكان

---

(١) صلاة العيدين واجبة على القول الصّحيح المفتى به عند الحنفيّة، والمراد من الواجب عند الحنفيّة: أنّه منزلة بين الفرض والسنة، ودليل ذلك: مواظبة النبي ﷺ عليها من دون تركها ولو مرةً، وأنه لا يصلي التطوع بجماعة- ما خلا قيام رمضان وكسوف الشمس وصلاة العيدين فإنها تؤدى بجماعة، فلو كانت سنةً ولم تكن واجبةً لاستثناها الشارع كما استثنى التراويح وصلاة الخسوف.
أما الشافعية والمالكية: فقد ذهبوا إلى القول بأنها سنة مؤكدة. ودليلهم على ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح للأعرابي- وكان قد ذكر له الرسول ﷺ الصلوات الخمس «فقال له: هل عليّ غيرهنّ؟ قال: لا، إلا أن تطوع»، قالوا: ولأنها صلاة ذات ركوع وسجود لم يشرع لها أذان فلم تجب بالشرع، كصلاة الضحى. وذهب الحنابلة إلى القول بأنها فرض كفاية لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، ولمداومة الرسول ﷺ على فعلها. الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/ ٩٧٥٣.

(٢) رواه البخاري رقم (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في المسند رقم (١٤٠٣٧)، والبيهقي رقم (١٣٨٣٦)، والنسائي رقم (٣٩٥٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٢٦٧٦) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
ولفظ الحديث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»**.

يرتاح بها[١]، وكان إذا حزبه أمر فزع إليها[٢].

وقوله: «**فإن هم أطاعوك في ذلك**»:؛ أي: استجابوا لك بكونهم وحدوا الله وأقاموا الصلاة.

وقوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة**»: افترض مثل افتراض الصلاة؛ يعني: أوجب وألزم ولكن على الأغنياء.

وقوله: «**تؤخذ من أغنيائهم**»: الغني: هو الذي يملك النصاب، فمن كان عنده نصاب من المال فهو غني، وهذا مطلق سواءً كان مكلف، أو غير مكلف؛ لأنه قال: أغنيائهم، فيدخل فيه من بلغ ويدخل فيه الصبي، ويدخل فيه غيرهم حتى المجانين، وكل من هو غني تؤخذ منه الزكاة، ويقال في هذا مثل ما قيل في الصلاة: أن هذه الأمور موكولة إلى الداعية أن يبيِّن لهم مقدارها والمال الذي تجب فيه، وكيف تخرج وما يلزم لها، فهذا الذي نقول أنه يجب على الداعية أن يكون عالمًا بما يدعو إليه وألا يكون علمه إجمالًا بل يجب أن يكون علمه مفصلًا، وكلما دعا إلى شيء فإنه يبينه ويوضحه، وكذلك إذا أُورد عليه شيء من الإشكالات، أو الشبه يزيل ذلك.

قوله: «**وترد على فقرائهم**»: استدل به بعض الفقهاء على أن الزكاة تكون في بلد المال؛ لأن الضمائر هنا لأهل اليمن، فاستدلوا على عدم نقل الزكاة من بلد إلى آخر، وهذا الاستدلال ليس قطعيًا؛ لأن دلالة المفهوم ليست قطعية، ولهذا اختلف في هذه المسألة، فالذين منعوا من نقل الزكاة يقولون أنها توضع في فقراء هذا البلد إلا إذا لم يوجد فقير، فإنها تنقل إلى أقرب بلد. والذين نازعوهم قالوا إن الضمير يعود على فقراء المسلمين عمومًا، ولهذا جاء أن معاذاً أرسل من الزكاة إلى المدينة.

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٢٣٠٨٨) عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»، وابن أبي شيبة رقم (٩٣٩)، وأبو داود رقم (٤٩٨٧).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٢٣٢٩٩)، وأبو داود رقم (١٣١٩) ولفظه عن حذيفة كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وفيه دليل على أنه يجوز أن يقتصر على صنف من أصناف أهل الزكاة، وهم ثمانية كما ذكرهم الله ﷻ، وإن كان بعض هذه الأصناف يجوز أن يعطي وإن كان غنيًا مثل العامل، والمجاهد يعطى مع غناه، وأما السبب في الاقتصار على الفقراء يقول العلماء: لأن هذا هو الغالب؛ يعني: أن غالب أهل الزكاة الفقراء فهم الأغلب، والأكثر، أو لأنهم الأكثر حاجة وأشد فاقتصر عليهم ولا يلزم أن يكون البقية غير مراد في ذلك.

ويُؤخذ من هذا أن الذي يتولى أخذ الزكاة هو الإمام لقوله: «**تُؤخذ**».

قوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم**»: منصوب على التحذير؛ يعني: احذر أن تأخذ كرائم الأموال. يقول الحافظ: كرائم أموالهم؛ أي: نفائسها(١). وكرائم الأموال هنا مطلق الأموال يكون في الثمار والبهائم، وقد يكون في النقود أيضًا؛ لأنها تختلف باختلاف النسبة التي تضاف إليها، فإذا كان ذهبًا وفضة، فإن كان الذهب والفضة أكثر مما خلط بهما كان أحسن وأكثر قيمة فيسري هذا على المال كله، وإن كانت من البهائم فهي ذات اللون الجميل والصوف الكثيف واللبن الغزير واللحم الكثير وما أشبه ذلك.

وإن كان مما يخرج من الأرض فهو أحسنه، وهو يختلف فالحبوب تختلف والزبيب يختلف والشعير يختلف، فالواجب أن تؤخذ الزكاة من الوسط، فإذا أخذت الزكاة من كرائم الأموال فهو ظلم، وكذلك لا يجوز لصاحب المال أن يدفع شراره ورديئه، فإنه حرام عليه بل يجب عليه أن يدفع من متوسط المال، فلا يُؤخذ من كرائم الأموال إلا أن يسمح صاحب المال وتطيب به نفسه من تقديم الكرائم فإنه يقبل وما زاد فهو صدقة.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ١٧٩).

وقوله: «**واتق دعوة المظلوم**»: اتق؛ يعني: اجعل لك واقيًا من أن تلحقك دعوة المظلوم، وهذا يدل علىٰ أن أخذ الكرائم من الأموال ظلم، كما أنه دليل علىٰ أن المظلوم دعوته مستجابة فاتق دعوة المظلوم بالعدل، واتباع الحق، والخوف من الله في ذلك.

وقوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»: الضمير يقولون: ضمير الشأن، فإن الأمر والشأن أنه ليس بينها وبين الله حجاب؛ يعني: أن الله يستجيب للمظلوم، وهذا أمر مجرب، فإن المظلوم إذا دعا يستجيب الله له، ولكن قد لا تظهر الاستجابة قريبًا، وقد لا تظهر له بارزة، وهي فيه؛ يعني: واقعة فيه.

و«**المظلوم**» مطلق، ولهذا يقول العلماء: إن المظلوم تستجاب دعوته، وإن كان كافرًا فكفره عليه؛ لأن الظلم لا يُقر، وقد يقول قائل: نحن نشاهد الظلم كثيرًا جدًا، وكثير من المظلومين يدعون، ولا تراهم يُستجاب لهم؟

نقول: هذا وإن كان أُطلق هكذا فهو كما جاء معلق بالمشيئة لأنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله ﷻ، والرسول ﷺ أخبرنا: أنها تستجاب، وأخبرنا أن الداعي لا يخلو إذا دعا من أمور ثلاثة كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث، إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا: إذًا نكثِر؟ قال: «**الله أكثر**»[1].

فهو إذا دُعي لا يخيب أبدًا، فالله أخبرنا أننا إذا دعونا أنه يكشف عنا السوء إذا شاء سبحانه، فهذا تقييد لكل دعاء يدعو به الداعي أنه بمشيئته ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه.

والظالم لا تستقيم حاله غالبًا بل لا بد أن يعاجل بأي نوع من العقوبات وقد يؤخذ أخذًا ظاهرًا، وقد يكون الظالم تمادىٰ في ظلمه وتجرَّأ علىٰ الله، ثم يُمد في عمره ويزداد ظلمًا حتىٰ يوافي يوم القيامة، وقد كملت حسرته وخسارته من جميع النواحي، فيصبح هذا أشد في الأخذ وفي النكال، ولهذا ذكر عن عقلاء العرب أنه لما ذكر له أن فلانًا يظلم قال لن يموت سويًا، فقيل له: قد مات سويًا، فقال: إن كنتم صدقتم فوالله لتبعثن وليكونن لكم دارًا أخرىٰ تجازون فيها .هذا وهو جاهلي لا يعرف شيئًا، وهم كانوا ينكرون البعث، ولكن الظلم لا يُقر.

والمظلوم يتفاوت، فهناك مظلوم لا ناصر له، ومظلوم قد ينتصر، وقد ينتصر بغيره، فظلم الضعيف الذي لا ناصر له إلا الله هو الذي يكون أشد وأعظم جرمًا، والعقاب لهذا أسرع - نسأل الله العافية - مثل الضعفاء كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»[(١)]، فالمرأة ضعيفة قد لا تستطيع أن تصل وتأخذ حقها، وإذا دعت وهي مظلومة فدعوتها تستجاب مع أن دعوة المظلوم كلها مستجابة كما قال الرسول ﷺ، ومثل ذلك: الأجير أيضًا قد يكون ضعيفًا ولا يستطيع أن ينتصر فيلجأ إلىٰ الدعاء[(٢)]، فيجب علىٰ العبد الذي يخاف الله ﷻ أن يتقي هذا الجانب ويحذر عقاب الله ﷻ فإنه ينتصر ﷻ للمظلوم ولهذا قال: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»؛ يعني: أنه يستجيب للمظلوم إذا دعا علىٰ ظالمه.

(١) أحمد في المسند رقم (٩٦٦٦)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٩١٤٩)، وابن ماجه رقم (٣٦٧٨)، والحاكم في المستدرك رقم (٢١١) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطىٰ بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفىٰ منه ولم يعطه أجره**» رواه البخاري رقم (٢٢٢٧).

والحديث لم يذكر فيه الصوم ولا الحج مع أنه في آخر عهد النبي ﷺ **وعن هذا جوابان:**

أحدهما: أن هذا من اختصار الرواة وهو غير مستقيم؛ لأنه لو كان حديثًا واحدًا أمكن أن يقال هذا، ثم هذا فيه فتح باب القدح في الرواة فيصبح لا يوثق بهم.

الثاني: أن هذا على حسب نزول الفرائض، فأول ما افترض الله ﷻ شهادة أن لا إله إلا الله كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**»[1]، وكذلك الصلاة من أوائل ما افترض فرضها في مكة حينما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء، ثم الزكاة ولكن الزكاة فرضت في المدينة، أما الآيات التي ذكرت فيها الزكاة وهي مكية يقول العلماء: المقصود بها زكاة البدن؛ يعني: تطهيره وتزكيته بالإيمان بالله ﷻ، وهذا الحديث لا ينطبق عليه هذا الجواب؛ لأن الحديث في آخر حياة النبي ﷺ فيتطلب جوابًا آخر غير هذا.

والجواب عن هذا: أن الأمور التي ذكرت هي الأمور التي يقاتل عليها، وهي التي تلزم كل أحد، أما الصوم فإنه سر بين العبد وبين ربه يجوز أن يظهر الإنسان أنه صائم وهو كاذب؛ كالطهارة، فهي شرط للصلاة، وهي لم تذكر لأنها أمانة بين العبد وبين ربه؛ يعني: موكولة إلى إيمانه، فكذلك الصوم، أما الحج فإنه لا يجب على كل أحد وإنما يجب على المستطيع، ثم هو لا يجب في العمر إلا مرة فصار الاقتصار على الأمور الظاهرة التي يقاتل عليها، والتي ترتبط بعضها ببعض، فهذا هو الجواب الذي يرتضى عن هذا الحديث.

والشاهد من الحديث أن الرسول ﷺ حينما بعث معاذًا مبلغًا عنه ونائبًا عنه في الحكم والقضاء أمره أن تكون الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله أول ما يبدأ به،

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٥)، ومسلم رقم (٢٢).

فهل يجوز مثلًا أن يذهب شخص إلىٰ قوم لا يعرفون شيئًا، ثم يأمرهم بتحسين أخلاقهم، أو بأن يصلُّوا أو يصوموا وهم يعبدون غير الله، بل لا يعرفون شهادة أن لا إله إلا الله؟ نقول: هذا لا يجوز؛ لأن هذا لو فعلوه فلا فائدة فيه، لا بد أن يكون العمل مبنيًا علىٰ التوحيد علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ يعني: هذا شرط لا بد أن يكون قد آمن.

وقد استدل بعض العلماء بقوله: «**ثم ادعوهم إلىٰ**» علىٰ أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشرع، ووجه ذلك أنه قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم**»، فرتب إعلامهم بالصلاة وغيرها علىٰ طاعته، فدل علىٰ أنهم مخاطبون بالشهادتين فقط.

وهذا الاستدلال وإن كان صحيحًا فهو ضعيف جدًا؛ لأن فعل الصلاة وغيرها مبني علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله لا يفيد ولا ينفع، ولا يعتد به حتىٰ يأتي الإنسان بالإيمان، فإذن لا يكون فيه دليل علىٰ ذلك والمسألة خلافية ولا فائدة فيها إلا في زيادة عذابهم، وعذابهم إذا كانوا يُقرنون مع الشيطان في جهنم يكفيهم ذلك - نسأل الله العافية -، ومعلوم أنهم يختلفون في العذاب فمنهم من هو في الدرك الأسفل، ومنهم من هو فوقه، ولكن كما جاء في الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه**»(١)، هذا أخفهم من يغلي منها دماغه، فكيف الذي يكون في طبقاتها - نسأل الله العافية -.

وفي الحديث بيان وجوب الدعوة إلىٰ الله، وأن الإمام يبعث الدعاة الذين يدعون إلىٰ الإسلام وإلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وفيه صفة الداعي الذي يدعو إلىٰ الإسلام كما في هذا الحديث، وأن الدعوة إلىٰ توحيد الله ﷻ.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٦١)، ومسلم رقم (٢١٣).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولهما، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله علىٰ يديه»، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا غدوا علىٰ رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: «أين علي بن أبي طالب؟»، فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتىٰ فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: «انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»(١). يدوكون؛ أي: يخوضون.

سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي أبو العباس صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضًا مات سنة ثمان وثمانين. وقد جاوز المائة.

قوله: «يوم خيبر»: غزوة خيبر كانت في السنة السابعة بعد رجوعه من الحديبية، وهي خاصة بأهل الحديبية كما ذكر الله ﷻ ذلك في سورة الفتح. فقوله: «يوم خيبر» هذا كان في آخر الأيام؛ لأن أيام القتال معدودة، وقد كان تأبىٰ فتح خيبر وقتًا، حيث قاتل المسلمون، ثم قاتلوا ولم يفتح عليهم، ثم بعد ذلك بعد ما أمسوا انصرفوا من القتال، قال رسول الله ﷺ هذا القول: «**لأعطين الراية**» ففرح الناس، ولكن اشتغلوا فيمن تدفع إليه الراية، مع أنه فيه بشارة بالفتح، ولكن همهم الذي تدفع إليه لما ذكر رسول الله ﷺ أن الله يحبه ورسوله، فهذا هو الذي اهتموا به أكثر، ومعلوم أن الله ﷻ يحب كل مؤمن تقي، وكذلك رسوله ﷺ، ولكن الرسول ﷺ إذا شهد لمعين بعينه أن هذا الرجل يُحبه الله، ويحبه رسوله ﷺ كل أحد يحب أن يكون ذلك الرجل المشهود له، والسبب في هذا أن الإنسان لا يثق في عمله، ولا يدري هل هو أتىٰ بالعمل علىٰ الوجه المطلوب؛ لأن الأعمال لها غوائل ولها قوادح كثيرة فهو

(١) رواه البخاري رقم (٣٠٠٩)، ومسلم رقم (٢٤٠٦).

لا يثق بأنه وصل إلىٰ هذه الدرجة، فإذا شهد له الرسول ﷺ كان هذا مفرحًا جدًا، وكل واحد يود أن يكون ذلك الرجل، هذا هو السبب في كونهم اشتغلوا عن هذه البشارة، وكلهم غدا إلىٰ رسول الله ﷺ يرجو أن تدفع إليه الراية حتىٰ يفوز بهذه البشارة من رسول الله ﷺ بأن الله يحبه ورسوله، وأما كون العبد هو يحب الله ورسوله، فهذا أمر لازم ولا يحصل الإيمان إلا بذلك.

وقد وقع لرسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، والصحابة وهم سادات الأولياء وأفضل الناس بعد الرسل ما وقع من شدة في القتال ومن الجوع والوباء حتىٰ يظهر فقر العباد إلىٰ الله، وأن الأمر كله بيد الله تعالىٰ، والمؤلف رحمه الله استدل بهذا علىٰ التوحيد، ووجه الاستدلال بهذا أن الرسول ﷺ مع أنه أكرم الخلق علىٰ الله، لا يملك لنفسه شيئًا من دون الله، ولا يملك لأصحابه شيئًا، ولا يملك إلا ما أعطاه الله جل وعلا، وهو عبد تجري عليه أقدار الله، وأحكامه فلا يُدعىٰ مع الله، ولا يُطلب منه ما يطلب من الله بل يجب أن يخلص التوحيد لله والعبادة لله وحده، فما يكون أحد مشاركًا له فيها لا الرسول ولا غيره، والله عز وجل يبتلي عباده بالضرَّاء حتىٰ يظهر الصابر والمجاهد حقًا من المنتكس الذي لا يصبر، وحتىٰ أيضًا يحصل لهم رفع الدرجات؛ لأن الجنة درجات عالية جدًا، وتختلف منازلهم باختلاف مقامات التوحيد في قلوبهم والصبر والجهاد والنصح والصدق مع الله جل وعلا، ولهذا جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق، أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»(١)، فكيف ترىٰ مثلًا سهيلًا، هل أحد يمكن أن يصل إليه، أو الكواكب التي تكون بجانب السماء، فمنزلة أصحاب الغرف مثل هذه الكواكب وبعدها عن الأرض فهي بعيدة جدًا.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٢٥٦)، ومسلم رقم (٢٨٣١) وتمامه «قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: بلىٰ والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

فهذه الرفعة وهذا العلو العظيم ليس لأنهم جاؤوا بأمور لم يأت بها غيرهم، من صلاة وصيام وغيرها، بل لأنه صار في قلوبهم من معرفة الله ﷻ وتوحيده وحبه والإنابة إليه ما لم يكن عند غيرهم، وكذلك الأعمال الأخرىٰ فهم يختلفون فيها كثيرًا، فإذا كان العبد منهم يستطيب الموت، وأحدهم ينظر إلىٰ تمرات في يده ويقول: لئن أنا حييت حتىٰ آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة[1] فهو يكره الحياة كلها، يريد أن يتقدم إلىٰ ما آمن به من قول رسول الله ﷺ، وهو: أن العبد إذا قتل في سبيل الله فله الجنة، فهذا هو المطلب العالي الذي يتسابق إليه أهل الفضل.

وكذلك ما جاء في قصة عبَّاد بن بشر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**من رجل يكلؤنا الليلة؟**» فقام رجلان عمار بن ياسر، وعباد بن بشر فقالا: نحن يا رسول الله نكلؤك. وجلس الرجلان علىٰ فم الشعب، فقال أحدهما لصاحبه: أي الليل أحب إليك، أن أكفيك أوله فتكفيني آخره؟ قال: اكفني أوله. فنام عمار بن ياسر، وقام عباد بن بشر يصلي، وأقبل عدو الله يطلب غرة فلما رأىٰ سواده رماه فأصابه فانتزع السهم، ثم رماه بآخر فانتزعه، ثم رماه الثالثة فلما غلب عليه الدم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اجلس فقد أُتيت فجلس. فقال: أي أخي ما منعك أن توقظني في أول سهم رمىٰ به؟ قال: كنت في سورة أقرأها فكرهت أن أقطعها حتىٰ أفرغ منها، ولولا أني خشيت أن أضيع ثغرًا أمرني به رسول الله ﷺ ما انصرفت، ولو أتىٰ علىٰ نفسي[2]، فأصبح يستلذ الآلام في جانب الطاعة، وهذا هو المعنىٰ الذي يقول كثير من العلماء: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[3]. الجنة هذه هي استلذاذ الطاعة وكونه في نعيم فيها، وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، كما قال ابن القيم في دورهم الثلاث: في الدنيا، وفي البرزخ،

(١) كما في قصة عمير بن الحمام، سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٥٤) قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وفي الآخرة(١). وليس النعيم هو الأكل والشرب وتحصيل الشهوات وغيرها من المناصب، بل النعيم الأنس بالله وبطاعته ﷻ، وإلا النعيم الذي تشترك فيه البهائم مع العقلاء ليس نعيمًا.

فالمقصود أن ما أصابهم من الجوع حين اضطروا إلىٰ أن طبخوا الحمر الأهلية، ثم أمر النبي ﷺ بإكفاء القدور وقال إنها رجس، وما أصابهم من الوباء؛ لأن خيبر موبوءة فلما أخبرهم الرسول ﷺ بالفتح اشتغلوا بهذا عما أصابهم حرصًا علىٰ حب الله ورسوله فشغلهم هذا عن البشارة كما قال المؤلف، فهذا يدل علىٰ فضلهم وتسابقهم إلىٰ الخير وأن كل واحد منهم يود أن يكون هو ذلك الرجل، وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ، قال: فتساورت لها رجاء أن أدعىٰ لها(٢). وحبه للإمارة لأجل هذه الشهادة، وليس لذات الإمارة.

قوله: «لأعطين»: تأكيد باللام والنون. وفي رواية: **«إني دافع اللواء إلىٰ رجل»**(٣).

---

(١) الجواب الكافي (١/ ٨٤) قال رحمه الله: ولا تظن أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] يختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالىٰ ومحبته والعمل علىٰ موافقته، وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد، ولا يتم له سلامته مطلقًا حتىٰ يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السُّنَّة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهو يناقض التجريد والإخلاص يعم، وهذه الخمسة حجب عن الله».

(٢) رواه مسلم رقم (٢٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أحمد في المسند رقم (٢٢٩٩٣).

قوله: «**الراية**»: هي العَلَم المعروف الآن، الراية لها لون وصفة، والعلم له لون وصفة، كما قاله بعض العلماء، وقد جاء عن ابن عباس ﵄ أنه قال: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض[(١)]. وعند ابن عدي: مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله[(٢)]. وقال الحافظ: إنهما شيء واحد[(٣)].

والراية علامة على القائد، وهي تدل على أن الجيش مستقيم، وأن حاله مستمرة ما دامت مرفوعة وخفاقة، ولهذا يحافظ عليها فإنها إذا سقطت فهي علامة الانهزام.

ويدل على أن الرسول ﷺ كانت له راية يرفعها وقت القتال ويعطيها من هو مقدم وشجاع؛ لأن بها قيام الجيش وقيام الأمر، ومعنى ذلك أن المقصود الأمير الذي يؤمِّره على القتال؛ لأن الإمام يُقدم من يرى أنه أهلًا للقتال ويُؤمِّره على غيره، ثم غيره من المسلمين يطيعونه ويكونون تحت أمره ما دام مطيعًا لله ﷻ.

قوله: «**يفتح الله عليه**»: أخبر ﷺ أن الفتح من الله ﷻ «**يفتح الله عليه**»، وهو يكون سبب فقط، والسبب والمسبَّب كله من الله ﷻ، وقد فتح الله على يديه خيبر، وفي هذا أن فتحها بالقوة وهذا شيء معلوم.

وهذا فيه أيضًا علمٌ من أعلام النبوة، وبشارة من الرسول ﷺ فوقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٦٨١)، وابن ماجه رقم (٢٨١٨)، والطبراني في الكبير رقم (١٢٩٠٩).

(٢) ابن عدي في الكامل رقم (٤١٧).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٢٧) قال: وقد أخرجه أحمد من حديث بريدة بلفظ: «إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله» الحديث، وهذا مشعر بأن الراية واللواء سواء. وقال في مكان آخر: والراية بمعنى اللواء وهو العلم. ثم قال: وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد، والترمذي من حديث ابن عباس: «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض»، ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد: «مكتوبًا فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وهو ظاهر في التغاير، فلعل التفرقة بينهما عرفية.

وقوله: «يحب الله ورسوله»: لم يعين الرجل من هو، وإنما وصفه بأنه: «**يحب الله ورسوله**»، وهذه صفة كل مؤمن فليست خاصة برجل، وإن كان الحب يتفاوت، مؤمن يحب الله ورسوله أكثر وآخر أقل، ولكن لا بد منهما فهذا هو أصل الإيمان وهو معنى التأله.

وقوله: «ويحبه الله ورسوله»: هذا هو الشأن، وهذا هو الذي حرص عليه الصحابة والله ورسوله أيضًا يحبان كل مؤمن تقي، ولكن إذا نص الرسول ﷺ على رجل معين فإن كل واحد يحب أن يكون ذلك المعين؛ لأن هذا يدل على القبول، ويدل على الإيمان للمعين والإنسان لا يدري مهما عمل هل قبل منه أو رد عمله، كما أن له ذنوبـًا لا يدري هل غفرت، أو لم تغفر، وهذا هو السبب في كون الإنسان يخاف؛ لأن له ذنوبًا ليس عنده علم أنها غفرت بالتوبة وأن توبته قبلت، وله أعمال لا يدري هل قبلت منه أو ردَّت، وآفات الأعمال كثيرة فإذا جاءت الشهادة من الرسول ﷺ في مثل هذا فكل يتطلع إليها، ويحب أن يكون هو ذلك الرجل.

وفي هذا شهادة لعلي رضي الله عنه أنه بهذه الصفة، وبأنه مؤمن، وفيه الرد على الخوارج الذين يكفرونه هو وإخوانه من الصحابة رضي الله عنهم، والرافضة يجعلونه وحده المؤمن ومعه عدد قليل جدًا من الصحابة، فهل يتم هذا لهؤلاء ولهؤلاء؟

نقول: لا يتم؛ لأن كلا الطائفتين يتمسَّك بجانب ويترك الجوانب الأخرى، فإذا قالت الرافضة مثل هذه الأقوال التي صدرت من الرسول ﷺ فيهم قالها قبل ردتهم يقابلهم النواصب بمثل هذا، يقولون أيضًا: هذا القول صدر من الرسول ﷺ في علي قبل ردته. فكل طائفة لا يتم استدلالهم، وإنما يتم لأهل السُّنَّة الذين يرون أن الصحابة على الحق، ولم يطرأ عليهم شيء مما يقول هؤلاء الضلال، فالله جل وعلا عليم حكيم لا يمكن أن يثني على أحد وهو يعلم أنه يرتد؛ لأنه علام الغيوب، فثناؤه على الصحابة يدلنا على أنهم يستمرون على الخير وعلى الفضل حتى يموتوا على ذلك.

وفيه صفة الحب لله ﷻ «**يحبه الله**»، وأن الله يحب من يشاء من عباده، وهو من صفاته التي تكاثرت في القرآن وفي الأحاديث، وقد أنكرها أهل البدع مثل المعتزلة والأشاعرة، فالأشاعرة يؤوِّلونها، أو يفوِّضونها وكلاهما باطل، ولكن حبه ﷻ حب يليق به ولا يشبه حب الخلق؛ لأن الشبهة التي منعت هؤلاء المبتدعة أن لا يقولوا بذلك؛ يعني: بهذه الصفة لله هو ما يعرفونه من أنفسهم أن الحب يدل علىٰ الميل إلىٰ الملائم، أو يدل علىٰ الحاجة، أو ما أشبه ذلك، وهذه صفة المخلوق، أما صفة الرب ﷻ فهي لا تشبه صفة المخلوقين، كما أنه ﷻ بنفسه لا يشبه المخلوقين، وكذلك صفاته تبع لذاته، وكذلك حب الرسول ﷺ، فإنه واجب متعين علىٰ كل مسلم ولا يحصل الإيمان إلا بذلك، وقد جاءت الأحاديث في توضيح ذلك، وبيَّن رسول الله ﷺ أن العبد يجب أن يحب رسول الله ﷺ أكثر من حبه لنفسه ومن ولده والناس أجمعين، وأنه لا يحصل له الإيمان إلا بذلك كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(١).

وفي حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٢)، والإيمان الذي أمرنا به هو الإيمان الذي ينجي من عذاب الله.

قوله: «**فبات الناس يدوكون**»: بات؛ يعني: باتوا ليلتهم، يدل هذا علىٰ اهتمام الصحابة في طلب الخير، وإن كان أصابهم ما أصابهم من التعب والإعياء من القتال،

---

(١) رواه البخاري رقم (١٥)، ومسلم رقم (٤٤).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٦٣٢).

فمع ذلك لم يبالوا بذلك بل باتوا يتباحثون كل واحد يرجو أن يكون هو الذي تدفع إليه، و «**يدوكون**» فسَّرها بأنهم يخوضون؛ يعني: التباحث والتساؤل فيما بينهم، وفيه جواز المباحثة في العلم، وإن كان عند الناس من يكشف المسألة مثل: الصحابة عندهم الرسول ﷺ إذا سألوه ورجعوا إليه كشف لهم الأمر جليًا.

وقوله: «**ليلتهم**»: يطلق عليها، ولو كان أكثر الليل أو بعضه، ولا يلزم أن يكون الليل كله.

قوله: «**فلما أصبحوا غدوا**»: يعني: ذهبوا في الغداة مبكرين.

قوله: «**علىٰ رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها**»:؛ يعني كل واحد يود ويحب أنها تدفع إليه لما ذكر من أن الله يحبه ورسوله.

قوله: «**فقال: أين علي بن أبي طالب؟**»: علي رضي الله عنه لم يكن مع الحاضرين والرسول ﷺ كأنه استبعد أن يكون علي ليس مع هؤلاء الذين حضروا عنده؛ لأنه نظر إليهم فلم يره فسأل عنه أين هو؟

وعلي رضي الله عنه تخلف؛ لأنه كان أرمد، ثم بعد ذلك لام نفسه، وقال: كيف أتخلف؟ فذهب وهو أرمد ولكنه لم يستطع الحضور لوجع عينيه، وفي هذا يقول الشارح[(١)]: وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقده أحوالهم وسؤاله عنهم في مجامع الخير. وفيه كما يقول المؤلف رحمه الله: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعىٰ[(٢)].

وقوله: «**فأخبروه أنه يشتكي عينيه**»: فيه أن الرسول ﷺ ما كان يعلم الغيب، فلهذا لم يعرف أن عليًا كان أرمدًا، وأنه لم يحضر بسبب عينيه.

(١) تيسير العزيز الحميد ص(١٠٨).
(٢) المسألة الثالثة والعشرون.

وقوله: «فأرسلوا إليه»، وفي رواية: «**فأرسل إليه فأتي به**»، وجاء أن سلمة بن الأكوع هو الذي ذهب وجاء به، كما جاء عند مسلم[١] قال: ثم أرسلني إلىٰ علي وهو أرمد، قال: فأتيت عليًا فجئت به أقوده وهو أرمد- لا يبصر لا يرىٰ شيئًا قد انطبقت عيناه من المرض- حتىٰ أتيت به رسول الله ﷺ فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية.

قوله: «فبصق في عينيه ودعا له»: تفل في عينيه من ريقه صلوات الله وسلامه عليه «**فبرأ كأن لم يكن به وجع**» كأن لم يكن في عينيه بأس، وكأن لم يصب بمرض، وقد برئ في ساعته في اللحظة التي بصق به رسول الله ﷺ، وهذه آية من آيات الرسول ﷺ، وقد جاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما رمدت منذ تفل النبي ﷺ في عيني[٢]. وجاء عنه رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله إني أرمد العين قال: فتفل في عيني، وقال: «**اللهم أذهب عنه الحر والبرد**» فما وجدت حرًا ولا بردًا منذ يومئذٍ[٣]. فهو برئ برأً تامًا ببركة تفلة الرسول ﷺ وريقه ودعاءه.

وفيه التبرك بما كان من آثار الرسول ﷺ؛ يعني: من ريقه وعرقه وما أشبه ذلك، وهذا أمر مشهور جدًا، ولكن لا يجوز أن يقاس عليه غيره لأمور منها:

أولًا: لأن قياس غير الرسول ﷺ علىٰ الرسول ﷺ قياس مع الفارق البعيد.

الثاني: أن غيره لا يؤمن عليه الفتنة من مثل هذا؛ يعني: إذا تُبرك به.

ثالثًا: أن الصلاح والتقىٰ أمر خفي؛ يعني: هو في القلب، وقد يكون الظاهر الذي يظهر للناس هناك شيء خلافه.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٨٠٧).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٥٧٩)، وعند الطيالسي رقم (١٨٩) يقول: ما رمدت ولا صدعت منذ دفع رسول الله ﷺ الراية إلىٰ يوم خيبر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٢٢) بعد أن ساق لفظه: «**ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله ﷺ وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية**» قال: رواه أبو يعلىٰ وأحمد باختصار، ورجالهما رجال الصحيح غير أم موسىٰ وحديثها مستقيم.

(٣) رواه ابن أبي شيبة رقم (٣٢٠٨٠)، وأحمد في المسند رقم (٧٧٨)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٨٤٠١)، وابن ماجه رقم (١١٧).

رابعًا: الذي هو أهم من هذا، وهو دليل واضح أن الصحابة رضوان الله عليهم أعلم بهذا الأمر فلم يفعلوه مع غير الرسول ﷺ، فما تبركوا بأبي بكر، ولا بعمر، ولا بعثمان، ولا بعلي، ولا بغيرهم، بل قصروا هذا الأمر على الرسول ﷺ، فدل على أن هذا من خصائصه ﷺ، وأن غيره لا يجوز أن يُفعل معه ذلك.

وأما قول النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث[(١)] وغيره: ففيه التبرك بآثار الصالحين واستعمال فضل طهورهم وطعامهم وشرابهم ولباسهم، فهو مردود بهذه الأمور، وفيه أيضًا سد الذرائع الموصلة للشرك، ولكونه فيه توسل بالمخلوق وغيره، ومعروف حكم سد الذرائع إذا كان هذا الأمر جائزًا بنفسه ولكن قد يكون وسيلة للمحرم فإنه يمنع لئلا يقع المحرم.

وفيه فضيلة علي رضي الله عنه وهذا من أعظم المناقب.

وقوله: «فأعطاه الراية، وقال انفذ على رسلك»: انفذ؛ يعني: امضي بعزيمة وبقوة بدون تردد وتوقف. على رسلك؛ يعني: على هيئتك مترفقًا، غير مستعجلٍ.

وقوله: «حتى تنزل بساحتهم»: الساحة: هو المتسع قرب البيوت.

وقوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام»: هذا هو الشاهد للباب، وفي رواية في صحيح مسلم: «فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأعطاه إياها وقال: **امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**، قال: فسار علي شيئًا، ثم وقف، ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[(٢)]، فقوله: «**ادعهم إلى الإسلام**» هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لأن الإنسان لا يكون مسلمًا حتى ينطق بهذه الكلمة، وهذا يدلنا

(١) شرح النووي على مسلم (٤/ ٢١٩).
(٢) مسلم رقم (٢٤٠٥) من حديث أبي هريرة.

على أن الكافر إذا كان كفره بالجحود فلا بد أن يقر بما جحد؛ لأن اليهود يقولون: لا إله إلا الله، ولكن لا يقولون: محمدًا رسول الله، وهم لا يشركون بل يعيبون على المشركين أنهم يشركون، ومع ذلك هم كفار في النار لأنهم كفروا برسول الله ﷺ.

وفي هذا الأمر دعوة الكافر وأنه يجب أن يدعى قبل القتال، فإن استجاب لله ﷻ واعتنق الإسلام فإن هذا هو المطلوب ويكف عن قتاله، وإلا يقاتل حتى يقبل الحق، أما إذا أبى فإنه يقاتل، والعلماء فصَّلوا في هذا فقالوا:

إذا كان الكافر ما بلغته الدعوة فإنه لا يجوز قتاله قبل دعوته بل يجب أن يُدعى إلى إحدى ثلاث: إما أن يسلم فيكف عنه ويُترك وبلاده، وإما أن يدفع الجزية والمسلمون يحمونه ويتركونه وماله، فإن أبى ذلك فالقتال والله ينصر من يشاء، هكذا كان الصحابة يقولون ويفعلون، هذا إذا كانت الدعوة ما بلغته، فإن الدعوة في حقه واجبة؛ يعني: أنه لا يجوز قتالهم حتى يُدعوا، وإذا كانت قد بلغتهم الدعوة فإن الدعوة في حقهم مستحبة كما في هذا الحديث؛ لأن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة فإن كثيرًا من الذين في خيبر في ذلك الوقت خرجوا من المدينة وقد سبروا الدعوة وعرفوها تمامًا، وعرفوا الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم كما أخبر الله ﷻ بذلك.

وإذا كانت قد بلغتهم الدعوة فإنه يجوز مداهمتهم بلا دعوة؛ لأن رسول الله ﷺ أغار على بني المصطلق، وهم غارون وأنعامهم تسقي على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذٍ جويرية(١). لأن الدعوة قد بلغتهم ولأنه بلغه ﷺ أنهم كانوا يجمعون له(٢).

فقوله: **«ادعهم إلى الإسلام»**: بحيث يسمعوا صوتك تدعوهم إلى الإسلام تقول لهم: أدعوكم إلى الإسلام أسلموا حتى تسلموا، اقبلوا الإسلام حتى تكونوا مثلنا هكذا كان يقول الصحابة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٥٤١)، ومسلم رقم (١٧٣٠).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٨)، والطبراني رقم (١٥٨).

وقوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه**»؛ يعني: في الإسلام، وفي هذا دليل أنه لا يقتصر علىٰ الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله فقط، فلا بد من إعلامهم بأن الصلاة واجبة، والزكاة والصوم وكذلك الحج وما يلزم لذلك.

قوله: «**فوالله**»: خبر الرسول ﷺ حق وصدق لا يمكن أن يتطرق إليه شك أو ارتياب، ومع ذلك يقسم صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الموقف موقف ترغيب وفضل عظيم، فالرسول ﷺ لا يحلف إلا علىٰ الأمور المهمة.

وفيه جواز الحلف، ولو لم يطلب من الإنسان أن يحلف إذا كان هذا فيه حض علىٰ الخير والدعوة إلىٰ الله ﷻ، وفيه تأكيد لمن قد يكون عنده شيء من التردد فإن هذا يكون مستحبًا اتباعًا للرسول ﷺ.

وقوله: «**لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»: حمر النعم: هي النوق الحمر وهي التي يُضرب بها المثل في نفاسة المال. وهي أفخر المال عند العرب وأحسنه، وهي التي يتفاخرون بها ويتنافسون علىٰ اقتنائها، فعن أبي رافع يرفعه: «**لأن يهدي الله ﷻ علىٰ يديك رجلًا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت**»[1]؛ لأن هداية رجل واحد يكون له أجر هذا الاهتداء، وأجر عمله إلىٰ أن يموت، وحسنة واحدة تكون في صحيفة العبد المؤمن أفضل له من الدنيا كلها، ومن هذا يُعلم أن قياس أمور الدنيا بالآخرة تقريبية فقط، وإلا ليس فيه قياس، فموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها[2].

يقول النووي رحمه الله: إن تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة الباقية خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها

(١) رواه الطبراني في الكبير رقم (٩٣٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٦٥٣٧).
(٢) رواه البخاري رقم (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

لو تصورت[١]. فكيف الذي يهتدي علىٰ يديه رجال كثيرون، فلربما آلاف هذا لا يمكن أن يقال له خير لك من الدنيا، هذا أمر لا يقدر بقدر يعرف، فلا يعرف فضله إلا الله ﷻ، وهذا يدلنا أنه مع وجوب الدعوة إلىٰ الله أن فيها فضلا عظيماً، كما سبق أن التوحيد مع وجوبه وفرضيته أنه يكفر الذنوب، وفيه فضل عظيم، ومعلوم أن الدنيا زائلة وما عليها، والإنسان عمره محدود فينبغي أن يختار الأمور التي تبقىٰ له ويجدها أمامه ويكون مغتبطًا بها إذا قبلها الله ﷻ، وبهذا يتبيَّن لنا أن الدعوة إلىٰ التوحيد هي أهم ما ينبغي للعبد أن يقوم به، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أمور الإسلام داخلة في الدعوة إلىٰ التوحيد ولكن يجب أن تصحح العقائد أولًا.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

لأن كثيرًا من الناس يدعو لكنه في الحقيقة يدعو إلىٰ نفسه، فهو يحب أن يكثر أتباعه ويمدح علىٰ عمله.

الثانية: أن البصيرة من الفرائض.

قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يدل علىٰ أن هذا فرض يجب أن يكون الداعي إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة في دينه مطلقًا، وأنه لا يقدم علىٰ شيء إلا علىٰ علم. والبصيرة هي العلم بدين الله بالشرع الذي جاء به الرسول ﷺ.

الثالثة: أن من قُبح الشرك كونه مسبةً لله.

وكونه مسبة لله ﷻ؛ لأن المشرك يجعل المخلوق الضعيف في منزلة الخالق.

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١٥/ ١٧٨).

الرابعـــة: وهـي مـن أهمهـا: إبعـاد المسـلم عـن المشـركين لـئلا يصـير مـنهم ولـو لم يشرك.

يعني: في المكان فلا يكون معهم في ديارهم؛ لأنه قد يقع في الشرك بالقوة، وقد يقع فيه بالتدرج وقد جاء فيه نصوص خاصة، قال ﷺ: «**إني بريء من كل مسلم يقيم بين ظهرانَي المشركين**»، قالوا: يا رسول الله ولم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»[1] إلا في سبيل الله؛ يعني: إذا كانوا يريدون أن يقاتلوهم فهذا يدل على أنه يبتعد عنهم؛ لأن المخالطة قد تدعو للموافقة.

الخامســة: كون التوحيد أول واجب.

والتوحيد: هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله خلافًا للمتكلمين.

(١) الطبراني في الكبير رقم (٢٢٦٤) من حديث جرير بن عبد الله البجلي، ورواه النسائي رقم (٤٧٨٠)، وأبو داود رقم (٢٦٤٥).

الباب السادس

قال المؤلف ﵀: «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله».

التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله المعنىٰ واحد، والعطف لأن اللفظ تغير فقط، وإلا المعنىٰ لا يتغير ولا يختلف، وشهادة أن لا إله إلا الله هي التوحيد، والذي سبق من الأبواب كلها تفسير للتوحيد، وبيان لشهادة أن لا إله إلا الله، وإنما أراد المؤلف ﵀ زيادة بيان وإيضاح؛ لأنه ابتلي في وقته بمن عنده علم ويؤلف الكتب ومع ذلك لم يفهم التوحيد، فلهذا أكثر من الأبواب في ذلك حتىٰ يتضح الأمر، ويجلو ما كان عند كثير من الناس من الأمور التي عاشوا عليها وألفوها فيما بينهم.

والتوحيد لا بد أن يكون مفسرًا واضحًا جليًا عقلًا وشرعًا، فلا يمكن إلا أن يكون هكذا، ولا بد من ذلك؛ لأن التوحيد هو الذي كلف الله ﷻ عبادة من الجن والإنس به وهو الذي يدخل أهل الجنة الجنة به ويدخل أهل النار النار بتركه، فغير معقول أن يكون هذا خافيًا لا بد أن يكون واضحًا؛ لأن الله ﷻ حَكَمٌ عدل ولا يظلم أحدًا، وأما في الشرع فالرسل كلهم جاءوا بهذا، وكل رسول أول ما يبدأ بالتوحيد، وإيضاحه، ووجوبه، وإخلاصه لله ﷻ كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم.

وتفسير التوحيد قد فسره الرسول ﷺ تفسيرًا جليًا، والله ﷻ كذلك قد وضَّحه إيضاحًا كاملًا، بحيث أنه ليس فيه لبس وليس فيه شيء من الغموض ولم يبق لأحد حجة، ولكن الأوضاع التي يتواضع عليها الناس ويعيشون عليها مع بعدهم عن لغة الرسول ﷺ وجهلهم بالمعاني التي جاءت بها الدعوة مثل: «التأله والعبادة»، وما أشبه ذلك جعل الأمر يكون فيه التباس وغموض، وإلا فالله ﷻ قد أوضحه غاية الإيضاح، وكذلك رسوله ﷺ ولم يترك فيه أي اشتباه، وقد فهمه الكفار عنه تمام

الفهم، ولهذا سيأتي أنهم لما قيل لهم: لا إله إلا الله فهموا أن المقصود أن العبادة تكون لله وحده، والمشركون قاموا علىٰ الرسول ﷺ وقالوا: بأنه عاب ديننا وشتم آباءنا، وعيب الدين وشتم الآباء هو التبري منه والكفر به، وهذا هو تفسير التوحيد، فعبادة الله وحده لا تكفي، لا بد أن يكفر بكل معبود من دونه، ولا بد من أن يتبرأ منه، ولا بد أن تقوم العداوة بين عابد الله ﷻ وعابد الأوثان، أما مصافاتهم ومؤاخاتهم فمعنىٰ ذلك أن التوحيد غير موجود.

فقوله ﵀: «**تفسير التوحيد**»؛ يعني: إيضاحه وبيانه بالكتاب والسُّنَّة وليس بكلام الناس، فلهذا اقتصر علىٰ النصوص التي فيها الإيضاح الجلي فمعنىٰ ذلك أنه موضح ومفسر، وإنما جاء الجهل من الناس هم الذين جهلوه وكثير من الناس يقرأ كتاب الله، ولا يفهمه، وهذا من القصور بل هذا من الذنوب؛ لأن الله أنزل كتابه ليُتدبر ويُفهم ويُعمل به.

لهذا نقول: ليس لأحد عذر بعد ما جاء كتاب الله، وكذلك دعوة الرسول ﷺ؛ لأن كلام الناس لا يكفي وكذلك أفعالهم لا يجوز أن تتخذ دينًا، فالمؤلف لما ذكر الأبواب السابقة التي هي وجوب التوحيد، وكذلك فضله أنه يكفر الذنوب، وكذلك الخوف من ضده الذي هو الشرك، وكذلك وجوب الدعوة إليه، أراد أن يبين هذا الأمر بيانًا واضحًا جليًا لا إشكال فيه، فعقد هذه الترجمة لأجل ذلك، وذكر أنه سيأتي تفسير هذه الترجمة فيما بعدها من الأبواب إلىٰ آخر الكتاب؛ يعني: كل ما يذكره بعد ذلك هو من تفسير التوحيد؛ لأنه إما أن يذكر ما هو واجب لله ﷻ أن يُفعل خالصًا لله، أو ما هو شرك يناقض التوحيد، أو ما هو منقص له وذاهب بكماله وهذا كله تفسير له؛ لأن من تفسير الشيء أن تذكر أضداده فيبين بها «وبضدها تتبين الأشياء»، وتفسيره الذي كلٌّ يفهمه هو البراءة من كل معبود من دون الله والكفر به وإخلاص العبادة لله، وأن تكون العبادة لله وحده، وأن كل معبود من دون الله ﷻ يجب أن يكفر به، ويعادي ويجانب كل المجانبة، هذا هو

حقيقة تفسير التوحيد، وهو التوحيد الذي جاءت به الرسل كلها من أولها إلىٰ آخرها، وليس معنىٰ التوحيد أن الإنسان يقول: لا إله إلا الله، وهو يستنجد بالمقبورين، أو أنه يُحكِّم القوانين، أو أنه يتولىٰ الكافرين، فإن هذا ليس توحيدًا في الواقع بل هو مناقض له، ولهذا لما ذكر الشيخ رحمه الله في كتابه المختصر رسالته التي جعلها في نواقض التوحيد اقتصر علىٰ عشرة نواقض وجعل منها من لم يُكفر المشركين أو شك في كفرهم، أو أنه لم يتبرأ من دينهم، فجعل هذا ناقضًا وقال إنه بإجماع العلماء[1].

وفي أيامنا هذه نسمع ناسًا كثيرًا يتبرَّمون من دعوة الشيخ ومن فهمه ومما يقرره، كأنه جاء بشيء جديد لم يُسبق إليه، وهذا من الجهل الفظيع - نسأل الله العافية - بل من الانحراف، فإنه لم يأت بشيء من عند نفسه وكل ما جاء به تقرير لما قرره رب العالمين ولما بينه رسوله ﷺ، والجهل به أمر خطير جدًا بل قد يجعل الإنسان ليس من أهل الإخلاص وأهل التوحيد، فمعنىٰ ذلك أن تفسير التوحيد واضح والإنسان إذا أحب الكفر وأهله فهو كافر، وإذا لم يكفر الكافر ويبغضه فهو كافر، كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: اتركنا علىٰ ديننا ونتركك علىٰ دينك ولا تتعرض لديننا بالشتم والسب؛ لأن هذا عندهم عيب ونتركك؛ ولأنه ﷺ أول ما جاءهم بالدعوة استحسنوها جدًا قالوا: هذا شيء حسن، ولكن لما قال لهم: إن آلهتكم هذه باطلة وأن من عبدها لا عقل له وهو في النار، جعلوا هذا سبًّا فثارت ثائرتهم، ومع ذلك اشتدت العداوة بينهم وبين الرسول ﷺ، فلو كان يدعو إلىٰ عبادة الله فقط دون محاربة الباطل وأهله ما تعارضوا معه كما يقول الكفار اليوم كل يدين بدينه، ولا فيه معاداة ولا قتال، وتصير معايشة عامة، فهذه الدعوة هي الدعوة التي كانت قريش تدعو إليها نفسها فلم يقرهم عليها رسول الله ﷺ.

(١) مجموعة رسائل في التوحيد ٢(٨/ ٥٨) قال: «الثالث: من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، كفر».

فتفسير التوحيد أنها قضية ليست سهلة فهي قضية الأنبياء كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم، فهم كانوا يعتنون به ويوضحونه للناس مع أنه واضح جلي، ولكن الأوضاع التي تواضع عليها الناس ووجدوا عليها الآباء فاستبعدوا أن يكون الذي هم عليه شركًا؛ يعني: دعوة المقبورين والالتجاء إليهم فهم يجعلون هذا عمل مطلوب، ويزعمون أنه داخل تحت قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وأن الوسيلة هي التعلق بالأموات، ففهموا هذا الفهم الخاطئ وتعاقبوا علىٰ ذلك فصار تفسير التوحيد الذي يقوله الشيخ عندهم مخالف لما هم عليه، ومخالفة الإنسان للعادة التي اعتادها هو وآباؤه صعبة جدًا، وليست سهلة، ولهذا كان الكفار يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وجدناهم علىٰ ملة وطريقة ونحن علىٰ آثارهم مقتدون، وكذلك قال كفار قريش للرسول ﷺ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] لما جاءهم بالتوحيد قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ شيء كذب فمخالفة الآباء صعبة جدًا عند الناس، ويكفي في هذا قصة الرسول ﷺ مع عمه أبي طالب عندما حاول معه أن يقبل منه أن يقول لا إله إلا الله عند الموت، وكان عنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، وهما من المشركين فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

والشيخ رحمه الله لقي في هذا من العلماء في وقته عناء وأمورًا كثيرة، فهم كانوا يقولون أنه أتىٰ بمذهب خامس ورموه بالكفر بسبب أنه جاء بالتوحيد الخالص.

ومقصوده رحمه الله بتفسير التوحيد: أن التوحيد هو العبادة وأن الإله هو التأله؛ لأنه كان فيه إشكال واشتباه والتباس علىٰ كثير من الناس، ولهذا وقعوا في الشرك، ويحتاجون إلىٰ إيضاح وتفسير للتوحيد لأمور منها:

أولًا: بُعد عهدنا عن عهد النبوة، ومعلوم أنه إذا تباعد الإنسان عن زمن الخير تضعف صلته، وهذا يختلف باختلاف الناس واهتمامهم.

ثانيًا: أن لغتنا فسدت فأصبحنا لا نفهم من الكلمات التي نسمعها من كتاب ربنا ومن قول رسولنا ﷺ لا نفهمها كما ينبغي لفساد الألسن.

ثالثًا: وهو أن التعلق بالدنيا صار أغلب وأكثر، وقد ورد عن علي رضي الله عنه وغيره: «**إن الدنيا والآخرة ضرتان**»[1]، والضرة هي الزوجة الثانية كل واحدة ضرة للأخرىٰ تضرها، أو تضارها، وإذا مال الإنسان لإحداهن ضرَّ بالأخرىٰ، هذا المعنىٰ، وليس المعنىٰ أن هذه تضر هذه؛ لأن الشرع يمنع من هذا، وأكثر الناس صار عبدًا للدنيا فأصبحت عبادتها مقدمة علىٰ عبادة الله - نسأل الله العافية - وقد قال ﷺ: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**»[2]، فسمَّاه: عبدًا للدينار، وعبدًا للدرهم بل سمَّاه عبدًا للخميصة والخميلة وهي لباس، أو فراش يوطأ بالأرجل فكيف يكون العبد عبدًا لهذه الأشياء، وليس من المعقول أنه يسجد لهذه أو يدعوها، أو يستنجد بها فليس هذا هو المراد، وإنما المراد أنه يعمل لها، فمن عمل لها فكأنما عبدها، فهذه الأشياء استعبدتْ قلبه -نسأل الله العافية-.

رابعًا: وهو عدم الاهتمام بما جاء به الرسول ﷺ، وهذا أمر ظاهر وواضح في الناس؛ لأن الإنسان إذا اهتم بشيء لا بد أن يبحث عنه، فمثلًا لو أراد الإنسان أن يبني له بيتًا فتجده يسأل من بنىٰ قبله، ويسأل الناس الذين لهم صلة بالتخطيط، أما أمور الدين فقليل من يهتم بها، وقد يكون معدومًا، وإذا أردت أن تعرف هذا جليًا فانظر حالة الناس عند الصلاة، وعند الوضوء، وعند الحج، وعند الصوم فتجد كثيرًا منهم لا يعرفون أحكامها، وكذلك العبادة والتأله خصوصًا، كثير من الناس لا يعرفون

---

(١) رویٰ هذا عن وهب بن منبه رحمه الله ولفظه: مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان إن أرضىٰ أحدهما أسخط الأخرىٰ. رواه ابن المبارك في الزهد، والعقيلي في الضعفاء رقم (١١١٢)، وعند أحمد في المسند رقم (١٩٦٩٧) عن أبي موسىٰ الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ**»، والحاكم في المستدرك رقم (٧٨٥٣) وقال: حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: فيه انقطاع.

(٢) سبق تخريجه.

حقيقتها، فليس غريبًا أن يقع الالتباس في تفسير التوحيد عند كثير من الناس.

خامسا : أضف إلىٰ ما سبق أنه وقع الخلل الكبير في تصور العبادة عند كثير من الناس حتىٰ الذين يؤلفون الكتب مثل الذي يكتب في السيرة والتفسير والفقه وشرح الحديث فالذي يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلّا قل يا زلّة القدم

فإنّ من جودك الدنيا وضرَّتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم(١)

فجعل الاستغاثة بالرسول ﷺ من أفضل الأعمال التي يرجو ثوابها -نسأل الله العافية- ثم يأتي كثير من أتباع هؤلاء ويقولون: هذا طلب الشفاعة، فلو أننا سلمنا أن هذا شفاعة فهل الشفاعة تطلب من الرسول ﷺ، بل الشفاعة تطلب من الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فهذا واضح بالقرآن فكيف يخفىٰ هذا فلا تستغرب علىٰ المؤلف رحمه الله بعد ما ذكر لنا الأبواب السابقة في إيضاح التوحيد وبيان وجوبه وفرضيته وفضله، وأن هذا أمر واضح في الكتاب والسُّنَّة أن يعقد لنا باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ولا سيما أنه قد سبق هذا الباب باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، فهل يمكن أن يدعو الإنسان إلىٰ شيء وهو لا يعرفه، فهذا يدلنا علىٰ دقة المؤلف رحمه الله، وعلىٰ

(١) هذه الأبيات من البردة للبوصيري شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري ((٦٠٨)-(٦٩٦)هـ) نسبة إلىٰ بوصير من قرىٰ بني سويف بمصر، شاعر. أغلب شعره في مديح النبي ﷺ علىٰ طريقة الصوفية. من أشهر قصائده: البردة، والهمزية، والرائية.

اهتمامه في هذا الأمر وبُعد نظره وسبره للواقع هذا الذي جعله رحمه الله يقول هذه الأشياء.

ثم تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله لا حصر له في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وذكر رحمه الله شيئًا يسيرًا جدًا منها وترك أشياء أوضح من هذه جدًا؛ لأنه أراد أن يأتي بالمختصر الذي يمكن للمبتدئ أن يدركه.

قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقبل هذه الآية قوله جل وعلا: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

«﴿ٱدۡعُواْ﴾»: أمر، وهو أمر للتعجيز والتبكيت.

وقوله: «﴿زَعَمۡتُم﴾»: بالتتبع لكتاب الله يتبيَّن أن معنىٰ زعم في كتاب الله تدل علىٰ الكذب الذي يكون خلاف الواقع مثل قوله جل وعلا: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧]، وهنا زعمتم ذلك كذبًا وزورًا علىٰ خلاف الواقع زعمتم أن لكم أولياء وأنهم لكم شفعاء، ثم دعوتموهم ويجب علىٰ العبد أن يعرف كيف كانت دعوتهم؛ يعني: كان المشركون يدعون أولياءهم من دون الله، فهل كانوا يدعونهم وهم يعتقدون أنهم شركاء لله في الخلق والإيجاد والتصرف والإحياء والإماتة؟ بل دعوتهم إياهم قد بيَّنها الله جل وعلا لنا في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وتقريب الزلفىٰ معناه الشفاعة، فكل ما جاء في مبدأ الشرك هو ذكر الشفاعة؛ يعني: أنهم يتخذون شفعاء، والشافع هو الذي يطلب؛ يعني: يضم طلبه إلىٰ المشفوع له ولهذا سُمي شافعًا؛ لأنه بعد ما كان الطالب فردًا جاءه الشافع فضم شفاعته إليه فصار شفعًا هذه حقيقة الشفاعة وهذا أصلها، وهذا معناها، فهم يدعون رجالًا صالحين سواء من الملائكة، أو من البشر، أو يدعون مخلوقات يزعمون أنها

لا ذنوب لها، إما أنهم يدعونهم علىٰ أنهم شركاء لله، أو لأن الله ملكهم شيئًا من ذلك كما يقول متأخرو المشركين من عبَّاد القبور يقول أحدهم: أنا أعرف أن الولي الفلاني لا يملك مع الله شيئًا ولكن الله ملَّكه، وأنه إذا دعي أنه يستجيب، وهذه دعوىٰ مجردة بلا دليل وكل دعوىٰ ليس عليها دليل فهي باطلة ويجب أن ترد.

ودعواهم هذه لا فائدة فيها، فإذا وقع الداعي في مرض أو ضرٍّ فالمدعو لا يستطيع أن يكشف المرض ولا أن يخففه، ولا أن يحوله من حالة إلىٰ أخرىٰ، فدعوتهم إياهم باطلة وضائعة بل خسارة وضرر محض؛ لأنها الشرك، فهذه الدعوىٰ التي ادَّعوها، الواقع يخالفها في جميع ذراته ومخلوقاته التي خلقها الله ﷻ ،كلها تدل علىٰ أن كل ما سوىٰ الله عبد مسخر مذلل لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فكيف لعبد أن يدعو عبدًا فقيرًا، بل غريقًا يتشبث بغريق، فهذا من الباطل الظاهر.

وخلاصة كلام المفسرين في هذا أن المقصود بهؤلاء الذين كانوا يدَّعون أنهم كانوا يدعون عبادًا لله يجتهدون في التقرب إلىٰ الله فهم عبيد لله فقراء لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا فضلًا عن غيرهم، وسواء كانوا من الملائكة أو من الرسل، أو من الجن الذين أسلموا وكان المشركون يدعونهم قبل إسلامهم كما هو واضح في كتاب الله ﷻ في سورة الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس علىٰ شركهم يدعون أولئك، وهم يجتهدون في دعاء الله ويتقربون إليه خوفًا من عذابه ورجاء لثوابه، وكذلك إذا كان المدعو مثلًا: الشمس، أو القمر، أو النجوم، أو حتىٰ الشجر، فإنها مسخرة طائعة لله تطيع الله وتخاف الله ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وكل ما في السموات والأرض يسبح لله ويعبده، وإنما الكفر والإباء والتولي من بني آدم ومن بني الشيطان فقط، أما بقية المخلوقات فهي ذالة لله تعبده، فكل معبود يُعبد من دون الله هو يخاف الله ويخاف عذابه، ولكن الحجارة والشجر والأماكن وغيرها من الجبال والشمس والنجوم والقمر هذه لم يُجعل لها عقول، وتكلف بالعبادة التي كُلف بها بنو آدم وإنما هي مسخرة لأمر الله سائرة بأمره

مطيعة له طاعة كونية، وكذلك لا تعصيه في شيء، وإنما الذين رُكبت فيهم العقول وجعلت لهم القدرة علىٰ تنفيذ الأمر والقيام به واجتناب النهي وخلقت لهم الجنة والنار هم بنو آدم، وكذلك بنو الشيطان، فلهذا أخبر الله ﷻ أنه سوف يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين فقط من عصاتهم الذين أبوا أن يعبدوا الله ﷻ.

وقوله: «﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾»؛ يعني: إذا أصابكم ضر فالذين تدعونهم من دون الله لا يملكون أن يكشفوا هذا الضر فلا يستطيعون أن يزيلوا المرض الذي وقع فيكم، أو أذىٰ الكفار، أو غير الكفار ولا يستطيعون تحويله، أو رده أو صده، والتحويل معناه أنهم لا يحوِّلونه إلىٰ غيركم، أو لا يحوِّلونه من كونه شديدًا إلىٰ أن يكون قليلًا، أو ضعيفًا، فهم لا يملكون شيئًا كما قال ﷻ في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، فأخبر أنهم لا يملكون قطميرًا ولا يملكون أقل شيء فهم ضعفاء والداعي لهم يكون ضالًّا مع شركه واستحقاقه لعقاب الله ﷻ وعذابه.

وقوله: «﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾»؛ يعني الذين زعموا، فإذا كان هذا من معينين سواء كانوا من الملائكة، أو من الأنبياء؛ لأن عبادة الأنبياء وقعت من بعض الناس كعبادتهم لعيسىٰ ولأمه وعزير وغيرهم، أو كان المعبود جنًّا، ثم أسلموا وتبرؤوا من العبادة، ولكن الذين كانوا يعبدونهم قبل إسلامهم استمروا علىٰ دعوتهم وعبادتهم، والعبادة هي دعوتهم وجعلهم وسطاء بينهم وبين الله يطلبون منهم الشفاعة، أو المساعدة، أو المدد في أمر من أمور الدنيا الغيبية، وأمور الآخرة في الشيء الذي لا يقدرون عليه، أو أنهم غائبون مطلقًا فإن كان غائبًا فإن دعاءه بأي شيء، وإن كان قادرًا عليه لو كان حاضرًا فإنه يكون من الشرك، نقول هؤلاء كلهم يتقربون إلىٰ الله بطلب النجاة من عذابه، والسلامة والفوز برحمته وكرامته؛ يعني: هؤلاء الذين

يُدعون من دون الله ﷻ.

وقوله: «﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾»: الوسيلة هي القربىٰ؛ يعني: العمل الذي يقربهم. والوسيلة في اللغة هو الشيء الذي يوصلك إلىٰ المقصود. فالطريق المسلوك يسمىٰ وسيلة، إذا سلكت طريقًا واضحًا معبدًا فهو وسيلة يوصلك إلىٰ ما تريد بسلوكه، والحبل المدلىٰ في البئر يسمىٰ وسيلة. فالوسيلة إذن السبب، فالعبادة وسيلة إلىٰ حصول المطلوب.

والمطلوب من الله هو الثواب والوقاية من العذاب هذه هي الغاية، والوسيلة العبادة والقربىٰ بالأعمال الصالحة، فهؤلاء يطيعون الله بامتثال أمره واجتناب نهيه وهذه هي الوسيلة يريدون الغاية والغاية أن يُنيلهم الثواب ويقيهم العذاب، وكل واحد يود أن يكون أرفع من الآخر، وهذا مطلوب شرعًا فإن الله يقول: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وهذه ليست في الدنيا بل في الدرجات عند الله ﷻ، فالتنافس معناه كل واحد يُنافس الآخر لعله يسبقه في هذا الشيء وهؤلاء الذين يبتغون الوسيلة أيهم أقرب فسَّر هذا بقوله: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وهذان مبنىٰ العبادة فهي مبنية علىٰ الخوف والرجاء لا بد أن يكون خائفًا راجيًا، فالرجاء يقود الإنسان إلىٰ فعل الطاعة والخوف أيضًا يسوقه، فيجب أن يكون هذا هو الذي يتحلىٰ به الإنسان خائفًا راجيًا فالعبادة لا تقع إلا بهذا، ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري(١)، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن(٢). ولهذا كان من وصف الرسل: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) نسبة إلىٰ حروراء: موضع في العراق وهي تجمع الخوارج الأوائل فيه، والخوارج هم الذين يكفرون بالذنوب.

(٢) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (٣/ ٢٣٨).

فالمقصود أنه بيَّن ﷻ أن هؤلاء الذين يُدْعَونَ من دون الله لأجل الشفاعة أنهم يدعون ربهم مجتهدين ممتثلين أمره مجتنبين نهيه يخافون عذابه ويرجون رحمته، فهم مشغولون في طلب التقرب إلىٰ الله ﷻ عن دعوة هؤلاء الذين يدعونهم غافلون عنهم كما قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]؛ لأنهم لا يعلمون بعبادتهم إلا إذا حشر الناس وجمعوا معهم، وقيل لهم هؤلاء عبيدكم الذين كانوا يدعونكم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] فيتبرؤون منهم ويكفرون بهم: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤١]، والجن هم الشياطين التي دعتهم إلىٰ هذه العبادة.

ووجه تفسير التوحيد في هذه الآية أن الشيء يتبين بضده كما قيل: «وبضدها تتبين الأشياء»، ففي هذه الآية بيان شرك المشركين الذين يدعون غير الله وببيان الشرك يتبين التوحيد فالإخلاص الذي أمر الله به أن دعاء الله وحده خوفًا ورجاء هو التوحيد وهو معنىٰ لا إله إلا الله؛ لأن الله بيَّن أن شرك المشركين أنها دعوة مخلوق وذلك المخلوق غافل عما يدعىٰ إليه، وإذا قدر أنه ليس غافلًا فيكون كارهًا، وإذا كان راضيًا فهو طاغوت بل رئيس من رؤساء الطواغيت، فهؤلاء المدعوين عباد فقراء لله ﷻ يتسابقون بطاعة ربهم أيهم أقرب إليه، وأيهم الذي يحظىٰ برضاه وأرفع درجة من الآخر هم مشغولون بهذا فكيف يُدعون، وكيف العبد الضعيف المفتقر يُدعىٰ مع الله أليس هذا انتكاس في العقل، وفي الفطر، وفي الشرع؟ وكل هذا واقع، وبهذا صار جزاء هذه الدعوة أن صاحبها خالد في النار - نسأل الله العافية - لأنه أسوأ حال من أي مخلوق كان عند الله، وهذا جهل في حق الله ﷻ، وكذلك تنقص لله تعالىٰ كيف المخلوق الضعيف يُجعل نظيرًا لله -تعالىٰ وتقدس-، وذلك أن الشرك تشبيه المخلوق بالخالق هذه هي حقيقة الشرك وذلك بأن يُجعل لهذا الضعيف شيئًا مما هو من خصائص الخالق من العبادة.

قال المؤلف رحمه الله: وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

إبراهيم عليه السلام أول مَن تبرأ مِن أقرب الناس إليه، وقال بعضهم: إن الولاء والبراء ليس لازمًا، يقولون: لأن إبراهيم استغفر لأبيه وأنه دعاه، وأنه كذا وكذا، يقولون هذا ويغفلون عن مثل هذه الآية؛ لأنهم ينظرون بعين عوراء بل ينظرون إلىٰ الباطل ولا يريدون الحق، والعادة أن سُنَّة الله جل وعلا أن الإنسان إذا كان قصده الباطل أن الله يُعميه ويزيغ قلبه وأنه يقلب الأمور أمامه بحيث يرىٰ الباطل حقًا والحق باطلًا، ويصبح الباطل محبوبًا له والحق مكروهًا إليه، فإذا كان بهذه المثابة فقد استحكم ضلاله.

وقوله: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾»: البراء هو الخلاص من الشيء والبعد عنه؛ يعني: أنه بعيد عنهم وعن عبادتهم، وأنه مبغض لهم وكاره لهم ومحارب لهم ومعادٍ لهم، فإبراهيم عليه السلام تبرأ منهم وتبرأ من معبوداتهم كذلك، فهذا التبرؤ الذي يدل علىٰ الكفر بهم وعداوتهم وبغضهم ومحاربتهم هو ركن التوحيد، والركن الثاني: أن تكون العبادة خالصةً لله جل وعلا.

فالتوحيد له ركنان:

الركن الأول: الكفر بالطواغيت وبغضها ومعاداتها أشد المعاداة.

والركن الثاني: عبادة الله وحده، تكون العبادة له وحده، ولهذا قال جل وعلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكل ما هو عبادة لغير الله فهو طاغوت سواءً كان معبودًا يُسأل، ويُرجىٰ، ويُخاف، أو كانت تنفذ أحكامه، ويُطاع في معصية الله، وسواءً كان عاقلًا، أو كان معنىً من المعاني فإنه طاغوت، ويكون فاعل ذلك مشركًا بالله جل وعلا، فقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا

تَعۡبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] هو أمر لنا بأن نسلك مسلك إبراهيم ﷺ، وأن نتبرأ من كل عابد ومعبود غير الله ﷻ، نتبرأ من المعبود ومن عابده، والبراءة معناها الكفر به ومعاداته ومحاربته وبغضه حسب الاستطاعة.

وقوله: «﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾»: فطرني؛ يعني: خلقني، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ يعني: خالق السماوات، فاستثنىٰ من المعبودات فاطرها؛ يعني: خالقها، وهذا يدلنا علىٰ أن قومه يعبدون الله ولكن يعبدون معه غيره من الأصنام كما ذكر الله ﷻ عنهم في قصة إبراهيم في مواضع من كتابه ﷻ.

وقوله: «﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾»؛ يعني: بالكلمة الباقية هنا التبرؤ، والاستثناء كونه تبرأ من المعبودات، ثم استثنىٰ فاطرها وهو الله؛ يعني: يدل علىٰ أن هذا هو معنىٰ لا إله إلا الله وأنه عبَّر عن الكلمة بمعناها، ولهذا الكثير من السلف فسروا ذلك بكلمة لا إله إلا الله(١)، قالوا هذا هو معنىٰ لا إله إلا الله؛ لأن قوله: «لا إله»؛ يعني: الكفر بكل إله دون الله، وقوله: «إلا الله»؛ يعني: التأله يكون له والعبادة له وحده، هذا قول إبراهيم ﷺ، ولهذا يقولون أن هذه الآية تفسر لا إله إلا الله، وهو ما أراده المؤلف فهي تفسير لا إله إلا الله فمعنىٰ تفسير لا إله إلا الله البعد عن الشرك ومعادته، وكذلك المشرك فلا بد من التبرئ من الشرك ومن المشرك، وإخلاص العبادة لله وحده فهذا هو تفسير لا إله إلا الله، وهذا كما قلت إنه واضح في كتاب الله في آيات كثيرة، ومن أوضح ذلك وأبينه قول الله ﷻ في دعوة الرسل كما في قصة هود ﷺ مع قومه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٥) قال: وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم ﷺ. وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. ورُوي نحوه عن ابن عباس.

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]؛ يعني: أن نترك ما يعبد آباؤنا؟ فهذا معناه ترك عبادة ما كانوا يعبدونه ويعبده آباؤهم، واجتنابه والبعد عنه، وكل الأنبياء يقولون لأممهم هذا، وأممهم فهمت ذلك فقد بينه الله ووضحه، ولكن الأمر الذي يتعجب منه العاقل كيف مع هذا البيان، وهذا الإيضاح في كتاب الله تجد بعض طلبة العلم فضلًا عن غيرهم يقعون في الشرك الصريح الذي هو مناقض لهذا البيان وهو كونهم يدعون الأموات ويتقربون إليهم بالنذور والدعوات ويسألونهم تفريج الكربات ويزعمون أنهم يملكون كشف الضر وجلب النفع، ولا يزال هذا موجودًا في كثير من البلاد الإسلامية، والدعوة إلىٰ هذا الشرك جادة وقائمة، ولكن الشرك والوثنية لُبِّست ثيابًا جديدة غير الثياب القديمة حتىٰ تلتبس علىٰ الناس، وليست هي التي لبست ولكن أُلبست من قبل النصارىٰ واليهود والمتنصِّرين والمتهوِّدين من جميع الناس، والأمر في هذا خطير جدًا لأن دعوتهم الآن صارت تنشر وتقرر وصار لها رموز وصار لها أناس يدافعون عنها بل دول تدافع عنها وتدعو إليها مع وضوح الأمر وجلائه، فالمقصود أن هذه الآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله وغيرها من الآيات كثيرة فيها من إيضاح التوحيد وبيانه وتفسير لا إله إلا الله ما لا عذر لأحدٍ بجهله.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالىٰ:** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

قوله: «﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾»: الضمير هنا عائد علىٰ اليهود والنصارىٰ. والأحبار هم العلماء واحدهم حبر نسبة للحبر الذي يُكتب به؛ لأن مبدأ العلم الكتابة، ولهذا يقول جل جلاله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤] أول التعليم يكون بالقلم، وكله يكون بالقلم، فلهذا قيل: أحبار لمن كان عالمًا؛ لأنه تعلمه بالكتابة.

وأما الرهبان فهم العباد. والأحبار الغالب عليهم أنهم يهود، والرهبان الغالب عليهم أنهم نصارىٰ، فاليهود علماء ولكنهم قساة القلوب يخالفون ما يعلمون ويكفرون بذلك، والرهبان النصارىٰ عبَّاد ولكنهم ضُلال، ولهذا أمرنا الله ﷻ أن نسأله أن لا نكون من هؤلاء ولا من هؤلاء في كل ركعة من ركعات الصلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، المغضوب عليهم العلماء الذين خالفوا ما علموا، والضالون الذين يتعبدون بضلالات ليس بالاتباع ولا بالشرع.

والمقصود أن الآية قد فسرها رسول الله ﷺ، فعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك**» فطرحته، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة فقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ حتىٰ فرغ منها فقلت: إنا لسنا نعبدهم فقال: «**أليس يحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتستحلُّونه؟**»، قلت: بلىٰ، قال: «**فتلك عبادتهم**»[1]، وهذا هو مقصود المؤلف ﵀؛ يعني: أن طاعة مخلوق في معصية الله يكون اتخاذًا له إلهًا ونقضـًا للتوحيد، وأن هذا ينافي كلمة لا إله إلا الله كلمة الإخلاص، وهذا أيضًا من التفسير، وطاعة المخلوق في المعصية يكون شركًا بالله ﷻ فهو من تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا أمر الله ﷻ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ. فمعنىٰ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول ﷺ بالمتابعة لا بد من ذلك أن يفرد الله ﷻ بالطاعة، ولهذا كثير من العلماء يفسر الإله بالمعبود المطاع، فالإله: هو المعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقًا في ذلك فقد عبده، فلهذا جعل هذه الآية تفسيرًا للتوحيد كما هو ظاهر.

---

(١) الطبراني في الكبير رقم (٢١٨)، والبيهقي رقم (٢٠٨٤٧)، والترمذي رقم (٣٠٩٥).

✍ **قال المؤلف** ﵀: **وقوله تعالىٰ**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهذا أيضًا نوع آخر من أنواع تفسير التوحيد، فالآية التي قبلها في الطاعة وأن الطاعة تكون لله ولرسوله ﷺ فقط، ولكن طاعة الله عبادته أن يعبده ويتبع أمره، ويجتنب نهيه، وطاعة الرسول ﷺ بما جاء به من عند الله ﷻ أن يطاع ويتبع، وأن لا يعبد الله إلا بالشرع الذي جاء به وأن الشرع متوقف علىٰ مجيء الرسول ﷺ، وأما هذه فهي في المحبة؛ يعني: أن يكون الحب لله وحده.

وقوله: «﴿أَندَادًا﴾»: الأنداد هي الأمثال والنظراء ولو في وصف، أو معنىٰ من المعاني وليس في كل شيء، ولهذا لما قال رجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال له: «**أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده**»[(١)]، فالأنداد الأمثال والنظراء والشبهاء الذين يتشبهون بالله ﷻ، فهذا في حقه، أما في خصائصه فهذا لا يستطيعه أحد ولكن قد يدعي مدعٍ.

وقوله: «﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾»؛ يعني: حب التأله والتعبد كمحبة الله؛ يعني: الحب الذي فيه الذل والخوف، وفيه التعظيم؛ أي: يحبون تلك الأنداد هذه المحبة فهم سوَّوا بين الله وبين أندادهم بالحب، فهذا هو الشرك، فمعنىٰ ذلك أن الحب يجب أن يكون خالصًا لله وأن لا يكون شيئًا منه لغير الله، فمن أحب مع الله غيره فقد أشرك، وهذا ضد لا إله إلا الله، ضد التوحيد، وبضدها تتبين الأشياء، ولهذا يقول المؤلف في المسائل:

فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة؛ وبيَّنها بأمور واضحة ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله؛ فدل علىٰ أنهم يحبون الله حبًا عظيمًا

(١) سبق تخريجه.

ولم يدخلهم في الإسلام. فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟[١]، فمثل هذا يكون بعيدًا كل البعد عن التوحيد، ومراده رحمه الله: أن معنىٰ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو إفراد الله بأصل الحب الذي يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلىٰ قدر التفاضل في هذا الحب يتفاضل الناس في التوحيد، وفي منازلهم عند الله جل وعلا.

✍ **ثم قال** رحمه الله: **وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال**: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله عز وجل**»[٢].

قوله في الصحيح؛ يعني: صحيح مسلم، وهذا الحديث عن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه عن أبيه عن النبي ﷺ، وأبو مالك الأشجعي اسمه سعد بن طارق كوفي ثقة، مات في حدود الأربعين ومائة.

قوله: «**من قال: لا إله إلا الله**»؛ يعني: أنه لا بد أن ينطق بهذه الكلمة، ولا بد من اعتقاد معناها ولا بد من العمل بما دلت عليه.

وقوله: «**وكفر بما يعبد من دون الله**»؛ يعني: من عبد الله وحده وكفر بما يعبد من دون الله فتكون عبادته خالصة لله جل وعلا ومع ذلك لا بد من أن يكفر بكل معبود يعبد من دون الله، والكفر بالمعبود هو معاداته وبغضه والبراءة منه والبعد عنه، لا بد من ذلك وإلا لا يكون العبد موحدًا، فالأمر ليس مجرد قول، أو مجرد علم يكون بالقلب، فلا بد من القول ولا بد من العمل، ولا بد من العقيدة، وهذا يدلنا علىٰ دقة تعبير السلف أهل السُّنَّة الذين عبَّروا عن الإيمان قالوا: إنه مركب من أمور ثلاثة من القول ومن العمل ومن الاعتقاد، وهذه الأمور الثلاثة عبارة عن الإيمان، وإذا تخلف واحد منها فإن العبد لا يكون مؤمنًا، والإيمان هو كون الإنسان يعبد الله

(١) المسألة الرابعة.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٣).

وحده وهو معنىٰ قول لا إله إلا الله، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله**»، فمنطوق الحديث يدلنا علىٰ أنه لو أعتقد أن الإله هو الله وحده ولكن لم يتكلم ولم ينطق بهذه الكلمة، ولم يشهد بذلك فإنه يكون كافرًا من أهل النار، وكذلك لو أنه عمل بمعنىٰ لا إله إلا الله، ولكنه لم ينطق بها فإنه لا يكون مؤمنًا، وكذلك لو نطق وعمل بمدلولها، ولكنه لم يكفر بما عُبد من دون الله فإنه لا يكون مؤمنًا بل يكون كافرًا، ولهذا لما ذكر المؤلف رحمه الله نواقض الإسلام جعل بإجماع العلماء أن من لم يُكفر الكفار، أو صحح دينهم، أو رأىٰ أنهم يسعهم ذلك فإنه كافر بالإجماع(١)، واستدل بمثل هذا الحديث ونحوه، والحديث واضح في هذا؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله**»، فقوله: «**كفر**» مع قوله: «**لا إله إلا الله**» لا بد منه.

وقوله: «**حرم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله**»؛ يعني: أن العبد إذا لم يقل: لا إله إلا الله، ولم يكفر بما يعبد من دون الله فإنه حلال الدم والمال يقتل كافرًا، ويسبىٰ ماله وكذلك ولده ونساؤه.

وقوله: «**وحسابه علىٰ الله**»؛ يعني: أن من قال ذلك في ظاهره وكفر بما يعبد من دون الله في الظاهر فالباطن إلىٰ الله، إن كان قوله وعمله ظاهرًا وباطنًا، فهذا المسلم ظاهرًا وباطنًا وسوف يَجزيه الله جل وعلا ويكرمه، أما إذا كان هذا مجرد ظاهر فهذا أمره إلىٰ الله والله سيتولىٰ حسابه، ويدخل في هذا المنافق الذي يقول: لا إله إلا الله، ويكفر بما يعبد من دون الله في الباطن أما في الظاهر فيظهر موافقة لأهل الإيمان حتىٰ يكون معهم ويسلم من سيفهم ويُحرز ماله ودمه، لكن أمره إلىٰ الله وحسابه عليه وسوف يجزيه جزاء المنافقين، فهذا أيضًا تفسير للا إله إلا الله وللتوحيد،

---

(١) موسوعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٠/ ١٧٠) قال: الثالث: من لم يكفّر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، كفر إجماعًا.

فبهذا تبين أن التوحيد هو عبادة الله بالإخلاص له وحده والبراءة من كل معبود سواه، والكفر به والتبري منه، وبدون ذلك لا يكون الإنسان موحدًا.

قال المؤلف ﷺ: فيه مسائل:

«فيه أكبر المسائل وأهمها وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة وبيَّنها بأمور واضحة:

منها: آية الإسراء: بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر».

يعني: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ يعني: أن المدعوين يدعون الله ويخلصون الدعوة لله، فهم عبيد فقراء إلىٰ الله ﷻ فكيف أنتم تدعون عبيدًا فقراءَ وهم يتقربون إلىٰ الله يعملون الأعمال كل واحد منهم يريد أن يسبق أخاه إلىٰ رضىٰ الله بما أمره الله به فإذًا تكون الدعوة؛ يعني: دعوة هؤلاء شرك والتوحيد تفسيره بذكر ضده فإنه بضدها تتبين الأشياء.

وقوله: «ففيها بيان أن هذا من الشرك الأكبر»؛ يعني: أن الذين يتوسلون بالأموات ويطلبون منهم النفع ودفع الضر أنهم مشركون الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة بيَّن فيها: «أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وبيَّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية لا دعاؤهم إياهم».

والأحبار هم العلماء والرهبان هم العبَّاد، ووضح في الأمر أنها ليست عبادة وإنما هي مجرد طاعتهم في المعصية، أطاعوهم فيما أمروهم به فصارت عبادة لهم وليست سجود ولا ركوع، وإنما هي طاعة المخلوق في معصية الله ﷻ، فإذا أطيع المخلوق في معصية الله ﷻ فهذا يكون شركًا في الطاعة.

❁ **ومنها قول الخليل** ﵇ **للكفار:** ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، **فاستثنىٰ من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال:** ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

يعني: أن قوم إبراهيم ﵇ كانوا يعبدون الله ولكنهم كانوا يعبدون معه غيره فهذا هو الشرك، وهذا تفسير التوحيد وبيانه، ولهذا لما تبرأ منهم وتبرأ من معبوداتهم استثنىٰ الله ﷻ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ومعنىٰ فطرني: خلقني؛ لأن الفطر هو إيجاد الشيء بلا سابق عمل آخر يمكن أن يُقتدىٰ به.

فقال: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾»: **فقوله:** «﴿تَعۡبُدُونَ﴾» دخل فيما يعبدونه أصنامهم والله ﷻ، فهم يعبدون الأصنام ويعبدون الله ﷻ، فتبرأ من الأصنام واستثنىٰ مما عبدوا ربه فخرج رب العالمين فإنه يعبده قومه عبادة غير خالصة جعلوا من عبادتهم للأصنام نصيبًا ولله نصيبًا ، وهذا هو معنىٰ الشرك، أما أن يكون من الناس من يعبد الصنم فقط فهذا لم يوجد، فالشرك هو عبادة الله وعبادة غيره معه والإخلاص هو أن تكون العبادة لله وحده.

وقوله: «﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾» هذا تعبير عن كلمة التوحيد بالمعنىٰ، فالآية عبَّر عنها بالمعنىٰ، وقوله: «**جَعَلَهَا**»؛ يعني: هذه الكلمة التي عُبر عنها بهذا المعنىٰ ويفسرونها بقولهم: لا إله إلا الله جعلها باقية في ذريته، وذريته كان فيهم الأنبياء وورثة الأنبياء إلىٰ أن تقوم الساعة، لا بد أن يبقىٰ فيهم من يعبد الله ﷻ

وقوله : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، تبرأ من الشرك واستثنىٰ الله تعالىٰ من المعبودات والبراءة منها هو معنىٰ قوله: «**لا إله إلا الله**»، ولهذا فالمقصود أن هذه الآية توضح التوحيد وتبينه، وهو معنىٰ التفسير.

۞ **ومنها** آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، **ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل علىٰ أنهم يحبون الله حبًا عظيمًا، ولم يُدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله، وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟.**

آية البقرة هي قول الله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ الند: هو المثيل والنظير ولو بصفة من الصفات أو فعل من الأفعال، فإذا جعل للمخلوق شيئًا مما هو لله فيصبح المخلوق ندًّا كما قال ﷺ للذي قال له: «ما شاء الله وشئت» قال: «**أجعلتني لله ندًّا**»؛ يعني: جعلت مشيئة المخلوق مشاركة لمشيئة الخالق بالفعل فيكون ذلك تنديدًا، فالند هو المشارك في الشيء، أو الذي أعطىٰ صفة من صفات الله ﷻ، والحب المقصود به حب الذل والخضوع الذي يقترن به التعظيم، فهذا لا يجوز أن يكون لغير الله ﷻ، وبعضهم يفسره بحب السر؛ يعني: الحب الغيبي الذي يكون في القلب يتضمن طلب نفع، أو دفع ضر هذا هو الشرك، فإذا جُعل هذا الحب لغير الله فهو الشرك الأكبر، وشرك المحبة نوع من أنواع الشرك؛ لأن الشرك أقسام منها:

شرك الدعوة كما في الآيات التي فيها: أن المشركين إذا ركبوا في البحر وعصفت بهم الريح دعوا الله مخلصين له الدين وإذا سلموا ونجوا عادوا إلىٰ شركهم كما قال ﷻ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

شرك النية والإرادة والقصد كما قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

شرك الطاعة كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

شرك الحب كما في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله في سورة الشعراء في ذكر كلام أهل النار وهم فيها: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] يخاطبون الذين كانوا يشركونهم مع الله يقولون: والله إن كنا لفي ضلال بيِّن إذ نسويكم برب العالمين، وهو لم يسويهم برب العالمين في الخلق والفعل والتصرف والإحياء والإماتة وغير ذلك ما أحد من الخلق فعل هذا ولكن سوَّوهم به في الحب فقط، حب الذل والخضوع، الحب الذي هو التأله يجب أن يكون خالصًا لله ﷻ ولا يجوز أن يكون للمخلوق منه شيء، فإذا صار للمخلوق منه شيء فإنه الشرك الأكبر.

يقول الشيخ: إن هذا يفسر التوحيد وذلك أن كثيرًا من الناس يأتي إلىٰ صاحب القبر فيتضرع عنده يقول: يا فلان يا سيدي أنقذني من كذا، أو اشفع لي، أو أعطني كذا وكذا، وما أشبه ذلك ويخضع له ويذل ويستكين قلبه، فهذا شرك أكبر إذا مات عليه الإنسان كان من أهل النار الخالدين فيها، وإن كان يصلي ويصوم ويحج ويتصدق لا ينفعه هذا مع هذا الشرك.

۞ ومنها قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله»، وهذا من أعظم ما يبين معنىٰ لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع.

وهذه قضية كبيرة جدًا يجب أن يتنبه لها، وهو أن الكفر بالطواغيت لا يمكن أن يكون التوحيد مستقيمًا إلا به، كما قال ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والطاغوت كل ما عُبد من دون الله، أو كل ما صد عن عبادة الله، أو كل من دعا إلىٰ عبادة غير الله فهو طاغوت، فهنا يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وكفر بما يعبد من دون الله**» هذا من باب التفسير والإيضاح.

وقوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**»: يكفي إذا فهم العبد ذلك؛ لأنه يدل علىٰ أنه لا بد من الكفر بالطاغوت، **فقوله:** «**لا إله**» نفي مطلق ينفي أن يكون هناك مألوه غير الله، ومعنىٰ هذا النفي هو إبطاله والكفر به؛ يعني: بالآلهة الموجودة غير الله، **وقوله:** «**إلا الله**» إثبات التأله لله وحده، إذن **قوله:** «**وكفر بما يعبد من دون الله**» من باب الإيضاح والتفسير حتىٰ لا يكون للإنسان تعلق في شيء أو عنده تردد في هذا الأمر، وكان الرسول ﷺ يوضح الكلام غاية الإيضاح.

قال الشيخ ﵀: لو أن الإنسان وقع منه التوحيد؛ يعني: صار لا يعبد إلا الله ولكنه لم يكفر بما يعبد من دون الله ما يحرم ماله ولا دمه، كذلك إذا قال: «**لا إله إلا الله**» مجرد قول لا يكفي، فلا بد أن يضيف إلىٰ قول لا إله إلا الله العمل في القلب وفي الجوارح، وعمل القلب أن يعتقد بطلان ما يُعبد من دون الله ويبغضه ويكرهه غاية الكراهة، والعمل أن يعمل علىٰ البعد عنها وقتال أصحابها ومجاهدتهم باليد واللسان والفعل إذا أمكن، ولهذا جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١)، فالمقصود أن هذا من الأمور الواضحة التي توضح شهادة أن لا إله إلا الله، وهو جَعَلَ هذا الباب أصلًا يُبنىٰ عليه كل ما بعده من الأبواب.

---

(١) رواه مسلم رقم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وقوله: «**فيا لها من مسألة ما أعظمها..**»: لكن هذا لمن يفهم ذلك يكون واضحًا وحجة عنده، أما المغالط والذي غطىٰ علىٰ قلبه، أو نكس علىٰ فهمه فأصبح الباطل عنده حقًا والحق عنده باطلًا فلا يكون ذلك واضحًا لديه.

✍ **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول:** «**وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**».

وما بعدها فيها ذكر العبادات وأنواعها، وفيها ذكر ما يضاد لا إله إلا الله سواء كان يضاده مضادة تامة، أو أنه يذهب كماله، أو ينقصه، ينقص أصله ولا يذهب بأصله، وإنما يذهب بأجزائه؛ لأن في ذكر الأضداد بيان لما أريد وذلك أن الذي لا يعرف الشرك ولا يعرف أنواعه يقع فيه وهو لا يدري، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم لما كانوا واقعين في الشرك قبل دخولهم في الإسلام ويعرفون حقائقه وأنواعه صاروا من أعظم الناس تمسكًا بالتوحيد وبعدًا وكراهيةً لضده، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتدري متىٰ تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة؟ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وكان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه. ففيه أن الإنسان يتعرف علىٰ الشر؛ لأن الذي لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه، وهو لا يدري، أو أقل حاله أنه لا ينكره وإنكاره واجب، فينكره ويكرهه.

الباب السابع

✍ **قال المؤلف رحمه الله: باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.**

أطلق أنه من الشرك بدون تعيين نوعه هل هو من الأكبر أو الأصغر.

قوله: «لبس»؛ يعني: كل ما لبس علىٰ هذا الشكل وسواءً جعل في الرأس، أو في الرقبة، أو في البدن، أو في الجيب أو غير ذلك فهو لبس.

«**الحلقة والخيط ونحوهما**» هذا مثال، فكل ما كان علىٰ هذه الصفة سواءً كان من الخيوط، أو من الخرق، أو غيرها مثل السلاسل سواءً من الذهب، أو الفضة، أو النحاس التي توضع الآن أو غيرها فهي مثل ذلك. والحديد والصفر والنحاس ما له في نفسه نفع في مثل هذه الأمور وليست أسبابًا، وليست علاجًا، وإنما هذا حسب ما يتوهم الإنسان، والتوهم قد يكون مرضًا، فإذا فعل ذلك زال ذلك التوهم أو شيء منه، فيصبح وهمه كأنه شيء حقيقي، وهو ممنوع من أجل أن القلب يتعلق به.

قوله: «**لرفع البلاء**»: رفعه بعد حصوله سواءً رفع بالكلية أو جزئيًا. والبلاء مطلق؛ يعني: من حمىٰ أو عين، أو جني أو ما أشبه ذلك، فالبلاء يقصد به كل مضر وكل مؤلم سواءً نفسيًا أو بدنيًا.

قوله: «**أو دفعه**»: الدفع يكون قبل نزوله وقبل الحصول؛ كالذي يُعلق التمائم خوفًا من الجن أو خوفًا من عين الإنسان، أو ما أشبه ذلك، فهذا يفعل ذلك لدفعه ولمنعه أن يحصل. والله جل وعلا هو الفعال لما يريد، وهو الذي يتصرف في الكون كله، ولكنه جعل أسبابًا لكل شيء، وإذا عُرفت الأسباب وعُرف أن الله جل وعلا جعلها أسبابًا فلا يجوز تعطيلها.

وإذا كان وضع هذا الشيء لأجل رفع أو دفع البلاء، فقد وقع في الشرك، ولكن هذا الشرك هل هو من الشرك الأكبر أو من الشرك الأصغر؟

ذكره للآية يدل علىٰ أنه من الشرك الأكبر، ولكن سيأتي في المسائل أن هذا من الشرك الأصغر، وهذا يختلف باختلاف المقصد والنية، فإذا كان الإنسان لبس هذا الخيط أو الحلقة معتقداً أنها تؤثر في نفسها فهذا من الشرك الأكبر، وإن اعتقد أن الله جعلها سببًا لذلك فهذا من الأصغر.

وفي قصة ابن مسعود لما دخل علىٰ زوجته ذات يوم فتنحنح قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير فدخل فجلس إلىٰ جنبي فرأىٰ في عنقي خيطًا قال: ما هذا الخيط؟ قلت: خيطًا رقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك**» قالت: فقلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلىٰ فلان اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقيتها كف عنها إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «**أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا**»(١)، فالشيطان يأتي إلىٰ الإنسان فيؤذيه في ذلك حتىٰ يقع في الشرك، فإذا وقع الشرك أزال عنه ذلك حتىٰ يبقىٰ مشركًا.

وليس كل شيء يحصل به نفع يكون مشروعًا، أو يكون جائزًا، فبعض الناس ينتفع بالزنا مثلًا، وينتفع بشرب الخمر، وينتفع بأشياء من هذا القبيل، فهذا لا يدل علىٰ أن هذا جائز؛ لأن فيه نفع، وإنما الجائز ما أباحه الله ﷻ وأمر به، فهو يختلف باختلاف مقصد الإنسان الذي وضع هذا الشيء، إذا كان يرىٰ أنه ينفع بذاته وبنفسه فهو شرك أكبر؛ لأنه جعله شريكًا لله ﷻ في الربوبية والتصرف والنفع والضر.

(١) أحمد في المسند رقم (٣٦١٥)، والبيهقي رقم (٢٠٠٨٨)، وأبو داود رقم (٣٨٨٣).

وإن كان يقول هذا سبب، الله جعله سببًا ووجد به كذا وكذا وأنه ينفع؛ لأنه سبب يدفع البلاء قبل نزوله وكذلك يرفعه بعد حصوله أو يخففه، فهذا من الشرك الأصغر؛ لأن الله لم يجعل ذلك سببًا، والأسباب يجب أن تكون ثابتة في الشرع مباحة، فالأسباب التي جعلها الله أسبابًا تُفعل ولا يجوز إهمالها، ولكن الأسباب لا تستقل بالتأثير، فإن المؤثر هو الله ﷻ وحده ولا يوجد سبب وحده يقوم بالمسببات ويؤثر فيها فلا بد للسبب من أسباب أخرىٰ، والأسباب لها موانع إذا أراد الله ﷻ لم تعمل عملها، فالمقصود أن الأسباب نوعان:

أحدهما: أسباب جعلها الله أسبابًا فهذه يعمل بها ولكن لا يعتمد عليها، وإنما الاعتماد علىٰ الله ﷻ في حصول المقصود بعد فعل السبب.

والثاني: أسباب لم يجعلها الله أسبابًا فالتعلق بها وجعلها أسبابًا من الشرك، وهذا الشرك قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر بحسب اعتقاد فاعله، أو الذي تعلق به، والشرك الأصغر أعظم من الزنا - نسأل الله العافية - فإذا قلنا: إنه أصغر فليس معناه أنه سهل بل هو صعب، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، يدخل في هذا العموم؛ يعني: أن الإنسان إذا مات عليه فهو غير مغفور له لا بد أن يعاقب عليه.

قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

قبل هذه الآية قوله ﷻ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٣٦].

يخوِّفونه بآلهتهم كما هي سُنَّة الكفار يقولون: إذا خالفتهم أو كفرت بهم

فسوف يعاقبونك ويفعلون بك كذا وكذا، كما قالوا لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]؛ يعني: أصابك بخبل وجنون: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]؛ يعني: لا تتركوني لحظة أسرعوا بكيدكم اجتمعوا أنتم وآلهتكم فكيدون بأي وسيلة تريدون فلا تستطيعون ولن تصلوا إلي؛ لأنه عليه السلام وليه الله، وهو متوكل على ربه جل وعلا الذي هو آخذ بناصية كل دابة فلن يصلوا إليه، وكذلك هؤلاء الكفار يخوِّفونه باللات والعزى وغيرها فهم يخوفونه بما يعبدونه من دون الله ويرجونه.

قوله: «﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾»: الله جل وعلا أمر نبيه ﷺ أن يسألهم يقول: آلهتكم هذه التي تدعون من دون الله أخبروني عنها.

«﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»: هذا في آلهتهم في الأصنام التي يَدْعون من دون الله، وهي إما أن تكون شجرًا أو حجرًا أو ميتًا أو جنيًا أو ملكًا أو كوكبًا وما أشبه ذلك.

وقوله: «﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾»: من مرض، أو عذاب وما أشبه ذلك.

وقوله: «﴿هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾»: هل تستطيع أن تكشفه، أو تزيله، أو تخففه، وقد أنزله الله بي؟

وقوله: «﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾»: من صحة، أو هداية، أو قوة، أو نصر.

قوله: «﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾»؛ يعني: هل تستطيع أن تمنعها؟ الجواب: أنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا من ذلك فهي لا تدفع عن نفسها شيئًا فكيف عن غيرها!! وكذلك لا تجلب لنفسها شيئًا فكيف لغيرها. فكيف يدعون شجرة؟ كيف يدعون حجرًا؟ وكيف يدعون ميتًا، أو غائبًا ليس حاضرًا، وهو مخلوق ضعيف ويزعمون أنه يملك النفع والضر ومن فعل ذلك، فقد وقع في الشرك فأين العقول؟

فالخطاب للعقول فيجب أن يفكروا في عقولهم، وإذا كانت العقول مغطاة بالباطل، وما كان عليه الآباء والعادات السابقة، وإن انضاف إلىٰ ذلك البغض بغض الداعي والمبين، وإن انضاف إليها مصالح دنيوية من رئاسات ومنافع وما أشبه ذلك، صارت إجابة الدعوة صعبة جدًا، ولهذا صار أكثر الناس لا يستجيبون للرسل ولا سيما الكبراء، وإنما يستجيب للرسل الضعفاء من الفقراء والعبيد والمستضعفين، فهم أتباع الرسل كما قال الله ﷻ في دعوة الرسل لقومهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

يعني: هم الذين تملأ مناظرهم الأعين أصحاب المناصب وأصحاب الأموال والرئاسات، فهؤلاء منعتهم رئاساتهم ومصالحهم وكونهم مثلًا لهم شهوات ولهم أهواء، فمنعتهم هذه كلها عن اتباع الحق.

فليس لهم جواب، فهذه المعبودات جميعها، وقد جاء بـ «ما» لتشمل جميع معبوداتهم فهم سكتوا؛ لأنهم يعرفون أنها لا تستطيع، وهكذا عادتهم أنهم إذا أخرسوا بالحجة سكتوا، وهكذا جميع الباطل، وقد يكابر صاحب الباطل، ويأتي بأمور خلاف العقل وخلاف الوضع الذي عليه الناس.

وكل ما طلب منه النفع أو طلب منه الدفع لبلاء فهو داخل في هذه الآية، فالذي يعلق التميمة فهو يطلب بها أن تدفع عنه شيئًا متوقع الحصول، أو أن ترفع عنه شيئًا موجودًا فيه من مرض سواء كان من إصابة جني، أو عين إنسان، أو غير ذلك، وهذا لا فرق فيه بين كونه من كلام الناس، أو من طلسمات الخطوط التي يخططونها أو من أسماء الشياطين، أو من القرآن وأسماء الله ﷻ، وإذا كانت من القرآن ففيها خلاف وسوف يأتي أن الصواب أنه لا يجوز تعليقها.

فكل نفع غيبي يكون طلبه من مخلوق فهو شرك، والمخلوق سواءً كان عاقلًا أو غير عاقل، والغيبي؛ يعني: أنه شيء يتوقع لن يحصل الآن، وهو غير محسوس

مثل: إزالة المرض، فهل مثلًا خيط يُعلقه الإنسان فيزيل المرض، أو كتاب تضعه في جيبك، أو تحت الوسادة يزيل المرض؟ وهم يقولون: إنه من التحرزات ويسمونها حرز يحرز الإنسان، والتحرزات ليست بالأوراق والخيوط والخرق التي تخاط، التحرزات بالله تعالىٰ وأصلها في القلب أن يتجه الإنسان إليه بقلبه فيذكره بلسانه وقلبه مؤمن به يطلب منه النفع وحده والدفع منه وحده هذا هو التحرز الحقيقي، أما إذا وجه ذلك إلىٰ مخلوق فهذا من الشرك.

قوله: «﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾»: هذا أمر من الله ﷻ، وحسبي معناها: كافيني؛ أي: الله كافيني وحده، أكتفي بربي وحده، هو الذي ألتجأ إليه ويمنعني من كل محذور، وينيلني كل ما أطلب منه ﷻ إذا شاء.

قوله: «﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾»: التوكل هو اعتماد القلب علىٰ الله ﷻ؛ لأن الإنسان عبد لله، بل الخلق كلهم عبيده وما من دآبة إلا هو آخذ بناصيتها ﷻ، فإذا توكل العبد علىٰ ربه حق التوكل فإنه يكفيه. فأمره الله ﷻ أن يعتمد علىٰ ربه ويخبر هؤلاء أن آلهتهم التي يدعونها أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تستطيع أن تملك من رفع البلاء، أو إمساك الخير والسعادة شيئًا، وهذا مثل ما سبق في الآية التي في سورة الإسراء أن المدعوين من دون الله لا يستطيعون رفع الضر، ولا تحويله إما إلىٰ غيرهم، أو من موضع إلىٰ موضع؛ يعني: أنها لا تنفع أصلًا ولا تدفع.

وهذه الآية في الشرك الأكبر، فكيف استدل علىٰ أن لبس الخيط والحلقة داخل في هذه الآية؟

هذا من باب القياس، ولبس الحلق والسلاسل من الشرك، والآية تدل علىٰ أن الشرك كله يدخل فيما ذكر كبيره وصغيره، ولم يزل الصحابة رضوان الله عليهم وأتباعهم يستدلون علىٰ الشرك الأصغر وبطلانه فيما نزل في الشرك الأكبر كما هو

واضح من تفسيرهم ومن الوقائع التي وقعت لهم مع غيرهم، وهذا منها فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: الأنداد هو الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا كله به شرك[(١)].

وكذلك ما رواه عُرْوَة قال: دخل حذيفة علىٰ مريض فرأىٰ في عضده سيرًا فقطعه -أو: انتزعه- ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦][(٢)]، وقد جاء تفسيرها بغير ذلك، قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السماوات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به[(٣)].

فهذا في الشرك الأكبر، والشرك الأكبر يدخل فيه الشرك الأصغر وهذا هو وجه الاستشهاد من الآية، وهو أن الله ﷻ أخبر أن كل من طلب النفع، أو طلب المنع من الأذىٰ، أو رفعه سواءً كان صنمًا يعبد، أو كان حلقة، أو خيطًا، فإنه يكون شركًا وتعلقًا بغير الله ﷻ، وبهذا يتبين أن لبس الخيوط والحلق والتمائم والخرز والودع وغيرها، وكذلك الطلسمات والخطوط وكل ما يجعل من هذا القبيل لأجل النفع، أو لأجل دفع البلاء، فإنه داخل في هذا وهو من الشرك، وسواءً كان من الشرك الأكبر أو من الأصغر، إنما هو شرك والآية تدل عليه وكونه من الأكبر، أو من الأصغر هو في حسب اعتقاد الفاعل إذا كان الذي يسأل ذلك يعتقد أنه يدفع وينفع بذاته فهو من الشرك الأكبر.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤١٨)، وابن أبي حاتم رقم (١٢٨٩١).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٨).

قال المؤلف رحمه الله: عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأىٰ رجلًا في يده حلقة من صُفْر فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة. فقال: «انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، رواه أحمد بسند لا بأس به(١).

أحمد رحمه الله رواه في المسند قال: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا المبارك عن الحسن قال: أخبرني عمران بن حصين رضي الله عنه، وقد اختلف العلماء هل الحسن سمع من عمران؟ والصحيح أنه سمع، وهذا الحديث واضح في صحة سماعه منه قال: أخبرني عمران. وهذا الذي رجحه البخاري وغيره من العلماء.

وجاء في رواية أخرىٰ أن عمران هو الذي لبس الحلقة(٢).

قوله: «رأىٰ رجلًا»: فيه الأدب كون الإنسان يعبر عن الشيء المكروه بما لم يسم؛ لأن هذا مكروه أن يضيف الرجل إلىٰ نفسه شيء فيه شرك، ولهذا قال: «**رجلًا**» فدخل فيه هو وغيره.

وقوله: «في يده حلقة»: الحلقة هي ما لويت أطرافه، ودخل بعضها ببعض يكون حلقة سواءً كبيرة، أو صغيرة، وسواءً من الخيوط، أو من النحاس، أو من الصفر، أو من الذهب، أو من غير ذلك.

وقوله: «من صُفْر»: معدن من النحاس معروف.

وقوله: «ما هذه؟»: ما: للاستفهام. والنبي ﷺ لم يسأل عن ماهيتها ما هي، هل هي حديد أو نحاس أو ما أشبه ذلك؟ ولكن الاستفهام عن المقصود، عن الوضع الذي وضعت من أجله؛ يعني: عن فعل الإنسان، وهذا يدلنا علىٰ أنه لو جعلها لشيء غير هذا الذي جعله له فإنه قد يختلف الحكم.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٢٠٠٠٠)، وابن ماجه رقم (٣٥٣١)، وابن حبان رقم (٦٠٨٥)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٥٠٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) سنن البيهقي رقم (٢٠٠٩٤)، ومسند البزار رقم (٣٥٤٧)، والمستدرك رقم (٧٥٠٢) قال: دخلت علىٰ النبي ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: ما هذه؟ فقلت: من الواهنة، فقال: انبذها.

وهذا يدلنا أيضًا علىٰ أن إنكار المنكر يجب أن يُعلم أنه منكر أولًا، فإذا عُلم ذلك يُنكر.

وفيه أن الذي يريد أن يحكم علىٰ الشيء؛ كالمفتي والحاكم وغير ذلك أنه يجب أن يتثبت ويعرف العلة ويتصور الأمور التي يحكم فيها؛ لأن قوله: ما هذه؟ بُني عليه ما بعد، فلما قال: من الواهنة. ذكر الحكم.

قوله: «**من الواهنة**»: الواهنة مأخوذة من الوهن، وهو ضعف البدن، وهو مرض يقولون: أنه يصيب الإنسان في يده وكتفه ويزعمون أنها تصيب الرجال دون النساء، وأن الخيوط التي تعلق أنها تنفع كما يزعم الجاهليون الجدد أن السلاسل التي توضع في اليد تنفع من الروماتزم، والواهنة هي الروماتزم ولكنه في موضع معين كما زعموا قال: «**من الواهنة**»؛ يعني: إما لرفعها بعد حصولها؛ يعني: يتوهم وجودها، أو لدفعها قبل حصولها وهذا داخل في الكهانة فهي من الشرك ولا تنفع، أما التوهمات فلا يُبنىٰ عليها شيء؛ لأن الوهم لا يبنىٰ عليه حكم، والانفعالات النفسية هي في الواقع انفعالات حسب الاعتقاد، فالإنسان قد يعتقد أنه مريض فيمرض ويعتقد أنه صحيح فلا يحس بالمرض، فقد يحصل له شيء من ذلك فهي لا يُبنىٰ عليها شيء ولا يجوز أن يقول إنها من الأسباب؛ لأنها ليست أسبابًا فجعلها أسبابًا هو من الشرك، أما إن اعتقد أن ذات الحلقة تنفع فتزيل الوهن والمرض، فهذا ما يعتقده عاقل، فالمحذور أنه يجعلها سببًا، فقد أخبر الرسول ﷺ أنها لا تزيد الإنسان إلا وهنًا.

قوله: «**انزعها**»: النزع هو الجذب بقوة، والذي في المسند: «**انبذها**»[1]، وهذا أبلغ من النزع؛ لأن النبذ هو طرحها وإبعادها بعيدًا فإنها تضر ولا تنفع.

---

(١) المسند رقم (٢٠٠٠٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٥٠٢).

وقوله: «**فإنها لا تزيدك إلا وهنًا**»؛ لأن الضار والنافع هو الله ﷻ. «**وهنًا**»؛ يعني: ضعفًا، أما كونها تزيد وهنًا فهذا من ناحية الدين والاعتقاد لا من ناحية البدن، فهي لا تزيد ولا تنقص، ولكن من ناحية العقيدة والتعلق فهي تُوهنه، والمعاصي تُوهن البدن وتهدمه وتضعفه كثيرًا وهذا منها، وكذلك توهن القلب، والقلب هو ملك الأعضاء، فإذا كان القلب تعلقه بالله ﷻ وحده فإنه لا يلتفت إلىٰ هذه الأشياء.

وقوله: «**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»: لو مت وأنت مستمر علىٰ هذا الفعل بدون توبة ما أفلحت أبدًا. والفلاح: هو إدراك السعادة وإدراك الخير، ومعنىٰ ذلك: أنه لا يدرك الخير أبدًا، فهل هذا يناسب أن يكون من الشرك الأصغر؟

ظاهره أنه يدل أن هذا ليس من الشرك الأصغر، ولكن قد يقال: إن هذا من باب الوعيد ونصوص الوعيد لا يصح أن تفسر، تترك كما جاءت ويقال: الله أعلم بالمراد بها؛ كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

هذا كلام الله لا يجوز أن نصرفه عن ظاهره، فالإنسان سوف يحاسبه الله ويقول له: وما يدريك أن مرادي كذا؟ ولهذا قال كثير من العلماء أنه يجب أن تبقىٰ علىٰ ما هي عليه، فهذا أمره إلىٰ الله ﷻ، وهذا الحديث لا يجوز أن نؤوله تأويلات تخرجه عن مقصود المتكلم؛ لأنه واضح وظاهر. وإذا كان العبد إذا فعل هذا يقول: إنها سبب من الله جعل فيها شيئًا من الخاصية ترفعه، فيقال: هذا من الشرك الأصغر ويجب أن تجتنبها مطلقًا. وفي هذا أن العبد لا يعذر بجهله في مثل هذا؛ لأنه كان جاهلًا أن هذا ينفع، أو أنه يضر ومع ذلك لم يعذره الرسول ﷺ بذلك وقال: «**ما أفلحت أبدًا**» لو مت وهي عليك.

وفيه أن الإنسان يحكم له بما مات عليه ، والأعمال بالخواتيم؛ يعني: إذا ختم له بعمل فهو له حكم ذلك العمل إن كان خيرًا فهو خير، وإن كان شرًا فهو شر، وهذا يشمل كل ما كان من هذا الجنس. وفيه أن الإنسان إذا وقع في خطأ شرك أو غيره، ثم تنبه ونزع منه أن هذا لا يقدح فيه ولا في ولايته، وأنه من أولياء الله فقد جاء أن هذا الرجل المبهم هو عمران بن حصين الخزاعي وهو من أفاضل الصحابة، وهو الذي كانت تسلم عليه الملائكة فلما اكتوىٰ امتنعت من التسليم، فلما تاب عادت إلىٰ التسليم. فالأعمال بالخواتيم والأمور التي تفعل قبل العلم بها أنها لا تؤثر إذا أقلع عنها العبد وتاب.

قال المؤلف رحمه الله: وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»[(١)]، وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك»[(٢)].

قوله: «وله»: الضمير يعود علىٰ الإمام أحمد رحمه الله.

قوله: «من تعلّق»: التعلق: هو فعل القلب، يقال تعلق بكذا بخلاف علق فإنه يكون فعل اليد. تعلق؛ يعني: أن قلبه تعلق بهذا؛ لأن العاقل لا يفعل فعلًا إلا وقد بعث عليه قلبه وإرادته، فالإرادة سابقة للأفعال.

قوله: «تميمة»: التميمة سميت تميمة من باب التفاؤل؛ يعني: أنه يتم للإنسان مقصوده، فقالوا تميمة فعادة العرب أنهم يتفاءلون بالأسماء وكثيرًا ما يسمون الأشياء بأسماء أضدادها تفاؤلًا بأنه يحصل لهم ما في التسمية، فتسميتهم اللديغ سليمًا يعني تفاؤلًا بأنه يسلم، وتسميتهم الأرض المهلكة التي لا ماء فيها

(١) رواه أحمد في المسند رقم (١٧٤٠٤).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (١٧٤٢٢) ولفظه: أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا، قال: «**إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها فبايعه وقال: من علق تميمة فقد أشرك**».

ولا مرعىٰ ولا أحد يسمونها مفازة تفاؤلًا أن من سلكها يفوز بالنجاة من الهلاك فيها، وهكذا هنا يسمونها تميمة تفاؤلًا بأنه سيتم المقصود الذي من أجله عُلقت. والتميمة إما خرز، أو حصىٰ، أو غير ذلك، تُنظم ثم توضع في رقبة الصبي، أو النساء، أو البعير، أو البهائم، أو السيارات أو الحوانيت، أو البيوت أو غيرها حتىٰ لا تصيبها العين، أو لا يأتي إليها الجن؛ يعني: أنهم يجعلونها لدفع شر يتوقعونه سواءً من الجان أو من أمر غيبي، ومن التمائم ما يكتب، ثم يغلف ويعلق في الرقبة، أو توضع في البيت، وقد تكون طلسمات؛ أي: خطوط تخط لا تفهم، وقد تكون هذه إشارة إلىٰ أسماء شياطين معينين، أو كلمات شركية يعرفونها فيأخذون بعض الكلمات منها، ويتركون البعض حتىٰ لا تكشف، ولكن هم وشياطينهم يعلمون المقصود، فتعليق ذلك كله من الشرك، ومعلوم أن الإنسان يُعلق الخيط، أو يعلق الخرزة، أو يعلق ورقة فيها خطوط وما أشبه ذلك بناءً علىٰ الاعتقاد الذي عنده، وأما تعليقها مجرد عن العقيدة فهذا ما يفعله عاقل، فلا بد من اعتقاد أنه ينفع أو أن فيه فائدة، وإنما يعتقدون في قلوبهم أن هذا مفيد، وأن فيه خاصية تدفع، أو تمنع ولهذا صار من الشرك.

قوله: «فلا أتم الله له»: هذا يحتمل أمرين: يحتمل أن يكون دعاء علىٰ من فعل ذلك، فالرسول ﷺ دعا علىٰ من فعل ذلك بنقيض قصده، وذلك أن التميمة أُخذت من المعنىٰ الذي أراده مُعلقها، وهو أن يتم له مراده ومقصده، وهذا هو الظاهر.

ويحتمل أن يكون خبرًا، وذلك أن الرسول ﷺ أخبر أنه لا يتم له مراده. وكلاهما يدل علىٰ أن هذا أمر عظيم، وأن مرتكبه قد جانب الحق وفعل جنفًا، بل فعل شركًا استحق أن يُدعىٰ عليه، أو يخبر بأنه لا يتم له مراده؛ لأن الله ﷻ سُنَّته في عباده أنه يعامل الظالم بنقيض قصده ومراده ولا سيما الشرك، ويدل هذا علىٰ أن هذا الفعل محرم، وأنه لا يجوز فعله.

وقوله: «**ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»: الودع شيء يخرج من البحر شبه الصدف. قال الشارح[١]: التميمة شيء يعلقونه على الأولاد، والودع شيء يُستخرج من البحر شبه الصدف يتقون به العين. لدفع عين الجان وشره، أو عين الإنسان؛ لأن الجان يصيب الإنسان بعينه كما يصيب الإنسان، وهذا شيء معروف، فهذا تمثيل وإلا الأمر أعم من هذا وأوسع، فكل ما علقه الإنسان من هذا النوع سواءً كان من فعله أو من فعل غيره، أو كان شيئًا زعم أن له خاصية؛ كالنحاس مثلًا، أو الصفر، أو الذهب، أو الخيوط، أو غيرها أو الحجارة الكريمة التي يقولون: إنها حجارة كريمة، أو العقيان أو غيرها التي يقولون: إن لها خاصيات كلها سواء لا فرق بينها فمن فرق فعليه الدليل ولا دليل على هذا فكلها داخلة في ذلك.

وقوله: «**فلا ودع الله له**»: يقال فيه مثل ما قيل في الأول: يحتمل أن يكون دعاء، ويحتمل أن يكون خبراً، فإن كان دعاء فمعنى ذلك: لا جعله الله في دعة وسعة وعافية بل ضيق الله عليه وعامله بنقيض قصده، وإن كان خبراً فخبر الرسول ﷺ صدق وحق لا يمكن أن يخالف الواقع، فهو في الضيق وفي الحرج وفي الإثم، وكل من خالف أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ فهذا وصفه وهذه حاله، فتبين أن هذا من الشرك وأن فاعل ذلك صار عبدًا للشيطان وجانب الإخلاص.

وقوله: «**وفي رواية: من تعلّق تميمة فقد أشرك**»: هذه الرواية جاءت تفسيرًا وإيضاحًا بأن تعلق الشيء شرك، وهذا كلام الرسول ﷺ لا يحتاج إلى إيضاح أو تخصيص أو تقييد، لا يجوز أن يقيد كلام الرسول ﷺ بكلام الناس بل كلام الناس الذي يجب أن يُعرض عليه فإن وافقه وإلا رد عليهم.

فعلى هذا يتبين لنا أن تعليق الأشياء لأجل النفع، أو الدفع أنه شرك، ويحتمل

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص(١٣٠)، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ﵀، صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد.

أن يكون من الشرك الأكبر أو من الأصغر، فإن كان يرىٰ أنها مجرد سبب فهو من الشرك الأصغر، وأما إذا كان يرىٰ أنها تنفع بذاتها وتضر بذاتها فهذا من الشرك الأكبر، فالشرك بالتعلق علىٰ غير الله ﷻ والتعلق بالقلب في الغالب من اعتمد قلبه علىٰ تميمة، أو تعلق بها فقد وقع في الشرك، والشرك وإن كان صغيرًا فهو أكبر من الكبائر، أكبر من السرقة ومن شرب الخمر ومن الزنا - نسأل الله العافية - لأن الله ﷻ يخبرنا أنه لا يغفره لمن مات عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، فجعل ما دون الشرك تحت المشيئة والشرك الأصغر يدخل في الأكبر.

✍ قال المؤلف رحمه الله: ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأىٰ رجلًا في يده خيط فقطعه وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦][(١)].

ابن أبي حاتم رحمه الله: هو الحافظ الجليل عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، عرف بكتبه الجليلة المعروفة مثل: التفسير والجرح والتعديل وغيرها.

وهذا الأثر موقوف علىٰ حذيفة، وإذا جاء القول عن صحابي فله حكم الرفع إذا لم يخالف نصًا.

ولكن حذيفة استدل بآية من كتاب الله فقطع هذا الخيط وتلا الآية: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾، وجاء إيضاح ذلك أنه دخل علىٰ رجل يعوده فمس يده فوجد فيها خيطًا، فقال: ما هذا؟ قال: من الحمىٰ فقطعه، وقال: لو مت ما صليت عليك[(٢)]، وتلا هذه الآية، **وفي هذا فوائد منها:**

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٤٧٣) عن عزرة، قال: دخل حذيفة علىٰ مريض، فرأىٰ في عضده سيرًا، فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ وابن كثير في تفسيره ٤/ ٤١٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٢٣٤٦٣).

◀ وجوب إنكار المنكر بالفعل، ولا ينظر إلىٰ إذن صاحبه، ولا غيره فينكره ويزيله، وإنكار المنكر درجات، فإذا كان يمكن إزالته بالكلام اكتفىٰ بذلك، وإن كان الذي رأىٰ المنكر يستطيع أنه يزيله بيده فعل ذلك، وعلىٰ هذا جاء النصُ عن النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[1]، فقوله: **«من رأىٰ منكم منكرًا»** عام في الأمة الإسلامية.

قد جاء تفصيل ذلك أنه دخل علىٰ رجل يعوده، والسُّنَّة أن الإنسان يجس بدن المريض إذا عاده؛ يعني: يلمس يده أو جبهته، فهذا كانت عادة النبي ﷺ وحذيفة سلك هذا المسلك، فلمس يده فوجد خيطًا فقال: ما هذا؟ قال: من الحمىٰ يعني: من أجل الحمىٰ، لبسته حتىٰ تخف، أو تزول هذا المقصود فقطعه وأخبر أن لبس الخيط ونحوه، من أجل تخفيف الألم أو رفعه شرك.

◀ فيه الاستدلال علىٰ الشرك الأصغر بما نزل في الأكبر؛ يعني: أن هذا ظاهره أنه من الشرك الأصغر، أما إذا كان هناك مقاصد ونيات قد يتغير.

◀ أن المعتبر عموم اللفظ وهذا هو الواجب، فقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] يدخل في هذا عموم الشرك، سواء كان كبيرًا، أو صغيرًا، فالشرك غير مغفور لصاحبه إذا لم يتب ومات عليه فهو معذب به، وكذلك الإنسان إذا وقع في الشرك الأصغر فهو واقع في الشرك بدليل قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾، وقد جاء تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أنهم قالوا: إيمانهم أنك إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض ومن خلقهم؟ ومن ينزل المطر؟ ومن ينبت النبات؟ ومن الذي يحيي ويميت؟

(١) رواه مسلم رقم (٤٩).

قالوا: الله، فهذا إيمانهم وشركهم أنهم يعبدون مع الله غيره، من الأصنام التي يزعمون أنها تشفع لهم، وهم لا يعتقدون أنها شريكة لله في التدبير والإحياء والإماتة والخلق والتصرف ما كانوا يعتقدون هذا، وإنما قالوا تشفع لنا عند الله، فيطلبون منها الشفاعة، هذا هو شركهم، فإذا وازنا بين هذا وبين من يذهب إلىٰ المقبور فيناديه بخضوع وذل وبكاء: يا سيدي فلان أغثني، هل بينها مقارنة؛ يعني: هؤلاء الضلال الذين يزعمون أنهم مسلمون صار شركهم أعظم من شرك الكفار، أعظم من شرك أبي جهل وأضرابه، وأولئك أعقل منهم؛ لأن أولئك إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا دعاءهم لله ﷻ وقالوا: الأصنام ما تنفع ولا تجدي في هذا شيئًا، وإنما يدعونها في الرخاء، وأيضًا دعاؤهم إياها لأجل شفاعتها: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقط، ويقولون: إنها تشفع لنا، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، والله ﷻ يقول لهم في ذلك: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]؛ يعني: تخبرونه بشيء لا يعلمه، فالشيء الذي لا يعلمه الله لا وجود له بل هو معدوم أصلًا، فهم في الواقع في أوهام أوهمهم إياه الشيطان، ولكن المقصود أن هؤلاء الذين في بلاد المسلمين ويقعون في هذه الكوارث -نسأل الله العافية- لو ذهبت مثلًا إلىٰ أحد الأولياء الذين يزعمون أنهم أولياء، إما عبد القادر الجيلاني، أو أحمد البدوي، أو الدسوقي أو غيرهم من الأوثان التي في بلاد المسلمين ترىٰ العجائب.

هذا يأتي بخرفان فيذبحها عندهم، وهذا يأتي بفلوس يرميها عندهم، وهذا قد يأتي بولده يقول: يا سيدي هذا ولدي يخدمك، وتأتي الشياطين من الإنس بالحكايات الكاذبة الشيطانية التي تغر هؤلاء، ويقولون: السيد فلان فعل كذا، وفعل كذا، ولهم حيل حتىٰ يأكلوا أموال الناس بهذه الطرق فيضللونهم ويأكلون أموالهم، وهم ضالون؛ لأنهم لم يستعملوا عقولهم ولا قرؤوا كتاب الله، أهدروا

عقولهم، وكذلك كتاب الله ما عرفوا ماذا أراد الله منهم، فهم في الواقع غير معذورين فعلىٰ هذا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] أن هذا عام مطلق كل من وقع في الشرك فهي تناله هذه الآية سواء كان شركًا أكبراً أو شركًا أصغراً، فإذا كان لبس الخيط ونحوه من أجل الحمىٰ؛ يعني: تخفيفها أو إزالتها أو منعها من هذا القبيل فمعنىٰ ذلك: أن الآية عامة في كل من تعلق علىٰ شيء فما يُقصد أنه سبب، وهو ليس في الشرع سببًا لا يجوز أن تتعلق القلوب به، ولكن تُفعل علىٰ أنها سبب، والقلب يعتمد علىٰ ربه ﷻ في حصول المقصود الذي وضع السبب من أجله هذا هو الذي يجب.

وقوله: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾»؛ يعني: يؤمن بوجود الله وبأنه هو المتصرف في الكون، وهذا إيمان لا ينفع إلا إذا انضاف إليه الإيمان بأنه هو المعبود وحده، وأنه لا يعبد معه غيره، ثم يضيف إلىٰ هذا الكفر بكل معبود غير الله تعالىٰ وبكل عابدٍ لذلك المعبود ومعاداته والبراءة منه وبدون ذلك لا يكون العبد موحدًا ومؤمنًا.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوها لمثل ذلك.

التغليظ وأن هذا من الشرك، فمقصوده من التغليظ: أنه أمر كبير؛ لأنه شرك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

القول إنه من الأصغر، والرسول ﷺ يقول: «ما أفلحت أبدًا» يحتاج إلىٰ تأويل وإخراج عن الظاهر، وإلا فالظاهر أنه ليس من الأصغر لأن الفلاح هو كونه يدرك السعادة، والشرك الأصغر ما يمنع السعادة إلا مؤقتًا، فإن قصد بالفلاح الفلاح المطلق فله وجه، ولكن يشكل عليه قوله: «أبدًا» هذا يمنع أن يكون الفلاح مؤقتًا،

فكونه من الشرك الأكبر أظهر وأبين إلا أن يقال: إن هذا من نصوص الوعيد التي يقول العلماء: إنه يجب أن تبقىٰ علىٰ ظاهرها بدون تأويل، ولكن جمهورهم يأولها حتىٰ تتفق مع النصوص الأخرىٰ، فهذا أقرب.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الجهالة في أمور التوحيد، والعبادة التي يبينها الرسول ﷺ يكون العبد هو الملوم عليها؛ لأن التقصير منه، والشيء الذي يعذر الإنسان بجهالته الأمور التي تتوقف علىٰ الفهم وعلىٰ الاستنتاج بعد ما يبذل الإنسان جهده فلا يصل إلىٰ الحق يكون بعد ذلك معذورًا، أما إذا قصر في طلب العلم والمعرفة التي نص عليها، أو قصر في تطبيق النص فإنه يكون غير معذور، فإذًا العذر بالجهل يجب أن يعرف متىٰ يكون ومتىٰ لا يعذر.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: «**لا تزيدك إلا وهنًا**».

يعني: أن تعليق الحلقة لا تزيل شيئًا من المرض بل تضر، ولكن إذا قيل: إنها تضر ففيها شيء نقول: إنها لا تضر ولا تنفع، ولكن ليس قصده أن ذاتها تضر، ولكن ما يتعلق فيها من فعله وقلبه هذا هو الذي يضره؛ لأنه تعلق بغير الله وبسبب لم يشرعه الله ﷻ.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

مثل ما سمعنا من قول الرسول ﷺ: «**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» هذا هو التغليظ؛ يعني: التشديد حتىٰ يتجنب الناس هذه الأمور؛ لأن هذه عظيمة ليست سهلة.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه.

ومعنىٰ ذلك: أن الله يتخلىٰ عنه ويصبح موكولًا إلىٰ هذا المخلوق الضعيف، ومن وكل إلىٰ مخلوق ضاع، ولا يمكن أن يدرك شيئًا من النفع.

السابعة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

يعني: أنه أشرك.

الثامنة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

هذا يقوله المؤلف رحمه الله ردًّا على من يتوسَّلون بالأموات ويقولون: إنهم يشفعون لنا، نحن نطلب منهم الشفاعة، وإلا نحن نعلم أن الله هو النافع الضار، ولكن نعرف أنهم صلحاء، عندهم من الصلاح والتقى الذي يجعلهم إذا سألوا شيئًا من الله يستجيب لهم، فنحن نطلب منهم هذا الشيء، فكيف تجعلنا مشركين؟ كيف تستدل علينا بما نزل بالمشركين الذين يعبدون اللات والعزى وغيرهما، فيقول الصحابة: كانت هذه طريقتهم حتى لو كان أقل من هذا فإنهم يستدل بالآية التي نزلت بالشرك الأكبر على الشرك الأصغر لعموم اللفظ والمعنى.

التاسعة: الدعاء على من تعلّق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له.

أي: لا ترك الله له. كأنه يرجح أن هذا دعاء، وهو الظاهر.

الباب الثامن

✍ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم.**

يعني: من المنع أو من الرخصة، ولما كان الحكم فيه تفصيل لم يذكر الحكم وكذلك التميمة فيها خلاف فقال: «**باب ما جاء**»؛ يعني: يجب علىٰ طالب العلم أن يبحث عن الحكم من خلال الأدلة، وقد ذكر في هذا الباب بعض الأدلة وهي تكفي لمن يريد الحق.

و«**الرقىٰ**»: جمع رقية وهي القراءة علىٰ المريض مع تفل عليه بريق أو نفث.

والرقىٰ إذا كانت بأسماء الله وصفاته وباللغة العربية وبالشيء المفهوم، وأن يعتقد الإنسان أنها لا تأثير لها في نفسها، فهذا جائز بالإجماع إذا استكملت هذه الشروط الثلاثة، وإذا كانت الرقىٰ تشتمل علىٰ شرك، إما بأسماء الشياطين أو الطلسمات فهي من الشرك أو كانت بالحروف التي لا تفهم، والكلمات غير المفهومة، فهذه ممنوعة لا تجوز خشية أن تكون من الشرك.

والرقىٰ قديمة كانت في الجاهلية، فعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترىٰ في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليّ رقاكم لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيه شرك**»[1]، وفي رواية قال: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**»[2]، فالرقىٰ إما أن تكون شركًا أو مأذونًا بها، أو تكون سُنَّة يثاب فاعلها.

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٠٠).
(٢) رواه مسلم رقم (٢١٩٩).

وأما التمائم فقد سبق تعريف التميمة، وأنها مأخوذة من أنه يتم للإنسان ما قصد من باب التفاؤل، وهي خرزات أو ودع أو وتر يعلقونها لدفع العين أو دفع الجن وما أشبه ذلك، تعلق على الصبيان والدواب ونحو ذلك، ومن فعل هذا فقد تعلق على غير الله ﷻ ومن تعلق على غير الله وكل إليه.

قال في الصحيح: عن أبي بشير الأنصاري: «أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر – أو قلادة – إلا قطعت»[1].

«**في الصحيح**»؛ يعني: في الحديث الصحيح؛ لأن الحديث في الصحيحين، وهذه طريقته رحمه الله، كثيرًا ما يقول في الصحيح ويكون الحديث في الصحيحين، فكأنه يقول: في الحديث الثابت عن النبي ﷺ.

وأبو بشير قيل: إن اسمه قيس بن عبيد، وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو من صحابة الرسول ﷺ الأكارم الأفاضل، ومعلوم أن الذين رووا حديث الرسول ﷺ بالنسبة لعموم الصحابة فيهم قلة، وإلا كثير من الصحابة لا تعرف أسماؤهم؛ لأنهم ليس لهم رواية. فالذين رووا الحديث كما ذكرهم الحافظ في الإصابة ما تجاوزوا اثني عشر ألفًا مع التكرار وذكر الخلاف في بعضهم؛ لأنه جعل كتابه على أقسام، قسم متفق عليه، وقسم مختلف فيه. وأبو زرعة يقول: حضر مع النبي ﷺ في حجة الوداع أكثر من ثلاث مائة ألف. وكل الذين حضروا حجة الوداع من الصحابة؛ لأن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ، وشاهده مؤمنًا به ومات على ذلك.

قوله: «**أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره**»: معلوم أن أسفار النبي ﷺ كانت في الجهاد، وليس لازم أن نعرف هذا السفر، والمقصود الحكم الذي بينه في هذا الحديث، والغالب أن في السفر تتبين هذه الأمور.

(١) البخاري رقم (٣٠٠٥) واللفظ له، ومسلم رقم (٢١١٥).

قوله: «**فأرسل رسولًا**»: يقول الحافظ: أن هذا الرسول الذي أرسل هو زيد بن حارثة كما جاء ذكر ذلك في مسند الحارث بن أسامة(١)، وهذا أمر يعم الناس كلهم ولا يجوز إسقاطه فعليه يتعين علىٰ العبد إذا عرف ذلك إن كان يستطيع إزالته يزيله سواء بالفعل، أو القول.

قوله: «**أن لا يبقين**»، وفي رواية: «**لا تبقين**»: وهذا لتأكيد إزالة ذلك، وهذا يدل علىٰ أن هذا ممنوع.

وقوله: «**في رقبة بعير**»: وقد تكون في رقبة فرس أو غيرها من الدواب، أو في رقبة الإنسان ولد، أو كبير.

قوله: «**قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت**»: هذا فيه شك؛ يعني: هل جاء الأمر بقطع القلادة المقيدة أو المطلقة؟ والمقيدة إذا كانت من وتر، والوتر هو حبل القوس، والقوس عود يثنىٰ ويعالج وهو من نوع معين، ويوضع في حنيته الوسطىٰ محل يمسك السهم، والوتر هو الحبل الذي يحزم به طرفاه فيكون قويًا، فإذا ضعف غيَّروه ووضعوه قلادة للبعير، فهل القلادة مقيدة بأنها من هذا النوع أو أنها مطلقة؟ الصحيح أنها مقيدة، وقد سئل الإمام مالك ﷺ عن القلادة؟ فقال: ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر(٢).

وقد علم أن الجاهلية يقلدون الأوتار، ويعتقدون أنها تمنع من العين، أو أنها تمنع من الجن أو غير ذلك. وهذا من الشرك؛ لأنهم اعتقدوا أن الضر والنفع يحصل من القلادة وعدمها والوتر حبل لا ينفع ولا يضر، وهكذا اعتقاد النفع في أي شيء من الأشياء التي لم يجعل الله ﷻ فيها نفعًا، فإن اعتقاد ذلك يكون من الشرك. ومن هذا ما يعلق في رقبة الإنسان أو في البيت، أو علىٰ سيارة، أو ما أشبه ذلك لأجل دفع

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٢٩١).
(٢) فتح الباري (٦/ ١٤١).

الشر المتوقع فإنه من الشرك، وهذا نوع من التمائم والتميمة سبق أنها سميت تميمة من التفاؤل أنه يتم المقصود الذي علقت من أجله، وتقدم أن هذه التمائم شرك وأنه من تعلَّق تميمة يدعىٰ عليه، فإن الرسول ﷺ دعا عليه بأن لا يتم له مقصوده، صاحب القلادة إذا اعتقد الانتفاع بها سواء انتفاعًا بعد نزول البلاء، أو قبل نزوله فهذا هو المنهي عنه؛ لأن هذا تعلق علىٰ غير الله ﷻ، واعتقاد أن الحبل ينفع أو يضر يوقع في الشرك.

أما الحبل الذي قد يوضع في رقبة البعير ليقاد أو ليعقل به، أو لغرض من الأغراض وليس فيه اعتقاد النفع أو الضر، وإنما هو يمسك البعير لئلا يذهب، أو تربط به الخيل فهذا جائز.

وأما ما يفعله الآن بعض أهل المواشي من وضع جرس في الشاة حتىٰ إذا مشت صار له صوت، فهل هذا من هذا النوع؟ فهؤلاء أصحاب لهو، وأصحاب باطل، ولقد جاء النهي عنه.

✍ قال: وعن ابن مسعود رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك»[1]، رواه أحمد، وأبو داود.

وأول الحديث، عن زينب امرأة عبد الله قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهىٰ إلىٰ الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا علىٰ شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير فدخل فجلس إلىٰ جنبي فرأىٰ في عنقي خيطًا قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيطٌ رُقِيَ لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك**»، قالت:

(١) أحمد في المسند رقم (٣٦١٥)، وأبو داود رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه رقم (٣٥٣٠)، والبيهقي في الكبرىٰ رقم (١٩٣٨٧).

فقلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلىٰ فلان اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «**أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا**»[1].

قوله: «**إن الرقىٰ**»: هذا عام في الرقىٰ فلم يخص منه شيئًا، وقد خصَّ من الرقىٰ ما كان بآيات الله، وبأسمائه وصفاته فإنه جائز أو مستحب كما دلت الأحاديث علىٰ ذلك، وقد سبق ذلك، وجاءت الأدلة بجواز ذلك، بل قال كثير من العلماء أنه مستحب؛ لأنه دعاء لله ﷻ بأسمائه وصفاته ومن صفاته كلامه ﷻ، آياته القرآنية من صفاته، فإذا رقىٰ بها، فهو نوع من العبادة ويسأل الله ﷻ بها، والله أخبرنا أنه أنزل القرآن شفاءً والصحيح أن شفاء القرآن عام؛ يعني: شفاء للجهل ولما في القلوب وكذلك للأبدان، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وهذا من أعظم الشفاء إذا استشفىٰ به المؤمن الصادق الذي يتعلق بربه وحده ﷻ، فإذا رقىٰ به نفسه أو رُقي به فإنه شفاء تام وأحسن من الأدوية المركبة ولكن التأثير يستلزم الإيمان به والصدق مع الله ﷻ، وكمال التعلق بالله ﷻ، فهذا نوع لا يجوز أن يكون فيه خلاف بل لا خلاف فيه بين العلماء، وإنما الخلاف فيه بينهم هل هو من الجائز، أو من المستحب، فكانت الرقىٰ أقسام ثلاثة:

أولًا: محرم بالاتفاق، وهو ما كان فيه شرك، وهو الذي يكون بأسماء الشياطين، أو بأسماء الملائكة، أو بأسماء الأنبياء، أو بالكلمات المقطعة، أو بالكلمات التي لا تفهم، وكذلك إذا خلط الجائز بغيره كما يقع فيه كثير من الذين يجعلون هذا لهم متجرًا يستكثرون به الدنيا، والغالب أن هؤلاء مقصودهم الدنيا، ولهذا يخلطون ويزعمون أنهم يستعينون بالجن، وبعضهم يقول: إنه يستعين بالجن

---

(١) أحمد في المسند رقم (٣٦١٥).

المسلمين وهذا تمويه على الناس، وإلا الجني المسلم لا يفعل المحرم، وما يدريه أنه مسلم، وإذا قدر انه عرف أنه مسلم فهو من طريقه؛ وطريقه غير موثوق به، بل هم أعداء لبني آدم، وقد يأتون إلىٰ الإنسان، ويقول أحدهم: إنه مسلم وهو كاذب، وإنما يريد أن يلبس عليه ولو قدر أنه مسلم فالاستعانة بمثل هذا فيها خطورة ولا يجوز إلا بالأمور الواضحة الجلية التي ليس فيها من المحرمات شيء.

ثانيًا: إذا كانت الرقية ليست باللغة العربية، أو ليست بالكلام المفهوم وإن كانت باللغة العربية فإنها من المحرمات؛ لأنها يحتمل أن تكون شركًا وكفرًا بالله تعالىٰ.

ثالثًا: ما هو جائز بالإجماع وبعض العلماء، أو كثير منهم يقول: إنها مستحبة؛ لأن الرسول ﷺ يرقي نفسه كثيرًا، كان يجمع كفيه، ثم ينفث فيها، ثم يمسح بها وجهه ورأسه وما استطاع من بدنه، كما في حديث عائشة الذي في الصحيح وغيره: «أن النبي ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما علىٰ رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»(١)، وفي سنن أبي داود عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اشتكىٰ منكم شيئًا، أو اشتكاه أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، كما رحمتك في السماء اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك، علىٰ هذا الوجع فيبرأ**»(٢)، وكذلك جاءت الرخصة في الرقية من العين والحمة، وكذلك في غيرهما في أحاديث كثيرة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٠١٧).

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٨٩٢)، وأحمد في المسند رقم (٢٣٩٥٧)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (١٠٨٧٥)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٥١٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قال السيوطي رحمه الله: **أجمعوا على جواز الرقية إذا جمعت ثلاثة شروط:**

- **الأول:** أن تكون بأسماء الله وصفاته وبالقرآن.
- **الثاني:** أن تكون باللسان العربي، أو بما يعرف معناه.
- **الثالث:** أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بالله تعالىٰ(١).

قوله: «**والتمائم**»: تقدم تعريفها، وهي قد تكون بالكتابة في أوراق، أو في جلد، أو غيره ثم تعلق، وقد تكون من الخرزات، أو حجر، أو عظام أو غيرها من خشب ونحوها، فيعتقد أنها إذا علقت أنها تنفع في تخفيف المرض أو إزالته، أو منع حصوله ووقوعه، وهذا من الشرك، ويستثنىٰ من هذا ما كان من القرآن كما ذكر المؤلف، فقد اختلف فيه، فمن العلماء من جوَّزه كما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكذلك روي عن عائشة، وعن الإمام أحمد في رواية، أما الذي روي عن عبد الله بن عمرو فهو محتمل؛ لأنه كان يُعلم أولاده الكبار الذين يعقلون قول الرسول ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»، والذي لا يعقل يكتب ذلك في لوح ويعلقه في رقبته، فبعضهم قال: إنه يعلقه؛ لأنه تميمة، ولكن هذا يحتمل أنه يعلقه حتىٰ يحفظه أو يُحفظ إياه؛ لأن تعليق التمائم لا يكون في اللوح، وإنما يكون في ورق أو خرقة أو ما أشبه ذلك، وجاء أيضًا ما يدل علىٰ أن عائشة كانت تفعل شيئًا من ذلك، وأنه يجوز، والصحيح أن هذا ممنوع لأمور:

الأول: أن الأدلة التي جاءت عامة كما في هذا وغيره فقال: «**التمائم والتولة شرك**»، ومن ادعىٰ الخصوص فعليه الدليل، ولا يوجد دليل عن الرسول ﷺ، أو في كتاب الله جل وعلا يدل علىٰ ذلك، وإذا عارض كلام الرسول ﷺ أو كلام الله جل وعلا فعل الراوي، فإنه لا يكون مخصصًا له بل يبقىٰ علىٰ عمومه، هذا القول الصحيح .

---

(١) فتح المجيد ص(١٤٨)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ١٩٥) ولم يعزه لأحد.

الثاني: أن هذا يكون وسيلة وفتحًا للباب إلىٰ تعليق ما لا يجوز، ويكون منعه من باب سد الذرائع، ومعلوم أن الرسول ﷺ كان يشدد في مثل هذا وسيأتي في باب حماية المصطفىٰ ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك وهذا منه.

الثالث: أن تعليق شيء من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته لا يخلو من امتهان، وامتهان كلام الله، أو أسمائه وصفاته من المحرمات الكبيرة التي لا يجوز أن ترتكب، وقد يدخل فيه الخلاء، وقد يجعله تحته وينام عليه، وما أشبه ذلك من الأمور التي تدل علىٰ عدم الاهتمام بهذا، وأنه يكون ممتهنًا فهذه أمور ثلاثة تدل علىٰ أن الراجح أن التمائم إذا كانت من القرآن أنها لا تجوز، وبهذا يتبين لنا أن التمائم ثلاثة أقسام:

أولًا: قسم محرم بالاتفاق بل هو من الشرك.

ثانيًا: قسم فيه خلاف وهو ما كان من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته.

ثالثًا: قسم مكروه عند بعض العلماء والواجب أنه يدخل في الأول إذ هو داخل في قوله: «**إن الرقىٰ والتمائم**»، فإن «إن» هذه للتأكيد، وذكر الرقىٰ بلفظ العموم والتمائم كذلك فشملت ما ذكر.

وقوله: «والتِّوَلَة»: التولة: شيء تصنعه المرأة يُحببها إلىٰ زوجها وبالعكس، وبهذا فسره ابن مسعود راوي الحديث كما في صحيح ابن حبان والحاكم قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه الرقىٰ والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: «شيء يصنعه النساء يتحببن إلىٰ أزواجهن»(١)، وهذا نوعٌ من السحر لا يزال يصنع يسمونه المحبب، وتصنعه النساء؛ لأن النساء يتعلقن بهذا كثيرًا، وليس معنىٰ ذلك أن المرأة هي التي تصنعه، ولكنها تشتريه من الساحر ويصنع لها؛ لأن هذا لا يصنعه إلا ساحر.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه رقم (٦٠٩٠).

والسحر لا يصنع إلا إذا كان بواسطة الشياطين واستخدامهم؛ يعني: طاعتهم وعبادتهم فهو بعمل الشياطين، وإذا أطاع الشيطان عمل له بعض ما يريد في ذلك، والشيطان لا يمكن أن يأتي لنفع الإنسان إلا إذا حصل مقصوده، أو بعض مقصوده من الشرك بالله ﷻ، وقد يقنع بالشيء اليسير حتىٰ يظفر بما هو أعظم منه فلهذا جعله من الشرك؛ أي: جعل التولة شركًا مع التمائم، وهذا منافٍ للتوحيد فهو من تفسير التوحيد بالمضاد والمقابل، وبضدها تتبين الأشياء، فلا إله إلا الله تنفي هذا وتبطله، فمن كان يشهد أن لا إله إلا الله فيجب أن يكون مجتنبًا لذلك، ويكون عارفًا لهذا.

✍ **وقوله: «التمائم: شيء يعلق علىٰ الأولاد من العين. لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه منهم ابن مسعود رضي الله عنه»**.

قد يكون علىٰ غير الأولاد، فقد يكون في السيارة، وقد يكون في البيت، وقد يكون في الدكان، وقد يكون في غير ذلك.

وقال الخلخالي: «التمائم جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات، أو عظامٍ لدفع العين»، فهذا تمثيل وإلا كل ما علق من أجل النفع، فإنه يكون تميمة، ويكون داخلًا في الشرك لقوله: «**إن الرقىٰ والتمائم شرك**»، فالحكم لا يختلف إذا وجد المقصد، فالحكم يطرد في هذا، والضابط في هذا أن يكون التعليق لأجل دفع ضرر، أو جلب نفع، فمن علقه من أجل هذا مهما كان المعلق، سواء كان من الكلام، أو من الخرز، أو من الحصىٰ، أو من الودع، أو غير ذلك مما يعتقد الناس فيه. فإن هذا يكون من الشرك واستدرك من هذا فقال: «لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه».

الترخيص؛ يعني: أن هذا جائز ولا بأس فيه إذا كان المعلق من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته، وذكروا من رخص في هذا عبد الله بن عمرو وعائشة، ولكن السند فيه مقال إلىٰ عبد الله، وبعضهم فسره علىٰ غير ذلك.

وقوله: «**وبعضهم لم يرخص فيه**»: مثل: ابن مسعود، وابن عباس، وأصحاب ابن مسعود من التابعين، وقد رجح عدم الرخصة؛ لأن التعليق يخالطه شيء من غير القرآن لا بد أن يكون في ورق، أو في جلد، أو ما أشبه ذلك، **ورجح المنع لأمور**:

الأول: أن النصوص التي ذكرت مطلقة لم يأت ما يخصصها.

الثاني: أن هذا قد يكون وسيلة إلىٰ ما لا يجوز.

الثالث: أن تعليق ذلك غالبًا لا يسلم من الامتهان إذا كان علىٰ صبي ونحوه.

فيكون المنع لهذه الأمور وغيرها أولىٰ، فتعليق المصحف سواء تعليقه في الرقبة، أو تعليقه في السيارة، أو في البيت، فإن هذا لا يجوز أصلًا حتىٰ ولو خلا من العقيدة؛ لأنه يكون فيه امتهان، وفيه استعمال لكلام الله ﷻ، إما في الزينة، أو في أغراض أخرىٰ، وهذا خلاف تعظيم المصحف فإن العلماء أجمعوا علىٰ وجوب تعظيم المصحف واحترامه والمشاهد الآن عند كثير من الناس عدم تعظيم المصحف فقد يوضع علىٰ الأرض، وقد تمد إليه الأرجل وغير ذلك مما يدل علىٰ الاستهانة به، وهذا من أعظم المحرمات.

وقوله: «**الرقىٰ هي التي تسمىٰ العزائم**»: العزائم من العزم، وهي القراءة، ولكن تسمىٰ اصطلاحًا كما ذكر؛ يعني: يقرأ عليه بالنفث حتىٰ يذهب ما به من بأس.

وقوله: «**وخص منها الدليل ما خلا من الشرك فقد رخص فيه الرسول ﷺ من العين والحمة**»: العين هي إصابة العائن؛ أي: الحاسد غيره بعينه، ومن غير العين والحمة، فقد جاءت الأحاديث في الرخصة من النملة والدم؛ يعني: الرعاف ومن

غير ذلك، ولكن سبق من حديث بريدة الذي فيه: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**» أن الرقية من العين والحمة في هذين الأمرين أنفع من غيرهما، وأسرع شفاء وإلا فهي نافعة في جميع الأمراض فالقراءة نافعة جدًا، وقد يزول المرض في الحال إذا شاء الله ﷻ، وكان العازم من أهل الصدق والبر والتقىٰ، وكذلك المعزوم عليه لا بد أن يكون عنده القبول، والإخلاص، والصدق.

والرقية إذا كانت من القرآن، أو من أسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإذا كانت مأموراً بها فهي مستحبة، فالرسول ﷺ رقىٰ ورُقي وأمر بها وأجازها، كما قال الخطابي رحمه الله.

وأما الشيء الذي يحتمل؛ يعني: بغير اللغة العربية، أو يكون بكلام غير مفهوم فهذا لا يجوز أن يستعمل، فهذا النوع الذي يكون مكروهًا، وعند بعض العلماء، يكون ممنوعًا مطلقًا، فلهذا يتبين أنها أقسام ثلاث كما سبق:

قسم لا خلاف فيه، وهي ما كان بأسماء الله وصفاته، أو بالقرآن وخلا من الشرك، فهذا جائز ولا خلاف فيه، وقسم محرم بالاتفاق، وهو ما كان فيه شرك، وقسم فيه خلاف فمن العلماء من كرهه، ومنهم من حرمه، والصحيح أنه محرم، ويدخل في القسم الثاني، فعلىٰ هذا تكون قسمين فقط، فلا يجوز للإنسان أنه يرقىٰ باسم مجهول أو بشيء غير معروف، ولا أن يدعو بهذا فإن الدعاء يجب أن يكون باللغة العربية، ولا يكون بألفاظ أعجمية، والألفاظ الأعجمية لا تكون شعارًا للمسلمين.

وقوله: «التولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلىٰ زوجها والرجل إلىٰ امرأته»: وهو نوع من السحر، والسحر لا ينفك من الشرك؛ لأنه بواسطة الشياطين والإنسان إذا أطاع الشيطان يأتيه ببعض ما يريد، والشيطان لا يُطاع إلا في معصية الله ﷻ؛ يعني: في الشرك.

وقوله: عن عبد الله بن عُكيم مرفوعًا: «من تعلق شيئًا وكل إليه»(١)، رواه أحمد، والترمذي.

التعلق يكون بالقلب ويكون أيضًا بالفعل؛ يعني: تعلقه بقلبه، وقد يعلقه أيضًا بفعله فإذا تعلق ذلك وكله الله ﷻ إليه ومن وكل إلىٰ خيط أو قلادة فقد ضاع وهلك، والعبد المؤمن يجب أن يكون تعلقه بربه ﷻ الذي بيده النفع والضر، ومن توكل علىٰ الله ﷻ وتعلق به فإنه يكفيه ﷻ.

وقوله: «شيئًا»: نكرة يعم كل ما تعلق به سواء كان من الأفعال التي يعلقه هو، أو تعلق قلبه بأمور أخرىٰ من أمور الدنيا فإنه يوكل إليه، وكونه يوكل إليه معناه: أن الله يكله إلىٰ هذا المخلوق الضعيف، ومن وكل إلىٰ ذلك ضاع وهلك؛ لأن العبد إذا لم يكن في حماية ربه ﷻ ويتعلق به فإنه يكون هالكًا بلا شك، وهذا من باب مقابلة الشيء بضده والله ﷻ جعل ذلك سُنَّة في خلقه؛ يعني: أن الجزاء من جنس العمل، فهي قاعدة في الشرع بل قاعدة في خلق الله ﷻ، فمن تعلق علىٰ غير الله فإنه يكون هالكًا، ويأتيه الضرر من حيث يظن أنه يأتيه النفع بخلاف الذي يتعلق علىٰ الله ﷻ، فإنه يكون في حمايته وصيانته، وهذا عام ليس فقط في التمائم، أو في الأشياء التي ذكرت بل عام في كل شيء حتىٰ في الأمور العادية التي يعتقد الإنسان أنها أمور معتادة مثل: الصناعات، والأعمال التي يعملها الناس فمن تعلق بصناعته، أو بعمله، أو معرفته التي يكتسب بها شيئًا فإنه يوكل إلىٰ هذه الصناعة، وإذا وكل إليها لن يتحصل علىٰ خير بل يتعثر وتكون نهايته الخسارة، وإن كانت مثل هذه تكون أسبابًا؛ يعني: أسبابًا لجلب الرزق، أو ما أشبه ذلك قد جعلها الله أسبابًا، ولكن السبب لا يجوز أن يعتمد عليه فإن الاعتماد عليه يكون من الشرك، وإذا كان السبب مشروعًا فإن العبد يفعله علىٰ أنه سبب، ولكن اعتماده علىٰ ربه ﷻ.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (١٨٨٠٣)، والترمذي رقم (٢٠٧٢)، والبيهقي في الكبرىٰ رقم (١٩٣٩٥)، والحاكم في المستدرك رقم (٤٠٧٩).

قال: وروى الإمام أحمد عن رويفع رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترًا، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمدًا بريء منه»[١].

هذا الحديث رواه الإمام أحمد كما قال المؤلف رحمه الله، ولكن من طريق ابن لهيعة، وقد جاء من طريق آخر فدل على أنه صحيح.

قوله: «لعل الحياة»: لعل: تَرَجِّي، وقد طالت به الحياة كما أخبر رسول الله ﷺ، فإن رويفعًا طالت حياته إلى سنة ست وخمسين، فمات ببرقة من أعمال مصر أميرًا عليها، وهو من الأنصار، وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين.

وقوله: «فأخبر الناس»: أمره أن يخبر الناس، وليس هذا خاص به، بل كل من كان عنده علم فإنه مأمور بإخبار الناس؛ لأن أمر الرسول ﷺ لواحد من الأمة؛ كأمره لجميع الأمة، فمن كان عنده علم ليس عند غيره، فإنه يجب عليه أن يخبر الناس عمومًا، أما إذا كان العلم عنده وعند غيره، فإن إخباره يصبح من أمور الكفايات وفروض الكفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن البقية، وإلا لزام كما هو معلوم.

وفيه وجوب نشر العلم الذي يحتاج الناس إليه، فكل من كان عنده علم بذلك وجب عليه أن يبثه وينشره، ولا ينتظر أن يُسأل، أو يطلب ذلك منه، وهذا أمر معلوم لا يختلف فيه أحد، فقوله: «**أخبر الناس**» إخبار الناس هو إعلامهم بأن هذا لا يجوز.

وقوله: «أن من عقد لحيته»: بكسر اللام، لا يجوز غير ذلك، ولكن إذا جمعت جاز الجر والضم، ويجوز الفتح. وعقد اللحية اختلف في معناه على أقوال:

(١) فمن العلماء من يقول هو معالجة الشعر حتى يتعقد للتجمل والتزيين؛

(١) رواه أحمد في المسند رقم (١٦٩٩٦)، وأبو داود رقم (٣٦)، والبيهقي في الكبرى رقم (١)، والنسائي في الكبرى رقم (٩٣٣٦)، والطبراني في الكبير رقم (٤٤٩١).

كصنيع النساء، ومن يشبه النساء.

(٢) ومنهم من يقول: عقدها أن تعقد علىٰ زي الأعاجم من باب التكبر والتجبر عند الحرب ونحو ذلك حتىٰ يكون المنظر فيه تخويفًا.

(٣) ومنهم من قال: المقصود بعقدها في الصلاة كما ذكر ذلك ابن أبي زرعة؛ لأنه يقول: ورد الحديث في ذلك فيكون ذلك مثل النهي عن كف الثياب في الصلاة، فعقدها في الصلاة؛ يعني: كف الشعر حتىٰ لا يصيب الأرض، وقد يطلق علىٰ ما هو أعم فيدخل في ذلك اشتغاله بها بيده فيمسكها ويرفعها، وما أشبه ذلك، هذا إذا كان في الصلاة، وإذا كانت هذه الأمور الثلاثة كلها يدل عليها الحديث فتدخل فيه.

وقوله: «أو تقلد وترًا»: تخصيص الوتر؛ لأنه كان يُتقلد، وإلا فلو تقلد غيره بقصد ما يقصد من تقلد الوتر فهذا لا يجوز ويكون له نفس الحكم، وتقليد الوتر كما سبق يعتقدون أنه يدفع الضر سواء إصابة العين، أو إصابة الجن، أو غير ذلك من الأضرار التي يعتقدونها، وكانت الجاهلية واقعة في الشرك في أمور كثيرة وهذا منها.

وقوله: «أو استنجي برجيع دابة، أو عظم»: الاستنجاء إذهاب النجو، وهو أثر الخارج من الإنسان، ورجيع الدابة مثل: البعير، أو البقرة، أو غيرها، وقد جاء تعليل ذلك أنها علف لبهائم الجن المؤمنين، وكذلك العظام، فإنه يكون طعامًا لهم يجدون عليه اللحم أوفر ما كان، فقد سألوا النبي ﷺ الزاد فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**، فقال رسول الله ﷺ: **فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم من الجن**»[1]، ولدوابهم

---

(١) رواه مسلم رقم (٤٥٠).

الروث فمن فعل ذلك يفسدها عليهم، وهذا يكون من المحرمات، ولو لم نعلم الحكمة في ذلك، وإذا جاء نهي النبي ﷺ وجب الكف عن ذلك والامتناع منه.

ويدل علىٰ أنهما أيضًا لا يطهران، وأن الإنسان لو فعل ذلك لا تصح صلاته حتىٰ يستنجي، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهىٰ أن يستنجىٰ بروث أو عظم وقال: «**إنهما لا تطهران**»(١).

قوله: «**فإن محمدًا بريء منه**»: هذا من نصوص الوعيد التي تترك كما جاءت ليكون ذلك أدعىٰ للانزجار والابتعاد عن اقتراف هذه الأمور، وإن كان المسلم لا يكفر بذلك، ولكن لا يجوز أن نخفف من أمرها حتىٰ يكون أدعىٰ لعدم القربان، أما قول البعض كما يقوله النووي: أنه بريء من فعله. فهذا فيه نظر؛ لأنه قال: «**بريء منه**»، ولم يقل: «بريء من فعل ذلك الفاعل»، فهذا تأويل علىٰ خلاف الظاهر، والواجب أنها تبقىٰ علىٰ ما هي عليه، فنصوص الوعيد لا تفسر ولا تأول، تبقىٰ علىٰ ما هي عليه، وهذا هو المختار فلا يجوز التهاون في ذلك؛ لأن هذا يقلل من شأنها كثيرًا.

وإن كانت لا تدل علىٰ الكفر والخروج من الدين الإسلامي، ولكن تدل علىٰ عظم الأمر، وأقل ما يقال فيها: أنها تكون كبيرة والشاهد من هذا قوله: «**أو تقلد وترًا**»، والبراءة ممن فعل هذه الأشياء كلها أو فعل واحدًا منها، فإن محمدًا ﷺ بريء منه فدل علىٰ تحريمها، فأما الوتر فلا إشكال فيه أنه شرك؛ لأنه تعلق بغير الله، وأما البقية فإن هذا من فعل المتكبرين، أو فعل المخنثين، والاستنجاء يفسد علىٰ الجن المسلمين ما أعطاهم الرسول ﷺ إياه من علف دوابهم وطعامهم، وفي هذا كما يقول الشارح علم من أعلام النبوة، وأعلام النبوة معناها دلائلها ومعجزاتها حيث أخبر الرسول ﷺ بطول حياة رويفع، وقد طالت.

---

(١) سنن الدارقطني باب الاستنجاء رقم (٩).

وفيه كما هو ظاهر جواز تصغير الأسماء، فإن رويفعًا مصغر، وكذلك عُكيم كما سبق فإنه مصغر، والرسول ﷺ أقر ذلك.

قال: وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»(١). **رواه وكيع. وله عن إبراهيم؛ قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»**(٢).

قوله: «كعدل رقبة»؛ يعني: كأنه أعتق رقبة، وهذا موقوف على سعيد، ولكن مثل هذا لا يقال بالرأي مثل: ذكر الثواب، والجزاء على الأعمال؛ يعني: أن له كذا وكذا، فالظاهر أنه له مستنداً في هذا، وسعيد تابعي فهو من تلاميذ ابن عباس وغيره من الصحابة، فيكون هذا مرسل له حكم الرفع عند أهل العلم.

وفي هذا تخليص الإنسان مما يقع فيه من كونه يعلق شيئًا عليه، أو على ولده، أو ما أشبه ذلك، ومعلوم أنه ليس المقصود أنه يقطعها، بل لا بد من ذكر الحكم وأن هذا لا يجوز، ولكن فيه إنكار المنكر باليد في هذا؛ لأن هذا منكر عظيم فيقطعها ويعلمه أن هذا شرك مثل ما قال حذيفة: «**لو مت، وهي عليك ما صليت عليك**»، وكذلك قول الرسول ﷺ للذي لبس حلقة من صفر: «**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»، فيعلمه مع قطعها أن هذا لا يجوز فعله، وأن هذا قادح في التوحيد؛ بل مُذهب لكماله، وقد يذهب به إذا كان يعتقد أنها تنفع بنفسها.

وقوله: «وله عن إبراهيم»: هو ابن يزيد النخعي من تلامذة عبد الله بن مسعود، وهو تابعي، وقد أدرك كثيرًا من الصحابة وأخذ العلم عن عبد الله بن مسعود ولازمه، وعن غيره من الصحابة، مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (٢٣٤٧٣).

(٢) المصدر السابق رقم (٢٣٤٦٧).

قوله: «كانوا»: هذا عموم وليس مقصودًا بعموم الصحابة وغيرهم، وإنما مقصوده أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه مثل: عبيدة، والربيع بن خثيم، والأسود بن يزيد، وعلقمة وأبي وائل، والحارث بن سويد، ومسروق وغيرهم كثير، وهم من سادات التابعين.

وقوله: «يكرهون»: الكراهة هنا يقصد بها التحريم، فإن هذا عندهم من المحرمات وإطلاق الكراهة عند السلف ولا سيما أصحاب ابن مسعود يقصد بها التحريم وليست الكراهة التي اصطلح عليها المتأخرون، أما السلف فإن عندهم الكراهة يقصد بها التحريم، وهذا لغة القرآن التي جاء بها، وكذلك لغة الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم.

قوله: «**التمائم كلها من القرآن ومن غير القرآن**»: سواء من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته، أو من غيرها، فلم يستثن من ذلك شيئًا، ولهذا قال: «من القرآن ومن غير القرآن»؛ يعني: الذي قيل: أنه جائز، والذي اتفق إنه لا يجوز؛ لأنه من الشرك عند أصحاب ابن مسعود أن هذا محرم، وهذا هو الراجح كما سبق.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

يعني: أن الرقى والتمائم والتولة، وأخرج الدليل من الرقى إذا كانت من القرآن، أو بأسماء الله وصفاته، فليست من الشرك، ولكن هذا يحمل على رقى الجاهلية، ولهذا قال: «**كلها من الشرك**»؛ يعني: رقى الجاهلية.

الثانية: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

ومن غير العين والحمه ولكن مقصوده: أنه نص على العين والحمه في الحديث.

الثالثة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

لقول سعيد إنه كعتق رقبة؛ يعني: مثل إذا أعتق رقبة؛ لأن العتق جاء فضله منصوصًا عليه في أحاديث الرسول ﷺ أنه يكون له عتق من النار بكل عضو من المعتق في مقابله ما يعتق من المعتق عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار حتىٰ فرجه بفرجه»**(١)، فهذا فضل عظيم، وقد سبق أن هذا لا يقال بالرأي، فلا بد أن يكون مستند إلىٰ كلام الرسول ﷺ.

الرابعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

يعني: قوله: **«كانوا يكرهون»**؛ يعني: ليس مقصوده العموم، وإنما كان يقصد بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري رقم (٦٧١٥)، ومسلم رقم (١٥٠٩).

الباب التاسع

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما.**

يعني: ما حكم ذلك هل يكون ذلك شركًا أو لا؟

والتبرك معناه: أن يطلب البركة ويرجوها؛ يعني: طلب البركة من الشيء المعين، أو اعتقادها فيه مثل: الحجر، ومثل: الأشخاص، ومثل: القبور، وما أشبه ذلك، ويعتقد أن البركة تحصل لمن لامسها، أو جلس عندها، أو طلبها منها، فهذا من الشرك كما يأتي.

والبركة لا تكون إلا من الله جل وعلا؛ لأن البركة هي النماء في الشيء والزيادة فيه والتكثير، وطلب البركة كله من العبادة التي لا تجوز أن تكون إلا لله جل وعلا، فإذا جُعلت لشجرة، أو حجر، أو غار، أو لمكان، أو لقبر، أو ما أشبه ذلك، فقد وقع فاعل ذلك في الشرك.

وعادة الناس أنهم يتبركون بأشخاص معينين يعتقدون صلاحهم وأن ملامستهم فيها بركة مثل: ثيابهم، أو فضلات طعامهم، أو عرقهم، أو ما أشبه ذلك، وقد أكثر النووي رحمه الله في شرح مسلم من ذكر هذا الشيء إذا أتىٰ إلىٰ ما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الصحابة كانوا يتبركون به يتبركون بفضلاته من العرق، أو شيء يلامس بدنه من ثوب، أو نحو ذلك، أو شعر وهذا شيء مشهور كما في قصة الحديبية في قول عروة بن مسعود أنه جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينه قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فيدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له فرجع عروة إلىٰ أصحابه، فقال: أي

قوم والله لقد وفدت علىٰ الملوك ووفدت علىٰ قيصر وكسرىٰ والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها[1].

ومن المشهور أيضًا أنه لما حلق شعره قسمه علىٰ أصحابه فعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره»[2]، وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ أتىٰ منىٰ فأتىٰ الجمرة فرماها، ثم أتىٰ منزله بمنىٰ ونحر، ثم قال للحلاق: خذ وأشار إلىٰ جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس»[3]، وهذا كثير في سيرته ﷺ، فإذا جاء هذا يقول النووي: فيه استحباب التبرك بالصالحين[4] وهذا فيه نظر، وذلك لأمور:

الأول: أنه لا أحد يقارب النبي ﷺ فضلًا عن المساوات، ولا يمكن أحد أن يقول هذا.

الثاني: أن الصلاح في القلب وهو أمر لا يعلمه إلا الله ﷻ، وإنما الناس يعلمون الشيء الظاهر لهم، أما الاطلاع علىٰ القلوب فهذا إلىٰ الله ﷻ، فكونه يحكم علىٰ هذا الشخص بأنه صالح فهذا أمر ظني ليس يقينيًا، فلا يمكن أن يتبرك بشيء مظنون، هذا لو قدر أنها جائزة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٧٣٠).

(٢) رواه البخاري رقم (١٧١).

(٣) رواه مسلم رقم (١٣٠٥).

(٤) شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ١٦١) يقول: ومنها التبرك بالصالحين وآثارهم والصلاة في المواضع التي صلوا بها وطلب التبريك منهم.

الثالث: أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يفعلوا هذا مع غير النبي ﷺ لا في حياته، ولا بعد مماته صلوات الله وسلامه عليه، فلم يفعلوه مع أبي بكر ولا مع عمر، ولا مع عثمان، ولا مع غيرهم من أفاضل الصحابة، فدل على أنه مقصور على النبي ﷺ.

الرابع: أن هذا فيه وسيلة وذريعة إلى فعل ما لا يجوز، والافتتان في هذا الباب أمره واضح.

الخامس: أن المتبرك به قد يكون له فتنة فيُعجب بنفسه فيكون مثل: المدح الذي نهى عنه الرسول ﷺ في المواجهة.

فعلى هذا لا يجوز أن يتبرك بأحد من الناس على هذا الوجه؛ يعني: استدلالًا بما كان الصحابة يفعلونه بالنبي ﷺ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله الله تعالى**: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] **الآيات**.

ذكر هذه الآيات بعد ما ذكر الله جل وعلا الوحي إلى نبيه ﷺ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤]، فقال بعد ذلك: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]؛ يعني: الأصنام التي اتخذتموها آلهة والكلام فيها مقدر مفهوم من الكلام تقديره: هل أوحت إليكم، أو هل تنفعكم، أو تضركم، فإنها لا تفعل من ذلك شيء، حتى تكون شركاء لله تعالى؟

واللات والعزى ومناة هذه الثلاث من الطواغيت الكبيرة عند العرب، وأكبرها العزى، ثم يليها اللات، ثم تليها مناة.

قوله: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾»: هذا استفهام، والتقدير: أخبروني هل هذه التي اعتقدتم فيها الشفاعة، وأنها تتوسط لكم عند الله وتنفعكم هل فعلت شيئًا، أو أوجدت شيئًا مع الله جل وعلا؟

وقوله: «﴿ٱللَّٰتَ﴾»: قُرأت بالتخفيف، وقرأت بالتشديد، فقرأ الجمهور: بتخفيف التاء «اللآت» وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وحميد وغيرهم بتشديد التاء.

فمن خفف لاحظ أنه مشتق من الإله، ولكنها مؤنثة أخذوها من اسم الله ﷻ، وهذا من الإلحاد في أسماء الله ﷻ، ومن الشرك في توحيد الأسماء والصفات وعلىٰ قراءة التشديد فهي مأخوذة من اللت وهو الخلط، وقد جاء أنه رجل يلت السويق[١] بالزيت أو السمن، ويقدمه لمن أتىٰ إليه، ولما مات دفنوه تحت الصخرة، ثم عبدوها وصاروا يعكفون عندها[٢]، ويطوفون بها وتبركون بها، وصار لها بناء معظم، وصاروا يفتخرون بها علىٰ سائر العرب إلا قريشًا فإن قريشـًا عندهم العزىٰ أعظم منها، وكانت اللات في الطائف في ثقيف ومن والاهم من مشركي العرب، والأصل علىٰ قراءة التخفيف أنها صخرة منقوشة كما يقول الكلبي في كتابه الأصنام يقول: إنها كانت صخرة، ولما أسلمت ثقيف أرسل رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وأحرقها[٣]، ثم بُنىٰ المسجد[٤] قريبًا منها حتىٰ تنسىٰ، وقد نسيت ولم يعرف مكانها إلا بذكر الذين حفظوه واعتنوا بهذا الموضوع.

وقوله: «﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾»: قيل: إنها مأخوذة من اسم الله العزيز، وهي عبارة عن شجرات ثلاث سمرات عليها بناء وأستار في وادي نخلة قرب عرفات، وكانت قريش تعظمها، ولهذا لما حصل ما حصل يوم أُحد كان قائد المشركين أبو سفيان

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ كان اللات رجلًا يلت سويق الحاج. رواه البخاري رقم (٤٨٥٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٣) فلما مات عكفوا علىٰ قبره فعبدوه. ذكره عن مجاهد.

(٣) الأصنام للكلبي (ص٢، ٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٧) قال: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف.

يقول: يوم بيوم بدر، والحرب سجال إنكم ستجدون في القوم مُثلة لم آمر بها ولم تسوؤني، ثم أخذ يرتجز: أُعلُ هبل أعل هبل، قال النبي ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله أعلىٰ وأجل»**، قال: إن لنا العزىٰ، ولا عزىٰ لكم، فقال النبي ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله مولانا ولا مولىٰ لكم»**(١). فالعزىٰ شجرات لها أستار، ولها سدنة فكانوا يعظمونها فيأتون إليها ويعكفون عندها لطلب البركة ويعلقون بها أسلحتهم، وقد يسمعون منها الكلام؛ لأن الشيطان يدخلها ويتكلم فيها ليفتنهم(٢) وهذا يقع كثيراً.

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد ﷺ إلىٰ نخلة -وكانت بها العزىٰ، وكانت علىٰ ثلاث سمرات- فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتىٰ النبي ﷺ فأخبره فقال: **«ارجع فإنك لم تصنع شيئًا»** فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزىٰ. فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب علىٰ رأسها (وهذه هي الشيطان الذي كانوا يسمعونه)، فعمَّمها بالسيف فقتلها. ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: **«تلك العزىٰ»**(٣).

وقوله: «﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾»: المتأخرة الحقيرة؛ كقوله ﷻ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ يعني: سقطاؤهم ومتأخروهم علىٰ أحد قولي المفسرين لرؤسائهم وسادتهم، ومناة قيل: إنها مأخوذة من اسم الله المنان -تعالىٰ الله وتقدس-، وقيل: مأخوذة من الفعل الذي يحصل عندها وهو كثرة ما يمنىٰ عندها من الدماء فتراق الدماء عندها تقربًا إليها.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٠٣٩).

(٢) أخبار مكة للأزرقي (١/ ١٧٤) قال الكلبي: وكانت اللات والعزىٰ ومناة في كل واحدة منهن شيطانة تكلمهم وتتراءىٰ للسدنة، وهم الحجبة، وذلك من صنيع إبليس وأمره.

(٣) رواه النسائي في الكبرىٰ رقم (١١٥٤٧)، ومسند أبي يعلىٰ رقم (٩٠٢).

وكانت بين مكة والمدينة: فعن عروة عن عائشة رضي الله عنها كان رجال من الأنصار ممن كان يهل لمناة، ومناة صنم بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، فإذا أراد أهل المدينة الحج أو العمرة يهلون منها، ويعظمونها كثيرًا وكذلك القبائل حولها[١]، فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقيل: أبا سفيان فهدمها.

فهم اشتقوا لهذه الأصنام أسماء من أسماء الله جل وعلا، فالعزىٰ من العزيز، واللات من اسم الله جل وعلا، ومناة من اسمه جل وعلا المنان[٢] وهذا من الإلحاد في أسماء الله جل وعلا ومن الشرك، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين يشركون في أسماء الله جل وعلا اشتقوا منها العزىٰ ومناة ونحو ذلك فهذا شرك.

وهم يقولون: إنها مؤنثة من الله -تعالىٰ وتقدس-، وهكذا هم يؤنثون معبوداتهم، ومعلوم أن التأنيث يدل علىٰ الرخاوة وعلىٰ اللين وعلىٰ الضعف، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]؛ يعني: أنكم أنتم تأنفون من أن تُنسب إليكم الإناث: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، ثم يذهب يجعل لله جل وعلا ولداً -تعالىٰ الله وتقدس-، ويجعلون له شركاء إناث في العبادة والتوجه والطلب -تعالىٰ الله وتقدس- عن قولهم.

فهذه من أصنام العرب الكبيرة، ولهم أصنام غيرها كثيرة مثل: هبل وإساف ونائلة وكانت في مكة، أما هبل فكانوا يعبدونه ويدعونه، ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد في فخره: أعل هبل، فقال ﷺ: **أجيبوه**، قالوا: وماذا نقول؟ قال: قولوا: **الله أعلىٰ وأجل**. وقبل ذلك كان ﷺ ينهاهم عن إجابته فلما جاء بالشرك وانتقاص رب

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٦).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٢٨٣) ذكره عن مجاهد، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥١٦)، وتفسير البغوي (٣/ ٣٠٧).

العالمين أمرهم بإجابته.

وقد جاء أن الرسول ﷺ لما فتح مكة وجد عند الكعبة منصوبًا أكثر من ثلاثمائة من الأصنام المعبودة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبًا فجعل يطعنها بعود في يده وجعل يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]»[(١)]، فصارت تتهاوىٰ علىٰ رؤوسها؛ لأن هذا هو الباطل الذي أمر الله ﷻ أن يزهق، وأن يمحىٰ ويمحق وكل المعبودات من دونه.

كان فعلهم في هذه الأصنام أنهم يطوفون عليها ويجلسون عندها طلبًا للبركة، وقد يُعلقون أسلحتهم وثيابهم، ويأتون إليها بالقرابين التي يذبحونها، ثم يأكلونها يريقون الدماء عندها فيزعمون أنها تشفع لهم وما كان أحد منهم يقول: إنها مشاركة لرب العالمين في التدبير والخلق، أو ما أشبه ذلك وكلهم يعتقد أنه يدعوها لتقربه إلىٰ الله؛ يعني: أنها واسطة لتشفع له عند الله، فما ذكر عن أحد من المشركين القدماء أنه اعتقد أن مع الله شريكًا في الخلق والتدبير والتسخير، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ يعني: يعلمون هذه الأمور حقيقة أن الله هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم وحده لم يشاركه في الخلق أحد، وهو الذي جعل الأرض علىٰ هذه الصفة، وجعل السماء سقفًا لها مرفوعًا علىٰ هذه الصفة، وهو الذي ينزل وحده من السماء ماء فيخرج به من الثمار والحبوب ما يأكلونه وتأكله أنعامهم يعلمون هذا جيدًا لهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: في العبادة والتقرب والتبرك وأنتم تعلمون أنه ﷻ هو المتفرد بما ذكر، وكذلك

(١) رواه البخاري رقم (٢٤٧٨)، ومسلم رقم (١٧٨١).

قوله ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] في آيات كثيرة جدًا كلها تبين أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية الذي هو توحيد الرب ﷻ وتفرده بأفعاله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك، علىٰ هذا يكون شركهم في مثل هذه الأصنام أنهم جعلوها واسطة بينهم وبين الله يدعونها لتشفع لهم، وبعضهم يقول أطلب منها أن تقربني إلىٰ الله زلفىٰ لأنها لا ذنوب لها أما نحن فمذنبون، فإذا دعوناه بلا واسطة يمكن أن يرد دعاءنا، ويقولون أيضًا: إننا نجعل بيننا وبين ربنا وسائط لأنه أنجح للسؤال لأننا نرىٰ الملوك والكبراء لا يخاطبون رأسًا وإنما يتقرب إليهم بالواسطة التي تكون مقربة إليهم مثل: وزير، أو أخ، أو زوج، أو ما أشبه ذلك، فقاسوا رب العالمين علىٰ المخلوق الضعيف الذي لا يعلم شيئًا ولا يستطيع أن يستقل في الأمور وحده، وكل هذه من أسباب الشرك التي أوقعتهم في الكفر والابتعاد عن الله ﷻ، ثم صاروا يتتابعون علىٰ هذا، وصار الابن يقلد الأب، ثم صار دينًا مسلوكًا، وإذا تغير، أو جاءت الرسل للدعوة إلىٰ التوحيد توحيد الله ﷻ تعجبوا وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]؛ لأنهم تربَّوا علىٰ هذا وعاشوا عليه، فعلىٰ هذا يوازن العاقل الذي ينظر بعقله وببصيرته إلىٰ واقع كثير من المسلمين الذين يهرعون إلىٰ القبور كلما ألم بهم مُلم يدعونها بتضرع وخشوع وذل، وكذلك إذا لم يلم بهم ملم وإنما يذهبون إليها يطلبون الرزق منها، أو الولد أو الانتصار علىٰ العدو، أو كشف الضر، أو جلب النفع، أو ما أشبه ذلك، وهم يزعمون أنهم مسلمون وإذا قيل لهم في ذلك، قالوا ليس هذا شرك وإنما هذا حب الصالحين فنحن نحبهم ونتوسل بهم، والسبب في هذا أنهم جهلوا معنىٰ العبادة وجهلوا معنىٰ التأله لا يعرفون معنىٰ الإله ولا يعرفون معنىٰ العبادة. فتتابعوا علىٰ هذا الشيء حتىٰ صار مألوفًا لديهم وأصبح شركهم أعظم من شرك المشركين

القدماء الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ؛ لأن الله قد قص علينا في كتابه عنهم أنهم إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله ﷻ وتركوا شركهم، أما هؤلاء فبالعكس إذا وقع أحدهم في شدة أخلص لمعبوده من دون الله، وعند الدعاء والتضرع والخضوع والذل تجده يبكي بلهفة وشجن، أمر لا يكون لأكثرهم أو لكلهم في المساجد عندما يصلون لله ﷻ فصار شرك المشركين القدامىٰ أقل من شركهم مع أنهم يزعمون أنهم ليسوا مشركين وإذا قيل لهم: هذا شرك صاحوا بمن قال ذلك وقالوا: أتجعلنا كالمشركين ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهم يتكلمون بهذه الكلمة مثل السكران أو النائم أو المجنون يهذون بها هذيانًا لا يفهمون معناها ولا يعملون بمقتضاها، وهي لا تنفعهم، ففعل هؤلاء بالمقبورين أعظم من فعل أولئك بالأحجار والأشجار.

قوله: «﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾»؛ يعني: كيف تجعلون لله ولداً، ثم تجعلون هذا الولد أنثىٰ وأنتم تأنفون من ذلك، ثم تجعلونها شركاء لله ﷻ، فوق هذا كله، فهذه ظلمات بعضها فوق بعض. والمعنىٰ أن هذه الآلهة مؤنثة، والأنثىٰ كما هو معلوم ضعيفة، والتأنيث يدل علىٰ اللين والرخاوة والضعف، فكيف تجعلون هذا القسم الضعيف شريكًا لرب العالمين -تعالىٰ الله وتقدس- ولهذا قال: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ يعني: جائرة، لو كانت بين مخلوقين لكانت ظلماً وجوراً، فكيف تجعلون هذه القسمة بينكم وبين رب العالمين، فبهذا يتبين كون الشرك لا يغفر؛ لأنه أظلم الظلم وأعظم الذنوب.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: مجرد أسماء ليس لها حقائق ولا يدل الاسم علىٰ مسمىٰ وليس لها من الإلهية شيء، بل هي أسماء مكذوبة وضعت علىٰ غير مسماها، فتسميتها إله معبود هذا كذب وزور وبهتان

وشرك بالله ﷻ، فهي ناقصة ليست مما يتصرف أيضًا ويعقل ويأخذ ويعطي بل هي أقل من ذلك فكيف تجعلونها لله شريكًا.

قوله: «﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾»: مجرد أتباع لآبائكم وتقليدًا وتعظيمًا لهم.

قوله: «﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾»؛ يعني: ليس لكم فيها برهان وحجة ولا أثارة من علم مجرد اتباع للآباء واتباع للهوىٰ وطاعة للشيطان فقط ليس فيه غير هذا.

قوله: «﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾»؛ يعني: إحسان ظنهم بآبائهم علىٰ هذا المنهج الشركي.

قوله: «﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾»؛ يعني: أنهم يفعلون ذلك؛ لأن فيها حظ نفوسهم من تعظيم آبائهم وتعظيم آلهتهم وافتخارهم بما يتخذونه علىٰ غيرهم.

ثم أخبر ﷻ أن الحق جاءهم به نبيهم ﷺ ولكنهم صدفوا عنه وأعرضوا، ولم يقبلوه فكانوا ضلالًا بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: جاءهم الرسول ﷺ بالتوحيد وبالنور الذي فيه سعادتهم لو آمنوا به واتبعوه، ولكنهم أعرضوا عنه، وتمسكوا بما وجدوا عليه آباءهم من الشرك الذي لم ينزل الله ﷻ به من سلطان.

ووجه الاستدلال من الآية واضح، وهو أن الذي يتبرك بالشجر، أو بالحجر، أو بالمكان، أو بالقبر أو بما أشبه ذلك أنه مشابه لفعل المشركين تمامًا في اتخاذهم اللات والعزىٰ ومناة وهبل وإساف ونائلة وغيرها من أصنامهم الكثيرة.

✍ قال المؤلف رحمه الله: عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات

أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] **لتركبُن سُنن من كان قبلكم»، رواه الترمذي وصححه**(١).

قوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين»؛ يعني: عام الفتح، فتح مكة فإن الرسول ﷺ لما فرغ من مكة توجه إلىٰ هوازن؛ لأنه بلغه أنهم يجمعون له الجموع ليقاتلوه فبادرهم قبل إتيانهم، وهكذا كانت سُنَّته ﷺ إذا علم أن أحدًا من المشركين يريد غزوه بادر بالغزو، فإنه يغزوهم في بلادهم ولا يغزونه، ولهذا لما وقعت وقعة الأحزاب قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «**نغزوهم ولا يغزوننا**»(٢)، فما غُزي ﷺ في بلده بعد ذلك اليوم، وكان هو الذي يغزو صلوات الله وسلامه عليه، وهكذا يجب علىٰ المسلمين أن لا ينتظروا المشركين حتىٰ يهجموا عليهم في بلادهم بل يجب عليهم أن يغزوهم في بلادهم، ولهذا يقول الفقهاء يجب علىٰ المسلمين أن يغزوا ولو في السنة مرة؛ يعني: أنهم لا يجوز أن يعطلوا الجهاد والله المستعان.

وقوله: «إلىٰ حنين»: وحنين اسم وادٍ كانت فيه الواقعة.

وقوله: «ونحن حدثاء عهد بشرك أو قال: بكفر»: ليبين أن هذا الذي وقع منهم أن الصحابة يعرفون أنه لا يجوز؛ لأنهم يعلمون أن هذا من الشرك، وأن هذا أمر لا يجوز أن يخفىٰ علىٰ المسلم وإنما وقع هذا من الجهل، لأنهم قريبوا عهد بكفر؛ يعني: أنهم دخلوا في الإسلام قريبًا فخفي عليهم هذا الأمر، فذكر ذلك لهذه العلة؛ يعني: أن غيرهم من المسلمين لا يخفىٰ عليهم ذلك، وفي هذا دليل علىٰ أن الإنسان الذي دخل حديثًا في الإسلام أنه قد يقع في أمور عظيمة وهو لا يدري. ويدل علىٰ أن الإنسان قد يرتكب الأمر العظيم يظنه خيرًا وهو شر.

(١) رواه الترمذي رقم (٢١٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم (٢١٨٩٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٤١٠٩) عن سليمان بن صرد وفي رواية: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم**».

وقوله: «وللمشركين سدرة»: السدرة معروفة لا تزال بهذا الاسم، وليس هذا خاص بالسدرة، بل أي شجرة اعتقد فيها تكون من هذا النوع، فهي ذات أنواط.

قوله: «يعكفون عندها»؛ يعني: يجلسون عندها، وجلوسهم عندها لطلب البركة، والعكوف أمره ظاهر فإن العكوف عبادة، لا يجوز أن يكون إلا في المساجد لله ﷻ، ولا يكون عند الأحجار والأشجار والقبور، فمن فعل ذلك فقد صرف عبادة الله لمخلوق وهو الشرك.

قوله: «وينوطون بها أسلحتهم»؛ يعني: يعلقونها، ناط ينوط إذا علق الشيء، فهم يعلقونها طلبًا للبركة؛ لأنهم يعتقدون أنهم إذا علقوها بها صار أمضىٰ لها وصارت لا تخطئ مقاتل العدو؛ فمعناه: أنهم يعتقدون أن الأسلحة تكتسب البركة منها، ويكون بذلك سبب النصر لهم، ومثل ذلك ما إذا طلب الإنسان البركة من قبر، أو من شجر فعلق بها خرقة، أو ثوبـًا، أو ما أشبه ذلك، أو بناء أو حديد مثل شباك يجعل مثلًا علىٰ القبور، أو ما أشبه ذلك كما هو الواقع فإنه يكون له هذا الحكم تمامًا فيكون قد وقع في الشرك الذي يجب أن يتوب منه ويقلع عنه قبل أن يموت.

قوله: «يقال لها: ذات أنواط»؛ يعني: سميت من الفعل الذي يفعلونه وهو التعلق؛ يعني: أخذوا هذا الاسم لها مما يفعلونه بها.

قوله: «فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»: ظنوا أن هذا أمر محبوب لله وللرسول ﷺ، ولهذا طلبوا ذلك من النبي ﷺ. وفي هذا كما يقول المؤلف رحمه الله: **«أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها علىٰ الأمر»**(١). ولهذا قالوا: **«اجعل لنا»** طلبوا منه، وبدون أن يجعل النبي ﷺ شيئًا يتعبدون به فإنه لا يثبت، ومعنىٰ ذلك أنهم لم يفعلوا وإنما طلبوا ظنًا أنه يجوز ذلك، فبيَّن النبي ﷺ أن هذا أمر لا يجوز وأنه من الشرك.

---

(١) المسألة العشرون.

✍ **والمؤلف** رحمه الله **يقول: «فصار فيه التنبيه على مسائل القبر، أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: «اجعل لنا»».**

فمسائل القبر لا تؤخذ من هذا الحديث، وإنما يقول صار التنبيه على مسائل القبر وهي معرفة المعبود ومن جاء بالعبادة، وكذلك العبادة لا بد أن تكون معلومة؛ يعني: يكون العبد عابدًا بأمرٍ جاءه من الله والرسول ﷺ تبين صدقه بالمعجزات، ومنها الإخبار بالغيوب وغيرها، وأما المعبود فله في كل شيء آية تدل على أنه واحد، ولهذا قال: وأما من ربك؟ فواضح بالأدلة الكثرة، إما في نفس الإنسان أو فيما حوله وغير ذلك مما يحدث، فهي تستنبط من كونهم عرفوا وعلموا أنهم لا يقدمون على عبادة حتى يكون مأموراً بها وجاء بها الرسول ﷺ، ولهذا استأذنوه في ذلك والرسول ﷺ عُلم صدقه بالمعجزات، ومنها إخباره بالغيوب ومنها قوله: «**إنها السنن**»؛ يعني: الطرق التي كانت مسلوكة.

قوله: «الله أكبر»: في الترمذي قال: «**سبحان الله**»(١): والمعنى واحد، فتكبير الله وتسبيحه كله تنزيه أن يضاف إليه الشرك، وهذه عادة الرسول ﷺ أنه يكبر عند الأمور التي فيها انتهاك لحق الله جل وعلا، أو خدش معنى الربوبية والإلهية، أو الأمر العجيب وهذا من الأمور العجيبة؛ لأن هذا الواجب أنه لا يخفى على العاقل؛ لأن الشجر والحجر ليس عندها شيء من نفع ولا ضر.

وقوله: «السنن»؛ يعني: سنن الأمم السابقة؛ يعني: الطرق التي كانت مسلوكة، فأنتم تسلكون كما سلك غيركم، ولهذا قال ﷺ: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]».

الله جل وعلا قد أخبرنا عن بني إسرائيل أنه لما أنجاهم من فرعون حينما فلق لهم

(١) الترمذي رقم (٢١٨٠).

البحر فأنجاهم وأغرق فرعون وهم يشاهدون وينظرون الآيات العظيمة يضرب موسىٰ البحر بعصاه فيصير طرقًا؛ كأنها جبال الماء واقف عن يمينهم وشمالهم وهم يمشون في أرض يبس لا يدركهم فيها زلق ولا يخافون فيها أن يلتئم عليهم الماء، ثم لما تكاملوا خارجين وقد دخل فرعون وقومه تبعًا لهم أطبق الله ﷻ البحر فأغرقهم فامتن الله عليهم بهذا، وهذه آية عظيمة، وبعد ذلك بقليل يمرون علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم؛ يعني: قد جلسوا عندها وأحاطوا بها يطلبوا منها البركات، وإنالة الطلبات كعادة المشركين، فقالوا لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فأيها أعظم طلب ذات أنواط، أو طلب هؤلاء؟ فهو شرك ظاهر، ومع هذا أقسم النبي ﷺ أنهم قالوا مثل ما قالت بنو إسرائيل، فتبين بهذا أن طلب البركة من شجر أو حجر أو نحوهما شرك أكبر ليس من الشرك الأصغر، وكذلك طلب البركات من الأماكن؛ يعني: البقاع، فكل طلب يكون من مخلوق لبركة، أو إعطاء الشفاء، أو ما أشبه ذلك شرك بالله ﷻ؛ كدعوة الأصنام لا فرق بين طلب التبرك وبين كونها تُدعىٰ إلهًا من دون الله ﷻ فهو كله شرك.

قوله: «**والذي نفسي بيده**»: الذي نفس الرسول ﷺ بيده هو الله ﷻ، والمعنىٰ الذي يملك إماتتي وإحيائي الذي يتصرف فيَّ وفي جميع خلقه هو الله ﷻ.

وهذا قسم من الرسول ﷺ، وهو لا يقسم إلا إذا كان فيه مصلحة، والمصلحة في هذا البيان الواضح الذي يبين أن هذا شرك لا يجوز أن يقع في الأمة المسلمة المتبعة للرسول ﷺ، فيجب أن يحذر غاية الحذر.

قوله: «**كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»: فجعل الرسول ﷺ هذا الطلب كطلب بني إسرائيل من موسىٰ عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا كما للمشركين آلهة يعبدونها من دون الله، فإذا وازنا بين هذا وبين طلب الصحابة من

الرسول ﷺ فإذا هو مجرد طلب، ولكن أمر بني إسرائيل واضح أنهم مروا علىٰ أصنام، أما هذا فمجرد طلب أن يجعل لهم شجرة يعلقون بها الأسلحة أو غيرها، ولكن فيه أن المشركين يعكفون عند هذه الشجرة، ويعلقون بها أسلحتهم فعكوفهم عبادة وكونهم يعلقون بها الأسلحة يرون أنها تكتسب بذلك بركة، فهذا أيضًا نوع من العبادة فصار مطابقًا لما قالته بنو إسرائيل، ولهذا أقسم النبي ﷺ بقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ**»، قد يقول قائل: هل مجرد هذا الطلب يكون به المسلم خارجًا من الدين، ولم يأت عن الرسول ﷺ أنه أمرهم أن يجددوا دينهم؟ نقول: إنهم لم يفعلوا وإنما ظنوا أن هذا جائز، وأنه متوقف علىٰ إجازة النبي ﷺ فلم يقع الفعل وإنما وقع طلب مبني علىٰ ظن أنه محبوب لله ورسوله ﷺ، فلما تبين لهم ذلك تبرؤوا منه، فمعنىٰ هذا أن الإنسان إذا فعل شيئًا، أو أراد فعله وهو يجهله، ثم تبين له أنه محرم بمجرد تركه، والابتعاد عنه يكفيه في تكفيره هذا الشيء ولا يحتاج أن يجدد دينه؛ لأنه لم يقع عن علمه وإرادته وإنما هو ظن باجتهاده وفي هذا الحديث أن ما ذكر عن بني إسرائيل من اليهود والنصارىٰ من ذمهم وأنهم ارتكبوا أشياء تخالف أمر الله وأمر رسله وكذلك التحذير والتبكيت لهم أن المقصود به نحن؛ لأن خطاب الكفار وخطاب المشركين وخطاب اليهود والنصارىٰ مع إعراضهم عن ذلك لا يجدي ولا ينفع، وإنما الخطاب يكون لمن سمع ومن يمتثل فنحن المقصودون بهذا، فكل ما ذموا به في الكتاب والسُّنَّة فلأجلنا أي : لأجل أن لا نسلك مسالكهم ونعمل عملهم، وهذا الحديث في ذلك واضح وكذلك غيره.

قوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»: السنن بضم السين الطرق التي يتبع فيها المتأخر الأول، والطرق هذه هي الطرق المعنوية وليست الطرق الحسية يعني طرق الاعتقاد والعمل.

قوله: «من كان قبلكم»: الذين قبلنا بنو إسرائيل ويدخل فيهم النصارىٰ أتباع عيسىٰ عليه السلام؛ لأن كل نبي بعث بعد إبراهيم عليه السلام فهو من ذريته وكلهم أولاد إسرائيل وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ولهذا لا يجوز أن نسمي شرذمة شذاذ الناس وخبثائهم أن نسميهم إسرائيل؛ لأن إسرائيل نبي كريم فالواجب أن يقال: يهود نجس خبثاء، فكل نبي بعثه الله بعد موسىٰ فهو من ولد إسرائيل من ولد يعقوب إلا محمدًا ﷺ فهو من ولد إسماعيل، وإسماعيل وإسحاق كلاهما أبناء إبراهيم، ولكن إسماعيل هو بكره، وهو الذي بُشر به بعد ما بلغه الكبر وهو ابن هاجر الأمة التي وهبتها له زوجته سارة كما هو معروف، وفي هذا إخبار فيه التحذير من أن نقع في مثل هذا، ومع هذا فلا بد من وقوع ذلك؛ لأنه خبر صدق، ولهذا جعل هذا دليلًا علىٰ نبوته ﷺ، لأنه أخبر بشيء لم يقع فوقع كما أخبر، والآن أصبحت الأمور ظاهرة يُقلد اليهود والنصارىٰ في الدقيق والجليل حتىٰ في الأكل والشرب، وفي اللباس، وفي النطق، وفي المساكن، وفي كل الحركات حتىٰ اتخاذ الكلاب صاروا يتخذون كلابًا كما يتخذ اليهود والنصارىٰ الكلاب يضعونها في سياراتهم وفي غيرها وغير ذلك اتباع دقيق، ولهذا جاء وصف ذلك بدقة بقوله ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**[1]، وجاء في رواية: **«حتىٰ لو أن منهم من يأتي أمه علانية لكان في هذه الأمة من يصنع ذلك»**[2].

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٥٦)، ومسلم رقم (٢٦٦٩)، ولفظه عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: **«لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتىٰ لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»**، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن». ورواه أحمد في المسند رقم (١٧١٣٥)، والطبراني في الكبير من حديث شداد بن أوس، والحاكم في المستدرك رقم (٨٤٤٨) عن حذيفة وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٦٤١) ولفظه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ..»** الحديث.

قوله: «**حذوا القذة بالقذة**»: القذة: هي ريشة السهم، ولكن هذا لا نعرفه الآن، والمعنىٰ أنهم يكونون مثلهم في أعمالهم وأفعالهم هذا المعنىٰ.

قوله: «**حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»: هذا لا يعرفه ولا يفهمه إلا من كان يعرف الضب، ويعرف طريقته في حفر الجحور، فإنه خص جحره من بين الجحور؛ لأن الضب لا يمكن أن يحفر سامتًا وإنما يحفره متلويًا متجهًا إلىٰ الأسفل حتىٰ يكون عسر الدخول عليه فلا يدخل عليه حيوانات لعسره فهو أعسر الجحور دخولًا، لهذا مثل به النبي ﷺ يقول: لو كان المسلك الذي يسلكونه من أصعب المسالك سلكه من يسلكه من هذه الأمة، ولا يلزم أن تكون الأمة كلها تفعل هذا، يكفي إذا وجد من يفعل ذلك منها، الذين يقعون في التقليد لهؤلاء كثيرًا حتىٰ أصبحت ملابس المسلمين، وللأسف تصنع في باريس وفي أسواق الكفر، ولا سيما لباس النساء، وفي كل وقت يأتينا موضة، وأنواع جديدة يصنعونها لنا، فهذا يدل في الواقع علىٰ سخافة المسلمين، وعلىٰ قلة وعيهم وقلة دينهم، وأنهم لم يتمسكوا بالدين كما ينبغي، وإنما أصبحوا ينظرون إلىٰ الغرب معجبين به ويستوردون كل ما يصنع لهم الغرب مع ذهاب الأموال والثروات الكثيرة إلىٰ الأعداء التي يتقوون بها علىٰ محاربة الدين وأهله.

والمقصود بالأمة في قوله: «لتتبعن» الخطاب لمن استجاب للنبي ﷺ أي: الأمة المستجيبة، فمعنىٰ ذلك: أنهم يُجانبون الهدىٰ ويتبعون الكفار ويختلفون في ذلك، فمنهم من تكون متابعته كاملة تامة، ومنهم من يكون دون ذلك، ولكنه لا بد أن يقع، وقد وقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه كما هو واضح لمن سبر أحوال الناس اليوم، وسبب ذلك أن هؤلاء ليس عندهم الإيمان القوي والاعتزاز بدينهم فأصبح عندهم الضعف وأصبحوا ينظرون إلىٰ الكفار نظرات تقدير وتكبير، فأعجبوا بهم فاتبعوهم وسلكوا طريقهم، وهذا فيه من الخطر ما قد يجر الإنسان إلىٰ الخروج من الدين نهائيًا -نسأل الله العافية-.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

هي آيات عدة وتفسيرها المقصود به أن الآية تدل على هذا، وليس المقصود تفسيرها بذكر المفردات والمعنى المجمل، وإنما يقصد أنها دلت على هذا الشيء آية النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، ومقصوده بالتفسير أن التبرك بالحجر، أو الشجر، أنه شبيه بفعل المشركين بهذه الأصنام، فاللات عبارة عن حجر، والعزى عبارة عن شجر، ومناة كذلك عبارة عن حجارة، والأماكن والقبور لا تخلو أن تكون شبيهةً بذلك.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

يعني: في حديث أبي واقد وصورته: أنهم ظنوا أنه شيء محبوب لله ورسوله فطلبوا من الرسول ﷺ أن يأذن لهم أن يجعلوا لهم مثل ما للمشركين، وليس هذا دليل لمن يقول: إن الإنسان يكون معذورًا في الشرك إذا كان جاهلًا؛ لأنهم ما فعلوه، وإنما طلبوا أن يجعل لهم ظنًا منهم أن هذا جائز، ولكن هذا يكون فيه دليل على أن الإنسان إذا وقع في منكر عظيم وهو لا يدري، ثم نبه فرجع وتنبه أن هذا لا يضره.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

يعني: أنه مجرد طلب، وأنهم لو فعلوا لوقعوا في الشرك، ولكنهم طلبوا طلبًا مبنيًّا على ظن أنه يكون حسنًا عند الله مطلوبًا، فلما تبين لهم ذلك تبرؤوا منه.

الرابعة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

يعني: إذا كان الصحابة مع النبي ﷺ فجهلوا أن هذا من الشرك، وأن هذا مما تنفيه كلمة الإخلاص فتدل على نفيه فغيرهم من الذين بَعُدَ عهدهم عن عهد النبوة، وضعف إدراكهم لمعاني كتاب الله جل وعلا وسيرة الرسول ﷺ أولى أن يجهلوا، ولهذا وقع كثير من الناس في عبادة القبور.

❁ **الخامسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.**

وهذا كثير في كتاب الله، أخبر أنه ﷺ، وأخبر ﷻ أنه قبل توبتهم، وأخبر أنه يحبهم والرسول ﷺ يقول: «**لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه**»[1]. المد ربع الصاع، ومع هذا لم يكن هذا مانعًا من أن يواجههم الرسول ﷺ بالإنكار الشديد، حيث سبح الله ونزهه ثم قال: «**قلتم والذي نفسي بيده...**»، ولم يشفع ما لهم من الحسنات فالإنسان إذا وقع في أمر عظيم يجب أنْ يخرج منه بفعل الحسنات التي يحبها الله ﷻ.

❁ **السادسة: الأمر الكبير وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبهم؛ كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: ١٣٨].**

يعني: أنه شرك هذا هو المقصود فإذا تبين مقصوده من الترجمة أن من تبرَّك بشجر أو حجر ونحوهما وقع في الشرك الأكبر، وقوله: «**نحوهما**» مثل القبور وغيرها.

❁ **السابعة: أن نفي هذا من معنى لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك.**

ذلك أن التأله يجب أن يكون كله لله ﷻ، ومن ذلك طلب البركة، فالبركة لا تكون إلا من الله ﷻ، فإذا بارك الله فيه فهو المبارك ومن جعله الله مباركًا فهو مبارك، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الله ﷻ، يعني: أن الشيء لا يكتسب بذاته بركة هذا لا وجود له أصلًا، وإنما البركة تكون بطاعة الله وعبادته واتباع أمره فقط لا غير، فعلى العبد أن يطيع الله ويتبع رسوله ﷺ فتحصل له البركة، أما أن يطلب البركة من الغير فهذا لا يجوز، فالمقصود أن العبادة التي هي طلب النفع، أو دفع الضر مع حصول الثواب، والنجاة من العذاب هذا لا يكون إلا من الله ﷻ، وأما كون بعض الأماكن أحسن من بعض فهذا لأجل أثر العبادة، كما أن بعضها يكون

(١) رواه البخاري رقم (٣٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

أسوء من بعض من أثر معاصي الله ﷻ، فبيت الله جعله مباركًا هو من أجل طاعة الله ﷻ، وإلا البيت لا يعبد، ولا يطلب منه شيء، وإنما الطلب والعبادة من الله ﷻ.

الثامنة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

والمصلحة في هذا التيقن بهذا والتبصر به أن يعلم ذلك بيقين.

التاسعة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.

يعني: أنهم إذا قدر أنهم وقعوا في هذا الشيء فلم يرتدوا فمعنىٰ ذلك أنهم فعلوا صغيرة؛ لأنهم لو فعلوا كبيرة للزمهم الرجوع إلىٰ الدين، وهذا لم يحصل، لم يقل لهم شيئًا من ذلك، فدل هذا علىٰ أنه صغير. وهم لم يفعلوا ذلك، وإلا لو فعلوا ذلك لارتدوا، وإنما هذا مجرد طلب، ومع ذلك أقسم الرسول ﷺ أنهم قالوا مثل ما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ، وبنو إسرائيل في طلبهم وقعوا في الشرك، فإذا كان هذا مثل ذلك فهذا شرك، ولكنهم لم يقعوا فيه، وإنما وقوعهم متوقف علىٰ إذن النبي ﷺ فهم طلبوا الإذن فقط، ومجرد الطلب منَ الشرك الأصغر.

العاشرة: سد الذرائع.

يعني: أن العمل يكون جائزًا، ولكن يمكن أن يوصل إلىٰ ما هو محرم، أو شرك فلا يجوز فعله، مثل: الصلاة لله ﷻ عند القبر هذه ذريعة إلىٰ أن يُدعىٰ صاحب القبر فمنع ذلك وحرم، والصلاة باطلة في مثل ذلك، ومثل المدح الذي يخرج به الإنسان عن الحق، فإن هذا ذريعة إلىٰ تعظيم المخلوق فوق ما يستحق.

ومن ذلك أن الله نهانا أن نسب آلهة المشركين حتىٰ لا يسبوا إلهنا، فإذا كانت مسبة آلهتهم ذريعة إلىٰ مسبة الله، فإنه لا يجوز مسبة آلهتهم.

الحادية عشر: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

الجاهلية هي خلاف الحق، خلاف العلم الذي جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية سواء كانت قديمًا أو حديثًا.

❁ **الثانيــة عشــر: الغضب عند التعليم.**

الغضب عند التعليم إذا كان الإنسان قد ارتكب منكرًا، وقد يكون ذلك أبلغ حتىٰ يعرف أن هذا أمر عظيم.

❁ **الثالثــة عشــر: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».**

يعني: أن هذه ليست في هذه الأمة خاصة؛ لأن الأمم تتابع فإذا نظرنا في كتاب الله إلىٰ أول أمة أرسل إليها رسول وردهم علىٰ رسولهم، وكيف تمسكوا بالشرك ويوصي بعضهم بعضًا بالتمسك به، فالواقع أن هذه قاعدة كلية في بني آدم بعضهم يتبع بعضًا، ولهذا قال: «**لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا**»(١)، وكما قالت قريش: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وفرعون كذلك لعنه الله يقول: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، القرون الأولىٰ كلها مشركة تابع بعضهم بعضًا، لهذا ينبغي للإنسان أن يتبع الحق وإن كان مع شخص واحد، والكثرة لا يعتبر بها. المقصود أن العبد لا يعذر بكونه يتبع من سبقه ويقتدي بالناس، فإنه يجب أن يعرف الحق الذي جاء به الرسول ﷺ فيتبعه، والحق لا يعرف بالناس، وإنما يعرف الناس بالحق.

❁ **الرابعــة عشــر: أن هذا عَلَم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.**

العلم هو الدليل علىٰ صدقه صلوات الله وسلامه عليه، والأدلة علىٰ هذا لا حصر لها.

❁ **الخامســة عشــر: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.**

نحن المقصودون به؛ لأنهم لا ينتفعون به، وإنما ينتفع به من صدقه ومن آمن به.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٠٠٧) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ورواه البزار رقم (٢٨٠٢).

السادسة عشر: أنه مقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر: أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: ١٣٨] إلىٰ آخره.

مسائل القبر ثلاث: إذا وضع الإنسان في قبره سُئل عنها، من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ وقد جاء في الأحاديث: مَن هذا الرجل الذي بُعث فيكم(١)؟ ما كنت تعبد(٢)؟ وما دينك؟ وإذا أجاب عنها، سُئل أيضًا سؤالاً آخر قيل له: وما يدريك؟(٣) وهذا تابع للأسئلة وليس سؤالاً رابعـًا، يقال: ما يدريك؟ وبهذا السؤال استدل العلماء كما هو واضح أن هذه لا يجوز التقليد فيها، لكونها تعلم بالدليل، والجواب جاء أيضًا في الحديث إذا كان موقنًا، أو كان مؤمنًا قال: «قرأت كتاب الله وآمنت به»، فقوله: قرأت كتاب الله وآمنت به فهو لا يقول: قال لي فلان أو سمعت فلان، الدليل علىٰ أن الذي يعتمد عليه هو كتاب الله هو الوحي ليس العقل، فلا يقول: نظرت في عقلي وتفكرت وأدركت ذلك بعقلي، كما يقوله المتكلمون بل يقول: «قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت»، عند ذلك تنتهي الأسئلة فيقول الملكان قد علمنا، «**فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي**»(٤)، وهذا جاء مفصلًا مبينًا في أحاديث. وهذا يجب علىٰ العبد أن يعرضه علىٰ نفسه دائمًا، ويعلم أنه

---

(١) أحمد في المسند رقم (١٨٥٣٤)، وأبو داود رقم (٤٧٥٣).
(٢) أحمد في المسند رقم (١٣٤٤٧)، وأبو داود رقم (٤٧٥١).
(٣) أبو داود رقم (٤٧٥٣).
(٤) أحمد في المسند رقم (١٨٥٣٤)، وغيره من حديث البراء بن عازب الطويل.

سوف يُسأل عنه، وأنه لا يكتفي أنه يصلي كما يصلي الناس، أو يقول كما يقول الناس، ويريد كما يريد الناس، بل لا بد أن يتيقن يقينًا مستندًا إلىٰ الوحي.

والمقصود هذا الاستنباط من الشيخ ﵀ يقول: إنه عندهم أن العبادات مبناها علىٰ الأمر، هذا واضح من قولهم، اجعل لنا ذات أنواط؛ لأنهم لو كانت العبادات ليست متقررة علىٰ الأمر لفعلوا ما بدا لهم دون أن يرجعوا إلىٰ النبي ﷺ، ولكن هذا متقرر علىٰ الأمر لفعلوا ما بدا لهم دون أن يرجعوا إلىٰ النبي ﷺ، ولكن هذا متقرر عندهم أن العبادات لا تكون عبادة إلا إذا جاءت مأمورًا بها من الله ﷻ ورسوله ﷺ فتكون عبادة، فصار في ذلك التنبيه علىٰ مسائل القبر التي يُسأل عنها كل مقبور؛ لأنها جاءت بالوحي، وهذه لا تدرك بالعقل ولا بالتجربة ولا بالنظر، وإنما أدركت بخبر الصادق المصدوق ﷺ، ولهذا قال: أما من ربك؟ فواضح؛ لأن الله هو الذي أمر ونهىٰ، وهو الذي أرسل الرسول الموضح لنا أن العبادة له وحده. وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأمور الغيب؛ يعني: بالدلائل التي دلت علىٰ أنه نبي، وبهذا يتبين لنا أنه لا يكتفىٰ بمعرفة الرسول ﷺ بذكر نَسَبه، بل لا بد من الاستناد في ذلك إلىٰ دلائل النبوة التي يتيقنها الإنسان، وإخباره بالغيب من دلائل النبوة، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: اجعل لنا؟؛ يعني: أن الدين لا يجوز أن يُتدين به إلا ما جاء به الرسول ﷺ، ولهذا السؤال ما دينك؟؛ يعني: الدين الذي تتدين به من أين أخذته؟ هل هو بالرأي أو بالعادة أو بالتقليد إذا كان كذلك فصاحبه هو الذي يقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون: شيئًا فقلته.

السابعة عشر: أن سُنَّة أهل الكتاب مذمومة؛ كسُنَّة المشركين.

أهل الكتاب المقصود بهم اليهود والنصارىٰ، والكتاب الذي يضافون إليه هو التوراة والإنجيل، والإنجيل مكمل للتوراة ومتمم لها، ومخفف بعض ما فيه من الشدائد والآصار فصارتا كأنهما شريعة واحدة، ولكنهم اختلفوا فصاروا كأنهم طائفتان، ومعلوم أن اليهود لما لم يؤمنوا بعيسىٰ كفروا، ولا ينفعهم كونهم يقولون:

نحن نتمسك بالتوراة، وكذلك النصارىٰ لما كفروا بمحمد ﷺ صاروا من أهل النار كفارًا، ولا ينفعهم إذا قالوا: نحن نتمسك بالإنجيل مع أن كتابهم ليس موجودًا كما أُنزل، موجود أناجيل متعددة وكل واحد يخالف الثاني؛ لأنها كتبت من أشخاص، ومثل ذلك التوراة حصل فيها التبديل والزيادة والنقص الشيء الكثير. والمقصود أن من كفر بنبي، فإنه يكون كافرًا بجميع الأنبياء.

فقول الرسول ﷺ: «**إنها السنن**»، «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» خرج مخرج الذم.

۞ **الثامنة عشر: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.**

هذا شيء معلوم فالإنسان يبقىٰ عنده من الأمور السابقة التي نشأ عليها بقية؛ سواء في العلم أوفي غيره، فأبو الحسن الأشعري رحمه الله لما بقي أربعين سنة، وهو يتعلم مذهب المعتزلة، ثم خرج منه بقي عليه بقايا من المذهب لم يتخلص منها وإن كان يجهلها، وكذلك غيره.

الباب العاشـــر

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء في الذبح لغير الله.**

لم يذكر الحكم هنا كعادته رحمه الله؛ يعني: ما حكمه؟ هل هو شرك أو أنه جائز؟ وإذا كان شركًا هل هو من الشرك الأكبر، أو من الشرك الأصغر؟

الذبح المقصود بها إراقة الدماء تعظيمًا للمذبوح له وتقربًا إليه. والذبح من أعظم العبادات، ولهذا قرنه الله جل وعلا بالصلاة كما في هاتين الآيتين اللتين ذكرهما المؤلف. فإذا كان من أعظم العبادات فصرفه لغير الله جل وعلا من أعظم الشرك.

فقوله: «**الذبح لغير الله**»: يقصد أنه يذبح متقربًا لغير الله إما لمقبور، أو لشجر، أو لجن أو لغير هذا، ومعلوم أنه الآن وقبل في زمن الجاهلية كثير من عباد الله يذبحون لغير الله، يذبحون للقبور ولغيرها، وهذا يكون في المسلمين، وفي غير المسلمين، وقد يكون الذبح للجن، والجن لا يقنعون إلا بالشرك؛ لأنه إذا أشرك العبد تمت خسارته فأصبح من حطب جهنم إن لم يتب ويهديه الله جل وعلا، وهذا هو المطلوب لهم، يطلبون هذا بحرص شديد جدًا حتى يكونوا معهم في النار، وهذا أثار العداوة التي وقعت بين أبينا وبين إبليس، ولم تزل هذه العداوة والحروب قائمة، وكل واحد من آدم عليه السلام وإبليس له أنصار؛ يعني: من بني آدم ليس من الجن، أما الجن فأمرهم واضح الذي يُهدىٰ قلة كبني آدم.

فقوله: «**باب ما جاء في الذبح لغير الله**»؛ يعني: أنه شرك أكبر، ثم الذبح الذي يكون للأكل يجب أن يذكر عليه اسم الله وإلا لا يحل، وهذا من معاني قول الله جل وعلا:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

[الأعراف: ١٨٠]، ومن ذلك كل عمل يعمله الإنسان من أكل أو شرب، أو نوم، أو دخول منزل، أو لبس ثوب، وما أشبه ذلك مأمور بأن يذكر اسم الله في ذلك تعبداً، ولهذا أخبر الرسول ﷺ فقال: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله، وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء**»[١]، لا يستطيع أن يدخل المنزل إذا ذكر اسم الله، فإذا لم يذكر اسم الله كذلك على الطعام شارك الآكلين في أكلهم، وكذلك في غير هذا، في الشرب، وكذلك عندما يجامع الإنسان زوجته، فقد صحت الأحاديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله فقال: باسم الله اللهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدًا**»[٢]، ولهذا يقول الله ﷻ مخاطبًا الشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، وهذه مشاركته مشاركتهم في الأموال أنه يأكل معهم إذا لم يذكروا اسم الله، ومشاركتهم في الأولاد أنه قد يكون له نصيب من الولد إذا لم يتحرز الإنسان بذكر الله ﷻ، ومن نعم الله ﷻ أنه جعل ذكره يطرد الشيطان، فهو يفر من ذكر الله ﷻ، ولهذا الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يقربه[٣]، أما إذا كان البيت مشتملًا على الصور والأغاني، فهذا هو مسكنه، وهذا الذي يأنس به ويألفه، ولهذا تكثر ملابسته ومخالطته لمن كانت هذه صفتهم -نسأل الله العافية-.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم رقم (٧٨٠) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**».

✍ قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قوله: «﴿قُلْ﴾»: سبق أن هذا الأمر ﴿قُلْ﴾ يدل علىٰ أن الرسول ﷺ عبد الله ورسوله، وأنه بلَّغ كل ما جاءه من الله، فإن هذا القول: ﴿قُلْ﴾ موجه إليه، فقال كما قيل له، ما غيَّر شيئًا، ولهذا قال العلماء: من جحد حرفًا من كتاب الله فإنه كافر؛ لأن كل ما في المصحف من أوله إلىٰ آخره كله كلام الله ﷻ.

قوله: «﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾»: الصلاة سُميت صلاة لاشتمالها علىٰ الدعاء، وإن كان المقصود بها الصلاة الشرعية المعروفة التي تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم حسب ما شرعها رسول الله ﷺ، ووضع عليها هذا الاسم وضعًا شرعيًا وإلا لم تكن معروفة عند المشركين.

قوله: «﴿وَنُسُكِي﴾»: النسك هو الذبيحة التي يُتقرب بها إلىٰ الله ﷻ. والذبح أقسام:

أولًا: ما يذبح لأجل لحمه.

ثانيًا: ومنه ما يذبح إكرامًا للضيف فقط؛ لأن اللحم أطيب الأطعمة وأفضلها، ولكن هذه إذا صدرت من مسلم يجب أن تكون مقترنة بالعبادة، فإذا ذبحها سمَّىٰ الله وكبَّر «بسم الله والله أكبر»، وهذه عبادة ولا تحل إلا بذلك، فصار فيها عبادة، وإن كانت للأكل.

ثالثًا: أما إذا كانت للتقرب المحض مثل: الهدي والأضحية والعقيقة، وما نذر لله ﷻ، فإن هذا من أعظم القربات، وهذا هو الذي قرن بهذه الآية وهو النسك؛ لأن النسك سُمي نسكًا؛ لأنه فعل عبادة عظيمة لله ﷻ.

رابعًا: ما يذبح تقربًا للمذبوح له بإراقة الدماء، فإن هذا من الشرك الذي لا يجوز أن يقع لمخلوق.

وقَرْنُه النسيكة بالصلاة يدل على أن لها مقاماً عظيماً عند الله ﷻ، وهاتان العبادتان الصلاة والنسك من أخص ما يتعبد به إلى الله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين وهما: الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله، وإلى عِدَته وأمره، وفضله وخلقه عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفًا من الفقر وتركًا لإعانة الفقراء وإعطائهم وسوء الظن منهم بربهم، ولهذا جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه.

والمقصود أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر والخير الكثير، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان، بل الصلاة نهاية العبادات، وغاية الغايات؛ كأنه يقول: إنا أعطيناك الكوثر الخير الكثير، وأنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين شكرًا لإنعامنا عليك وهما السبب لإنعامنا عليك بذلك فقم لنا بهما، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما وإنعام بعدهما وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات كما عرفه أرباب القلوب الحية، وأصحاب الهمم العالية، وما يجتمع له في نحره من إيثار الله، وحسن الظن به وقوة اليقين والوثوق بما في يد الله أمر عجيب إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثًا وستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد وغيرها[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣١) و(٥٣٢).

فالمسلم فقير دائمًا إلىٰ الله، ويتقرب إليه في الصلاة ويتقرب إليه في نسكه وفيما يبذله لله ﷻ من عطاء وإحسان إلىٰ الغير.

وقوله: «﴿وَمَحْيَايَ﴾»؛ يعني: ما آتيه في حياتي من الأعمال هو لله ﷻ.

وقوله: «﴿وَمَمَاتِي﴾»؛ يعني: ما أموت عليه من الاتجاه إلىٰ الله والإيمان به، ورجائه وخوفه، وكذلك الإيمان بوعده ووعيده.

فمعنىٰ هذا: أن العبد يجب أن يكون كله لله، ولا يكون فيه شيء لغير الله فأعمالي الخاصة التي أتقرب بها ومحياي؛ يعني: كل ما آتيه في حياتي هو لله، ومماتي؛ يعني: ما أموت عليه من علم وعمل ورجاء وخوف كلها لله، فحياة العبد ليست للعب ولا للشيطان ولا لغير ذلك، فإن عمل عملًا من أعمال الدنيا فهو أيضًا بنيته وقصده أنه عمل لله حيث يكون عمله في الدنيا طلبًا للحلال، وكف النفس والأهل عن التطلع لما في أيدي الناس، أو التطلع إلىٰ الحرام فيكون هذا مُثابًا عليه، وهو لله فحياة العبد ليست للعب، ولا للهو، ولا للغفلة بل يكون مقترنًا دائمًا بعبادة الله ﷻ لا ينفك منها بحال من الأحوال، إن أكل فهو يعبد، وإن مشي فهو يعبد، وإن جلس فهو يعبد، وإن نام نام علىٰ عبادة الله، وإذا استيقظ كذلك أول ما يستيقظ يبدأ بذكر الله ﷻ وهكذا، أما إذا كان علىٰ خلاف ذلك فليست حياته لله، ويجوز أن يكون مماته لغير الله؛ لأن من حيا علىٰ شيء يموت عليه، ومن مات علىٰ شيء بُعث عليه ولا بد، فالناس يبعثون علىٰ ما ماتوا عليه[1]، ولهذا أخبر الله ﷻ عن المنافقين أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يحلفون لله كما يحلفون للناس أنهم كذا وكذا: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] يظنون أنهم علىٰ ما كانوا عليه في الدنيا يحلفون لرب العالمين علام الغيوب كذبًا علىٰ خلاف الواقع؛ لأنهم حيوا علىٰ ما ماتوا عليه، هذا في العقيدة، وكذلك في الأمر

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٧٨) عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه**».

الظاهر أيضًا يبعث على ما مات عليه تمامًا؛ يعني: إذا كان حالقًا للحيته يبعث حالقًا للحيته، لم يتغير منه شيء، ولا أحد يخفى عليه شيء من ذلك. فحياة العبد كلها لله عبادة ودعوته وغير ذلك كلها لله ﷻ.

قوله: «﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»: قوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ يعني: خالصًا لله ﷻ ليس فيه أي شائبة اشتراك.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الرب هو الذي يرب الشيء بالملك والتصرف والقيام عليه بما يلزم، فهو ربي ورب كل شيء، فهو الذي تجب له العبادة، ويجب أن يكون النسك له وتجب أن تكون الحياة والممات كلها لله ﷻ، ومن كان كذلك فهو عبد الله حقًا خلاف من توزعته المظاهر والأشخاص والدنيا وغيرها، كل شيء آخذ نصيبًا من قلبه فإن هذا يكون موزع.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالَم، فكل جنس من المخلوقات عالم، فالإنس عالم والجن عالم، والملائكة عالم، والطيور عوالم وهكذا، وهو رب كل شيء ﷻ.

وقوله: «﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾»: هذا تأكيد لقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ يعني: أنه لا شريك له فيما ذكر بل هو خالصٌ له ﷻ.

وقوله: «﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾»؛ يعني: أن هذا أمر الله ﷻ الذي لا يجوز مخالفته، فهذا ليس خاصًا بالنبي ﷺ بل عام له ولأمته كما هو ظاهر.

وقوله: «﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾»؛ يعني: أن أول من أسلم من هذه الأمة هو نبي الله ورسوله ﷺ، والإسلام هو الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة وإخلاص العبادة، والبراءة من الشرك وأهله.

والمقصود قوله: ﴿وَنُسُكِى﴾ جعل النسك مقرونًا بالصلاة مما يدل على أنه عبادة عظيمة، فإذا ثبت أنه عبادة فجعله لغير الله من الشرك الأكبر، فإذا ذبح الإنسان مثلًا لجني أو لساحر، وما أشبه ذلك، فمعنى ذلك أنه نسك له، وإن كان يقول: أنا

أذبح الذبيحة وأفرقها على الفقراء، ولكن المقصود إراقة الدم والتقرب بالذبح، فإن كان تقرب بالذبح لهذا المخلوق سواءً كان جني، أو إنسي، أو قبر، أو غيره صار بذلك عابدًا لذلك الذي تقرب له، وتكون الذبيحة محرمة، ويكون فيها كما يقول شيخ الإسلام مانعان[1]:

أحدهما: أنها مما أُهِلَّ به لغير الله.

الثاني: أنها صارت ذبيحة مرتد، لأنه إن كان الذابح مسلمًا صار مرتدًا بهذه الذبيحة، وذبيحة المرتد حرام لا يجوز الأكل منها.

ومثل ذلك أو قريب منه إذا ذبح باسم شيء من المخلوقات باسم المسيح كما يقوله النصراني، أو كما يقوله عباد الكواكب: باسم الزهرة، أو باسم الشيطان، أو غيره، ويقول: أنا لا أتقرب وإنما ذكرت اسمه فقط، وإلا أنا أتقرب إلى الله ﷻ نقول: الذبيحة محرمة؛ لأنها مما ذكر عليها اسم غير الله، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فهي مثل الذبح للأنصاب والأزلام والأصنام.

قال المؤلف رحمه الله: **وقوله**: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

هذا جزاء للعطاء، فإن الله قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، والكوثر هو النهر الذي يصب في الحوض[2] كما جاء تفسيره عن النبي ﷺ يقول: الكوثر هو

---

(١) اقتضاء الصراط (١/ ٢٥٩)، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربًا به إليه لحرم وإن قال فيه بسم الله كما يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الأولياء والكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٣٠٠) عن أبي ذر قال: «قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: **والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها إلا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل**»، وعند أحمد في المسند =

الخير الكثير، ونفس هذا النهر داخل في الخير الكثير[1].

«﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾»: اجعل صلاتك خالصة لله ﷻ ليس لأحد فيها شيء، وكذلك نحرك.

«النحر»: هو الذبح، وهو النسك الذي يتقرب به إلىٰ ربه بإراقة الدماء إليه، فالتقرب إلىٰ الله ﷻ بالنحر من أفضل الأعمال، ومن أعظم العبادات التي تكون بالمال، ويجب أن يكون مقترنًا بالإخلاص وقوة اليقين، وحسن الظن بالله ﷻ، واليقين بجزائه وموعوده، وكونه ﷻ يعوض عبده عن ذلك الشيء الكثير.

وليس هذا خاصًا بالأضحية؛ لأنهم قالوا: ﴿فَصَلِّ﴾؛ يعني: صلاة العيد ﴿وَانْحَرْ﴾؛ يعني: الأضحية بل هذا عام في كل صلاة، وفي كل نحيرة يجب أن تكون لله ﷻ.

أما ما يذبح للأكل لأجل اللحم، أو لإكرام الضيف، فيجب أن يذكر عليه اسم الله، يقول: بسم الله والله أكبر، حتىٰ يكون حلالًا، وتحصل العبادة بذلك، هذا إذا كان مقصوده اللحم فقط، أما النسك فهو الذي يتقرب به بإراقة الدماء إلىٰ الله فهذا عبادته كعبادة الصلاة، ولهذا قُرن بالصلاة، وبهذا يتبين لنا أن النحر هو الذبح لله ﷻ، وقد جاء في حديث يرويه إسرائيل بن حاتم عن عليّ رضي الله عنه: قال لما نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١، ٢]

= رقم (٣٧٨٧) حديث طويل عن ابن مسعود وفيه: «قال: ويفتح نهر من الكوثر إلىٰ الحوض» والبزار رقم (١٥٣٤)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٣٨٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وعثمان بن عمير هو ابن القطان، وقال الذهبي: لا والله فعثمان ضعفه الدارقطني والباقون ثقات.

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. رواه البخاري رقم (٤٦٨٢)، وعن أنس رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلىٰ السماء قال: «**أتيت علىٰ نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفًا فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر**». رواه البخاري رقم (٤٦٨٠).

قال النبي ﷺ لجبريل: «ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ﷻ»؟ قال: إنها ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع. قال النبي ﷺ: «رفع الأيدي من الاستكانة التي قال الله ﷻ: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]»[١]، فهذا حديث موضوع، قال ابن حبان عن إسرائيل بن حاتم: أنه يروي عن مقاتل الموضوعات والطامات، ومن ذلك هذا الخبر الذي يرويه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوىٰ محدثًا، لعن الله من غيَّر منار الأرض»، رواه مسلم**[٢].

هذا الحديث فيه قصة قال: كنا عند علي فجاء رجل فقال: ما الذي أسرَّه الرسول ﷺ إليكم أهل البيت؟ فغضب رضي الله عنه غضبًا شديدًا فقال: ما أسر إليّ شيئًا كتمه الناس، ولكن سمعته يقول فذكر الحديث.

اللعن معناه -كما يقول أهل اللغة-: الطرد والإبعاد عن مظان الخير والإحسان، واللعين هو المطرود المبعد، أو من حقت عليه اللعنة، أو من لعنه الله.

والله يلعن من يشاء كما أنه يرضىٰ عمن يشاء ويرحم، ولكن الملعون يكون قد فعل ما يستحق اللعن، ومن لعنه الله، فهو الملعون، والملعون الشيطان ومن اتبعه والله واجهه بذلك.

---

(١) رواه البيهقي رقم (٢٦٢٩)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٩٨١) وقال الذهبي في تعليقه: إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه، وأصبغ شيعي متروك الحديث عند النسائي، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (١/ ٢٧٣): رواه البيهقي وإسناده ضعيف جدًا واتهم به ابن حبان في الضعفاء إسرائيل بن حاتم. وقال ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٩٩): هذا حديث موضوع وضعه من يريد مقاومة من يكره الرفع، والصحيح يكفي. وقال يحيىٰ: أصبغ ليس يساوي شيئًا.

(٢) رقم (١٩٧٨).

أما لعن المخلوق فهو سبه وشتمه، أو يدعو عليه باللعنة يقول: اللهم العنه. وقد جاء في القرآن قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فكل من لعنه الله فعباده كذلك يلعنونه من الملائكة وغيرهم، فمن لعنه الله فقد خسر وخاب وابتعد كل البعد عن الخير والسعادة ووقع في الشر والشقاء.

ولا يجوز للمسلم أن يلعن أحدًا من المسلمين، ولا حتىٰ من الدواب ولا من غيرها، وإنما من استحق اللعنة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وليس علىٰ مراد الإنسان أنه إذا خالفه لعنه، ولا يجوز للإنسان أن يستعمل اللعن في غير موضعه، فقد جاءت النصوص الكثيرة بالوعيد علىٰ اللاعن الذي يلعن، وجاء النهي عن اللعن، فإن الإنسان كما جاء في الحديث: إذا لعن شيئًا ذهبت اللعنة إلىٰ ذلك الشيء الملعون، فإن كان أهلًا لها، وإلا عاثت يمينًا وشمالًا، ثم رجعت إلىٰ قائلها؛ يعني: ذلك أنه يكون قد لعن نفسه فرجعت إليه اللعنة - نسأل الله العافية - وجاء في الحديث الصحيح أن اللعانين لا يكونون شهداء ولا صديقين، لهذا لا يجوز للإنسان أن يعوِّد نفسه علىٰ هذا الشيء، ولما سمع رسول الله ﷺ امرأة في إحدىٰ الغزوات لعنت راحلتها؛ لأنها تأبَّت عليها وتلكأت، وقالت: لعنك الله، فأمر ﷺ أن يؤخذ ما علىٰ الراحلة، وتترك، وقال: «**لا تصحبنا فإنها ناقة ملعونة**»(١)، وهذا من العقاب، فلا يجوز أن تلعن الدواب ولا غيرها، وإنما يلعن بنو آدم والشيطان الذين حقت عليهم اللعنة.

قال: «**من ذبح لغير الله**»: بدأ في هذه الرواية بلعن من ذبح لغير الله؛ لأن هذا شرك، وهو أكبر الذنوب وأعظمها. والذبح لغير الله إما للصنم، أو للقبر أو غير

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٩٥)عن عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار علىٰ ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة**»، قال عمران: فكأني أراها تمشي في الناس ما يعرض لها أحد.

ذلك، فهو ملعون وهذا دليل على أنه ارتكب ذنبًا عظيمًا، وهو الشرك الأكبر، ومعلوم أن أفعال الناس في الذبح تختلف باختلاف المقاصد، منهم: من يذبح نسكًا لله ﷻ متقربًا إلى الله؛ كالأضحية، وكذلك النحيرة التي تكون نسكًا في الحج وفي العمرة، وكذلك العقيقة، فإنها نحيرة نسك يتقرب به إلى الله، هذا من العبادات العظيمة التي يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، فإذا صرف ذلك لمخلوق فقد وقع الذابح في الشرك الأكبر.

النوع الثاني من الذبح: كأن يذبح ليأكل لحمه، فهذا أيضًا لا بد أن يشمل على شيء من العبادة، وهو ذكر اسم الله ﷻ على الذبيحة حتى تكون حلالًا فيشكر الله على ذلك.

النوع الثالث: أن تذبح إكرامًا للضيف يقدم له اللحم لا إراقة لدماء، فإن إراقة الدماء يجب أن يكون لله، وإنما يكرم باللحم الذي يقدم له؛ لأن اللحم هو أحسن الطعام وأفضله، وهذا أيضًا في الأمور العادية، ولكن لا بد أن يشتمل على شيء من العبادة الذي هو ذكر الله ﷻ على الذبيحة يقول: «بسم الله والله أكبر»، وبذلك تكون حلالًا، وهذا نوع من عبادة الله ﷻ.

النوع الرابع من الذبح: التقرب إلى مخلوق بإراقة الدماء، فإن هذا من الشرك الذي لا يجوز أن يقع لمخلوق بل هذا يجب أن يكون لله ﷻ، وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]؛ يعني: ما ذبح على غير اسمه، وذكر اسم ذلك الشيء، فهم سواء كانوا يرفعون أصواتهم بالاسم الذبيحة لفلان، أو أذبح له، أو أذبح على اسمه كما يذبح على اسم الزهرة، أو على اسم المسيح، أو اسم البدوي، أو عبد القادر، أو ما أشبه ذلك، فهذا من الشرك الأكبر الذي حرمه الله ﷻ، وصاحبه إذا مات عليه فهو خالد في النار، وهذا الذي أراد المؤلف أن يبينه رحمه الله. قال العلماء: الذبيحة التي يهل بها لغير الله يجتمع فيها مانعان تكون حرامًا من أجلهما:

أحدهما: أنها مما أهل به لغير الله، وقد نهىٰ الله ﷻ عن ذلك: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]؛ يعني: لا تأكلوا ذلك فإنها محرمة.

والثاني: أنها تكون ذبيحة مرتد، إذا كان مسلمًا قبل هذا الذبح يرتد بذلك وذبيحة المرتد حرام؛ لأن الذابح لا بد أن يكون مسلمًا، أو يهوديًا، أو نصرانيًا علىٰ دينهم، فإن الله أباح طعامهم لنا، والمقصود بالطعام الذبائح.

فالتقرب لمخلوق بإراقة الدماء هذا من الشرك الأكبر، وقد جاء النهي عن النبي ﷺ عن ذبائح الجن، فإن البيهقي روىٰ الحديث في هذا قال: إن النبي ﷺ نهىٰ عن ذبائح الجن[1]، وكذلك ما كان يفعله الجاهلون من الذبح عند القبور وغيرها، وهذا الذي أراده المؤلف؛ لأن هذا كان منتشرًا في وقته، ولا يزال يوجد في البلاد الإسلامية يتقربون بذلك ويسمون ذلك نذرًا، وقد يسمونه حقًا، وقد يسمونه قربة، وقد يسمونه للولي، وما أشبه ذلك، ومهما سموه فهو من الشرك الذي حرمه الله ﷻ، وهو منافٍ للتوحيد ومنافٍ لكلمة الإخلاص لا إله إلا الله، والمؤلف في هذا يبين شيئًا من تفسيرها.

قوله: «ولعن الله من لعن والديه»: إما أن يكون بالفعل المباشر أو يكون بالسبب، وقد يقع هذا يعني أن الإنسان يلعن والديه مباشرة، ويكون ملعونًا؛ كالذي ذبح لغير الله، ويقع بالسبب بأن يلعن أبا الرجل فيلعن ذلك الرجل أباه فيكون سببًا في اللعنة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[2].

---

(١) البيهقي رقم (١٩٨٣٢) عن الزهري يرفع الحديث: أنه نهىٰ عن ذبائح الجن، قال: وذبائح الجن أن تشترىٰ الدار أو تستخرج العين وما أشبه ذلك فيذبح لها ذبيحة للطيرة.

(٢) رواه البخاري رقم (٥٩٧٣)، ومسلم رقم (٩٠).

والمعروف أن الولد يحسن إلىٰ والديه لا يلعنهما فكيف تنعكس القضية وهذا فيمن كان سببًا للعن والديه فكيف بالذي يباشر اللعن؛ يعني: يلعن والديه بالفعل، هذا أعظم، وهذا يحدث من بعض المجرمين، والوالدان حقهما عظيم كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ يعني: أحسنوا إلىٰ الوالدين إحسانًا كما يجب، وحذف العامل حتىٰ يكون الإحسان كله في كل مجال، وفي كل ما يمكن أن يوضع الإحسان فيه للوالدين، وقال ﷻ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

الوالد الكبير مظنة بأن يكون عنده من الأشياء التي قد لا يتخلص منها من الأذىٰ، ونحو ذلك فلهذا قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الأف هو التأفف من الشيء المكروه، وليس النطق بل التضجر من ذلك، والتأفف منه فأمر أن يحسن إليه، وأن لا يصدر منه أي شيء يدل علىٰ تضجره وتبرمه منه بل يجب أن يغتبط في خدمته، وفي الإحسان إليه، ولعل ذلك يكون مما يقابل إحسان الوالد الذي هو أسبق من الولد قد كان يبذل كل جهده في الإحسان إلىٰ ولده، والمقصود أن كون الإنسان يجعل بدل الإحسان إليهما لعنهما هذا من أعظم الذنوب، ولهذا قرن بالشرك بالله ﷻ نسأل الله العافية كما قرن الله ﷻ حق الوالد بحقه فهذا نظير ذلك، فإنه قرن الإساءة إليه بالشرك به، ويجب أن يتنبه لهذا فإن هذا أمر عظيم يدل علىٰ عظم حق الوالد.

قال: «ولعن الله من آوىٰ محدثًا»: كلمة «**محدثًا**» قرئت بكسر الدال وقرئت بفتحها محدَثًا، وكلاهما صحيح، والمعنىٰ يختلف، فإذا كان الكسر «**محدِثًا**»، فهو اسم فاعل؛ يعني: فاعل الحدث، والحدث هو الإحداث في الدين ما ليس منه، أو ارتكاب الحدود التي حرمها الله ﷻ.

ومؤويه هو الذي يحميه، ويحول بينه وبين إزالة المنكر، وإقامة الحدود عليه، فمن آواه وحماه، فإنه يكون ملعونـًا، والفتح محدَثًا، فهو أهم من هذا فيصبح الحدث نفسه وإيواؤه الرضا به ونشره والدعوة إليه فمن رضي بالبدعة، وأقر فاعلها ولم ينكر عليه، فقد آواه، هذا أعظم من الأول جرمًا، وهذا يدخل فيه البدع كلها، ويكون صاحب البدعة ملعونـًا في هذا الحديث - نسأل الله العافية - ويدخل فيها من فعل تلك البدعة ومن رضي بها، ومن دعا إليها، وزينها ونشرها في الناس كل هؤلاء يكونون داخلين في اللعنة - نسأل الله العافية -.

قوله: «**ولعن الله من غيَّر منار الأرض**»: منار الأرض مراسيمها وعلاماتها، والحدود التي تميز الحقوق حق فلان من حق فلان، أو العلامات التي توضع علىٰ الطرق يهتدي بها السالك، ومن ذلك ما يوضع الآن علىٰ الطرق من اللافتات التي يكتب فيها الطريق سائر إلىٰ كذا وكذا ومغيرها يقع في اللعنة؛ لأنه بذلك يضل السالك الذي يسلك الطريق، وسواء كانت هذه الإرشادات التي توضع علىٰ الطريق كتابة، أو غير كتابة بأن تكون علامة من بناء، أو ما أشبه ذلك، وكذلك المراسيم التي تفصل بين حقوق الجيران وغيرها بأن يقدمها أو يؤخرها، وبذلك تختلف الحقوق ويدخل بعضها ببعض، ويتسبب في أخذ حق الغير، ومن ظلم الناس للناس، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**من ظلم قِيد شبر طُوقه من سبع أرضين يوم القيامة**»(١)، وابن آدم مسكين وضعيف كيف يحمل سبع طبقات علىٰ رقبته يوم القيامة، فإذا كان هذا الذي يغير المراسيم التي تفصل بين الحقوق، أو العلامات التي تدل علىٰ الطرق يكون ملعونًا بهذا، فكذلك من يغير حدود شرع الله ﷻ، أو يمنع بيان ذلك؛ كالدعاة الذين يدعون إلىٰ الله ﷻ فإن هذا أولىٰ من غيره، فالذي

(١) رواه البخاري رقم (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبرًا من الأرض بغير حقه طوقه في سبع أرضين يوم القيامة».

يمنعهم ملعون فهو أعظم وأشد جرمًا من غيره.

وفي الحديث دليل على جواز لعن أنواع الفساق؛ كقولك: لعن الله آكل الربا، ولعن الله السارق، ولعن الله الظالمين وما أشبه ذلك، فقد جاء في ذلك أحاديث كثيرة، بخلاف المعيَّن بعينه هذا فيه خلاف بين العلماء هل يجوز لعنه أو لا؟

عن عمر بن الخطاب أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا إنه يحب الله ورسوله**»(١)، وكذلك لما أقيم الحد على امرأة زانية، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال: «**مهلًا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**»، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت(٢) ونحو ذلك، وقد جاءت أحاديث تدل على جواز لعن المعين، فإن الرسول ﷺ لعن أناسًا بأعيانهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، ولم يأت شيء ينسخ هذا فإذا كان الإنسان رأسًا في الشر، وفي الكفر، وفي محاربة الله ورسوله جاز لعنه بعينه، كما فعل الرسول ﷺ، فقد جاء ذلك في الصحيح.

✍ قال المؤلف ؒ: وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرّب له شيئًا. قالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيء أقرّب، قالوا له: قرب ولو ذبابًا، فقرّب ذبابا، فخلوا

(١) رواه البخاري رقم (٦٧٨٠).
(٢) رواه مسلم رقم (١٦٩٥).

سبيله فدخل النار. وقالوا للآخر: قرّب، قال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئًا دون الله ﷻ فضربوا عنقه، فدخل الجنة»(١).

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد عن طارق بن شهاب، وقد اختلف في طارق هل كان سمع الرسول ﷺ أو لا؛ يعني: اختلف هل هو صحابي أو لا، والصحيح أنه سمع الرسول ﷺ وأحاديثه مرسلة، ولكنها مراسيل صحابي.

قوله: «رجل»: يجوز أن يكون هذا الرجل من بني إسرائيل، والنبي ﷺ كثيرًا ما يحدث عن بني إسرائيل، وبنو إسرائيل لم يكن لهم العفو عن الإكراه كما لهذه الأمة، فإن الله ﷻ عفا لهذه الأمة عما استكرهت عليه وعن النسيان؛ لأن هذا من الأمور التي وضعت عليهم من باب تشديدهم، والله وضع عن هذه الأمة الآصار والأغلال، فله الفضل والمنة، عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه»**(٢)، فقوله: **«تجاوز عن أمتي»** يدل علىٰ أن هذا لم يعف لغير أمته؛ يعني: يجب عليهم أن يصبروا، ولهذا يظهر السبب في كون هذا دخل النار في ذباب؛ لأن الواجب عليه أن يصبر ويؤثر الآخرة علىٰ الحياة الدنيا.

وقوله: «في ذباب»: الفاء سببية، كقوله ﷺ: **«دخلت النار امرأة في هرة»**؛ يعني: بسبب الذباب، وإلا دخوله النار بفعله لكونه أشرك بالله ﷻ، وهذا يدل علىٰ أن هذا الرجل كان مسلمًا إذ لو كان مشركًا، أو كافرًا ما ناسب أن يذكر أنه دخلها في ذباب؛ لأن أعماله يكون فيها ما هو أعظم من ذلك من الشرك.

والصحابة - رضوان الله عليهم - تعجبوا كيف يدخل النار في هذا المخلوق الحقير الخسيس هذا من العجب، فبيَّن لهم ذلك الرسول ﷺ أن هؤلاء المشركين الذين

(١) أحمد في كتاب الزهد (ص١٥).

(٢) رواه ابن ماجه رقم (٢٠٤٣).

يدعون إلىٰ الشرك ويرغمون الناس عليه أنهم أرغموه علىٰ التقريب، فلما لم يجد ما يقرب قالوا: يكفي صورة التقريب، ولو تقرب ذبابًا ومعلوم أنهم لا ينتفعون بالذباب، ولا أحد ينتفع به، وإنما المقصود عمل القلب؛ يعني: التوجه إلىٰ هذا الصنم بالصورة الظاهرة فيكون عمل القلب هو المقصود حتىٰ عند عبدة الأوثان.

وقوله: «**لا يجاوزه أحد**»؛ يعني: أنهم كانوا علىٰ الطريق يمنعون أحدًا أن يجاوزه بلا تقريب لصنمهم، هؤلاء أهل سلطة، وهذا يريد التخلص بهذا التقريب؛ لأنه علم أنه لا نفع فيه ولا خير فيه، وهو يريد أن يخلص نفسه من ذلك، ومع ذلك صار فعله ذلك سببًا لدخوله النار، وهذا يدل علىٰ عظم الشرك، وأن الذبح لغير الله لا يجوز ولو كان شيئًا حقيرًا.

وفيه أن الإنسان قد يدخل النار بسبب لا يقصده، ويستصغره في نفسه، ولهذا كان الصحابة يحذرون من الذنوب الصغيرة، كما قال أنس ﷺ: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها علىٰ عهد النبي ﷺ من الموبقات[١].

أما الآخر فإنه علم عظم الشرك فأبىٰ أن يقدم شيئًا وآثر الموت والقتل علىٰ التقريب لغير الله ﷻ لما يعلمه من جرم الشرك وإثم مرتكبه، وأنه يكون من أهل النار، فيستحق بذلك أن يكون من أهل الجنة.

وبهذا يتبين أن الذبح لغير الله ﷻ أنه من الشرك الأكبر، وأن فاعله يكون مستحقًا لدخول النار إذا لم يتب منه، ومات علىٰ ذلك بلا توبة، ويكون قد فعل الشرك الأكبر، وإذا كان يدخل النار مثل هذا، فكيف بمن يسمِّن الحيوانات

(١) رواه البخاري رقم (٦٤٩٢).

ويختارها ليقربها للميت في القبر، أو الولي الذي يدعىٰ أنه ولي، وكذا يقوم علىٰ الخروف ويغذيه وينميه حتىٰ يكون من أحسن ما يكون، فيذهب به ليقول أنه نذر لفلان، فهذا من أعظم الشرك وأكبره - نسأل الله العافية -.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين لعن المعين، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

يعني: أن الحديث فيه لعن أهل المعاصي، وليس فيه لعن المعين؛ لأن المسألة فيها خلاف.

الثانية: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافق على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

لأن عمل القلب لا يستطيعون أن يطلعوا عليه فهو بينه وبين ربه، ولكن الظاهر أن هذا مثل ما سبق أنه في بني إسرائيل الذين لم يُعْفَ لهم عن الاستكراه، والله أعلم.

الباب الحادي عشر

قال المؤلف رحمه الله: باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

قوله: «**لا يذبح**»: يحتمل أن تكون لا نافية، ويحتمل أن تكون ناهية، وكونها ناهية أظهر لما ذكر من النصوص هنا، فإن النصوص تدل على النهي، ومعلوم أن الذبح عبادة لله، وهو من أجلِّ العبادات، ولهذا قرنه بالصلاة التي هي عماد الدين، وهي صلة بين العبد وبين ربه جل وعلا، ولها مكانة في نفوس المؤمنين لا يعدلها مكانة، وقرن الذبح بها في غير آية.

والمقصود بالذبح أن يذبح متقربًا به إلى الله جل وعلا، ومعلوم أن الله جل وعلا غني بذاته عن كل ما سواه، ولكن المقصود التقرب بها بإراقة الدماء، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

فالمقصود فعل القلب بالذبح، فالذبح له أثر في عمل الإنسان كثير إذا أخلص ذلك لله تعالى قريبًا من أثر الصلاة، فإنه يعطي الإنسان الثقة بالله والحب والخضوع والغنى بالله والاتجاه إليه وحده جل وعلا.

قوله: «**بمكان يذبح فيه لغير الله**»؛ يعني: أن الذبح خالصًا لله تعالى، ولكن المكان كان مكان شرك وهو لم يذكر الحكم هنا؛ يعني: في الترجمة، وإنما جعل ذلك محتملًا، فإذا قرأت النصوص تبين لك أنه لا يجوز فإذا كان منهيًا عنه، فهل هو محرم، أو شرك، أو وسيلة إلى الشرك، أو تشبه بالمشركين؟

كل هذه قد تدخل فيه، أما تحريمه فهو ظاهر، وأما كونه شركًا فليس كذلك، ولكنه وسيلة إلى الشرك وتشبه بالمشركين والتشبه بالمشركين أقل ما يقال فيه أنه

من الكبائر، وإلا فالظاهر أنه كُفر وخروج من الدين الإسلامي؛ لأن قول الرسول ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[(١)]، يدل على أنه يكون حكمه حكمهم، فيجب على المسلم أن يبتعد عن مشابهة الكفار، ولو في الأمكنة.

وكذلك المكان يكون مكان معصية، ومكان المعصية مكان غضب الله ﷻ حري أن تنزل عقوبة الله على من كان فيه، ولهذا العبادة فيه تكون موافقة للكفار المشركين في المكان فقط، فيكون هذا منهيًا عنه، وهذا قد يؤدي إلى تعظيم ذلك المكان، وقد يكون تكثيرًا للمشركين في فعلهم وموافقة لهم.

فيدخل في هذا أن الوسائل التي تدعوا إلى المحرمات أنها محرمة، ويدل على منعها، فيقال في مثل هذا «فيه سد الذرائع»، وهذا الباب من الأبواب التي تفسر شهادة أن لا إله إلا الله ووجه ذلك أن كل نهي جاء به الشرع فإنه إذا ارتكب يكون قادحًا في قول لا إله إلا الله فيمن ارتكب ذلك النهي، كما أن المأمورات كلها تكون داخلة في مقتضى لا إله إلا الله، وحاصل ذلك أن كلمة الإخلاص هي الإسلام كله.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله**: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

هذه الآية في سورة التوبة، وسورة التوبة نزلت في غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ، والذين بنوا هذا المسجد بنوه كما ذكر الله علام الغيوب إخبارًا بمقاصدهم، ونياتهم ومرادهم، وقد جاءوا إلى النبي ﷺ وهو يستعد إلى غزوة تبوك وطلبوا منه أن يأتي إليهم فيصلي فيه ليكون ذلك حجة لهم، فهم في ظاهر أمرهم يريدون الخير، ويوهمون أنهم بنوه للضعفاء في الليلة المطيرة الشاتية وهو قريب من مسجد قباء، وباطن أمرهم يريدون الشر كما أخبر الله ﷻ، والذي حارب الله هو أبو عامر وطائفته الذين أمرهم أن يبنوا هذا المسجد ليكون معقلًا لمن يأتي من

(١) أحمد في المسند رقم (٥١١٤)، وأبو داود رقم (٤٠٣١).

رسول، وكتب، وأموال حتىٰ يكون خلية فاسدة لحرب الإسلام والمسلمين، هذا هو المقصود الذي بنوه من أجله فعصمه الله أن يصلي فيه، فقال لهم: «**إننا علىٰ سفر ولكن إذا عدنا إن شاء الله صلينا لكم فيه**»، كعادته ﷺ فإنه إذا طلب منه أن يصلي في مكان ليُتخذ مصلّىٰ فإنه يفعل ذلك كما هو معروف في الصحيحين وغيرها، فلما قدم من السفر وبقي علىٰ المدينة يوم، أو بعض اليوم نزلت هذه الآية ففضح الله حقيقة نواياهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، فدعا بعض الصحابة من بني عوف، وهم من ذلك المكان فأمرهم أن يذهبوا إلىٰ ذلك المسجد ويهدموه ويحرقوه علىٰ من فيه، فذهبوا يشتدون فلما وصلوا، منهم من ذهب يأتي بالحطب، ومنهم من يأتي بالنار فأحرقوه.

فنهىٰ الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقوم مصليًا ومتعبدًا لله ﷻ في مسجد الضرار؛ لأنه أسس علىٰ المعصية ومحاربة الله ﷻ، وإرصادٍ لأعدائه يكون معقلًا لهم ومأوىٰ يجتمعون فيه ويدبرون أمورهم ضد الإسلام وأهله، وهذا معناه أن المكان تؤثر فيه المعاصي كما أن الطاعات أيضًا يكون لها أثر في ذلك، وهذا ليس خاصًا بالنبي ﷺ بل أمته تبعًا له في ذلك.

ووجه الدلالة من الآية للترجمة من باب القياس علىٰ النظير والمثيل والقريب؛ لأنه إذا منع الله ﷻ رسوله ﷺ عن القيام لله ﷻ في هذا المسجد المؤسس علىٰ هذه المقاصد الخبيثة مع أنه ﷺ لا يقوم إلا لله، فكذلك الموضع المعد لمعصية الله ﷻ ومحاربته أنه لا يؤدي فيه العبادة لله تعالىٰ؛ لأنه أسس علىٰ محاربة الله ﷻ ومحاربة رسوله ﷺ، وإعداده للمنافقين والكافرين ملجأ لهم، ومكانًا يتآمرون فيه علىٰ الإسلام، وأهله فصار محل غضب، فنهىٰ نبيه أن يقوم فيه مصليًا.

وقد جاءت نصوص تدل علىٰ أن المعصية تؤثر في الأماكن فتصبح الأماكن

محل عذاب، أو يخاف أن يقع فيها العذاب، كما قال ﷺ لما مر بديار ثمود، وديار ثمود لا تزال آثارهم كأنها قريبة؛ لأنها نحتت في الجبال، فهي لم تتأثر على مر السنين، وقد أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، وكثير من الناس يسميها مدائن صالح، ولا يجوز تسميتها بذلك فهي مدائن أهل الفساد والكفر الذين أهلكهم الله، وصالح عليه السلام تركها وهجرها؛ لأنها بلاد كفر ومعصية. فلما مر بها رسول الله ﷺ مع الصحابة قال لأصحابه: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم**»[(١)]، وهؤلاء لا وجود لهم، صارت أرواحهم في جهنم، وأجسامهم تراب، وهي في النار وإن كانت ترابًا، ولكن المقصود أماكنهم، قال ﷺ.: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم**»[(٢)]، خوفًا من الله أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه ﷺ وأسرع بالسير حتى جاز الوادي، فمن دخلها للتفكه والضحك والغفلة خطير أن يصيبه ما أصابهم.

والذين تقدموا من الصحابة وأخذوا شيئًا من الماء أمرهم أن يلقوه ويعلفوا العجين البهائم؛ لأن مياههم كانت موجودة فعجنوا منها فأمرهم أن يلقوا ما أخذوا. قال ﷺ: «**لا تشربوا من مائها**[(٣)]**، ولا تتوضؤوا منه للصلاة**[(٤)]**، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت**

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٣٣)، ومسلم رقم (٢٩٨٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري رقم (٣٣٨٠)، ومسلم رقم (٢٩٨٠).

(٣) البخاري رقم (٣٣٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها فقالوا: قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء. ويروى عن سبرة بن معبد وأبي الشموس أن النبي ﷺ أمر بإلقاء الطعام. وقال أبو ذر عن النبي ﷺ: «من اعتجن بمائه».

(٤) دلائل النبوة للبيهقي رقم (١٩٩٣).

تردها ناقة صالح عليه السلام»(١).

ومعنى ذلك أن الماء كذلك يكون متأثرًا ومؤثرًا، فهذا يدل على أن المعاصي تؤثر في الأماكن والمياه والثمار وغيرها، وتأثيرها قد لا يحس به الإنسان، فيصبح قلبه محبًا للمعاصي متماديًا فيها حتى يأخذه الله، وأخذ الله قد يكون غير ظاهر بأن يميت قلبه، ثم يموت على ذلك فيلقى الله عاصيًا، وإلا لا يمكن لأحدٍ أن يفوت الله عز وجل لا بد أن يرجع إليه والرجوع قريب، ولهذا قد يقول إنسان كيف يكون هذا الظلم الذي يقع من نهب الأموال وقتل الأنفس والتعدي على الناس بالقوة، وقتل الصبيان، وقتل النساء، وإفساد الحرث والنسل وهدم البيوت وجرفها بالمجارف هذا ظلم لا يقره أحد، فقد يقول: كيف يصنعون هذا، ثم يعيشون كما يعيش الناس ويموتون كما يموت الناس؟ فالجواب أن يقال: إن الدنيا لا تصلح أن تكون محلًّا لعذاب الفاجر لقلتها وذهابها، فالبقاء في هذه الدنيا قليل، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فكونه تزاد له الحياة أيامًا حتى يزاد إثمه فيزيد عذابه فتركه في الحياة هذا من العذاب - نسأل الله العافية -.

فالمقصود من هذا أن المعاصي تؤثر في الأماكن، وكذلك أصحاب المعاصي يؤثرون على من جالسهم، ولهذا أمر الله جل جلاله بالتبرؤ من المشركين والابتعاد عنهم.

وقوله: «﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾»: ﴿لَا﴾ هذه، الظاهر أنها للنهي، ولهذا جزم الفعل بعدها، وقوله: ﴿أَبَدًا﴾؛ يعني: في المستقبل، ولو تغير بأي شكل كان فهذا المكان يصبح متروكًا مبتعدًا عنه دائمًا حيث بني على المعصية فقط، بني على

(١) البخاري رقم (٣١٩٩) عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض ثمود الحجر فاستقوا من بئرها واعتجنوا به فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»، ومسلم رقم (٢٩٨١).

معصية الله والإضرار بالمسلمين، ومحاربة الرسول ﷺ ودينه، وهذا من أعظم الجرائم، فالمكان الذي يذبح فيه لغير الله يذبح فيه للطواغيت ويتقرب فيه لغير الله ﷻ، أو كان فيه أوثان، أو أعياد جاهلية، وتقام فيها البدع وتفعل، فإنه لا يجوز للمسلم أن يفعل الطاعة فيها قياسًا علىٰ هذه الآية؛ لأن الأمة تبعًا لرسول الله ﷺ.

وقوله: «﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾»: اختلف في هذا المسجد ما هو؟ هل هو مسجد قباء، أو مسجد الرسول ﷺ؟

في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: تمارىٰ رجلان في المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فسألا رسول الله ﷺ فقال: «**هو مسجدي هذا**»(١)، وهذا قول عمر وابنه، وزيد بن ثابت وغيرهم.

وهذا نص من الرسول ﷺ أن مسجده هو الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، ولكن الآية ظاهر منها أن المقصود هو مسجد قباء، قال ابن كثير ؒ: وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جُبَير، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ هو المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ. وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان

(١) هذه رواية أحمد في المسند رقم (١١٠٤٦) و(٢٢٨٠٥)، وهو عند مسلم رقم (١٣٩٨) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ؟ قال: قال أبي: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي أسس علىٰ التقوىٰ؟ قال: فأخذ كفًا من حصاء فضرب به الأرض ثم قال: «**هو مسجدكم هذا**» لمسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره.

مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى(١).

وقد حث الله تعالى على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى وهي طاعة الله ورسوله ﷺ، وجمعًا لكلمة المؤمنين ومعقلًا ومنزلًا للإسلام وأهله، فقد جاء عند الترمذي، وقال عنه: إنه حسن غريب أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجد قباء كعمرة**»(٢)، وهذا الحديث صححه بعض العلماء، وله شواهد عند ابن حبان، وعند الحاكم والإمام أحمد، والترمذي إذا قال: غريبٌ، فالغالب أنه ضعيف. وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيًا وراكبًا. وكان عبد الله رضي الله عنه يفعله(٣).

قوله: «﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾»: جاء في التفسير عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد وغيرهم يتطهرون؛ يعني: من الذنوب، وعن المنهال، قال: كنت عند أبي العالية فتوضأ أو توضأت، فقلت: إن الله يحب المتطهرين، فقال: إن

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٤).

(٢) الترمذي رقم (٣٢٤) وقال: حديث أسيد حديث حسن غريب ولا نعرف لأسيد بن ظهير شيئًا يصح غير هذا الحديث، ولا نعرفه إلا من حديث أبي أسامة عن عبد الحميد بن جعفر، ورواه ابن ماجه رقم (١٤١١)، ورواه ابن أبي شيبة رقم (٧٥٢٩)، والبيهقي في الكبرى رقم (١٠٥٩٤)، والطبراني في المعجم الكبير رقم (٥٧٠)، والحاكم في المستدرك رقم (١٧٩٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أن أبا الأبرد مجهول. وجاء عند أحمد في المسند رقم (١٥٩٨١) عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف يقول: قال أبي: قال رسول الله ﷺ: «**من خرج حتى يأتي هذا المسجد** - يعني مسجد قباء - **فيصلي فيه كان كعدل عمرة**» ورواه النسائي رقم (٦٩٨)، والحاكم في المستدرك رقم (٤٢٧٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير رقم (٥٥٥٨)، وابن ماجه رقم (١٤١٢) ولفظه: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**» ورواه ابن أبي شيبة رقم (٧٥٣٠) وفيه: «.. فركع فيه أربع ركعات ..».

(٣) رواه البخاري رقم (١١٩٣)، ومسلم رقم (١٣٩٩) وعنده: «فيصلي فيه ركعتين»، وهي عند البخاري رقم (١١٩٤) قال فيه: زاد ابن نمير: حدثنا عبيد الله عن نافع فيصلي فيه ركعتين.

الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب[١]. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك[٢]. والطهارة من الذنوب بالتوبة والإقلاع.

وثبت أن النبي ﷺ قال لبني عوف: «**إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هو هذا الطهور الذي تطهرون به؟**»، فقالوا: يا رسول الله ما نعلم شيئًا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا»[٣]، وفي رواية عن جابر وأنس: «**هو ذاك فعليكموه**»[٤]، وهذا نص أن هذا داخل في الآية.

وهذا استدل به بعض العلماء على أن الصحابة كانوا لا يعرفون الاستنجاء، وإنما كانوا يستجمرون يستعملون الحجارة، وهذا معروف، والآية تدل كذلك على أن الاستنجاء أفضل وأكمل من الاستجمار، والاستجمار يكفي إذا كان على الشروط؛ يعني: إذا كان بثلاثة أحجار منقية فهو يكفي.

وقوله: «﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾»: الذين يتنزهون من القاذورات والذنوب، والنجاسات الحسية والمعنوية.

وفي الآية إثبات محبة الله للمؤمنين، وأنه يحب بعض أفعال عباده، وأن بعض

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٤١٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٦).

(٣) أحمد في المسند رقم (١٥٤٨٥)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (٨٣)، والطبراني في الكبير رقم (٣٤٨) من حديث عويم بن ساعدة الأنصاري قال: إن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء .. وذكر الحديث.

(٤) سنن البيهقي رقم (٥٢٥) عن طلحة بن نافع أنه حدثه قال: حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون: إن هذه الآية لما نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرًا في الطهور، فما طهوركم هذا**»؟ قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. فقال رسول الله ﷺ: «**فهل مع ذلك غيره؟**»، قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء. قال: «**هو ذاك فعليكموه**» ورواه ابن ماجه رقم (٣٥٥)، والدارقطني باب الاستنجاء رقم (٢).

الأعمال تكون سببًا لمحبة الله ﷻ، والآيات في ذكر محبة الله ﷻ كثيرة جدًا، خلافًا لأهل الكلام، وأهل الكلام منهم من ينفي هذا نفيًا قطعيًا؛ كالمعتزلة والجهمية، ومنهم من يؤولها مثل: الأشاعرة، والماتريدية، وتأويلهم من باب الوجوب؛ ويقولون: إنه يحب عملهم؛ يعني: يجازي على ذلك ويثيب عليه، وهذا تأويل باطل، وهم يفرون من ذلك يقولون: إن المحبة هي المجانسة أو الميل إلى الملائم هذا يجب أن ينزه الله عنه، وهذا في الواقع تفسيرٌ منهم بما يجدونه من أنفسهم، فهو من باب القياس، أو من باب التشبيه، والله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته ولا في أوصافه، وصفاته تبعًا لذاته، فيجب أن تمحى المشابهة من الأذهان بالنسبة لله ﷻ، وأن صفاته تخصه لا يشابهه بها أحد من خلقه.

وكثير من العلماء يقول: هذا ليس تأويلًا وإنما نسميه تحريفًا، وهو كذلك، وإن كان التأويل دخل فيه أضرار بالغة في العقائد وغير العقائد على الأمة عمومًا، ومن المعلوم أن التأويل قد جاء ذكره في كتاب الله ﷻ لكنه غير ما يقول هؤلاء، فالتأويل قسمه العلماء إلى قسمين:

القسم الأول: تأويل معروف وسائغ، وهو أقسام ثلاثة:

الأول: التفسير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، وهذا يرادف التأويل، والمفسرون يسمون التفسير تأويلًا، كما يقول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا.

الثاني: عاقبة الشيء؛ يعني: ما يؤول إليه الشيء، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

الثالث: ويقصد به العمل لما في حديث عائشة ﵂: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول

القرآن[1]؛ يعني: يعمل به بما جاء في سورة النصر.

القسم الثاني: محدث وهو صرف الكلام عن ظاهره المتبادر منه إلىٰ معنىٰ آخر لا يدل عليه إلا بدليل، فهذا لم يكن معروفًا عند السلف، وهو الذي يقصده الأشاعرة وغيرهم.

وقولهم: «إلا بدليل» والدليل ليس له ضابط؛ لأنهم جعلوا الدليل عقليًّا، وهو غير منضبط. ويقولون: يجب التأويل، فإن لم يكن التأويل وجب التفويض، والتفويض أخبث من التأويل وأشر؛ لأن التفويض عندهم معناه: أنه كلام لا يفهم، بل لا يطلب منه المعنىٰ ولا يمكن أن يوصل إلىٰ المعنىٰ، وهل يمكن أن يخاطب الله بمثل هذا ؟ فهو ممتنع والله ﷻ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ينزل الله آياته للتدبر والعلم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وهذا التعليل جاء في عدة آيات ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾: أي : لتعرفوا قدرة الله، وتعرفوا أن الله علىٰ كل شيء قدير، وتعلموا أن الله عليم بكل شيء؛ يعني: تفقهوا صفاته وتعرفوه بها ﷻ.

فالآية دلت علىٰ أن الله يحب المتطهرين، الطهارة الحسية، فمحبته للطهارة المعنوية من باب أولىٰ كمحبته للتائب التي هي أعظم من هذا، فالتائب يتطهر من أقذار المعاصي، ويرجع إلىٰ ربه وهو ﷻ يحب التوابين، ولهذا قرن بين التوبة والطهارة في آية أخرىٰ، فقوله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٨٤)، ومسلم رقم (٤٨٤).

قال المؤلف رحمه الله: **عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»، قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»، قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»**[(١)].

ثابت بن الضحاك بن خليفة الأشهلي صحابي مشهور روىٰ عنه أبو قلابة وغيره، مات سنة أربع وستين.

قوله: «نذر»: النذر: هو التزام عبادة غير واجبة. وهو في الأصل مكروه لقول النبي ﷺ: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج من البخيل**»[(٢)]، وذلك أن النذر عبادة معلقة علىٰ حصول منفعة، والعبادة المنجزة محبوبة لله جل وعلا، فمثلًا النذر والدعاء كلاهما عبادة، فالدعاء لا يكون معلقًا علىٰ شيء، أما النذر إن كان يعلقه علىٰ حصول شيء له فهذا مكروه، ثم هو أيضًا قد يوقع في الإثم والحرج، وذلك أن الإنسان قد ينذر الشيء، ثم لا يستطيع فعله أو يتساهل بفعله ويتهاون فيقع في الإثم، ولذلك كره النذر؛ يعني: مطلقًا، وإن كان نذر طاعة، ولكن إذا وقع نذر الطاعة فيجب أن يفعل، عن عائشة رضي الله عنها: عن النبي ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه**»[(٣)].

قوله: «رجل»: يحتمل أن يكون هذا الرجل هو كردم بن سفيان، والد ميمونة لما روىٰ أبو داود عنها قالت: خرجت مع أبي في حجة رسول الله ﷺ فرأيت

(١) رواه أبو داود رقم (٣٣١٣)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١٩٩٢)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط (١/ ١٨٦): أصل هذا الحديث في الصحيحين، وهذا الإسناد علىٰ شرط الصحيحين وإسناده كلهم ثقات مشاهير وهو متصل بلا عنعنة.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٥٥٩٢)، ومسلم رقم (١٦٣٩)، والنسائي رقم (٣٨١٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وهو عند البخاري (٦٦٠٨) بغير هذا اللفظ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهىٰ النبي ﷺ عن النذر قال: «**إنه لا يرد شيئًا وإنما يستخرج به من البخيل**».

(٣) رواه البخاري رقم (٦٦٩٦).

رسول الله ﷺ، وسمعت الناس يقولون: رسول الله ﷺ فجعلت أبده بصري[١] فدنا إليه أبي وهو علىٰ ناقة له معه درة كدرة الكتاب، فسمعت الأعراب والناس يقولون: الطبطبية الطبطبية، فدنا إليه أبي فأخذ بقدمه. قالت: فأقر له ووقف فاستمع منه فقال: يا رسول الله إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر علىٰ رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من الغنم، قال: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين، فقال رسول الله ﷺ: **«هل بها من الأوثان شيء؟»**، قال: لا، قال: **«فأوف بما نذرت به لله»**، قالت: فجمعها فجعل يذبحها فانفلتت منها شاة فطلبها وهو يقول: اللهم أوف عني نذري فظفرها فذبحها[٢]. ومحتمل أنها تكون قصة أخرىٰ.

قوله: «**ببوانة**»: بضم الباء: بُوانة، وقيل بفتحها. والباء الأولىٰ ليست من أصل الكلمة فربما أخذت من البينونة والظهور، فإذا أخذت من هذا فهي تدل علىٰ أن تلك الأرض بائنة؛ يعني: أنها جبل أو ما أشبه ذلك، وقد اختلف في هذا المكان، فقيل: إنها أسفل مكة، كما قاله البغوي، ولكنه قال: إنها دون يلملم[٣]، وهذا تحديد ليس دقيقًا، ويلملم ليست أسفل مكة، وإنما هي جنوب مكة، وهي ميقات أهل اليمن وهذا بعيد. وقال أبو السعادات: هضبةٌ من وراء ينبع[٤]. ولا يزال فيه هضبة بين ينبع وأملج تسمىٰ بوانة، وهذا هو الصحيح.

وسواء كانت هذه أو هذه الحكم معلوم، وهو أن الإنسان يجوز أن يخص مكانًا من الأمكنة بالعبادة إذا كان ذلك المكان خاليًا من الموانع ومن ذلك الذبح لغير الله.

---

(١) معناه: أتبعه بصري وألزمه إياه لا أقطعه عنه.

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٣١٤).

(٣) التلخيص الحبير لابن حجر (٤/ ١٨٠) قال البغوي: أسفل مكة دون يلملم.

(٤) التلخيص الحبير (٤/ ١٨٠) وفيه: وقال المنذري: هضبة من وراء ينبع. وفي لسان العرب ١(٣/ ٦١) وفيه: قال ابن الأثير: هي بضم الباء وقيل بفتحها هَضْبةٌ من وَراء يَنْبُع.

قوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»: الوثن يطلق على المعبودات إذا كانت من شجر، أو حجر، أو قبر، أو مكان فإنه يسمى وثنًا، وأما إذا كانت معبودات على صورة، إما صورة إنسان، أو حيوان فهو يسمى صنمًا، فالفرق الصحيح بين الصنم والوثن أن الصنم ما كان على صورة، والوثن ما كان على غير صورة، وإن كان أحدهما يطلق على الآخر فقد جاء في قصة إبراهيم عليه السلام إطلاق الأوثان على الأصنام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ الآية [العنكبوت: ١٧]، فدل على أن أحدهما يطلق على الآخر، ويقال: إن الوثن أعم؛ فالأصنام أوثان كما أن القبور أوثان، ولكن هذا الفرق عندما يفرق بين الصنم والوثن.

وجاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه مر على قوم وهم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[1]. فهو جعلها عبارة عن تماثيل وهي هذه الخطوط التي يوضع فيها الحصى؛ يعني: الشطرنج فهل يكون لها هذا الحكم؟ فعلي رضي الله عنه يقول: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ومعنى ذلك: أن كل شيء يشغل الإنسان عن عبادة الله وعما خلق له فهو داخل في الأوثان، ومعلوم أن هذا يشغل القلب والفكر ويلهي، فكثيراً ما تحضر الصلاة ولا يقومون إليها فهم مشغولون في لهوهم، ومن ذلك المال الذي يتعلق به القلب ويشغله عما أوجبه الله عليه فإنه يكون معبودًا ويكون وثنًا يمثله الله يوم القيامة معبودًا يقول له: اتبعه، كما ثبت في الأحاديث أن الله إذا جاء لفصل القضاء[2] بين عباده يخاطب الناس في

---

(١) ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (٢٦١٥٨)، والبيهقي في سننه رقم (٢١٤٥٧)، وابن أبي حاتم رقم (١٤٥٣٥).

(٢) المعجم الكبير للطبراني رقم (٩٧٦٣) من حديث ابن مسعود وفيه: يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال: وينزل الله عز وجل في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ثم ينادي مناد أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا أن يولي كل ناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون في الدين أليس ذلك عدلًا من ربكم؟ قالوا: بلى، قال: «**فلينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون في الدنيا ..**».

الموقف: «**يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوركم ورزقكم أن يولي كل إنسان ما كان يعبد في الدنيا ويتولىٰ أليس ذلك عدل من ربكم؟ قالوا: بلىٰ..**»(١)، هذا هو العدل، فيأتي بكل معبود في ذلك الموقف فيقول لهم: اتبعوا معبوداتكم فيتبعونها فإذا كان المعبود ملكًا، أو نبيًا مثل: عيسىٰ عليه السلام؛ لأنه عبد من دون الله، وكذلك الصالحون فإنه يأتي بشيطان علىٰ صورة ذلك المعبود، فيقال لهم: اتبعوهم(٢).

لأنهم في الواقع هم يعبدون شيطانًا(٣)؛ لأنه هو الذي أمرهم بهذه العبادة، وهو الذي زين ذلك لهم، وصور لهم هذه الأمور وعبدوها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قوله: «الجاهلية»: الجاهلية ضد العلم، هي ما كانت علىٰ خلاف الحق، وما خالف الإسلام فهو جاهلية، ولكن الجاهلية كانت في وقت محدد يعني: في الاصطلاح فهي كانت تطلق علىٰ ما قبل بعثة النبي ﷺ لجهلهم، وكانوا يفعلون أشياء تخالف حتىٰ العقل مثل: قتل أولادهم وتحريم بعض الحيوانات مع أن الأصل واحد؛ يعني: إذا أنتجت الناقة ذكرًا صار له حكم عندهم، وإن كان أنثىٰ

(١) الحاكم في المستدرك رقم (٨٧٥١) وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات غير أنهما لم يخرِّجا أبا خالد الدالاني في الصحيحين لما ذكر من انحرافه عن السنة في ذكر الصحابة، فأما الأئمة المتقدمون فكلهم شهدوا لأبي خالد بالصدق والإتقان والحديث صحيح ولم يخرجاه، وأبو خالد الدالاني ممن يجمع حديثه في أئمة أهل الكوفة تعليق الذهبي في التلخيص: ما أنكره حديثًا علىٰ جودة إسناده.

(٢) البخاري رقم (٤٥٨١)، ومسلم رقم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٣) المستدرك رقم (٣٤٢٤) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرك الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ ووافقه الذهبي قال فيه: «ويمثل لمن كان يعبد عزيزًا شيطان عزير حتىٰ يمثل لهم الشجرة والعود والحجر ويبقىٰ أهل الإسلام جثومًا ..» الحديث. وفي رواية رقم (٨٧٥١)، والطبراني في الكبير رقم (٩٧٦٣): «... فينطلق كل إنسان منكم إلىٰ ما كان يتولىٰ في الدنيا ويمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا وقال: يمثل لمن كان يعبد عيسىٰ شيطان عيسىٰ ويمثل لمن كان يعبد عزيرًا شيطان عزير حتىٰ يمثل لهم الشجر والعود والحجر ويبقىٰ أهل الإسلام جثومًا ..».

صار له حكم عندهم، وكذلك تحريم بعض أجزاء الزرع يكون لأوثانهم جزء منه وجزءٌ يكون لله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠][(١)].

والجاهلية تطلق علىٰ ما قبل البعثة، وكذلك علىٰ الفعل الجاهلي كما قال ﷺ لأبي ذر، وكان أبو ذر له غلام مملوك فعيره بأمه، فقال له النبي ﷺ: «**يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرو فيك جاهلية..**»[(٢)]، وفي رواية: «**قلت: علىٰ حين ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: نعم**»[(٣)]، فالجاهلية قد تكون في الإنسان وإن كان وليًا، فهكذا إذا وقع الإنسان في مخالفة فهو في الجاهلية.

قوله: «**لا**»: الظاهر أن السؤال موجه للعموم؛ لأنه جاء الجواب بـ«**قالوا**» فهي معروفة عندهم.

قوله : «**قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**»: العيد نوع آخر غير الأوثان والعيد يكون اسمًا لما يتكرر ويَعود، بعَود الزمان أو بمعاودة ذلك المكان، ويتبع ذلك أعمال يعملونها فلا بد أن فيه أعمالاً، فيكون اسمًا للمكان لكونهم يعاودونه مرة أخرىٰ، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وحيثما كنتم فصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني**»[(٤)]، فمن العجب أن بعض الناس يقول: إن معنىٰ هذا الحديث أنه يقول: لا تجعلوا مجيئكم إلي مثل

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٥٢٤).

(٢) البخاري رقم (٣٠) باب المعاصي من أمر الجاهلية، ومسلم رقم (١٦٦١).

(٣) البخاري رقم (٦٠٥٠)، ومسلم رقم (١٦٦١).

(٤) أحمد في المسند رقم (٨٨٠٤)، وأبو داود رقم (٢٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

مجيئكم إلىٰ العيد في السَّنَة مرة بل ترددوا إليه كثيرًا، بعكس ما أراد الرسول ﷺ حيث قال: «**صلوا علي أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغني**»، وإنما قال هذا بعض المتأخرين من دعاة عبادة القبور.

وقد يكون اسمًا لزمان؛ كعيد الأضحىٰ، وعيد الفطر، والجمعة؛ كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا يوم عيد، جعله الله للمسلمين، فمن جاء إلىٰ الجمعة فليغتسل، وإن كان طيب فليمس منه، وعليكم بالسواك**»(١)، وقد يطلق علىٰ الكل، ومعلوم أن العيد ليس للمكان فقط ولا للزمان فقط، بل يتبعه اجتماع؛ كقول ابن عباس: شهدت العيد مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان ﭫ، فكلهم كانوا يصلون قبل الخطبة(٢). وأعمال تعمل فيه من الفرح ومن غير ذلك عن عائشة: أن أبا بكر دخل عليها والنبي ﷺ عندها يوم فطر، أو أضحىٰ وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت الأنصار يوم بعاث، فقال أبو بكر: مزمار الشيطان؟ مرتين، فقال النبي ﷺ: «**دعهما يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدًا وإن عيدنا اليوم**»(٣)، واجتماع أهل الجاهلية يكون للهو والباطل والكفر بالله ﷻ ومحاربة بعض خلقه.

والمقصود المكان الذي فيه أوثان الجاهلية، أو فيه أعيادهم، وإن كانت انقطعت عن هذا المكان فإنه لا يجوز للمسلم أن يتشبه بهم في ذلك وغيره، ولو بعد تركهم لذلك الفعل خشية أن يكون متشبهًا بفعل المشركين، وإن اختلفت النيات والمقاصد، وكل هذا فيه إبعاد للمسلم عن أن يكون مع المشرك ولو في الصورة الظاهرة، ومثل ذلك سائر العبادات مثل: الجلوس للذكر وبحث العلم؛ لأن هذه طاعة، ومجالس الذكر من أفضل المجالس، فإنه لا يجوز أن يتقرب في هذا المكان

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (١٠٩٨).

(٢) رواه البخاري رقم (٩٦٢).

(٣) رواه البخاري رقم (٣٩٣١)، ومسلم رقم (٨٩٢).

لله بالطاعة قياسًا على الذبح؛ لأن المعاصي تؤثر في الأمكنة، كما أنها تؤثر في الأبدان، ولهذا السبب لما مر رسول الله ﷺ في وادي محسر أسرع[(١)]، وهذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي كان فيه وثن، أو عيد من أعياد الجاهلية منهي عنه، وأن النذر في ذلك المكان معصية.

والإسلام ليس فيه إلا أعياد الإسلام التي هي عيد الأضحى، وعيد الفطر، ولا يجوز للمسلم أن يصنع أعيادًا غير هذين العيدين، وإن كان عيد الأسبوع هو الجمعة، ولكن الجمعة ليس فيها تعطيل للأعمال حتى لا نكون مشابهين لأهل الكتاب في تعطيلهم أعمالهم في عيدهم، كما ذكر ذلك العلماء.

والمقصود أن المسلم ممنوع من أن يتشبه بأهل الأوثان سواء كان في عباداتهم التي يتقربون بها إلى أوثانهم، أو في أفعالهم العادية التي يعتادونها من فرح واجتماع وغيره، ويدل التعليل أنه لو كان فيها واحد مما ذكر لكان ذلك مانعًا من الوفاء بالنذر؛ لأنه يكون حينئذٍ نذر معصية، ولا وفاء في نذر المعصية.

قوله: «قالوا: لا، قال ﷺ: «فأوف بنذرك»»: هكذا جاءت الرواية بالفاء «**فأوف**»[(٢)]، وقد أخبر التعبير بالفاء هنا حكم أن الوصف المذكور رتب على نفس الوصفين المذكورين؛ يعني: العيد والأوثان رتب عليهما بالفاء مما يدل على أنهما سبب لانتفاء الحكم إذا وجد واحد منهما.

وقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»: هذا يدل على أن النذر لله ﷻ في مكان معصيته لا يجوز الوفاء به وإن كان قد زال هذا الوثن أو ذلك العيد، وأنه

---

(١) رواه مسلم رقم (٣٠٠٩) وفيه: «حتى أتى بطن محسر فحرك قليلًا»، وعند أحمد في المسند رقم (٢١٨١٢): «فقال الفضل: لم يزل يسير سيرًا لينًا كسيره بالأمس حتى أتى على وادي محسر فدفع فيه حتى استوت به الأرض».

(٢) أحمد في المسند رقم (١٥٤٥٦) و(٢٧٠٦٤)، وابن أبي شيبة رقم (١٢٤٣٨)، والطبراني في الكبير رقم (٧٤)، وأبو داود رقم (٣٣١٤).

يصبح هذا نذر معصية ، وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به، وإن كان له زيادة مثل: كونه مشابهة للمشركين، أو وسيلة إلىٰ الشرك، وكذلك من كونه بدعة، فإن هذا اشتمل علىٰ أمرين:

الأمر الأول: شرك الذي هو الوثن.

الأمر الثاني: بدع التي هي الأعياد. سواء المكان ابتدع فجعل عيدًا، أو جعل فيه أيضًا عملًا بدعيًا فإنه لا يجوز أن تعمل فيه الطاعة لهذا الحديث.

فالأماكن التي يعبد فيها غير الله الفعل الذي يفعل فيها يكون معصية لله ﷻ، لذلك صارت الصلاة في المسجد الذي فيه قبر لا تصح، وليست قربة، بل هي باطلة لأجل ذلك مما يكون المسلم مشابهًا للكافرين، فهو ممنوع أن يتقرب في الأماكن التي يتقرب فيها للشيطان، فالوفاء بنذر المعصية لا يجوز.

وقد اختلف في نذر المعصية هل أنه لا يفعل، ويكون ذلك كافيًا، أو أن فيه كفارة يمين؟ علىٰ قولين للعلماء:

الأول: لا كفارة عليه، وروي ذلك عن مسروق، والشعبي، والشافعي لحديث الباب.

والثاني: أنه تجب فيه الكفارة وهو المذهب، وروي عن ابن مسعود وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه لحديث عائشة عند الإمام أحمد مرفوعًا عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا نذر في معصية الله وكفارته كفارة يمين»**[1]،

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٢٦٠٩٨)، والترمذي رقم (١٥٢٤)، وأبو داود رقم (٣٢٩٠)، وابن ماجه رقم (٢١٢٥)، والنسائي (٣٨٤٣) وقال الترمذي: قال أبو عيسىٰ: هذا حديث لا يصح لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة قال: سمعت محمدًا يقول: روىٰ غير واحد منهم موسىٰ بن عتبة، وابن أبي عتيق عن الزهري عن سليمان بن أرقم عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عائشة عن النبي ﷺ ، قال محمد: والحديث هو هذا. وعند أبي داود رقم (٣٣٢٢) عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: **«من نذر نذرًا لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا لا يطيقه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا أطاقه فليف به»**، قال أبو داود: =

وهذا هو الصحيح أنه يجب عليه كفارة اليمين ولا يجوز الوفاء به مثل أن ينذر أن يشرب الخمر فلا يجوز أن يشربها، ولكن عليه كفارة يمين، أما كون هذا الحديث أطلق، ولم يذكر فيه الكفارة هذا لا ينافي الزيادة التي جاءت فيها زيادة حكم، ولكن قال ابن القطان: أخشىٰ أنها ليست من كلام النبي ﷺ[(١)].

وقوله: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**»؛ يعني: إذا نذر أن يتصدق بمال فلان، أو أن يوقف بيت فلان، أو ما أشبه ذلك، فهذا لا وفاء فيه؛ لأنه لا يملكه، وهل حكمه حكم نذر المعصية؛ يعني: هل يلزم فيه الكفارة؟ الظاهر أنه يلزمه الكفارة، والكفارة كفارة يمين.

بهذا يتبين لنا أن المكان الذي عرف أنه فيه معاصي؛ كأن يعبد فيه غير الله، أو أن فيه أعيادًا جاهليةً أنه لا يجوز أن تفعل فيه الطاعة، وإن كانت لله ﷻ، مثل: الذبح لله ﷻ أو غيره من العبادات، فأنها تقاس علىٰ الذبح لله، فإنه لا يجوز أن يتقرب إلىٰ الله ﷻ بأي طاعة في الأماكن التي يعصىٰ الله فيها سواء زالت تلك المعصية، أو كانت باقية في الأماكن، وقد يشكل علىٰ هذا: أنه لما هدمت اللات بني في مكانها مسجد، أجاب ابن القيم رحمه الله عن هذا في الهدي[(٢)] بقوله: إن هذا الذي

= ورویٰ هذا الحديث وكيع وغيره عن عبد الله بن سعيد بن أبي الهند أوقفوه علىٰ ابن عباس. قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٧٦): وللحديث طريق أخرىٰ رواه أبو داود من حديث كريب عن ابن عباس وإسناده حسن فيه طلحة بن يحيىٰ وهو مختلف فيه، وقال النووي في الروضة: حديث لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين ضعيف باتفاق المحدثين، **قلت**: قد صححه الطحاوي، وأبو علي بن السكن فأين الاتفاق؟!

(١) التلخيص الحبير لابن حجر (٤/ ١٧٥) قال حديث: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» رواه البخاري عن عائشة وزاد الطحاوي في هذا الوجه: وليكفر عن يمينه، قال ابن القطان: عندي شك في رفع هذه الزيادة.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٢٥) قال فيه: ومنها: استحباب اتخاذ المساجد مكان بيوت الطواغيت فيعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في الأمكنة التي كان يشرك به فيها، وهكذا الواجب في مثل هذه المشاهد أن تهدم وتجعل مساجد إن احتاج إليها المسلمون وإلا أقطعها الإمام هي وأوقافها للمقاتلة وغيرهم. =

فعل؛ لأنه خشي أن تدعىٰ فبنىٰ المسجد فنسيت. فإذا ترجح الفعل في المثل هذا يكون أثره منسيًا لهذا الشيء أنه لا بأس به، أما ما عدا ذلك فلا يجوز.

فإن المسلم يجب عليه أن يكون مخالفًا للمشركين في جميع أعمالهم التي عرفوا بها وصارت خاصة بهم، وأن مشاركتهم في ذلك من الأمور الكبيرة؛ يعني: من الكبائر التي تقدح في توحيد المسلم، وهذا هو المقصود من هذا الباب والله أعلم.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: أن المعصية قد تؤثر في الأرض وكذلك الطاعة.

قد هنا للتحقيق، وإذا كانت الطاعة تؤثر في الأرض، ولا يقتضي طلب البركة من تلك الأماكن أو العكوف بها فإن هذا لا يجوز، ولكن أثر الطاعة مما يجعله الله عز وجل في الأماكن فلا يكون لها أثر فيه، فلا يجوز أن نطلب منها شيئًا لا بركة ولا غيرها، وإنما تطلب البركة من الله جل وعلا هو الذي يجعل الشيء مباركًا، قال الله جل وعلا عن الكفار: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]؛ يعني: أن الأماكن لها إحساس وشعور جعله الله فيها تتأثر بالطاعة، وقد جاء في التفسير(١)

= وقال في موضع آخر (٢/ ٢٦٧): فقصد النبي ﷺ إظهار شعائر الإسلام في المكان الذي أظهروا فيه شعائر الكفر والعداوة لله ورسوله، وهذه كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه أن يقيم شعائر التوحيد في مواضع شعائر الكفر والشرك، كما أمر النبي ﷺ أن يبنىٰ مسجد الطائف موضع اللات والعزىٰ.

(١) تفسير الطبري ٢(٢/ ٣٤) عن سعيد بن جبير، قال: أتىٰ ابن عباس رجل فقال: يا أبا عباس أرأيت قول الله ﷻ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ فهل تبكي السماء والأرض علىٰ أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكىٰ عليه؛ وإذا فقده مُصَلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلىٰ السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض. وعن قتادة، في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال: بقاع المؤمن التي كان يصلي عليها من الأرض تبكي عليه إذا مات، وبقاعه من السماء التي كان يرفع فيها عمله.

أن هذا محل صعود العمل والأرض التي يؤدون عليها العبادة أماكن السجود تبكي على من سجد عليها لله ﷻ، والسماء كذلك الموضع الذي يصعد منه عملك يبكي عليك، ومن المعلوم أن المعاصي هي الإفساد في الأرض، وقد أخبر الله ﷻ أن الكفار والمنافقين يفسدون في الأرض بعد إصلاحها بالطاعة وإفسادها بالمعصية، ولهذا كانت آثار الكفار المعروفة لها أثر في ذلك لما جاء النبي ﷺ إلى مدائن ثمود نهى أصحابه أن يدخلوا عليهم إلا إذا كانوا باكين خشية أن يصيبهم ما أصابهم ونهاهم أن يستقوا من آبارهم، وأذن أن يستسقوا من بئر الناقة فقط، والذين سبقوا وعجنوا أمرهم أن يعلفوه البهائم، فهذا يدل على أن المعصية تؤثر في العبادة وفي البقعة، ومن ذلك أنه ﷺ لما وصل إلى وادي محسر أسرع؛ لأنه محل العذاب الذي عذب فيه أصحاب الفيل.

❁ **الثانية: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.**

هذا مأخوذ من قوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»، وقوله: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**»، فهو استفسر ووضح حتى يزول الاحتمال، فإذا استفتي الإنسان عن شيء مجمل فلا بد من التفصيل، وكذلك إذا اشتبه على الإنسان شيء لا بد من الإيضاح؛ لأنه إذا كان هناك شيء مجمل فإنه قد يحصل غلط، فلا بد من الإيضاح والتفصيل.

❁ **الثالثة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.**

قال بالنذر بخلاف العبادات الأخرى ؛ لأنه جاء به النص فقط؛ لأن النبي ﷺ أفتى بالنذر قال: «**فأوف بنذرك**»، أما غيرها مثل: تخصيص مكان للصلاة أو غيرها إذا خلت من الموانع فهذا عام؛ لأنه ﷺ قال: «**وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل**»[1].

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٥)، ومسلم رقم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الرابعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم، ولو لم يقصده.

هذا واضح من الباب وهو المقصود، ولكن الشيء الذي يجب أن يسأل عنه كيف صار هذا تفسيرًا لشهادة أن لا إله إلا الله؟ وقد عرفنا أن التفسير يأتي بالضد ويأتي بالمعنىٰ المقصود الذي تضمنه؛ يعني: بالمنافي والمثبت الذي دلت عليه، **الجواب**: وجه ذلك أن هذه الكلمة لا إله إلا الله تضمَّنت الدين كله، فكل أمر مما أمر الله به فهو داخل في ضمنها، وكل نهي نهىٰ عنه فارتكابه يكون قادحًا في قولها منقصًا لها.

الخامسة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

يعني: أنه لا يقع ولا يجوز النذر، ولو وقع النذر لا يجوز أن يفي به.

الباب الثاني عشر

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **باب من الشرك النذر لغير الله.**

مقصوده رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا الباب أن يُبيِّن أن النذر عبادة، وصرف العبادة لغير الله من الشرك، ولهذا نص علىٰ أنه شرك، والدليل علىٰ أنه عبادة أن الله جَلَّ وَعَلَا أثنىٰ علىٰ الموفين بالنذر ومدحهم بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، ولا يثني ربنا جَلَّ وَعَلَا ويمدح إلا من فعل واجبًا أو مستحبًا، أما إذا كان مباحًا فإنه لا يثني علىٰ صاحبه فبثنائه ومدحه علىٰ من أوفىٰ به تبين أنه عبادة؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يجزيه علىٰ ذلك فقد جعل جزاءهم الجنة، ولكن الثناء علىٰ الموفي به وليس علىٰ الناذر، فلا ينافي ما سبق أن النذر مكروه، وإنما إنشاؤه وابتداؤه هو المكروه، أما إذا وقع فإذا كان طاعة وجب الوفاء به لقوله ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[1]، ومن وفَّىٰ به فهو ممدوح ومثنىٰ عليه ومجازىٰ عليه.

والجزاء يكون علىٰ فعل طاعة ليس علىٰ فعل مباح إلا إذا اقترن به نية صالحة؛ كالأكل والنوم والسفر مثلًا للفرجة والنظر، وما أشبه ذلك فهذه من المباحات، ولكن قد يكون عبادة بالنية، وقد ذكر العلماء أن النذر تتطرق إليه الأحكام الخمسة؛ يعني: يكون محرمًا ويكون واجبًا؛ يعني: الوفاء به، ويكون مباحًا، ويكون مكروهًا، ويكون مستحبًا، وقد يكون مخيراً بين فعله وتركه، أما كونه مكروهًا فهذا جاءت الأحاديث به فإن الرسول ﷺ قال: «**لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم يكن قُدِّر له، ولكن يلقيه النذر إلىٰ القدر قد قُدِّر له فيستخرج الله به من البخيل فيؤتيني عليه ما لم يكن يؤتيني عليه من قبل**»[2]، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نهىٰ عن النذر

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري رقم (٦٦٩٤)، ومسلم رقم (١٦٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج من البخيل**»(١)، وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يأتي النذر علىٰ ابن آدم شيئًا لم أقدره عليه ولكنه شيء أستخرج به من البخيل**»(٢)، فهذا يدل علىٰ أنه مكروه؛ يعني: إنشاء النذر وابتداؤه مكروه؛ لأنه لا يغير من القدر شيئًا، فالمقدر لا بد أن يقع نذر الإنسان أو لم ينذر، ووجه الكراهة قوله: «**لا يأتي لابن آدم النذر بشيء**» وقوله: «**لا يأتي بخير**»، بل قد يأتي بشر وذلك أن الإنسان قد ينذر نذرًا، ثم يثقل عليه، ثم يتساهل فلا يفي به؛ يعني: نذر الطاعة فيصبح قد ارتكب حرامًا، وارتكاب المحرم شر، وأما كونه مستحبًا أو مباحًا، أو مستوي الطرفين فهذا يختلف باختلاف ما يفعله الإنسان.

فمثلًا: المباح مثل ما جاء في الحديث، وإن كان فيه كلام ما رواه أبو داود(٣) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وأحمد، والترمذي(٤) عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أضرب علىٰ رأسك بالدف قال: «**أوفي بنذرك**»، فضرب الدف أمر مباح فدل علىٰ أنه يجوز الوفاء به إذا كان النذر مباحًا، وأما كونه مكروهًا، فمثل الطلاق ينذر أن يطلق زوجته مثلًا: فهذا مكروه الوفاء به؛ لأن الطلاق من المكروهات، وأما كونه محرم فهو ظاهر؛ كنذره أن يفعل معصية كشرب الخمر، أو كترك الصلاة، وما أشبه ذلك فهذا لا يجوز له أن يفي به كما سيأتي في الحديث، فعلىٰ كل حال النذر في الأصل إنشاؤه مكروه، ولكن إذا فعله العبد فلا يخلو الأمر إما أن يكون نذر طاعة لله ﷻ

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٦٠٨)، ومسلم رقم (١٦٣٩) واللفظ له.

(٢) رواه النسائي رقم (٣٨٠٤).

(٣) رواه أبو داود رقم (٣٣١٢)، ورواه البيهقي الكبرىٰ رقم (١٩٨٨٩) وقال: يشبه أن يكون ﷺ إنما أذن لها في الضرب لأنه أمر مباح وفيه إظهار الفرح بظهور رسول الله ﷺ ورجوعه سالمًا لا أنه يجب بالنذر، والله أعلم.

(٤) أحمد في المسند رقم (٢٣٠١١)، والترمذي رقم (٣٦٩٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث بريدة، وفي الباب عن عمر وسعد بن أبي وقاص وعائشة. ورواه ابن حبان في صحيحه رقم (٤٣٨٦).

فهذا يجب عليه أن يفي به، أو يكون أمرًا مباحًا كأن ينذر أن يسافر للتفرج والنزهة فهذا لا يلزمه الوفاء به، ويكون محرمًا مثل ما مثَّلنا، وقد يكون ممتنع الوفاء به كأن ينذر أن يتصدق بمال فلان، أو بيته، أو ما أشبه ذلك فلا نذر للإنسان في المحرم ولا فيما لا يملك، فالشيء الذي لا يملكه لا يجوز الوفاء به ولا يلزمه ذلك، ولكن هل تلزمه الكفارة؟

فيه خلاف بين العلماء والصحيح أنه تلزمه الكفارة، والكفارة كفارة يمين لما جاء في حديث عائشة ﵂: أن النبي ﷺ قال: «**لا نذر في معصية وكفارته كفارة اليمين**»، رواه أبو داود(١). قال الحافظ: قال النووي في الروضة: حديث: «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**» ضعيف باتفاق المحدثين، قلت: قد صححه الطحاوي، وأبو علي بن السكن(٢)، فإذا صحح الحديث حافظ من حفاظ الأمة المعتبرين فإنه يجب العمل به.

✍ **قال المؤلف** ﵀: **وقوله الله تعالى**: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

هذا في الثناء على عباد الله الذين أثنى عليهم بعدة أوصاف منها أنهم يوفون بالنذر ومدحهم عليه، وأخبر أنه يثيبهم عليه بقوله ﷻ: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، فإذا تبين هذا دل على أن النذر عبادة لله ﷻ لا يجوز صرفها لغيره فمن جعلها لغير الله فقد أشرك.

وقوله: «﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]»: فقرن النذر بالخوف من يوم القيامة وأهواله الذي هو عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ مما يؤكد أن النذر عبادة لله ﷻ وهو الوفاء به إذا كان في طاعة الله ﷻ.

(١) سبق تخريجه.
(٢) التلخيص الحبير لابن حجر (٥/ ٤٥٧).

✍ **وقال المؤلف** رحمه الله: **وقوله**: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

النفقة المقصود بها هي النفقة التي يبتغي بها وجه الله تعالىٰ، والنفقة في سبيل الله قد حث الله عليها ووعد عليها الأجر الجزيل.

وقوله: «﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾»؛ يعني: نذر طاعة لله جل جلاله، فعطفه جل جلاله النذر علىٰ النفقة في سبيل الله يدل علىٰ أنه عبادة لله جل جلاله، وطاعة يجب إخلاصها لله جل جلاله كما يجازي من فعل ذلك؛ يعني: من أوفىٰ به لله جل جلاله كما يجازي المنفق في سبيله جل جلاله.

وقوله: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾»: وفي ضمنه أنه يجازي فاعله، ويثيبه علىٰ ذلك قال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالىٰ: بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته علىٰ ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده[1]. فدل هذا علىٰ أن النذر عبادة يجازي الله عليها فإذا تبين لنا أن النذر عبادة فإنه يجب أن تكون خالصة لله جل جلاله، وأن من صرفها لغير الله، فقد أشرك.

وبهذا يعرف أن النذر للقبور، أو لأصحاب القبور، أو لأماكن معينة التي يظن أن فيها بركة؛ لأنه قد يكون جلس عندها رجل صالح مثلًا، أو نبي، أو ما أشبه ذلك يكون شركًا وسواءً كان النذر نقودًا، أو في حرث، أو في غير ذلك من أنواع الأموال، أو في شيء يقوم علىٰ هذا المكان مثلًا: تنويره بالمصابيح، أو ترميمه، أو جعل المياه فيه لمن يأتي إليه، أو ينذر الزيوت حتىٰ يسرج علىٰ القبر، ومنهم من ينذر لمن يخدم القبة والمكان يسمونهم سدنة تشبهًا بسدنة الأصنام وغيرهم، فينذرون لهم

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٠١).

ويجعلون لهم شيئًا من أموالهم فهذا شرك بالله ﷻ، وكذلك النذور للأمكنة التي يعتقدون أنها شريفة، وقد يعتقد أنها تقبل النذر كما يقول القبوريون، والمشركون؛ يعني: أنه إذا نُذر له يحصل لهم ما أرادوا بزعمهم أنه هو الذي أوجد لهم ذلك، ومعنىٰ هذا أن الأموات تتصرف، وأنها تنفع وتضر، وهذا شرك في الربوبية - نسأل الله العافية - وهذا الذي قصده المؤلف رحمه الله؛ لأن هذا كان في وقته كثير كما أنه في وقتنا أيضًا كثير في بلاد المسلمين يجعلون قسمًا من أموالهم لمن يعتقدون أنهم أولياء ولا سيما إذا وقع أحدهم في أمر عظيم إما مرض، أو عدو، أو فقر، أو فقد ولد وما أشبه ذلك، فيقدم النذور للأموات والقبور يرجو أنه يحصل له مطلوبه في ذلك، وهذا أمر واضح جدًا وظاهر في الوقت الحاضر كما كان في الماضي في وقت الشيخ وقبله، فأراد أن يبين أن هذا من أعظم الشرك بالله ﷻ، وأن الإنسان إذا كان يفعل هذا ومات عليه فإنه مشرك الشرك الأكبر الذي لا يُغفر إلا بالتوبة منه والإقلاع عنه، وأما وجه كونه تفسيرًا وشرحًا لشهادة أن لا إله إلا الله وبيانًا لها فلأن هذا مناف للشهادة ومضادًا لها وبضدها تتبين الأشياء؛ لأنه كما سبق أن الشيخ رحمه الله لما ذكر تفسير شهادة أن لا إله إلا الله قال: وتفسير ذلك بما بعدها من التراجم. فهو يذكر التفسير إما بما ينافي التوحيد مثل هذا، أو بما يذهب بكماله، أو ينقصه ويذهب بجزء منه، أو بما يكمله ويتممه؛ كالحب في الله، وما أشبه ذلك.

قال المؤلف رحمه الله: **وفي الصحيح عن عائشة** رضي الله عنها **عن الرسول** ﷺ **قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**[1].

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: صحيح البخاري، أو أنه يقصد في الحديث الصحيح الثابت عن الرسول ﷺ وهذا هو الغالب؛ لأنه يذكر أحاديث في هذا اللفظ وهي في الصحيحين.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: «**من نذر**»: «**من**»: اسم موصول، وهو من صيغ العموم؛ يعني: أن هذا عام في كل من صدر منه النذر ممن يصح ذلك منه فإنه يلزمه أن يفي به إذا كان طاعة لله ﷻ ولا يجوز له أن يفي به إذا كان نذر معصية.

قوله: «**نذر**»: النذر: مصدر نذر ينذر، أوجب علىٰ نفسه شيئًا لم يكن واجبًا عليه شرعًا تعظيمًا للمنذور له، وأصله في اللغة الإيجاب.

قوله: «**أن يطيع الله فليطعه**»: فمن نذر أن يطيع الله وجب عليه أن يفي بنذره، وهذا مطلق في جميع الطاعات، ومعلوم أن الطاعة لا تخلو إما أن تكون واجبة، أو تكون مستحبة، فإذا نذر شيئًا مستحبًا يجب عليه أن يفي به وكذلك إذا نذر أمرًا يجب عليه؛ كأن يصلي الظهر، أو يصلي العصر، أو يصلي المغرب، أو ما أشبه ذلك فإنه يجب عليه وإن كان واجبًا في الأصل، ولكن معنىٰ ذلك أنه لو خالف لزاد إثمه، وكذلك إذا كان أمرًا مستحبًا مثل: الاعتكاف وما أشبه ذلك، مع أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله يقول: إنه لا يجب إلا إذا كان له أصل واجب في الشرع، فالاعتكاف عنده ليس واجبًا، فمعنىٰ ذلك أنه لا يلزمه الوفاء به، لكن الحديث يدل علىٰ خلاف ما قال رحمه الله فالحديث فيه أن من نذر أن يطيع الله فليطعه، وهذا مطلق سواءً كان واجبًا في أصل الشرع، أو لم يكن واجبًا، والنذر لا يغير من الواقع شيئًا، فالأمور مقدرة مكتوبة، ولكن الدعاء، هو الذي ينفع كون الإنسان يتجه إلىٰ ربه ويدعو، ويبتهل ويجتهد في الدعاء، فهذا يستجيب الله ﷻ له، ويحصل له مراده بإذن الله فهو عبادة يثاب عليها، وأما النذر فقد يكون مؤجلًا فالعبادة المؤجلة فيها منٌّ وفيها تعليق علىٰ شيء إذا حصل فعل، وإذا لم يحصل لم يفعل، وسواءً نذر طاعة معلقًا، أو ابتداءً؛ كأن يقول: لله عليّ أن أصوم، أو أن أصلي، أو ما أشبه ذلك، فهذا يجب عليه أن يفي به، ولو لم يعلقه بحصول شيء، أو زوال شيء من الأمور المكروهة، ولا يلزم أن يقول: نذرت، بل إذا قال: لله عليَّ كذا، أو سأفعل كذا؛ كالطاعات فإنه يكون نذرًا، والنذر شبيهٌ بالحلف.

وقوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»:، وهذا مطلق وعام في كل معصية لا يجوز أن يفي بنذره بل يحرم عليه ذلك، ونذر المعصية مثل: أن ينذر أن يشرب الخمر، أو يترك الصلاة، فهذا يحرم عليه أن يفي بنذره. ومن نذر المعصية النذر للقبور، أو بقعة من البقع والذين يقولون: إنه يقبل النذر؛ يعني: أنه يحصل للناذر ما نواه وأراده، ومعلوم أن هذا شيء ينافي العقل فضلًا عن منافاة الشرع، كيف المكان ينفع، أو يضر، أو المقبور الذي هو رميم لا يستطيع أن يصرف عن بدنه الديدان التي تأكله، ولا يستطيع أن يستزيد حسنة في صحيفة حسناته، أو ينقص سيئة مما ثبت عليه، فهو أفقر من الحي الذي يطلب منه نفعًا، فهذا يدل علىٰ سخافة المشرك؛ لأنه في الواقع يأتي إلىٰ مخلوق ضعيف مثله ويطلب منه النفع الغيبي، أو الدفع، ويزعم أن هذا مجرب ونافع؛ لأنه وقع مرة، أو أكثر من مرة قدرًا من الله ﷻ، فجعل ذلك بواسطة الشيطان وإيحائه أن هذا من الميت فصار هذا له فتنة، وكل من عبد القبور وطلب منها جلب نفع، أو دفع الضر فقد وقع في الشرك الأكبر وعمدتهم في هذا إما رؤىٰ، وإما حكايات تحكىٰ في مثل هذا الذي وقع له قدرًا، أو أحاديث موضوعة علىٰ رسول الله ﷺ، ولكن ذلك صادف الهوىٰ والتقليد الذي وجدوا عليه من يعظمونه فيستدلون به، فهذه هي عمدة القبوريين غالبًا، وقد يتعلقون بأشياء لا تدل علىٰ مرادهم بل تدل علىٰ عكسه إذا كانت صحيحة، وقد يستدلون مثلًا: بأقوال جاءت عن بعض الأئمة ليست مقصودة، مثلًا: إذا ذكروا ترجمة رجل قالوا: قبره يزار، أو يعظم، أو يتبرك به وما أشبه ذلك، مع أن هذا يجب الحذر منه، وأن لا يطلق ذلك؛ لأنه فتنة لهؤلاء، فإذا سمعوا مثل هذا الكلام ظنوا أن العلماء يؤيدونهم علىٰ ذلك، أو أنهم يرونه حقًا، أو أنهم يظنون أنهم يفعلون كفعلهم.

والمقصود أنه لا دليل لهم من كتاب الله ﷻ، ولا من سُنَّة رسوله ﷺ، ولا من العقل والفطرة علىٰ فعلهم. فمن قدم النذور للأموات، أو للقبور، أو للأمكنة

أو غيرها فإن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفر لصاحبه إذا مات عليه لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

ونذر المعصية كما سبق لا يجوز الوفاء به، ولكن فيه الكفارة، والكفارة كفارة يمين إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وهذا مطلق في جميع المعاصي. وهذا الحديث الذي قال فيه ابن القطان: حديث: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» رواه البخاري عن عائشة وزاد الطحاوي[1] في هذا الوجه: «**وليكفر عن يمينه**» عندي شك في رفع هذه الزيادة[2]. ويغني عن هذا ما جاء في المسند، وغيره عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نذر في معصية الله وكفارته كفارة يمين**»[3]، وقد جاء أيضًا أن لا نذر لابن آدم فيما لا يملك[4] فهذا مثله.

وأما الأمور التي يكون الإنسان فيها مخيرًا كما ذكر أئمة الفقهاء كنذر غضب ولجاج، واللجاج كونه يلج في الأمر ويعتمد البقاء عليه، أو المضي فيه ويكون

(١) بيان مشكل الآثار للطحاوي (٤/ ٨٦) عن عبيد الله بن عمر عن القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله ﷻ فليطعه ومن نذر أن يعصي الله ﷻ فلا يعصه**»، قال حفص: وسمعت ابن مجبر وهو عند عبيد الله فذكره عن القاسم عن عائشة عن النبي ﷺ مثله وقال فيه: «**يكفر يمينه**».

(٢) التلخيص الحبير (٤/ ١٧٥).

(٣) أحمد في المسند رقم (٢٦٠٩٨)، والترمذي رقم (١٥٢٤)، وأبو داود رقم (٣٢٩٠)، والنسائي رقم (٣٨٤٣)، وابن ماجه رقم (٢١٢٥).

(٤) رواه أحمد في المسند رقم (٦٩٩٠)، ومسلم رقم (١٦٤١) عن عمران بن حصين في قصة العضباء ناقة رسول الله ﷺ وفيه: «**سبحان الله بئسما جزتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك العبد**»، وأبو داود رقم (٣٣١٣) من حديث ثابت بن الضحاك المتقدم، وابن ماجه رقم (٢١٢٤): «**لا نذر في معصية، ولا نذر فيما لا يملك ابن آدم**» من حديث عمران بن حصين، والنسائي رقم (٣٨٢١).

غضبان فينذر أنه يفعل كذا فإذا كان فعله ليس محرمًا، وليس من الأمور الواجبة فإنه يكون مخيرًا بين فعله وتركه، ولكن جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا: «**لا نذر في غضب وكفارته كفارة اليمين**»(١)، وله طرق وفيه كلام لبعض العلماء في السند، والصحيح أنه يلزمه كفارة يمين كما في هذا الحديث، والله أعلم.

(١) أحمد في المسند رقم (١٩٨٨٨)، والنسائي رقم (٣٨٥١)، والبيهقي رقم (٢٠٥٦١)، والطبراني في الكبير رقم (٤٨٥).

الباب الثالث عشر

قال المؤلف رحمه الله: باب من الشرك الاستعاذة بغير الله.

الاستعاذة هي: الالتجاء والاعتصام والاحتماء بمن يدفع الشر، أو يمنعه قبل حصوله.

وقد جاء الأمر في القرآن الكريم في آيات كثيرة بالاستعاذة بالله، قال جل وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]، فالله جل وعلا يأمر عباده أن يستعيذوا به، ومعلوم أن الاعتصام بالله جل وعلا توحيد وعبادة، وأن من فعل ذلك فإن الله يكفيه ويحميه، وإذا ثبت أنه عبادة فصرفها لغير الله جل وعلا شرك فمن التجأ واحتمى بشخص، سواء كان آدميًا، أو جنيًا، أو شيئًا موهومًا فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بتركه والتوبة منه، فالاستعاذة لا يجوز أن تكون بغير الله جل وعلا.

والاستعاذة تكون من الأمر المرهوب المخوف، كما أن اللياذ يكون في الأمر المرغوب كما قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره[(١)]

والالتجاء قد يكون بالفعل الظاهر، وقد يكون بالقلب وما يقوم بالقلب، ومعلوم أن الفعل بالجوارح يتبع القلب؛ لأنه لا يقع فعل للعاقل إلا إذا سبقه فعل القلب، وهذا المقصود فيه الأمر الظاهر، فلا بد من اجتماع فعل الجوارح مع فعل

(١) ديوان المتنبي (٢/ ٢٧٢).

القلب في كل عبادة.

والاستعاذة بالله تكون من كل شيء فيه شر؛ لأن الأشياء بعضها لا شر فيها ولكن يقال مثلًا: هذه استعاذة عامة مطلقة الإطلاق الوصفي، وليس الإطلاق الكلي وذلك أن الجنة شيء، والجنة كلها خير لا شر فيها، ومثل الملائكة خير لا شر فيهم، ومثل الأنبياء لا يستعاذ بالله منهم لا شر فيهم بل هم خير؛ يعني: هذا أنه يجب أن يكون على الإطلاق الوصفي، ومعنى الإطلاق الوصفي: أنه يوصف ذلك الذي استُعيذ بالله منه؛ لأن فيه شرًّا ففي قوله ﷻ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، وما في الحديث: «**أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق**» هذا عام.

فإذًا كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ جاءت بالاستعاذة بالله ﷻ وحده، فلا يجوز أن يستعاذ بمخلوق، ولكن إذا كان المخلوق يملك الشيء الذي يُستعاذ به فهل يجوز أن يستعاذ به؟ مثل أن تقول: أعوذ بك من شرِّك، أو أعوذ بك من شر فلان، وهو يستطيعه، كولده وما أشبه ذلك **هل يجوز مثل هذا؟**

والجواب: أنه لا يستطيع أن يمنع حتى شره، فالمخلوق ضعيف ولا يستطيع أن يمنع حتى شر ولده فهو ضعيف جدًا، فالواجب أن تكون الاستعاذة بالله وحده ولا تكون الاستعاذة بغيره ﷻ؛ لأن الاستعاذة الالتجاء والاحتماء بالقلب أولًا قبل القول وقبل الفعل، وما يقوم بالقلب من الالتجاء والانطراح بين يدي الله، والخضوع له، والذل له، والاستكانة له، والإنابة وتسليم الأمر له هذا لا يجوز أن يكون شيء منه لغير الله أصلًا؛ لأنه هو العبادة والتأله، بل هو من أفضلها لأنه عبادة بالربوبية والألوهية، وإن كان عبودية الألوهية والربوبية بينهما تلازم، فأحدهما يتضمن الآخر، والثاني يستلزمه، فهذا لا بد منه، ولا ينفك أحدهما عن الآخر وأن الذي يُطلب منه الشيء يجب أن يكون مالكًا له، والمخلوق لا يملك إلا ما ملكه الله ﷻ.

أما أن يقول الإنسان من باب المغالطة: أنا أعوذ بهذا وأسأله؛ لأنه يملك ذلك نقول: وما يدريك أنه يملك من أين علمت هذا؟

ونقول مثلًا: صاحب هذا القبر، أو هذا النبي، أو الملك، أو ما أشبه ذلك قد أقدره الله وأعطاه القوة وأعطاه فضلًا منه أنه من احتمىٰ به أنه يحميه، وكثيرون منهم يستحوذ عليه الشيطان ويقول: هذا جربناه ووجدناه صحيحًا بالفعل، فلا نقبل القول بعد وقوع الفعل من ذلك، وهذا سيأتي بحثه عند الآية.

ولكن المقصود بيان أن الاستعاذة يجب أن تكون بالله وحده ولا يجوز أن تكون بمخلوق أصلًا.

أما شر الإنسان مثل أن يقال: كف شرك عنا، فهذا يجب أن يكون أمرًا، ولا يجوز أن يكون استعاذة فنقول: كف شرك وشر من تحت يدك، يجب أن يكون بالأمر موجهًا إليه، ولا يجوز أن يكون بالخضوع والذل والإحتماء به حتىٰ وإن كان مَلِكًا، أو أميرًا لا يجوز ذلك، ومعوم أن الإنسان يخضع للآخر ويذل له، بل يعبده وأكثر الناس يعبد بعضهم بعضًا وهذا أمر ظاهر، فكل من أطاع مخلوقًا في معصية الله ﷻ فقد اتخذه ربًا وهو مشرك في هذا، وهذا كثير جدًا إذا تأمله الإنسان، ولهذا أكثر الناس لا ينفك عن الشرك، وإذا قدم هواه وشهوته علىٰ مراد الله وأمره، فإنه يكون عابدًا لهواه، وأكبر معبود تحت أديم السماء الهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣] يقول العلماء: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ يعني: إذا هوىٰ شيئًا فعله بدون مبالاة وبدون أن يرتدع بأمر الله ﷻ [(١)]. قال مالك: لا يهوىٰ شيئًا إلا عبده[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري ٢(٢/ ٧٥) وفيه: فقال بعضهم: معنىٰ ذلك: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوىٰ شيئًا إلا ركبه لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرِّم ما حَرَّمَ، ولا يحلل ما حَلَلَ، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به. عن قتادة: لا يهوىٰ شيئًا إلا ركبه لا يخاف الله.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٦٨)

ولكن المقصود أن المخالفات التي تقع من الناس، إذا كان الإنسان عالمًا بها وفعلها امتثالًا للمخلوق وهو يعلم أن الله ينهىٰ عن هذا، فمعنىٰ ذلك أنه اتخذ هذا المخلوق ربًا فهو عنده أعظم من الله، أما إذا أهدر أمرَ الله ﷻ ورماه خلف ظهره لأجل أنه يشتهي هذا الشيء ويريده، فهذا إما أن يكون إيمانه ضعيفًا وغطىٰ عليه هواه وشهوته، ثم إذا أفاق رجع وندم وتاب، وقد لا يرجع ولا يتوب، ويتمادىٰ فيكون عابدًا لشهواته. فالإنسان قد يكون عابدًا لبطنه أو فرجه، وقد يكون عابدًا لزوجته، يقدم هواهم علىٰ أمر الله وهكذا، وهذا يجب علىٰ العبد أن يتأمله في نفسه وفي من حوله لعله أن يسلم فالأمر ليس سهلًا، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **«الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ الصفاة الصماء في ظلمة الليل»**(١)، فالشرك ليس أن يسجد الإنسان لصنم فقط، أو يتجه إليه بالدعاء والطلب والتضرع، الشرك أعم من هذا.

فالاستعاذة اتفق العلماء علىٰ أنها عبادة وهذا أمر ظاهر، فإذا كانت عبادة فمن المعلوم أنه يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، فإذا كان فيها شيء لغير الله وقع الشرك، والعبد قد يستكثر، وقد يقلل حسب ما يقوم في نفسه.

وإذا تأمل الإنسان كتاب الله لا يجد فيه شيئًا يدل علىٰ أنه يجوز أن يستعاذ

---

(١) الحديث بألفاظ متعددة رواه أحمد في المسند رقم (١٩٦٠٦)، وابن أبي شيبة رقم (٢٩٥٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧١٦) عن معقل بن يسار يقول: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلىٰ النبي ﷺ فقال: **«يا أبا بكر للشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ قال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده للشرك أخفىٰ من دبيب النمل، ألا أدلك علىٰ شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره قال: قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم»**، والحاكم في المستدرك رقم (٣١٤٨) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ولفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الشرك أخفىٰ من دبيب الذر علىٰ الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب علىٰ شيء من الجور وتبغض علىٰ شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض، قال الله ﷻ:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]».

بمخلوق، وكذلك أحاديث الرسول ﷺ بخلاف الاستغاثة فإنها سيأتي فيها التفصيل؛ لأن الاستغاثة هي الدعاء المخصوص لمن وقع في الشدة، والشدائد لا تدوم، فهي تعرض وتنتهي، وإذا عرضت فقد يكون المطلوب عنده أسباب تخليص هذا الذي وقع فيها الشيء الذي يخلصه، ولهذا سيأتي أن الاستغاثة بمخلوق قادر حاضر مستطيع أنها جائزة بخلاف الاستعاذة فهي عامة مطلقة.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ**: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قراءتان بالفتح وبالكسر في الآيات كلها في هذه السورة. وقد جاء في تفسير ذلك أنه في الجاهلية إذا أمسىٰ أحدهم بواد قفر وخاف علىٰ نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه. ويقصد الجن وهذا معروف عنده.

قوله: «﴿رِجَالٌ﴾»: سماهم رجال، فكلاهما رجال وبعضهم يعوذ ببعض، وفيهم النساء، فالجن كالإنس. وهذا من الكلام الذي ذكره الله جل وعلا عن مؤمني الجن، والجن عقلاء مكلفون بعبادة الله جل وعلا، ويثابون علىٰ الطاعة ويعاقبون علىٰ المعصية؛ كالإنس، وقد أخبر الله جل وعلا عن ذلك في مواطن كثيرة من كتابه وأقسم بنفسه الكريمة جل وعلا أنه سوف يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين فهم وقود جهنم؛ يعني: كفرتهم وطغاتهم وخلقوا لها، فلهم عقول وأفكار، وفيهم المؤمن والكافر، وفيهم الشياطين كالإنس، وفيهم الجهلة، وفيهم العلماء، وهم علىٰ الأرض مع الناس، غير أن الله جل وعلا أخفاهم فهم يروننا من حيث لا نراهم وهم يرسل إليهم الرسل، ولكن الرسل الذين يرسلون إليهم من الإنس؛ لأنه ليس من الجن رسل، وإنما يأتي إلىٰ الرسل منهم من يؤمن فيذهب فينذر قومه كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وفي هذه الآيات ذكر الله موسىٰ، ولم يذكر عيسىٰ قال: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ولم يقل من بعد عيسىٰ؛ لأن عيسىٰ عليه السلام جاء مكملًا لشريعة موسىٰ، ولم يأت بشريعة مستقلة، فالأصل الشريعة التي جاء بها موسىٰ عليه السلام، ولهذا قال: «﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾»، والمقصود أنه جاء، كما قال عليه السلام: «**من الجن النذر وليس فيهم الرسل**»(١)، ولهذا أخبر الله جل وعلا أن الرسل رجال من الإنس، وقال إنهم من أهل القرىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، فلم يُرسِل من البوادي أحدًا.

والمقصود أنه لما أسلم بعض الجن الذين أتوا إلىٰ النبي ﷺ صاروا يذكرون الأمور الشركية التي كانوا يفعلونها قبل أن يعرفوا الحق ويدخلوا فيه ويقع بينهم وبين الإنس وعابوا هذا، وقد قال جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فالاستمتاع الذي وقع منهم هو هذا الذي ذكر هنا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فالإنسي يعوذ بالجني، والجني قد يقضي بعض حاجات الإنسي، ولكنه يكون مكتسبًا من ذلك التعظيم والعلو والتكبر، وقد يكون أخص من هذا الاستمتاع، قد يكون بالشهوات أو يأتي له بشيء من المأكولات، أو من الملبوسات، أو من غيرها، والجني لا يملك الأشياء التي يملكها الإنسان ولكنه يذهب يسرق من الإنس ويأتي به، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله من هذا أشياء كثيرة يقول: وأعرف من ذلك وقائع

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٠) قال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر.

كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني، أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ودفعنا عنهم ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوىٰ عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين، وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان[1]؛ لأن الشيطان قد يتصور للإنسان في صورة ما يتخيله ويطلبه حتىٰ يغويه ويتمادىٰ في الشرك - نسأل الله العافية - وهذا يقع كثيرا.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٥٩) و(٣٦٠) قال ﷺ: ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا الميتين مثل أن يقول: يا سيدي فلانًا أغثني وانصرني وادفع عني، أو أنا في حسبك ونحو ذلك، بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله و رسوله، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام. وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عبَّاد الأوثان صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عبَّاد الأوثان ويغويهم، فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به وتخاطبهم بأشياء علىٰ سبيل المكاشفة كما تخاطب الشياطين الكهان وبعض ذلك صدق لكن لابد أن يكون في ذلك ما هو كذب بل الكذب أغلب عليه من الصدق، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتىٰ فعل ذلك، أو يظن أن الله تعالىٰ صوَّر ملكًا علىٰ صورته فعل ذلك ويقول أحدهم هذا سر الشيخ وحاله وإنما هو الشيطان تمثل علىٰ صورته ليضل المشرك به المستغيث به كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند وغيرهم، وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ودفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوىٰ عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين، وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان. وكذلك المستغيثون من النصارىٰ بشيوخهم الذين يسمونهم العلامس يرون أيضًا من يأتي علىٰ صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم، وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل ..».

والمقصود أن هذا من الاستمتاع الذي ذكره الله ﷻ بالآية، وقد يخبره بشيء من الغيب يطلع عليها الجن ولا يطلع عليها الإنس، وإلا فالجن لا يعلمون الغيب علىٰ الإطلاق، وإنما عندهم قدرة علىٰ أنهم يعرفون ما لا يعرفه الإنسان، فقد يحضرون الأشياء التي قد يظن البعض عند فعلها أنه لا يحضرهم أحد، وهم يشاهدونه حينما يسرق أو يفعل شيئا من الأشياء، فإذا لجأ إليهم الإنسي وطلب منهم ذلك أخبروه بهذا وهم لا يخبرونه إلا بثمن، ولا يقول مثل ما يقوله بعض الجهال الذين يلبسون علىٰ الناس، وقد يكون هم مُلبس عليهم يقولون: إننا نستعين بالمؤمنين من الجن، وأنهم يكونون معنا، وبعضهم يقول: أنا معي عدد كبير جدًا من الجن المؤمنين إذا طلبت منهم شيئًا جاءوا به، فلا يصدق مثل هذا، وما يُدريه أنهم مؤمنون ليس له قرينة إلا أنه يقول: أنهم أخبروني أنهم مسلمون، فيُقال: إخبارهم إياك من باب الإضلال حتىٰ تثق بهم فيضلوك.

وقد يأتي الجني إلىٰ الإنسان بأشياء، إما لأنهم فسقة، ويطلب منه استمتاع، وإما ليغويه، وإما لأنه يقدم له عبادة من العبادات، أما بدون شيء من ذلك فلا يمكن إلا أن يكون مثلًا هذا نادرًا من المؤمنين الصادقين فقد يقع شيء من ذلك، ولكن المؤمن لا يفعل المحرم إلا أن يكون جاهلًا.

وقد علم أن كثيرًا من الإنس يلجؤون إلىٰ الجن كثيرًا، ولا يزال هذا، فهم يزعمون أن الجن عندهم مقدرة في تخليص الإنسان من الشرور والسحر ومن غير ذلك، فلهذا كثير من الناس يذبح لهم؛ يعني: لا تكفي الاستعاذة؛ لأنهم هم لا يمكن أنهم يقدموا شيئًا للإنسان إلا بشيء يُقدمه، إما أن يمتهن القرآن، أو يذبح لهم ذبيحة، أو أن يخضع لهم خضوع العبادة، وقد كان في هذه الأمة خلق كثير استحوذت عليهم الشياطين حتىٰ الذين يعتقد الناس أنهم أولياء ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أشياء كثيرة من هذا أن منهم من يطير في الهواء، ومنهم من يذهب ليلة عرفة من البلاد البعيدة ويقف

مع الناس ولكن بدون إحرام وبدون وضوء، يقف، ثم يرجع[١]، ومعروف أن الإنس

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٢) و٨٣ و٨٤ قال ﷺ: وهؤلاء المشركون قد تتمثل لهم الشياطين وقد تخاطبهم بكلام وقد تحمل أحدهم في الهواء، وقد تخبره ببعض الأمور الغائبة، وقد تأتيه بنفقة أو طعام أو كسوة أو غير ذلك كما جرىٰ مثل ذلك لعبَّاد الأصنام من العرب وغير العرب، وهذا كثير موجود في هذا الزمان وغير هذا الزمان للضالين المبتدعين المخالفين للكتاب والسُّنَّة، إما بعبادة غير الله، وإما بعبادة لم يشرعها الله. وهؤلاء إذا أظهر أحدهم شيئًا خارقًا للعادة لم يخرج عن أن يكون حالًا شيطانيًا أو محالًا بهتانًا، فخواصهم تقترن بهم الشياطين كما يقع لبعض العقلاء منهم وقد يحصل ذلك لغير هؤلاء لكن لا تقترن بهم الشياطين إلا مع نوع من البدعة إما كفر وإما فسق وإما جهل بالشرع، فإن الشيطان قصده إغواء بحسب قدرته فإن قدر علىٰ أن يجعلهم كفارًا جعلهم كفارًا، وإن لم يقدر إلا علىٰ جعلهم فساقًا أو عصاة، وإن لم يقدر إلا علىٰ نقص عملهم ودينهم ببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التي بعث الله بها رسوله فينتفع منهم بذلك، ولهذا قال الأئمة: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي علىٰ الماء فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي، ولهذا يوجد كثير من الناس يطير في الهواء وتكون الشياطين هي التي تحمله لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين. ومن هؤلاء من يحمله الشيطان إلىٰ عرفات فيقف مع الناس ثم يحمله فيرده إلىٰ مدينته تلك الليلة، ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء الله ولا يعرف أنه يجب عليه أن يتوب من هذا، وإن اعتقد أن هذا طاعة وقربة إليه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، لأن الحج الذي أمر الله به ورسوله لا بد فيه من الإحرام والوقوف بعرفة ولا بد فيه من أن يطوف بعد ذلك طواف الإفاضة فإنه ركن لا يتم الحج إلا به بل عليه أن يقف بمزدلفة ويرمي الجمار ويطوف للوداع، وعليه اجتناب المحظورات والإحرام من الميقات إلىٰ غير ذلك من واجبات الحج، وهؤلاء الضالون الذين يضلهم الشيطان يحملهم في الهواء يحمل أحدهم بثيابه فيقف بعرفة ويرجع من تلك الليلة حتىٰ يرىٰ في اليوم الواحد ببلده ويرىٰ بعرفة.

ومنهم من يتصور الشيطان بصورته ويقف بعرفة فيراه من يعرفه واقفًا فيظن أنه ذلك الرجل وقف بعرفة، فإذا قال له ذلك الشيخ أنا لم أذهب العام إلىٰ عرفة ظن أنه ملك خلق علىٰ صورة ذلك الشيخ وإنما هو شيطان تمثل علىٰ صورته ومثل هذا وأمثاله يقع كثيرًا وهي أحوال شيطانية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزله علىٰ نبيه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ إلىٰ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦] ونسيانها هو ترك الإيمان والعمل بها وإن حفظ حروفها قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة وقرأ هذه الآية، فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمدًا من الكتاب والحكمة هداه الله وأسعده، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقي وأضله الشيطان وأشقاه.

لا يطيرون، وإنما الذين يطيرون هم الشياطين. وكل هذا إغواء لهم وهم يزعمون أن هذه كرامات، وهي في الواقع إهانات، فهم يعوذون بالجن من شر الجن أنفسهم وقد يلجؤون إليهم من شر غيرهم.

فقوله: «﴿يَعُوذُونَ﴾»: تدخل فيه الاستعاذة من الجن ومن الإنس وكلا الأمرين واقع، وفي هذا دليل واضح أن الجن عندهم عقول وتصرفات مثل: تصرفات الإنس، ولهذا كلفوا بأمر الله، والرسل والأوامر التي جاءت من الله للجن والإنس، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أما كون أحكام الدنيا تختلف فإنها من ناحية الأمر والنهي لا خلاف فيها، فهم مأمورون بما أمر به الإنس لا يختلفون، ولكن مثل ما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهم معنا ويشاهدوننا ويسمعون كلامنا؛ وهم في كل بلد وفي كل يكونون مثل أصحاب تلك البلاد، وتكون لغتهم لغة تلك البلاد، وأخلاقهم نفس أخلاقهم ففيهم الرافضة، وفيهم النصيرية، وفيهم المعتزلة ومنهم غير ذلك كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١] طرائق مثل طرائق الإنس فإذا تكلموا في إنسان لابسوه نجده يختلف؛ لأنه قد يأتي من بعيد، ويتكلم بكلام بلد آخر، وهو يتكلم علىٰ لسان من يتلبسون به.

أما في الآخرة فقد اختلف العلماء في ذلك منهم من يقول: أنها تنعكس القضية يصبح الإنس يشاهدونهم وهم لا يشاهدونهم، وهذا يحتاج إلىٰ دليل.

والصواب أن مؤمنيهم يدخلون الجنة؛ وأما الكافر منهم فلا إشكال فيه أنه في النار، ولهذا جاء في سورة الرحمن التثنية للفريقين للجن والإنس: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، وصح عن الرسول ﷺ في السنن عن جابر ﵁ قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلىٰ آخرها فسكتوا. فقال: «**لقد قرأتها علىٰ الجن ليلة فكانوا أحسن ردًّا منكم، كنت كلما أتيت علىٰ قوله:**

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»**(١).

وفي هذه التثنية دليل على أنهم يكونون مع الإنس في الجنة، ولهذا قال في الزوجات في الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] **الطمث هو**: إدماء المرأة البكر عند جماعها.

وأما كون الإنسان يخاف منهم فهذا لا يجوز، وهم أيضًا يخافون من الإنس، والله ﷻ قد أمر بالاستعاذة من الجن وجعل هذا عبادة فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، وقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] في آيات عدة يأمر ﷻ بالاستعاذة به من الجن الشياطين، أما إذا ترك الإنسان ذلك فإنهم يتسلطون عليه ويشاركونه في زوجته، وفي أكله، وفي مسكنه، وفي غير ذلك، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]ن فهو يشاركهم بهذه الطريقة، والاعتصام منه والاحتماء يكون بذكر الله ﷻ، فقد جاء عن النبي ﷺ يقول: **«إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»**(٢)، ولا يلزم أن يكون هذا

(١) رواه الترمذي رقم (٣٢٩١) وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، قال ابن حنبل: كأن زهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يروى عنه بالعراق كأنه رجل آخر قلبوا اسمه يعني لما يروون عنه من المناكير. وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة. وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٣٧٦٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه .

هو الشيطان الذي يقارنه؛ لأن الشياطين كثيرون جدًا، وإبليس يرسلهم إلىٰ إغواء بني آدم فيدخل معه ويكون معه أصحابه أيضًا فيقول لأصحابه: «**أدركتم المبيت**»، فإذا قدم الطعام ولم يسم قال: «**أدركتم المبيت والعشاء**»، وهم يأكلون، فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «**لا تأكلوا بالشمال فإن الشيطان يأكل بالشمال**»[1]، ولهذا شرعت لنا التسمية، وهذا من معاني قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكونك تسمي بأسماء الله الحسنىٰ هذا من دعاء الله بأسمائه وعبادته بها، مع أنها تنفعك كثيرًا فهي تطرد عدوك عنك، فيجب أن يكون العبد علىٰ حذر من هذه الأشياء، وفي الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدًا**»[2]. والصواب أن الرجل والمرأة كلاهما يقولان ذلك عند المقارنة.

وأما إذا كثر الجهل وقلَّ الاعتصام بالله ﷻ وكثرت المعاصي والصور التي هي محبوبة للشياطين ونصبت في البيوت وامتلأت بها، والأغاني وغيرها، كثر مس الجن واختلاطهم بالناس وأذيتهم وتسلطوا عليهم، فالمقصود أنهم مكلفون وأنهم رجال ونساء مثل الإنس.

وقوله ﷻ: «﴿يَعُوذُونَ﴾»: الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام والاحتماء كما سبق أنه يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

وإذا عرفنا أن الاستعاذة عبادة لله ﷻ أمر بها، وأنها الالتجاء والاعتصام والاحتماء بمن يدفع الشر، أو يمنعه قبل حصوله، وأن هذا لا يقدر عليه إلا الله ﷻ،

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٠١٩) من حديث جابر ﵁.

(٢) رواه البخاري رقم (٦٣٨٨)، ومسلم رقم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس ﵄.

وأنها قبل ذلك هي فعل القلب؛ لأن ما يقوم بالقلب من الالتجاء والاعتصام به والانطراح بين يديه ﷻ والافتقار والتذلل له أمر أعظم من فعل الجوارح، بل إن فعل الجوارح تبعًا لعمل القلب وأن الإنسان ضعيف لا يستطيع أن يدفع الشر حتىٰ عن نفسه هو، إذا تبين لنا هذا فإن من التجأ واحتمىٰ بشخص سواءً كان آدميًا، أو جنيًا شيطانًا، أو شيئًا موهومًا، فقد صرف العبادة لغير الله ووقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بتركه والتوبة منه.

وقوله: «﴿فَزَادُوهُمْ﴾»: الضمير في قوله: «زَادُهُمْ» ضمير فاعل وضمير مفعول، فمن الفاعل؟ هل هم الجن أو الإنس؟

المفسرون قالوا: هذا وهذا. وإن كان الظاهر أنهم الجن هم الذين يعود إليهم الضمير الفاعل.

والضمير المفعول في قوله: «هم» يعود علىٰ الإنس؛ يعني: أن الجن زادوا الإنس خوفًا وذلًا ورهبة بالشيء الذي يفعلونه معهم.

ويجوز العكس؛ يعني: أن المستعيذ زاد المستعاذ به ﴿رَهَقًا﴾؛ يعني: تماديًا في الشر وتكبرًا واغترارًا بالنفس، فقال مثل ما يقول شياطينهم: سدنا الإنس والجن.

والصواب أن كلا المعنيين واقع، فهؤلاء زادوهم خوفًا وشرًا وشركًا؛ يعني: تعلقًا بهم.

والإنس زادوا الجن طغيانًا وتكبرًا وتجاوزًا وتماديًا في الباطل، فكل واحد من الفريقين زاد الآخر شرًا، ووجه ذكر الآية والاستدلال بها:

أن هذا ذكر من باب الذم بذكر الشرك الذي يقع من الجن والإنس، وأن مؤمني الجن عرفوا التوحيد فصاروا يذكرون الشرك ويعترفون بأنه شرك بالله ﷻ وأنه كفر فتبرؤوا منه؛ يعني: أن الاستعاذة بغير الله شرك وهو أمر واضح.

قال المؤلف رحمه الله: وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلًا، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتىٰ يرحل من منزله ذلك»(١).

خولة بنت حكيم بن أمية السلمية، يقال لها: أم شريك، ويقال لها: خويلة بالتصغير، قيل: إنها هي الواهبة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وكانت قبل ذلك تحت عثمان بن مظعون فتوفي عنها رضي الله عنها، يقول الحافظ ابن عبد البر: كانت صالحة فاضلة(٢). وهذا هو الغالب علىٰ نساء الصحابة.

وفي هذا دليل علىٰ أن النبي ﷺ كان يخاطب النساء ويدعوهن ويعلمهن، ولهذا كن يروين عنه الأحاديث، فهذا الحديث روته خولة قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وقد تكون النساء مع الرجال؛ يعني: خلفهم في المسجد حينما يتكلم الرسول ﷺ، وقد يكون الكلام معهن خاصة، كما وقع عدة مرات من النبي ﷺ فكانت من سُنَّته ﷺ أن يقصد النساء بالتعليم والوعظ والإرشاد، كما جاء في الصحيح في خطبة العيد التي خطبها أنه بعد ما انتهىٰ من كلامه مع الناس ذهب إلىٰ النساء فقال: «**تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار**»(٣)، ولهذا صار فيهن عالمات مثل أم الدرداء وغيرها، فالاعتناء بالنساء أمر لازم.

قوله: «**من نزل منزلًا**»: كلمة نزل ومنزلًا كلاهما عام، لكن يفهم من هذا أنه في السفر، وقد يدخل فيه النزول في البلد في كل وقت، والنزول كونك تمشي فتنزل،

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٠٨).

(٢) الاستيعاب (٢/ ٩٢).

(٣) رواه البخاري رقم (١٤٦٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ في أضحىٰ أو فطر إلىٰ المصلىٰ ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «**أيها الناس تصدقوا**»، فمر علىٰ النساء فقال: «**يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار**» فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: «**تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء**»، ومسلم رقم (٧٩) من حديث ابن عمر.

فهو خطاب عام لكل نازل، ولكل منزل سواءً كان في البراري، أو في البيوت.

قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»: وهذا كلام وجيز وسهل بإمكان كل أحد أن يحفظه وأن يقوله، ولكن العياذ يجب أن يكون بصدق وإخلاص، فإذا استعاذ الإنسان بربه صادقًا مخلصًا فإنه لا بد أن يحميه ويُعيذه إلا أن يشاء الله؛ لأن هناك موانع.

والناس يتفاوتون في ذلك في الصدق والعلم والاعتقاد، صدق اللجأ، وتصديق قول النبي ﷺ بلا تردد، وأنه ما يقول ذلك على سبيل التجربة؛ يعني: يجرب هل يحصل له ذلك، أو لا يحصل، فمثل هذا الغالب أنه لا يحصل له شيء، وإنما يجزم بأن هذا حق، وأنه وحي من الله ﷻ، وأن من قال ذلك صادقًا أنه لا يضره شيء حتى يرتحل من ذلك المنزل.

قوله: «أعوذ»؛ أي: ألوذ وأحتمي وألتجأ، والله ﷻ هو المعاذ الذي بيده ملكوت كل شيء.

قوله: «بكلمات الله التامات»: كلمات جمع كلمة، وهذا يدل على أن الله ﷻ يتكلم كلام حق خلافًا لما يقوله أهل الباطل من الجهمية، والمعتزلة، والماتريدية، والأشاعرة، فالأشاعرة، ينكرون أن الله يتكلم، وهم في هذا يتفقون مع المعتزلة، فقد صرح بعض كبارهم أنهم لا خلاف بينهم وبين المعتزلة، كما قال ذلك الجويني في كتابه «الإرشاد» يقول: الخلاف مع المعتزلة خلاف لفظي في هذه المسألة. وهو كذلك؛ لأن الأشاعرة يقولون كلام الله قسمان:

كلام معنوي وهو الذي يوصف الله ﷻ به، وهو معنى واحد قائم بذات الرب ﷻ، وقد يصرحون بهذا ويفصلون فيقولون: هو عبارة عن المعنى الواحد؛ يعني: عبارة عن الأمر والنهي والاستفهام والإخبار، ولكنه قائم بذاته هذا هو المعنى الواحد عندهم.

القسم الثاني: الكلام اللفظي الذي يُلفظ به ويُسمع، فهو عندهم يمتنع علىٰ الله ولا يصفون الله بذلك، وهذا عين الباطل؛ لأن الكلام إذا أطلق فإنه هذا هو المراد به، وهم يستدلون بأشياء مثل قول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل، أو تتكلم**»(١)، فيقولون أنه سمي حديث النفس كلامًا، ونحن نقول: معلوم أن الرسول ﷺ قيده قال: «حديث النفس»: أما إذا قال: حديث، بلا قيد، فهذا لا يفهم منه إلا الكلام المسموع الملفوظ به.

فالمقصود أن هذا له كتب وله فروع، وله أشياء كثيرة، ولكن نقول أن هذا الحديث يبطل زعمهم، وما أكثر الأدلة التي تبطل زعمهم، وقد كتب شيخ الإسلام كتابًا سمَّاه «التسعينية»، وهو يبطل كلام النفس من تسعين وجهًا.

فالمقصود أن الكلام يجب أن يكون علىٰ الظاهر، وأنه كلام حقيقي، والكلام الحقيقي يشتمل علىٰ الحروف والأصوات وينطق به، أما غير هذا فلا يسمىٰ كلامًا إلا بالقيد مثل قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨] يقولون في نفوسهم هذا بقيد، ومثل قوله: «**ما حدثت به أنفسها**» هذا قيد، فلو قال: «عفا الله عما تحدثوا به»، فهذا لا يفهم منه إلا الكلام الظاهر الذي ينطق به، فدل علىٰ أن قولهم من الباطل، مع أن هذه المسألة كبيرة وألف فيها مؤلفات لا حصر لها، ولا تزال المسألة مشكلة عند كثير من الناس ولا يزال كثير منهم علىٰ الباطل فيها، والسبب الذي دعاهم إلىٰ ذلك هو التشبيه؛ لأنهم قاسوا صفات الرب ﷻ علىٰ ما يعرفونه من أنفسهم، ولو لم يتكلموا بهذا ولم ينطقوا به، ولهذا قالوا: الكلام يتطلب لسانًا وشفتين ولهاة وحنجرة وحبال صوتية... الخ.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٢٦٩)، ومسلم رقم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نقول: هذا كلامهم فهم كأنهم يقولون: ما عرفنا من الكلام إلا هذا مع أن الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، أليس هذا إنطاق، وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده، فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون**»(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اشتكت النار إلىٰ ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضًا، فأذنَ لها بنفسَين نفَس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير**»(٢)، وجاء في الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «**تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتىٰ يضع رجله، فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلىٰ بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشىء لها خلقًا**»(٣)، والنار عندما يلقىٰ فيها تقول هل من مزيد كما قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠] هذا استفهام؛ يعني: أعطوني زيدوني، وهذا هو الصحيح، وهذا كلام علىٰ ظاهره.

وكذلك قال الله جل وعلا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكل شيء يسبح بحمده جل وعلا،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٤٠٨٧)، والطبراني رقم (١١٤٣٩)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٤٨٠) وقال: حديث صحيح ولم يخرجاه وضعفه الذهبي.

(٢) رواه البخاري رقم (٥٣٦)، ومسلم رقم (٦١٧).

(٣) رواه البخاري رقم (٤٨٥٠)، ومسلم رقم (٢٨٤٦).

وقال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ كلها تسجد لله ﷻ، وقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]؛ يعني: فما عدا الإنسان فهم الذين كثير منهم لا يسجد لله، ومثلهم الجن، وأما البقية فكلهم يسجدون لله.

وكذلك قصة منبر الرسول ﷺ، وكذلك الحجر الذي كان يسلم علىٰ النبي ﷺ، فالسجود لله والتسبيح علىٰ ظاهره.

فالمقصود أن نفيهم لكلام الله من أبطل الباطل، وهم يقولون في ظواهر النصوص: إنها لا تعطي اليقين، فاليقين إذن في آرائهم، وفي أفكارهم المنحرفة، والإنسان إذا كان معافًىٰ من هذه الأشياء يحمد الله ﷻ؛ لأن الذي وقع في هذه الأشياء لا يستطيع أن يتخلص منها، فكلام الله علىٰ الظاهر، وأنه يتكلم والرسول ﷺ يخاطبنا ويقول لنا: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه**»[1]، فإذًا كل واحد يكلم بلغته، يكلمه الله يوم القيامة باللغة التي يعرفها، وقوله: «**منكم**»؛ يعني: من المسلمين؛ لأن الكفار لا يكلمهم الله.

وكلمات الله تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: كلمات دينية أمرية قولية، مثل: الأوامر التي ينزلها علىٰ عباده مثل: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والوحي الذي يوحيه إلىٰ رسله يأمر به عباده وينهاهم، فالرسالة تقتضي الكلام بلا شك، فهي بكلماته التي يرسلها إلىٰ رسله، وهذه كلها دينية فهو يدين بها خلقه؛ يعني: أمرهم بها وأمرهم أن يطيعوها ويتبعوها، وهذه الكلمات الدينية أكثر الخلق لا يمتثلها ويخالفها، معنىٰ ذلك أنه يجاوزها،

(١) سبق تخريجه.

والمجاوزة معناها العصيان أن يعصي هذه الأوامر ويرتكب النواهي التي جاءت بهذه الكلمات، فالمؤمن المتقي لا يجاوزها إلا إذا كان من غير قصد إما لغلبة شهوة أو غفلة، أو نسيان، أو جهل، أو ما أشبه ذلك، أما أن يجاوزها وهو يعلم ويعرف، فهذا قد يقع باستحواذ الشيطان، ولكنه يرجع ويتوب إلىٰ الله ﷻ، وهذا هو الغالب قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والأمر بيد الله ﷻ يصرف القلوب كيف يشاء، فالملك له يتصرف فيه كيف يشاء، والعباد ملكه كل العباد ملكه يُضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، لا راد لما قضىٰ.

القسم الثاني: كلمات كونية قدرية، وهي التي لا يتخلف مرادها، فهي جارية علىٰ الخلق كلهم سواءً كانوا راضين، أم ساخطين، مؤمنين كانوا أم كافرين.

قوله: «**التامات**» ينطبق علىٰ الكونية وعلىٰ الشرعية الأمرية، تمام الكونية أنها قامت بالعدل ولا يلحقها نقص ولا عيب، وأما الشرعية فهي تامة في الأوامر والنواهي والحكمة والشفاء لمن قَبِلَها وآمن بها، ولا يلحقها نقص ولا عيب، وهكذا كل صفات الله ﷻ. وبعض شراح الحديث قال: إن كلمات الله: هي القرآن وكونها تامة، لأنها تامة في الصدق في الأخبار، وتامة في العدل في الأحكام، وهذا الحديث يدخل فيه الكلمات الكونية التي لا يتخلف مرادها فلا بد أن تقع، والكلمات الدينية الشرعية، وهي التي وجهت إلىٰ المخلوق، والمخلوق قد يمتثل، وقد لا يمتثل، وأكثرهم لا يمتثل، وإذا لم يمتثل فقد جاوزها، ومجاوزتها هو عصيانها أن يعصيها إذا كانت أمرًا، وأن يرتكبها إذا كانت نهيًا، فتجوز الاستعاذة بكلمات الله الكونية والدينية، وإن كان الظاهر أن الحديث يدل أن الاستعاذة بكلمات الله الكونية؛ لأنه جاء في حديث وصفها بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامة**

التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[1]، وهذه صفة الكونية فهي التي لا يعصيها بر ولا فاجر بل هي جارية علىٰ وفق تكوين الله ﷻ، وإرادته ومشيئته، وعلىٰ كل حال سواءً كانت الكونية، أو الشرعية، فإنها من صفات الله، والاستعاذة بها عبادة.

وفي هذا دليل علىٰ أن كلام الله صفة له، لأنه ثبت أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله، فلا يجوز الاستعاذة بمخلوق لأنها شرك، وبهذا استدل العلماء من أهل السُّنَّة علىٰ الجهمية في قولهم أن القرآن مخلوق لأنه من المعلوم أن الاستعاذة بمخلوق شرك والرسول ﷺ حث علىٰ الاستعاذة بكلمات الله، فدل علىٰ أنها من صفاته، فالاستعاذة بها تكون استعاذة بصفة من صفاته ﷻ، وليس معنىٰ هذا أن الصفة تُدعىٰ، ولكن المستعاذ به هو الله ﷻ بذكر وصفه الذي يُمدح به ويُثنىٰ عليه به -تعالىٰ وتقدس-، أما دعوة الصفة كأن يقول: يا رحمة الله، يا عزة الله، فهذا لا يجوز، الرحمة لا تُدعىٰ، وإنما يدعىٰ من اتصف بها ويتوسل إليه بالرحمة وهو معنىٰ قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكلام الله يجوز أن يستعاذ به، ويجوز أن يعالج به من الجهل، وهذا واضح مثل: الشبهات التي تعرض للإنسان ويعالج به من المرض الذي يعرض للبدن قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فقوله: ﴿شِفَآءٌ﴾ نكرة يعم جميع الاستشفاءات، ولكن معلوم أن الشفاء من الشبهات هو أعظم شيء.

وقوله: «من شر ما خلق»؛ يعني: الاستعاذة تكون من كل شيء فيه شر؛ لأن بعض المخلوقات ليس فيها شر مثل الملائكة والرسل والجنة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٥٤٦١) مسند أحمد: «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن**»، والنسائي في الكبرىٰ رقم (١٠٧٩٢).

وقوله: «لم يضره شيء»: إذا استعاذ الإنسان فإنه لا يضره أذىٰ في بدنه حسب مفهوم هذا الحديث فهو يعم الأشياء التي تكون مثل الهوام والدواب والجن والإنس والشيء الذي قد يحدث في نفسه؛ يعني: الوساوس وما أشبه ذلك، ولكن هذا الجزاء الذي رتب علىٰ الاستعاذة ليس لكل أحد وإنما هو للمؤمن الصادق الذي يؤمن بكلام الرسول ﷺ ويصدقه، لا يقول ذلك من باب التجربة والاختبار، فإذا جرىٰ ذلك قال: إن هذا حق لأننا جربناه ووجدناه كذا وكذا، وكلام الله وكلام الرسول ﷺ كله حق، وكله يجب أن يمتثل ويصدق مضمونه، ويعمل بمقتضاه فقوله: «لم يضره شيء» هذا نكرة، وإن كانت الأشياء يجب أن تكون محددة حسب مقتضىٰ الخطاب والوضع والحالة فيجب أن ننظر إلىٰ هذه الأشياء فقد يأتي الإطلاق ولا يقصد به العموم الإطلاقي مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١، ٢]، ﴿مَا﴾ هذه موصولة والموصول يدل علىٰ العموم فيكون المعنىٰ: «من شر الذي خلقه»، فهل هذا الإطلاق إطلاق عمومي مطلق، أو أنه إطلاق وصفي؟ الفرق بين العمومي والوصفي أن الوصفي يقيد بالصفة؛ يعني: المخلوق الذي فيه شر؛ لأنه يوجد من المخلوقات من ليس فيه شر، مثل: الجنة والملائكة والرسل كما تقدم، فهذه لا يستعاذ منها، وأما قول مريم عليها السلام لما جاءها جبريل عليه السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، فهي ظنت أنه بشر فلا يقول الإنسان أعوذ بالله من الجنة؛ لأن الجنة كلها خير، فمثلًا الاستعاذة في مثل قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وقوله في الحديث: «لم يضره شيء» هذا حسب ما يقتضيه الخطاب ويعضده مفهوم السياق والقرائن؛ لأنه يأتي الإطلاق ولا يقصد مثل قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وهذا في الريح التي أرسلها الله علىٰ عاد، وقد قال ﷻ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فمساكنهم شيء ولم تدمر، وقال ﷻ في المرأة التي ملكت سبأ: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] أوتيت من كل شيء يصلح للملك، وإلا فهي لم تؤت ملك سليمان عليه السلام، ولا غيره.

فهذا يدلنا علىٰ أنه يجب علينا أن نحدد المفهوم حسب السياق والقرائن، وهذه القاعدة يجب أن يتنبه لها دائمًا حتىٰ في صفات الله جل جلاله في القواعد التي يقعِّدها أهل السُّنَّة مثل قولهم: إن صفات الله يجب أن تفهم علىٰ ظاهر الخطاب إذا كان المفهوم صحيحًا ولا يجوز تأويلها، فإن التأويل من التحريف مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، نقول: هذا يجب أن يفهم علىٰ ظاهره بأنه مجيء حقيقي، ولكن هذا يوم القيامة، وقول الرسول ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»(١)، فهذا يجب أيضًا أن يفهم علىٰ ظاهره ولا يجوز تأويله، وهكذا كل ما جاء المجيء أو الإتيان مضافًا إلىٰ الله جل جلاله دل علىٰ أنه فعله، لكن مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، هؤلاء هم بنو النضير الذين كانوا في المدينة، فهذا الإتيان لا يمكن أن نقول إنه مثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وإذا قلنا في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] أنه جاءت جنده وعذابه ليس هذا تأويلًا؛ لأن هذا هو الذي دل عليه السياق والقرائن أنه هو مراد المتكلم، وإذا عرفنا مراد المتكلم فهو الظاهر الذي يجب أن نقول به، وكذلك قوله جل جلاله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]،

(١) رواه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمقصود أن القاعدة إذا قلنا قولًا لا يجوز أن يطرد في كل مورد من موارد النص حتىٰ يتبين لنا مراد المتكلم، ومعرفة مراد المتكلم يتبين بالقرائن والحال التي جاء الأمر فيها والبيان الذي يقارن ذلك، فإذا تبين مراد المتكلم لنا فهو الظاهر، ومثله كذلك قوله ﷺ في التائب: «**إذا تقرب العبد إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإذا تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة**»(١).

فهل يقول في مثل هذه المسألة: أننا نصف الله بقطع المسافات من الشبر والذراع والباع، ونحو ذلك والمشي والهرولة؟ فأما التائب فهو بالاتفاق أنه لا يتقرب بالشبر ولا بالذراع ولا بالمشي ولا بالهرولة إنما بالطاعة، فهو يتقرب إلىٰ الله بالطاعة فإذا كان هذا بالاتفاق من جانب العبد فالثاني يكون من جنسه هذا كما هو الظاهر، فالرسول ﷺ لا يأتي بالأشياء المتضادة والمتخالفة، والقواعد التي قعدها أهل العلم لا يمكن أن تخالف الظاهر، والنصوص نفسها قواعد يجب أن يرجع إليها.

ووجه الاستدلال أن كلام الله صفة من صفاته فيستعاذ بها، فالاستعاذة تكون بالله، أو صفة من صفاته، والآية والحديث يدلان علىٰ أن الاستعاذة يجب أن تكون مقصورة علىٰ الله ﷻ من عباده، فإذا استعاذوا وجب أن يستعيذوا بالله ﷻ ولا تجوز الاستعاذة بمخلوق، فمن استعاذ بمخلوق فقد وقع في الشرك، والاستعاذة تكون من الشر وتكون من أسبابه، والشر كله في المخلوقات لذلك قال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وما هنا موصولة؛ يعني: من شر الذي خلقه الله وفيه شر؛ لأنه ليس كل ما خلق الله فيه شر، فالمقصود أن الشر يكون في المخلوق، وليس في فعل الله وخلقه وفي صفته فالله ﷻ لا ينسب إليه الشر، ولهذا جاء إضافة الشر في القرآن **علىٰ ثلاثة أوجه**:

الأول: إما أن يحذف فاعله كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي

(١) رواه البخاري رقم (٧٤٠٥)، ومسلم رقم (٢٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] فحذفوا الفاعل .

الثاني: أن يكون الشر مضافًا إلىٰ المخلوق كما في هذه الآية: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾. فجعل الشر في المخلوق.

الثالث: أن يدخل في العموم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

فهذه الأوجه التي جاء فيها ذكر الشر، وقد كان الرسول ﷺ يقول في تهجده وثنائه علىٰ ربه: «**والشر ليس إليك**»(١)، فالشر ليس إلىٰ الله ﷻ لا وصفًا ولا فعلًا، فمعنىٰ ذلك: أن الشر في المفعولات والاستعاذة ممن يملك ذلك والذي يملكه هو رب العباد الذي بيده ملكوت كل شيء وكل مخلوق ناصيته بيد الله ﷻ يتصرف فيه كيف يشاء، لهذا وجب أن تكون الاستعاذة بالله ﷻ فلا يستعاذ بغيره، وذلك من التوحيد وضده من الشرك.

وقوله: «**حتىٰ يرتحل من منزله ذلك**»: فهو غاية هذا الجزاء الذي ذكره بالارتحال من ذلك المنزل الذي نزله.

✍ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ **الأولى: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شرٍّ، أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك.**

هذا أخذه من الآية بأنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ [الجن: ٦]؛ يعني: أن هذا أمر كان أهل الجاهلية يفعلونه ويحصل لهم بذلك بعض المنفعة مثل: دفع أذية بعض الجن الذين يتسلطون عليهم، وكونه يحصل به شيء من النفع لا يدل علىٰ أنه جائز وهذا شيء معلوم، فمثلًا: شرب الخمر يكون

(١) رواه مسلم رقم (٧٧١).

فيه شيء من النفع لكن نفعه لا يكون وسيلة لجوازه، أو مبررًا له، وكذلك الزنا والسرقة وما أشبه ذلك، فليست المنفعة هي الفيصل في هذا، وإنما الشرع هو المعتمد في هذا.

وإذا نهىٰ الله عن شيء فلا نفع فيه ولا خير حتىٰ في الأمور التي يتداوىٰ بها، وإن زعم الناس أنهم ينتفعون بها فهذه أوهام، وقد يكون ذلك ابتلاء واختبار، أو يكون موافقة للقدر، قدر الله ذلك وهذا الذي لجأ إليه ليس له أي أثر بل بالعكس؛ لأن من تعلق بغير الله فإنه يوكل إليه، ومن وكِلَ إلىٰ مخلوق فقد وكل إلىٰ ضعة وإلىٰ ضعف.

وقد استدل القبوريون والخرافيون علىٰ صحة صنيعهم بمثل هذه الأشياء قالوا: إننا: إذا دعونا عند القبر يحصل لنا ما أردنا، والواقع أن هذا ليس صحيحًا ولكن قد يحصل بالمائة مرة موافقة للقدر فيحصل لهم المراد فيضيفونه لكل من يعمل ويزعمون أنه يحصل له مثل هذا؛ والعجيب أنهم إذا جاءوا إلىٰ قبور سادتهم الذين يعبدونهم، ثم ما حصل مرادهم قالوا: لُجوؤنا إليهم ليس صادقًا، أو أن السيد غضبان علينا؛ لأننا ما قدمنا حقه كاملًا، وصاروا يعيدون الأمور إلىٰ أنفسهم - نسأل الله العافية -.

الباب الرابع عشر

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره.**

هذا من عطف العام على الخاص؛ لأن الاستغاثة دعاء ولكنه دعاء في حالة خاصة؛ يعني: في حالة الكرب ووقوع الشدائد، وهذا أخص من الدعاء عامة، فالاستغاثة هي طلب الغوث وتكون لمن وقع في شدة وكرب كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، ومعلوم أن الاستغاثة تدل على صدق اللجأ والإخلاص غالبًا، وانكسار القلب وافتقاره، ولهذا غالبًا أن الله يستجيب للمستغيث؛ لأن هذا من مقتضيات الربوبية، فمن مقتضى كونه رب العباد أن يستجيب لهم.

والاستغاثة يجب أن تكون بالله جَلَّ وَعَلَا؛ كالدعاء يجب أن يكون لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنها نوع منه بل هي أخص، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقصد بهذه الترجمة الرد على الذين يعبدون غير الله من المقبورين؛ كالأنبياء والأولياء وغيرهم، فكثير من الناس يعبدون أشخاصًا معينين، فمثلًا: الرافضة يعبدون عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ويستغيثون به، ويعبدون الحسين ويستغيثون به، ويوجدون لهم حكايات وأكاذيب كثيرة جدًا يلفقونها على عوامهم فيضلونهم في هذا، فتجده إذا وقع في أمر من الأمور اتجه إلى علي، أو الحسين يستغيث به ويدعوه.

وكذلك القبوريون إذا وقع أحدهم في كرب من كروبات الدنيا استغاث بمن يعبده دون الله تعالى فكيف في حالة الرخاء فهم يدعونهم دائمًا، وكذلك إذا أعوز أحدهم أو لم يأته ولد أو مرض هرع إلى القبر يستغيث به ويدعوه، فإن قُدر وحصل شيء مما يطلبه ويقصده موافقًا للقدر الذي قدره الله نسب هذا إلى الميت إلى

الولي الفلاني، وإذا لم يحصل له شيء اعتذر عن الميت قال يمكن أنه غائب، ذهب يدير الأمور في بلد آخر، أو أنه غضبان علينا، أو لم نوفه من النذور التي نذرنا، وغير ذلك مما يعتذرون به، وهذا كثير فهم يلجأون للقبور عند الشدائد، أما في غير الشدائد فهم يدعون أصحاب القبور دائمًا، فنجد أحدهم يذكر معبوده على لسانه دائمًا إن قام وإن جلس يلهج به يستغيث به ويدعوه.

فاستغاثة المشركين كانت بالله ﷻ، ما كانوا يستغيثون بالمعبودات؛ لأنهم أصح عقولًا من هؤلاء، يعلمون أن الشدائد لا يكشفها إلا رب العالمين ﷻ، ولهذا إذا ركبوا الفلك؛ يعني: السفينة في البحر وهب بهم الريح التي يخشون أنها تُغرقهم أخلصوا الدعاء لله، وإذا كان معهم أصنام رموها في البحر وقالوا: هذه لا تنفع في هذه الحالة فهم يخلصون لله في الشدائد وإذا نجوا عادوا إلى شركهم؛ لأنهم يقلدون آباءهم وأسلافهم وما عليه عظماؤهم.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى:** ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

الخطاب موجه إلى النبي ﷺ، ومعلوم أن النبي ﷺ ما كان يدعو شيئًا من ذلك، حتى في الجاهلية كان يكره ما كان عليه قومه، ولكن هذا يدلنا على أن خير الناس وأقرب الناس إلى الله ﷻ لو أشرك بالله لحبط عمله ولا ينفعه شيء، ولهذا قال ﷻ في آية أخرى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤، ٦٥] هذا خطاب لرسول الله ﷺ، وكذلك لما ذكر الأنبياء الذين هم من أصفياء الخلق، قال بعد ذكر قصتهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ يعني: لو أشركوا بالله، ليس بين الله وبين خلقه صلة إلا الطاعة فقط، من أطاع الله فهو المقرب إليه ﷻ، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلو كان ابن نبي، أو أنه له صلة ونسب في ولي، أو ما أشبه ذلك هذا لا ينفع، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، فلم ينفعهما كونهما امرأتي نبيين كريمين صارتا في النار، وأما قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ الخيانة ليست خيانة الفراش والعرض، وإنما هي خيانة الدين وكونهما لم يستجيبا لهما.

ثم ضرب المثل الثاني: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فهي زوجته وتحته في فراشه مع ذلك لم يضرها؛ لأنها آمنت بالله ﷻ واتجهت بعبادتها لله ﷻ، وكذلك إذا كان ابن نوح عليه السلام ما أغنىٰ عنه شيئًا لما كفر، فالمقصود أن الإنسان إذا أشرك فهو حابط عمله مهما كان، وهذا هو السبب في توجيه الأمر إلىٰ النبي ﷺ حتىٰ يعتبر الإنسان فما دام أن الخطاب هذا يوجه للنبي ﷺ، ومعلوم أن الأمة كلها تبع له فكيف بمن هو دونه في الدرجات.

وقوله: «﴿وَلَا تَدۡعُ﴾»: الدعاء ينقسم إلىٰ قسمين: **أحدهما: دعاء مسألة. والثاني: دعاء عبادة.**

وكلاهما جاء في القرآن الكريم كما جاء في بعض هذه الآيات، ودعاء المسألة أن تذكر شيئًا تُعينه تسأله الله ﷻ تقول: اللهم إني أسألك الجنة، اللهم إني أسألك رزقًا حلالًا وعلمًا نافعًا وقلبًا خاشعًا، وهكذا سواءً من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، فهذا السؤال عبادة يجب أن تتوجه بها إلىٰ الله وحده، وأن تخلصها لله ﷻ، فإذا فعلت ذلك فأنت عبد الله تدعو ربك بمقتضىٰ ربوبيته لك وإنعامه عليك أن يعطيك ما تطلبه.

أما دعاء العبادة فهو أعم من ذلك، فهو يدخل فيه دعاء المسألة وغيره، فكل عبادة تتعبد بها ترجو ثوابها من الله، ولو تركتها نخاف عقاب الله، فهي دعاء سواءً كانت صلاة، أو قراءة، أو تسبيحًا، أو صدقة أو غير ذلك، فكله يكون دعاء عبادة فهو عام مطلق، وذلك مثل الذي يتصدق بالمال وهو يأمل أن الله يثيبه علىٰ هذه الصدقة، فهو يدفع ذلك رجاء الثواب، والفوز بعطاء الله وإحسانه، وهكذا كل فعل يفعله ويتعبد به فهو من دعاء العبادة، وكلاهما من أفضل العبادة كما جاء في الحديث الذي في الترمذي وغيره: «**الدعاء هو العبادة**»(١)، وفيه: «**من لا يدعو الله يغضب عليه**»(٢)، فالله ﷻ يغضب إذا لم يُعبد، وجاء كذلك: «**أن الدعاء عماد الدين وسلاح المؤمن**»(٣)، وبه رضا ربه ﷻ. فقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ يعني: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة؛ لأن الدعاء في كتاب الله يُطلق علىٰ مجموع النوعين، وقد يأتي ويُقصد به أحدهما، قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، يجوز أن يكون من دعاء المسألة ويجوز أن يكون من دعاء العبادة.

(١) رواه أحمد في المسند رقم (١٨٣٥٢) عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ**: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾»، والترمذي رقم (٣٢٤٧)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود رقم (١٤٧٩)، وابن ماجه رقم (٣٨٢٨)، والحاكم في المستدرك رقم (١٨٠٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢) الحاكم في المستدرك رقم (١٨٠٦) وهو عند أحمد في المسند رقم (٩٧٠١)، والترمذي رقم (٣٣٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٦٥٨) ولفظه: «**إنه من لم يسأل الله يغضب عليه**» وقال الترمذي: قال: وروىٰ وكيع وغير واحد عن أبي المليح هذا الحديث ولا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو المليح اسمه صبيح سمعت محمدًا يقوله وقال: يقال له: الفارسي حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا أبو عاصم عن حميد بن أبي المليح عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

(٣) المستدرك رقم (١٨١٢) عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض**»، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح فإن محمد بن الحسن هو التَّلُّ أو هو صدوق في الكوفيين.

ولهذا قال بعض المفسرين: «أستجب لكم» قال: أثبكم، وبعضهم قال: أعطكم، فمن قال: أثبكم، فهو يقصد بذلك أنه دعاء عبادة، وأما من قال: أعطكم فهو يقصد أنه مسألة، ودعاء المسألة عبادة كما في الآية التي سيذكرها في قصة إبراهيم وغيرها، فهي صريحة في أن دعاء المسألة الذي هو طلب الرزق يجب أن يكون لله وحده ﷻ، فيجب أن تخلص لله ولا يجوز أن تكون لغيره ﷻ، والذين يعبدون القبور يخرجون دعاء المسألة من كونه عبادة وأنه ليس شركًا، والواقع أن هذا جهل فظيع فهم يريدون أن يحتجوا علىٰ شركهم ولو بالمغالطات كما هي طريقتهم.

وقوله: «﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»؛ يعني: غيره، أن تدعو غيره معه من المخلوقات مثل: الملائكة والرسل والجن والإنس، أو الأولياء وغيرهم، فكلمة «**من دون الله**» تدل علىٰ العموم المطلق علىٰ أن الدعوة إذا كانت لغير الله فهي باطلة والنهي موجه إلىٰ من صدر منه ذلك، فتبين أن الدعاء يجب أن يكون لله وحده ولا يجوز أن يُدعىٰ معه غيره، ولا فرق بين كونه دعاء مسألة أو دعاء عبادة، غير أن المسألة إذا كانت لحي حاضر سامع قادر علىٰ ذلك فهذا لا بأس به بشروطه، وإلا مسألة المخلوق محرمة، والسبب في هذا أن المسؤول قد يتعلق به القلب ويلتفت إليه إذا أعطىٰ ومنَّ وتفضل، والله صان قلب عبده المؤمن أن يستعبده غيره من المخلوقات فيجب أن يكون عبدًا لله عبودية كاملة مطلقة ولا يتنازعه شيء من المخلوقات يكون عبدًا لله في أمور وعبدًا لغيره في أمور وهذا هو الشرك.

وقوله: «﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾»: لا يقصد بذلك أن هناك ما ينفع ويضر من غير الله ﷻ، فالمقصود لا تدعوا شيئًا غير الله فإنه لا ينفع ولا يضر، وهذه صفة المخلوق، فكل مخلوق هذه صفته لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله، إذا أراد الله شيئًا فلا بد منه، أما هو بذاته لا ينفع ولا يضر، وهذا يدلنا علىٰ أن المعبود يجب أن يكون مالكًا لما يُدعىٰ إليه، مالكًا للنفع والضر، وأما إذا كان غير مالك فدعوته

ضائعة وضلال وكفر بالله ﷻ، والمعنىٰ أن النفع والضر بيد الله ﷻ فلا يجوز أن توجه الدعوة لغيره ولهذا قال:

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ يعني: دعوة غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ في هذه الحالة ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من المشركين؛ لأن الشرك أظلم الظلم وأعظمه وأقبحه ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأل تدل علىٰ الظلم المطلق، والظلم المطلق هو الذي ليس فيه عدل أصلًا بل هو جور، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهذا هو تفسير الظلم الصحيح الشرعي واللغوي، وأما تفسير الظلم بأنه التصرف في ملك الغير بغير حق، أو بغير إذنه، فهذا تفسير غير صحيح لما يترتب عليه من لوازم، ولهذا لما فسره الأشاعرة بذلك جاؤوا بلوازم باطلة جدًا، قالوا مقتضىٰ ذلك أن الله ﷻ كل شيء ملك له، ولو تصرف في أي شيء لا يكون ظلمًا بمعنىٰ أنه لو عذب من أفنىٰ عمره في طاعته واتباع رسوله ﷺ وجعله في النار خالدًا فيها أن هذا ليس ظلماً عندهم، وقالوا علىٰ هذا: الظلم ممتنع علىٰ الله.

فقوله: «﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»: الخطاب عام لكل أحد، وهذا الظلم من أعظم الظلم وأقبحه وضع العبادة في غير موضعها؛ يعني: وضع العبادة لغير الله هو أقبح الظلم، ولهذا لا يُغفر لصاحبه إذا مات عليه ويكون خالدًا في النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، فعلق ما دون الشرك بمشيئته إذا شاء أن يغفره غفره، وإذا شاء أن يأخذ به أخذ به؛ لأن الملك له والعباد عباده، أما الشرك فقطع الأمر فيه قطعًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، ويقول الله ﷻ في نهي النصارىٰ عن غلوهم الذين قالوا: المسيح ابن الله، وقالوا: إن المسيح هو الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالمشرك الجنة عليه محرمة،

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]؛ يعني: أمر مستحيل فلا يمكن أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] يبين الله ﷻ في هذه الآية أنه هو المتصرف في خلقه، فمن أراد أن ينفعه فلا أحد يملك منع نفعه ومن أراد ضره فلا أحد يكشف ضره، وهذا بيان واضح لقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، فليس هناك شيء يكشفه ويزيله لا من المخلوقين العاقلين من الأولياء، أو الأنبياء، أو الملائكة أو غيرهم، فقد أخبر ﷻ في آيات أخرىٰ أن المعبودات من دون الله لا تستطيع كشف الضر ولا تحويله بأن تخففه إذا كان كبيرًا، أو تصرفه من مكانه إلىٰ آخر، أو من شخص إلىٰ غيره، أو غير ذلك من المنافع فإنها لا تملك شيئًا.

وقوله: «﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾»؛ يعني: لا أحد يستطيع أن يرد فضل الله إذا أراد بعبده شيئًا من الخير، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ كما في الترمذي وغيره من حديث ابن عباس أنه قال: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١)، فالأمر كله بيد الله ﷻ، وهذا أمر واضح ولكن العادات التي يتعارف عليها الناس ويعيشون عليها، وكذلك تعظيم الأسلاف وتعظيم الكُبراء قد يُغطي علىٰ عقل العبد وفكره، والأمور الدنيوية من مناصب أو أموال، أو مصالح دنيوية تمنعه أن ينظر في الحق ويرضىٰ بما هو عليه، وإن كان المتاع قليلًا، ثم المصير إلىٰ جهنم -نسأل الله العافية-.

---

(١) أحمد في المسند رقم (٢٦٦٩) رواه الترمذي رقم (٢٥١٦) عن ابن عباس قال: كنتُ خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ...**» الحديث.

ففي هذه الآية بيان واضح بأن الدعاء عبادة، وأن الله هو المتصرف في خلقه وعبيده، وأن هذا من خصائص الله ﷻ، فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن تتجه الدعوة إليه ﷻ، ولا يجوز أن يُدعىٰ معه غيره فإن فعل الإنسان ودعا معه غيره، فقد وقع في الشرك، فإن جعُل شيء من هذه العبادة لمخلوق ظلم، والظلم هو ظلم الشرك الذي هو وضع العبادة في مخلوق مثله، فهذا من الضلال البين، والظلم الواضح؛ لأن المخلوقين كلهم فقراء لله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وكلهم وجِدوا من العدم: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ① إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١، ٢]، وهم ليس في أيديهم مما بيد الله شيء، فالملك كله والأمر كله له والمشيئة مشيئته، والتدبير تدبيره، وهو علىٰ كل شيء قدير ﷻ.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ذكر الله ﷻ هذه الآية بعد ما بيَّن أن دعوة غيره لا تنفع ولا تضر؛ لأنها إما دعوة جمادات، أو دعوة أموات، أو دعوة عبيد فقراء لا يملكون لأنفسهم النفع فضلًا عن غيرهم، فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فابتغاء الرزق عند الله من العبادة وابتغاؤه وسؤاله إياه وطلبه منه ﷻ، وهذا صريح واضح في أنه دعاء مسألة.

وتبين بهذه الآية أن دعاء المسألة عبادة يجب أن يخلص لله ﷻ ولا يجوز أن يشرك الله ﷻ في ذلك غيره من المخلوقات، ولهذا عطف العبادة علىٰ الرزق فعطف العبادة ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام علىٰ الخاص كما في الترجمة؛ "أو يدعو غيره"، ففي هذه الآية الأمر بطلب الرزق، وأن طلب الرزق له أسباب ظاهرة ولا يجوز أن

يضيفه العبد إلىٰ تلك الأسباب بل يجب أن يضيف ذلك إلىٰ مسبب الأسباب، وأن يكون قلبه خالصًا لله ﷻ في عبادته، فهو ﷻ إذا شاء لم تُؤثر الأسباب، وإن كانت أسبابًا ظاهرة، ومعلوم أن الأمور كلها لها أسباب رتبت عليها، فالله ﷻ جعل ذلك، وهذه الأمور قد تحول بين الإنسان وبين فكره ونظره الذي يجب أن يكون الأمر فيه لله ﷻ، فتجده مثلًا قد يعتمد علىٰ صنعته، أو علىٰ وظيفته، أو علىٰ شيء من الأمور الظاهرة في ذلك، ولا يلتفت بقلبه إلىٰ الله ﷻ، فأراد المؤلف ﷺ أن يبين أن هذا خطأ، وأن الواجب أن الإنسان يكون دائمًا تعلقه بربه ﷻ، وينظر إلىٰ الأسباب علىٰ أنها أسباب وأن الله هو الذي نصبها أسبابًا، وأن فعل الأسباب مأمور به شرعًا، ولكن لا يجوز أن يُعتمد عليها، فالاعتماد علىٰ السبب شرك وتعطيل السبب قدح في الشرع ومحو الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل ، فلا بد من فعل السبب ولكن السبب الذي شرعه الله، وليس كل سبب يكون جائزًا شرعًا، والأسباب المشروعة يفعلها معتمدًا علىٰ الله، وأن الله هو الذي جعلها أسبابًا ولو شاء لعطلها، فيكون قصده من الله ولهذا يقول: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ يعني: اطلبوا الرزق من عند الله، فإذًا ابتغاء الرزق من الله عبادة يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، ولا يُطلب من وجهة أخرىٰ، بل من الله ﷻ، فهو الذي ييسر للإنسان السبب ويهيئه له ويجعله مقتضيًا للمسبب، وإن شاء عطله، وتقديم الظرف ليدل علىٰ الحصر؛ يعني: ابتغوا الرزق من الله لا من غيره.

قوله: «﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾»؛ لأنه هو الذي ﷻ خلقكم وأوجدكم وهيأ لكم الأسباب، جعل لكم قوىٰ وجعل لكم أفكارًا، وعقولًا، فاشكروه علىٰ ذلك، والشكر هو الثناء باللسان وكذلك العمل بالجوارح بالطاعة، والقلب متحليًا بذلك ولا بد، وختم الآية بقوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ يعني: مصيركم إلينا، وأنكم سوف تحاسبون علىٰ أعمالكم، فإن كان العبد مخلصًا وصادقًا فسوف يلقىٰ الجزاء الأوفىٰ، ويُزاد من فضل الله ﷻ ما لا حد له، وإن كان علىٰ خلاف ذلك فلن يُعجز الله

وسوف يُعاقبه الله ﷻ ويكون من المعذبين - نسأل الله العافية -، فالله بحلمه وإحاطته وقدرته لا يُعاجل الظالم؛ لأن مرجعه إليه، ولن يجد محيدًا عن المصير إلىٰ ربه ﷻ، وعند ذلك يُجازيه أفقر ما كان.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥،٦].

قوله: «﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾»: استفهام انكاري أن يكون هناك أحد أضل ممن هذه صفته، فهذا قد بلغ في الضلال غايته ونهايته، فليس وراء هذا الضلال ضلال أعظم منه.

قوله: «﴿مِمَّن يَدْعُوا﴾»: يدعو مثل ما سبق في آية سورة يونس؛ يعني: سواءً كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة فكلاهما داخل في هذا.

وقوله: «﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾»: الاستجابة هي أن ينيله مقصوده.

قوله: «﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾»: هذه نزلت فيمن يدعو ميتًا، أو غائبًا، أو شجرة، أو حجرًا، أو ملكًا، أو غير ذلك من المخلوقات، ولو كان مخلوقًا حيًا حاضرًا ولكنه يُسأل ما لا يقدر عليه، ولا يستطيعه فلا يستجيب له، إذا بُعثوا يوم القيامة جميعًا، يُسأل الداعي والمدعو، فإن كان المدعو راضيًا بذلك فهو شريكه كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أما إذا كان غير راض أو أنه غافل عن دعوته؛ لأنه إما أن يكون مطيعًا لله ﷻ مشتغلًا بها، أو يكون ميتًا، أو يكون غائبًا فهو غافل عن ذلك؛ لأنه لا علم له به، فإذا كان يوم القيامة سُئل فإذا كان غير راض ويبغضه تبرأ منه كما أخبر ﷻ عن الملائكة، فهو يسألهم يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾ قالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]؛

يعني: الشياطين الذين أمرتهم بذلك فهم في الواقع يعبدونهم فهم الذين زينوا لهم هذه العبادة، وأمرتهم بها فوقعت العبادة لهم في الحقيقة، وجاء في الحديث أنه يخاطبهم ويقول: «**أليس عدلًا مني أو أولي كل واحد منكم ما كان يتولاه في الدنيا**»[١]، الجواب: بلىٰ، فيأتي بكل معبود عُبد من دون الله إلا أن يكون رسولًا، أو رجلًا صالحًا فإنه يؤتىٰ بشيطان علىٰ صورة ذلك[٢] علىٰ حسب ما يتصوره العابد فيقال لهم: اتبعوهم، فيتبعونهم إلىٰ جهنم، ويبقىٰ المؤمنون وفيهم المنافقون.

فقوله: «﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»: يوم القيامة يستجيب بالكفر به والتبرؤ منه فحصل له الندامة، وحصل العذاب؛ لأن المشرك يتراكم عليه العذاب، عذاب الحسرات والعذاب الفعلي الذي هو عذاب جهنم، وكذلك عذاب التقريع والتوبيخ.

«﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾»: الحشر هو الجمع والضم. والحشر يكون بعد إخراجهم من قبورهم أحياء يُجمعون جميعًا هم ومعبوداتهم.

«﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾»؛ يعني: المعبودين يعادون العابدين وكل واحد يتبرأ من الثاني كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني رقم (٨١) عن أبي موسىٰ أن رسول الله ﷺ قال: «**يحشر الناس يوم القيامة فينادي منادي أليس عدلًا مني أو أولي كل قوم ما كانوا يعبدون، ثم يرفع لهم آلهتهم فيتبعونها حتىٰ لا يبقىٰ أحد إلا المؤمنون فيقال لهم: ما بكم؟ قالوا: ما نرىٰ إلهنا الذي كنا نعبد، قال: فيتجلىٰ لهم ﷻ**».

(٢) المعجم الكبير للطبراني رقم (٩٧٦٣) وفيه: «... **فلينطلق كل قوم إلىٰ ما كانوا يعبدون في الدنيا، قال: فينطلقون ويمثل لهم أشياء ما كانوا يعبدون، فمنهم من ينطلق إلىٰ الشمس، ومنهم من ينطلق إلىٰ القمر وإلىٰ الأوثان من الحجارة، وأشباه ما كانوا يعبدون، قال: ويمثل لمن كان يعبد عيسىٰ شيطان عيسىٰ، ويمثل لمن كان يعبد عزيرًا شيطان عزير ...**» ورواه الحاكم في المستدرك رقم (٨٧٥١) وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات غير أنهما لم يخرجا أبا خالد الدالاني في الصحيحين لما ذكر من انحرافه عن السُّنَّة في ذكر الصحابة، فأما الأئمة المتقدمون فكلهم شهدوا لأبي خالد بالصدق والإتقان والحديث صحيح ولم يخرجاه، وأبو خالد الدالاني ممن يجمع حديثه في أئمة أهل الكوفة. وقال الذهبي في التلخيص: ما أنكره حديثًا علىٰ جودة إسناده.

بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، الأسباب التي حصلت العبادة من أجلها، وهي المودة جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: هي المودة التي بينهم[١]. وكذلك المعاداة من أهل الحق الذين عُبدوا وهم ساخطون كارهون فإنهم لا شك أنهم أعداء لهم من الأصل.

«﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾»:، وهذا لكل معبود ومتبع، لمن يتبعه بلا حق ولا هدىٰ، ولهذا أخبر جل وعلا أن الشيطان نفسه يتبرأ منهم ويقول: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ يعني: ما أنا بمغنٍ عنكم شيئًا، وما أنتم بمُغْنِين عني شيئًا، ويتبرأ من طاعتهم من شركهم هذا أعلىٰ شيء، ثم كل من دونه علىٰ هذا السبيل.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ**: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

هذا استفهام يُقصد به التقرير وهو من الحجج التي يُقيمها الله جل وعلا علىٰ المشركين؛ لأنهم يعلمون هذا تمامًا، فهم إذا وقعوا في الضر والكروبات اتجهوا إلىٰ الله وسألوه حتىٰ يكشف ما بهم، وهم يعلمون أنه لا يستجيب دعاءهم في مثل هذه الحالة إلا رب العالمين جل وعلا، فالمضطر إذا دعاه للضرورة فإنه يجيبه، وهذا أمر ظاهر في الناس حتىٰ في المشركين، وهذا من مقتضىٰ ربوبيته، فإن ربوبيته تقتضي أن يستجيب للمضطر، وأنه يقوم بمصالح عباده وإن كانوا ظالمين، وإن كانوا عاصين، فإن مرجعهم إليه فيحاسبهم جل وعلا، ولهذا جعله الله دليلًا علىٰ وجوب الإخلاص له في كل الحالات وفي كل الأوقات أن يخلصوا دعوته ويتجهوا إليه، ولكن عادتهم وملتهم حالت بينهم وبين ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٧) قال عطاء عن ابن عباس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: المودة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح.

وقوله: «﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾»: وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن السوء قد يكون سببًا للاضطرار، السوء هذا قد يكون خاصًا وقد يكون عامًا، فهذا يعم المرض والفقر والخوف وما يوقعه العدو وغير ذلك، فكل ما يسوء الإنسان فهو سوء. فإذا وقع فيه الإنسان واتجه إلىٰ ربه صادقًا فإن الله يكشفه، ولا يكشفه غيره وهذا للمسلم والكافر.

قوله: «﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾»؛ يعني: أنكم خلفتم قومًا مضوا قبلكم فأنتم خُلفاؤهم في الأرض، وكذلك سيخلفكم أولادكم ويأتون بعدكم، فهو الذي قدر هذا وجعله هكذا، وأن أحدًا لا يقدر علىٰ هذا بل هو من خصائص الله ﷻ، فكذلك إجابة المضطر من خصائص الله، وكذلك كشف السوء من خصائصه ﷻ، فإذًا يجب أن تكون العبادة له كلها، ولا يجوز أن يُتجه لا إلىٰ ولي ولا إلىٰ نبي ولا ملك، بل يجب أن تكون العبادة لله وحده وهذا شيء من صفة أفعاله التي يقر بها الناس ويعرفونها تمامًا.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وروىٰ الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق؛ فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاثُ بي، وإنما يُستغاثُ بالله»(١).

ذكروا أن هذا المنافق هو عبد الله بن سلول، وهو كبير في قومه، وذو جاه وله مقام عندهم، وكان له مواقف سيئة مع النبي ﷺ، ومع المؤمنين ذكر الله بعضها في كتابة، كلها تدل علىٰ النفاق المتأصل عنده.

والنفاق هو إبطان الخلاف، وإظهار الوفاق. يظهر أنه موافق، ويبطن الكفر والخلاف والبغض والحقد.

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه أحمد بغير هذا السياق وهو في الأدب في باب القيام.

وذكروا أن سبب النفاق الذي وقع فيه أنه كان قبل مجيء النبي ﷺ كان الأنصار يُهيئوا الأمر ليتوجوه ويجعلوه رأسًا عليهم، فلما جاء النبي صلي الله عليه وسلم بطل ذلك وصار الأمر كله للنبي ﷺ، فنجم النفاق من أجل هذا، وهذا من الأسباب التي يهيؤها الله ﷻ، وليس هذا من الدواعي لينافق، ولهذا غيره ممن هو مهيأ مثل: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير وغيرهم من الرؤساء الكبار كان لهم مقام، ولم يحل هذا بينهم وبين الإيمان، ولكن فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء.

قوله: «**يؤذي**»: الأذىٰ يكون للأمور التي يكون ضررها خفيفا مثل: أن يسمعوا كلامًا يؤذي، أو شتمـًا، أو ما أشبه ذلك.

أما الضرر فالمنافقون لا يستطيعون أن يضروا المؤمنين؛ لأنهم يعاقبون، لكنهم يؤذونهم بالكلام، إما كلام في النبي ﷺ، أو في أهله، أو المؤمنين، أو في الدين الذي جاء به الرسول ﷺ فإذا سمعوا شيئًا من ذلك تأذوا.

قوله: «**فقال بعضهم**»: قيل: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

قوله: «**قوموا بنا نستغيث**»: الاستغاثة: طلب الغوث وهو إزالة الشدة.

وقد تطلق علىٰ ما هو أقل من هذا كما في هذا الحديث، فهي أطلقت علىٰ الشيء الذي ليس في الواقع من الشدائد والكروبات.

قوله: «**برسول الله ﷺ من هذا المنافق**»: الرسول ﷺ يستطيع أن يغيثهم في مثل ذلك الأمر، وذلك بأن يأمر بالمنافق فيقتل، أو يضرب، أو يمنع أقل شيء، ولكن لما كانت الصيغة التي تقدموا بها إليه فيها شيء من الإيهام بترك الأدب مع الله استنكرها النبي ﷺ وقال: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**».

فأراد أن يبين ﷺ أن الأولىٰ والأفضل أن تكون الاستغاثة بالله وحده حتىٰ في الشيء الذي يقدر عليه الحي الحاضر كما في هذا الحديث، سدًا للذرائع وحماية للتوحيد.

الجمع بين هذا الحديث والآية التي فيها: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القصص: ١٥].

أن هذا الحديث فيه المنع «**إنه لا يستغاث بي**»، والآية تدل علىٰ جواز الاستغاثة بالحاضر القادر، فالذي عندك قادر علىٰ أن يغيثك من عدو، أو يعينك علىٰ شيء قد وقعت فيه، أو ما أشبه ذلك أن هذا جائز.

والحديث يدل علىٰ الأدب مع الله ﷻ، والأولىٰ والأفضل أن يكون تعلق العبد بالله وحده، ولهذا كان النبي ﷺ في آخر الأمر إذا جاء من يبايعه علىٰ الإسلام - وليس لكل أحد - كان يشترط عليه أن لا تسأل أحدًا شيئًا[1]، يبايعه علىٰ أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن لا يسأل الناس شيئًا. والسبب أن السؤال يعطف القلب علىٰ المسؤول ويكون له تعلقٌ به، فإذًا يجب أن يكون تعلق القلب كله بالله، ويكون الأمر كله لله والاتجاه كله لله.

فالاستغاثة بالحي القادر الحاضر جائزة، ولهذا جاءت قصص كثيرة أن بعض المؤمنين يستغيث ببعض في الشدائد؛ يعني: في القتال وغيره في جهات معينة وأوقات معينة، فكذلك الإنسان إذا وقع مثلًا في بئر، أو سقط عليه جدار، أو ما أشبه ذلك فيستغيث بمن عنده بأن يعينه ويخرجه، ويساعده علىٰ النجاة من ذلك إذا كان قادرًا.

أما الاستغاثة بالأموات أو بغائب فهذا لا يجوز مطلقًا، فهذه النصوص تبين أن الدعاء يجب أن يكون لله ﷻ كله، وأن يكون خالصًا لله ﷻ، وتبين أن المخلوقين لا يملكون شيئًا وليس بأيديهم شيء، وأن الذي يدعوهم ويتجه إليهم أنه ضال، وإن كان المخلوق ميتًا، أو غائبًا، أو حجرًا، أو شجرة فالضلال أعظم وأكبر.

---

(١) أحمد في المسند رقم (٢٢٤٥٨)، وأبو داود رقم (١٨٣٧)، ولفظه عن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يضمن لي واحدة وأضمن له الجنة؟** قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: **لا تسأل الناس شيئًا**، قال: فكان سوط ثوبان يسقط وهو علىٰ بعيره فينيخ حتىٰ يأخذه وما يقول لأحد ناولنيه».

والذين يدعون غير الله لهم شُبه في هذا كثيرة، وقد أجاب عنها المؤلف في كتاب كشف الشبهات، ولكن هناك أشياء لم يذكرها المؤلف، وهي تتعلق بهؤلاء وهي ما بين حديث مكذوب موضوع على رسول الله ﷺ مثل قولهم الذي ينسبونه لرسول الله ﷺ: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه»، هذا كذب لم يقله رسول الله ﷺ، الحجر لا ينفع شيئًا بل المخلوقون كلهم لا ينفعون شيئًا، إلا ما شاء الله فيما أقدرهم عليه، ويجعلون هذه حجة على عبادة القبور، وبعضهم يضع أحاديث في الحال.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنهم في وقت مجيء التتار جاؤوا بأحاديث منها: «إذا داهمكم التتر فلوذوا بقبر ابن عمر»، ويجعلون هذا حديثًا ويقولون: هذا من علامات النبوة؛ لأن الرسول ﷺ أخبر به قبل وقوعه، وقبل مجيئه، وقبل التتار، وسماهم بأسمائهم، وقد يكون الشيطان نفسه ينطق على ألسنة من يعتقد أنه ولي، أو أنه مقرب كما ذكر الشعراني في كتاب «طبقات الأولياء»، والشعراني معروفة حاله -نسأل الله العافية-.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

- **الأولى: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.**

هذا أخذه من الخطاب؛ لأن الخطاب وجه إلى النبي ﷺ.

- **الثانية: كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفرًا.**

ولكن دعوى بعض الناس إذا حصل له شيء نسب هذا إلى من كان يعتقده وهو كذب، وإلا كيف ؟ فإن الميت لايملك شيئًا ، مع أن شرك الأولين ليس من هذا النوع، هو شرك أكبر، بطلب الشفاعة.

الباب الخامس عشــــر

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قول الله تعالىٰ:** ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[الأعراف:١٩١، ١٩٢].

في هذا الباب وثلاثة أبواب بعده بدأ المؤلف رحمه الله فيها بذكر دلائل التوحيد البراهينية التي يجب أن يعرفها الموحد، وبطلان الشرك، وهي براهين عقلية وشرعية، وذلك أن التوحيد ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام أو إلىٰ قسمين:

توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا من أكبر الأدلة وأعظمها علىٰ توحيد العبادة كما ذكر الله ﷻ ذلك في مواضع كثيرة من كتابه ﷻ مثل قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، يعلمون يقينًا أن الله هو الذي خلق الأرض وخلق السماء، وهو الذي ينزل المطر، وينبت به النبات الذي يأكلون منه، وتأكل منه أنعامهم، يعلمون هذا جيدًا، ويعلمون أن الله لم يشاركه أحدٌ في ذلك، بل هو المتفرد في ذلك كله، مع ذلك يتوجهون بالعبادة إلىٰ غيره يجعلون له شريكًا في العبادة، وهذا تناقض منهم؛ لأن المعبود هو الذي يجب أن يكون مالكًا متصرفًا قادرًا، ولهذا صار الإقرار بتوحيد الربوبية ملزمًا بالإقرار بتوحيد العبادة، وإلا صار متناقضًا.

قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ فهم لا يملكون من الخلق شيئًا، وهم يخلقون، لا يملك التصرف في نفسه ولا يملك نفعًا لغيره فكيف يعبد؟ فعبادته تكون ضلالًا ظاهرًا عقلًا وفطرة وشرعًا. ولكونها ضلالًا ظاهرًا صار الوقوع في الشرك لا يعذر فيه إنسان؛ لأنه ظاهر الضلال دلت عليه العقول والفطر والأدلة

القائمة، فإذا وقع فيه فهو مستحق لعذاب الله ﷻ.

وقوله: «﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾»؛ يعني: لمعبوديهم.

«﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾»: لا ينصرون عابديهم، ولا ينصرون أنفسهم، فكيف يعبد من كانت هذه صفته وكيف يدعىٰ؟ لأن المعبود إن لم يكن مالكًا متصرفًا قادرًا فعبادته ضلال، وهؤلاء ليس لهم من الملك شيء ولا من الخلق والإيجاد والتصرف شيء، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ما أُريد بهم من الله ﷻ، فبذلك يتبين أنهم فقراء، وأن عبادتهم لا تصلح، وبهذا يكون الدليل البرهاني قائم علىٰ من عبدهم وتوجه إليهم في الدعوة، وأنه ليس بيده شيء.

والاستفهام هنا ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ هو استفهام إنكار؛ لأن هذا واقع منهم، والله ﷻ ينكر ذلك عليهم.

قوله: «﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾»: الخلق يطلق علىٰ الإيجاد والإبراز، ويطلق علىٰ التقدير يقدر الشيء ويكون ذلك خلقًا كما قال الشاعر:

ولأنـــت تفـــري مـــا تخلـــق وبعـض القـوم يخلـق ثـم يفـري

يعني: أنك تفعل الشيء الذي تقدره، وغيرك لا يستطيع ذلك، ولهذا فسر قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وذكر تعالىٰ لنا أنه خلق لنا ما في الأرض جميعًا، وجاء في الآية الأخرىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢]، فبين هنا أن دحي الأرض كان بعد خلق السماوات، وبيَّن أن الدحي هو إخراج مائها، وإرساء الجبال فيها، فيكون قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]؛ يعني: تقديرًا قدر ذلك، وأما الإبراز والإظهار؛ يعني:

إبراز بعض ما في الأرض وإظهاره يكون بعد خلق السماوات.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

يدل هذا علىٰ أن المدعو يجب أن يكون مالكًا لما يدعىٰ له، وإذا لم يكن مالكًا فدعوته لا تصلح. وهنا بيَّن جل وعلا أن المدعوين لا يملكون:

«﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾»: والقطمير كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة رحمهم الله: هو اللفافة التي تكون علىٰ نواة التمرة[1]. وهي أحقر شيء ولا تنفع.

فإذا كانوا لا يملكون هذا الشيء الحقير فهم فقراء ليس بأيديهم شيء أصلًا، وهم عباد مثل من يدعوهم، وقد يكونون أقل درجة ممن يدعوهم؛ لأنه قد يكون ميتًا، فالميت لا يملك شيئًا ولا يتصرف في شيء.

قوله: «﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾»؛ يعني: سماع قبول وإجابة وعطاء، فمجرد السماع لا يكفي، فالحجارة تسمع والشجر يسمع، وكل شيء يسمع، وهي مُستنطقة ومستشهدة، ولكن سماعها علىٰ قدرها ويليق بها.

وبعض المتأخرين أنكر سماع الموتىٰ في القبور يقولون: حتىٰ لا يحتج به علينا القبوريون، وهذا خلاف النصوص، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]؛ أي: سماع قبول؛ وإلا فهم يسمعون الكلام.

قوله: «﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾»: الاستجابة تلبية الدعاء، وحصول مطلوب الداعي.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤١).

وقوله: «﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾»؛ يعني: أن المدعو يصبح عدوًا لمن دعاه يوم القيامة، ويتبرأ من دعوته.

وقوله: «﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾»؛ يعني: الله ﷻ خبير بالأمور كلها، فهو يخبر بالواقع أنه يقع علىٰ ما أخبر به ﷻ. فهذا من الأدلة البرهانية علىٰ بطلان الشرك، ومعرفة ذلك فطرة ظاهرة، ثم إن المدعو مهما كان فهو فقير، محتاج لا يملك لنفسه جلب النفع ولا دفع الضر عن نفسه إذا أريد به ضر فكيف يدعىٰ؟ وكيف يقدم العاقل علىٰ دعوة من هذه صفته؟

✍ قال المؤلف ؒ: وفي الصحيح عن أنس قال: شج النبي ﷺ يوم أُحد وكسرت رَباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)].

قال ابن الأثير: الشَّجُّ في الرأس خاصَّة في الأصل، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقَّه، ثم استُعْمِل في غيره مِنَ الأعْضَاءِ. يقال: شجَّه يَشُجُّه شجًّا[(٢)].

وهو أن يجرح ويسيل الدم، وقد يدخل الجرح وهو يختلف لقوة الضرب وضعفه، ثم أطلق علىٰ ما كان في غير الرأس، وبيَّن أنه في وجهه ﷺ.

قوله: «**يوم أُحد**»: أُحد جبل معروف، وأضيفت إليه الواقعة؛ لأنها بجواره.

وعند أحمد في المسند[(٣)] ومسلم[(٤)] «كسرت رباعيته يوم أُحد وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: **كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رَباعيته**

(١) علقه البخاري باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ...﴾، ورواه مسلم رقم (١٧٩١).
(٢) النهاية في غريب الأثر (٢/ ١٠٩)٧.
(٣) المسند رقم (١١٩٥٦).
(٤) مسلم رقم (١٧٩١).

وهو يدعوهم إلىٰ الله؟»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الإنسان له أربع رباعيات: اثنتان من أسفل، واثنتان من أعلىٰ، وهي لم تقلع من أصلها، وإنما كسر شيء منها.

قوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**»: وهو يدعوهم إلىٰ الله ﷻ، وكانوا حريصين علىٰ قتله، فهذا قصارىٰ ما وصلوا إليه أنهم شجوه في وجهه فسالت الدماء من وجهه -صلوات الله وسلامه عليه-، فصار يسلت الدم عن وجهه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رَباعيته وهو يدعوهم إلىٰ الله؟**»، قال القرطبي: وقوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**»، هذا منه ﷺ استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم، ولما أُطمع في ذلك، قال ﷺ: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل تلك الحال علم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر، ولم يقتصر علىٰ العفو حتىٰ دعا لهم، ولم يقتصر علىٰ الدعاء لهم حتىٰ أضافهم لنفسه علىٰ جهة الشفقة، ولم يقتصر علىٰ ذلك حتىٰ جعل جهلهم بحاله؛ كالعذر، وإن لم يكن عذرًا، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها، ولا يوصل إليها(١).

فالأمر بيد الله جل ولعلا يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفي هذا دليل علىٰ أنه ﷺ لا يملك لنفسه شيئًا من دون الله ﷻ، كما أنه كان يستنصر بربه، ويسأله ويدعوه، ويقول عند ابتداء القتال: «**اللهم أنت عضدي ونصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل**»(٢). فيسأل ربه أن ينصره، ومقام الرسول ﷺ عند الله عظيم،

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١١/ ١٤٤).

(٢) سنن سعيد بن منصور رقم (٢٥٢٢) عن أبي مجلز، وهو عند أحمد في المسند رقم (١٢٩٦) عن علي رضي الله عنه.

ومع هذا ما استطاع أن يدفع عن نفسه أذىٰ المشركين، وما استطاع أن يحمي عمه الذي قتل في تلك الغزوة.

وفيه أن الرسول ﷺ بشر وأنه يناله ما ينال البشر، وأنه ليس له مع الله في الملك شيء، وأنه فقير إلىٰ ربه ﷻ عبد يدعوه، وأن مهمته الدعوة والإنذار، أن ينذر من عصاه، ويبشر من أطاعه، ولهذا نزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، والمعنىٰ: أنك عبد لله ﷻ مأمور بأمره، وتمضي فيما كلفك به، وأما أمر عباده فهو إليه يتصرف فيهم كيف يشاء، إن شاء أن يعذبهم عذبهم، وإن شاء أن يتوب عليهم تاب عليهم، فالأمر إليه ﷻ وحده.

وفي هذا تدليل علىٰ توحيد العبادة واضح، وهو أن أكرم الخلق وأفضلهم عند الله ﷻ تصيبه الأدواء، وتصيبه الآلام ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئًا من دون الله فهو يلجأ إلىٰ الله، ويعبده، ويسأله.

وفيه أن الرسل تبتلىٰ، وينالهم في أجسادهم الأذىٰ، وكذلك يقتلون.

✍ قال المؤلف رحمه الله: قال: وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد»، فانزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨](١).

وفي رواية: يدعو علىٰ صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٢).

(١) رواه البخاري رقم (٤٠٦٩).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٠٧٠) قال: وعن حنظلة بن أبي سفيان سمعت سالم بن عبد الله يقول: كان رسول الله ﷺ يدعو علىٰ صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٥٦٧٤.

قوله: «وفيه»؛ يعني: في الحديث الصحيح، وهذا في صحيح البخاري.

قوله: «**أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه**»: بعد هذه الواقعة كان يقنت ويدعو علىٰ رؤساء الكفار الذين هم أبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وكان يسميهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم في الصلاة فيقول: «**اللهم العن فلانًا ابن فلان**».

قوله: «**اللهم إلعن**»: سبق أن اللعن هو: الطرد عن مظان الرحمة، وهذا من الله ﷻ، ومن لعنه الله فهو ملعون ومطرود عن رحمة الله ﷻ.

وأما من البشر فاللعن هو: الدعاء عليهم بأن يلعنهم الله، وبعضهم يقول: هو السب والشتم. ولكن الظاهر أن اللعن من بني آدم أنه يقصد بذلك أن الله يلعنه ويجعله ملعونًا، ولهذا لا يجوز أن يلعن المسلم، وجاء: «**أن لعن المسلم كقتله**»[(١)]، وجاء أن الإنسان إذا لعن من لا يستحق اللعنة أنها ترجع إليه[(٢)].

وفي هذا من العبر أن سيد البشر ﷺ بقي وقتًا يدعو علىٰ هؤلاء، وخلفه سادات المسلمين من أولياء الله يُؤَمنون علىٰ دعائه، وأنه يعين أناسًا بأعيانهم وهم رأس الكفر الذين غزوا رسول الله ﷺ في بلده وقتلوا أبناء عمهم المسلمين، وكذلك أنصار الله، وأنصار رسوله ﷺ فجرحوه جراحة بليغة في وجهه حتىٰ ضربه عبد الله بن قميئة في وجنته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته صلوات الله وسلامه عليه فصارت الدماء تسيل، وهذه مبالغة في أذية رسول الله ﷺ ومحاربته، ومحادة الله ﷻ ومع ذلك كله لم يستجب الله ﷻ له في دعائه بل أخبره أنه ليس له

---

(١) رواه البخاري رقم (٦١٠٥) عن ثابت بن الضحاك: عن النبي ﷺ قال: «**من حلف بملة غير الإسلام كاذبًا فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عذب به في نار جهنم، ولعن المؤمن كقتله، ومن رمىٰ مؤمنًا بكفر فهو كقتله**» وأخرجه مسلم رقم (١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلىٰ السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلىٰ الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينًا وشمالًا فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلىٰ الذي لعن، فإن كان لذلك أهلًا وإلا رجعت إلىٰ قائلها**».

من الأمر شيء، وأنه عبد يجب أن يكون ممتثلًا لأمر ربه ﷻ.

وفيه أن القنوت في النوازل أنه يكون بعد قوله: «**ربنا ولك الحمد**»، وفي رواية البخاري(١) بإسقاط الواو: «**ربنا لك الحمد**»، وبعض الشراح يقول: كلا الروايتين صحيح، وابن دقيق العيد يقول: كأن إثبات الواو دال على معنى زائد؛ فيكون التقدير: ربما استجب، ولك الحمد فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر(٢).

ثم إن فيه أنه يبدأ بالمقصود ولا يقول: «اللهم اهدنا فيمن هديت..»، بل يبدأ بالدعاء الذي قصده إذا قال: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» بدأ مباشرة بالموضوع الذي من أجله قنت، ولا يأتي بمقدمات؛ يعني: دعاء عامًا أو غيره سواءً لنفسه، أو للمسلمين، أو غير ذلك هذه هي السُّنَّة.

وفيه أن الإمام يجمع بين قوله: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» خلافًا لمن كرهه(٣)، وقد جاءت أحاديث زيادة على ذلك في الدعاء. وتسمية الإنسان في الصلاة باسمه لا تضر عند الحاجة لذلك.

وقوله: «**سمع الله لمن حمده**»؛ يعني: سمع الإجابة، سمع من يحمده، وفي ضمن هذا أنه يستجيب له.

و«**الحمد**»: الله ﷻ له المحامد كلها. والحمد هو ذكر المحاسن مع الحب، أن تذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه، أما إذا جاء ذكر المحاسن بدون الحب والتعظيم فهذا يسمى مدحًا. والذم ضده أن تذكر مساويه مع بغضه.

و«أل» دخلت على الحمد ليشمل جميع المحامد، والله محمود على فعله وعلى خلقه وعلى تقديره، وعلى ما يقوم به من الصفات، فالحمد كله له ﷻ.

---

(١) رقم (٣٨٤٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٨٢).

(٣) وهو قول مالك وأبي حنيفة، والشافعي يرى أن المأموم يجمع بينهما.

وقوله فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] بعد ما مضىٰ وقت وهو يدعو علىٰ هؤلاء، فلما نزلت ترك الدعاء.

وهؤلاء الذين كان النبي ﷺ يدعو عليهم بأسمائهم أسلموا وحسن إسلامهم مع ما فعلوه كما سبق، ومع إظهارهم الشرك وهتفهم به كما قال أبو سفيان يوم صعد أُحد بعد المعركة صار ينادي بأعلىٰ صوته فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقىٰ الله عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلىٰ وأجل**». قال أبو سفيان: لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم، فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**». قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولىٰ لكم**»(١). فهذا إظهار للشرك، وهو محاربة لله ﷻ ومبارزة له، ومع ذلك لم ينزل عليهم العذاب، ولم يستجب الله لنبيه ﷺ في دعائه عليهم مما يدل علىٰ أنه ليس لأحد معه تصرف فهو المالك المتصرف، وهو الحليم الذي لا يعجل، وإذا أرد أخذ أحد من خلقه فلا أحد يمنعه، فتاب علىٰ هؤلاء بعد ما فعلوا هذه الأفعال العظيمة التي لم يفعلها أحد من المجرمين إلا ما شاء الله، وكل هذا يدل علىٰ أن الله هو المعبود وحده، وهو الذي يجب أن تكون العبادة له؛ لأنه هو المالك لكل شيء، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الذي يثيب علىٰ العبادة ويعاقب علىٰ تركها، أما المخلوق فلا يملك شيئًا، ومن المخلوقين رسول الله ﷺ، وكذلك رسله من الملائكة، وكذلك سائر عباده، فدعوتهم والتعلق بهم ينافي الإخلاص لله ﷻ وعبادته، وذلك جراءة علىٰ الله وسوء ظن به وتنقص لحقه، ولهذا صار هذا من أعظم الذنوب، فمن فعله ومات عليه، فإنه يكون من الخالدين في النار، وتكون الجنة حرام عليه -نسأل الله العافية-.

---

(١) سبق تخريجه.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. قال: «يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا»(١).

أبو هريرة لا يعرف اسمه العلم، وإنما يعرف بكنيته، وقد اختلف الحفاظ في اسمه على ما يقرب من ثلاثين قولًا، وهو معلوم معروف من أفاضل الصحابة والحفاظ، وقد روى له في الكتب الستة قرابة خمسة آلاف حديث، أو أكثر، ولهذا عاداه أهل الباطل لكثرة ما روى عن رسول الله ﷺ، وكان بداية ذلك قد وقع في وقته فوجد بعض من ينتقده، وأخبر أنه كان يلازم رسول الله ﷺ ولا يفارقه ويكتفي بشبع بطنه فقط، وأنه شكا مرة إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، إني أسمع منك حديثًا كثيرًا فأنساه، قال: «**أبسط رداءك**»، فبسطته، قال: فغرف بيديه، ثم قال: «**ضمه**» فضممته، فما نسيت شيئًا بعده(٢). وكان يدرس الحديث ليلًا؛ يعني: يراجع حفظه، ولم يكن يكتب، ولهذا قال: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب(٣).

ومع هذا فهو أكثر حديثًا من عبد الله بن عمرو. وفي صحيح مسلم سأل رسول الله ﷺ أن يحببه إلى المسلمين قال: قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب عُبيدك هذا** -يعني: أبا هريرة- **وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**»، فما خلق

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٧٥٣)، ومسلم رقم (٢٠٦).

(٢) رواه البخاري رقم (١١٩).

(٣) أخرجه البخاري رقم (١١٣)، وأحمد في المسند رقم (٩٢٣١).

مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[1]. ولهذا يقول: لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق. وهذا ليس خاصًا به وحده بل هو في الصحابة كلهم -رضوان الله عليهم-.

ومعاداته الآن وقبل الآن ظاهرة جدًا عند أهل الباطل، فهم يرمونه بالكذب وبالعظائم، ومعلوم أن هذه جراءة عظيمة، وضلال كبير.

قوله: «﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾»: عشيرة الرجل هم أبناء أبيه الأقربون، وقد يطلق علىٰ أقرباؤه وعلىٰ قبيلته.

قوله: «**يا معشر قريش- أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم**»: من النار؛ يعني: اشتروها بعبادة الله وحده، بأن تطيعوا رسوله، وتطيعوا أمره وتخلصوا الدعاء له والعبادة، فإنقاذ النفس يكون بالإيمان والعمل الصالح.

قوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**»: ثم خص الأقربين من عشيرته فقال: «**يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا**»، فخص وعم.

جاء في رواية: «**يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا**»، فبين رسول الله ﷺ أنه لا يملك شيئًا لأقربائه، وليس له مع الله تصرف في ذلك، فهو ينذر أهله وأقرباءه كابنته وعمته وعمه وعشيرته، ثم يعم بالنذارة.

وقد ذكر أهل السير والتفسير أنه لما نزلت عليه هذه الآية: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خاف أنه قد قصر في النذارة والبلاغ، خرج رسول الله ﷺ حتىٰ صعد الصفا فهتف: «**يا صباحاه**»؛ لأن العادة عند العرب أن الإنسان إذا شاهد

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٤٩١).

أمرًا خطيرًا يمكن أن يدهم قومه قبل الاستعداد أنه يصيح ويقول: واصباحاه -يعني: أنَّ العدوَّ صبَّحكم- فقالوا: من هذا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو فاجتمعوا إليه فقال: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدِّقي**»، قالوا: ما جربنا عليك كذبًا قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، قال أبو لهب: تبًا لك ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وقد تب[١].

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: جِدُّهُ ﷺ في هذا الأمر؛ بحيث فعل ما نُسب بسببه إلىٰ الجنون وكذلك لو فعله مسلم الآن[٢]. فهو فعل فعلًا نسب إليه الجنون؛ لأنهم قالوا: إنك مجنون علىٰ هذا الفعل مع أن هذا امتثال لأمر الله ﷻ، وهو مما قام به نذارة لقومه خوفًا أنه لم يؤدِّ النذارة كما ينبغي، فهو من أمر الله ﷻ، ويقول كذلك لو أن أحدًا من الناس فعل مثل هذا لقيل إنه مجنون؛ لأنه يقتدي برسول الله ﷺ في ذلك.

والمقصود أنه ﷺ أخبر وهو الصادق الذي يجب تصديقه، ولا يقول إلا حقًا أنه لا يغني عن ابنته ولا عن عمته ولا غيرهم من أقربائه فضلًا عن البعداء وسائر الناس لا يغني عنهم من عذاب الله شيئًا، وأنهم إذا عصوا الله وعصوا رسوله ﷺ فإنهم يعذبون ويستحقون العذاب، ونسبهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ لا تغني عنهم شيئًا فكيف يُدعىٰ؟ ويطلب منه كشف الضر؟ أو يقال: إن من جوده الدنيا وضرتها كما قال البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلىٰ باسم منتقم

(١) رواه البخاري رقم (٤٩٧١)، ومسلم رقم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) المسألة الثانية عشر.

فـإن مــن جــودك الــدنيا وضــرتها ومـن علومـك علـم اللـوح والقلـم
إن لــم تكـــن في معـــادي آخـــذًا بيـدي فضـلًا وإلّا قـل يـا زلّـة القـدم

رسول منصوب على النداء؛ يعني: (يا رسول الله) كيف يقارن قول هذا القائل مع قول رسول الله ﷺ: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**» لابنته وعمته وعمه وغيرهم، فهل يكون هذا مؤمنًا بهذا القول؟ مصدقًا له متبعًا لرسول الله ﷺ؟ أو أنه مكذب؟ أو أنه لا يفهم ولا يعرف شيئًا؟ لأن الإنسان قد يطبع على قلبه فيرى حسنًا ما ليس بحسن إذا أراد الله ﷻ فتنته، ثم كيف يكون هذا من العلماء الذين يفسرون كلام الله، ويفسرون أحاديث رسول الله ﷺ ويكتبون الكتب والأصول، ثم يقعون في مثل هذه المناقضات، مناقضة للرسول ﷺ، وهذا كثير ليس هذا خاصًا بهذا الرجل بل هو كثير جدًا، وهذا الذي كان الرسول ﷺ يحذر منه ويقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

فالواجب على عباد الله ﷻ أن يتبعوا رسولهم، وأن يعبدوا ربهم ويعرفوا حقه كما أنه واجب عليهم أن يعرفوا ما لرسول الله ﷺ من الحق، ولكن لا يجعل له ما لله ﷻ، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «**إن أوليائي يوم القيامة المتقون وإن كان نسب أقرب من نسب، فلا يأتيني الناس بالأعمال، وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون: يا محمد، فأقول: هكذا وهكذا لا وأعرض في كلا عطفيه**»(٢)، فهذا أيضًا

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم (٨٩٧) من حديث أبي هريرة، وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٦٩٥٢) عن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: **يا عمر اجمع لي قومك فجمعهم**، ثم دخل عليه فقال: يا رسول الله قد جمعتهم فيدخلون عليك أم تخرج إليهم؟ فقال: **بل أخرج إليهم**، فسمعت بذلك المهاجرون والأنصار فقالوا: لقد جاء في قريش وحي فحضر الناظر والمستمع ما يقال لهم فقام بين أظهرهم فقال: **هل فيكم غيركم؟** قالوا: نعم فينا حلفاؤنا وأبناء إخواننا وموالينا، فقال رسول الله ﷺ: **حلفاؤنا منا وموالينا منا**، ثم قال: **ألستم تسمعون أوليائي منكم المتقون فإن كنتم أولئك فذلك وإلا فأبصروا ثم أبصروا لا يأتين الناس بالأعمال وتأتون بالأثقال** =

شبيه بما نزل في سبب هذه الآية، وفعله ﷺ في آخر حياته فحذر كما أنه حذر جميع أصحابه من ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره قال: «**لا ألفينَّ أحدكم يوم القيامة علىٰ رقبته شاة لها ثغاء علىٰ رقبته فرس لها حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، وعلىٰ رقبته بعير لها رغاء يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، وعلىٰ رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، أو علىٰ رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد بلغتك**»(١).

وهو صلوات الله وسلامه عليه كان يدعو إلىٰ إخلاص العبادة لله جل جلاله، ويبين أن الأمر كله لله، وأنه لا ينفع إلا توحيد الله، أما التعلق بالخلق فهذا لا يجدي شيئًا، فإذا كان سيد البشر ﷺ لا يغني عن من يدعوه، أو يتوجه إليه شيئًا، فكيف بمن دونه من المقبورين، أو غير المقبورين الذين يتعلق بهم الناس، فهذا ضلال ظاهر.

والشبه التي يتعلق بها من يدعو الأولياء ومنهم رسول الله ﷺ، قد تولىٰ الشيخ رحمه الله الرد عليهم في كتابه «كشف الشبهات»، إلا أن هناك بعض الأحاديث التي لم يذكرها وهي ما بين أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو أنها لا دلالة فيها علىٰ المدعىٰ مثل حديث الأعمىٰ الذي رواه الترمذي، وحديث عثمان بن حنيف رواه الترمذي، ومثل الحديث الذي رواه ابن السني، وأبو يعلىٰ عن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا! يا عباد الله احبسوا! فإن لله حاضرًا في الأرض سيحبسها**»(٢) تعلقوا بهذا،

= فيعرض عنكم، ثم نادىٰ فرفع صوته فقال: إن قريشًا أهل أمانة من بغاهم العواثر كبه الله لمنخره قالها ثلاثًا» وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(١) رواه البخاري رقم (٣٠٧٣)، ومسلم رقم (١٨٣١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير رقم (١٠٥١٨)، وأبو يعلىٰ رقم (٥٢٦٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (٥٠٧).

وقالوا: إن هذا يدل على أن دعوة الغائب أنها جائزة، وأنها تنفع، فهذا حديث يرويه مجاهيل وليس فيه متعلق لدعوة الموتى وغيرهم؛ لأنه قال: «**فإن لله حاضرًا**» على تقدير صحته؛ يعني: أن المدعو أنه حاضر موجود، ولكنه لا يشاهد إما جني أو غيرهم، ولكن كيف تترك النصوص الواضحة الجلية المحكمة، ثم يؤخذ بحديث مجهول الراوي ضعيف، وبعض رواته متروك هذا يدل على اتباع الهوى.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ **الأولى: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيهم، وحرصهم على قتله ومنها: التمثيل بالقتلى، مع أنهم بنو عمهم.**

ومع هذا لم يستجب له مع فعلهم هذه الأفعال، مما يدل على أن الأمر كله لله جل وعلا وليس لأحد معه شيء، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه المذكورات على التوحيد.

❁ **الثانية: لعن المعيَّن في القنوت.**

المعين كان كافرًا، ولعن الكفار جائز، ولكن الخلاف في لعن العصاة من أهل الكبائر والقول الراجح في هذا: أن اللعن في ذلك في العموم ولا يكون لمعين.

❁ **الثالثة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من الله شيئًا» حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئًا». فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبين له التوحيد وغربة الدين.**

مقصود الشيخ رحمه الله في هذا أنه عارضه في دعوته إلى التوحيد خواص الناس الذين هم العلماء وجادلوا في أن دعوة الأولياء الذين يزعمون أنهم أولياء، وإلا فقد يكونون شياطين، وأن هذا أمر وجدوا عليه الناس، وأنه ليس مخالفًا لدين الإسلام، يقول: إذا نظر الإنسان في هذا الأمر وما قام في قلوب كثير من الناس بكونهم يدعون

ويتوجهون إلىٰ غير الله ﷻ من الأحياء والأموات، وقد يكون المدعو لا يصلي يكون مجنونًا ويسمونه مجذوبًا؛ يعني: أنه ذاهب عقله، ولكنه من أولياء الله فيدعونه ويعبدونه ويجعلون هذا من أفضل الأعمال يقول: إذا تأمل الإنسان الواقع عند هؤلاء ومجادلاتهم في ذلك، وما فعل برسول الله ﷺ كما في هذه القصة، وتأمل هذه تبين له غربة الدين الإسلامي، وأن من قام به عودي وحورب ونسب إلىٰ أنه جاء بشيء خارج عن الدين خالف جماعة المسلمين كما وقع له رحمه الله.

وهذا كثير وباقي وسيبقىٰ، فالذي ينظر اليوم في بلاد المسلمين كثيرًا منهم يتجه إلىٰ القبور ويجعل ذلك من أفضل الأعمال فيفزعون إليهم في الشدائد، ويحتجون بأن عندهم علماء، وأنهم قد يشاركونهم في ذلك، ومن أنكر هذا إما أن يقولوا هذا لا يحب الأولياء ويبغضهم، وقد يقولون إنه لا يحب الرسول، ويجعلون تجريد التوحيد وعبادة الله وحده يجعلونه خارجًا عن الدين الإسلامي، وأن هذا دين الخوارج، أو أنه أعظم من دين الخوارج.

الباب السادس عشـــر

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب قول الله تعالىٰ:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

هذا الباب نظير الباب الذي قبله، أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين دلائل التوحيد، وبراهينه التي يجب أن تتبع، ففي هذا الباب ذكر عظمة الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه يجب أن يكون التعظيم، والعبادة، والدعاء والالتجاء كله لله وحده، وأن الخلق ضعفاء لا يملكون مع الله شيئًا، حتىٰ الملائكة، وكبارهم مثل: جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من شدة خوفهم من الله يأخذهم الفزع فيصعقون خوفًا ، ولهذا وصف السماوات كيف تأخذها الرعدة والرجفة إذا سمعت كلام الله، فإذا كانت السماوات نفسها تخاف من الله، وكذلك الملائكة فكيف بالضعيف ابن آدم ونحوه، ولكن قلبه قاسي؛ لأنه جاهل بالله جَلَّ وَعَلَا لا يعرف شيئًا عن عظمته، وما قدر الله حق قدره.

ذكر هذا ليتبين أن الأمر كله لله، والعبادة يجب أن تكون لله، وأن العبد وإن قرب من الله لا يجوز له شيء من حقوق الله التي هي العبادة، وأن من كان قريبًا من الله فإنه يكون أكثر خوفًا منه، وأقرب الخلق إلىٰ الله هو جبريل ومع ذلك يُصعق إذا سمع كلام الله، والسبب أنه يخاف أن يكون أمر بالقيامة أن تقوم، وإذا قامت القيامة وقع عذاب الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ من يستحقه، وهم يخشون أن ينالهم شيء من ذلك لشدة الأمر فإن الله بيده كل شيء، من شاء أن يعذبه عذبه ولا يُسأل عما يفعل جَلَّ وَعَلَا، فمراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الرد علىٰ القبوريين الذين يدعون الأموات المرتهنين بأعمالهم وغيرهم.

وهذه الآية تتعلق بالتي قبلها وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

والصواب في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أن الضمير يعود إلىٰ الملائكة لما تبين من الحديث الذي ذكره أن الملائكة إذا سمعوا كلام الله بالوحي وأول من يسمع الكلام جبريل عليه السلام فيُصعق خوفًا من الله جل وعلا.

قوله: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾»؛ يعني: زال الفزع، والفزع هو الخوف الشديد الذي يأخذ السامع بغتة، فإذا أخذه صعق والصعق معناه فقدان العقل والوعي، وفقدان الإحساس من شدة الخوف، فإذا أزيل الفزع عن قلوبهم، وذهب عند ذلك يتساءلون:

«﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾»: وهذا يدل علىٰ أنهم سمعوا صوتًا لم يفقهوه، مجرد صوت، وجاء وصفه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**كأنه سلسلة علىٰ صفوان**» أنهم يسمعون صوتًا كجر السلسلة علىٰ الصفوان، ويعلمون أنه صوت الرب جل وعلا، وفي هذا إثبات الصوت لله، وأنه يتكلم كلامًا حقيقي يُسمع والأدلة علىٰ هذا كثيرة جدًا، ولكن الجهمية وأضرابهم ينكرون الصوت والكلام الحقيقي لله تعالىٰ، ومعنىٰ هذا أنهم ينكرون النصوص الثابتة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وهذا من الضلال البين.

ولهذا قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، فبعضهم يسأل بعضًا؛ لأن من في السماء الأولىٰ أبعد ممن في السماء الثانية وهكذا، فكل فريق يسأل من فوقه؛ يعني: ماذا أمر به ويُريدون بذلك امتثال أمره، والمسارعة إلىٰ ذلك تقربًا إليه جل وعلا وطاعة له حتىٰ ينتهي السؤال إلىٰ من يؤمر بتبليغ الأمر الذي هو جبريل عليه السلام فإذا وصل إليه قال لهم:

«﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾»: ولم يخبرهم بما قال، والله ﷻ لا يقول إلا حقًا، ولهذا لشدة طاعتهم كلهم يقولون: «**قال الحق..**»، ويكتفون بهذا. وجاء أن هذا في أول ما أنزل الله ﷻ علىٰ رسوله ﷺ، وفي هذا أن الله يتكلم بكلام يسمع، وأن الملائكة تسمعه، وتعلم أنه صوته ﷻ ولكنهم لم يفقهوه، وكذلك السماء تسمع كلام الله، ولهذا صاروا يسألون ماذا قال؟ فهو يتكلم ويقول، ولهذا قال البخاري ؒ علىٰ هذه الآية: ولم يقل ماذا خلق ربكم[1]. بل قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ مما يدل علىٰ أنه يقول ما شاء متىٰ شاء، والقول والكلام شيء واحد، ولا يزال متكلمًا ﷻ، ولكن الكلام متعلق بمشيئته.

وقوله: «﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾»: العلو معناه الارتفاع، والارتفاع يكون بالذات عال علىٰ جميع المخلوقات فليس فوقه شيء ﷻ، بل هو العالي العلو المطلق والمخلوقات كلها تحته، وأقرب شيء إليه عرشه، وهو أكبر المخلوقات.

وكذلك العلو علو القهر، فهو القهار يقهر الخلق كلهم، وكلهم عبدٌ ذليل له، ولهذا يقول ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ يعني: خاضعًا ذالًّا صاغرًا، وهذا يوم القيامة تظهر العبودية عبودية الربوبية عبودية القهر، وليست عبودية الاختيار، ولهذا يقول العلماء: العبودية تنقسم إلىٰ قسمين:

عبودية تصدر من العبد، عبودية بمعنىٰ عابد، يعبد هو ويذل ويخضع حسب أمر الله وهذه التي تنفع وهي المطلوبة، وهي التي تنجي الإنسان.

وعبودية بمعنىٰ جريان أحكام الله عليه، وهو ذال خاضع لا يستطيع أن يتخلص منها أو يمتنع منها، وهذه لكل أحد، فكل مخلوق عبد ذال خاضع لله حيث إن

---

(١) البخاري (٣٢) باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

جريان أحكامه وأقداره جارية عليه صاغرًا غير منظور إلىٰ اختياره، أو أمره، فهذا القسم الثاني هو الذي يكون يوم القيامة.

فالعلو يكون بالقهر كما يكون بالذات، ويكون بالقدر، فالعلو له معاني ثلاثة:

الأول: علو ذات، فهو عال علىٰ خلقه بذاته ﷻ فوق عرشه، وليس فوقه شيء.

الثاني: علو القهر، فهو القهار القاهر للخلق كلهم، ولا يمكن أحداً أن يمتنع من قهره ﷻ.

الثالث: علو القدر، وهذا لا يكون إلا عند عباد الله الذين يعرفون الله، ويقدرونه حق قدره فهو عال في قلوبهم أعلىٰ من كل شيء، وأعظم من كل شيء، أما أكثر الخلق فهم يفقدون هذا المعنىٰ.

قوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: أيضًا من أسماء الله التي تدل علىٰ الصفات، التي أخذت منها الأسماء فهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ولهذا أخبر سبحانه أنه يقبض السماوات كلها بيده اليمنىٰ فتكون صغيرة بالنسبة إليه حقيرة كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ذكر ابن جرير عند هذه الآية عن ابن عباس بسنده أنه قال: وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه(١).

وإنما الأرض والسماوات كلها بيمينه وليس في شماله شيء، ولهذا شرع لنا الله التكبير في جميع مواطن العبادة، ففي الصلاة عندما ينتقل المصلي من ركعة إلىٰ أخرىٰ يكبر حتىٰ يستشعر أن الله أكبر من كل شيء، وكذلك في نهاية العبادات والأمور المعظمة، وكذلك شرع عندما يطغىٰ الإنسان ويتكبر فإنه يشرع التكبير، وأن الله أكبر من كل شيء، ولهذا السلف يطفئون النار بالتكبير؛ لأن النار تطلب

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٤).

العلو فإذا وقع الحريق كبروا فتطفأ بإذن الله[1]، وكذلك شرع الرسول ﷺ التكبير إذا علا نشزًا من الأرض من جبل أو مرتفع[2]؛ لأن الله أعلىٰ من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأما إذا هبط في المنخفضات فإنه يسبح والتسبيح معناه التنزيه؛ يعني: سبحان الله أن يكون منخفضًا، أو يكون شيء فوقه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **في الصحيح عن أبي هريرة** رضي الله عنه: **أن نبي الله** ﷺ **قال: «إذا قضىٰ الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة علىٰ صفوان -قال: علي، وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك- فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض -ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلىٰ من تحته، ثم يلقيها الآخر إلىٰ من تحته حتىٰ**

---

(١) أخرج الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٨٥٦٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أطفئوا الحريق بالتكبير**». ورواه الطبراني في الدعاء رقم (٢٩٣)، وعمل اليوم والليلة لابن السني ولفظه عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم الحريق فكبروا؛ فإن التكبير يطفئه**»، وهو في المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني رقم (٣٥٠٦)، «**إذا رأيتم الحريق فكبروا**»، وقال الحافظ: هذا مرسل حسن. قال ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ١٩٤): لما كان الحريق سببه النار وهي مادة الشيطان التي خلق منها وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله كان للشيطان إعانة عليه وتنفيذ له وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد، وهذان الأمران وهما العلو في الأرض والفساد هما هدي الشيطان وإليهما يدعو وبهما يهلك بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد وكبرياء الرب عز وجل تقمع الشيطان وفعله، ولهذا كان تكبير الله عز وجل له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله عز وجل لا يقوم لها شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر تكبيره في خمود النار وخمود الشيطان التي هي مادته فيطفئ الحريق، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك، والله أعلم.

(٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر علىٰ كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ثم يقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون. صدق الله وعده. ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**» رواه البخاري رقم (١٧٩٧)، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا. رواه البخاري رقم (٢٩٩٣).

يلقيها علىٰ لسان الساحر، أو الكاهن فربما أدرك الشهاب المسترق قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»(١).

قوله: «**في الصحيح**»: سبق أن هذا الأسلوب عنده رحمه الله يتكرر كثيرًا يقول في الصحيح، ويقصد الحديث الصحيح، وقد يقصد الكتاب، وهذا الحديث في الصحيحين.

قوله: «**إذا قضىٰ الله**»: القضاء هنا يقصد به الحكم الذي يحكم فيه، ويكون بالكلام، يأمر جبريل أن يفعل كذا وكذا، وهذا ظاهر أن الأمر يكون بكلامه جل وعلا، ومعلوم أن الأمر لا يكون إلا بالكلام، وقد بيَّن سبحانه الفرق بين الأمر والخلق، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق هو تكوين الأشياء وإيجادها بعد أن كانت عدمًا، والأمر بقوله الذي يحكم به، ويشرعه لعباده بأمره ونهيه.

قوله: «**في السماء**»؛ يعني: في السماء العلو، والسماء تطلق علىٰ السماء المبنية، وتطلق علىٰ العلو.

وقوله: «**في**»: يدل علىٰ أن معناه العلو، وليست هذه ظرفية حتىٰ تكون السماء ظرف لله سبحانه وتقدس، وليس هناك حاجة؛ لأن نقول إن: «في» هنا بمعنىٰ: «علىٰ» مع أن «في» تأتي بمعنىٰ علىٰ كثيرًا، مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، ومعلوم أن المقصود سيروا علىٰ الأرض، وقوله تعالىٰ في قصة فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وهذا كثير وحروف الجر قد تتناوب كثيرًا، وهذه من الأمور التي ينبغي علىٰ طالب العلم

(١) رواه البخاري رقم (٤٧٠١).

أن يطلع عليها، ويعرفها حتىٰ لا يلتبس عليه الأمر في ذلك.

والصوت المسموع هو صوت الله ﷻ خلافًا لأكثر شراح الحديث الذين يقولون: إن الصوت هو صوت السماء فهل يعقل أن السماء تسمع، صوت السماء يقولون: إنها تأخذها رعدة ورجفة من صوتها، هذا غير معقول ولا يصلح أن يكون في الكلام، ولهذا البخاري رحمه الله لما ذكر الآية ذكر الأحاديث التي تدل علىٰ أن لله صوتا مثل حديث أنيس ذكره تعليقًا قال: ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان**»(١)، وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلىٰ النار**»(٢) قال البخاري: «قالوا: ماذا قال ربكم؟ ولم يقولوا ماذا خلق ربكم؟»(٣)، فالمقصود أن البخاري بيَّن بالأحاديث أن المسموع الذي جاء أنه كأنه سلسلة، أنه صوت الله ﷻ، وهذا هو ظاهر الأحاديث، وهو الذي يدل عليه كلام شيخ الإسلام في مواضع متعددة، وهو الذي لا ينبغي أن يعدل عنه؛ لأنه ظاهر النص، وإن كان الحافظ ابن حجر، وابن بطال في شرحهما لصحيح البخاري يأبيان كل الإباء هذا، ويجعلان هذا من الباطل، والواقع أن هذا هو الحق؛ لأن الواجب علىٰ الإنسان أن يتعرف علىٰ مراد المتكلم ولا يحاول أن يجعل كلام المتكلم موافقًا لعقيدته التي نشأ عليها وأخذها عن مشايخه، وهذا هو الذي يحمل عليه صنيعهم، ولا نقول أنهم أرادوا مخالفة الحق، ولكن هذا الذي تبين لهم، وإن كان الحق خلاف ما قالوا، ودليلهم ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، ولفظ أبي داود

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٢) باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٨٣).

(٣) سبق تخريجه.

هو الذي تعلقوا به: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا** »[١]، فهذا هو الذي تمسكوا به ويجوز أن هذه الرواية بالمعنى، فكثير ما تروى الأحاديث بالمعنى كما سبق في حديث معاذ، وألفاظه كلها في الصحيح: «**إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي رواية «**أن يعبدوا الله**»، وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**» فلا يقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**يعبدوا الله، يوحدوا الله، يشهدوا أن لا إله إلا الله**»، بل هذا من تصرف الرواة يعبرون بما يرونه، ومثل حديث عمران الذي في صحيح البخاري أيضًا، وهو حديث فرد لم يروه إلا البخاري، وهو رواية واحده قال: عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: دخلت على النبي ﷺ، وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: «**اقبلوا البشرى يا بني تميم**». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**». قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: «**كان الله، ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض**». فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها[٢].

فهذا جاء فيه قوله: «**لم يكن شيء غيره**»، وفي لفظ: «**لم يكن شيء قبله**»[٣]، ولفظ آخر: «**لم يكن شيء معه**» هذا كله في الصحيح، فلا يقال: إن رسول الله ﷺ قال: «قبله، معه، غيره»، ولكنها ألفاظ مترادفة وكل واحد من الرواة عبر عنه باللفظ

---

(١) سنن أبي داود رقم (٤٧٣٨) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم**»، قال: «**فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق**».

(٢) رواه البخاري رقم (٣١٩١).

(٣) رواه البخاري رقم (٧٤١٨).

الذي حضره، وهو مرادف لما قاله رسول الله ﷺ والإشكال الذي وقع عندهم في قوله: «كأنه سلسلة» كاف التشبيه فهذا الذي منعهم بأن يقولوا: إنه كلام الله فهم يقولون: كيف يشبه كلام الله بجر السلسلة على الصفا مع اعتقادهم نفي الكلام الحقيقي عن الله تعالى، وأن كلامه معنى قائم بذاته نقول: إن المشبه هو الصوت المسموع لهم أي الملائكة سمعوا كلامًا لم يفهموه ولكنهم علموا أنه كلام الله ﷻ، فأراد الرسول ﷺ أن يبين لهم أن الذي سمعوا كلام الله، ولكنهم ما فهموه، ولهذا صاروا يسألون: ماذا قال ربنا؟ فهل يعقل أنهم إذا سمعوا صوت السماء، قالوا: ماذا قال ربنا؟ السماء تكون هي القائلة، ثم يسألون: ماذا قال ربهم؟ فهذا تشبيه الصوت بالصوت، وليس تشبيه المصوت به، وهذا تقريب للأذهان فقط فهو كقوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر**»(١).

وقوله: «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله»: خضعانًا: بفتحتين؛ يعني: خضوعًا وذلًا له تعالى، ويجوز أن تضم الخاء وتسكن الضاد؛ يعني: تضرب بأجنحتها خضعانًا وذلًا وعبادة وسكونًا له، وخوفًا منه مع عظمة الملائكة وكبرها، فكيف بابن آدم المسكين الضعيف المتكبر الذي يبارز ربه بالمعاصي وهو ينظر إليه، لا يمتثل أمره، وقد يفعل ما نهاه عنه مع ضعفه، لو أصيب بشوكة لوجدته ساهرًا متألمًا حياته قد تضطرب، فإذا انكسر ظفره، أو انكسر أصبعه، أو رجله يتألم ألمًا شديدًا، ومع هذا يبارز ربه بالمعاصي، ولا بد له من ربه ؛ لا بد أن يرجع إليه فيسأله عن فعله؛ لأنه خُلق للعبادة، خلقه الله ليعبده، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض.

والملائكة مع عظمتها تعرف الله، وكل من عرف الله ذل له وخضع، كما قال بعض السلف: من كان بالله أعرف، كان منه أخوف(٢). فهذه قاعدة مطردة، إلا من

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٥٤)، ومسلم رقم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله.

(٢) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٧٢٨)، أحمد بن عاصم الإنطاكي يقول: من كان بالله أعرف كان من الله أخوف، قال أحمد: صدق والله.

أزاغه الله؛ لأن الأمر بيد الله، فالشيطان يعرف ربه ﷻ ولكنه كفر؛ لأن الله أراد هذا، فالواقع أنه لا يمكن أن يقع شيء إلا بإذنه.

وكثير من العلماء يعرفون الله لكن معرفة محدودة، ثم يزيغون - نسأل الله العافية - ويؤثرون الدنيا، بل ويؤثرون طاعة المخلوق علىٰ طاعة الله وهذا كثير، والأمر بيد الله من استقام فالمنة لله ﷻ عليه يجب أن يعترف لله بفضله عليه، ويسأله أن لا يسلبه ذلك، ولهذا يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: في قوله تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧] فيه إشارة إلىٰ أنه، تعالىٰ يلين القلوب بعد قسوتها، ويَهدي الحَيَارىٰ بعد ضَلالتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال(١).

والملائكة خضوعها وذلها خوفًا من العذاب، مع أنهم يعبدون الله لا يفترون وألهموا التسبيح مثل ما ألهمنا النفس، ألهموا التسبيح والتهليل والتقديس مع عظمتهم، فقد رأىٰ الرسول ﷺ جبريل عليه السلام علىٰ صورته مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء، رآه في الأرض سد الأفق؛ يعني: سد السماء من كل جوانبها وهو فوقه له ستمائة جناح وهو الذي تعاديه اليهود بأنه يأتي بالعذاب فقلع مدائن قوم لوط، وكانت سبع مدائن بما فيها من أرضها بطرف أحد أجنحته اقتلعها من تخوم الأرض وطار بها إلىٰ أن صارت الملائكة الذين في السحاب يسمعون نبيح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها وجعل عاليها أسفلها، ثم أمطروا حجارة من سجيل.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢١).

وكذلك صاح في قوم صالح ثمود، صاح بهم صيحة فأخمدوا عن آخرهم، هذه هي الصيحة التي يذكرها ﷻ أنها أخذتهم مع هذه العظمة والقوة يخضع لله، حتىٰ قال رسول الله ﷺ عندما انتهىٰ مع جبريل إلىٰ سدرة المنتهىٰ وسما وقعد جبريل عليه السلام عندها قال : « فالتفت، فإذا جبريل عليه السلام كأنه حلس لاطئ [(١)] فعرفت فضل علمه بالله علي»[(٢)]. وهكذا الملائكة كلها تخضع لله، وتذل خوفًا من الله.

قوله: «لقوله»: خوفًا أن يكون قد أمر بقيام الساعة، فيخافون أن ينالهم شيء من العذاب، مع أنهم قاموا بالعبادة قدر المستطاع.

وقوله: «**كأنه سلسلة**»: الكاف كاف التشبيه؛ يعني: أنهم يُشبهون الصوت المسموع لهم؛ كأنه صوت سلسلة تجر علىٰ صفا، هذا الصواب فلا يجوز أن نحرف كلام رسول الله ﷺ عن مراده؛ لأن الرسول ﷺ هو أعلم بالله، وهو أعظم تقديرًا لله ﷻ فلا يظن بالرسول ﷺ أنه عبر عن الحق بما يوهم الباطل، وسلوك غير الحق.

وقوله: «**ينفذهم ذلك**»؛ يعني: الصوت ينفذهم كلهم؛ يعني: أنه يمضي فيهم، لا يخفىٰ عليهم يسمعونه كلهم. فهذا الصوت ينفذ في قلوبهم فيقعون مغشيًا عليهم خوفًا من الله ﷻ.

وقوله: «**حتىٰ** »: حتىٰ هنا قبلها كلام مقدر فهم من قوله: «حتىٰ»؛ يعني: أنهم إذا سمعوا ذلك صعقوا وأصبحوا صرعىٰ كأنهم ذاهبة عقولهم من شدة الخوف.

وقوله: «**فُزع عن قلوبهم**»؛ يعني: أُزيل الخوف عن قلوبهم الذي أصابهم من جرائه الصعق، وهكذا الإنسان إذا خاف الخوف الشديد صُعق وفقدَ شعوره. إذا زال ذلك، صاروا يسألون: «**ماذا قال ربكم؟**» يسأل بعضهم بعضًا.

---

(١) جمع حلس، وهو الكساء الذىٰ يلىٰ ظهر البعير تحت القتب شبهه به للزومه مكانه خضوعًا لله وذلًا له عليه السلام . انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤٢٣) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (ح٦٢١٤) (٦/ ٢١١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٦٨)-(٣٦٩) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (ح ٨٨٣) .

والملائكة بعضهم أقرب إلى الله من بعض، حتى ينتهي السؤال إلى من يتولى أمر الله الذي هو جبريل عليه السلام، فإذا انتهى إليه قال لهم:

«**قال الحق وهو العلي الكبير** »: وفي هذا دليل على أنه لا يخبرهم عما أمره الله به؛ لأنه قد لا يكون يخصهم ويعلمون أنه لا يقول: إلا الحق، فينتهون عند ذلك، وكلهم يقول مثل ذلك ، وهذا يدل على ذلهم وخضوعهم واتباعهم لأمر الله جل وعلا، فلما قيل لهم هذا القول: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فانتهوا إلى هذا فلم يبحثوا عن هذا القول، لماذا؟ لأن خوفهم منعهم من أن يسألوا أكثر من ذلك، ثم الذين يتحدثون بأمر الله الذي أنهاه جبريل عليه السلام إليهم هم الذين يكونون قريبًا من الأرض وليس الملائكة الذين في السماء؛ لأن الأمر هذا الذي سمعه جبريل أمرًا يكون في الأرض فيُرسل جبريل إليهم فيبلغهم ذلك، فهم إما في السحاب أو دون السحاب فيتحدثون فيما بينهم في أمر الله الذي ينفذونه، وتكون الشياطين التي تسترق السمع يركب بعضهم بعضًا حتى يصلوا إلى قرب الملائكة يتصنتون حتى يسترقوا كلمة من الملائكة، ثم يأخذونها بسرعة فيأتون بها إلى وليهم من الإنس (الكاهن)، والكاهن هو الذي له تابع من الشياطين.

وقوله: «**فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بن عيينه بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه**»: فقال هكذا يكون واحد فوق الثاني، والله أعطاهم هذه المقدرة لحكمة أرادها الله جل وعلا، ونزول الشهب هو من أجل ذلك، فإذا صاروا مثل ذلك، أُلقي عليهم الشهاب، وقد يقتلهم، وقد يذهب عقله، وقد يسلم، فهي مخاطرة فالشيطان يخاطر بهذا، كل ذلك حرصًا على إضلال الناس وكونه يحرقه، أو لا يحرقه كل هذا بأمر الله جل وعلا وركوب بعضهم فوق بعض ليس إلى السماء الدنيا، وإنما إلى العنان؛ أي: السحاب، فعن عائشة رضي الله عنها: أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع**

فتسمعه فتوحيه إلىٰ الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(١)].

قوله: «**فيسمع الكلمة فيلقيها إلىٰ من تحته، ثم يلقيها الآخر إلىٰ من تحته**»: فإذا سمعها القريب من الملائكة ألقاها لمن تحته خوفًا من أنه يُصاب قبل أن يذهب بها، ثم الذي تحته يلقيها علىٰ من تحته حتىٰ تصل إلىٰ من في الأرض فيذهب بها مسرعًا إلىٰ الكاهن فيلقيها بأذنه ويكذب معها مئة كذبة، فإذا حدث بالكذب واستُغرب قال الناس: «أليس قد قال لنا: يوم كذا كذا»، فوقع مثل ما قال: «**فيُصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء**» فيصدقون الكذب الكثير لأجل هذه الكلمة الواحدة التي سُمعت من الملائكة، وفي هذا دليل علىٰ أن الإنسان مجبول علىٰ تصديق الكذب، وأن الحق يكون ثقيل عليه، وهذا عام في الخلق والواقع يشهد لهذا.

والشهب: شظايا تنطلق من النجوم، والنجوم لا تزول عن أماكنها ولا تسقط. والله جعل النجوم زينة للسماء ورجومًا للشياطين يُرجمون بها، وهذا في الشيء الذي لا يُرىٰ من النجوم، أو أنها شظايا تنطلق منها. ولهذا لما بُعث الرسول ﷺ شددت الحراسة فأصبح الشياطين لا يصلون إلىٰ السماء كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]، هذا الذي يقوله مؤمن الجن، والإنس شعروا بها فالعقلاء من العرب صاروا يقولون: انظروا إذا كان الرمي بالكواكب المعروفة الثابتة فمعنىٰ ذلك أن هذا إيذان بزوال الدنيا وذهابها وإتيان الآخرة، وإن كان من غيرها، فهو لأمر حدث، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الجن يصعدون إلىٰ السماء يسمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعًا، فأما الكلمة فتكون حقًا، وأما ما زاد فيكون باطلًا، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمي بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائمًا يصلي بين جبلين أراه قال بمكة

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٢١٠).

فأتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض[١].

وجاء في المسند عن ابن عباس قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا يرمىٰ بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضىٰ أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتىٰ يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا حتىٰ يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلىٰ أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به علىٰ وجهه، فهو حق ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون**»[٢]، وهذا يدل علىٰ أن النجوم مسخرة، وليس لها تصرف كما يزعمه المنجمون من أنها تدل علىٰ النحوس، أو السعود، وأن من ولد في برج كذا فإنه يكون كذا أو كذا، هذا كذب وضلال، وقد أخبر الله ﷻ عن الحكمة من خلقها، وأنها لثلاثة أشياء:

زينة للسماء، وعلامات يهتدىٰ بها السائر في البر والبحر، ورجومًا للشياطين[٣].

كل هذا حتىٰ لا يأخذ الشيطان شيئًا من القرآن، ومن الوحي فيلقيه علىٰ الكاهن فيتكلم به، فيقول الناس هذا الذي جاء به محمد مثل ما يقول الكاهن، أما بعد وفاة الرسول ﷺ فإن الأمر رجع إلىٰ ما كان عليه قبل البعثة، فكان قبل بعثته يرمىٰ بالشهب والآن يرمىٰ بها لنفس الغرض كما جاء في حديث عبد الرحمن بن

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي في الكبرىٰ رقم (١١٦٢٦).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٢٢٩)، وأحمد في المسند رقم (١٨٨٢).

(٣) رواه البخاري في باب النجوم عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] خلق هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجومًا للشياطين وعلامات يهتدىٰ بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به.

حصين السابق.

قوله: «حتىٰ يلقيها إلىٰ الساحر أو الكاهن»: هذا شك من الراوي، الساحر له قرين من الجن، والكاهن كذلك كلاهما بواسطة الشياطين، ولكن المقصود بالساحر هنا هو الساحر الحقيقي؛ لأن السحر له معانٍ كثيرة، وهو أنواع فمنها ما لا يكون إلا بواسطة الشياطين يتعاون الشيطان مع النفوس الخبيثة فيقع الأذىٰ علىٰ المسحور بإذن الله الكوني القدري.

أما الكاهن فهو الذي يخبر بالمغيبات، هكذا يُطلق علىٰ هؤلاء، والعرب كان عندهم كهنة، والكاهن لا بد له من شيطان يكلمه ويخاطبه يسمع خطابه، وهذا كثير جدًا عند العرب، وكانوا يفخرون بالكهنة، إذا كان لأحد القبائل كاهن افتخروا بذلك ورجعوا إليه، ولا يزال الكهان إلىٰ الآن يوجدون؛ لأن الشياطين تطلع علىٰ الأشياء التي لا يطلع عليها الإنسان، وعندهم المقدرة بكونهم يقطعون المسافات الشاسعة بوقت قصير وعندهم الاستطاعة بكونهم يركب بعضهم فوق بعض ويصلون إلىٰ العنان «السحاب» بدون صواريخ ولا طائرات يصعدون بأنفسهم، ولهذا لما قال سليمان عليه السلام لجلسائه وكانوا أعيان الإنس وملوك الجن قهرهم بأمر الله، قال لهم: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] سليمان كان في بيت المقدس، وبلقيس كانت في اليمن مسيرة شهر، أخبره بأنه يأتيه بعرشها هو الكرسي الذي كانت تجلس عليه: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل: ٣٩]، ولكن: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وهذا من أعجب الأشياء قال العلماء[1]: الذي عنده علم من

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٩٢) قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان. وكذا رَوَىٰ محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صدّيقًا يعلم الاسم الأعظم. وعن قتادة، قوله: «قال: الذي عنده علم من الكتاب»، «وكان رجلًا من بني إسرائيل: اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب» تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ١٣٧).

الكتاب هو الذي يعرف اسم الله الأعظم فدعا لله باسمه الأعظم فحضر بلحظة.

قوله: «فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيه»؛ يعني: أدركه فقتله، وقد يصيبه فيصبح مصابًا، وقد يُزيل عقله يصبح لا عقل له، وقد يسلَم، فهي مخاطرة، وهم يعرفون هذا، فهذا يدلنا علىٰ حرصهم علىٰ إغواء بني آدم؛ لأن الكهان يغوون خلقًا كثيرًا، فإذا استولوا عليهم معنىٰ ذلك أنهم استولوا علىٰ خلق كثير من بني آدم، ولهذا يحرصون علىٰ هذا.

قوله: «**فيكذب معها مئة كذبة**»: الضمير يصلح أن يعود إلىٰ الشيطان، ويصلح أن يعود إلىٰ الكاهن، أي: الكاهن يكذب مئة كذبة، أو الشيطان يكذب للكاهن مئة كذبة، وقد يكون كل واحد منهما يكذب وليس ذلك ببعيد. فإذا جاء الكذب الظاهر وتداوله الناس، أنكره أكثر الناس، فإذا أنكروه احتج عليهم غيرهم بقولهم: قد قال لنا يوم كذا كذا وكذا فصار صدقًا فيُصدق بهذه الكلمة الواحدة؛ تصدق بها مئة كذبة.

قال المؤلف رحمه الله عن النَّواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أرد الله أن يُوحِيَ بالأمرِ تكلَّمَ بالوَحي، أخذَتِ السماوات منه رَجفةٌ، أو قال: رِعْدَةٌ شديدةٌ خوفَ أمرِ الله، فإذا سمِعَ بذلك أهل السماوات صَعِقوا وخرُّوا لله سجَّدًا فيكون أول من يرفع رأسَهُ جَبرائيل فيكلمُه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبرائيل علىٰ الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟ فيقول جبرائيل: قال الحقَّ وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل، فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»(١).

في هذا الحديث ما ليس في الحديث الأول، فيه: «**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي**»، وهو صريح بأن أمره يكون بالكلام، وهو من أعظم الأدلة علىٰ

---

(١) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٢٢/ ٩١) وابن خزيمة في "التوحيد" (٢٠٦)، وابن أبي عاصم في "السنة" (٥١٥)، والآجري في "الشريعة" (٢٩٤)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٢).

إبطال دعوىٰ الذين ينكرون كلام الله، ومنهم الأشاعرة الذين يقولون إن الكلام هو معنىٰ واحد يقوم بالنفس، ومعلوم أن المعنىٰ لا يُسمع ولا يكون له أثر، هذا الحديث صريح بأن الله ﷻ يتكلم، وأن كلامه يتعلق بإرادته، إذا أراد أن يتكلم تكلم، فهو فعال لما يريد، وبهذا استدل أهل السُّنَّة بأن كلام الله يتجدد، وأنه يقول الشيء الذي ما سبق أن قاله وأنه متعلق بإرادته إذا شاء أن يتكلم تكلم، وهذا يكون في الماضي والمستقبل، أما الماضي فلا يجوز أن يحد بوقت من الأوقات، فلا يجوز أن نقول إنه كان غير متكلم، ثم صار يتكلم، فهذا وإن كان يقوله كثير من الناس فهو من أبطل الباطل، وكذلك في المستقبل وفي الحال، فإذا الكلام يتعلق بمشيئته في الماضي والحال والمستقبل دائمًا متعلق بمشيئته وهو داخل في قوله ﷻ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وهذا الوصف لا يجوز أن يكون إلا لله ﷻ هو الذي إذا أراد شيئًا فعله -تعالىٰ وتقدس-.

وهذه المسألة تتعلق بمسألة التسلسل المعروفة التي كثير من الناس إما أنهم لم يفهموها فأصبحوا يشنعون علىٰ من يقولها كما يقول الحافظ ابن حجر في فتح الباري يقول: «هذه المسألة من أشنع ما روي عن ابن تيمية وذكر له»، كيف صارت هذه المسألة من أشنع ما روي عنه؟ لأنهم يتصورون أن القول بتسلسل الحوادث أنه قول بقدم العالم هذا هو الذي يتصورونه، والحوادث هي الحوادث المحدثة والمتكلمون يقسمون التسلسل إلىٰ قسمين:

قسم ممتنع عقلًا وفطرة وشرعًا بالإجماع، وهو التسلسل في المُحْدِثين؛ يعني: أن كل محدِث قبله محدث إلىٰ ما لا نهاية، فهذا باطل قطعًا؛ لأن المحدث هو الله ﷻ، وهو أول بلا بداية ليس له مبدأ كما أنه آخر بلا نهاية: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

والقسم الثاني: وهو التسلسل في المحدثات، أي الحوادث (المخلوقات): وهذا القسم للناس فيه ثلاث مذاهب:

الأول: أنه جائز في المستقبل دون الماضي، وكثير من الناس يزعم أن هذا هو مذهب أهل السُّنَّة وليس كذلك، والسبب في هذا أنهم وجدوا في كتاب الله والأحاديث أن الجنة لا نهاية لها، والنار كذلك، وأهلها، فهذا في المستقبل بلا نهاية، ومعلوم أن جميع أفعال المخلوقات، ووجود المخلوقات هو الحوادث المقصودة.

الثاني: أن التسلسل ممنوع في الماضي والمستقبل وهذا ينسب إلىٰ بعض المعتزلة مثل: أبي الهذيل العلاف، وأصحابه وهذا هو الذي بني عليه فناء الجنة والنار، وإن كان هو يقول إن الجنة لا تفنىٰ، والنار تفنىٰ، وإنما تفنىٰ الحركات، وابن القيم(١) لما ذكر هذا في النونية صار يتهكم به، قال معناه أن أصحاب الجنة إذا تناول أحدهم قطفًا من العنب ففتح فاه، يبقىٰ فاه مفتوحًا أبدًا، وإذا مد يده تبقىٰ ممدودة أبدًا، وهكذا وهذا باطل.

الثالث: أن تسلسلها في الماضي والمستقبل، وهذا هو الذي يدل عليه قول البخاري، وهو الذي قال به أبو سعيد الدارمي في رده علىٰ الجهمية، وعلىٰ بشر

---

(١) قال رحمه الله:

وتلطف العلاف من أتباعه ... فأتىٰ بضحكة جاهل مجان
قال الفناء يكون في الحركات لا ... في الذات واعجبًا لذا الهذيان
أيصير أهل الخلد في جناتهم ... وجحيمهم كحجارة البنيان
ما حال من قد كان يغشىٰ أهله ... عند انقضاء تحرك الحيوان
وكذاك ما حال الذي رفعت يدا ... ه أكلة من صحفة وخوان
فتناهت الحركات قبل وصولها ... للفم عند تفتح الأسنان
وكذاك ما حال الذي امتدت يد ... منه إلىٰ قنو من القنوان
فتناهت الحركات قبل الأخذ هل ... يبقىٰ كذلك سائر الأزمان
تبًا لهاتيك العقول فإنها ... والله قد مسخت علىٰ الأبدان
تبًا لمن أضحىٰ يقدمها علىٰ الـ ... آثار والأخبار والقرآن

المريسي، وكذلك قول الإمام أحمد في رده علىٰ الزنادقة يدل كلامه علىٰ هذا، وليس المعنىٰ أن هذا الكون المشاهد قديم، فحديث عمران بن حصين قوله: «نسألك عن هذا الأمر»[1] عن شيء مشار إليه مثل المخلوقات السماء والأرض، ولا شك أن هذه كانت بعد أن لم تكن، ولكن هل يقال: إنه لم يكن قبلها شيء، نقول هذا هو الذي لا يجوز بل الله لم يزل يفعل ما يشاء ليس شرطًا أن نعرف نحن هذا؛ لأن عقولنا قاصرة، وأفكارنا محدودة لا يمكن أن تحيط بشيء من صفات الله ﷻ، ولكن المبدأ في هذا أن نقول إن الله لم يكن معطلًا عن الفعل، ثم صار يفعل بعد أن لم يفعل، فالله لم يزل يفعل ما يشاء، هذا هو المقصود والأمر الذي يترتب عليه باطل فهو باطل.

قوله: «إذا أراد الله»: الإرادة معروفة أنها إرادة الفعل، فهي الباعث علىٰ ما يفعله، وإرادة الله تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: إرادة أمرية دينية شرعية كقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهذه لم تقع للناس كلهم لكن لمن قبل أمر الله، فهم الذين يسرهم لليسرىٰ وجنبهم العسرىٰ، ولهذا فهي تتعلق بالأمر فقط بأمر الله ﷻ.

القسم الثاني: إرادة كونية قدرية، والكونية القدرية تدخل فيها الدينية.

قوله: «أن يوحي»: والوحي هو: الإعلام بخفية، يُعلم بالشيء بخفاء، وأمره يخفىٰ علىٰ أكثر الناس، والوحي ينقسم إلىٰ أقسام:

القسم الأول: قد يقصد به الإلهام، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]؛ يعني: ألهمها، وليس وحيًا يُكلمها به، ومثل الوحي إلىٰ أم موسىٰ فهو إلهام يلهمها الله إياه.

---

(١) سبق تخريجه.

القسم الثاني: يقصد به الكلام، وهذا إما أن يكون من وراء حجاب مثل كلامه لموسىٰ وكلامه لآدم، ومحمد ﷺ في ليلة المعراج بدون واسطة لكنه من وراء حجاب.

القسم الثالث: أن يكون بواسطة الملك وهو جبريل عليه السلام، وهو الذي يأتي إلىٰ الرسل، وهو السفير بين الرسل وبين الله جل وعلا في جميع الرسل.

القسم الرابع: أن يكون بنفث في الرُّوع، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ فدعا الناس فقال: «**هلموا إلي**»، فأقبلوا إليه فجلسوا، فقال: «**هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في رُوعي أنه لا تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها، وإن أبطأ عليها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته**»[1].

قوله: «**تكلم بالوحي**»: وهذا واضح في أن كلامه يسمع، ففيه الرد علىٰ الأشاعرة الذين يقولون: إن الكلام الذي يجب أن يُوصف الله به هو المعنىٰ القائم بنفسه فقط، أما كلام يُسمع فهذا ممتنع؛ يعني: الكلام الذي يكون بحرف وصوت؛ لأن المسموع لا بد أن يكون بحرف وصوت فهذا عندهم ممتنع ويجعلونه مخلوقًا، ولهذا السبب هم يقولون: إن القرآن عبارة عن كلام الله والذي عبر هو الملك الرسول ويستدلون علىٰ هذا بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، فأضاف القول إليه، **فالجواب عن هذا إن يقال**:

إن الكلام جاء مرة مضافًا إلىٰ الرسول الملكي، وجاء مرة مضافًا إلىٰ الرسول البشري، وإضافته إلىٰ واحد منهما يمنع إضافته إلىٰ الآخر، فدل علىٰ أن نسبة القول له؛ لأنه مبلغ عن الله، وليس هو الذي أنشأه، ومعلوم أن القول يضاف لمن قاله مبتدأً،

(١) أخرجه البزار رقم (٢٩١٤).

وليس لمن قاله مبلغًا، والله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، وهو يسمع كلام الله من المبلغ الذي يبلغ عن الله ﷻ، ولهذا قال في سورة الحاقة لما ذكر الرسول البشري: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣]، فنصَّ على أنه تنزيل من الله، ثم قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]؛ لأنهم يعرفون أن الأخذ باليمين أقوى وأشد، وإن كان الله ﷻ لا يوصف بأن يده الأخرى ضعيفة -تعالى وتقدس-، ولهذا جاء عن الرسول ﷺ قوله في قصة آدم: «**اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين**»(١)؛ يعني: قوية تامة كاملة لا يلحقها نقص كيد المخلوق، فيد المخلوق اليسار أضعف من اليمين، وقوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥]؛ يعني: بالقوة التي لا هوادة فيها، فهم يفهمون أن الأخذ باليمين هو أشد وأقوى، ومن هذا يتبين لنا قول بعض المتأخرين: إن ذكر الشمال لا يجوز، ولا يجوز أن نصف ربنا بأن يده شمال، وما ثبت في صحيح مسلم في قوله ﷺ: «**يطوي الله ﷿ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(٢) يقول: إن هذا شاذ، وكذلك جاء في غير مسلم(٣) نقول إن هذا باطل، فالشذوذ يكون لما خالف غيره، وهذا ليس فيه شيء يخالف، والمشكلة تأتي من الفهم، يتصور أن معنى قوله: «**كلتا يديه يمين**» أنها

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٦٨) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٢١٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، فقد احتج بالحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، وقد رواه عنه غير صفوان وإنما خرجته من حديث صفوان لأني علوت فيه. وله شاهد صحيح. وقال الذهبي: على شرط مسلم. وأخرجه البيهقي رقم (٢١٠٢٥)، وأبو يعلى في مسنده رقم (٦٥٨٠).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر ﭭ.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط رقم (١٣٣١)، وأبو يعلى في مسنده رقم (٥٥٥٨).

من جانب واحد -تعالىٰ وتقدس-، فهذا لا يجوز أن يفهم هذا شوهة - نسأل الله العافية -، ومعلوم لكل مسلم أن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالله، وأعظمهم تقديرًا لله، فلا يجوز أن يعبر الرسول ﷺ بشيء فيه من تنقص لله ﷻ، فإذا قال الرسول ﷺ قولًا وجب علينا أن نقبله، ولكن يجب أن يصان عن الفهوم الفاسدة والآراء التي تكون قاصرة.

وقوله: «**إذا تكلم بالوحي أخذت السماوات**»: السماوات مفعول به، و«**رجفة**» فاعل؛ يعني: أن السماوات تصيبها رجفة أو قال: «**رعدة شديدة**»، هذا أيضًا محل الشاهد للباب، فإذا كانت السماوات علىٰ كبرها وعظمتها تخاف من الله هذا الخوف الشديد وهي السماوات، ألا يخاف الذي يدعو غير الله الذي يدعو ميتًا رميمًا تحت أطباق الثرىٰ لا يستطيع أن يدفع الدود عن جسده، ولا يستطيع أن يمحو سيئة من صحيفته، ولا يزيد حسنة في صحيفته ومع هذا يدعوه يقول: اشفع لي أو أعطني كذا، أو فلان ظلمني، أو ما أشبه ذلك كما هو الواقع في كثير من بلاد المسلمين وللأسف.

أو يأتي مثلًا إلىٰ من هو معظم، قد عظمه الله ﷻ، وأعظم من هو معظم الملائكة كما سمعنا، فيأتي إلىٰ الرسول فيدعوه ويستنصره يقول مثلًا: أمتك هُضمت وظُلمت فانتصر لها، وهذا - نسأل الله العافية - كثير في الناس، والسبب في توجههم إلىٰ هذه الأمور أنهم لم يقدروا الله حق قدره، ولم يعلموا عظمة الله ﷻ فجعلوا شيئًا من حقوق الله وصفاته للمخلوق.

وقوله: «**رجفة**»، أو قال «**رعدة**»: المعنىٰ واحد، ولكن يظهر أن هذا شك من الراوي، يعني: هل قال الرسول ﷺ «**رجفة**»، أو «**رعدة شديدة**»؟ ثم بيَّن السبب من الرجفة أو الرعدة أنه الخوف من الله، ومعلوم أن السماوات جماد فلا نعلم نحن ما هي مادة السماء خلاف الأرض التي هي تراب وحجارة ومياه، فالسماء ما رأيناها هل هي مثل الأرض أو من نوع آخر؟ كما يقول بعض الناس: إنها من جواهر

أخرىٰ، فهذا لا يضيرنا ولا يهمنا، ولكن نقول إنها جماد مثل الجبال، ومثل الشجر فهي من هذه الأشياء، فهذا معناه أن الجمادات لها إحساس فإنها تخاف، ولهذا قال ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وهذا يجب أن يكون علىٰ ظاهره؛ يعني: أنه لو وجه هذا القرآن إلىٰ هذه الجبال لصارت بهذه الصفة، ولكنه مخاطب به أناس قلوبهم أعظم قساوة من الجبال وهم غافلون عن هذا، وهم لا يتأثرون به لأجل الغفلة وطول الأمل، وأنه سيبقىٰ ويفكر فيما بعد، ثم يفاجأ الإنسان الموت وهو في غفلة، فالواجب علىٰ الإنسان أن يكون أجله بين عينيه دائمًا، وأن وقته الحاضر هو الذي يستغله، وهو الفرصة؛ لأن الماضي انتهىٰ لا حيلة فيه لك إلا إذا وفقك الله بالتوبة والاستغفار مما مضىٰ، والوقت الحاضر والمستقبل غيب أمره إلىٰ الله لا تدري أنت تدركه أو لا تدركه، فالمقصود أن السماوات تخاف من الله، وقد أخبر الله ﷻ عنها كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكثيرًا ما يأتي في القرآن أن ما في السماوات وما في الأرض يسبح لله، والقول الصحيح أن التسبيح بالقول والفعل ليس بالحال؛ لأن بعض الناس يقول تسبيح حالي، معناه أن العاقل إذا نظر إليها سبَّح الله؛ لأنها تدل علىٰ وجود الله فهذا بعيد، الأول هو الصحيح وهو الذي يدل عليه الكلام.

قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات»: أهل السماوات سكانها الذين يُعمرونها، والسماوات فيها سكان كثير علىٰ سعتها، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: **«إني أرىٰ ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون. وإن السماء أطت وحق لها أن تئط. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرشات، ولخرجتم إلىٰ**

الصعدات تجأرون إلىٰ الله»(١)، والأطيط هو التصويت من الثقل، يقولون: أطَّ الرحل، والرحل هو الخشب الذي يهيأ ويصنع ويوضع علىٰ البعير، ثم يحمل عليه، فإذا كان الحمل ثقيل صار له صرير الذي هو الأطيط، فمعنىٰ هذا أنها مملوءة من الملائكة، وهم خلقوا لعبادة الله وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يفترون من العبادة، ولا يسأمون منها دائمًا وأبدًا، مع أن فيهم من الملائكة من هو موظف في شئون بني آدم، فالإنسان معه أربعة ملائكة اثنان في الليل واثنان في النهار، وهؤلاء دائمًا معه، ثم إذا مات لا يذهبون إلىٰ غيره يحفظون أعمالهم إما أن يستغفروا له أو يكونوا حيث شاء الله ﷻ، وهؤلاء غير الحفظة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] هذه المعقبات تحفظه ما دام أجله لم يأت، فإذا جاء الأجل تخلَّوا عنه ومضىٰ أمر الله فيه، وهم يعمرون السماء وعمارتها بالعبادة، وحتىٰ الأرض عمارتها بالعبادة والإفساد في الأرض هو بالمعاصي: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وإصلاحها بالرسل الرسل يأتون للإصلاح في الأرض، وأهل المعاصي يفسدون فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

قوله: «صعقوا»؛ يعني: أصابتهم الصعقة، والصعقة هي أن يسمع الإنسان صوتًا مزعجًا فيفقد حسه، ويفقد عقله، ويزول من شدة هذا الفزع، وهذا يقع

---

(١) أحمد في المسند رقم (٢١٥١٦)، والترمذي رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه رقم (٤١٩٠) من حديث أبي ذر ﷺ، وأخرج الطبراني في المعجم الكبير رقم (١٧٥١) عن جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئًا**»، قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير وفيه عروة بن مروان. قال الدارقطني: ليس بقوي في الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح. جامع الأحاديث للسيوطي (٩/ ٦٩).

للإنسان كثيرًا.

قوله : « **وخروا لله سجدًا**»: هل مع الصعق يخرون لله سجدًا؟ وكيف مع الصعق يخرون سجدًا؟ لأن السجود يدل علىٰ إرادة؛ يعني: إرادة السجود، أما الصعق فلا، فهو يُصاب بشيء لا إرادة له فيه وهو فقدان الحس، ومعنىٰ هذا أنهم يُصعقون، ثم يزول الصعق، ثم يسجدون لله، والواو لا تدل علىٰ الترتيب، وإنما تدل علىٰ الجمع فقط، فإذا زال الصعق سجدوا لله؛ لأنهم علموا أنه كلام الله ﷻ تكلم به.

والأزهري في تهذيب اللغة تكلم عن هذه الآية، فجعل هذا خاصًا لما تكلم بالوحي الذي أوحاه إلىٰ محمد؛ لأن الوحي قد انقطع فلما تكلم به أصابهم هذا الخوف الشديد خوفًا من أنها الساعة، وأنه ﷻ أمر بقيام الساعة، وهم يخافون من قيام الساعة؛ لأن العذاب يحق ولا بد أن يقضي بينهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩]، معناه أنهم يحاسبون، فهم يخافون من عذاب الله ﷻ، وقد قال الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام: «**ما لي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار**»(١)، فلما خلق الله الجن والإنس أمنت الملائكة شيئًا من ذلك؛ لأنهم هم وقودها(٢).

---

(١) أحمد في المسند رقم (١٣٣٤٣).

(٢) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعرًا شديدًا، وقالوا: ربنا لم خلقت هذه النار؟ ولأي شيء خلقتها؟ قال: لمن عصاني من خلقي. قال: ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، إنما خلق آدم بعد ذلك، وقرأ قول الله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ليت ذلك الحين. ثم قال: قالت الملائكة: يا رب، أو يأتي علينا دهر نعصيك فيه!- لا يرون له خلقًا غيرهم- قال: لا إني أريد أن أخلق في الأرض خلقًا ... » تفسير الطبري (١/ ٤٦٦).

فالمقصود أنه لما زال عنهم الصعق خروا لله سجدًا، والخرور يكون من قيام ومن جلوس.

قوله: «**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل**»: هذا يدل علىٰ أن جبريل أيضًا يصيبه ذلك، ثم يسجد لله خوفًا من الله خضعانًا له فيكون أول من يرفع رأسه من السجود؛ لأن الله يكلمه ويأمره بالوحي بما أراد.

قوله: «**ثم يمر جبريل علىٰ الملائكة**»: يعني: أنه يمضي بأمر الله، فيمر علىٰ الملائكة الذين في السماوات، والسماوات كما هو معلوم متفاوتة في العلو.

قوله: «**كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟**»: فكلما مر علىٰ أهل سماء سألوه، فهذا فيه دليل علىٰ أن الكلام سمع في السماوات كلها الذي مر معنا أنه كجر السلسلة علىٰ الصفوان، وجبريل عليه السلام لا يخبرهم «**فيقول: قال الحق**» فقط، ومعلوم أن الله لا يقول إلا حقًا وينتهون عند هذا، ففيه دليل علىٰ انقيادهم وطاعتهم، وأنهم لا يسألون عن الشيء الذي لا يُعنون به، ولكن خافوا أن تكون القيامة، أو غير ذلك. ثم يقولون مثل ما قال: «قال الحق وهو العلي الكبير».

العلي: العالي ذاتًا، والعالي قدرًا، والعالي قهرًا، فالعلو له ثلاث معاني:

علو الذات: وهو الارتفاع، فهو أعلىٰ من كل شيء وليس فوقه شيء جل وعلا، ومعنىٰ ذلك أنه دائمًا في العلو حتىٰ في نزوله كما أخبر عليه الصلاة والسلام يقول: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[1]، فنزوله وهو عال علىٰ عرشه؛ لأن نزوله وأفعاله لا يجوز أن تكون شبيهة بنزول وأفعال المخلوقين، فالمخلوق إذا كان فوق السطح، ثم نزل فلا بد أن يكون السطح فوقه، والله جل وعلا ليس بحاجة للعرش

---

(١) رواه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا لغيره، وهو الغني بذاته عن كل من سواه، ولكنه خلق العرش لحكمة أرادها واستوىٰ عليه، وإلا فهو العلي الأعلىٰ.

وعلو القدر: فهذا لا يكون إلا في قلوب عباد الله الذين يعرفونه، وهم يتفاوتون فيه، فمنهم من تكون معرفته تامة مثل الرسل والملائكة، ومنهم من تكون أدنىٰ من ذلك فهي متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، ولهذا تجد كثيرًا من الناس لا يمتثل أمر الله ولا يتورع أو يمتنع عن معصيته؛ لأنه لم يعرف عظمة الله ﷻ، ولهذا يقول كثير من العلماء : المعاصي ليس فيها كبير وصغير كلها كبيرة بالنظر إلىٰ مخالفة أمر العظيم فهو عظيم، ومخالفة أمره وإن كان صغيرًا فهو كبير، ولكن الصحيح أن المعاصي فيها كبير وصغير لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

والمعنىٰ الثالث للعلو: علو القهر، فهو قاهر فوق خلقه بمعنىٰ أن حكمه وأمره القدري ماضٍ في الكون كله، ولا يمكن أن يمتنع عنه أحد، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

"عبدًا" بمعنىٰ: ذليل خاضع، وليس عبداً بمعنىٰ: عابد؛ لأن هذا يكون يوم القيامة كلهم خاشعين، لا يرفع الإنسان طرفه خوفًا من الله، ولكن هذا لا ينفع؛ لأن هذا صار بعد المعاينة والمشاهدة، وأما الإيمان بالغيب لما كان يُطلب منهم ما كان حصل منهم.

قوله: «فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل»: هذا يدلنا علىٰ حسن استسلامهم، وامتثالهم واتباعهم لأمر الله ﷻ، فليس عندهم طلب من الفضول، خوفًا من الله ﷻ.

ثم يقول: «فينتهي جبريل بالوحي إلىٰ حيث أمره الله ﷻ»؛ يعني: أن هذا الذي تكلم به هو الوحي، أمر جبريل ﵇ أن يذهب به.

والمقصود بهذا بيان عظمة الله ﷻ، وأن المخلوقات العظيمة من السماوات والملائكة تخاف أشد الخوف بمجرد ما تسمع كلامه وترتجف ويأخذها الخوف الشديد، فكيف يسوغ لعاقل أن يدعو غير الكبير المتعال جل وتقدس، ولهذا كانت دعوة غير الله من أعظم الضلال، ويترتب عليها الخلود في النار؛ لأنه أظلم الظلم، إذ وضع ما هو حق لله ﷻ في مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضرًا فهذا انتكاس في العقل والشرع فاستحق بذلك أشد العقاب - نسأل الله العافية -، وكل هذا يدعو العبد أن يتأمل حاله ويفكر هل قام بأمر الله علىٰ الوجه المطلوب؟ فيدعوه إلىٰ الاجتهاد، وإلىٰ الخوف من الله ﷻ، إذا كان المقربون إلىٰ الله الذين لا يعصون الله طرفة عين يخافون منه هذا الخوف الشديد، فكيف يتجه من عنده عقل إلىٰ غير خالق السماوات والأرض فيدعوه ويلتجئ إليه، وهو لا ينفع ولا يضر، ولا بد للعبد من الرجوع إلىٰ الله فيجب أن يراقب نفسه وأن يحاسبها، ويتفقد عمله هل هو خالص لله ﷻ؟ وهل هو علىٰ الوجه المطلوب، علىٰ ما جاء به النبي ﷺ؟ فإذا كان كذلك فليستبشر فإن الله جواد كريم يجزي علىٰ القليل الكثير، كما أنه إذا اعترف العبد بتقصيره ورجع فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

۞ **الأولى: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصًا ما تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.**

هذا قاله ابن القيم: يقول إذا أعملت هذه الآية فإذا هي تقلع عروق شجرة الشرك من القلوب؛ لأنه إذا نظرت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، يقول: لأن المفترض أن المدعو يملك الشيء الذي يُدعىٰ من أجله، فإذا كان لا يملك فهل تنفع دعوته شيئًا ؟ فأخبر الله ﷻ أن المدعوين

لا يملكون شيئًا ولا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فإذا انتفىٰ الملك انتفىٰ دعاؤهم ، ولكن يبقىٰ احتمال أنهم لا يملكون استقلالًا، ولكن لهم شرك مع المالك فنفىٰ هذا الاحتمال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

ويبقىٰ احتمال ثالث وهو أنهم لهم معاونة، ومساعدة، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ فهم لا يملكون لا استقلالًا ولا شركًا، وليس لهم معاونة ومؤازرة مثل: ملوك الدنيا فيبقىٰ احتمال رابع: وهو الشفاعة؛ يعني: أنهم يشفعون فأخبر الله أن الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

فصارت هذه الآية تنفي تعلق المشركين بجميع أنواعه، وهذا هو السبب في قوله أنها تقلع عروق شجرة الشرك، ولكن لمن فهم، وفي كتاب الله من هذا النوع كثير، والآية والأحاديث تدل علىٰ ثبوت الشفاعة، **وأن الشفاعة قسمان**: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

ولكن المعتزلة والخوارج ينفون الشفاعة، وليس كل الشفاعة ينفونها، ينفون الشفاعة لأصحاب الكبائر سواءً الذين دخلوا النار، أو الذين لم يدخلوها بعد، فكل من مات علىٰ كبيرة فهو في النار عندهم ولا تنفعه الشفاعة؛ لأن الله أخبر أن يوم القيامة لا تملك نفس لنفس شيئًا، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وما أشبه ذلك هذه هي أدلتهم فأخبر أن الشفاعة لا تنفع الظلمة، وأما من مات علىٰ كبيرة فلا تنفعه الشفاعة فهو في النار، ولكن الخوارج يكفرونه في الدنيا ويحكمون عليه بالخلود في النار، والمعتزلة يحكمون عليه بالخلود في النار ولا يكفرونه في الدنيا، يقولون: صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين بين الإيمان والكفر، وهذه هي التي اختصوا بها من بين الطوائف.

الثانيــة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

يعني: أن الله قوله حق، ومعنىٰ الحق: الثابت المتيقن الذي لا يزول ولا يتطرق إليه الباطل، فالحق خلاف الباطل، الباطل يتضعضع ويزول ويضمحل ولا بد وإن كان له صولة في أول الأمر، ولكنه في النهاية لا يثبت: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، ما يبدئ؛ يعني: ليس له مبدأ وثبوت، وليس في آخريته ثبوت بل هو مضمحل، ولهذا جاء في استفتاح النبي ﷺ في صلاة الليل: «**أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة، حق**»(١)؛ يعني: شيء ثابت لا بد منه، وواقع لا بد منه، خلاف الباطل فإنه لا يثبت.

الثالثــة: سبب سؤالهم عن ذلك.

لأنهم سمعوا كلامًا لم يفهموه وخافوا أن يكون الأمر بقيام الساعة قاله الأزهري هذا هو السبب.

الرابعــة: أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال كذا وكذا».

يعني: قال الحق، وهذا معناه أنه شيء مسموع، هذا هو المقصود أنه كلام مسموع، فالله كلامه يسمع، فإذا كان يسمع فهو بحرف وصوت.

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٤٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: «**اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق. اللهم لك أسمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك خاصمت وبك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، وما أنت أعلم به مني، لا إله إلا أنت**».

۞ **الخامسة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم؛ لأنهم يسألونه.**

يعني: أنه كل ما مر في سماء، وهذا يدل على أنهم سمعوا الصوت كلهم، وهذا هو الذي دل عليه نص الحديث: «**أخذت السماوات رجفة أو قال: رعدة**».

۞ **السادسة: أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.**

هو الذي يكون واسطة بين الله وبين الرسل، فهو المبلِّغ عن الله، فمعنى هذا أن الرسول لا يأخذ مباشرة عن ربه ﷻ بل يأتيه جبريل عليه السلام فيبلغهم عن الله، كما أننا لا نأخذ أيضًا عن الله مباشرة لا بد لنا من رسول يبلغنا، فالرسول واسطة بيننا وبين ربنا وهذه الواسطة لإبلاغ كلامه وأمره، ونهيه وتوحيده. أما واسطة تتخذها للدعاء والشفاعة والوسيلة نتوسل بها إلى مرادنا وطلباتنا، فهذه من الشرك لا تجوز، فعلى هذا الواسطة تكون حقًا، وتكون باطلة.

۞ **السابعة: إرسال الشهاب.**

الشهب التي ترسل كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، والشهاب الثاقب الذي يمضي حيث أمر، وقد يصيبه وقد يخطئه، وقد يقتله إذا أدركه.

۞ **الثامنة: أنها تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.**

إذا أدركه قتله، وقد يذهب بعقله كما تقدم ذكر ذلك.

الباب السابع عشـر

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: باب الشفاعة.**

هذا الباب والبابين قبله، والباب الذي بعده، الأربعة أبواب هذه أراد المؤلف بها تبيين أن المشرك ليس له أي تعلق؛ لأن هذه الأبواب تبين أن الملك والأمر كله لله، وليس لأحد معه شيء.

فالأول كون المدعو لا يملك شيئًا كيف يشرك به وهو مخلوق، وهو لا يستطيع أن ينصر نفسه، فكيف ينصر غيره؟ فإذا فكر الإنسان في هذا تبين له أن دعوة ذلك المخلوق الذي هذه صفته باطلة، والثانية صفة الملائكة الذين لهم قرب عند الله كيف تكون حالتهم إذا سمعوا كلام الله؟ يخافون أشد الخوف فكيف لو خالفوا أمر الله، مع أنهم يُطيعونه ولا يعصونه طرفة عين، فهم عباد مكرمون كما أخبر الله عنهم، والأمر الثالث الشفاعة تعلق بها المشركون قديمًا وحديثًا، والواقع أنها أصل الشرك الذي تعلق به المشركون، وهم زعموا أن الشفاعة من باب التعظيم؛ لأنهم قاسوا رب العالمين ﷻ علىٰ الضعيف الذي لا يملك أن يتصرف بنفسه لا بد له من أعوان، ولا بد له من حجبة؛ يعني: من الملوك والرؤساء الكبار، قالوا لو أن إنسانًا ذهب إليهم رأسًا ما استطاع أن يتحصل علىٰ مراده بخلاف ما إذا توسط لديهم من هو مقرب عندهم وطلب شفاعته فإنه ينجح، فهم يقولون الشفاعة من باب التعظيم فكيف تُنكر، فالله أعطىٰ بعض أوليائه كرامة وقربًا، فنحن نسأل ذلك الولي القريب أن يُقربنا إلىٰ الله.

فالمشركون عمومًا يسألون أصنامهم بأنها لا ذنوب لها أن تشفع لهم، وإلا ما وجد أحد له عقل ونظر يدعي أن مخلوقًا يملك مع الله شيئًا، وأنه خلق من المخلوقات شيئًا، وإنما قالوا إنهم مقربون عند الله، فإذا طلبوا منه شيئًا أعطاهم

ذلك، هذه هي شبهتهم، فهم يزعمون أن من يدعونهم ويتعلقون بهم يكونون شفعاء لهم، فهذا من باب القياس، قاسوا رب العالمين على المخلوق من الملوك والرؤساء والأمراء الذي لا بد لهم من يثبت ملكهم من الوزراء والكبار الذين يخدمونهم، فقالوا إن الشفاعة هي أقرب وسيلة لحصول المطلوب، فأصل الشرك داخل من هذا الباب، فنجد كثيرًا ممن يتعبد يصلي ويصوم تجده يلهج كثيرًا بأن له وسائط يتعلق بجاههم وبقربهم، وأن لهم عند الله مقاماً كبيراً، وأنه يرجو شفاعتهم، وكل هذا من تزيين الشيطان وتسويله.

فأراد المؤلف ﵀ أن يبطل هذا التعلق بهذا الباب، ثم سيأتي بعده ما هو خاص بالرسل وجعل ذلك في أشرفهم أعظمهم، والبقية يكونون تبعًا وهو رسولنا ﷺ؛ لأنه لا يملك هداية أحد، يخبر أن ابنته التي هي أقرب الناس إليه أنه لا يملك لها من الله شيئًا، وإنما يملك ماله الذي ملكه الله إياه، إذا سألوه ذلك أعطاهم منه.

فبهذه الأبواب الأربعة بطل تعلق القبوريين الذين يتعلقون بالأولياء، ولكن بالتأمل فيها والتأمل في الآيات والأحاديث التي ذكرها وفهمها الفهم الصحيح.

أما الشفاعة فهي مشتقة من الشفع، والشفع يقابل الوتر، والوتر هو الفرد الواحد، والله وتر يحب الوتر[1]، ليس له شفع فهو وحده المالك لكل شيء وهو المتصرف في كل شيء، وهو الذي يفعل ما يشاء وغيره لا يستطيع من جميع المخلوقات، فهو الفعال لما يريد، وهو الذي تختص به أسماءه وصفاته لا يُشاركه أحد من خلقه، وإن حصل مشاركة لفظية فهي منتفية عند الإضافة والتخصيص، لا يمكن أن يكون للمخلوق شيء من ذلك، إذا أُضيفت إلى الله وخُص بها انتفى ذلك كله.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٤١٠)، ومسلم رقم (٢٦٧٧) واللفظ له عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «لله تسعة وتسعون اسمًا من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر يحب الوتر»، وفي الرواية ابن أبي عمر: «من أحصاها».

فالشفاعة أُخذت من كون الشافع يضم طلبه إلىٰ المشفوع له، بدل ما كان المشفوع له فردًا وتر في طلبه انضم إليه آخر فسمي شفعًا.

والشفاعة: هي الفعل الذي يفعله هذا الذي انضم إليه من قول أو فعل أو دعاء، وهي في هذا الدعاء فقط. **والشفاعة جاءت في كتاب الله علىٰ نوعين:**

الأول: نوع منفي لا وجود له، ولا يقع وإنما يزعم المشركون وقوعه، وهي منتفية نفاها الله في آيات كثيرة، وهي ما كانت مطلوبة من غير الله ﷻ، وهي التي يدَّعيها هؤلاء أن أحدًا يشفع بدون أن يأذن الله له، فهذه لا وجود لها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فالذي لا يعلمه الله لا وجود له، فمعنىٰ هذا أن الشفاعة المزعومة لا وجود لها أصلًا، فهم يتعلقون بالشيء الذي يصوِّرونه بأذهانهم وزينه لهم الشيطان وهو مجرد أوهام.

ولا يقال في مثل هذا أنتم تنكرون شفاعة النبي ﷺ، فشفاعة النبي ﷺ لا تكون منه استقلالًا وبدون إذن الله تعالىٰ، لا شفاعته ﵊، ولا شفاعة غيره، فلا يمكن أن تقع إلا إذا أمر الله بالشفاعة، فالإذن الذي جاء في الآيات: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هو الأمر، أما قبل أن يقول له ذلك لا يشفع، فهذا من تمام سلطانه ﷻ، فالملك والسلطان كله له ليس لأحد منه شيء، وكذلك شفاعة غيره.

الثاني: الشفاعة المثبتة، وهذه الشفاعة قيدت بقيدين لا بد منهما:

الأول: إذنه ﷻ للشافع أن يشفع، فلا تقع الشفاعة إلا إذا أذن له الله جل وعلا، ولهذا أنكر وجودها ووقوعها بدون ذلك: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الثاني: أن الشفاعة لا تقع إلا لمن رضي الله ﷻ عنه، قال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقد يقول قائل: إذا كان الله يرضىٰ عنه فما فائدة الشفاعة إذن؟

نقول: إن الشفاعة حقيقتها: هي إرادة الله ﷻ رحمة عبده المشفوع له وإظهار كرامة الشافع فقط، وإلا فالأمر لله ﷻ، إذا أراد الله ﷻ أن يرحم عبده المخلص، ويكرم الشافع أمر الشافع أن يشفع، وهذا يتبين من تأمل النصوص التي جاء فيها ذكر الشفاعة لرسول الله ﷺ يقول: «**ثم أشفع فيحد لي حدًا**»[1]، لا يشفع فيمن يريد، هذا لا يمكن أبدًا لا هو ﷺ ولا غيره، فالإذن جاء في الآيات كلها، والشفاعة لله ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فالشفاعة من تمام ملكه ﷻ.

فالشفاعة إرادة الله ﷻ الرحمة للمشفوع له، وإظهار كرامة الشافع، فإذا أراد الله ﷻ أن يظهر كرامة النبي ﷺ ألهم الناس في الموقف أن يطلبوا الشفاعة من الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم إذا طال عناؤهم ووقوفهم ألهمهم الله أن يطلبوا الشفاعة، ولا يلزم أن يكونوا كلهم، يكفي البعض، يقول بعضهم لبعض: لماذا ما نستشفع بالرسل فيشفعوا لنا، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون: لو استشفعنا إلىٰ ربنا حتىٰ يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أما ترىٰ الناس؟ خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا إلىٰ ربنا حتىٰ يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناك ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلىٰ**

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٤٧٦)، ومسلم رقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك وفيه: «**فأنطلق حتىٰ أستأذن علىٰ ربي فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي مثله ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة ثم أعود الرابعة فأقول ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود**».

أهل الأرض فيأتون نوحًا فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناكم ويذكر لهم خطاياه التي أصابها، ولكن ائتوا موسىٰ عبدًا آتاه الله التوراة وكلَّمه تكليمًا، فيأتون موسىٰ فيقول: لست هناكم ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، فيأتون عيسىٰ فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمدًا ﷺ عبدًا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتونني، فأنطلق فأستأذن علىٰ ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها، ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي، ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه، واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود»، قال النبي ﷺ: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة**»[1].

والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص، والإخلاص هو: محبة الله وإرادة وجهه بالعمل.

وقسم العلماء الشفاعة حسب ورودها في النصوص، وإلا ليس فيها تقسيم عقلي ولا قياسي، فكل ما ورد في النصوص جعلوه نوعًا من الشفاعة، وقد تواترت

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٤١٠)، ومسلم رقم (١٩٣) وفيه: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك»، وقال ابن عبيد: فيلهمون لذلك، «فيقولون: لو استشفعنا علىٰ ربنا حتىٰ يريحنا من مكاننا هذا»..

النصوص عن النبي ﷺ في ذكر بعض الشفاعات، كما أن القرآن يدل على هذا، فقوله ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، كل هذا يدل على أنه هناك شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية، فالشفاعة المثبتة هي التي تكون بإذنه وأمره، وإذنه هو أمره، لا يمكن أن يقدم أحد من الخلق لا محمد ﷺ ولا غيره أن يُقدم على طلب الشفاعة إلا إذا أُذن لهم؛ لأن تمام الملك وعظمة الله يمنع أحدًا أن يطلب بدون إذنه، ولكنَّ المشركين لا يفهمون هذا.

وأنواع الشفاعات الست التي قسمها العلماء منها ما هو متواتر، ومنها ما جاء فيه نصوص، وصاحب شرح الطحاوية جعلها ثمان(١)،

وجعل منها الشفاعة في السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وقال: الدليل ما في حديث حصين بن عبد الرحمن أن عكاشة بن محصن قام وقال: يا رسول الله ادع الله أن أكون منهم فقال: «**اللهم اجعله منهم**»(٢)، فهذه شفاعة بأن يكون مع السابقين الذين يسبقون إلى الجنة بغير حساب.

الأولى: الشفاعة الكبرى فهي متفق عليها بين أهل السُّنَّة والمعتزلة والخوارج؛ لأن إنكار المعتزلة والخوارج للشفاعة هو الذي جعل أهل السُّنَّة يذكرون الشفاعة في العقائد، وكلما أنكر أهل البدع شيئًا ثابتًا في الكتاب والسُّنَّة نص عليه أهل السُّنَّة في عقائدهم، وإن كان من الفروع، لهذا تجد مثلًا ذكر المسح على الخفين في العقيدة، في صفة أهل السُّنَّة، وأهل السُّنَّة يرون المسح على الخفين؛ لأن الرافضة لا يرون ذلك، والعجيب أنهم ينكرون المسح على الخفين ويمسحون على الرجلين؛ لأنهم منكوسين، وهم مخذولون لا في نظرهم وعقيدتهم، ولا في نهجهم وسيرتهم.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ١٤٧)-(١٥٠) قال ؒ: الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع ثم ذكر الأنواع.

(٢) سبق تخريجه.

فالمقصود: أن الشفاعة الكبرىٰ متفق عليها؛ لأنها ليس فيها إخراج أحد من النار، وليس فيها إدخال أحد من أهل المعاصي الجنة، وإنما فيها أن الرب يفصل بين خلقه فيدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

الثانية : الشفاعة في افتتاح باب الجنة، وهذه أيضًا الأحاديث فيها ثابتة، وفيها عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**»[(١)]، فيدخل أهل الجنة الجنة؛ لأنهم إذا عبروا الصراط حُبسوا فلا يدخلون الجنة ولأحد علىٰ الآخر في قلبه شيء من غل أو حقد؛ لأن أمور الدنيا كثيرة ويحدث ما يحدث بين المؤمنين من الشحناء والبغضاء، ومن الأشياء التي تبقىٰ في صدورهم، ولهذا أخبر سبحانه أنه نزع ما في صدورهم من غل، وأخبر أنهم إخوانًا علىٰ سرر متقابلين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وهناك يُصَفُّون فإذا صفوا وهذبوا ونقوا مما في صدورهم أُذن لهم بدخول الجنة[(٢)]، ولا يؤذن لهم إلا بشفاعة الرسول ﷺ، وهذه خاصة بالنبي ﷺ.

الثالثة : لا خلاف فيها: وهي رفعة درجات بعض أهل الجنة، وهذه ليست خاصة بالنبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، فهذه من أنواع الشفاعة.

الرابعة: شفاعته في عمه أبي طالب وهي خاصة بالنبي ﷺ، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: قيل للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب

---

(١) رواه مسلم رقم (١٩٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٥٣٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخلص المؤمنون من النار فيحبسون علىٰ قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتىٰ إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدىٰ بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**».

لك؟ قال: «**هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»(١)، وفي رواية: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه**»(٢)، وفي رواية: «**أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**»(٣)، وجاء: «**إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرىٰ أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا**»(٤)؛ يعني: أهل النار، أما خروجه من النار فلا يمكن؛ لأنه كافر، مات علىٰ الكفر.

الخامس: الشفاعة فيمن دخل النار من أهل الكبائر، وهذه الأحاديث فيها متواتر أن النبي ﷺ يشفع، والمؤمنون يشفعون، والملائكة تشفع جاء في حديث أبي سعيد الخدري ؓ: «**ثم يؤتىٰ بالجسر فيجعل بين ظهرَي جهنم**»، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «**مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها: السعدان، يمر المؤمن عليه؛ كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناجٍ مسلَّم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم حتىٰ يمر آخرهم يسحب سحبًا فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمن يومئذٍ للجبار وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا، فيقول الله تعالىٰ: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم علىٰ النار فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلىٰ قدمه وإلىٰ أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من**

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٨٨٣)، ومسلم رقم (٢٠٩).
(٢) رواه البخاري رقم (٣٨٨٥)، ومسلم رقم (٢١٠) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.
(٣) رواه مسلم رقم (٢١٢) من حديث ابن عباس ؆.
(٤) رواه مسلم رقم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير ؆.

إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا».

قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرأوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، **فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي فيقبض قبضة من النار فيخرج أقوامًا قد امتحشوا فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل قد رأيتموها إلىٰ جانب الصخرة إلىٰ جانب الشجرة فما كان إلىٰ الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلىٰ الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه»**(١)

والأطفال يشفعون، فالذي يموت له طفل صغير يشفع له(٢).

فهذه ينكرها المعتزلة والخوارج؛ لأن عندهم أنه من دخل النار لا يخرج منها لقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، فإذا أُخزي فلا يمكن أن يخرج منها، وهم يتعلقون بالظواهر ويتركون الأمور المحكمة الثابتة، ويجعلون ذلك من حجتهم علىٰ كفر مرتكب الكبيرة وهذا ضلال، والخوارج أصلهم أعراب لا يفهمون القرآن كما قال ﷺ: **«يقرأون القرآن**

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٤٣٩)، ومسلم رقم (١٨٣).

(٢) روىٰ البخاري في صحيحه رقم (١٢٤٨) عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«ما من الناس من مسلم يتوفىٰ له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»**، عن أبي سعيد ﷺ: إن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يومًا، فوعظهن وقال: **«أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجابًا من النار»**. قالت امرأة: واثنان؟ قال: **«واثنان»**، البخاري رقم (١٢٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٣٣). وعند أحمد في المسند مسند أحمد رقم (١٠٦٢٢) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وإياهم بفضل رحمته الجنة وقال: يقال لهم: ادخلوا الجنة، قال: فيقولون: حتىٰ يجيء أبوانا، قال: ثلاث مرات، فيقولون مثل ذلك فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم»**.

لا يجاوز حناجرهم»[(١)]؛ يعني: لا يصل إلىٰ قلوبهم ولا يفهمونه، ولهذا اقترحوا علىٰ الله اقتراحا لا وجود له فزعموا أن الناس قسمان فقط: تقي نقي، وشقي بعيد فقط، وليس عندهم وسط إما هذا أو هذا، إما كافر أو مؤمن، وهذا ضلال ظاهر.

السادس: شفاعته في قوم من أهل الكبائر استحقوا النار أن لا يدخلوها.

السابع: و بعضهم زاد الشفاعة في من يدخل الجنة بلا حساب، يقول الحافظ: ويستشهد لهذا بقصة عكاشة لما ذكر الرسول ﷺ أن من أمتي سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب قام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «**اللهم اجعله منهم**»، يقول هذا قسم سابع[(٢)].

الثامن: الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة[(٣)].

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٠٥٨)، ومسلم رقم (١٠٦٤) ولفظه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرقون السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرىٰ شيئًا، وينظر في القدح فلا يرىٰ شيئًا، وينظر في الريش فلا يرىٰ شيئًا، ويتمارىٰ في الفوق**».

(٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٢٨) قال رحمه الله: «وقال النووي تبعًا لعياض: الشفاعة خمس: في الإراحة من هول الموقف، وفي إدخال قوم الجنة بغير حساب، وفي إدخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا، وفي إخراج من أدخل النار من العصاة، وفي رفع الدرجات»، ثم قال رحمه الله: «ودليل الثانية قوله تعالىٰ في جواب قوله ﷺ: «أمتي أمتي»: أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليهم. كذا قيل، ويظهر لي أن دليله سؤاله ﷺ الزيادة علىٰ السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فأجيب».

(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٢٨) قال رحمه الله: وظهر لي بالتتبع شفاعة أخرىٰ وهي الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، ومستندها ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد ي رحمه الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلونها بشفاعة النبي ﷺ ، وقد تقدم قريبًا أن أرجح الأقوال في أصحاب الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم»، وهذا الأثر الذي رواه عن الطبراني في المعجم الكبير رقم (١١٤٥٤) ولفظه عن ابن عباس: عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

الإنذار هو الإعلام بمواقع الخوف؛ يعني: الإعلام عن شيء متوقع وقوعه، ولهذا سمي الرسل «منذرين»، فالرسول بشير ونذير، بشير لمن أطاعه واتبعه بالسعادة في الدنيا والآخرة، ونذير لمن عصاه.

قوله: «﴿بِهِ﴾»: الضمير يعود إلىٰ القرآن؛ يعني: أنذر بهذا القرآن الذي أنزل عليك وفيه النذارة الكافية من ذكر الحق وذكر الباطل، وأن الإنسان إذا اتبعه يكون متقيًا ناجيًا، ومن خالفه يكون مخوفًا عليه، بل متوقع أن يؤخذ من قريب لا سيما إن كان من جملة المتبعين؛ **لأن الأمة تنقسم إلىٰ قسمين:**

الأولىٰ: أمة يقال لها: أمة الإجابة.

الثانية: وأمة يقال لها: أمة الدعوة.

كل الخلق أنذرهم الرسول ﷺ، وهي أمة الدعوة من يهود ونصارىٰ ووثنيين، كلهم أمة لمحمد ﷺ، وكلهم قد دعاهم عليه السلام، ثم هذا يدل علىٰ أن الإنسان يجب أن يفهم القرآن، والإنسان إذا أسلم وجب عليه أن يتعلم العربية، واللغة دين لا يمكن أن يُفهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلا بها، وعلىٰ هذا لا يمكن أن يسعد الإنسان إلا بتعلم اللغة العربية، ولهذا صارت واجبة.

وأنت تجد دعاة الضلال من مستشرقين وغيرهم ممن ابتليت الأمة بهم، ويتولون بعض القيادات أنهم يقللون من شأن اللغة العربية، بل يريدون أن يقضوا عليها ويعظمون لغة الكفار، ويريدون أن تكون هي التي يُعتنىٰ بها ويكثف تعليمها.

فالمقصود أن **قوله:** «﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾»: أن من أنذر يجب أن يفهم ما أنذر به، والذي أنذر به هو القرآن فلا بد من تدبره وتعلمه وتفهمه، وتعلمه سهل ليس صعبًا،

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

والمعنى: هل من طالب علم فيعان؟[1]، هل من متذكر فيذكر؟ فإذا صار الإنسان عنده حسن استماع وطلب وفهم لا بد أن يحصل علىٰ شيء، وإن لم يحصل علىٰ الكل؛ لأن كلام الله لا حد لنهايته، ولهذا قال رجل للحسن البصري: «ما أفهم من الآيات الشيء الكثير»، قال: يكفي ما تفهمه؛ لأن كلام الله لا يحاط بكل معانيه، أو نحو هذا الكلام.

فتأمل في كتب التفسير منذ جاء الإسلام، والناس يكتبون في كلام الله ولا ينتهي، كل عالم يفتح الله عليه شيء لم يفتح علىٰ الآخر.

فالمقصود أن يكون العبد قابلًا لكلام الله يتصور أن الله يخاطبه فيتفهم.

قوله: «﴿يَخَافُونَ﴾»: هذا فيه أن النذارة تكون خاصة، نذارة للخائفين، ولهذا يقول الفضيل بن عياض:

ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١][2]، أما أشباه البهائم فهم سادرون يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًىٰ لهم.

والخوف: هو الخوف من الله، الخوف الغيبي، الذي يقتضي الإيمان بالله، وهذا يقتضي أنه يعلم أن الله يُشاهده ويسمع كلامه، ويرىٰ تقلباته ولا يخفىٰ عليه شيء فيمتنع من ارتكاب نهيه ويمتثل أمره، فهذا معنىٰ الخوف ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾.

---

(١) البخاري باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ وقال مجاهد: يسرنا القرآن بلسانك هوَّنا قراءته عليك، وقال مطر الوراق: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢]. قال: هل من طالب علم فيعان عليه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ٢٤٠).

والحشر هو: الجمع في الشيء، فالحشر هو جمع الخلق من أولهم إلىٰ آخرهم، والخلق هم الجن والإنس، فهم يجمعون في صعيد واحد، وهذا جاء كثيرًا في كتاب الله، فبعد أن يبعثهم من قبورهم يجمعهم للجزاء وكثير من الناس لا يؤمنون بهذا.

وقوله: «﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾»؛ يعني: يحشرون إلىٰ ربهم ﷻ حتىٰ يُحاسبهم وإن كان هذا في الأرض والأرض غير هذه، وليس هذا معناه أنهم يذهبون إلىٰ أرض أخرىٰ، ولكن الأرض تُغير وتبدل وتصبح الأرض التي سفكت عليها الدماء وعملت عليها المعاصي مبدلة ويأتي غيرها: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فالجبال والبحار تذهب وتمُد فتصبح أرضًا مستوية فيحشرون عليها فيأتي الله ﷻ فيقضي بينهم إذا شاء، ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

والشاهد من الآية قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١] قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ حال والتقدير متخلين عن الولي، فإذا كان هؤلاء الذين يخافون ربهم ويؤمنون به لا يكون لهم ولي ولا شفيع، فكيف بالمشرك، وهذا عام ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، فلا يقال: هذا خرج مخرج الخصوص، فهذا العموم لا يخصص سواءً كان رسولًا، أو ملكًا، أو مؤمنًا تقيًا، أما الكافر فالأمر فيه معروف، فمعنىٰ هذا نفي الشفاعة ونفي الولاية، نفي الشفاعة عن غير الله، وهذه الآية مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وهذا العموم المطلق ليس لأحد مع الله شفاعة، فالشفاعة لله ﷻ وحده.

فهذا يدل علىٰ أن الكفار الذين يتعلقون بالقبور أنهم في ضلال بعيد لا يفهمون خطاب الله، وهم يتخبطون في الجهل ومخالفة أوامر الله ﷻ، وهم يتقربون بهذه الأعمال التي يعملونها إلىٰ مساخط الله وعذابه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن

﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ١-٤]، الغاشية هي: يوم القيامة، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾؛ يعني: في يوم القيامة، خاشعة كانت في الدنيا، ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ تعمل تكدح، وتذهب والنتيجة أنها: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾، وهذا قول الله تعالىٰ والحكم إليه ﷻ.

قوله: «﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾»: من دون ربهم الذي يحشرون إليه.

«﴿وَلِيٌّ﴾»: هو الناصر، ليس لهم أحد ينصرهم.

«﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾»: الشفيع أقل من الناصر.

فبدأ بالولي ليس لهم ولي يتولاهم وينصرهم ويساعدهم متخلِّين عن الولي الناصر. كل واحد يأتي كما ولدته أمه فردًا لا مال له حتىٰ الشيء الذي يضعه علىٰ عورته، أو يستظل به، فكيف يكون له ناصر، ولهذا قال ﷺ: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا**»(١) غرلًا؛ يعني: غير مختونين؛ لأن الخلقة تعود كما كانت حتىٰ يذوق العذاب كله، أو النعيم كله.

فإذا كان الأمر هكذا فهو دليل واضح جلي علىٰ أنه لا يجوز دعاء غير الله ولا تعلق بغيره فهو الولي، وهو الذي يملك الشفاعة وهو الذي يأذن لمن يشفع أن يشفع.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٤٩)، ومسلم رقم (٢٨٦٠) عن ابن عباس ﷺ: عن النبي ﷺ قال: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا** -ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]-، **وأول من يكسىٰ يوم القيامة إبراهيم وإن أناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين علىٰ أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ **إلىٰ قوله:** ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨]».

فهذه الآية دالة دلالة واضحة علىٰ إبطال دعوىٰ المشركين ومن سار علىٰ نهجهم ممن يدعي الإسلام، وهو يدعو الأولياء ويتشفع بهم، أو يدعو الرسول ﷺ، ويقول إنه يشفع.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

هذه الآية يحسن أن يضاف إليها الآية قبلها وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] إذا جاءت ﴿أَمِ﴾ في مثل هذا فمعناها «بل»؛ يعني: بل اتخذوا.

«﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾»: واقع هؤلاء أنهم ضلوا، ثم قال: ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾.

قوله: «﴿شَيۡـٔٗا﴾»: الشفاعة دخلت في هذا النفي، ونفي غيره، فهم لا يملكون شيئًا، فشيء نكرة، فنفي كل ما يدخل تحت شيء من شفاعة ونصرة ونفع وغير ذلك، فهم مع ذلك لا يعقلون؛ يعني: ليس عندهم العقل الذي ينتفعون به؛ لأنهم إما جماد، أو أنهم لا يسمعون فيعقلون دعوتهم التي يدعونهم لا يسمعونها ولا يعقلونها فكيف تدعون شيئًا لا يسمع ولا يعقل الخطاب الذي تخاطبونهم به، أليس هذا سفه ودعوة ضائعة، وليست ضائعة فقط بل هي ضلال، فهم في الواقع يعملون العمل الذي يمنع الشفاعة يأتون بما يرد الشفاعة.

ثم قال ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

قوله: «﴿لِّلَّهِ﴾»: يدل علىٰ أن الملك لله وحده؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يدل علىٰ الحصر والتخصيص، أي: أنه خاص بالله، فإذًا إثبات شفاعة الرسل وشفاعة الملائكة ليست شفاعة مستقلة، وليست ملكًا لهم فهم لا يملكون شيئًا، وإنما هم

يمتثلون أمر الله إذا أمرهم شفعوا وبدون أمره لا يمكن أحدًا أن يشفع، فكيف يقال: إن لهم الشفاعة؟

الشفاعة لله، فكلام الله لا يتضاد ولا يناقض بعضه بعضًا، فكونها لله فهو يأذن لمن يشاء، فإذا قال المشرك إنك تقر بأنهم يشفعون، فأنا أطلب منهم الذي أُذن لهم فيه؟

فالجواب عن هذا أن يقال: طلبك منهم الشفاعة هو طلب لها من غير من هي ملك له، وهو يمنع من أن تقع لك الشفاعة؛ أي: أنه مشرك والمشرك لا تنفعه شفاعة الشافعين، كما قال الله تعالىٰ يعني: أنهم لا يدخلون فيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، هذا عموم مطلق فلا أحد يملك شيئًا، فيوم القيامة ظهر الملك تمامًا لله وحده، وإن كان الملك لله دائمًا أولًا وأخرًا، لكنه في هذه الدنيا ملَّك بعض خلقه ما يشاء ملكًا مؤقتًا وهو أيضًا قاصر، فإذا أراد أن يسلبه منه سلبه، وكل هذه الآيات معناها واحد، ولكن كثرة الأدلة وتكرارها لعله يجدي وينفع.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

«﴿مَن﴾»: استفهام إنكاري، أن هذا لا يقع، أن أحدًا يشفع عند الله إلا إذا أُذن له، والله أخبرنا أنه لا يأذن لمن رضي قوله، فالشرك يمنع أن يكون مأذونًا له في الشفاعة.

قوله: «﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾»: الإذن هنا معناه: الأمر، فهم لا يشفعون إلا إذا أمرهم، وقبل ذلك لا يشفعون، وهذا أمره الشرعي الذي يأمر به عباده، وليس أمره الكوني.

وهذا الاستفهام الإنكاري من أدوات العموم، فهو يشمل الملائكة والرسل

وكل أحد، لا يخرج منه أحد، ولهذا نص الأصوليون علىٰ أن هذا من أدوات العموم التي تكون عامة عمومًا مطلقًا.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالىٰ:** ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

قوله: «﴿وَكَم﴾»: خبرية وتسمىٰ تكثيرية، يعني كثير من الملائكة في السماوات.

وقوله: «﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾»؛ يعني: أنها لا تقع شفاعتهم ولا يشفعون إلا من بعد أن يأذن الله، وإذن الله أيضًا لمن شاء منهم؛ يعني: من الملائكة.

قوله: «﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾»: ويرضىٰ عن المشفوع له، فهذان شرطا الشفاعة:

أولًا: الإذن للشافع أن يشفع.

ثانيًا: الرضا عن المشفوع له. والرضا يسبق الإذن، لا بد أن يكون الله قد رضي عن المشفوع له، ثم يأذن للشافع أن يشفع، فدل علىٰ أن الشفاعة لله وحده وأنه لا أحد يملك منها شيئًا.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **قوله تعالىٰ:** ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

في هذه الآية ذكر أن الأمور المقدرة أربعة أشياء، وهي من باب السبر والتقسيم، فالطلب يُفرض أن يكون ممن يملك المطلوب الذي يريده عابده منه، فإن لم يكن يملك المطلوب فطلبه ضلال، فإن لم يكن مالكًا يكون شريكًا للمالك،

فإذا لم يكن شريكًا، يكون معاونًا وظهيرًا للمالك، فإذا لم يكن معاونًا، يكون شفيعًا عنده، فهي على الترتيب.

وقوله: «﴿زَعَمْتُم﴾»: تدل على التكذيب؛ يعني: زعم شيئًا باطلًا، لا حقيقة له، فزعمهم هذا باطل وكذب أن أحدًا يملك الشفاعة من دون الله، أو أنهم آلهة.

قوله: «﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾»: أمر تعجيز؛ أي: ليس لهم أن يدعوهم، يدل على أنهم مفلسون، لا يملكون مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض، وهذا كما هو معلوم كانوا يدعون الرسل ويدعون الأولياء والحجر والشجر، وكلهم دخلوا في أنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فإذا كانوا لا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض فيكف بما فوقها، فنفى هذه وأبطلها.

قوله: «﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾»؛ يعني: في السماوات والأرض.

قوله: «﴿مِن شِرْكٍ﴾»؛ يعني: لا يشاركون الله في هذا، ثم بيَّن أنه هو وحده المتصرف له الملك ليس له مساعد أو مظاهر، أو مؤازر.

قال: «﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾»: ثم بقيت الشفاعة فنفاها فقال:

«﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾»: قد بيَّن تعالى أنه لا يأذن إلا لأهل التوحيد الخالص، أما المشركون الذين يدعون غير الله فدعوتهم لهم تمنع الشفاعة، قال ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وغيرها من النصوص الكثيرة.

✍ قال المؤلف ؒ: قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا لله. ولم يبق إلا الشفاعة. فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، **فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن وأخبر**

النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده» لا يبدأ بالشفاعة أولًا. ثم يقال له: «ارفع رأسك وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص، بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقتها: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بيَّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص[1].

شيخ الإسلام، وكنيته أبو العباس أحمد بن عبدالسلام بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني ، وهو رحمه الله ليس له ولد لم يتزوج؛ لأنه لم يكن عنده وقت ليتزوج، كان وقته كله مشغولًا في العلم والدعوة إلى الله منذ بلغ وهو لم يفرغ وقتًا من الأوقات إما في السجن، وإما في القتال والدعوة إلى الله والاشتغال الذي يكون ليلًا ونهارًا ولا يبقى له إلا وقت التعبد الذي لا بد منه، والذي حدده لنفسه في آخر الليل وغيره كما في أول النهار، فإنه كان له ورد لا يخل به فهو يقول: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي[2]، هذا هو حياتي، وهو اتصاله بربه ودعوته، فالمقصود أنه لم يكن عنده وقت ليتزوج، وإلا هو لم يترك الزواج ترهبًا أو رغبة عنه؛ لأن الزواج سُنَّة الرسل، وتوفي رحمه الله مسجونًا؛ لأنه قام بالحق والحق ثقيل على الناس ولا بد أن يكون للحق معاديًا، والغالب أن أهل الدنيا هم أعداء الحق؛ لأنهم يخافون على

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٧-٧٨).

(٢) الوابل الصيب (١/ ٦٣) يقول ابن القيم: وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلامًا قريبًا من هذا. وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلامًا هذا معناه.

دنياهم ومناصبهم ولا سيما إذا عرفوا أن هذا يقلل من شأنهم.

والأمور تتشابه فكل من قام بالحق لا بد أن يناله شيء من الأذىٰ، فهذه حكمة الله ﷻ فلا بد أن يناله من الأذىٰ والمحن حتىٰ إلىٰ القتل، ولهذا الرسول ﷺ عالج من الأذىٰ من الكفار الشيء الكثير، فيجب أن تُقرأ سيرته حتىٰ يُتأسىٰ به ﷺ.

قوله: «**نفىٰ الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، أن يكون لغيره ملك أو قسط منه**»؛ يعني: من الملك ليس لهم ملك ولا نصيب منه.

قوله: «**أو يكون عونًا**»: أو يكون أحد من المدعوين عونًا لله.

قوله: «**ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾** [الأنبياء: ٢٨]»: وقد تبين أن الإذن يكون لأهل التوحيد.

قوله: «**فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون: هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن**»: وبالعقل أيضًا، فالله ﷻ هو المالك لكل شيء وسلطانه تام، ولا أحد يجرأ أن يتقدم بين يدي الله ﷻ بالكلام، ولا يتكلمون إلا بإذنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فكيف يقدمون علىٰ الشفاعة.

وقوله: «**وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده. لا يبدأ بالشفاعة أولًا**»؛ يعني: أنه لا يأتي فيقول: يا رب اشفع، بل يبدأ بالسجود والحمد والثناء حتىٰ يأمره الله ﷻ بالشفاعة يقول له: «**اشفع**»، فقبل أن يقول له: اشفع، فإنه لا يشفع، وقلنا أنه جاءت الأحاديث أنه يُحد له حدًا من الناس يقول: هؤلاء اشفع فيهم. فإذا لا يمكن أنه يشفع بشيء إلا بأمر الله ﷻ وغيره مثله.

قوله: «**فيسجد لربه ويحمده**»: الله ﷻ هو الذي يفتح عليه المحامد حتىٰ يرضىٰ بذلك، «**ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه علىٰ**

أحد قبلي»(١)، فهذا يدلك أن الأمر كله لله ﷻ، وإنما أراد ﷻ أن يظهر كرامة نبيه أمام الناس فقط، وإلا فالشفاعة لله فأمره أن يشفع حتىٰ تظهر كرامته. يُكرمه الله حيث يأمره أن يشفع. ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع.

وقوله: «**وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»(٢)**»، الإخلاص أن لا يكون في العمل شيء لغير الله ﷻ. فبيَّن الرسول ﷺ أن أسعد الناس بشفاعته هم أهل الإخلاص، وأهل الشرك ليس لهم نصيب من شفاعته ﷺ.

قوله: «**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك. وحقيقته** -يعني: حقيقة الأمر-: **أن الله ﷻ هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود**»، والمقام المحمود القول الصحيح أنه هو الشفاعة الكبرىٰ التي تكون في الموقف.

وقوله: «**فالشفاعة التي نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص**».

فالشيخ ؒ عرَّف الإخلاص وقال: الإخلاص هو: محبة الله وحده وإرادة وجهه.

فعلىٰ هذا تكون الشفاعة حقيقتها إظهار كرامة الله للشافع، وإرادة رحمته للمشفوع له، والشفاعة التي جاءت في القيامة ذكر العلماء أنها أنواع.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري رقم (٩٩) عن أبي هريرة أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت- يا أبا هريرة- أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك علىٰ الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه**».

والشفاعة التي تكون شركًا هي التي تطلب من غير الله ﷻ، سواءً كان برًا أو غير بر، عاقلًا أو غير عاقل، فالشفاعة حق لله ﷻ يجب أن تطلب منه، وبهذا يتبين أن تعلق المشركين بها تعلق موهوم، وأنه سبب لحرمانهم الشفاعة، وأنه شرك بالله ﷻ، وعرفنا أن شرك المشركين كله طلب الوساطة وهو الشفاعة.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: من أسعد الناس بها؟

يعني: أهل الإخلاص، ويظهر أن من أسعد الناس بها عند ما تقع الشفاعة الكبرىٰ أنهم الذين يسبقون إلىٰ الجنة بلا حساب، هؤلاء هم أسعد الناس بها؛ لأنهم لا يذهبون إلىٰ الجنة قبل مجيء الله ﷻ للفصل بين خلقه، ومجيئه للفصل بين خلقه يكون بعد الشفاعة الكبرىٰ، ثم يتبع هؤلاء أهل الإخلاص بحسب درجاتهم.

الباب الثامن عشر

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قول الله تعالىٰ:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

هذا الباب من جنس الباب الذي قبله؛ لأن أفضل الخلق كما هو معلوم هو رسول الله ﷺ، وقد نفىٰ الله جل وعلا عنه أن يستطيع هداية أحد، فالهداية لله وحده جل وعلا، فإذا كان ما استطاع أنه يهدي عمه الذي كان يحميه ويحوطه من المشركين، ويدافع عنه ويتحمل الأذىٰ في هذا السبيل كما هو معلوم في السيرة ، فهو لا يستطيع أن يهدىٰ أحدًا، وغيره من باب أولىٰ.

فإذن الهداية لله وحده، فالذي يطلب من غير الله جل وعلا شيئًا من هداية القلوب، أو مغفرة الذنوب، أو دفع الكروب، أو جلب المنافع، أو إعطاء الرزق، أو النصر علىٰ الأعداء، أو غير ذلك من الأمور التي لا يملكها إلا الله جل وعلا يكون ضالًّا مشركًا بالله جل وعلا.

والهداية كما هو واضح في كتاب الله جل وعلا علىٰ نوعين:

النوع الأول: هداية بمعنىٰ خلق الهُدىٰ في القلب، أو تحبيب الإيمان للإنسان، وتكريه الكفر والفسوق إلىٰ قلبه، فهذا لا يملكه إلا الله جل وعلا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، فهو فضله ونعمته علىٰ عبده جل وعلا.

النوع الثاني: الهداية بمعنىٰ الدلالة والإرشاد والدعوة والتعليم وبيان الحق من الباطل، وهذا هو الذي جُعل للنبي ﷺ ولأتباعه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]؛ يعني: تدل عليه، وتُوضحه وتبينه وتدعو إليه، فهذا لا يُنكر وهذا الواجب أن يقوم به أهل العلم يبينون للناس ويدلونهم علىٰ الحق ويحذرونهم من الباطل.

أما النتائج التي تترتب علىٰ هذا فهي إلىٰ الله ﷻ؛ يعني: كون الإنسان يهتدي، أو لا يهتدي، هذا لا يملكه أحد سوىٰ الله ﷻ.

فالمؤلف ؒ أراد أن يبين أن الرسول ﷺ لا يملك من هداية القلوب شيئًا وأن هداية القلوب بيد الله ﷻ، وهذا واضح من الآية، فكيف يأتي الإنسان إلىٰ قبر الرسول ﷺ ويشكو إليه كثرة الذنوب، وكثرة الأعداء ويقول له في شكايته وكثرة ما يذكره:

هذه علتي وأنت طبيبي ليس يخفىٰ عليك في القلب داء[1]

فهل يليق هذا؟ ولا يصدر هذا ممن يقتدىٰ به من أهل العلم، العلم النافع هو الذي يكون فيه الحق، ويكون فيه الهداية والاتباع.

فإذا كان مثل هذا يصدر من بعض العلماء فكيف بالعوام، ولهذا تجد عند القبور التي يُزعم أنها قبور أولياء، أو قبور أنبياء كيف يصنعون، وكيف يتوجهون لها ويدعونها هذا مع وضوح الأمر وجلائه، مع أن الرسول ﷺ ما استطاع أن يهدي أقرب الناس إليه الهداية التي ينتفع بها وإن كان يعلمها.

فأراد أن يبيِّن أن رسول الله ﷺ لا يجوز أن يُدعىٰ ولا يجوز أن يتوجه إليه بالطلب في النفع، أو الضر الذي يكون من أمور الدين أو من أمور الآخرة؛ لأنه

(١) البوصيري في همزيته.

صلوات الله وسلامه عليه كان يطلب في حياته في الشيء الذي يملكه من مال وما أشبه ذلك، وأما بعد وفاته فإنه لا يجوز أن يطلب منه شيء ومن طلب منه هداية، أو دفع شر، أو نفعًا غيبيًا، أو ظاهرًا فإنه ضال ومشرك، وهذا يقع كثيرًا من بعض الناس كما ذكر صاحب الهمزية البوصيري أنه جاء إلىٰ قبر الرسول ﷺ مكشوف الرأس، فجعل يعدد علىٰ النبي ﷺ مصائبه ومطالبه، ويقول في آخرها:

هــذه علتــي وأنــت طبيبــي ... لـيس يخفـىٰ عليـك في القلـب داء

فجعل الرسول هو الطبيب لكل شيء، وجعله ما يخفىٰ عليه شيء كما قال في البردة التي كثير من الناس يعظمها أكثر من تعظيم القرآن، بل منهم من يجعلها وردًا له يقرؤها في المساء والصباح، والمؤلف رحمه الله أراد أن يبين هذا الضلال المتناهي، وأن هذا شرك بالله، وكثير من الشعراء جعل حظه من النبي ﷺ الغلو في المدح والإطراء حتىٰ أعطوه ما زعم النصارىٰ في عيسىٰ ابن مريم إلا أنهم تجنبوا الألفاظ التي كان النصارىٰ يتلفظون بها، أما المعاني فكلها جعلوها للنبي ﷺ، فأراد أن يبين أن كل من يتعلق بغير الله جل وعلا في الدعاء والاستشفاع والوساطة والطلب الغيبي سواءً كان من أمور الدنيا، أو أمور الآخرة إذا كان غائبًا، أو ميتًا أن هذا ضلال وأنه شرك بالله جل وعلا، فإذا كان هذا في المصطفىٰ ﷺ والله جل وعلا نفىٰ أن يهدي أحدًا؛ أي: يهدي قلبه أو ينفعه، فكيف بغيره فهذا من باب أولىٰ.

قوله: «﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾»؛ يعني: أنك لا توجد الهدىٰ في قلب من تحبه، وإنما الهداية بيد الله جل وعلا يمنّ بها علىٰ من يشاء.

وقوله: «﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾»؛ يعني: أن العباد ملك لله جل وعلا، من شاء هدايته منهم هداه والمنّة والفضل له سبحانه وتعالى، ومن تركه ونفسه والشيطان فلن يهتدي فالهدىٰ فضل من الله يتفضل به علىٰ من يشاء.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وفي الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب**[1]**، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»، فأنزل الله:** ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، **وأنزل الله في أبي طالب:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2] [القصص: ٥٦].

قوله: «في الصحيح»: ومقصوده بالصحيح؛ يعني: بالحديث الصحيح الذي ثبت بالنقل الصحيح الثابت. والحديث في الصحيحين.

«**عن سعيد بن المسيب عن أبيه**»: وأبوه هو المسيب بن حزن حضر بيعة الرضوان وهو صحابي كما أن جده صحابي ممن قتل في واقعة اليمامة، أما هو فتابعي من أفضل التابعين، أو هو أفضلهم كما قال الزهري، وهو أحد الفقهاء السبعة، قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه. وهو معروف من سيرته واقتدائه بالنبي ﷺ مات بعد التسعين. وأما جده فهو.

وقوله: «**عن أبيه**»: يجوز أن يكون أبوه حاضرًا القصة هذه، فلا يكون كما يقول الحافظ: فيه دليل على أن هذا من مراسيل الصحابي؛ لأن أباه أيضًا من بني مخزوم وعبد الله بن أبي أمية من بني مخزوم، فيجوز أن يكون قد حضر هذه القضية، ولكنه كان في ذلك الوقت مشتركًا فمنّ الله عليهم جميعًا فأسلموا. وسعيد كان يقول: سيَّب الله من سيَّبني. فهو لا يحب أن يقال: المسيَّب، ولكن الأسماء

(١) رواه البخاري رقم (١٣٦٠)، ومسلم رقم (٢٤).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٤٧٧)، ومسلم رقم (٢٤).

لا يقصد ما تدل عليه فهي للعَلَمية فقط.

قوله: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**»؛ يعني: علاماتها ومقدماتها بحيث أنه صار يأخذ الكلام ويرده، ولو كانت الوفاة حضرت ما أفاده هذا؛ يعني: إذا عاين، أو بلغت الروح الحلقوم ما ينفع قوله لا إله إلا الله، وفي هذا دليل علىٰ أن من حضرته الوفاة ولم يُعاين الملائكة، أو لم تبلغ روحه حلقومه أنه إذا قال: لا إله إلا الله يُحكم بإسلامه إذا كان كافرًا، وأنها تنفعه بشرط أن يتيقن أن هذا حق وينطق بذلك ويكون قلبه عالمـًا بمعناها مُوقنـًا بها، وبهذا يكون مسلمًا، أما إذا اعتقد صحة الإسلام، وأنه حق ولكنه لم ينطق بكلمة الإخلاص فهو كافر بالاتفاق كما ذكر الإجماع علىٰ ذلك النووي وغيره وكذلك شيخ الإسلام.

قوله: «**أبا طالب**»: هو عم رسول الله ﷺ الذي كان يحب رسول الله حبـًا شديدًا، ولكنه حب طبيعي وليس حبًا لأنه رسول الله. وكان يعلم أنه صادق وكان يصرح بهذا في قصائده وفي كلامه، ويعلم أنه لا يعنىٰ بالأكاذيب ولا يقولها وأن قوله كله حق، ومع ذلك كان كافرًا، كفر الإباء والتقليد للآباء.

وقوله: «**جاءه رسول الله**»: يدل علىٰ أن النبي ﷺ حرص علىٰ هدايته وأحب ذلك وعمل ما في وسعه علىٰ أنه يهتدي، ولكنه ما استطاع هدايته، والحكمة لله ﷻ في هذا وغيره، فهذا دليل علىٰ أنه عبد لا يملك شيئًا مع الله وأن هداية القلوب بيد الله، فهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو ﷻ أعلم بمن يستحق الهداية فيتفضل عليه ممن يستحق الغواية فيضله بعدله وحكمته، وكل ذلك فضله وعدله وهو حكم عدل لا يُسأل عما يفعل -تعالىٰ وتقدس-، فالخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يجوز أن يُسأل لماذا فعل كذا؟ ولماذا لم يفعل كذا؟ لأن العبد ليس أهلًا لذلك، وهو تعالىٰ المالك لكل شيء المتصرف في كل شيء ﷻ، ولكنه يسدي فضله علىٰ من يشاء بالهداية، وعلىٰ العبد أن يذل بين يديه ويخضع له ويستكين

ويطلبه الهداية لعله يمن عليه بالهدىٰ، فإنه ليس له من نفسه قوة ولا من غيره من الخلق، فإذا لم يهده الله فلن يستطيع أحد أن يهديه.

وفي هذا مضرة صحبة الأشرار، وأنهم أضر شيء علىٰ الإنسان؛ لأن هذا من الأسباب التي منعت أبا طالب أن يقول: لا إله إلا الله، وقد نظر إلىٰ النبي ﷺ وكاد أن يتكلم، ولكن جلساء السوء منعوه من ذلك بما ذكروا له من الحجة الشيطانية حجة تعظيم الآباء.

قوله: «**يا عمِّ**»: هذا أصلها عميَ فحذفت الياء وجعلت الكسرة دليلًا عليها.

قوله: «**قل: لا إله إلا الله**»: فيه أنه يعرف معناها، وأن أبا جهل يعرف معناها، وكذلك عبد الله بن أبي أمية وكانا كافرين في ذلك الوقت وعرفا أنه إذا قال: هذه الكلمة ينتقل من ملة إلىٰ أخرىٰ، من ملة الكفر والشرك إلىٰ ملة التوحيد والإخلاص لله ﷻ، ولهذا قالا له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» فقط؛ يعني: أنك إذا قلتها رغبت عن ملة عبد المطلب الذي مات مشركًا، وانتقلت إلىٰ ملة محمد ﷺ فهم يعرفون هذا تمامًا.

والانتقال معناه أن العبادة الإخلاص، أما الربوبية فهم يعلمون هذا، وفي قصة عبد المطلب مع أبرهة في قصة هدم الكعبة وفيها: «إن الملك يقول لك: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن يرد الملك علي مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، تكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك، وقد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: أنا رب إبلي، وإن للبيت ربًا سيمنعه»[1]، فهو يعرف أن الله هو المالك، وأنه هو الذي يحمي البيت، فحمىٰ الله البيت وأهلك أبرهة وجنده.

---

(١) أخبار مكة للأزرقي (١/ ١٩٠).

فالمقصود أنهم كانوا يؤمنون بربوبية الله ﷻ وأنه هو المتصرف في الكون كله، وإنما النقص والخلل دخل عليهم في العبادة التي تصدر منهم مثل: الدعاء، دعوتهم الأشجار والأحجار والمقبورين والملائكة والأنبياء والنجوم، يدعونهم دعاء شُفعاء وليس دعاء مالكين يتصرفون مع الله، بل يزعمون أنهم شُفعاء لهم يشفعون عند الله، وهذا كثير في القرآن.

فالمقصود: أنهم كانوا يعرفون معنىٰ لا إله إلا الله، ولهذا يقول المؤلف في المسائل: إن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «**قل: لا إله إلا الله**»، فقبح الله مَن أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام[1]. فهل يكون المسلم فيه خير إذا كان الكفار أعلم منه بلا إله إلا الله، ولكن الحقيقة أن هذا لتغير الأحوال وتغير اللغة واللسان؛ لأن أولئك كانوا عرب فصحاء، والرسول ﷺ منهم يخاطبهم بلغتهم التي يعرفونها، والقرآن نزل بلغتهم فهم يعرفون ذلك تمامًا. أما فيما بعد فصار كثير من الناس ما يعرف معنىٰ الإله، ولا يعرف معنىٰ العبادة ما هي. وجعل العبادة هي الربوبية كما هو الواقع كثيرًا، فهذا سببه الجهل وهو الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ.

قوله: «**فكان آخر ما قال: هو علىٰ ملة عبد المطلب**»، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفي رواية معمر هو علىٰ ملة عبد المطلب، وأراد بذلك نفسه، ويحتمل أن يكون قال: أنا[2]، فغيَّرها الراوي أنفة أن يحكي كلام أبي طالب استقباحًا للفظ المذكور وهي من التصرفات الحسنة[3]؛ يعني: اجتناب الألفاظ القبيحة والتعبير عنها بالعبارات التي تدل عليها.

(١) المسألة الرابعة.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك رقم (٣٢٩١). «**أنا علىٰ ملة عبد المطلب فمات**»، قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فإن يونس وعقيلًا أرسلاه عن الزهري عن سعيد. ووافقه الذهبي.

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٥٠٧).

قوله: «وأبىٰ أن يقول: **لا إله إلا الله**»: هذا تصريح من الراوي أنه أبىٰ ما قاله له الرسول ﷺ، وبهذا يُرد علىٰ الذين يزعمون أنه أسلم هو وعبد المطلب، كما تقوله الرافضة، وبعض الصوفية القبوريين، وهم يترضون علىٰ أبي طالب وعبد المطلب وهذا من جهلهم ويزعمون أنهما مسلمان، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وفي القراءة الأخرىٰ: «ولا تَسأل»، يقولون: إن السبب أنه كان يقول: «**ليت شعري ما فعل أبواي؟**»، فنزلت هذه الآية، وهذا تصريح واضح، وكذلك ما ثبت في الصحيحين: أنه ﷺ لما ذهب في عمرة القضية أو الحديبية مر بقبر أمه بالأبواء وجلس عنده طويلًا وبكىٰ، وأبكىٰ الذين معه ثم قال: «**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**»[(١)]، فهذا صريح ظاهر.

والسيوطي له ثلاثة كتب كتبها في حياة الأبوين أن الله أحياهما للنبي ﷺ فأسلما ثم ماتا.

فما ندري هذه العجيبة والآية الباهرة ما عرفها إلا السيوطي وقلة ممن يميل إلىٰ الخرافة، أما العلماء الكبار والحفاظ فأنكروها.

وعلىٰ كل حال الأمر بيد الله ﷻ، وفي صحيح مسلم عن أنس: أن رجلًا قال: «يا رسول الله أين أبي؟ قال: **في النار** -فتغير وجه الرجل-، فلما قفىٰ دعاه، فقال: **إن أبي وأباك في النار**»[(٢)]. اذهب أي قبر مشرك مررت به فقل له: «**إني رسول رسول الله إليك أبشر بالنار**». قال الرجل: لقد كلفت شططًا[(٣)]. فكان كل ما مر بقبر مشرك قال

(١) رواه مسلم رقم (٩٧٦) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٠٣).

(٣) رواه ابن ماجه رقم (١٥٧٣)، والطبراني رقم (٣٢٦)، والبيهقي في دلائل النبوة رقم (١٠٥) وعن سالم عن أبيه قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم وكان وكان. فأين هو؟ قال: «في النار» قال: فكأنه وجد من ذلك. فقال: يا رسول الله فأين أبوك؟ فقال رسول الله ﷺ: =

له: «أني رسول رسول الله إليك أبشر بالنار»؛ لأنه أمره ﷺ بذلك.

فالمقصود أنه قال: «**إن أبي وأباك في النار**»، وهذا من حكمة الله ليبين أن الرسول ﷺ لا يملك من الهداية شيئًا، ولا يملك مع الله شيئًا، فالملك كله بيد الله هو الذي يهدي.

فعلىٰ هذا تبين أن التعلق بمخلوق يدعوه هو من الضلال البين الظاهر، ومن الإفلاس وطاعة الشيطان فهذا المقصود من هذا الباب.

وقوله: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

هذا فيه أشكال؛ لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة بسنة، أو قريبًا من ذلك، ثم بعد ثمانية أيام من موته ماتت خديجة، وكان ذلك العام يسمىٰ عام الحزن؛ لأن المشركين تسلطوا علىٰ رسول الله ﷺ وصلوا إلىٰ شيء من أذاه ما كانوا يصلون إليه من قبل لما كان عمه أبو طالب حيًا، ثم أذن الله له بالهجرة بعد ما تمالؤوا علىٰ قتله، وقالوا إلىٰ متىٰ نصبر عليه، وهو كل يوم يدخل في دينه من شبابنا ونساءنا وجهالنا -هكذا يسمونهم- جماعات، إلىٰ متىٰ نصبر عليه، لا بد من الفصل بيننا وبينه فتواعدوا ليتداولوا الرأي فيه في دار الندوة، فقد جاء أنه: «لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم منعة فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة- وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها- يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

= «**حيثما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار**» قال: فأسلم الأعرابي بعد. وقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعبًا. ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار.

ذكر ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس ﵄ قال: لما أجمعوا لذلك وتواعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي تواعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل بحلة فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفًا على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي تواعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا، قالوا: أجل فادخل فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا، قال: فتشاوروا. ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيرًا والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيًا غير هذا. قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا

صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له(١).

عند ذلك جاء الإذن له من الله بالهجرة، وجاء جبريل في تلك الليلة وقال له: لا تنم في منامك الليلة، وأمر عليًا أن ينام فيه وقال له: لن يصلوا إليك لا تخاف، فخرج إلى أبي بكر وخرجا جميعًا. وسُنَّة الله فيما قص علينا في كتابه أن الكفار إذا أخرجوا أنبيائهم عذبهم الله ﷻ، لكن رحمة الله في هذا غلبت وله الفضل، أراد الخير والرحمة بهم وإلا فهم يستحقون العذاب.

فالمقصود أن هذا كان في مكة وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] في سورة مكية، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾ [التوبة: ١١٣] هذه في سورة مدنية وهي التوبة، وهي من آخر ما نزل، نزلت في غزوة تبوك.

وجه الإشكال أنه قال: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...﴾ الآية. وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الإشكال في الفرق الزمني.

الرسول ﷺ كما سمعنا في الحديث الصحيح أنه لما ذهب في غزوة الحديبية أو في عمرة القضية بعدها بسنة طلب من ربه أن يستغفر لأمه فأبى عليه، وهذا يدل أيضًا على تأخر نزول قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...﴾ الآية، كما هو واضح أن نزولها في غزوة تبوك.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٠).

وأيضًا جاء أن المؤمنين لما سمعوا أن الرسول ﷺ يستغفر لعمِّه صاروا يستغفرون لآبائهم، وقالوا أيضًا: إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فنحن نستغفر لهم، فأنزل الله هذه الآية بعد فترة من ذلك، فكان فيها النهي عن الاستغفار للمشركين، يدل علىٰ هذا أن النبي ﷺ كان في المدينة يستغفر للمنافقين، وقد يصلي عليهم كما صلىٰ علىٰ رأسهم بعد موته عبد الله بن أبي سلول، فإنه جاء ابنه إلىٰ الرسول ﷺ وطلب ثوبًا فأعطاه ثوبًا وكفنه به، فعن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي علىٰ ابن أُبي وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ أُعدِّد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**أخِّر عني يا عمر**». فلما أكثرت عليه قال: «**إني خُيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت علىٰ السبعين يغفر له لزدت عليها**». قال: فصلىٰ عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتىٰ نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلىٰ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤] قال: فعجبت بعد من جرأتي علىٰ رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم(١). فهذا يدل أيضًا علىٰ تأخر ذلك، فإن الاستغفار للمشركين والنهي عن الصلاة علىٰ المنافقين والاستغفار لهم كان متأخرًا لفترة طويلة بلغت سنين.

الخلاصة: أن الهداية التي هي هداية القلوب أنها ملك لله، وأن أحدًا من الخلق لا يملكها، وأما الهداية التي جعلها الله للرسل وأتباعهم فهي هداية الدلالة والدعوة والإرشاد، وهي مجرد بيان فقط، وأن الله جل وعلا جعل الفصل بين المؤمن والكافر وإن كان قريبًا، فالمؤمن يجب أن يتبرأ من الكافر مهما كان، وإن كان أباه أو أمه، فإذا مات علىٰ الكفر فإن الصلة مقطوعة بينه وبينه لا يصله، ومن ذلك الصلاة عليه إذا مات والدعاء له والصدقة وما أشبه ذلك، فإن الله قطع ذلك بين من مات علىٰ

---

(١) رواه البخاري رقم (١٣٦٦).

الشرك ومن كان مسلمًا. ثم إن الاتجاه والتعلق والدعاء والعبادة يجب أن تكون لله وحده وأن أحدًا من الخلق لا يجوز أن يكون له شيء من ذلك لا الرسول والملائكة ولا غيرهم، وبهذا يتبين أن دين الله الذي جاء به الرسول ﷺ وكلف الناس به أنه إخلاص الدعاء والعبادة لله وحده، وأنه لا يعبد ولا يدعىٰ إلا الله وحده، وبهذا يتبين ضلال الذين يتوسلون بالمقبورين ويزعمون أنهم يشفعون لهم ويدعونهم من أجل ذلك، فإن ذلك هو سبيل المشركين وهو دعوتهم لا فرق بين هذا وما كان عليه المشركون.

أما التوسل بالرسول أو الولي، أو ما أشبه ذلك فصار فيه التباس عند كثير من الناس؛ لأنه قد جاء أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يستسقون ويقولون: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون»[1]، فالتبس الحق فيه بالباطل عند كثير من الناس، قالوا: نتوسل؛ يعني: معناه أنهم يتوسلون بذاته فصار التوسل يطلق علىٰ دعاء الله بالمخلوق فيقول: أسألك بفلان أو بجاه فلان أو بقربه أو عمله أو بأنه ولي أو بأنه نبي، وهذا لم يكن معروفًا عند الصحابة رضي الله عنهم، والتوسل جاء ذكره في قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

الوسيلة هي الطريقة التي توصل إلىٰ رضىٰ الله وإلىٰ إثابته، وهي الأعمال الصالحة. فهل يتوسل بالمخلوق؟ نقول: هذا فيه تفصيل:

إذا كان المخلوق حيًا حاضرًا يجوز التوسل بدعائه، أما إذا كان ميتًا فلا يجوز التوسل به.

---

(١) رواه البخاري رقم (١٠١٠) عن أنس رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.

أما بذاته فلا يُتوسل بها لا في حياته، ولا بعد مماته، وإن كان الشوكاني رحمه الله يقول: لا فرق بين التوسل بالدعاء والتوسل بالذات، وهذا من الأمور التي أخطأ فيها خطأً واضحًا، وتبعه بعض تلامذته على هذا، وذكره في كتاب «الدر النضيد في معنى كلمة التوحيد». ويستدل على هذا بقصة أصحاب الغار وغيرها وكلها مغالطات؛ لأن أصحاب الغار توسلوا بصالح أعمالهم الخالصة لله، وفرق بين هذا وهذا، فلا يجوز للعبد أن يتوسل إلى الله بالمخلوق، وإذا كان المخلوق له أعمال فهي له، فالإنسان لا يستطيع أن يتحصل من عمله شيئًا، فمثلًا إذا قال: أسألك بفلان فلا صلة بينك وبين فلان، إذا قلت: أسألك برسولك هذا، إذا كنت تقصد بإيماني برسولك وإتباعي له نقول: هذا صحيح؛ لأن هذا عملك وأنت يجوز لك أن تتوسل إلى الله بعملك، أما بذات الرسول، أو عمله، فهذا أجنبي عنك ولا يجوز أن تفعل ذلك؛ لأنه غير مشروع وليس عليه دليل بل هو وسيلة إلى الشرك وإلى عبادة هذا الذي تسأل الله به، وكذلك إذا قال: أسألك بجاه محمد، أو بجاه رسولك، أو بجاه عيسى، أو بجاه موسى ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وإذا قال مثلًا: أنت تنكر جاه الرسول؟ نقول: نحن لا ننكره، لكن جاه الرسول له مثل: صلاته وصومه، هل أنت تسأل الله بصلاته أو صيامه هذا لا يمكن؛ لأنه له.

فنقول أن هذا غير مشروع وأنه من البدع التي تضل الإنسان، وقد تكون وسيلة إلى الشرك.

فالتوسل يجب التفصيل فيه، فمنه ما هو باطل ومنه ما هو حق، فإذا كان الإنسان يتوسل بعمله الخاص، ومنه الإيمان بالرسول ﷺ فهذا حق وهو طريق إلى إجابة الدعاء.

أما إذا كان يتوسل بذات الرجل سواءً الرسول، أو غيره من الصالحين فهذا من البدع وهي من وسائل الشرك.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: فيـه مســائل:**

۞ **الأولى: وهي المسألة الكبيرة: تفسير قوله: «قل: لا إله إلا الله» بخلاف ما عليه من يدعي العلم.**

لأن فهم هذه الكلمة صار صعبًا عند الناس، وعانا منه شيخ الإسلام الشيء الكثير؛ لأن الناس عاشوا علىٰ أوضاع تواضعوا عليها وشهدوها حتىٰ من العلماء تنافي هذه الكلمة فصعب عليهم فهمها ولهذا قال: «المسألة الكبيرة»؛ يعني: أن الإنسان إذا فهم هذه القصة ونظر فيها صار فهم لا إله إلا الله واضحًا جليًا، ولكن أكثر الناس يظن أن هذا مجرد نطق بهذه الكلمة، وأن الإنسان إذا كان ينطق بها فإنه مسلم، وإن كان يأتي بما يناقضها من سؤال الميت والطواف بالقبور والتبرك بها وما أشبه ذلك من الشركيات؛ لأنهم يرون أن هذا ليس شركًا وإنما هذا من القربات، ويجعلونه عملًا صالحًا وهو تناقض ظاهر، ولهذا قال: «المسألة الكبيرة»، وفي الواقع أنها مسألة كبيرة جدًا؛ لأن هذه الكلمة هي التي يتبين بمعناها المسلم من غيره، وبذلك يتميز التوحيد من الشرك.

۞ **الثانية: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل: لا إله إلا الله» فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.**

لأن الرسول ﷺ لما قال له قل: «لا إله إلا الله، قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب»؛ يعني: فهموا أنه إذا قال: لا إله إلا الله أنه ينتقل من دين إلىٰ آخر، ينتقل من ملة الشرك إلىٰ ملة الإسلام والتوحيد، فهم يعرفون معناها قطعًا وهذا ليس في هذا فقط كل السيرة معهم سيرة الرسول ﷺ تدل علىٰ ذلك، فلما شكوه مرة إلىٰ عمه قالوا: إنه آذانا، وأنه لا يذكر اليهود والنصارىٰ بمثل ما يذكر به ديننا وآلهتنا من السب والشتم، يرون أنه إذا قال: إنها لا تنفع وأن من فعل ذلك يكون في النار فجعلوا هذا سبًا وشتمًا، إنها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع وليس لها أي مقام عند الله

يسمون هذا سبًا وشتمًا، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش منهم أبو جهل، فقالوا: يا أبا طالب ابن أخيك يشتم آلهتنا يقول ويقول، ويفعل ويفعل، فأرسل إليه فأنهه، قال: فأرسل إليه أبو طالب، وكان قرب أبي طالب موضع رجل فخشي إن دخل النبي ﷺ علىٰ عمه أن يكون أرق له عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس، فلما دخل النبي ﷺ لم يجد مجلسًا إلا عند الباب فجلس، فقال أبو طالب: يا ابن أخي إن قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول، وتفعل وتفعل، فقال: «**يا عم إني إنما أريدهم علىٰ كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية**، قالوا: وما هي نعم وأبيك عشرًا، قال: **لا إله إلا الله**، قال: فقاموا وهم ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، قال: ثم قرأ حتىٰ بلغ: ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٥-٨]»[(١)] يعرفون هذا جيدًا؛ لأنهم أهل اللغة بخلاف من فسدت لغته وأصبح لا يعرف معنىٰ الإله، ولا يعرف معنىٰ العبادة فيقعون في الشرك وهم يظنون أنه ليس شركًا، بل يظنون أنه عمل صالح، هذا هو السبب.

۞ الثالثة: جده ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

يعني: في دعوته عمه، وهكذا ينبغي للإنسان أن يجد في الدعوة ويحرص عليها لعل الله ﷻ أن يهدي علىٰ يديه رجلًا واحدًا فيكون خير له من الدنيا.

۞ الرابعة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

وهم الرافضة الذين يزعمون أنه أسلمَ، كما يزعم كثير أن الله أحيا له والديه فأسلما، كما ألف السيوطي في هذا عدة مؤلفات وفرح بها أهل الخرافة، وليس له إلا حديث موضوع، أو كلامًا يخالف النصوص التي في كتاب الله وفي الصحيحين.

---

(١) مسند احمد رقم (٣٤١٩).

❁ **الخامسة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.**

يعني: أن هذا الأمر بيده ﷻ، وأن استغفار النبي ﷺ للمشرك لا ينفعه وغيره من باب أولىٰ، فإذا كان المشرك لا تنفعه قرابته ولا ينفعه استغفار غيره له، فالله ﷻ ليس بينه وبين خلقه صلة إلا بطاعته واتباع أمره.

❁ **السادسة: مضرة أصحاب الأسلاف والأكابر.**

من أضر شيء علىٰ الإنسان أن يكون أصحابه وجلساؤه أهل شر، وأهل سوء، ولهذا يجب علىٰ العبد أن يحذر من أصحاب السوء، وأصحاب الانحرافات، وأن يفر منهم فراره من الأسد، فالواجب أنه لا يصحب إلا من ينتفع به.

❁ **السابعة: مضرة تعظيم الاسلاف والأكابر.**

يعني: تعظيم الآباء وتعظيم الأديان؛ يعني: المذاهب والنحل التي ينتحلها الإنسان، ولهذا نجد كثيرًا من الناس، وإن كانوا مسلمين يتعصبون لمذاهبهم ولأقوال من يعظمون أشد التعصب حتىٰ إنهم يحاولون رد النصوص أو ليِّها وتحريفها التحريف الذي يكون مستكرهًا.

❁ **الثامنة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره؛ فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.**

يعني: أن الناس يحتجون بما كان عليه كبراؤهم وعظماؤهم، فإذا أمرتهم أو نهيتهم قالوا لك: الناس كلهم ما يقولون قولك، أو أن الناس علىٰ خلاف ذلك فهذه حجتهم نفسها، ولكن الأسلوب تغير فقط، وإذا نظرنا في القرآن إذا كل الأمم المشركة ترد علىٰ الرسل بأنهم خالفوا ما كان آباؤهم عليه كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

[الزخرف: ٢٣]، أن كل أمة يرسل إليها رسول تقول هذه الحجة، وكذلك الآن كثيرًا ما نسمع إذا نهي الإنسان عن أمر من الأمور التي يرتكبها قال الناس كلهم يفعلون هذا، هذه نفس الحجة، فالواجب على العبد أن يتعرف على الحق ، وليس كون الناس على شيء حجة، الحجة ما جاء به الرسول ﷺ وما قاله الله جل وعلا، وقاله رسول الله ﷺ.

الباب التاسع عشر

قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

الأدلة في هذا كثيرة. وقد نبَّه علىٰ المسائل المهمة في الأبواب التي يعقدها وكلها مهمة، ولكن هذا من أهم الأبواب؛ لأنه إذا كان سببًا للكفر وترك الدين وجب أن يحذر أشد الحذر، ومعلوم أن سُنَّة الله لا تتخلف في خلقه.

وقوله: «أن سبب كفر بني آدم»: جعله في بني آدم عمومًا وليس أناسًا مخصوصين، ولا سيما أن القصة التي ذكرها قيل: إن أولئك الذين صنعوا ذلك هم أولاد آدم من صلبه.

قوله: «وتركهم دينهم»: يعني أن أصل الدين في بني آدم هو التوحيد والإخلاص وعبادة الله تعالىٰ؛ لأن الله أقام لهم دينهم أولًا بإرسال أبيهم إليهم آدم عليه السلام فهو نبي مكلم علىٰ الحق مستقيمًا، وإن كان الشيطان أصاب منه ما أصاب لحكمة أرادها الله، حتىٰ يكون في هذه الأرض تعمرها ذريته إلىٰ أن يأتي الأجل الذي أجَّله الله، وكذلك تنتهي المواليد التي قدر الله جل وعلا أن تكون في الجنة، أو في النار من أولاده.

وقد جاء عن ابن عباس أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون علىٰ التوحيد[1]، والقرن المشهور أنه مائة سنة، وقد قيل: القرن ورجحه الحافظ: أنه الذي يجتمع فيه الناس علىٰ أمر من الأمور، ثم ينقرضون عن آخرهم ويأتي

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٣٦٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة. وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وعند ابن جرير (٢٣/ ٦٣٩)، وابن كثير في التفسير (٤/ ٢٨٥) قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم علىٰ الإسلام.

غيرهم(١)، واستدل عليه بقول الرسول ﷺ لما سئل عن الساعة فمر غلام فقال: «**إن أخر هذا فلن يدركه الهرم حتىٰ تقوم الساعة**»(٢)، المقصود ساعة هذا الجيل.

وأعمار الأمم السابقة طويلة، فقد ذكر أن نوح عليه السلام بقي في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا فقط في دعوة قومه، فكيف قبل الدعوة وكيف بعدها.

أما هذه الأمة فأعمارهم قصيرة، قال عليه الصلاة والسلام: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلىٰ السبعين، وأقلهم من يجاوز ذلك**»(٣)، وفي رواية: «**معترك المنايا بين الستين إلىٰ السبعين**»(٤)، والرسول ﷺ عمره ٦٣ سنة، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه.

قوله: «**الغلو**»: والغلو: هو الزيادة علىٰ المشروع. ما تجد أناسًا يتجهون إلىٰ شيء من الأشياء إلا ويزيدون فيها، وكذلك إذا ذموا زادوا، والواجب أن يُتبع الحق في هذا وغيره. والزيادة والنقص كلاهما مضر، ولهذا يقول ابن الوزير: تأملت نقص الدين في هذه الأمة فوجدته يأتي من الزيادة والنقص فقط.

كل النقص يأتي من الزيادة علىٰ الحق المشروع، أو من النقص فيه وبخسه، وهذا هو المقصود هنا كون الإنسان يغلو؛ يعني: يزيد في شيء شرعه الله ويتعداه، سواء في القول، أو في الفعل الذي هو فعل الجوارح، أو فعل القلب فقط الذي هو الحب.

وإذا نظر العبد مثلًا فيما وقع فيه كثير من الناس في بلاد المسلمين من التعلق بالصالحين وعبادة القبور، يجد السبب مجاوزة الحد المشروع، فالبدوي مثلًا: لم يُعرف عنه أنه من ذي السوابق وذوي العبادات، وإنما فقط غلو في قبره وعظَّموه

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ١٧٢).
(٢) رواه البخاري رقم (٦١٦٧) عن أنس.
(٣) رواه ابن ماجه رقم (٤٢٣٦)، والبيهقي رقم (٦٧٥٩)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٩٨٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٥٩٨) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه الترمذي رقم (٢٣٣١) بلفظ: «عمر أمتي»، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة.
(٤) البيهقي في شعب الإيمان رقم (١٠٢٥٣)، وأبو يعلىٰ في مسنده رقم (٦٥٤٣).

وبنوا عليه البناء والستور وصار له سدنة فصار من أكبر المعبودات، وكذلك الدسوقي وغيره، والبلاد مملوءة من الصحابة والصالحين من الذين لم يُغلَ في قبورهم.

فالمقصود: أن الشرك الذي يقع فيه الناس من أفعالهم التي تجاوزوا الحق فيها، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: «قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[1]. معنى هذا أن الرسول ﷺ يبعث البعوث لتفادي الغلو والزيادة على الأمر المشروع؛ لأن هذا هو السبب في ترك الدين، وأعجب من هذا أنهم يعبدون إمام الملاحدة الذي يقول عنه ابن تيمية رحمه الله: إن كفره أعظم من كفر اليهود والنصارى وهو معبود عندهم -يعني: ابن عربي-.

قوله: «**في الصالحين**»: جعل الغلو في الصالحين؛ لأنه أسرع عند الناس من غيرهم، وإلا فقد وجد غلو في غيرهم وكونه خص الصالحين؛ لأن هذا الغالب، وإلا الغلو في كل شيء لا يجوز وممنوع.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١].

أهل الكتاب المقصود بهم اليهود والنصارى، وكثيرًا ما جاء في كتاب الله خطابهم في مثل هذا، ومعلوم أن المسلم منهم قليل بل في زمن الرسول ﷺ لا يتجاوزون ثلاثة أو أربعة فكيف توجه إليهم الخطابات. فالمقصود من ينتفع بالخطاب ويستجيب ونحن المقصودون بذلك؛ يعني: لا تكونوا مثلهم وتسلكوا مسلكهم فيصيبكم ما أصابهم أو أشد.

---

(١) رواه مسلم رقم (٩٦٩).

وأهل الكتاب غلوا في عيسىٰ ﵇، وكذلك فرطوا فيه، فمنهم من جفاه، ومنهم من غلا، فاليهود جفوا فيه، وهذا من الغلو وعدم الاعتدال، فزعموا أنه ابن بغي قاتلهم الله، وحاولوا قتله وزعموا أنهم قتلوه، وقد أخبر الله أنه ألقىٰ شبهه علىٰ رجل منهم، فقتلوا هذا الرجل، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وقال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، متوفيك؛ يعني: وفاة النوم، فالنوم يكون وفاة كما قال الله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]؛ أي: لم تمت في منامها، ولهذا يقول العلماء النوم شبيه الموت، بل هو موت لكنه ليس موتًا كاملًا فيه مفارقة الروح.

والمقصود أن الله رفعه، وجاءت الأحاديث متواترة عن النبي ﷺ أنه ينزل في آخر هذه الأمة ويحكم بهذه الشريعة، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ولا يقبل الجزية[1]، وإنما يقبل الإسلام فقط، ولهذا جاء أنه إذا فعل هذا تغضب الكفار فتأتي إليه تحاربه وهذا الذي ذكره الرسول ﷺ من خروج يأجوج ومأجوج يأتون إليه ليقتلوه؛ لأنه أصبح لا يقبل إلا الإسلام، هذا ثبت في حديث طويل عند مسلم: «**إذ أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلىٰ الطور**- هو اسم لكل جبل فيه نبات، وإذا لم يكن يُنبت فليس بطور، وإن كان هذا مقصودًا به جبلاً معينًا- **ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدبٍ ينسلون**»[2]،

(١) رواه البخاري رقم (٢٢٢٢)، ومسلم رقم (١٥٥) عن أبي هريرة ﵁ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد**».

(٢) رواه مسلم رقم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان.

فالمقصود أنه سينزل، ثم بعد ذلك يتوفاه الله بعد ما يقوم بهذا الشرع ويُهلك الله علىٰ يده الدجال، ثم شيعته يهلكهم الله بدعوته.

أما النصارىٰ فهم جعلوه إلهًا بل بعضهم جعلوه الله، ذكر الله في آيات عدة قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وزعموا أنه ابن الله، وقد ذكر الله غلوهم في هذا ورد عليهم فأخبر الله: أنه عبدٌ عبَّده الله، وأنه خلقه بكلمته التي أرسلها إلىٰ مريم جعله آية للناس ومثله كمثل آدم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وذكر أمورًا مقنعة فأخبر أن عيسىٰ وأمه يأكلان الطعام فكيف الذي يأكل الطعام يكون إلهـًا؛ يعني: أنه فقير يفتقر إلىٰ الأكل، وإذا أكل يفتقر إلىٰ إخراجه فكيف يكون هذا إلهـًا.

فالمقصود أن أهل الكتاب غلوا وجفوا، وهذه الأمة سوف تسلك مسلك أهل الكتاب، ولا يلزم أن تكون الأمة كلها فقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم ظاهرون علىٰ الناس**»(١).

وكذلك الذين سلكوا مسلك الغلو في هذه الأمة لا يلزم أنهم قالوا مثل ما قالت النصارىٰ: إن فلانـًا الذي هو الولي أو النبي أنه هو الله، أو ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، ولكن يكفي المعنىٰ إذا اعتقدوا أن لهذا المخلوق شيئـًا من الألوهية أو الربوبية، فهذا يكفي وهذا وجد نثرًا وشعرًا في الأمة حتىٰ في العلماء مثل قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

الحادث العمم: هو يوم القيامة الذي يعم الخلق كلهم كربه وشدته، أين الله

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٣١١) من حديث المغيرة بن شعبة، وعند مسلم رقم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ وعند ابن ماجه رقم (٦): «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورين حتىٰ تقوم الساعة**»، والترمذي رقم (٢١٩٢) وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك رقم (٨٦٥٣).

لا يلوذ به؟ والمشكلة أنه يستغيث بالرسول ﷺ من الله يقول:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم

يعني: إذا تجلىٰ الله باسم منتقم فإني ألوذ بجنابك من غضب الله، يعني: صار إلهًا مع الله، ثم يقول:

فإن من وجودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني: من جملة جود الرسول ﷺ الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علم اللوح والقلم، اللوح الذي سطر فيه كل شيء، والقلم الذي كتب فيه كل شيء، إذًا ماذا بقي لله ﷻ. ؟!

ويقول في همزيته: إني أنشدتها أمام القبر، وأنا واقف مكشوف الرأس خاضعًا ذالًّا يعني: يعبد الرسول؛ لأن كشف الرأس عبادة تكون في الحج لله ﷷ، ثم ذكر مرضه وعذابه، ثم قال:

هذه علتي وأنت طبيبي   ليس يخفىٰ عليك في القلب داء

يعني: أنه يعلم ما في القلوب، ويعلم الغيب. وغيره كثير من الشعراء مثل البرعي فعنده من الشرك ما هو جلي.

فهذا هو الذي تقوله النصارىٰ نفسه يقوله أهل الإفك والكذب، والذين زعموا أن مخلوقًا كان في بطن أمه، ثم خرج من فرجها أنه هو الله -تعالىٰ الله وتقدس-، فهؤلاء أخذوا المعنىٰ فقط وتركوا الألفاظ ودعوا النصارىٰ، وبهذا يتبين ما قاله الرسول ﷺ، كما سيأتي في الباب الذي بعد هذا الباب عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتىٰ لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**». قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن»[1]، فلا بد

---

(١) سبق تخريجه.

من هذا الفعل الذي فعلوه بأن يقع في هذه الأمة، أما كون هذه الجزيرة لا تعود إلىٰ الجاهلية كما قال الرسول ﷺ: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»(١)، فالمعنىٰ أنها لا تعود كما كانت جاهلية سابقة، لا بد أن يكون فيها من يقوم بالحق، وإلا كانت عبادة القبور والشجر، والغيران، وعبادة الأشخاص الأحياء والأموات موجودة ومنتشرة كثيرًا، ولا ينافي هذا الواقع كما أنه لا ينافي قوله ﷺ في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أليات نساء دوس علىٰ ذي الخلصة**»(٢). ذو الخلصة صنم يعبد في الجاهلية فهدم وأزيل، ولكنه عاد فصارت النساء تطوف عليه فهدم فيما بعد، كما هو الواقع الذي أخبر به الرسول ﷺ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **في الصحيح عن ابن عباس في قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. **أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتىٰ إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت**(٣).

قوله: «**في الصحيح**»؛ يعني: صحيح البخاري ذكره في كتاب التفسير في تفسير سورة نوح عند الآية، وذكره عن عطاء عن ابن عباس وبعض الحفاظ اعترض علىٰ البخاري في هذا، وقال عطاء: المقصود به عطاء الخراساني، وعطاء الخراساني ما لقي ابن عباس فيكون منقطعًا، وإنما عطاء الخراساني أخذ التفسير عن غيره، نسخة عن ابن عباس، وهذا قاله علي بن المديني وهو مشهور، ثم قال الحافظ: هذا نبه عليه

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٨١٢)، والترمذي رقم (٢١٥٩).
(٢) رواه البخاري رقم (٧١١٦)، ومسلم رقم (٢٩٠٦).
(٣) رواه البخاري رقم (٤٩٢٠).

عدد من الحفاظ لكن الحافظ اعترض علىٰ هذا وقال: هذا لا يمكن أن يخفىٰ علىٰ البخاري وهذا أمر مشهور وهو أيضًا كان يترسم طريقة شيخه علىٰ ابن المديني، وهو من أشد الناس في اشتراط اتصال السند، فكيف يخفىٰ عليه، وإن كان مشهورًا أن عطاء الخراساني لم يلق ابن عباس. والقصد أنه متصل عن عطاء بن أبي رباح، وابن أبي رباح قد لقي ابن عباس، وتتلمذ عليه وهو لم يذكر هذا إلا في موضعين فقط مع أن النسخة التي رواها عطاء الخراساني كثيرة جدًا كما ذكر هذا ابن جرير وغيره من المفسرين، لكن البخاري لم يذكر هذا إلا في موضعين في صحيحه كما يدل علىٰ أنه يعرف هذا الأمر، وأنه لم يخف عليه، وأن هذا متصل وليس منقطعًا.

وهذه القصة لم يتفرد بها البخاري بل لها طرق متعددة كما روىٰ ذلك ابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين. وبعض العلماء اعترض علىٰ هذه القصة يقول: كيف يكون في قوم نوح، ونوح ﷺ بعث في قومه لما وقع الشرك واستمروا وصاروا مشركين، ولهذا العلماء يتفقون أن الرسل يبعثون إلىٰ الكفار، ولا يبعثون إلىٰ قوم مسلمين، ونوح ﷺ هو أول رسول كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية، فجعل النبيين من بعده، وهذا ليس فيه إشكال بقوله النبيين؛ لأنه بالاتفاق أنها تتعاقب الأسماء يقول: نبي الله، ورسول الله، تكون لفظًا واحدًا، لكن إذا اجتمعت فيكون لكل واحد معناه.

فاعتراضهم أن هذا كيف يكون في قوم نوح والقصة تدل علىٰ أنه أول شرك وقع، ونوح لم يبعث بعد؟ والجواب: أنه لا يلزم ذلك؛ لأنه قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح، ولا يلزم هذا أن يكون وقع بعد إرسال نوح، بل قبل ذلك كما هو المفهوم.

وبعض العلماء يقول: هذه أسماء رجال من ولد آدم من صلبه، وود هو أبرَّهم فيه وأكثرهم حبًا له، ولكنهم ماتوا في وقت متقارب بعد موت أبيهم بزمن طويل، فأسف عليهم قومهم أسفًا شديدًا، فأشار بعضهم بأن يصوروا صورهم وينصبوها

في المجالس التي كانوا يجلسون فيها حتىٰ إذا رأوهم اجتهدوا مثل اجتهادهم، وتذكروا أعمالهم فصار في ذلك تشجيعًا لهم علىٰ الخير والعمل الصالح فاستحسنوا ذلك فصنعوه فبقوا وقتًا علىٰ هذا الطريق حتىٰ مات هؤلاء وجاء من بعدهم، ونُسي السبب الذي من أجله صورت هذه الصور، فجاءهم الشيطان وقال إن الذين صوروا هذه الصور يطلبون التوسط بهم عند الله ويتوسلون بها فعُبدت.

ذكر الكلبي وغيره: أن هذه الأصنام بعدما جاء الطوفان حملها ورماها في ساحل جدة وسفا عليها التراب، فلما كان زمن عمرو بن لحي الخزاعي، وكان له تابع من الشياطين جاء شيطانه وقال له: "أجب أبا ثمامة وادخل بلا ملامة ثم إئت سيف جدة تجد بها أصناما معدة ثم أوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب إلىٰ عبادتها تجب"، قال فأتىٰ عمرو ساحل جدة فوجد بها ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا وهي الأصنام التي عبدت علىٰ عهد نوح وإدريس ثم إن الطوفان طرحها هناك فسقىٰ عليها الرمل فاستثارها عمرو وخرج بها إلىٰ تهامة وحضر الموسم فدعا إلىٰ عبادتها فأجيب [1]. فدله الشيطان عليها وبثها في الناس، ودعاهم إلىٰ عبادتها فعبدوها، وذلك أنها وجدت في زمن بعثة النبي ﷺ، فود كانت لكلب في دومة الجندل، وسواع كانت لهذيل قرب مكة، وهكذا كل واحد كان لطائفة، وغوث كان لهمدان، ويعوق كان لحِمْير كما ذكر ابن عباس وذكره غيره[2]؛ كالسهيلي في شرح السيرة، وعلىٰ كل حال سواء كانت هي هذه السابقة، أو ليست هي فإنها أسماء سُميت بها، وإلا فالزمن بعيد جدًا بين وقت العرب وآدم وبعد نوح زمن لا يعلمه إلا الله، ويجوز أن تكون هي لا سيما إذا سفت عليها السوافي، وكانت من الأحجار.

(١) أخبار مكة للفاكهي (٥/ ١٣٩) وانظر الأصنام (١/ ١٠).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٩٢٠) قال ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأم نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.

فالمقصود أن هذه في الأصل أسماء رجال من بني آدم في زمن نوح وهذا لا شك فيه ولا إشكال فيه؛ لأن الله ذكر هذا عنهم في وصية بعضهم لبعض: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١-٢٣]، هذا من جملة ما قالوه لنوح عليه السلام، يقوله بعضهم لبعض وصية وتمسكًا بالشرك خوفًا من أن يتأثروا بدعوة نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾؛ يعني: لا تتركوها لدعوة نوح، وكونه يقول إن هذا كفر ومن استمر عليه يكون في النار.

وقوله: ﴿آلِهَتَكُمْ﴾؛ يعني: جميع ما تتألهونه من الأصنام وغيرها، ويدل على أن الآلهة عندهم كثيرة، وإنما خصُّوا هذه الأسماء المذكورة؛ لأنها متميزة عندهم، وأنها كبيرة أكبر من الآلهة الأخرى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، هذه التي كانت كبيرة عندهم فوصى بعضهم بعضًا بالتمسك بعبادتها، وبسبب ذلك أهلكهم الله بالطوفان.

قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ مطلقًا، والآلهة لا يجوز أن تكون مخلوقة لأن هذا كذب وافتراء، وهي التي يقول الله عنها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]، وهذا من الإلحاد في أسماء الله، وخروج عن الحق، وهو كذب وافتراء فليس للمخلوق من معنى الألوهية شيء، الألوهية يجب أن تكون لله جل وعلا وحده.

والمقصود أن سبب عبادة هذه الأصنام هو تجاوز المشروع في حب الصالحين؛ لأنهم لما أحبوهم وتجاوزوا الحد في محبتهم صوروهم وإن كان المقصود أولًا صالحًا؛ لأن مقصودهم هو تذكر أعمالهم والاجتهاد في العبادة، إذا رأوهم، ولهذا أخذ المؤلف من هذا: أن البدعة كما قال كثير من السلف

تؤول إلىٰ الكفر[١]. فهي بدعة آلت إلىٰ الكفر، فيقول: إن البدعة أحب إلىٰ الشيطان من الذنوب[٢][٣]؛ لأن الذنب الواضح مثل: شرب الخمر، والزنا وغيره يعرف الإنسان أنه حرام وجريمة فيوشك أن يتذكر فيعود علىٰ نفسه باللوم ويتوب، أما البدعة فيرىٰ أنها دين فيتمسك بها ويبقىٰ عليها، وهذا هو معنىٰ قول بعض السلف: «صاحب البدعة لا توبة له»[٤]؛ لأنه يرىٰ ذلك دينـًا فكيف يتوب الإنسان من دينه؟ إلا أن يتبين له أنه ضلال.

المؤلف رحمه الله استنتج من هذه القصة أشياء كثيرة، ومقصوده من ذلك إبطال ما كان عليه الذين يعظمون القبور، وأن تعظيمها هذا مأخوذ من هذا الأصل.

فيقول: كيف يتمسكون بما هم عليه ووجدوا عليه آبائهم من عبادة القبور الذي هو الطواف عليها والجلوس عندها، وتعظيمها وسؤال أصحابها تفريج الكربات وجلب المنافع والطلبات التي يطلبونها منهم، وكذلك الطواف عليها كله عبادة صريحة، مع أنهم يقرأون هذه القصة في كتب التفاسير ويعرفون أن أصل عبادة

---

(١) المسألة الثامنة.

(٢) المسألة التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل.

(٣) مسند ابن الجعد رقم (١٨٠٩) عن سفيان يقول: البدعة أحب إلىٰ إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي رقم (٩٤٥٦) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حجر التوبة عن كل صاحب بدعة**»، وفي رواية: «**حجب التوبة**» رقم (٩٤٥٧)، والطبراني في الأوسط رقم (٤٢٠٢)، والسنة لابن أبي عاصم رقم (٣٧)، قال في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٩): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسىٰ الفروي وهو ثقة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلىٰ إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها. ومعنىٰ قولهم أن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ دينًا لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسنًا فهو لا يتوب ما دام يراه حسنًا؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه أو بأنه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرىٰ فعله حسنًا وهو سيئ في نفس الأمر فإنه لا يتوب. ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتىٰ يتبين له الحق كما هدىٰ ﷺ من هدىٰ من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال. مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩).

القبور مأخوذ من هذا، وهذا يدل على قدرة الباري ﷻ على تقليب القلوب، كيف صرفت قلوبهم عن فهم ذلك، وصارت عبادة الأصنام والأوثان من أفضل الأعمال عندهم، وهذا هو الذي كانوا يواجهونه به فيقولون: كيف تكفر هؤلاء وهم يتعلقون بالصالحين، وهم قوم صالحون يتوسلون بهم والوسيلة مطلوبة، وهم أيضًا يبنون المساجد ويوقفون الأوقاف عليها، وهم يقرأون كتب العلم ويفقهونها، ثم أنت تقول: إنهم كفار ومشركون، وأنهم مثل: قوم نوح، هذا قولهم مع أن الأمر واضح وضوح الشمس؛ لأن هذا هو سبب مفارقة الإنسان دينه.

قوله: «**ولم تعبد**»: يدل على أن الحب الذي هو حب الصالحين يؤول إلى عبادتهم، وكذلك إذا انضم إلى ذلك التصوير، الذي فيه التعظيم ونصبها في المجالس تعظيمًا لها، وإن كان الباعث على ذلك غرضًا صحيحًا بتذكر فعلهم.

«**ولم تعبد حتى هلك أولئك ونسي العلم**»: فيه أن العلم ضروري وأن بفقده يفقد كل خير ويحل محله الشرك الذي هو أعظم الذنوب التي عُصي الله بها، ولهذا جعل صاحبه خالدًا في النار إذا مات عليه. ففي هذا ضرورة العلم، والعلم هو معرفة ما أمر الله به ﷻ وأمر به رسول ﷺ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وقال ابن القيم: وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح** عليه السلام**، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم**[1].

العكوف عبادة وهو الجلوس عند الشيء طلبًا للمنفعة، ولهذا أخبر الله عن قوم

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤) وقال فيه: فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله: «**أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى**».

موسىٰ لما مروا بقوم يعكفون علىٰ أصنام لهم؛ يعني: يجلسون عندها طلبًا لبركتها. والعكوف مثل: الطواف، ومثل: طلب البركة من أماكنها، أو تربتها، أو ما أشبه ذلك فهو من الشرك.

فالطواف لا يجوز إلا علىٰ الكعبة، وليس في الدنيا شيء يطاف عليه غير الكعبة، فمن طاف علىٰ القبر فقد عبده.

ثم قال: «**ثم صوروا تماثيلهم**»؛ يعني: كأن التصوير حصل بعد موتهم، فإذا كان كذلك فهو تصوير تخيل، تخيلوهم كما كانوا فصوروهم.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: **وعن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أن رسول الله** ﷺ **قال: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم؛ إنما أنا عبدٌ. فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أخرجاه**(١).

الناس في لغتهم يقولون: فلان أطرىٰ فلانـًا، إذا ذكره، وهذا من الأمور التي خالفوا فيها اللغة.

الإطراء في اللغة: التجاوز في المدح والكذب فيه، والمدح في الباطل هو المدح فوق المشروع ، والمدح بالباطل يكون كذبًا، ولهذا تقول: المدح بالباطل والتجاوز فيه بالكذب فيه، أو تقول: التجاوز في المدح علىٰ المشروع وذكر الباطل في ذلك.

مع أن المدح كله مكروه، إذا كان في حضرة الممدوح كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ، عن أبي بكرة قال: أثنىٰ رجل علىٰ رجل عند النبي ﷺ فقال: «**ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك**». مرارًا، ثم قال: «**من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا والله حسيبه، ولا أزكي علىٰ الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه**»(٢)، ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا**

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٤٥).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٦٦٢)، ومسلم رقم (٣٠٠٠).

في وجوههم التراب»[١]؛ يعني: الذي يمدح الإنسان في وجهه سوف يتكلم فيه في غيبته بغير ذلك، هذا هو الغالب والمعهود عند الناس.

فقوله ﷺ: «**لا تطروني**»؛ يعني: لا تمدحوني فوق ما أستحق فوق المقام الذي أقامني الله ﷻ إياه، ولهذا قال: «**كما أطرت النصارىٰ ابن مريم**». النصارىٰ جعلت ابن مريم إلهًا وجعلته ثالث ثلاثة، أو جعلته ابن الله، عندهم نحل ثلاث خبيثة، وإن كانت النحلة الرابعة هي من سلك طريق الحق لا تذكر مع أن الرسول ﷺ قال: «**إن بني إسرائيل تفرقت علىٰ اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي**»، هذا الحديث رواه الترمذي وقال: إنه حديث حسن غريب[٢]، وبدون الزيادة حديث صحيح جاء في السنن وجاء في المسند وفي غيرها[٣].

بالاتفاق أن هذه الفرق، أمة الإجابة وليست أمة الدعوة؛ يعني: الذين استجابوا للنبي ﷺ؛ لأنه لا يصح أن يقال: افترقت هذه الأمة، ويقصد بها اليهود والنصارىٰ، والوثنيون، والمجوس وغيرهم.

الأمة هي التي استجابت للنبي ﷺ فتفترق هذا الافتراق، وجاء وعيدها أنها في النار، وقد أمر الله ﷻ بالتمسك بكتابه والاعتصام به، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

---

(١) رواه مسلم رقم (٣٠٠٢) عن همام بن الحارث: أن رجلًا جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا علىٰ ركبتيه وكان رجلًا ضخمًا، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**».

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٦٤٠) و(٢٦٤١).

(٣) أحمد في المسند رقم (٨٣٩٦)، وأبو داود رقم (٤٥٩٦)، وابن ماجه رقم (٣٩٩٢).

فقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: تأكيد للاعتصام؛ لأن التفرق هو خلاف الاعتصام، ثم توعد بعد ذلك من تفرق بالعذاب العظيم، ثم أخبر أنه سوف تسوَدُّ وجوه وتبيَض وجوه، ولهذا قال ابن عباس: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السُنَّة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البِدْعَة والفرقة[١]. وقال ابن كثير في تفسيره في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، يخبر تعالىٰ عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السُّنَّة والجماعة[٢].

والإطراء والزيادة خروج عن الاعتصام بكتاب الله ﷻ، ولكن المقصود هنا الإطراء في الفعل، وفي القول، وفي الاعتقاد، فيزيد علىٰ القدر المشروع فيه فعلًا، أو قولًا وثناء ومدحًا، أو عقيدة، يعتقد في قلبه أنه له مقام كذا، وأنه يعطىٰ كذا، كما هو الواقع من عباد القبور، فإنه لولا هذه العقيدة ما عبدت القبور، ولولا ذلك ما عظمت القبور هذا التعظيم مثل وضعها في المساجد، ثم سترها بالستور، ثم القيام عليها، ثم الكتابات، ثم الطواف، ثم الجلوس عندها... الخ. لماذا؟ أليس هو إنسان رجل له أعمال وعليه سيئات سجلت عليه، ثم جاءه الموت رغم أنفه وأخرج من هذه الدنيا ليس معه إلا كفنه، وأُهيل عليه التراب فلا يستطيع دفع العذاب ولا يستطيع الزيادة في الحسنات، كيف يتجهون إليه ويطلبون منه ما يطلب من الله، أليس هذا إهدار للعقل أولًا قبل الشرع؟ إهدار للعقول ووأد لها، ولهذا لا يقال: إن هؤلاء معذورون؛ لأنهم لهم عقول يجب أن يستعملوها، هل هذا المخلوق المسكين شارك الله في خلقه، هل يستطيع أن يصرف عن نفسه ما ألزمه الله به: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فهو

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ١١١).

مرتهن، ولكن هؤلاء في الواقع يترسمون طرق الجهل والعادات التي يتربون عليها وتهدر العقول، فكيف بالشرع الذي أمر الرسول ﷺ به.

قوله ﷺ: «لا تطروني» هذا بالنسبة إليه، فكيف بغيره من الناس؛ يعني: هذه المخالفات إذا نظرت فيها فإذا هي في الواقع لو كانت تعطىٰ حكمها الظاهر لكان الفاعل لذلك كافرًا بلا تردد؛ لأن الأمر ليس سهلًا، ولكن إذا كان معرضًا فالإعراض كما هو معروف ناقض من نواقض الدين الإسلامي، والإعراض عن دين الله وعدم تعلمه وعدم الاهتمام به، لماذا يكون ناقض؟ نقول: لأن الأمور واضحة جلية لا تحتاج إلىٰ سبر وتقسيم وتفكير، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] لماذا يتجاهلون هذا؛ يعني: إذا كان أحد من الناس يشارك الرب ﷻ في خلق السماوات والأرض يمكن أن يكون هناك عذر، يمكن أن يكون للإنسان تعلق، ولكن هذا لا يدعيه أحد، وكذلك الأمور التي يكررها الله ﷻ علينا في القرآن مثل إحياء الأرض بعد موتها ومثل كون الإنسان من عدم: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٧، ١٨]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، فهو ﷻ يجمع بين هذه الأدلة الواضحة الجلية كثير حتىٰ يفكر الإنسان، وكثيرًا من الناس يقرأ القرآن ولا يفهمه لماذا؟ لأنه لا يعطيه الاهتمام ولا يعتني بتدبره وتفهمه، ولهذا يقعون فيما يقعون فيه.

فقوله: «لا تطروني»؛ يعني: لا تمدحوني فوق ما أستحق، لا تمدحوني بالكذب، لا تمدحوني بالباطل، وإذا عرفنا أن سبب هذا الكلام أنه لما قيل له: «أنت سيدنا»[1]، أو نحو هذا إلا أنه ﷺ حرص كل الحرص علىٰ حماية التوحيد أن

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٨٠٦) عن مطرف قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا: فقال: «السيد الله ﷻ»، قلنا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا، فقال: «قولوا بقولكم =

لا يخدش، وأن لا يدخل الشيطان عن طريق شيء مشروع في الأصل، ثم يفسد على الناس عقائدهم، مع أنه ﷺ هو سيد الناس سيد الخلق كما في البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة**»(١)، فآدم ومن دونه كلهم تبع لرسول الله ﷺ، فالسيد هو المقدم في الناس، أو هو الولي الذي يتولى النعم على الناس، ولهذا يطلق السيد على الله كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢] قال ابن عباس: الصمد: السيد الذي كمل في سؤدده(٢).

وفي الحديث الآخر، لما قيل له: أنت السيد، قال: «**السيد الله**»(٣)؛ لأنه هو الذي يسود الخلق كلهم ﷻ.

فالمقصود: أن هذا من حمايته ﷺ لدين الله ﷻ وسده الذرائع التي يمكن أن يدخل الشيطان منها في إفساد العقيدة التي جاء بها ﷺ، وهي عقيدة صافية، وهي الإخلاص لله، وأن يكون الدين لله ﷻ، أما بالنسبة للخلق، فالخلق إما إخوان لك، أو أعداء لك، فإذا كانوا من المسلمين فهم إخوانك مثلك ما يستطيعون يتعدون ما وضع لهم، كلهم فقراء، وبحاجة إلى ربهم ﷻ.

أما إذا كان كافرًا، فهو عدو يجب أن تقاطعه بكل ما تستطيع وتحاربه وتقاتله،

= أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان».

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٤٠)، ومسلم رقم (١٩٤) من حديث أبي هريرة، وعند أحمد في المسند رقم (١٠٩٨٧)، وابن ماجه رقم (٤٣٠٨)، والترمذي رقم (٣١٤٨)، وهو عند مسلم رقم (٢٢٧٨) دون قوله: «ولا فخر».

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٢٨) عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦٣١٦)، وأبو داود رقم (٤٨٠٦)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٠٧٤).

وتتقرب إلىٰ الله ﷻ بعداوته، وإلا لا تكون من أولياء الله؛ يعني: وليًا يصافي العدو هذا مستحيل وممتنع.

«**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم**»: إذا نظرنا فعل النصارىٰ في هذا تبين لنا ما هو الإطراء المنهي عنه، النصارىٰ ذكر الله ﷻ عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] -تعالىٰ وتقدس-، ولهذا قال ﷻ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، فنفىٰ ذلك عن جنابه ﷻ وتقدس.

قوله: «**ابن مريم**»: معروف أنه ينسب إلىٰ أمه؛ لأنه خلق منها بلا أب.

ثم حصر الواجب الذي يكون له، قال: «إنما أنا عبد»؛ يعني: لست بإله ولا رب، وليس لي شيء من الألوهية والربوبية، أنا عبد معبَّد قمت بالعبودية لربي ﷻ ، وإلا لا أحد يخرج عن العبودية، ، والعبد هو العبد الذي يسير في طاعة معبوده وسيده.

فقوله: «**عبد**» بمعنىٰ: عابد؛ لأن العبد يكون بمعنىٰ: العابد، وبمعنىٰ معبد، والمعبد لا يخرج عنه شيء أبدًا إلا رب العالمين ﷻ؛ لأنه هو الذي تعبد كل شيء. فمعنىٰ معبد؛ يعني: مقهور مذلل تجري عليه أحكام الله وأقداره، ولا بد أن يموت ويرجع إلىٰ الله، ثم هناك يتبين فقره وحاجته ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

التعبير بـ ﴿مَن﴾ ﴿إِن كُلُّ مَن﴾.. فهي لتغليب العاقل علىٰ غيره؛ لأنه هو المقصود، وإلا لا يخرج من في السماوات والأرض عن العبودية؛ أي: معبَّد لله ﷻ ولكن غير العاقل: مطيع مثل: الحصىٰ والشجر والنبات، والرياح والسحاب وغيرها مطيع مذلل مسخر لا يعصي الله، وإنما الذي يعصي الإنسان بنو آدم وبنو

الشيطان، هؤلاء هم العصاة من الخلق، ولهذا لما ذكر الله ﷻ السجود في آية الحج في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وليس كلهم ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ثم قال: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، معنىٰ هذا: أن الذي لا يعبد الله أنه مهان، قد أهانه الله ﷻ، فعبادة الله ﷻ فيها السعادة، وفيها العزة، وفيها الكرامة، ولهذا صار نعيم الجنة منَّة الله كونه يمنُّ عليهم، ليس كما تقوله المعتزلة الجفاة قساة القلوب يقولون: لا يجوز أنه تكون الجنة فيها منَّة؛ لأن الجنة جزاء العمل، والعامل يجب أن يعطىٰ أجره بلا منَّة؛ يعني: هم يقيسون الخالق علىٰ المخلوق، ولهذا سماهم أهل السُّنَّة: مشبهة الأفعال نفاة الصفات، وهذا هو الذي أودع القسوة في قلوبهم - نسأل الله العافية -.

والمقصود أن النصارىٰ الذين حذرهم الرسول ﷺ زادوا في الواجب، وهذا هو الإطراء، والواجب هو تقديره وتوقيره واتباعه وطاعته، وهم جعلوه شريكًا لله ﷻ إما في الربوبية، أو في الألوهية، والرسول ﷺ حذر من هذا، وأن نقع فيه فقال: «**إنما أنا عبد**»؛ يعني: أنا عبد لربي ﷻ، والعبد لا يمكن أن يكون له شيء من العبودية.

قوله: «**فقولوا: عبد الله ورسوله**»؛ يعني: اسلكوا الطريق الحق الذي جئتكم به من عبد الله، وهو أني عبد لله أعبده ولا أعصيه حسب الإمكان والاستطاعة، وأنا رسول كلفني ربي ﷻ بإبلاغ رسالته لكم فاقبلوها، فمعنىٰ هذه الكلمة: الدين كله، كل الدين في قوله: «**إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»؛ لأننا إذا قلنا: عبد الله ورسوله سلكنا الطريق الحق واعتقدنا أننا نعبد الله بالشرع الذي جاء به الرسول ﷺ ويجب أن نوقره وأن نحبه أكثر من حبنا لأنفسنا، وأولادنا ووالدينا والناس أجمعين، وعلامة ذلك شيئان:

أحدهما: متابعته، أن تتابعه وتحرص علىٰ اتباعه وتبحث عن سُنَّته وعن سيرته وتترسَّمها.

الثانية: إخلاص الدين لله ﷻ أن تخلص الدين لربك ﷻ، هذا هو علامة محبة الرسول ﷺ.

أما أن يدعي الإنسان محبة الرسول ﷺ، وهو يخالف سُنَّته، فهذه دعوىٰ لا تُقبل، والدليل علىٰ هذا قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]، فدلت الآية علىٰ أن الذي لا يطيع الرسول ولا يتبعه أنه يكون من الكافرين - نسأل الله العافية - فمحبة الرسول ﷺ تحتاج إلىٰ برهان لا تكفي الدعوىٰ، والبرهان واضح باتباعه ﷺ بأقواله وأفعاله.

والرسول ﷺ بشر كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ ويعني: أنه خلق من ذكر وأنثىٰ وأنه لحم ودم، ولا يقال أنه أصل الموجودات كلها ولولاه ما وجدت الأملاك، ولا الأفلاك، ولا الليل والنهار، ولا السماء ولا الأرض، كما يقول أهل الغلو ويقولون: إنه ليس بشراً أنه نور، أو أنه من نور الله، ويقولون أقوالاً غير هذه، وهذه موجودة في كثير من الناس، وهذا هو الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ، بل هو شيء مما حذرنا منه، فهل الذي يقول هذا القول آمن بالله ورسوله؟ نقول: لم يؤمن بالله ولا برسول؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ومعنىٰ مثلنا؛ يعني: أنه خلق من ذكر وأنثىٰ وأنه لحم ودم، فهو بشر من البشر، فقط تميز عنا بأن الله أوحىٰ إليه رسالته وأمره وكرمه بإبلاغها، هذا هو الذي تميز به عن البشرية.

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب «الاستغاثة» عن أحد العلماء في وقته وكان من القضاة أنه كان يقول: كل ما يُدعىٰ الله به يدعىٰ الرسول به يقول: كل ما طلب من الله

يطلب من الرسول، وذكر عن آخر أنه يقول وهو ممن يتصدر للتدريس يقول في قوله تعالىٰ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] يقول: إن الرسول هو الذي يسبَّح بكرة وأصيلًا(١).

إذا كان هذا يصدر من قضاة ومن علماء يفتون ويكتبون الكتب، ويؤلفون فهل يستكثر أن يصدر مثل هذا من آحاد الناس، ولهذا كثير من الناس يعبد الرسول ﷺ يتجه إلىٰ القبر، ويسجد أو يركع، وإذا دخل المسجد اتجه إلىٰ قبره فصار يدعوه.

فالمقصود: أن كثيرًا من الناس خالفوا هذا، خالفوا قول الرسول ﷺ الذي حذر منه.

وكثير من الناس وقع في عبادة القبور عبادة صريحة يسجدون لها ويعكفون عندها، ويضعون عليها الأطياب والتعظيمات وغيرها، والسبب أنهم يقولون: نحن نتوسل بهم؛ لأنهم صالحون، والله يحبهم ونحن نطلب منهم وهم يطلبون من الله، والله لا يعصيهم يُعطيهم ما يطلبون منه، ولو طالبتهم بدليل علىٰ هذا لا يمكن أن يأتوا بدليل واحد، كلها تمحُّلات وادعاءات، وقُصارىٰ ما يتعلقون به أمور ثلاثة لا تخرج عنها:

أولًا: أوضاع تواضعوا عليها، ووجدوا عليها الناس يقولون: وجدنا الناس يقولون: كذا وكذا، أو فلان يقول: كذا وكذا، وحكايات ينقلونها بعضهم عن بعض لا أصل لها.

الثاني: أحاديث مكذوبة علىٰ رسول الله ﷺ كذبًا صريحًا لا أصل له.

الثالث: منامات يتعلقون بها، ويزعمون أن فلان رأىٰ كذا، هذه قصارىٰ حججهم التي يحتجون بها في هذا الشيء.

(١) الرد علىٰ البكري (٢٠٩).

فكيف يتعلقون بهذه الأشياء التافهة ويتركون كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ والأمور الجلية الواضحة، ذلك بأن النفوس تميل إلىٰ الباطل أكثر، وتحب الباطل أكثر ولا تريد الحق، الحق فيه ثُقل علىٰ كثير من النفوس.

قوله: «**قولوا: عبد الله ورسوله**»: هل العبودية مقدمة علىٰ الرسالة أو العكس؟

العبودية مقدمة؛ لأنها لا يمكن أن يتخلىٰ عنها أحد أبدًا، والرسول ﷺ أكمل الناس عبودية فلا يمكن رسالة بلا عبودية أبدًا؛ لأن الرسالة هي الواسطة بين المرسل والمرسل إليه، والرسالة تتطلب أموراً أربعة:

- **الأول**: رسالة «وهي الدين الأمر والنهي».
- **الثاني**: رسول «وهو الذي يحملها».
- **الثالث**: مُرْسِل «الذي هو الله ﷻ».
- **الرابع**: مُرْسَل إليهم «وهم الخلق».

والله ﷻ أثنىٰ علىٰ رسوله ﷺ بلفظ العبودية مقدمًا للعبودية في الأماكن الشريفة التي يعظمها ربنا ﷻ مثل: مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وكذلك في مقام التنزيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، ومقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، ومقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

فهذه المقامات الأربع من أشرف مقامات الرسالة التي يقوم بها، ذكر فيها بلفظ العبد، ولهذا الرسول ﷺ قدم لفظ العبودية حيث قال: «**قولوا: عبد الله ورسوله**»، ومعنىٰ ذلك أنه لا يجوز أن تجفوني وتُقصروا في حقي، ولا يجوز أن تغلوا في ذلك وتتجاوزوا الحق.

فقوله: «ورسوله»؛ يعني اعرفوا واعلموا أني رسول الله، واعرفوا حقي، وحقه في هذا محبته ﷺ ودعوة الناس إلىٰ سُنَّته وبذلها ونشرها حسب الإمكان، وتوقيره صلوات الله وسلامه عليه، وتقديره، ولا يكون قوله يعرض علىٰ أقوال الناس، بل لا يلتفت إلىٰ أقوال الناس مع قوله، بل يجب أن يُنقاد لقوله ويسلم له ويُذعن له ويكون هو الحاكم لا قول غيره، هذا هو حقه عليه الصلاة والسلام في الرسالة مع محبته المحبة التي تقدم علىٰ محبة النفس فضلًا عن محبة الغير؛ كالولد والمال، وقد ثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنك الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»[1]؛ يعني: الآن وصلت إلىٰ الواجب الذي يجب.

وليس محبته أن يُعطىٰ ما لله جل وعلا، أو شيئًا منه، فإنه يبغض هذا أشد البغض، ويكره هه أشد الكراهة، وليس هذا هو طريق الحق.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[2].

الحديث رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي، وابن ماجه، وأبو داود، وهو حديث صحيح. وقد جاء في السنن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو علىٰ ناقته: «**القط لي حصًىٰ**»، فلقطت له سبع حصيات هن حصىٰ الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «**أمثال هؤلاء فارموا**»، ثم قال: «**يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»، هذا رواه ابن ماجه.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٦٣٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٢٤٨)، والنسائي رقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه رقم (٣٠٢٩).

والرواية جاءت بسبب ذكر الحصىٰ؛ يعني: لا تظنوا أن الرمي بالحصىٰ الكبار أبلغ، فإن هذا غلو وزيادة علىٰ المشروع، فهو عام في كل الدين، يجب أن يترسم الطريقة التي جاء بها الرسول ﷺ في الأقوال وفي الأعمال، ولا يخرج عن هذا شيء، كل ما زاد فهو غلو مثل: الغلو في الوضوء، فيدخل الشيطان ويصبح وسوسة قد تُذهب دينه وعقله في النهاية، كما يقع لبعض الناس، وكذلك في الصلاة إذا زاد عن المشروع تجده يصلي عدة مرات، وربما يعيد التكبيرة مرات، وربما يعيد قراءة الفاتحة مرات متكررة يقول ما جئت بها كما ينبغي، وكذلك النية كل هذا غلو سببه الشيطان، والأمر الذي جاء به الرسول ﷺ سهل ميسور، وكذلك التقصير والجفاء لا يجوز أن يدخل فيه العبد فيؤول به إلىٰ ترك الواجب.

فقوله: «**إياكم**»: منصوب علىٰ التحذير؛ يعني: أُحذركم كذا وكذا.

قوله: «**والغلو**»: الغلو: هو الزيادة علىٰ المشروع.

وقوله: «**إنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»: إنما هذه معروف أنها للحصر، جعل الهلاك محصوراً في الغلو، ومعنىٰ ذلك أن الذين امتثلوا الأمر غلو فيه وزادوا فيه فهلكوا.

والمقصود به ليس كل من كان قبلنا؛ يعني: الهالكين، الذين هلكوا في هذا، فالذي أهلكهم هو الغلو. ومن الغلو: الغلو في حب الصالحين لا يجوز أن يغلو فيهم فإنه يُهلكه.

ومن ذلك كونه يتحرىٰ العبادة عند قبره، أو يتحرىٰ الدعاء عند قبره فيكون هذا مبدأ، ثم يؤول في النهاية إلىٰ أن يدعو القبر، أو المقبور نفسه فيكون في هذا هلاك محقق؛ لأنه صار مشركًا - نسأل الله العافية - وهكذا في جميع المشروعات يجب أن يتحرىٰ الأمر الذي شرع.

قال المؤلف رحمه الله: ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا[1].

«المتنطعون»: المتكلفون فوق الأمر المشروع؛ كالذي يدخل في الدقائق من الكلام ومن النطق ومن اللغة ومن الفصاحة، كما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا أنبئكم بشراركم؟** -فقال:- **هم الثرثارون المتشدقون، ألا أنبئكم بخياركم؟ أحاسنكم أخلاقًا**»[2]، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة**»[3]، وكذلك كونه يصف الناس بأنهم هلكوا، وأنه هو الذي نجا فقط، فإن هذا من التنطع؛ لأن شأن المؤمن دائمًا الإزراء على نفسه، يرى دائمًا أنه ما قام بما يجب عليه.

وكذلك يرى غيره أفضل منه؛ لأن العبد مهما كان فهو مسكين في الواقع ما يستطيع أن يُخلص نفسه من غوائلها، ولهذا السبب نُهي أن يُمدح الإنسان يقول: أنت فيك وأنت كذا وكذا؛ لأنه يهلك في هذا، ومعروف أن الإنسان يحب أن يكون فوق الناس وأنه يترفع عليهم، ويحب أنهم يحبونه وأنهم يثنون عليه، ولهذا منع من ذلك.

والتنطع من هذا القبيل كون الإنسان يثني على نفسه ويرى أنه فوق الناس، أو كونه يتكلف العبادة، ويأتي بالشيء الذي فوق المشروع، أو كونه يتكلف في الأفكار، أو في التشقيقات والتدقيقات التي دخل فيها المتكلمون وغيرهم. أو كونه يرمي الناس بأنهم هم أهل التقصير وهم أهل الشذوذ، وهو الذي سلم من ذلك.

---

(١) رواه مسلم: (٢٦٧٠).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٨٨٢٢)، وأخرج الترمذي بنحوه رقم (٢٠١٨) وفيه: «**وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيقهون؟ قال: **المتكبرون**»، قال الترمذي: وهذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم (٦٧٥٨)، والترمذي رقم (٢٨٥٣) وقال: هذا حديث حسن غريب.

أما قوله: «قالها ثلاثًا»: فهذه عادته ﷺ كان إذا تكلم الكلمة أعادها ثلاث مرات حتىٰ تُحفظ عنه وكان كلامه ليس كثيرًا، ولهذا حفظ الصحابة ما قاله ﷺ.

والشاهد في هذا أنه يدخل في التنطع المدح الزائد الذي فوق المشروع فيكون من التنطع.

وكذلك الحب الذي يكون فوق المشروع يدخل فيه فيكون من التنطع، وهذا هو وجه الاستشهاد من الحديث، وهو أنه يجب أن يكون الحب والقول مشروعًا سالمًا من الغلو.

✍ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ **الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.**

غربة الإسلام؛ يعني: الأمور الواضحة التي هي أصل الدين تخفىٰ علىٰ الناس أليس هذا غريبًا؟ أما قوله: «**العجب**»؛ يعني: كيف طلبة العلم وقعوا في الشرك، وهم الذين يؤلفون ويفتون ويصيرون قضاة وقعوا في عبادة القبور.

۞ **الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض: أنه بشبهة الصالحين.**

شبهة حب الصالحين، مثل ما عرف أنهم كانوا يحبون هؤلاء الذين ماتوا فعظموهم فصوَّروهم ليتذكروا حالتهم فيجتهدوا كاجتهادهم.

۞ **الثالثة: معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك؟ مع معرفة أن الله أرسلهم.**

سببه خلط الباطل بالحق ولبس الحق بالباطل، حب الصالحين مع الغلو الزائد، وهذا هو أصل الشر كله «**لبس الحق بالباطل**».

الرابعة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

يعني: فيما يتوهم المتوهمون، وإلا ما يكون العكوف علىٰ قبر عمل صالح أبدًا بل هو فاسد؛ لأنه خلاف الشرع؛ لأن كل ما كان خلاف الشرع فليس صالحًا، الصلاح أن يكون موافقًا للسُّنَّة، وإذا كان مخالفًا للأمر الشرعي فهو فاسد.

الخامسة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

التماثيل جمع تمثال، والتمثال أصله أن يكون مثل المصور هذا أصله، فصارت الصور كلها تسمىٰ تماثيل، والصور لم يأت في الشرع تشديد مثل ما جاء فيها من لعن فاعلها، ومن كون المصور يُجعل له في كل صورة صورها نفسًا يعذب بها في النار وكونه يكلف يوم القيامة بأن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، وكونه ملعون وكونه أشد الناس عذابًا لكون يضاهي الله بخلقه. وإذا كانت الصور للمعظمين كانت الفتنة فيها أعظم وأشد من الصور العادية؛ لأن هذه هي سبب الشرك وسبب ترك دين الله ﷻ.

السادسة: معرفة شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

يعني: قصة الذين حدث الشرك بسببهم في قوم نوح، كونهم صوَّروا صور من كانوا يعظمونهم، ونصبوها في مجالسهم حتىٰ يتذكروا أفعالهم، فصار بذلك الشرك في دين بني آدم، وقبل ذلك لم يكن في بني آدم شرك فهذا ينبغي أن يتفطن له ويُتأمل فيه وهي قصة يقول إنها موجودة في كتب التفسير، وكتب الحديث والذين فتنوا في القبور والصور يغفلون عنها وليس هذا فحسب ؛ بل يغفلون عما هو أصرح من هذا؛ لأن الهوىٰ إذا استولىٰ علىٰ الإنسان فإنه إما أن يصادم النصوص مصادمة بلا مبالاة، أو أنه يؤولها التأويل الذي يخرجها عن مراد المتكلم بها، وهذا أمر واضح في الناس لو تأمله العبد وجده ظاهرًا جليًا، وهو في هذه المسألة من أوضح ما يكون.

۞ **السابعة:** وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو أفضل العبادات، وأن ما أمر الله به ورسوله هو الكفر المبيح للدم والمال.

مقصوده هذا في وقته ولا تزال القبور يبنى عليها، وصاروا يقصدونها للدعاء والشرك بها، أو أنهم يصلون عندها، أو أنهم يدعون أصحابها ويقولون: إن هذا توسل والتوسل مأمور به مثل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، فقوله هنا: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ ﴾ يقولون: هذا أمر، وهذا من الوسيلة فيحملون كلام الله وكلام رسوله ﷺ على الشيء الذي اصطلحوا عليه وتعارفوا عليه في وقتهم، وهذا يوجد كثيرًا ولا يزال إلى الآن الناس في هذا حتى صاروا ينشرون الكتب ويجادلون في هذا الشيء ويستدلون له، فمثلًا الفتاوى التي طبعت ونشرت وتسمى مقالات إسلامية ليوسف الدجوي المصري، وفيها الاحتجاج على عبادة القبور، وفيها المراوغة - بل المراغمة- ومثله الكوثري في مقالاته التي تسمى «مقالات الكوثري» يزعم أن السجود على القبور هو المنهي عنه، أما الصلاة عندها، والصلاة إليها فلم ينه عنه، ثم ينقل هذا الكلام عن الأئمة مغالطة ويقول: إن هذا هو قول الإمام مالك، وأنه موجود في المدونة في كذا وكذا وأشياء كثيرة.

فمقصوده: هو هذا الذي يقوم به هؤلاء دعاة القبور ودعاة الشرك -نسأل الله العافية-.

ثم يحملون كلام الرسول ﷺ على أمور بعيدة جدًا عن مقصوده إن لم يردوها رأسًا فيقول: إن هذا من العجب كون الإنسان يحال بينه وبين مراد الرسول ﷺ، وليس هذا عجبًا؛ لأنه في الواقع له مقصد نشأ عليه وتربى عليه فألفه فأصبح يحاول أن يكون النص موافقًا لما نشأ عليه وعرفه من مشايخه ومن حالته التي كان يعملها.

والشيخ رحمه الله في موضع آخر قال: إن هذا لا يستغرب. ومثَّل بمثال مسألة فقهية قال في قضية الاستنجاء عند العلماء أنه لو اقتصر على الحجارة لكفاه، ولكن لما اعتاد الناس الاستنجاء صار عند كثير من الناس يتحرج، أو ربما لا تصح صلاته في نفسه إذا لم يستنج؛ يعني: لو اكتفى بالحجارة، فالمألوف الذي تألفه النفوس يحاول الإنسان أنه يلازمه كثيرًا، وكذلك إذا ألف هذه الأشياء فإنه يصعب عليه مفارقتها.

الثامنة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

يعني: أنهم يريدون شفاعة الذين صوروهم وطلبوا منهم الدعاء، والشفاعة هي أصل الشرك كله، ولكن في الوقت الحاضر لا يقتصرون على هذا بل يسألونهم المدد والنصر على الأعداء، ويسألونهم الشفاء من الأمراض، ويسألونهم الغنى من الفقر والأولاد، ويسألونهم كل المسائل التي تطلب من الله.

فالمسألة تعدت شرك المشركين الذين ذكرهم الله جل وعلا في القرآن ليس فيهم من يعبد غير الله يقصد منه تفريج الكروب وإغاثة الملهوف وإعطاء الشيء الذي يقصده منه رأسًا، وإنما كانوا يجعلونهم وسائط لهم فقط وسائط بينهم وبين الله يقولون لأنهم تستجاب دعوتهم ونحن نسألهم حتى يسألون الله لنا.

أما هؤلاء فهم يقصدونهم من دون الله، وهذا هو الذي ذكره الشيخ في القواعد قال: إن شرك المشركين في الوقت الحاضر أعظم من شرك المشركين في الوقت الماضي؛ لأنهم كانوا إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله جل وعلا[(١)].

---

(١) موسوعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١(٣/ ٥) القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائمًا في الرخاء والشدة.

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأن شركهم لطلب الشفاعة، أما هؤلاء فشركهم يدعون من أشركوا به رأسًا ويتجهون إليه.

❁ **التاسعة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.**

المقصود العلم الشرعي، العلم الذي جاء بالوحي، جاء به الرسول ﷺ هو الذي في فقده الهلاك، وفي وجوده السعادة، ولكن لمن عمل به، أما مجرد وجوده بلا عمل فهو يضر ولا ينفع.

الباب العشـــرون

✍ **قال المؤلف** ﵀: **باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح؛ فكيف إذا عبده؟**

المؤلف ﵀ يكرر هذه المسألة وينوع الاستدلال فيها لشدة الحاجة إلىٰ ذلك لكون كثير من الناس وقع في المخالفات في هذا، واعتقد أن هذا مشروع وأنه عمل صالح، وإذا اعتقد الإنسان العمل الفاسد صالحًا، واعتقد أنه يتدين به فالأمر فيه صعوبة جدًا؛ لأنه كيف يخرج منه وهو يعتقد أنه دين ولهذا السبب نوع الأدلة، وكرر ذكر هذه المسألة بأساليب مختلفة لعلها تقنع وتنفع، ومن أراد الله ضلاله فلا حيلة فيه، ولو جئته بكل دليل كما قال الله تعالىٰ في وصف هؤلاء.

قوله: «التغليظ»: هو التشديد والتعظيم في الأمر.

قوله: «فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح»؛ يعني: إذا عبد الله مخلصًا له العبادة عند القبر، والقبر مطلق سواء في المقبرة، أو وحده بل عند كل قبر ولو كان مفردًا، ولهذا جاء عن أنس قال: قمت يومًا أصلي وبين يدي قبر لا أشعر به، فناداني عمر: القبر القبر فظننت أنه يعني القمر، فقال لي: بعض من يليني: إنما يعني القبر؛ فتنحيت عنه[1].

مما يدل علىٰ أن الأمر عام ليس في المقبرة فقط، ثم هو خص قبر الرجل الصالح؛ لأن الرجل الصالح تكون الفتنة فيه أقرب وتعلق القلب فيه أكبر خلاف سائر القبور مع أن الأمر عام فيها لا يخص قبراً دون قبر. فمن فعل ذلك فإنه يكون

(١) أخرجه البيهقي في السنن رقم (٤٤٥٠) وهو عند البخاري معلقًا: ورأىٰ عمر أنس بن مالك يصلي عند قبر فقال: القبر القبر ولم يأمره بالإعادة.

مرتكبًا محرمًا؛ لأن ذلك وسيلة من وسائل الشرك، وهذه المسألة كما قال شيخ الإسلام: أجمع العلماء الذين يعتد بهم أنها حرام، ومن قال بالكراهة من العلماء يقول: يجب أن تحمل هذه الكراهة علىٰ كراهة التحريم إحسان ظن بالعلماء أنهم لا يخالفون من لعن رسول الله ﷺ فاعله وحذر منه ويجعلونه من باب الكراهة التي هي كراهة التنزيه فقط، ومن قال إن العلة في النهي كما يقوله بعض من لم يفهم مراد النبي ﷺ هي النجاسة؛ لأن القبور يكون فيها صديد وتمزق الأموات وينتشر ذلك في الأرض فتكون الأرض نجسة فنهىٰ من أجل ذلك فهذا كلام باطل، فالقبور مدفونة في الأرض وتصيبها الشمس، وكذلك الهواء، والمطر فهي طاهرة، وقبور الأنبياء من أطهر البقاع؛ لأن الأنبياء أحياء، وقد حرم الله علىٰ الأرض أن تأكل لحومهم، فلحومهم طرية في قبورهم كما جاء في المسند والسنن من حديث أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي**»، فقالوا: يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت – يعني: بليت-؟ قال: «**إن الله ﷻ حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم**»[1]، فدل علىٰ أن هذه العلة باطلة.

وقوله: «**فكيف إذا عبده؟**»؛ يعني: إذا عبد صاحب القبر، والعبادة ما يفهم أنها السجود لصاحب القبر والتوجه إليه بالدعاء، وسؤاله تفريج الكروب، وكشف الخطوب، وغير ذلك، بل العبادة أعم، فالعبادة كل شيء قصد به الإنسان التقرب، أو السلامة من الإثم فهو عبادة، فإذا فعل فعلًا يقصد به ثوابًا، أو يقصد به أن ينجو من العذاب فهذه هي العبادة، وإن كانت العبادة يجب أن تكون منصوصًا عليها؛ لأن العبادة توقيفية، ولكن أفعال العباد لا يمكن أن ينص عليها فهي تدخل في الكليات

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦١٦٢)، وأبو داود رقم (١٠٤٧)، وابن ماجه رقم (١٠٨٥)، والنسائي رقم (١٣٧٣).

الشرعية التي جاءت النصوص بها.

✍ قال ﵀: في الصحيح عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»(١).

فهؤلاء، جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل(٢).

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح، فالحديث مخرج في الصحيحين.

قوله: «أن أم سلمة»: هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وماتت سنة اثنتين وستين.

ذكرت أم سلمة هذه الكنيسة؛ لأنها كانت من المهاجرات إلىٰ أرض الحبشة ورأتها وذكرت ذلك للنبي ﷺ في مرض موته. وجاء في الصحيحين أن أم حبيبة، وأم سلمة ذكرتا لرسول الله ﷺ ذلك(٣).

«كَنِيسةً»: بفتح الكاف وكسر النون: معبد النصارىٰ. واليهود والنصارىٰ تعبدهم في أماكن معينة لا تجوز عباداتهم إلا فيها؛ يعني: صلاتهم، في الكنائس والبيع، والبيع لليهود والكنائس للنصارىٰ، وكانت أرض الحبشة أرضًا نصرانية ولا تزال، لا يزال النصارىٰ فيها، وهم الذين يحكمونها.

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٣٥)، ومسلم رقم (٥٢٨).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

(٣) البخاري رقم (٤٢٧)، ومسلم رقم (٥٢٨).

قوله: «وما فيها من الصور»: الصور التي رأتها فيها هي صور المعظمين عندهم دينًا، وليس الملوك والكبراء، ولهذا يصورون صورة مريم، وصورة عيسىٰ، وكذلك صور الحواريين الذين هم أصحاب عيسىٰ فهم عندهم من المعصومين، وهم من أفضل الخلق بعد الأنبياء عندهم، ولهذا يقول بعض السلف: سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسىٰ، وسئلت النصارىٰ: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواريي عيسىٰ. وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد(١). فالرافضة أشر من اليهود والنصارىٰ، وهذا أمر واضح.

وهم كانوا يصوِّرون هؤلاء ويضعونهم في الكنائس في محل تعبدهم تعظيمًا لهم، وكذلك توسلًا بزعمهم أن هذا يكون فيه بركة، وفيه نماء العمل ويكون أصلح له يقول القرطبي: إنما صور أوائلهم الصور ليستأنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عند قبورهم -يعني: كما فعل من كان في قوم نوح- ثم خلف من بعدهم خلوف جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها فحذر النبي عن مثل ذلك سدًا للذريعة المؤدية إلىٰ ذلك(٢).

فهم ظنوا أنهم صوَّروهم لأجل الشرك بهم، ثم زاد الأمر إلىٰ أن صاروا يسجدون لهم ويتقربون بالعبادة إليهم، وهكذا تتدرج الأمور في فعل المحرم إلىٰ أن يصل إلىٰ ما يريده الشيطان منهم.

قوله: «أولئك»: هذا خطاب لأم سلمة، ويجوز أن تفتح الكاف والخطاب لكل من سمع.

قوله: «إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح»: المعنىٰ واحد، هذا

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٢٧).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٤٥٧).

شك من الراوي؛ يعني: هل قال النبي ﷺ العبد الصالح، أو الرجل الصالح؟ يقول الشارح: فيه التحري في الرواية، وجواز الرواية بالمعنى[1].

وهذا ما عليه أكثر العلماء من المحدثين وغيرهم حتى قالوا: إنه لو كلف الإنسان بلفظ الرسول ﷺ لصعب الأمر بذلك، وسأل شعبة هل كل ما ترويه باللفظ أو بالمعنى؟ قال: لو رويته لكم باللفظ ما عدوت ثلاثة أحاديث، أو قال ثلاثين حديثًا، أما كل ما تسمعونه فهو بالمعنى. ولكن العلماء يشترطون في هذا أن يكون المعبر يفهم المعنى ويكون اللفظ المعبر به مساويًا للفظ الآخر؛ يعني: يكون مرادفًا له، فإذا وجد ذلك فلا بأس بالرواية بالمعنى، وأحاديث الرسول ﷺ تدل على هذا ففي حديث معاذ الذي مر معنا قال: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يعبدوا الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**»، فهذا يقطع أن الرسول ﷺ تكلم بلفظ واحد والباقي عبَّر عنه الراوي بهذه الألفاظ، وكذلك حديث عمران بن حصين الذي في البخاري فيه أنه قال: «**كان الله، ولم يكن شيء قبله**»، وفي رواية: «**ولم يكن شيئ معه**»، وفي رواية: «**ولم يكن شيئ غيره**»، فهذه كلها في البخاري، ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يقل: «قبله، معه، غيره»، بل قال: واحد منها، وهذا كثير جدًا في الأحاديث، وهذا الحديث الذي معنا مثلها.

والصالح هو: الذي صلح عمله بموافقة الشرع ظاهرًا وباطنًا، فالصلاح بموافقة الشرع والفساد يكون بمخالفة الشرع.

وكان في ذلك الوقت وقبله من اتباع عيسى عليه السلام رجال صالحون متمسكون بما كان عليه عيسى عليه السلام فكان النصارى يعظمونهم، فإذا مات أحدهم صوروا له صورًا ووضعوها على قبره، كما قال القرطبي فصار الذين يأتون بعدهم يسجدون لهذه

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٧٨).

الصور ويتجهون إليها بالعبادة ويجعلونها وسيلة لهم في دعاء رب العالمين. فإذا كان هذا وقع من النصارىٰ، فإنه لا بد أن يقع في هذه الأمة لقول الرسول ﷺ: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتىٰ لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**». قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمن**»[(١)]، وجاء في رواية عن شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ قال: «**ليحملن شرار هذه الأمة علىٰ سنن الذين خلوا من قبلهم أهل الكتاب حذو القذة بالقذة**»[(٢)]، وتمثيل الرسول ﷺ لهذا الشيء «**حذوا القذه بالقذه**»، وهي: ريشة السهم، وبدلها الآن الرصاصة التي تكون في البندقية ليس فيها واحدة تزيد علىٰ الأخرىٰ، وهذا هو المقصود أنكم سوف تساوونهم تمامًا فمثَّل بأصعب ما يكون، مثَّل بجحر الضب، وهو من أصعب الجحور، ومعلوم أن الضب لم يكن في أرض الحجاز ومع ذلك يمثل به، وذلك أن جحره كما هو معروف لمن يعرفه لا يكون سامتًا إلىٰ جهة واحدة، بل يكون ملتويًا ومتجهًا إلىٰ الأسفل حتىٰ يصعب الدخول عليه، وهذا هو السبب في التمثيل بجحره؛ لأنه من أصعب الجحور، فيقول الأمر سوف يكون في هذه الأمة في اتباع النصارىٰ، ولو كان الأمر في ذلك من أصعب الأشياء حتىٰ جاء في بعض الروايات: «**حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك**»[(٣)]، مبالغة والواقع يشهد بهذا، ويكون هذا من دلائل النبوة وصدقه في الأخبار التي يخبر بها في المستقبل فهي تقع مثل ما أخبر ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٧١٣٥)، والطبراني في الكبير رقم (٧١٤٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله مختلف فيهم.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة**»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

قوله: «بنوا علىٰ قبره مسجدًا»: المقصود: أنهم وضعوا علىٰ القبر موضعًا للصلاة، والكنائس هي متعبد النصارىٰ، فهم وضعوا مكانًا للسجود والتعبد فيكون مسجدًا بهذا الفعل، وهذا؛ لأنهم يرون أن العبادة عند القبر يكون فيها فضل، أو فيها بركة، أو أنهم يتبركون بنفس القبر، أو المقبور، وكلا الأمرين لا يجوز، وإما أن يكون وسيلة إلىٰ الشرك، أو هو الشرك.

قوله: «وصوروا فيه تلك الصور»؛ يعني: وضعوا الصور فيها، فهم يصورون العبد الصالح، أو يصورون فيه من يتصوَّرونه ويتخيلونه مثل مريم، أو غيرها ويجعلون هذه الصور في الأماكن التي يصلون فيها، وهذا أيضًا من دواعي الشرك ومن أسبابه، وهو من الأسباب القوية القريبة كما سبق في الباب الذي قبله.

قوله: «أولئك شرار الخلق عند الله»: الأصل أشر الخلق أفعل تفضيل، ولكن لكثرة الاستعمال قيل: شرار الخلق؛ يعني: هم أكثر شرًا من غيرهم، مع أنهم يتعبدون ويصلون لله ﷻ ولكنهم عملوا عملًا صار فيه تغيير دين الأنبياء، وجعل دينهم هو دين المشركين الذين بعثوا بهدم دينهم ومحاربته فانعكست القضية جعلوا دين المشركين هو دين الأنبياء، فلهذا صاروا شرار الخلق، وزيادة علىٰ هذا عامة الناس ودهمائهم يُفتنون بهذا ويتبعونهم علىٰ أن هذا هو الدين الحق فشرهم ينتشر ويعم، وليس مقصورًا علىٰ فعلهم، فصارت الأجيال تتبعهم علىٰ ذلك كما هو الواقع، الناس ينظرون إلىٰ العلماء ماذا يفعلون فيتبعونهم فيتغير الدين بذلك كما قال ﷺ: «**إنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين**»[1]، فهذا من أشد ما يخافه الرسول ﷺ علىٰ أمته، والأئمة المضلون هم العلماء والأمراء العظماء الذين يتبعون، أما بقية الناس فلا قيمة لهم بل هم من المتبعين.

(١) أحمد في المسند رقم (٢٢٣٩٣)، والترمذي رقم (٢٢٢٩) من حديث ثوبان.

قوله: «**فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل**»: هذا الكلام من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ يعني: أنهم جمعوا بين الوسيلتين الداعيتين إلىٰ الشرك، أو الوسيلتين اللتين هما سبب الشرك، القبر في المسجد الذي يصلون فيه، والتصاوير التي ينصبونها للمعظمين الذين يعظمونهم ويعتقدون فيهم الصلاح، فإن هذا من أعظم الوسائل إلىٰ عبادتهم، وفتنة القبور هي أعظم من فتنة التماثيل، وفتنة التماثيل كما عرفنا أن: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا، أنها أسماء رجال صالحين فعبدت وبقيت معبودة إلىٰ أن بعث النبي ﷺ كما ذكر ذلك ابن الكلبي وغيره وذكر أسمائها، وأن كل قبيلة من قبائل العرب لها واحد منها وصارت من أكبر المعبودات عند العرب، وهكذا القبور مثل: قبر عبد القادر الجيلاني والبدوي، مع أن البدوي ما عرف أنه من الصالحين بل الذي ذكر السخاوي عنه: أنه جاسوس للدولة الفاطمية -يعني: الرافضة- وأنه داعية يدعو إلىٰ مذهبه، ولكن الذي أهيل حوله من الأمور التي هي كذب صار بها فتنة، وكذلك القبور التي تنسب إلىٰ الشافعي، وقبر زينب، وقبر الحسين، ومعروف أن أول من بنىٰ هذه المشاهد، وهذه المساجد علىٰ القبور هم الرافضة فهم أشر الخلق، وأشر الخلق في هذا هم الجهمية الذين كانوا يحولون بين الناس، وبين عبادة الله جل وعلا ومعرفته، والرافضة الذين غيروا دين الرسل وبنوا المشاهد علىٰ القبور وسموها مشاهد، والمساجد التي تكون علىٰ القبور لما صارت لهم الدولة في مصر، والمغرب فهذه القبور التي تعبد إلىٰ الآن بسببهم هم أول من فعل ذلك.

فالمقصود: أن الفتنة في القبور كبيرة جدًا ولا تزال موجودة والرسول ﷺ يحذر الأمة أن تفعل كما فعل أولئك، وقال هذا في مرض موته وقصده أن يبين أن هذا من المحرمات التي لا يجوز أن تفعل، وأن ذلك من وسائل الشرك القريبة منه، فهذا التعظيم والتغليظ في عبادة الله جل وعلا في مثل هذه الأماكن؛ يعني: كون الإنسان يعبد ربه جل وعلا عند القبر، أو يعبد ربه في مكان فيه صورة من هو معظم، فإن هذا عاص

لله ﷻ ولرسوله ﷺ، لقوله ﷺ: «**أولئك شرار الخلق**»، وهذا من أعظم التحذير وأعظم التغليظ، مع أنه في ذلك يعبد الله، أما لو عبد المقبور، أو عبد الصورة، فهذا الشرك الأكبر الذي أخبر الله ﷻ أن صاحبه إذا مات عليه يكون خالدًا في النار، وأن الجنة عليه حرام، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

✍ قال المؤلف رحمه الله: ولهما عنها- أي: عن عائشة رضي الله عنها - قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طَفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال -وهو كذلك-: «لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا. أخرجاه[1].

قوله: «**نُزل**»؛ يعني: نزل به ملك الموت ومن معه من ملائكة الله ﷻ يقبضون روحه ﷺ.

قوله: «**طفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه**»: جعل يطرح الخميصة عن وجهه، والخميصة كساء له أعلام.

وقوله: «**فإذا اغتم بها كشفها**»؛ يعني: إذا احتبس نفسه لشدة جذب النفس وشدة ما نزل به صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الإنسان إذا اشتد عليه المرض يصير نفسه صعب الخروج، ويزداد إلىٰ أنه يقف النفس.

قوله: «**فقال وهو كذلك**»؛ يعني: في هذه الحالة من معاناة ومقاساة الموت.

«**لعن الله اليهود والنصارىٰ**»: اللعن هو الطرد عن رحمة الله ﷻ، والإبعاد عن ذلك هذا من الله، وأما من الآدميين فهو الدعوة عليه بأن الله يلعنه؛ يعني: يجعله مطرودًا محرومًا من الخير، والرسول ﷺ إذا لعن علىٰ شيء فأقل ما يقال فيه: إنه

(١) رواه البخاري رقم (٤٣٥) و(١٣٣٠)، ومسلم رقم (٥٢٩) و(٥٣١).

من كبائر الذنوب، ولهذا استدل العلماء على تمييز الكبيرة بذلك من لعن فاعلها؛ يعني: هذا منها، وليس الكبائر كلها أنها من لُعن فاعلها. وهذا فيه معتبر كيف لعن هؤلاء في حياته، ولعنهم عند مرضه، ثم في هذه الحالة عند موته في هذه الشدة؛ لأن الأمر فيه مبالغة، ولا بد لهذه المبالغة من معنى، وهو أن الأمة تقع في الأمر فهو من باب التبليغ تبليغ الدعوة والرسالة، ومن باب رحمة الأمة، والبيان لها والنصح لها، ولهذا كرر هذا الأمر؛ لأن الافتتان فيه ظاهر وشديد والخوف من وقوعه متوقع.

ولعنه لليهود والنصارى؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ لأن اليهود والنصارى هم الذين كانت فيهم الأنبياء، وبعد هذا ليس فيه نبي غيره ﷺ في هذه الأمة، ومعنى هذا أنه يلعن من فعل هذا الفعل، فإذا فعل في هذه الأمة فهو أشد من فعل اليهود والنصارى وأعظم، فيكون المقصود به الذين اتبعوه وأطاعوه، الذين اهتدوا بدعوته أن من فعل ذلك منهم أنه ملعون وربما تكون لعنته أشد من لعنة اليهود والنصارى بأمور ظاهرة:

- **أولًا**: أن الرسول ﷺ بيَّن هذا بيانًا واضحًا لا إشكال فيه وكرره.
- **ثانيًا**: أن هذا الأمر هذا لم يكن فيه لبس، ولا فيه إشكال فهو ظاهر للعموم.
- **ثالثًا**: أن رسولنا ﷺ هو أفضل الرسل ومخالفته تكون أشد من مخالفة غيره، وإن كانت المخالفة كلها شديدة ولكن بعضها يكون أشد.

قوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»: سبق أن مساجدهم هي البيع والكنائس، وأنهم لا يصلون في غيرها، ولكن المعنى أنهم يبنون عليها بناءً ويضعونها في كنائسهم، أو أنهم يبنون عليها بناءً، ثم يتحرون عندها الدعاء، فالدعاء يسمى صلاة وهذا صنيع النصارى.

قوله: «**يحذر ما صنعوا**»؛ يعني: يحذر أمته فعلهم الذي استحقوا به اللعنة، فليس المقصود به اليهود والنصارى، ولكن المقصود به تحذيرنا أن نقع في مثل

ما وقعوا فيه.

وقوله: «ولولا ذلك أبرز قبره»: هذا من قول عائشة ﵂؛ يعني: لولا كلامه الذي سُمع منه ﷺ، وهو في هذه الحالة في مرض موته وقاله عند خروج روحه، لولا هذا وأنه فُهم منه أنه يحذر الأمة من أن تجعل قبره محلًّا للتعبد.

قوله: «أبرز قبره»: البروز معناه الظهور من البيت والأماكن التي تستر، والمعنىٰ أنه لولا ذلك لأبرز قبره مع قبور الصحابة؛ يعني: جعل في البقيع.

قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»: جاء بضم الخاء «**خُشي**» مبني للمجهول، وجاء بفتحها «خَشيٰ»، فيكون الضم أن الفعل وقع من الصحابة، وهم الذين خشوا هذا، وأما إذا كان بالفتح فيكون هو ﵊ أمر أن لا يبرز قبره، وهذا غير صحيح؛ لأنه لو كان نص علىٰ هذا ما كان هناك خلاف بين الصحابة أين يقبر، وإنما هذا وقع من الصحابة أخذًا من هذه النصوص، ودفنوه في المكان الذي مات فيه حينما روىٰ أبو بكر عنه ﷺ أنه قال: سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيته قال: «**ما قبض الله نبيًا إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه**»(١)، وفي رواية «قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشىٰ أن يتخذ مسجدًا»(٢) عائشة هي التي تقول هذا، فتكون الخشية منها، ومن غيرها من الصحابة. واتخاذ القبور مساجد كبيرة من كبائر الذنوب، وهو شرك، أو وسيلة إلىٰ الشرك؛ يعني: أنه إما أن يكون شركًا جليًا أو شركًا خفيًا، ولما كان هذا سببًا لإضلال كثير من الناس لعن رسول الله ﷺ فاعله، كما هو الواقع الآن كثير من الناس ضل في القبور وأصبح يعبدها.

✍ قال المؤلف ؒ: ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: «إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٠١٨).

(٢) سبق تخريجه.

خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»(١).

فقد نهىٰ عنه في آخر حياته. ثم إنه لعن -وهو في السياق- من فعله. والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد، وهو معنىٰ قولها: «خشي أن يتخذ مسجدًا»، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع يصلىٰ فيه يسمىٰ مسجدًا، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»(٢).

جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي، وينسب إلىٰ جده، صحابي مشهور مات بعد الستين.

قوله: «**سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس**»؛ يعني: بخمس ليال، وهذا يدل علىٰ أن جندب حفظ ذلك حفظًا متقنًا، حيث ذكر الوقت الذي سمع به هذا الكلام وحدده بهذا التحديد.

قوله: «**إني أبرأ إلىٰ الله**»؛ معنىٰ: أبرأ: امتنع وأبتعد، فالتبرؤ من الشيء هو البعد عنه مع إنكاره.

قوله: «**أن يكون لي منكم خليلٌ**»: وهذا الخطاب للصحابة ﷺ، والخلة: هي نهاية المحبة التي تتخلل القلب كله فلا يبقىٰ فيه موضع لغير الخليل، ، فالخلة هي أعلىٰ المحبة؛ لأن المحبة درجات، فالخلة آخر درجات الحب، وهذا هو الصحيح الذي دلت عليه اللغة وكذلك النصوص، وقاله المحققون من أهل العلم بخلاف ما

(١) رواه مسلم رقم (٥٣٢).
(٢) سبق تخريجه.

يقوله كثير من الفقهاء وغيرهم أن المحبة أخص من الخلة وأكمل، ولهذا يقولون: «إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله. فالمحبة عندهم أعلىٰ من الخلة وهذا باطل بالنصوص الكثيرة كما جاء في حديث جندب السابق، فالله ﷻ اتخذ محمدًا ﷺ خليلًا كما اتخذ إبراهيم عليه السلام خليلًا، فإن المحبة عامة والخلة خاصة وهي نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا ونفىٰ أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم. وأيضًا فإن الله سبحانه ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وخلته خاصة بالخليلين - عليهما الصلاة والسلام -، والشاب التائب حبيب الله»(١).

ولكن جاء في الصحيحين عن أبي ذر، وكذلك أبي هريرة رضي الله عنهما كثير ما يقولان: «قال: خليلي»، فهذا لا ينافي قوله ﷺ، وتبرأه من أن يكون له خليل؛ لأن هذا قول أبي هريرة وأبي ذر، فإذا كان أبو هريرة رضي الله عنه خليله الرسول ﷺ، فإن الرسول ﷺ لم يتخذه خليلًا، فهو قاله من نفسه.

قوله: «**فإن الله قد اتخذني خليلًا**»: هذا هو المانع من كونه لم يتخذ خليلًا من أمته، مما يدل علىٰ أن الخلة لا يصلح فيها المزاحمة يجب أن تكون خالصة.

قوله: «**كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»: هذا تشبيه باتخاذ الخلة، فإبراهيم عليه السلام خليل الرحمن كما ذكر ذلك الله ﷻ في القرآن: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وهذان الرسولان هما اللذان اختصا بخلة الله ﷻ من بين خلقه، وفي هذا أن الله ﷻ يتخذ من يشاء من عباده خليلًا وفي ضرورة ذلك أنه يحب، وقد كثرت النصوص في

(١) انظر الجواب الكافي ص(١٣٥).

وصفه ﷻ بالمحبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ومحبته ﷻ صفة له لا يشاركه المخلوق فيها، كما أنه ﷻ هو لا يشارك العبد في صفته، فالعبد له صفة المحبة التي تخصه، والله ﷻ له صفة المحبة التي تخصه، والاشتراك في اللفظ والمعنىٰ العام لا يقتضي مشابهة كما هو معلوم حتىٰ في المخلوقات، فيكون في ذلك الرد علىٰ الأشاعرة والمعتزلة الذين يأبون أن يصفوا الله ﷻ بمثل هذه الصفة، فإما أن يردوا النصوص؛ كالمعتزلة، ويقولون: إنها أخبار آحاد ولا نقبلها في الأصول، أو يؤولوها كما يفعله الأشاعرة والماتريدية، ونحوهم فيقولون: المحبة هي إرادة الإحسان له، أو محبة الطاعة؛ يعني: كونه يحب اتصافه بما يقتضي الطاعة، وإما أن يؤولونها بمخلوق، أو يؤولونها بأمر آخر وهذا باطل.

وقوله: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لتخذت أبا بكر خليلًا»: يدل علىٰ أن أبا بكر أقرب الناس إليه ﷺ وأحبهم إليه، وأنه أولىٰ الناس بالخلافة من غيره ولا سيما أن هذا كان في آخر حياته، ومن ذلك وهو أصرحها أنه أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، عن عائشة ﵂ قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»، فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متىٰ ما يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر، فقال: «**مروا أبا بكر يصلي بالناس**». فقلت لحفصة: قولي له أن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متىٰ يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر، قال: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»(١)، عن عبد الله بن زمعة قال: لما اسْتُعِزَّ برسول الله ﷺ، وأنا عنده في نفر من المسلمين دعاه بلال إلىٰ الصلاة فقال: «**مروا من يصلي للناس**» فخرج

(١) رواه البخاري رقم (٧١٣)، ومسلم رقم (٤١٨).

عبد الله بن زمعة، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبًا فقلت: يا عمر، قم فصل بالناس، فتقدم فكبر فلما سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلًا مجهرًا قال: «**فأين أبو بكر؟ يأبىٰ الله ذلك والمسلمون، يأبىٰ الله ذلك والمسلمون**»، فبعث إلىٰ أبي بكر فجاء بعد أن صلىٰ عمر تلك الصلاة فصلىٰ بالناس(١). ومنها ما جاء في حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه: أن امرأة سألت رسول الله ﷺ شيئًا فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: «يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟- قال أبي كأنها تعني: الموت- قال: **فإن لم تجديني فأتي أبا بكر**»(٢)، ومنها أنه أحب الصحابة إليه كما جاء في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ بعثه علىٰ جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، فقلت: منِ الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثم من؟ قال: «**عمر**»، فعد رجالًا(٣).

ومنها حديث الرؤيا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم رأيتني علىٰ قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غربًا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريًا من الناس ينزع نزع عمر حتىٰ ضرب الناس بعطن**»(٤). الغرب: الدلو العظيم. عبقريًا من الناس: يعني: سيدًا عظيمًا قويًا.

ومنها أنه أمر أن تسد كل خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر رضي الله عنه كما في حديث ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصبًا رأسه بخرقة فقعد علىٰ المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**إنه ليس من الناس أحد أمنّ علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذًا من الناس خليلًا**

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٦٦٠) واللفظ له، وأحمد في المسند رقم (١٨٩٠٦)،.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٣٨٦).

(٣) رواه البخاري رقم (٣٦٦٢)، ومسلم رقم (٢٣٨٤).

(٤) رواه البخاري رقم (٣٦٦٤)، ومسلم رقم (٢٣٩٢).

لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر»[١] قال الخطابي، وابن بطال وغيرهما: في هذا الحديث اختصاص ظاهر لأبي بكر، وفيه إشارة قوية إلىٰ استحقاقه للخلافة، ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر[٢]. ومنها حديث عائشة ﵂ قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «**ادعي لي أبا بكر، وأخاك حتىٰ أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنىٰ متمن، ويقول قائل أنا أولىٰ ويأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»[٣] فعدل عن الكتابة وتركها، ولو أراد أن يكتب لم يمنعه أحد، ولكنه كما قال: «**يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، وعلم أن اتفاقهم بدون كتابة أبلغ وأولىٰ.

واختلف العلماء هل خلافته بالنص، أو بالإيماء والإشارة، ولكنهم اتفقوا علىٰ أنه أفضل الصحابة، وأنه هو خليفته، وأما من جاء بعده فلم يسم خليفة رسول الله ﷺ وإنما سُمي أمير المؤمنين، ومعلوم أن خلافة النبوة كما جاء الحديث في تحديده الخلفاء الراشدين الذين تولوا الخلافة بعد، وفضلهم عند أهل السُّنَّة علىٰ ترتيب توليهم الخلافة.

أما قول الرافضة، فهو قول فرية وبهت، أقل ما يقال فيه: أنه بهت وفرية؛ لأنهم يزعمون أن أبا بكر أنه منافق، وأنه لم يدخل الإسلام في قلبه، ويزعمون أنه كان معه صنم يحمله هذا موجود في كتبهم الأصول؛ لأن كتبهم نوعان كتب أصول -عقائد- ما يحبون أحدًا يطلع عليها، وكتب دعائية يبثونها وينشرونها وهم أصل البهت والكذب ودينهم مبني علىٰ الكذب، فهم يقولون من أصولهم: «التقية» التي يزعمون أنها تسعة أعشار الدين، ومن لم يكن له تقية فلا دين له، والتقية معناها

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٦٧) ومن حديث أبي سعيد الخدري رقم (٣٦٩١)، ومسلم رقم (٢٣٨٢).
(٢) فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٤).
(٣) رواه مسلم رقم (٢٣٨٧).

عندهم الكذب يكذب أحدهم وهو يعلم، ولهذا يسمون أبا بكر، وعمر طاغوتي قريش، ويقولون في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ يعني: أبا بكر وعمر كما أنهم يلعنون أحب الناس إلىٰ رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها ويقولون: إنها هي المراد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، والشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية، ويروون في هذا أحاديث موضوعة مكذوبة علىٰ رسول الله ﷺ، ويفسرون كتاب الله بأشياء غريبة وعجيبة تدل علىٰ زندقتهم، وعلىٰ بعدهم عن الله جل وعلا وعدم الخوف منه سبحانه.

ولكن المصيبة أن ينطلي مذهبهم علىٰ بعض أهل السُّنَّة، ويريدون التعاون معهم، وهذا لا يمكن أبدًا لو كان الخلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة في الفروع مثل الخلاف بين الأئمة واجتهاداتهم لكان ممكنًا، أما إذا كان في الكفر والإيمان، فهذا لا يمكن أبدًا إلا بترك الدين والدخول في الكفر؛ لأن من عقائدهم أن الصحابة كفروا، وأنه لم يبق منهم إلا عدد يسير إما أربعة هم: علي، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبو ذر، وبعضهم يوصلهم إلىٰ ثمانية، وبعضهم إلىٰ اثني عشر، والبقية كفروا وارتدوا، وإذا قيل لهم في فضائل الصحابة قالوا: هذا قبل أن يرتدوا، ولكنهم اتفقوا علىٰ كتم ما أمرهم الرسول ﷺ به وهو خلافة علي، والوصية له فكفروا بذلك وارتدوا.

فكيف الله جل وعلا يثني علىٰ من يعلم أنه يرتد، وقد أخبر أنه قد رضي عنهم في آيات كثيرة، قال جل وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وجاء في صفاتهم قوله جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ يعني: من

الخشوع وخوف الله إذا رأيتهم عرفت أنهم يخافون الله وأنهم خاشعون لله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] ما أحسن ما قاله الإمام مالك رحمه الله؛ قال ابن كثير رحمه الله: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله، في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء علىٰ ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم[١]. وقال رحمه الله كذلك: إن الرافضي الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠][٢].

فالمقصود أن الصحابة - رضوان الله عليهم - هم أفضل الأمة كما قال الرسول ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ؛ أي: الناس خير؟ قال: «**قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**»[٣]، قال بعض التابعين: سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسىٰ، وسئلت النصارىٰ: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواري عيسىٰ، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد ﷺ؛ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم[٤].

وقال الشعبي: ما رأيت أحمق من الخشبية لو كانوا من الطير لكانوا رخمًا، ولو كانوا من البهائم لكانوا حُمرًا، والله لو طلبت منهم أن يملئوا لي هذا البيت ذهبًا

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٣).
(٣) رواه البخاري رقم (٣٦٥١)، ومسلم رقم (٢٥٣٣).
(٤) منهاج السنة النبوية (١/ ٢٧) عن عامر الشعبي.

على أن أكذب على علي لأعطوني، ووالله ما أكذب عليه أبدًا[١]، وقال: أحذركم هذه الأهواء المضلة وشرها الرافضة لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبغيًا عليهم وقد حرقهم علي رضي الله عنه بالنار[٢].

فهم أسسوا مذهبهم على الطعن في الإسلام، بل الطعن في رسول الله ﷺ، ولكن ما استطاعوا فوجهوا الطعن إلى الصحابة.

ذكر ابن القيم رحمه الله قال: اجتمع ثلاثة من كبارهم في مسجد النبي ﷺ وصاروا يبكون، فقال أحدهم: ما أصل هذا البلاء الذي أصابنا؟ قال كبيرهم: أصل هذا البلاء الذي أصابنا صاحب هذا القبر، ويشير إلى قبر النبي ﷺ هو الذي قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فهم يعرفون أنهم على باطل، ولكنهم يقدمون الدنيا، وأكلت قلوبهم الأحقاد والحسد كما قال ابن حزم في كتابه الفصل: والأصل في خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة القدر في أنفسهم، حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدًا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرًا تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، ففي كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق.

وقال: فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم علي رضي الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلًا ينتظر يدعى المهدي عنده حقيقة الدين إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار إذ نسبوا

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٢٢-٢٣).

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

أصحاب رسول الله ﷺ إلىٰ الكفر، وقوم خرجوا إلىٰ نبوة من ادعوا له النبوة، وقوم سلكوا بهم المسلك الذي ذكرنا من القول بالحلول وسقوط الشرائع، وآخرون تلاعبوا فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وآخرون قالوا: بل هي سبع عشر صلاة في كل صلاة خمسة عشر ركعة، وهذا قول عبد الله بن عمرو بن الحرث الكندي قبل أن يصير خارجيًا صفريًا، وقد سلك هذا المسلك أيضًا عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي، فإنه لعنه الله أظهر الإسلام لكيد أهله، فهو كان أصل إثارة الناس علىٰ عثمان رضي الله عنه، وأحرق علي بن أبي طالب رضي الله عنه منهم طوائف أعلنوا بإلاهيته[1]. فقاموا بالطعن فيه بالخفاء والظاهر، فلما لم يستطيعوا قاموا بالحيل واغتيال عظمائه تألبوا علىٰ الخليفة عثمان وقبله عمر، ثم صاروا يدعون عليًا، وأنه هو الوصي، ثم لم يزل بهم الأمر حتىٰ قالوا أنه إله، وأن الله حل فيه، ولهذا عندهم عقيدة الرجعة أن عليًا سيرجع، وأنه في السحاب، وأن الرعد هو صوته[2]، ولا يزال الغلو في دينهم حيث يقول الخميني في كتابه «الحكومة»: إن للأئمة مقام لا يصله نبي مرسل، ولا ملك مقرب. فهم يزعمون أن أئمتهم رسل، بل أكبر من الرسل، وأنهم لا يموتون إلا بإرادتهم، وأنهم يعرفون كل شيء.

قوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد»: المقصود بالذين قبلنا هم اليهود والنصارىٰ، فهم الذين ذكروا في حديث عائشة رضي الله عنها، وهذا علىٰ وجهين:

---

(١) الفصل في الملل (٢/ ٩١).

(٢) الفصل في الملل (٤/ ١٣٨) وقالت السبئية: أصحاب عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي مثل ذلك في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزادوا أنه السحاب فليت شعري في أي سحابة هو من السحاب والسحاب كثير في أقطار الهواء مسخر بين السماء والأرض كما قال الله تعالىٰ، وقال عبد الله بن سبأ إذ بلغه قتل علي رضي الله عنه: لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتىٰ يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا. وفي الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٧٢) السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ: زعم أن عليًا حي لم يمت ففيه الجزء الإلهي ولا يجوز أن يستولىٰ عليه وهو الذي يجيء في السحاب والرعد صوته والبرق تبسمه، وأنه سينزل إلىٰ الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا.

أحدهما: أنهم يصورون الصور ويسجدون لها، وكذلك يسجدون للقبور وهذا شرك جلي ظاهر.

الثاني: أنه من باب التعظيم، فهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء، والتوجه إليها حالة الصلاة نظرًا منهم بذلك إلىٰ عبادة الله، والمبالغة في تعظيمها فدخل عليهم الشرك من هذا الباب، وهو الذي دخل علىٰ كثير من المسلمين.

قوله: «**مساجد**»: ليس المعنىٰ لا تبنوا عليها المساجد التي تؤدي فيها الصلاة؛ لأن هذا يعرفه الصحابة تمامًا، ولكن المقصود لا تصلوا عندها؛ أي: لا تجعلوا أماكن القبور مساجد، ثم إن الصحابة لا يمكن أن يبنوا علىٰ قبر الرسول ﷺ مسجدًا، ولهذا سبق أنه لما سمعوا هذا الكلام خافوا أنهم إذا دفنوه في البقيع مع أصحابه أنه يقصد بالصلاة، فلهذا دفنوه في بيته حماية له، وأن لا يأتي أحد فيتحرىٰ الدعاء عنده أو الصلاة، وقد اتفق العلماء علماء أهل السُّنَّة الذين يعتد فيهم علىٰ تحريم اتخاذ المساجد علىٰ القبور، وأن الصلاة عند القبور لا تصح، وأنه لو بنىٰ مسجدًا علىٰ قبر أن الصلاة فيه باطلة، وأنه يجب أن يهدم المسجد، أما إذا دخل القبر في المسجد فيجب أن ينبش القبر ويخرج منه، وهذا الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقال هو الذي يدل عليه كلام العلماء، ولم أجد فيه خلافًا والأدلة علىٰ هذا[1].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٦٠) قال: وقد نص علىٰ النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور غير واحد من علماء المذاهب من أصحاب مالك والشافعي، وأحمد ومن فقهاء الكوفة أيضًا وصرح غير واحد منهم بتحريم ذلك وهذا لا ريب فيه بعد لعن النبي ﷺ ومبالغته في النهي عن ذلك. واتخاذها مساجد يتناول شيئين: أن يبني عليها مسجدًا أو يصلي عندها من غير بناء وهو الذي خافه هو وخافته الصحابة إذا دفنوه بارزًا خافوا أن يصلي عنده فيتخذ قبره مسجدًا. وقال رحمه الله في شرح العمدة (٤/ ٤٦١): الصواب فإن قوله ﷺ: «**لا تتخذوا القبور مساجد**» أي: لا تتخذوها موضع سجود فمن صلىٰ عند شيء من القبور فقد اتخذ ذلك القبر مسجدًا، إذ المسجد في هذا الباب المراد به موضع السجود مطلقًا. وقال رحمه الله في اقتضاء الصراط (١/ ٣٣٦): وقد اختلف الفقهاء في الصلاة في المقبرة هل هي محرمة أو مكروهة، وإذا قيل محرمة فهل تصح مع التحريم أم لا؟ المشهور عندنا أنها محرمة لا تصح، ومن تأمل النصوص المتقدمة تبين له أنها محرمة بلا شك وأن صلاته عندها لا تصح.

وقوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**»: هذا التكرار للمبالغة في النهي، وإبلاغ بليغ من الرسول ﷺ، وهذا يدل علىٰ أنه ﷺ قد علم بما أعلمه الله ﷻ أن أمته تقع في المحذور، ولهذا كرره وأبدا فيه وأعاده، وقد وقع الشيء الذي خافه ﷺ.

قوله: «**فقد نهىٰ عنه في آخر حياته. ثم إنه لعن -وهو في السياق- من فعله**»: فنهىٰ عن ذلك في حياته، ونهىٰ عن الصلاة إلىٰ القبور، ثم ذكره أيضًا قبل وفاته؛ يعني: ذكره مكررًا له قبل أن يمرض صلوات الله وسلامه عليه، وليس في حديث جندب فقط بل وفي غيره، ثم ذكره في سياق الموت صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: «**والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد**»؛ يعني: الصلاة عند القبور اتخاذ لها مساجد؛ لأن المقصود بالمسجد المكان الذي تسجد فيه ولو لم يبن مسجدًا.

وقوله: «**وهو معنىٰ قولها: «خشي أن يتخذ مسجدًا»**»؛ يعني: خشي أن يُصلي عنده، وينتاب للصلاة والتعبد عنده، ثم يكون ذلك وسيلة وداعيًا إلىٰ عبادته، وقد سأل ربه ﷻ أن لا يكون قبره كذلك فاستجاب الله تعالىٰ دعاءه فحماه من أن يكون مسجدًا، أو يكون وثنًا يعبد.

قوله: «**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**»: لما علموه من نهيه ﷺ وتحذيره من هذا، وأن هذا من المحرمات، وأنه أيضًا من سُنَّة اليهود والنصارىٰ الذين هم أهل الغضب، وأهل الضلال الذين حذرنا من أن نسلك مسلكهم.

وقوله: «**وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا**»؛ يعني: أن المقصود باتخاذ المسجد ليس البناء، أن يُبنىٰ مسجد علىٰ الشكل المعلوم والصفة المعروفة، وإنما المقصود النهي عن الصلاة عند القبر، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد خلاف ما يقوله دعاة القبورية.

قوله: «بل كل موضع يصلىٰ فيه يسمىٰ مسجدًا، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»»: وهذا عام في الأرض كلها، ويستثنىٰ من ذلك الحمام والمقبرة كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**»(١)، والمجزرة وقارعة الطريق كما في حديث ابن عمر قال: نهىٰ رسول الله ﷺ أن يصلىٰ في سبع مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، والحمام، ومعاطن الإبل، وفوق الكعبة(٢).

وهذا بخلاف اليهود والنصارىٰ، فإنهم لا يصلّون إلا في البيع والكنائس، وهذا من خصائص الرسول ﷺ حيث قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة، وبعثت إلىٰ الناس عامة**»(٣).

وهو ﷺ رسول لكل من كان علىٰ الأرض، ومن لم يؤمن به فهو كافر كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(٤)، فعلق الأمر بالسماع أنه يسمع؛ لأن الإنسان عنده عقل وفكر، فإذا سمع أن لله نبيًا وجب عليه أن يبحث عن دينه، وأول شيء

(١) أحمد في المسند رقم (١١٧٨٨)، وأبو داود رقم (٤٩٢)، والترمذي رقم (٣١٧)، وابن ماجه رقم (٧٤٥)، والحاكم في المستدرك رقم (٩١٩) و(٩٢٠) وقال: هذه الأسانيد كلها صحيحة علىٰ شرط البخاري، ومسلم ولم يخرجاها. ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن ماجه رقم (٧٤٦)، والترمذي رقم (٣٤٧) وقال: قال أبو عيسىٰ: وحديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوي، وقد تكلم في زيد بن جبيرة من قبل حفظه. وفي التلخيص الحبير لابن حجر (١/ ٤٢٢): في سند الترمذي، زيد بن جبيرة وهو ضعيف جدًا، وفي سند ابن ماجه عبد الله بن صالح وعبد الله بن عمر العمري المذكور في سنده، ضعيف أيضًا.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه مسلم رقم (١٥٣).

يجب أن يتعلمه اللغة؛ لأنه لن يعرف ما قاله وما نهىٰ عنه، وما أمر به إلا إذا عرف لغته، ولهذا يقول العلماء: أن تعلم اللغة العربية واجب؛ لأنه لا يفهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلا بها.

وقوله: «**أحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي ونصرت بالرعب مسيرة شهر**»، فكل من يسمع به وبينه وبين الرسول مسيرة شهر فإنه يرعب، وهذه ليست خاصة بالنبي ﷺ بل له ولأمته من بعده بشرط التمسك بسُنَّته.

وقوله: «**وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»: وكان الذين من قبله يصلّون في بيعهم وكنائسهم.

وقوله: «**وأعطيت الشفاعة**»: والمقصود بها الشفاعة الكبرىٰ.

والمقصود من الحديث قوله: «**جعلت لي الأرض مسجدًا**»؛ يعني: يصلي فيها؛ أي: أي مكان أدركتك الصلاة فيه تصلي «**وطهورًا**» إذا لم تجد الماء تيمم، ومن كان قبلنا لم يكن عندهم تيمم، بل لا بد من الوضوء، وإذا وقعت النجاسة علىٰ ثوب أحدهم يقرضها بالمقراض لا يغسلها، وكل هذا من الآصار والأغلال التي كانت عليهم بسبب تعنتهم وأفعالهم.

وقد نهىٰ الرسول ﷺ أن يجصص القبر وأن يبنىٰ عليه، أو يجلس عليه، فعن جابر رضي الله عنه قال: نهىٰ رسول الله ﷺ: «أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنىٰ عليه»[(١)]، وجاء عند الترمذي بلفظ: «نهىٰ رسول الله ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنىٰ عليها وأن توطأ»[(٢)]، وهو كذلك عند أبي داود: «أو يكتب عليه»[(٣)]، فهذه أربعة أشياء وهي: الجلوس عليها[(٤)]. وقد فسره بعض العلماء

(١) رواه مسلم رقم (٩٧٠).

(٢) رواه الترمذي رقم (١٠٥٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٣٢٢٦)، والنسائي رقم (٢٠٢٧).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٦٥٥٦): «أو يجلس عليه».

بقضاء الحاجة[١]. ولكن الظاهر أنه الجلوس؛ يعني: العكوف عندها لطلب البركة، والبناء عليها أن يبنىٰ عليها، وأن يجصص القبر وأن يقعد عليه، وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «**لأن يجلس أحدكم علىٰ جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلىٰ جلده خير له من أن يجلس علىٰ قبر**»[٢]، وكذلك أمر خامس هو تسويتها وعدم الزيادة عليها كما جاء عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[٣]، وفي رواية جابر: «أو يزاد عليه»[٤].

✍ **قول المؤلف رحمه الله: ولأحمد بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعًا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه[٥].**

قوله: «**شرار**»: أصل شرار: أشر الناس، فجمع فقيل: شرار.

قوله: «**من تدركهم الساعة وهم أحياء**»: المقصود بالساعة أحد أمرين:

أحدهما: تدركهم علاماتها الكبرىٰ مثل: طلوع الشمس من المغرب، والدابة، والدجال، فهي مقرونة بطلوع الشمس والدابة، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها،**

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٢٤) قال النووي: المراد بالجلوس القعود عند الجمهور وقال مالك: المراد بالقعود الحدث وهو تأويل ضعيف أو باطل. انتهىٰ.
(٢) رواه مسلم رقم (٩٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه مسلم رقم (٩٦٩).
(٤) أخرجه أبو داود رقم (٣٢٢٦)، والنسائي رقم (٢٠٢٧).
(٥) صحيح ابن حبان مخرجا (١٥/ ٢٦١) رقم (٦٨٤٧) وأخرجه أحمد في المسند رقم (٣٨٤٤)، وابن أبي شيبة رقم (٢٧٢)، وأبو يعلىٰ رقم (٥٣١٦)؛ وابن خزيمة رقم (٧٨٩)، والطبراني في الكبير رقم (١٠٤١٣)، والبزار رقم (١٧٢٤).

والدجال، ودابة الأرض»[١]؛ لأن هذا إيذان بتغير الكون ونهايته؛ لأن الدجال إذا خرج يكون أول يوم له سنة والثاني شهر والثالث أسبوع، ثم تعود الأيام كما هي[٢]، وهذا إيذان بالتغير، فهذا مثل طلوع الشمس من مغربها، فهي تقف الوقت الطويل، وليس هذا من باب التأويل بل هو علىٰ الحقيقة؛ لأن الصحابة قالوا في اليوم الذي كسنة: كيف نصنع بالصلاة؟ قال: اقدروا لها؛ يعني: صلوا في اليوم الأول صلاة سَنَة، واليوم الثاني صلاة شهر، والثالث صلاة أسبوع، وكذلك طلوع الشمس من المغرب جاء أنها يتأخر طلوعها، حتىٰ إن الناس يصلون وليسوا هم كفرة يقول: إن الذين يتهجدون بالليل يستبطؤون الليل، ثم يفزعون إلىٰ المساجد ويبقون فيها طويلًا بينما هم ينتظرون إذا الشمس تطلع من المغرب، ثم تسير متجه إلىٰ الشرق، ثم يؤمن كل من رآها، ولكن هذا لا ينفع؛ لأن هذا مثل معاينة القيامة.

الثاني: فسرها بعض المفسرين بما هو أخص من هذا وهو ما فسره الشارح قال: والمقصود بالساعة النفخ بالصور النفخة الأولىٰ[٣]. فيكون أخص من كونها علاماتها. وهذا لا يخالف قوله ﷺ في حديث ثوبان، وحديث معاوية وحديث جابر وحديث معاذ ﷺ، فعن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم علىٰ ذلك**»[٤]، الخاذل يكون ممن هو علىٰ عقيدتهم ولكنه يقف عن نصرتهم، أما المخالف فهو يخالفهم في العقيدة، وهم لا يضرهم هؤلاء ولا هؤلاء.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٥٨).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان وفيه: «قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: **أربعون يومًا يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم**، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **لا اقدروا له قدره** ...».

(٣) تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٨٧) قال: أي من تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ في الصور وهم أحياء، وهذا كحديثه الآخر الذي في مسلم لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق.

(٤) رواه البخاري رقم (٣٦٤١)، ومسلم رقم (١٠٧٣) و(١٩٢٠).

وفي رواية مسلم كذلك عن جابر بن سمرة: عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتىٰ تقوم الساعة**»[١]، فهذه الأحاديث عامة في الأزمان كلها؛ يعني: في كل زمن هذه الطائفة فهي مستمرة، والمقصود بالساعة هي ساعتهم التي يموتون فيها كما في حديث عبد الرحمن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد، وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم فبينما هم علىٰ ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له: مسلمة يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون علىٰ أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتىٰ تأتيهم الساعة وهم علىٰ ذلك**»، فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفسًا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقىٰ شرار الناس عليهم تقوم الساعة[٢]. وفي حديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث ريحًا من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحدًا في قلبه (قال أبو علقمة: مثقال حبة، وقال عبد العزيز: مثقال ذرة) من إيمان إلا قبضته**»[٣].

فيبقىٰ شرار الناس وعليهم تقوم الساعة كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض: الله الله**»[٤]، والساعة هي النفخ في الصور، ولكن الساعة قد تطلق علىٰ وقت معين علىٰ نهاية جيل، أو نهاية إنسان تكون هذه ساعته الخاصة به في صحيح مسلم من حديث عائشة قالت: كان الأعراب إذا قدموا علىٰ رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متىٰ الساعة؟

---

(١) رواه مسلم رقم (١٩٢٢).

(٢) رواه مسلم رقم (١٩٢٤).

(٣) رواه مسلم رقم (١١٧).

(٤) رواه مسلم رقم (١٤٨).

فنظر إلىٰ أحدث إنسان منهم فقال: «**إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم**»[(١)]؛ يعني: ساعة هذا الجيل، هذا القرن، وفي هذا أحاديث كثيرة، وبهذا تجتمع الأحاديث يعني أن المقصود بساعة الطائفة المنصورة هي إتيان الريح التي تقبض كل مؤمن ومؤمنة، فيبقىٰ شرار الناس وعليهم تقوم الساعة، وفي هذا دليل علىٰ أن الناس يبقون إلىٰ قرب النفخ في الصور، ولكن الخير قد رفع منهم وبقوا شراراً ليس فيهم خير، فقد جاء أن القرآن يُرفع يُسرىٰ عليه في الليلة فلا يبقىٰ منه حرف واحد.

وفي حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتىٰ لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك، ولا صدقة، وليسرىٰ علىٰ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في ليلة فلا يبقىٰ في الأرض منه آية، وتبقىٰ طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا علىٰ هذه الكلمة لا إله إلا الله. فنحن نقولها**»، فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثًا. كل ذلك يعرض عنه حذيفة. ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النار. ثلاثًا[(٢)].

فهو لا يبقىٰ منه حرف واحد لا في المصاحف ولا في صدور الرجال[(٣)]،

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٥٢).

(٢) رواه ابن ماجه رقم (٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك رقم (٨٦٣٦) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في فتح الباري: سنده قوي.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «يُسرىٰ علىٰ كتاب الله فيرفع إلىٰ السماء فلا يصبح في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل ولا الزبور وينتزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وفي الدر المنثور (٥/ ٣٣٦) وعن ابن مردويه والديلمي عن حذيفة وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يُسرىٰ علىٰ كتاب الله ليلًا فيصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم** =

وذلك إذا ترك العمل به وهجر رفعه الله إليه[1]، وهذا يذكره العلماء في عقائدهم ويقولون في صفة القرآن منه بدأ وإليه يعود، فقولهم: منه بدأ؛ يعني: أنه تكلم به وهو كلامه خرج منه، وإليه يعود إما أن يكون المعنىٰ يعود صفة له، أو أنه كما جاء في الأثر أنه يسرىٰ عليه، ويرفع إلىٰ السماء فيبقىٰ الناس لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فهؤلاء هم شرار الناس.

وقوله: «والذين يتخذون القبور مساجد»: هذا عام في كل من يتخذ القبر مسجدًا سواء كان في أول الزمن، أو في آخره، فهم شرار الناس جعلهم مثل من لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وهذا يدل علىٰ أن هذا شديد وعظيم وغليظ أن من فعل ذلك فقد ارتكب عظيمًا، وكفىٰ بذلك تغليظًا من الرسول ﷺ، وقد يحتج محتج بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١] في قصة أصحاب الكهف، فالله ﷻ ذكر ذلك عنهم وأقره فيكون ذلك دليلًا علىٰ جواز ذلك فيقال: إن مجرد ذكر ذلك عنهم لا يدل علىٰ جوازه، والرسول ﷺ وضح ما أنزل إليه من ربنا في أحاديثه التي سبق بعضها في هذا، فيكون هذا هو الجواب علىٰ من احتج بذلك.

= منه آية»، وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ يرفع الذكر والقرآن».

(١) جاء عند السيوطي في الجامع الكبير (١/ ١٨٤)٧٦ رقم (٨٩٨): «لا تقوم الساعة حتىٰ يرجع القرآن من حيث جاء فيكون له دوي حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: ما لك؟ فيقول: منك خرجت وإليك أعود أتلىٰ فلا يعمل بي فعند ذلك يرفع القرآن» (الديلمي عن ابن عمرو) أخرجه الديلمي (٥/ ٧٩) رقم (٧٥١٣). وجاء عند محمد بن نصر المروزي في مختصر قيام الليل (١/ ٢٧٧) عن عبد الله بن عمرو ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل يقول: أتلىٰ ولا يعمل بي»، وقال الليث بن سعد: «يقال: إنما يرفع القرآن حين يقبل الناس علىٰ الكتب ويكبون عليها ويتركون القرآن»، وقال مجاهد ﷺ: «إن القرآن يقول: «إني معك ما تبعتني فإذا لم تعمل بي تبعتك حتىٰ آخذك علىٰ أسوأ عملك»».

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

يعني: أنه يكون جاهلًا في الحكم ما أراد مخالفة الرسول ﷺ، وإنما يظن أن هذا يحبه الله، وأن ما جاء به الرسول ﷺ أما أن يبني مسجدًا، وقد علم النهي وتحذير الرسول ﷺ، فهذا لا يكون عمله إلا فاسدًا نية وعملًا، ومع هذا لو قدر أنه يفعل هذا جاهلًا، ويظن أن هذا يحبه الله نقول: إن هذا عمل باطل، وهو غير مأجور على ذلك بل هو مأزور؛ لأن الواجب على المكلف أن لا يقدم على عمل من الأعمال إلا ويعرف حكم الله فيه، فإن خالف ذلك فهو آثم. فهذا وإن كانت نيته صالحة فهو لا يكون معذورًا في عمله.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

النهي عن الصور، فالتمثال قد تطلق على الصور المعبودة فقط، يقال: هذا تمثال، وفي اللغة هو ما كان مثلًا لمن صورت صورته فيعم التصوير كله، وقد جاءت النصوص في الوعيد على المصورين كثيرة وفيها تغليظ وشدة، منها قوله ﷺ عن الله جل وعلا: «**قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو شعيرة**»[(١)]، ومنها قوله ﷺ: «**كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صوَّرها نفسًا فتعذبه في جهنم**»[(٢)]، ومنها قوله: «**من صوَّر صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبدًا**»[(٣)]. تكليف بما لا يستطاع في نصوص كثيرة في التصوير، وهذا أيضًا يدلنا على أن هذا القول من علامات نبوة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم رقم (٢١١٠).

(٣) رواه البخاري رقم (٢٢٢٥)، ومسلم رقم (٢١١٠) من حديث ابن عباس.

رسول الله ﷺ، وأنه جاء من عند الله صلوات الله وسلامه عليه أعلمه الله ما سيكون في أمته من كثرة التصاوير فحذر من ذلك ونصح وبلغ البلاغ المبين، فهذا مما بلغه الرسول ﷺ، وأبدا فيه وأعاد، ولم يترك صلوات الله وسلامه عليه شيئًا يقربنا إلىٰ النار إلا وحذرنا منه ولا شيئًا يقربنا إلىٰ الجنة إلا وبينه لنا ووضحه لنا كما قال أبو ذر: لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علمًا[1].

وجاء في ابن ماجه وغيره أن الرسول ﷺ قال: «**قد تركتكم علىٰ البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا. فعليكم بما عرفتم من سُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ**»[2]؛ يعني: الطريقة الواضحة الجلية التي وضَّحها الرسول ﷺ، وقد عرفنا أن التماثيل فتنة، ولا سيما إذا كانت لمن يعظم من الكبراء والعظماء، أو الصالحين.

❁ **الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بيَّن لهم هذا أولًا، ثم قبل موته بخمس، قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.**

العبرة في هذا؛ لأنه علم مما علمه الله ﷻ من علم الغيب أن هذا سيقع في أمته، وأنهم سيخالفون ذلك، فبالغ هذه المبالغة حتىٰ يبلغهم ويعلمهم أمر الله في ذلك فيصبح ليس لهم عذر، ثم التحذير من الوقوع في ذلك لشدة الفتنة فيه فإن الفتنة فيه كبيرة. فهذا مما أمر الله بتبليغه للأمة فبلغه صلوات الله وسلامه عليه، بل بلغ كل ما جاء به من عند الله ﷻ، ولهذا يقول العلماء كل ما لم يبلغه الرسول ﷺ فهو ليس من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢١٣٦١).

(٢) أحمد في المسند رقم (١٧١٤٢)، وابن ماجه رقم (٤٣)، والطبراني في الكبير رقم (٦١٩) عن العرباض بن سارية يقول: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب. فقلنا: يا رسول الله ﷺ، إن هذه لموعظة مودع، فما تعهد إلينا؟ قال: «**قد تركتكم علىٰ البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبدًا حبشيًا، فإنما المؤمن كالجميل الأنف حيثما قيد انقاد**».

الدين لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

الرابعــة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

هذا يعني: في حياته ﷺ، ولم يعين هو مكان القبر ولكنه دعا قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا قبري عيدًا**»، فهذه مبالغة أيضًا، ولهذا قال القرطبي: بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته، وسدوا الداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذ كان مستقبل المصلين فتتصور إليه الصلاة بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتىٰ التقيا علىٰ زاوية مثلث من ناحية الشمال، حتىٰ لا يتمكن أحد من استقبال قبره. ولهذا المعنىٰ قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره(١). فلا يستطيع أحد أن يستقبل القبر ولو في الظاهر، ولكن هذا الآن أصبح بإمكانه أن يستقبل وذهبت هذه الزاوية، وهذا كان في زمن عمر بن عبد العزيز لما كان هو الأمير علىٰ المدينة في وقت الخليفة الذي أمر أن تدخل الغرفة في المسجد، وهو الوليد بن عبد الملك، وهذا أمر به من ذات نفسه، ولم يأخذ فيه رأي العلماء، والعلماء نهوا عن ذلك، ولكنه لم يبال في ذلك، ولهذا لا يقال كما تقول المبتدعة: هذا قبره في المسجد فكيف تنهون عن بناء المساجد علىٰ القبور؟ نقول: هذا فعل الملوك وهو لا يستدل به علىٰ أحكام، ولا علىٰ شرع، ولم يقره العلماء علىٰ ذلك بل نهوا عنه وبعضهم عذب علىٰ هذا مثل سعيد بن المسيب وغيره، ثم لا يجوز أن يقاس قبر الرسول ﷺ بقبر غيره، ولا يجعل للملوك ألعوبة، ولله في ذلك حكمة في هذا، فلو كان قبر الرسول ﷺ بارزًا فماذا يكون؟ يمكن أن يؤخذ التراب الذي عنده كله فضلًا عنه.

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٣/ ٢١٧).

❁ **الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.**

فإذا كان من سنن اليهود والنصارىٰ فإنه لا بد أن يقع في هذا الأمة لقوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»(١)، وهذا لا يحتاج إلىٰ دليل، الواقع أكبر من أن يستدل عليه ولا يقصد بذلك الأمة كلها؛ يعني: أمة الإجابة يكفي أن يقع من بعضهم.

❁ **السادسة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.**

يعني: مراده بلعن اليهود والنصارىٰ نحن، فيكون معنىٰ ذلك أننا إذا فعلنا ذلك استحقينا لعنته، فمن وقع في ذلك فهو ملعون بلعنة الرسول ﷺ.

وهل اللعنة دعاء أو خبر؟ هل هو دعاء علىٰ الفاعل بأنه يكون ملعونًا؟ أو خبر منه بأنه ملعون؟ هو خبر وهو أعظم من الدعاء؛ لأن الدعاء قد تتخلف الإجابة عنه، أما الخبر فلا يمكن؛ لأن الرسول ﷺ هو الصادق المصدوق الذي لا يقول إلا حقًا، ولا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ.

❁ **السابعة: العلة في عدم إبراز قبره.**

العلة في ذلك ظاهرة، وهو الخوف من أن يصلىٰ عنده، أو يقصد بالعبادة.

❁ **الثامنة: في معنى اتخاذها مسجدًا.**

معنىٰ اتخاذها مسجدًا: التعبد عندها من الصلاة، أو قراءة القرآن أو الذكر، أو تحري الدعاء وما أشبه ذلك؛ لأن هذه العبادات فعلها في المساجد أعظم، والمسجد بني للصلاة وذكر الله ﷻ.

❁ **التاسعة: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا وبين من تقوم عليه الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.**

فذكر ذريعة الشرك مع خاتمته؛ يعني: خاتمة الخلق والمصير أن شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء.

---

(١) سبق تخريجه.

❁ **العاشـرة:** ذكره ﷺ في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شرار أهل البدع بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم: الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور؛ وهم أول من بنى عليها المساجد.

يعني: هم أول من بنى على القبور المساجد، يقصد بذلك العبيديين وكذلك غيرهم من الرافضة الذين بنوا المشاهد على القبور، وصاروا يدعون إلى الحج إليها، ويزعمون أن الحج إليها أفضل من الحج إلى البيت العتيق، أما الجهمية فهم الذين عطلوا الله ﷻ عن أوصافه ونشروا مذهبهم فحدث في الأمة شر عريض طويل بسببهم، أصبحت حروب كلامية بسبب ذلك وانصرفوا عن الجهاد في سبيل الله، فصار تناحر بينهم وسرى شرهم إلى كثير من المسلمين.

وقوله: «بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة»: الذين ذكرهم الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره قوله: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، فالثنتان والسبعون فرقة هذه متوعدة بالنار، والثالثة هي التي نجت، وهذا ليس معناه أن هذه الفرق الثنتين والسبعين أنها خارجة عن اتباعه وطاعته ولكنها ضالة، ضلَّت في ذلك؛ لأن الأمة تكون أمة إجابة، وأمة دعوة، وهذه الفرق باتفاق العلماء أنها من أمة الإجابة وليست من أمة الدعوة، أمة الدعوة كل الخلق، فمعنى ذلك أنهم بهذا الخروج لم يخرجوا من دائرة الإسلام، ولكنهم متوعدون بالنار كأصحاب الكبائر.

أما هؤلاء؛ يعني: الرافضة والجهمية فكثير ممن كتب في المقالات قالوا: ليسوا من أمة الإجابة، وكذلك طوائف الباطنية فأخرجوهم من الأمة بما اتصفوا به من الإنحراف الزائد.

۞ **الحاديــة عشــر: ما بلي به ﷺ من شدة النَّزع.**

وهذا يفهم من قوله: «**إذا اغتم بها ألقاها عن وجهه**»: هذا يدل على أنه وقع له نزع شديد، فقد جاء أنه ﷺ كان عنده إناء فيه ماء كان يدخل يده فيه ويقول: «**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**»(١)، ويقول: «**اللهم هوِّن عليَّ سكرات الموت**»(٢).

۞ **الثانيــة عشــر: ما أكرم به من الخلة.**

يعني: أنه خليل الله ﷻ، وهذا خاص به مع أبيه إبراهيم، فالله خصَّهما بالخلة دونما سائر الخلق.

۞ **الثالثــة عشــر: التصريح بأن الصدّيق أفضل الصحابة.**

يعني في قوله: «**لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**» هذا فرد من نصوص كثيرة تدل على فضل أبي بكر رضي الله عنه.

۞ **الرابعــة عشــر: الإشارة إلى خلافته.**

في قوله: «**لو اتخذت من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**»؛ لأن من كان أقرب من النبي ﷺ وأحب إليه فهو أولى بأن يلي الأمر من بعده، وقد جاء ما هو أصرح من ذلك كما في الصحيحين في الرؤى التي رآها الرسول ﷺ أنه قال: «**بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبًا، أو ذنوبين وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غربًا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريًا من الناس يفري بفريه حتى ضرب الناس بعطن**»(٣)؛ يعني: أنهم شربوا وتركوا الماء.

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٤٤٩) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه أحمد في السند رقم (٢٤٣٥٦)، والترمذي رقم (٩٧٨)، وابن ماجه رقم (١٦٢٣)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٧٣١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) سبق تخريجه.

الباب الحادي والعشرون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله.**

اتخذا القبور مساجد، وقبلة تقصد إما لتحري الدعاء عندها، أو لدعوة أصحابها في النهاية والشرك الأكبر فيها أمر خطر، ولهذا ذكر عدة أبواب في هذا المعنىٰ منوعًا ذلك، ويأتي بالأدلة المتنوعة حتىٰ لا يكون لمن يتعلق بذلك أي شبهة؛ لأنه رحمه الله واجه في هذه المشكلة عنتًا من العلماء أنفسهم، كما هو الواقع الآن وإلىٰ أن يرث الله جل وعلا الأرض ومن عليها.

فالآن يوجد من العلماء من يدعو إلىٰ عبادة القبور وهم علماء ويكتبون الكتب ويستدلون بالأدلة، وإن كانت أدلتهم شبه، أو أنها واهية، أو أحاديث موضوعة، أو تعلق بقول فلان، أو ما أشبه ذلك من الحكايات؛ كالحكاية التي يذكرونها عن أحمد الرفاعي أنه أتىٰ إلىٰ قبر النبي ﷺ فطلب أن يخرج له يده حتىٰ يقبلها فخرجت إليه فقبلها، وإن كان هذا الرفاعي لا يجوز أن يذكر ما يقوله؛ لأنه دجال جمع بين الرفض والتصوف المقيت الذي هو أصل ضلال كثير من الناس، ومع ذلك فله طريقة لا تزال تتبع وله أنصار، وله أعوان علىٰ هذا الباطل -نسأل الله العافية-.

قوله: «**الغلو**»: هو الزيادة علىٰ المشروع، والزيادة علىٰ ما شرعه الله جل وعلا يكون ضلالًا؛ لأننا عبيد يجب أن نتقيد بأمر سيدنا ولأننا أتباع يجب أن نكون متبعين لرسولنا ﷺ فإذا جئنا بزيادة فقد خرجنا عن هذين المعنيين وشرعنا من عند أنفسنا، ولم نقتنع بما جاء به الرسول ﷺ، وفي هذا خروج عن العبودية وعن الاتباع، وإن كان هذا لا يكون في كل شيء؛ لأن الغلو مبدئه قد يكون شيئًا سهلًا عند الإنسان، ولكن عند النهاية يخرج به عن دين الله جل وعلا.

والذي شُرع في القبور زيارتها للتذكر والاعتبار والإحسان إلىٰ الميت بأن يدعو له وما زاد علىٰ ذلك فهو غلو، وسواء كانت القبور لصالحين أو لغيرهم، ولهذا قسم العلماء الزيارة إلىٰ زيارة شرعية وزيارة بدعية فما كان فيه الإحسان إلىٰ الزائر وإلىٰ المزور فهو من الزيارة الشرعية، وما كان خارجًا عن ذلك فيه تحري الدعاء عند القبور، أو التوسل بأصحابها، أو دعوة أصحابها، فهو إما وسيلة إلىٰ الشرك، أو شرك أكبر بالله ﷻ.

قوله: «**في قبور الصالحين**» قيَّدَ الغلو في قبور الصالحين، والغلو منهي عنه مطلقًا في جميع المسائل، ولكن في هذه المسألة بخصوصها يجعل القبور أوثانًا تعبد من دون الله، وهذا هو الواقع والغلو فيها مثل: دفنها في المساجد، وبني المساجد عليها، أو البناء مثل القباب، أو وضع الستور عليها، أو الإسراج وما أشبه ذلك من التعظيمات التي وقعت كثيرًا، فهذا كله غلو، وقد جاء النهي عن ذلك صريحًا عن النبي ﷺ حتىٰ إنه جاء أنه لا يُزاد في ترابها، وأنها تسوىٰ بالأرض، ففي صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»(١)، فهذان الأمران من الأمور التي وقع الشرك بهما الصور والقبور، فكان يبعث البعوث صلوات الله وسلامه عليه لتسوية القبور بالأرض وكذلك طمس الصور فقوله: «**طمستها**»، هذا يدل علىٰ أنها أرقام وخطوط، وكتابة هذه هي التي تطمس وإلا لقال: «**كسرتها**»، فالصور أيضًا من الفتن التي افتتن بها كثير من الناس.

وقوله: «**يصيرها أوثانًا**»: الوثن هو ما عبد من دون الله، وهو علىٰ غير صورة من حجر، أو شجرة أو حائط، أو مكان، أو قبر، أو غير ذلك، والصنم ما كان مصورًا علىٰ صورة حي من آدمي، أو حيوان، أو غيره، هذا إذا ذكرا معًا، أما إذا ذكر

(١) رواه مسلم رقم (٩٦٩).

كل واحد مفردًا فإنه يدخل فيه الآخر؛ يعني: أن الصنم يطلق علىٰ الوثن، والوثن يطلق علىٰ الصنم.

وقوله: «تعبد من دون الله»: العبادة أن يقصد بها ما كان فيه جلب منفعة، أو دفع مضرة، فإذا اعتقد فيه ذلك وطلب منه ذلك، ولو كان بواسطة فقد جعلت له العبادة.

قال المؤلف ؒ: روىٰ مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١).

الدعاء من الرسول ﷺ في أمور متوقعة مخوفة، ويدل علىٰ أن هذا أمر خطير، ودعاء الرسول ﷺ في هذا خاص في قبره، ولهذا استجاب الله ﷻ له فحمىٰ قبره من أن يكون معبودًا، وفي هذا دليل علىٰ أنه لو عبد لصار وثنًا، فالقبور التي تقصد للعبادة، وإن كانت العبادة لله ﷻ يجعلها وثنًا، وهذا دليل علىٰ أن تحري العبادة عند القبور محرم؛ لأنه وسيلة إلىٰ الشرك الأكبر الذي هو أعظم الذنوب.

وحماية الله لقبر نبيه ﷺ استجابة لدعائه فأحيط بعدة جدران فأصبح لا أحد يستطيع الوصول إليه فهذه هي الحماية، أما كون الناس يتصورون أنهم قصدوه، وإن كانوا بعيدًا عنه فهذا ليس عنده ولا تسمىٰ تلك العبادة عند القبر أو أنها للقبر.

وكثير من الناس الذين يزعمون أنهم يتبعون الرسول ﷺ يعبدونه، وإن كانوا لو قيل لهم ذلك لغضبوا وقالوا: نحن لا نعبد ولكن إذا كانوا يستغيثون به ويدعونه ويتوجهون إليه في الضراء والسراء ويطلبون الرزق والعافية منه والنصر علىٰ العدو ويطلبون شفاء ما في الأبدان وهداية ما في القلوب من الضلال، فهذه عبادة واضحة صريحة، ولهذا يقول البوصيري في همزيته لما عدد العلل التي يطلبها من

(١) أخرجه مالك في الموطأ رقم (٥٩٣) من حديث عطاء بن يسار، وابن أبي شيبة رقم (٧٥٤٤) من حديث زيد بن أسلم.

الرسول ﷺ قال:

هــــذه علتــــي وأنــــت طبيبــــي ليس يخفىٰ عليك في القلب داء

جعله ما يخفىٰ عليه شيء في القلوب، وهذه صفة اختص بها رب العالمين ﷻ، وكذلك قوله في بردته التي صارت عند بعض الناس أعلىٰ من كلام الله ﷻ يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادك آخذ بيدي فضلًا وإلا فقل: يا زلة القدم

ثم يقول:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم

(رسول الله) منصوب علىٰ النداء يعني: (ولن يضيق يا رسول الله).

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

إلىٰ آخره، من الشرك الصريح الواضح بل نفىٰ عن الله ﷻ ما هو من خصائصه كون كل شيء بيده وملك له وعلمه محيط بكل شيء، وجعل علم اللوح والقلم الذي كتب فيه كل شيء من جملة علوم النبي ﷺ، وكذلك جعل الدنيا والآخرة من جملة جود النبي ﷺ، إذًا ماذا بقي لله ﷻ، وبعد هذا أكثر الناس يجعل هذه الأبيات من أعظم المفاخر ومن أبلغ الحقوق التي للنبي ﷺ، ويجادلون في هذا مجادلة لا يجادلون مثلها عندما تهدر شريعة أو تبطل سننه؛ لأن قلوب كثير من الناس أُشربت حب الباطل -نسأل الله العافية- فقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»، اتجه إلىٰ ربه ﷻ، وهذا مما يدل علىٰ أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك شيئًا مع الله، وإنما هو عبد يسأل ربه ما يحتاج إليه، ومن هذا كونه يكون عبدًا لله حقًا في الدنيا والآخرة حتىٰ قبره يسأل أن لا يكون سببًا في وقوع الشرك في بعض أمته، وهذا من تبليغه صلوات الله وسلامه عليه التوحيد، ونهيه البليغ عما قد يوقع في الشرك.

وقوله: «**اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»: في هذا أن الله موصوف بالغضب وهو من صفاته الفعلية التي يجب إثباتها؛ كالصفات الأخرىٰ وهو يتعلق بمشيئته ﷻ.

وأن من أسباب غضب الله ﷻ مخالفة شرعه، وارتكاب ما حرمه، وقد يكون سبب الغضب اعتقاد الفاعل له أنه قربة، وهذه صفة البدع تكون بهذه الصفة، ولهذا قال العلماء: إن البدعة لا يتاب منها. والمعنىٰ أن المبتدع يرىٰ أن عمله مشروع، وأنه حسن فيكف يتوب من الأمر المشروع الحسن، وليس معنىٰ ذلك أن صاحب البدعة لا يتوب الله عليه، فإنه إذا ترك البدعة وندم علىٰ ذلك وطلب من ربه ﷻ أن يتوب عليه تاب عليه، فإنه مثل غيره في سائر الذنوب.

وسبق أن اتخاذ القبور مساجد المقصود بها أن تقصد للعبادة وأن يصلي عندها لله تعالىٰ، أو يقرأ القرآن، أو يذكر الله، أو يدعو وما أشبه ذلك؛ لأنها ليست محلًّا للتعبد منعًا وحماية من الرسول ﷺ للتوحيد حتىٰ ما يدخل عليه من هذا الباب؛ لأن هذا من وسائل الشرك، فإذا كان غضب الله اشتد علىٰ من كان هذه صفته فكيف بمن يتجه إلىٰ القبر ويدعو صاحبه ويطلب منه، فهذا هو الشرك الأكبر الذي يكون صاحبه خالدًا في النار إذا مات علىٰ ذلك، ولا يقبل منه عمل حتىٰ يتوب من هذا الشرك.

وإنما اشتد غضب الله ﷻ علىٰ من جاء بوسيلة من وسائل الشرك، وهي كونه يتحرىٰ العبادة عند القبور ويجعلها مساجد يعني: محلاً للسجود، وسبق أن المسجد كل ما صُلي فيه، فهو مسجد سواء كان مبنيًا، أو غير مبني، فالدعوة تدل علىٰ أن الرسول ﷺ كان خائفًا أن يكون قبره ملاذًا وعياذًا لكثير من أمته الذين يزعمون اتباعه، وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام نهىٰ أن يتخذ قبره عيدًا، وهذا أبلغ.

وقوله: «**علىٰ قوم**»: سبق أنهم اليهود فهم الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ لأن هذه الأمة ليس فيها أنبياء، وإنما نبيها محمد ﷺ فقط ليس فيهم غيره، فالأنبياء

إذن الذين قبله، وهم في اليهود أما النصارىٰ فلا يوجد عندهم قبر نبي في أمتهم، فنبيهم عيسىٰ عليه السلام قد رفعه الله جل جلاله إلىٰ السماء حيًا ولا يزال حيًا في السماء وسينزل ويقتل الدجال الذي يكون في آخر الوقتُ أكبر كذاب، وأكبر مجرم سيقتله بيده وسيحكم بهذا الشرع ولا يقبل إلا الإسلام وحتىٰ الجزية ما يقبلها، وإذا فعل ذلك غضبت دول الكفر كلها التي في الأرض، ثم يتجهون إليه ليقتلوه، هذا هو الذي جاء النص به أن الله يوحي إليه ويقول: «**إني باعث عبادًا لي لا قبل لأحد في قتالهم فأحرز عبادي إلىٰ الطور**»، فيتحرز هو ومن معه في الطور ويحاصر فيه ويستولون علىٰ الأرض كلها ويملؤون الأرض التي حول عيسىٰ عليه السلام، وهو في الشام والطور جبل معين، وكل جبل فيه نبت، فهو طور، وإذا لم يكن فيه شجر ولا نبت فليس بطور، ولكن هذا هو الذي ذكره الله جل جلاله، وأنه مبارك بقعة مباركة الذي أوحىٰ الله عنده إلىٰ موسىٰ وكلمه، ثم بعد ذلك يرغب عيسىٰ ويسأل ربه ويتضرع هو ومن معه أن يهلك هذه الأقوام يأجوج ومأجوج الذين ملئوا الأرض فيهلكهم الله جل جلاله هلاكًا عامًا لا يبقىٰ منهم أحد، فهم يملئون الأرض فإذا أراد أن ينزل لا يجد مكانًا ينزل فيه من نتنهم وروائحهم وجثثهم الخبيثة، فيرغب إلىٰ الله أن يطهر الأرض منهم فيرسل الله طيورًا عظيمة تحمل جثثهم وتلقيها في البحر، ثم يرسل السماء تغسل الأرض من نتنهم وجثثهم الخبيثة، ثم يقال للأرض: أخرجي بركاتك، ففي هذا الوقت هو الذي جاء أن الصبيان يلعبون بالحيات وأن الجماعة من الناس يستظلون بقحف الرمانة، وأن القبيلة يكفيها اللقحة من الإبل، أو من البقر، فيبقىٰ علىٰ هذا ما شاء الله من الوقت، ثم يتوفاه الله جل جلاله فيقبر، أما قبل هذا فهو حي(١).

فالذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد هم اليهود ولكن اليهود لعبوا علىٰ النصارىٰ وصار النصارىٰ ألعوبة في أيديهم يصرفونهم كيف شاؤوا وأفسدوا دينهم فصاروا ضلالًا بأيدي أهل الغضب، فيعبدون كبارهم وعبادهم ومن كان معظمًا

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٣٧).

عندهم، ويوجدون الصور لعيسىٰ عليه السلام ولأمه فيعبدونها، والعجب أنهم صدقوا اليهود بأن اليهود أمسكوا عيسىٰ وصلبوه وقتلوه وسملوا عينه، وصاروا يعبدون الصليب الذي قتل عليه عيسىٰ، فأي سخافة أعظم من هذه، الصليب الذي قتل عليه نبيهم يعبدونه، ولا يزال عباد الصليب في غيهم سادرون، ومع ذلك هم الآن كما هو الواقع يريدون أن يرغموا الناس حتىٰ يدخلوا في دينهم الخرافي الذي لا يقبله لا فطرة ولا عقل فضلًا عن كون الله يأمر به.

فالمقصود أن غضب الله علىٰ هؤلاء الذين اتخذوا القبور مساجد، سواء كانت قبور أنبياء، أو قبور رهبان مما يفعله النصارىٰ، فإن غضب الله اشتد عليهم بخبر الرسول ﷺ، فكيف إذا كانت القبور قبور طواغيت مثل: البدوي والرفاعي، أو قبوراً وهمية، أوجدها الشيطان كما هو الواقع في أكثر القبور التي تعبد مثل: قبر الحسين الذي في مصر فهو وهمي لا حقيقة له دعوىٰ جاءت بها الرافضة، وإلا كيف يكون الحسين في كربلاء، وفي الشام، وفي فلسطين، وفي مصر كلها قبور، وكذلك قبر عبد القادر الجيلاني، فإنه من أكبر المعبودات، وفي كل بلد تجدهم يعبدونه، وهكذا كثير من الدعاوىٰ التي هي في الواقع ضلال لا برهان عليها، وكثير منهم يقول: أني قد رأيت رؤيا أن في هذا المكان رجل صالح من الأولياء فيبنون عليها قبرًا، فالمصادر التي يصدرون عنها في إيجاد القباب والقبور من هذا النوع، وإلا كيف لو وجدوا قبر صحابي، أو قبر نبي ماذا يكون؟

والصحابة رضي الله عنهم يعرفون هذا الأمر بما تلقوه عن رسول الله ﷺ، فلهذا لما وجدوا دانيال علىٰ سريره في خزائن الفرس حفروا له ثلاثة عشر قبرًا في النهار، فلما كان في الليل دفنوه في واحد منها وساووا القبور كلها وأجروا عليها نهرًا حتىٰ يخفىٰ علىٰ الناس لئلا يتخذ وثنًا يعبد، وهكذا قبور غيرهم فإذا مات الصحابي كانوا يسوونه بالأرض، ولا يقال هذا قبر فلان؛ لأنهم عرفوا ذلك عن نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وإنما الذي أوجد هذه الفتنة في قبورهم الرافضة والصوفية المنحرفة

هم أول من ابتدعها وجاء بها.

وقوله: «**اتخذوا قبورهم أنبيائهم مساجد**»؛ يعني: جعلوها أماكن يدعون عندها ويصلون عندها، ثم بعد ذلك صارت معبودات.

لكن يقال: اليهود عُرفوا بقتل الأنبياء فكيف يتخذون قبورهم مساجد والله أخبر أن طبيعتهم في الأنبياء أنهم فريقًا يكذبونهم، وفريقًا يقتلونهم وهم أهل غضب، وأهل جفاء، وأهل عناد وكبر، ولكن فيهم من فعل هذا، فعزير عبدوه، وقالوا: هو ابن الله، والنصارىٰ ظاهرهم في هذا في عيسىٰ كما ذكر الله ﷻ عنهم، وبيعهم فيها قبور من يعظمونه، وقد يدعون أنه نبي، وكذلك فيها صورهم والنصارىٰ مثلهم، فغضبُ الله ﷻ الغالب أنه يكون علىٰ من فعل، وهو يعلم أنه مخالفًا لأمر الله ﷻ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله**: ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور عن مجاهد:** ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] **قال: كان يَلُتّ السويق فمات، فعكفوا علىٰ قبره**[١]. **وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس، قال: كان يلتّ السويق للحاجّ**[٢].

يعني: أن اللات كان رجلًا، وكان يقدم السويق مع الزيت، أو مع السمن لمن أتىٰ إليه حاجًّا، أو غيره من قاصد السبيل، جاء أن اسمه صرمة بن غنَّم، وأنه كان إذا قدم شيئًا لمن يأكله يقولون: أنه يسمن، فافتتنوا به فلما مات دفنوه تحت صخرة ونقشوا عليها نقوشًا وكتابات، ثم صاروا يطوفون بها، ويعكفون عندها، ثم صارت معبودة من أكبر معبودات العرب، ففي هذا أن الفتنة في القبور من أعظم دواعي الشرك؛ يعني: البناء عليها وتعظيمها، وأنها طريق إلىٰ عبادتها، وهذا علىٰ قراءة التشديد ﴿ٱللَّتَ﴾ أخذًا من اللت، وهو الخلط كونه يخلط الزيت، أو السمن بالسويق.

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٣).

(٢) المصدر السابق.

وأما على قراءة التخفيف ﴿ٱللَّتَ﴾، وهي القراءة السبعية ومعناها أنهم اشتقوا لهذا الوثن اسمًا من أسماء الله ﷻ فسموه اللات من الإله، وهي مؤنثة، والله ﷻ يتقدس ويتعالى عن هذا، وهذا أحد المعاني في الإلحاد في أسماء الله ﷻ كونه يؤخذ من أسمائه اسمًا للمعبودات، ومنها الإله إذا سموها آلهة وهو إلحاد؛ لأنها ليست آلهة، وإنما هو كذب ووضع في غير مسماه ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: لا حقيقة لها، مجرد أسماء، وإلا الإله هو الله لا إله إلا الله ﷻ.

فالمقصود: أن القبر إذا قصد لأجل دعاء، أو لأجل أن يتعبد عنده فذلك غلو، وأنه يُصيره وثنًا يعبد من دون الله ﷻ، ولهذا قال النبي ﷺ كما في الحديث السابق: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا..**».

وقوله: «**فمات فعكفوا**»؛ يعني: أن مبدأ الأمر هو الجلوس عند قبره تعظيمًا له، أو طلبًا للبركة، ثم تمادى بهم الأمر حتى عبدوه وصار من أعظم المعبودات، فالعكوف هو الجلوس، والعكوف نوع من أنواع العبادة كما أخبر الله ﷻ عن أمره لإبراهيم وإسماعيل: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، العاكف الذي يجلس تعبدًا، فإذا جلس الإنسان في مسجد فهو في عبادة؛ لأن المسجد بني للعبادة، فالجلوس فيه عبادة وهو عكوف، ولهذا إذا دخل الإنسان للمسجد ينبغي أن ينوي الاعتكاف لله ﷻ ولو ساعة، وفي الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال: «**أوف بنذرك**»[1]، فأمره بالوفاء؛ لأن العبادة إذا نذرت وجب الوفاء، فالمقصود أن الجلوس عند القبر لأجل طلب البركة، أو لأجل الدعاء عبادة

(١) رواه البخاري رقم (٢٠٤٢)، ومسلم رقم (١٦٥٦).

له، فجلوسهم هذا من العبادة، وهو من الغلو الذي صير هذا القبر وثنًا فهم جمعوا بين أشياء كثيرة من الغلو في القبر وكونهم صاروا يعكفون عنده وكانوا يطلبون منه أيضًا بركات والنصر على الأعداء ويطوفون عليه فقوله: «**فمات فعكفوا على قبره**» صريح بأنه رجل وأنه قبر.

وقوله: «**كان يلت السويق للحاج**»؛ يعني: لمن يقدم عليه سواءً حاج، أو غير حاج، وهو يقدم بذلك ضيافة على عادة العرب لمن أتى إليهم، فقد كان عنده غنيمة، وأنه يرعى الغنم ويشرب اللبن ويقدمه لمن قدم إليه، وقد يكون عنده سويق، ثم يخلط السويق بسمن الغنم، ثم يقدمه لمن يأتي إليه من الحجاج وغيرهم، وهذه من الأمور التي تعظم العرب من يفعلها.

والحاج؛ يعني: الذين يأتون وقت الحج، والحج كان معروفًا في موسم الحج؛ لأنه إرث ورثه العرب عن أبيهم إسماعيل عليه السلام، وبقي إلى أن جاء الرسول ﷺ، وصار الحج ركنـًا من أركان الإسلام.

والشاهد من هذا أن تعظيم القبور، والزيادة على المشروع يجعلها معبودات وطواغيت تعبد من دون الله جل وعلا؛ لأن مبدأ ذلك الحب لما يفعله من الإحسان أحبوه لأجل ذلك فزادوا في حبه فعكفوا على قبره، فهذا غلو، ثم دعاهم ذلك إلى عبادته فصار معبودًا كبيرًا من معبودات العرب، فكذلك أي قبر فعل به هذا الفعل، وهذا هو الذي يجعل القبور المشهورة في البلاد يجعلها طواغيت تقصد من دون الله جل وعلا:

- **أولًا**: نشر أن هذا ولي.
- **ثانيًا**: تعظيم هذا القبر ورفعه بالبناء.
- **ثالثًا**: إيجاد الستور له، وكذلك السرج التي توضع عليه.
- رابعًا: السدنة الذين يقومون بالدعاية له، ونشر الأمور التي تدعوا إلى عبادته من أنه فعل كذا وكذا.. الخ، فهذه وسائل الشرك، ولهذا صارت معبودات كبيرة بهذه الصفة.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»[(١)]، رواه أهل السنن.**

أهل السنن : أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، ولكنه ليس موجودًا في المجتبىٰ، وإنما هو في السنن الكبرىٰ، فيصدق أن أهل السنن رووه.

قوله: «لعن رسول الله ﷺ»: اللعن هو الطرد عن مظان رحمة الله جل وعلا، وإبعاد الملعون عن ذلك من الله جل وعلا، ومن الرسول ﷺ الإخبار بأن الله فعل هذا به، أو دعوته علىٰ من فعل ذلك بأن يكون ملعونًا، ومن الخلق دعاؤهم عليه بأن يلعنه الله جل وعلا بأن يكون ملعونًا.

ومعلوم أن الرسل وأتباعهم يكون ذلك منهم تبعًا لما أمرهم الله جل وعلا به، ولهذا جاء أن الكفار عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين تبعًا للعنة الله جل وعلا، وسبق أن اللعن أقل ما يقال في مفهوم ما أوقع عليه أنه من الكبائر، وجاء في السنن المروية عن الرسول ﷺ الصحيحة أنه قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**[(٢)]**، فإنها تذكر الآخرة**»[(٣)]، وفي بعضها: «**ولا تقولوا هجرًا**»[(٤)].

فقوله: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»، القاعدة عند العلماء أن الأمر إذا جاء بعد النهي أنه يكون للإباحة كما قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، وما أشبه ذلك، فهل هذا منها؟

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠٣٠)، والبيهقي رقم (٧٤٥٧)، والنسائي رقم (٢٠٤٢)، وأبو داود رقم (٣٢٣٦)، والترمذي رقم (٣٢٠) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه مسلم رقم (٩٧٧) من حديث بريدة عن أبيه وفي لفظ: «**فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**» رقم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٣٠٠٥)، والترمذي رقم (١٠٥٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٣٠٥٢)، والنسائي رقم (٢٠٣٣) من حديث بريدة، والبيهقي رقم (٧٤٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري.

«**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»؟ فيكون قوله: «**فزوروها**» إباحة؛ لأنه أمر بعد النهي.

الثاني: قوله: «**فزوروها**» هل يدخل فيه النساء؟ أو أنه خطاب للرجال؟ هذا خلاف بين العلماء منهم من أدخل النساء فيه وقال: أنهن يأتين تبعًا للرجال؛ كالأحكام التي يشرعها رسول الله ﷺ، أو يأمر الله ﷻ بها.

ومنهم من قال: أنهن لا يدخلن في ذلك، فلو كن داخلات ما قال: «**لعن الله زائرات القبور**».

ثم إن هذا مخصِّص له؛ لأن القاعدة أن الخاص يقضي على العام، فعلى هذا تكون زيارة النساء للقبور ممنوعة، بالإضافة لما جبلن عليه من الجزع والبكاء وغير ذلك، ولهذا جاء في الحديث: «**إنكن تفتن الحي، وتؤذين الميت**»[(١)]؛ يعني: نهاهن عن اتباع الجنائز، ويكون هذا المعنى داخل في ذلك؛ يعني: في الزيارة، وهذا هو الصحيح أن النساء ممنوعات من زيارة القبور، وأن زيارتهن معصية بل كبيرة من كبائر الذنوب، ولا فرق بين كونها قبور أو قبر، حتى يدخل في ذلك قبر النبي ﷺ فلا يجوز للمرأة أن تزوره.

وأما ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه، وقالت: لو شهدتك ما زرتك[(٢)]. ومعنى قولها: يعني: لو كنت حضرتك عند الموت لم أزرك، وقد احتج به بعض العلماء فيقال أولًا: فعل الصحابي إذا عارضه النص فالعمل بالنص الشرعي، فلا قول لأحد مع رسول الله ﷺ.

ثانيًا: جاء عن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم (٦٢٩٩) ولفظه: عن معمر أن عمر رأى نساء مع جنازة فقال: إرجعن مأزورات غير مأجورات، فوالله ما تحملن ولا تدفن يا مؤذيات الأموات ومفتنات الأحياء.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (١١٨١١)، والترمذي رقم (١٠٥٥).

فقلت لها: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن بن أبي بكر. فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهىٰ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم كان نهىٰ، ثم أمر بزيارتها[1]. والإذن جاء للرجال فهذا يدل علىٰ أنها لم تسمع مثل هذا الحديث فلا يكون في فعلها دليل، فلا يجوز للمرأة أن تزور القبور مطلقًا لهذا الحديث ولغيره، **والزيارة نوعان:**

النوع الأول: زيارة شرعية، وهي التي يقصد بها نفع الإنسان الزائر بالتذكر؛ لأنه يتذكر أنه سيقبر، ويصير مثل صاحب هذا القبر فيزداد عملًا واجتهادًا، هذا واحد.

والثاني: أنه يدعو للميت؛ لأن الميت بحاجة إلىٰ الدعاء؛ لأنه قد ارتهن بعمله لا يستطيع أن يزداد حسنة، ولا يستطيع أن يمحو سيئة، فإذا زرته ودعوت له واستغفرت له فقد أحسنت إليه إحسانًا عظيمًا، ولكن هذا لا يعرفه إلا صاحب القبر الذي عنده الحسنة الواحدة تساوي الدنيا كلها بما فيها؛ لأنه اطلع علىٰ الحقائق وعلم أن الدنيا لا تنفع، هذه هي الزيارة الشرعية يكون محسنًا لنفسه ولمن زاره.

النوع الثاني: الزيارة البدعية الشركية، أن يزور ليسأل عند القبر، ويتحرىٰ إجابة الدعاء عند القبر هذه بدعة، وهي بدعة داعية إلىٰ الشرك، فإن كان الزائر يدعو صاحب القبر فهذا شرك صريح، وكفر بالله ﷻ، وإذا مات عليه صاحبه فهو في جهنم خالدًا فيها، وهذا وقع فيه كثير من المسلمين وللأسف، حتىٰ أصبحوا يخشعون عند القبور، ويبكون، ويذلون ويطلبون منهم كل ما يحتاجون إليه، وإذا جاء إلىٰ المسجد فإذا هو غافل قلبه قاسي ما يذكر الله إلا قليلًا -نسأل الله العافية-.

وقوله: «والمتخذين عليها المساجد»: هذا تقدم عليه الكلام في الباب الذي قبله، فالمساجد يدخل فيها المساجد المبنية، وما يكون محلًّا للسجود فهو يعم هذه كله.

(١) سنن البيهقي رقم (٧٤٥٨)، ومسند أبي يعلىٰ رقم (٤٨٧١)، والحاكم في المستدرك رقم (١٣٩٢).

وقوله: «والسرج»: فيقصد به تنويرها تعظيمًا وتمييزًا لها عن غيرها، وهذا من دواعي عبادتها، وهو من الغلو الذي يجعلها أوثانًا تعبد من دون الله ﷻ، كما أن اتخاذها مسجدًا يجعلها أوثانًا والصلاة عندها، أو الدعاء عندها، أو جعل أصحابها وسائط يُدعون يُسأل الله ﷻ بهم، أو يكون بالشرك الأكبر بأن يسألهم ويدعوهم، وكل هذا واقع، جعلها وسائط وجعلها مدعوةً تُرجىٰ وتُخاف، كل هذا واقع في بلاد المسلمين وموجود وللأسف، ومثل السرج البناء والطيب وكذلك الكسوة، ومن ذلك الكتابة، الكتابات التي تكتب عليها تعظيمًا لها ودعوة لعبادتها، أو للتوسل بها علىٰ ما يسمونه توسلًا.

مع أن هذا في الواقع عبادة، وغير ذلك من دواعي عبادتها، والرسول ﷺ بنهيه هذا، ولعنه من فعل ذلك كل ذلك صيانة للتوحيد وحماية له وتحذيرًا من فعل ذلك، ومع هذا كله خُولفت هذه الأوامر وعُكست القضية ووجد من كثير ممن يزعم أنه من العارفين الدعوة إلىٰ عبادة قبره، ومن قرأ في كتاب طبقات الشعراني يرىٰ الشيء الكثير من ذلك، حتىٰ إنه من العجائب يذكر مناقب بعض سادته الذين يسميهم سادات أنه يقول لأصحابه: إذا مت فأتوا إلىٰ قبري فاسألوني ما شئتم فلا خير فيمن يحول بينه وبين قضاء حوائج أصحابه ذراع من تراب، فهذه دعوة إلىٰ عبادته، ومن دعىٰ الناس إلىٰ عبادة نفسه، فهو من رؤساء الطواغيت -نسأل الله العافية-.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: فيه مسائل:**

۞ **الأولى: تفسير الأوثان.**

الأوثان المعبودات من دون الله، ولكن علىٰ غير صورة.

۞ **الثانية: تفسير العبادة.**

العبادة تفسيرها مهم جدًا، فيجب علىٰ العبد أن يعتني بذلك؛ لأن كثيرًا ممن يعبد القبور ويعبد غيرها أخطأ في تفسير العبادة، وقد عُرفت العبادة بتعريفات كثيرة

كلها صحيحة كقولهم: العبادة ما أُمر به شرعًا من غير اطراد عُرفي، ولا اقتضاء عقلي. وهذا تعريف الأصوليين، وعرَّفها شيخ الإسلام بقوله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

ومنهم من عرَّفها بقوله: العبادة فعل ما أمر الله ﷻ به، والانكفاف عما نهىٰ عنه علىٰ سبيل الخوف والرجاء.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

يعني: كونه سأل ربه ﷻ والتجأ إليه بأن لا يكون قبره وثنًا يعبد، هو كان يخاف هذا، وفي ضمن ذلك أنه لو عبد لصح أن يسمىٰ وثنًا؛ لأنه قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»، وهؤلاء عباد القبور لو قيل لهم أن هذا القبر الذي تعبدونه وثن لغضبوا واشتد غضبهم وقاتلوا من قال لهم ذلك وقالوا كيف تسميه وثنًا، وهو من الأولياء، فيكون مثل ما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]؛ يعني: إذا ذكر الولي وأنه يعبد، وأنه يستعاذ به ويلاذ به فرحوا واستبشروا كإخوانهم الذين ذكر الله عنهم.

الرابعة: ذكر شدة الغضب من الله.

شدة الغضب من الله يدل علىٰ أن الفعل هذا عظيم جدًا، وأنه من أكبر الذنوب.

الخامسة: وهي من أهمها: صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

يعني: أنه كان رجلًا فأحبوه فزادوا في حبه، فلما مات وقُبر غلوا في قبره فصاروا يعكفون عنده إلىٰ أن صار من أكبر الأوثان، فإذا كان قبرًا فهو وثن من الأوثان.

السادسة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

يعني: في الظاهر كان صالحًا؛ لأنه كان يحسن إلىٰ الناس، وهذا كذلك لا ينافي أنها صخرة؛ لأنه دفن تحت صخرة، والصخرة صارت علامة عليه.

السابعة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

يعني: اللَّات: اسمه مشتقًا من الفعل الذي كان يفعله هذا المقصود. وإن كان بعض المؤرخين ذكر أن اسمه العلم غير هذا.

الثامنة: لعنه زوارات القبور.

واللعن أقل ما يقال فيه: أنه كبيرة؛ يعني: العمل الذي لعن فاعله.

التاسعة: لعنه من أسرجها.

والإسراج من كبائر الذنوب كذلك، وقد ذكر هذا ابن القيم ﵀ في إغاثة اللهفان أن اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر[1]. وكذلك الهيتمي صاحب الزواجر.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٨) قال ﵀: إنه قرن في اللعن بين متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها فهما في اللعنة قرينان، وفي ارتكاب الكبيرة صنوان، فإن كل ما لعن رسول الله فهو من الكبائر، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلىٰ تعظيمها وجعلها نصبًا يوفض إليه المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها ولهذا قرن بينهما فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها وتعريض للفتنة بها، ولهذا حكىٰ الله ﷻ عن المتغلبين علىٰ أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

الباب الثاني والعشــرون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **باب ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك.**

الغالب أنه إذا ذكر الترجمة ذكرها مبهمة؛ يعني: أنه لم يذكر الحكم، فهو يريد أن يستنتج الطالب بنفسه الحكم، وهذه هي طريقة البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي طريقة جيدة، وفي هذه الترجمة نص علىٰ المقصود.

قوله: «**في حماية**»: الحماية هي صيانة الشيء أن يدخل فيه ما ليس منه، أو يتعرض إلىٰ ما يفسده، أو ينقصه.

قوله: «**المصطفىٰ**»: الاصطفاء هو الاختيار، والله جَلَّ وَعَلَا اصطفاه علىٰ العالمين.

وقوله: «**جناب**»؛ يعني: النواحي التي تكون متطرفة؛ لأن الأمور تُؤتىٰ من جوانبها؛ يعني: النقص يأتي من الجوانب، ثم يزداد حتىٰ يدخل في الأصل، فإذا حميت الجوانب صار مصونًا قويًا، أما إذا نيلت جوانبه فيوشك أن يذهب.

قوله: «**التوحيد**»: سُمي توحيدًا؛ لأن العمل يكون لواحد وهو الله سبحانه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلواحد كن واحدًا في واحد   أعني سبيل الحق والإيمان

قوله: «**وسده**»: السد: هو المانع والحاجز وهذا معنوي.

وقوله: «**كل طريق يوصل إلىٰ الشرك**»: والطرق التي توصل إلىٰ الشرك كثيرة جدًا، فيجب علىٰ العبد أن يتعرف عليها؛ لأن الذي لا يعرف طرق الشرك يمكن أن يسلكها ويدخل فيه وهو لا يدري، فهذا يجب الاهتمام به، والاهتمام به يدل علىٰ

أن العبد مهتم بدينه وممتثل لما أمر به، ومتبع لرسوله ﷺ، والذي لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه وهو لا يدري، فلا بد من معرفة الشر حتىٰ يجتنبه ويبتعد عنه، ولهذا جاء في الصحيح أن حذيفة رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[1]. وهذا من الفقه، هكذا ينبغي للعبد أن يكون عارفًا بالشر، فمن عرف الشر أبغضه وكرهه واحترز منه بخلاف الذي لا يعرفه، فإنه قد يظنه خيرًا، وقد يكون عنده سهلًا، ثم يقع فيه وهو لا يدري.

وإذا نظر المتأمل في أحاديث رسول الله ﷺ الكثيرة يجد أنها طافحة في ذلك، وكذلك ما أمر الله جل وعلا به من تقوية التوحيد وتنميته من الأمر بالخشوع والذل والخشية والرجاء والخوف كل هذا من تأصيل الأمر في قلب العبد، وجعله متعلقًا بالله وحده، وكذلك قطع الرجاء من التعلق بغير الله جل وعلا، وأن يكون العبد تعلقه بربه وحده ومن ذلك الأحاديث الكثيرة التي جاءت في النهي عن بعض الأقوال والأفعال التي قد يدخل الشيطان منها فينال من توحيد العبد ما يخدش فيه، أو يكون طريقًا إلىٰ ذهابه بكماله، وإيقاعه في الشرك كبيره وصغيره، وهي كثيرة جدًا، فأراد المؤلف رحمه الله أن ينبه علىٰ شيء منها.

قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قوله: «﴿لَقَدۡ﴾»: «اللام»: لتوطئة القسم، و«قد»: للتحقيق، كأنه جل وعلا يقول: «والله لقد»، وهل نحن بحاجة إلىٰ القسم؟

الإنسان يغفل عن الأمور المهمة، ومن الطرق في اللغة العربية في الأخبار التأكيد، ومن التوكيدات القسم، ففائدة القسم هنا حتىٰ يتأكد الخبر، ويُهتم به

(١) سبق تخريجه.

ويصل إلىٰ القلوب، ويكون العبد علىٰ يقين من ذلك، لأن كون الإنسان يغفل عن هذا، أو يكون غير مهتم يستدعي التأكيد في إخباره في ذلك.

قوله: «﴿جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾»: التنكير يدل علىٰ التعظيم، رسول عظيم، وهو كريم علىٰ الله ﷻ، ويدل علىٰ أنه جاء بأمور مهمة يجب أن يتنبه لها.

قوله: «﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾»؛ يعني: من جنسكم ليس من الملائكة، ولا من الجن، وأنه بلغتكم وهذه نعمة، وأنتم تعرفون نسبة، وتعرفون صدقه، ومدخله ومخرجه، كما كان الصحابة يقولون ذلك كما قاله جعفر للنجاشي: فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه»[1]، وهذا من رحمة الله ﷻ، فهو يمتنَّ علينا بإرسال هذا الرسول المعروف لنا، وهو منا نستطيع أن نأخذ عنه، ونتفاهم معه وذلك حتىٰ نتمكن من معرفة ما جاء به.

وكثير من المفسرين يقول: إن هذا الخطاب للعرب؛ لأن المنَّة عليهم أكبر وغيرهم تبع لهم، ومعلوم أن الرسول من أكبر نعم الله علىٰ العبد، بل هو أكبرها، وحاجة الناس إليه أعظم من حاجتهم إلىٰ الأكل والشرب؛ لأنهم إذا منعوا الأكل والشرب فإنهم يموتون، ولكن إذا لم يأتهم الرسول يكون موتهم علىٰ الجهل، وعلىٰ مخالفة أمر الله، ويكونوا قد خسروا أنفسهم فاستحقوا عذاب الله -نسأل الله العافية- ولهذا يجب علىٰ العبد أن يعرف منَّة الله عليه بإرسال الرسول ويشكره ويحمده.

قوله: «﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾»: العنت يدخل فيه التعب ويدخل فيه العذاب؛ يعني: أن الشيء الذي يعنتنا ويشق علينا يشق عليه؛ لأن الله ﷻ جعله حريصًا علىٰ

(١) أحمد في المسند رقم (١٧٤٠).

نفعنا وعلىٰ هدايتنا، ولهذا قال:

«﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾»: الحرص هو الإتيان بالشيء المحبوب علىٰ وجه الاستقصاء في ذلك والشح به ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ يعني: علىٰ هدايتكم وإيمانكم.

قوله: «﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»: وأيضًا هذا من أوصافه أنه ذو رأفة بالمؤمنين، وذو رحمة، ويقابل ذلك أنه شديد علىٰ الكفار، ولهذا جاء في صفته في أسمائه صلوات الله وسلامه عليه: «الضحوك القتَّال»[(١)]؛ يعني: ضحوك للمؤمنين، وقتَّال للكافرين.

ووجه الاستدلال بهذه الآية علىٰ كونه صلوات الله وسلامه عليه حَمَىٰ جناب التوحيد، أن حرصه علىٰ هدايتنا ورأفته بنا يمنعانه أن لا يبين الشيء الذي يضرنا، ولهذا جاء في الحديث أنه قال ﷺ: **«ما تركت شيئًا يقربكم من الجنة، ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم»**[(٢)]، وكان يقول : **«إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها»**[(٣)]، وجاءت أمثال يضربها له، ولمن أتىٰ إليه جاء أنه قال ﷺ أيضًا:

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٦) والفصول في سيرة الرسول ﷺ (١/ ١١٦) قال: وروي عنه أنه قال ﷺ: **«أنا الضحوك القتال»**.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٤٣٣٢)، وشعب الإيمان للبيهقي رقم (١٠٣٧٦)، ومصنف عبد الرزاق رقم (٢٠١٠٠) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنه ليس شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وأن الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتىٰ تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»**.

(٣) رواه البخاري رقم (٦٤٨٣)، ومسلم رقم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة.

«**إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة** -المفازة، تقال للأرض المهلكة علىٰ سبيل التفاؤل أن يفوز بقطعها سالمًا كما هي عادة العرب، كما سموا اللديغ سليمًا تفاؤلًا بأنه يسلم- **غبراء لا يدرون ما قطعوا منها أكثر أو ما بقي منها** -يعني: توسطوا فيها- **فحسرت ظهورهم** -ماتت رواحلهم التي يركبونها، والمياه والطعام انتهىٰ- **ونفد زادهم وسقطوا بين ظهراني المفازة فأيقنوا بالهلكة، فبينا هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا لحديث عهد بريف، فانتهىٰ إليهم، فقال: يا هؤلاء ما شأنكم؟ فقالوا: ما ترىٰ** -يعني: ننتظر الموت- **كيف حسرت ظهورنا؟ ونفدت أزوادنا بين ظهراني هذه المفازة لا ندري ما قطعنا منها أكثر أم ما بقي؟ فقال: ما تجعلون لي إن أوردتكم ماءً رواء، ورياضًا خضراء؟ فقالوا: حكمك، قال: تعطوني عهودكم ومواثيقكم أن لا تعصوني؟ ففعلوا، فمال بهم فأوردهم ماء رواء ورياضًا خضراء فمكث يسيرًا، ثم قال: هلموا إلىٰ رياض أعشب من رياضكم هذه، وماء أروىٰ من مائكم هذا، فقال جل القوم: ما قدرنا علىٰ هذا حتىٰ كدنا أن لا نقدر عليه، وقالت طائفة منهم: ألستم قد جعلتم لهذا الرجل عهودكم ومواثيقكم أن لا تعصوه وقد صدقكم في أول حديثه فآخر حديثه مثل أوله، فراح وراحوا معه، فأوردهم رياضًا خضراء وماء رواء، وأتىٰ الآخرين العدو من ليلتهم فأصبحوا ما بين قتيل وأسير**»[1] فهذا مثل أيضًا مطابق تمام المطابقة، فمن أطاعه فاز ونجىٰ، ومن رضي بالحياة ورضي بالعيش الذي هو فيه وترك طاعته، فلا بد أن يهلكه العدو صباحًا أو مساءً.

والمقصود: أن هذه الآية تدل علىٰ أنه ﷺ حمىٰ التوحيد من أن تُنال جوانبه فيدخل الشيطان عليه من جوانبه؛ لأن حرصه علىٰ هدايتنا ورأفته بنا تمنعه من أن لا يبين لنا ذلك ويحذر منه.

---

(١) الأمثال للرامهرمزي رقم (٢٣).

قال المؤلف رحمه الله **: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله** ﷺ**: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».**

رواه أبو داود[1] بإسناد حسن، رواته ثقات.

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»: «لا» هذه ناهية، والمقصود لا تجعلوها معطلة عن العبادة، وليس المعنىٰ أنكم لا تدفنوا فيها موتاكم هذا غير مقصود؛ لأنه متقرر عندهم أن القبور لا يتعبد عندها وليست محلًّا للعبادة، فهو يقول: لا تجعلوا بيوتكم شبيهة بالمقابر لا يتعبد فيها؛ يعني: مهجورة من العبادة فصلوا فيها، واذكروا الله واتلوا القرآن، وسيأتي ما يبين هذا، ولهذا جاء في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة**»[2]، فدل هذا علىٰ أن المقصود أن البيوت يُتعبد بها ، ومن المعلوم أنه جاء الحث علىٰ كثرة الصلاة في البيت؛ يعني: صلاة النافلة، فالنوافل في البيت فعلها أفضل من المسجد؛ لأن الإنسان كونه يصلي في بيته أقرب إلىٰ الإخلاص، وأبعد عن مراءاة الناس الذي قد يكون من باب إفساد العمل.

قوله: «ولا تجعلوا قبري عيدًا»: العيد اسم لما يعتاد من الاجتماع في مكان أو في زمان. الذي يعتاد ويتردد إليه إذا كان مكانًا فهو عيد بمجموع هذه الأعمال التي تفعل، وكذلك إذا كانت هذه تعود بعود الوقت تسمىٰ عيدًا، فإذًا العيد يكون زمانيًا ويكون مكانيًا.

وكان للجاهلية أعياد زمانية ومكانية، فأبدلها الله جل وعلا، أبدل المسلمين بها بعيد الفطر وعيد الأضحىٰ للزمان، وكذلك عيد الأسبوع الذي هو الجمعة، أما المكانية فمثل: الكعبة والمشاعر منىٰ ومزدلفة وعرفات جعلها عيدًا لأهل الإسلام بدل

---

(١) رقم (٢٠٤٢)، وأحمد في المسند رقم (٨٨٠٤).

(٢) رواه مسلم رقم (٧٨٠).

أعياد الجاهلية.

ولهذا يقول: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»؛ يعني: لا تترددوا إليه وتعاودوه مرة بعد أخرىٰ، ففيه دليل واضح بأن الرسول ﷺ نهىٰ عن الإتيان إلىٰ قبره والتردد عليه من أجل السلام. أما أن يأتي للدعاء أو التبرك أو الاستشفاع، فهذا معلوم عند الصحابة أنه من فعل المشركين، وإنما نهاهم عن الشيء الذي يمكن أن يقعوا فيه وهو كونهم يأتون للسلام فنهاهم عن هذا، ولهذا قال: «**صلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»؛ يعني: ليس هناك حاجة إلىٰ أن تأتوا إلىٰ القبر، وهذا يفسر قوله: «**ولا تجعلوا قبري عيدًا**»؛ يعني: أنكم لا تأتوا إليه للصلاة والسلام، فدل هذا علىٰ أننا لو قصدناه للصلاة والسلام لصار عيدًا، فالصلاة والسلام علي تصلني سواء كنتم قريبين أو بعيدين، وهذا يستوي فيه من كان في المدينة، أو كان في المسجد، أو كان في المشرق، أو المغرب لا فرق.

أما ما جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «**من صلىٰ عليّ عند قبري سمعته، ومن صلىٰ عليّ نائيًا أبلغته**»(١)، فيقول بعضهم: إذا كان يسمع، فهذا فيه ميزة لا يفرط فيها **الجواب**: أن هذا غير ممكن؛ لأنه لا يمكن الوصول إلىٰ قبره، والحمد لله الذي حال بين الناس وبين الوصول إليه، فقد بني ثلاثة حيطان بين الناس وبين القبر، فالفتحات التي يشاهدها الناس ويزعمون أنهم يشاهدون القبر من خلالها هذا توهم، الفتحات من خلفها جدار ومن خلف الجدار جدار، فعلىٰ هذا لا يمكن الوصول إلىٰ قبره، فالله ﷻ استجاب دعاء نبيه ﷺ حيث قال: «**اللهم لا تجعل قبري**

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (١٥٨٣) من حديث أبي هريرة، قال البيهقي في كتاب حياة الأنبياء بعد وفاتهم (١/ ١٠٤)، بعد أن روىٰ الحديث بإسناده: أبو عبد الرحمن هذا هو محمد بن مروان السدي فيما أرىٰ وفيه نظر وقد مضىٰ ما يؤكده. وقال ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٤٨٨): وأخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب بسند جيد.

وثنًا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١)، ومعلوم أن إدخاله في المسجد ليس من فعل الرسول ﷺ، وليس من فعل الصحابة، وليس برضا العلماء بل هو فعل الملوك، والملوك لا ينظرون إلىٰ الأمور الشرعية هذا أمر معروف، فالوليد بن عبد الملك هو الذي أدخل الحُجر في المسجد وقصده أمر سياسي؛ لأنه كان فيها حجرة فاطمة، وكان يجتمع فيها أولا علي، وأهل البيت، وبنو أمية يخافون منهم كثيرًا، ويخشون أنهم يكونون لهم دولة فيحاربونهم، فهم أدخلوها حتىٰ لا يكون ذلك مجتمع لهم فهم أدخلوا الحجر كلها ليس حجرة عائشة فقط، فحجرة عائشة حيث أن فيها القبر فلا يمكن أن تهدم كما هدم غيرها، وكان الأمير علىٰ المدينة في ذلك الوقت هو عمر بن عبد العزيز فأمر أن تبنىٰ هذه الجدران وجعل البناء مثلث ينتهي من جهة الشمال بزاوية بحيث لا يمكن استقبال القبر ولا يزال هذا البناء موجودًا، ولكنه جعل خلفه شباك وغُير عن وضعه السابق فصار الآن بإمكان الإنسان أن يستقبل هذا البناء، أما القبر فبينه وبينه حيطان.

والمقصود: أن هذا ليس فعلاً شرعياً حتىٰ يستدل به أصحاب الضلالات الذين يضعون الأموات في المساجد فيصبح المسجد مقبرة ويقولون: هذا قبر الرسول في المسجد، ومن المعلوم أن الأعمال لا بد لها من دليل شرعي، وربما يكون في ذلك حكمة أرادها الله ﷻ، وحِكم الله ﷻ كثيرًا ما تخفىٰ علىٰ الناس.

فما الظن لو كان قبر الرسول ﷺ بارزًا كان ما يمكن أن يبقىٰ منه شيء بل التراب الذي حوله سوف يؤخذ؛ لأن هناك أناس فتنوا بالوثنية - نسأل الله العافية - ولكن المسجد لا زال فيه من يصلي ومن يتعبد ومن يكون حارسًا يحرس ليلاً ونهاراً ، فجعل في هذا حفظًا لرسول الله ﷺ.

(١) أخرجه مالك في الموطأ رقم (٤١٤) من حديث عطاء بن يسار.

فالمقصود أن الصحابة فهموا هذا الذي قاله الرسول ﷺ، وأن ذلك صيانة له أن يتخذ مع الله إلهًا.

والنبي ﷺ أمرنا أن نصلي ونسلم عليه، فأخبرنا ﷺ أن صلاتنا وسلامنا عليه لا يستدعي الإتيان إليه، بل يصل إليه حيث كنا،فإذًا التردد عليه، أو الذهاب إليه لا داعي له بل بدعة مخالفة لقول رسول الله ﷺ ومعصية له.

ومعلوم أنه وقع في ذلك غلو، حتىٰ إنه يقع من بعض العلماء الكبار الشيء الذي يشم منه رائحة الوثنية، وعبادة القبور - نسأل الله العافية - حتىٰ قالوا بتقبيل قبره ووضع الرأس عليه أو الخد والتمرغ عليه، فإذا كان هذا يقوله من يقتدىٰ به مثل: الذهبي وغيره، فكيف بمن هو دونه؟ وإن قاله فإن هذا لا يجوز أن يفعل، فأحاديث الرسول ﷺ صريحة وواضحة، أما تعليلاتهم أن تقبيله بمنزلة تقبيل يده، نقول: إن هذا قياس مع الفارق، أنت تقبل تراب، ولست تقبل يد الرسول ﷺ، ويقول لما قيل له: هذا لم يفعله الصحابة، ولم يفعله التابعون. قال الصحابة: قبَّلوا يده وتمعَّكوا بنخامته وأخذوا شعره، وتبركوا بعرقه وبثوبه، وما أشبه ذلك، ونحن فقدنا هذا فنتبرك بقبره، فنقول أيضًا: هذا قياس فاسد باطل؛ لأن العبادات مبناها علىٰ التوقيف علىٰ الشرع، والذي يقول هذا يلزمه أن يأتي بدليل والدليل علىٰ خلافه.

وكذلك القول في القبور الأخرىٰ، والناس يسرعون إلىٰ الفتنة في القبور حتىٰ إن شيخ الإسلام ابن تيمية ذكر أن في جبل لبنان وجد عظم كبير، فوجد عنده رائحة طيبة، فقالوا: لا بد أن يكون هذا قبر نبي، ولكن العظم الكبير خارق للعادة التي نعرفها فجاءهم إنسان، فقال هذا قبر نوح هو الكبير، فبنىٰ عليه بناء، ثم جاء من بعدهم فزاد في البناء فأصبح وثنًا يعبد من دون الله مجرد أنهم وجدوا عظمًا كبيرًا مع أن الأدلة الشرعية تبين أن هذا باطل من الأصل، ولو قدر أنه صحيح فلا يجوز أن يتخذ مزارًا ومتبركًا، فالحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**إن الله ﷻ حرم علىٰ الأرض أن**

تأكل أجساد الأنبياء -صلوات الله عليهم-»(١)، لا يخلو عظم النبي من لحمه فهو يبقىٰ عليه، ولو قدر أنه صحيح نقول: إنه لا يجوز؛ لأن العبادة توقيفية.

إذا نظرت إلىٰ واقع العالم الإسلامي تجد عبادة القبور الآن منتشرة، ما تجد بلدًا من بلاد المسلمين شرقًا أو غربًا إلا وفيها قبور تعبد كثيرة، وكل ذلك بسبب الرافضة فإنهم لما تولوا المغرب ومصر صاروا هم الحكام فيها بنوا المشاهد علىٰ القبور وعظموها وجعلوا لها مزارات، وكذلك في العراق وغيره، ثم انتشرت في الباكستان والهند وفي كل مكان، حتىٰ في هذه البلاد، ولكن منَّ الله ﷻ علىٰ هذه البلاد بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فطهرها من القبور، وإلا فكانت موجودة ومن المشهورات جدًا قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة كان وثنًا يعبد كان يطاف عليه حتىٰ أن الشيخ رحمه الله أول ما بدأ دعوته كان يأتي إليهم وهم يطوفون عليه، ويستنجدون به ويستغيثون به، ويطلبونه، يقولون: يا زيد يا زيد أعطني كذا، فيقول لهم الله خير من زيد؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يقول أن زيدًا خير من الله، وإن كان في قلوب بعض الناس أن المقبور خير من الله، يوجد هذا في كثير من الناس، يقول أستغيث بالله فلا يُغثني، فإذا استغثت بالمقبور أجابني وأعطاني كذا وكذا.

ولهذا أفتىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه المشهور بأنه لا يجوز أن تعمل المطي، وتشد الرحل إلىٰ زيارة قبر الرسول ﷺ، ولا زيارة قبر غيره، واستدل بالحديث الذي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصىٰ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦١٦٢)، وأبو داود رقم (١٠٤٧)، وابن ماجه رقم (١٦٣٦)، والنسائي رقم (١٣٧٤) من حديث أوس بن أوس ولفظه: «**من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي، فقالوا:** يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت- يعني: وقد بليت-؟ قال: **إن الله ﷻ حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم**».

(٢) رواه البخاري رقم (١١٨٩)، ومسلم رقم (١٣٩٧).

وفي الموطأ قال أبو هريرة: لقيت أبا بصرة الغفاري قال: من أين أقبلت؟ فقلت: من الطور. فقال: أما لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت إليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تعمل المطي إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: إلىٰ المسجد الحرام، وإلىٰ مسجدي، وإلىٰ مسجد إيلياء أو بيت المقدس يشك**»[(١)]، وكذلك قال مثل هذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لمن سأله أنه سيذهب إلىٰ الطور قال: لا تذهب إلىٰ الطور[(٢)]. مع أن الطور ذكره الله في القرآن وذكر أنه مبارك، وأن الله كلم موسىٰ عليه السلام في تلك البقاع، واستدل ابن عمر بنفس الحديث.

سئل الإمام مالك رحمه الله عن رجل نذر أن يأتي المدينة قال في الجواب: إن كان قصد في نذره أنه يأتي للصلاة في مسجد النبي ﷺ فيفي بنذره، أما إن كان قصد القبر، أو لغيره من بقاع المدينة فلا يجوز له أن يفي بنذره، فليس هذا بنذر طاعة بل هو نذر معصية، ولهذا لما أفتىٰ شيخ الإسلام[(٣)] بهذا رد عليه بعض علماء وقته مثل السبكي في كتاب جمع فيه أحاديث موضوعة وواهية وجعلها أدلة له؛ كالحديث الذي فيه: «**من حج ولم يزرني فقد جفاني**»، والحديث الذي فيه: «**من زارني بعد**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٣٨٤٨)، ومالك في الموطأ رقم (٣٦٤)، والنسائي رقم (١٤٢٩).

(٢) أخبار مكة للفاكهي (٣/ ٢٧٩) عن قزعة قال: أردت الخروج إلىٰ الطور، فأتيت ابن عمر رضي الله عنهما فقلت له، فقال: «إنما تشد الرحال إلىٰ ثلاثة مساجد: إلىٰ مسجد رسول الله ﷺ، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصىٰ، ودع عنك الطور ولا تأته».

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٢٣٤)-(٢٣٥): وقد اتفق الأئمة علىٰ أنه لو نذر أن يسافر إلىٰ قبره صلوات الله وسلامه عليه أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين لم يكن عليه أن يوفي بنذره بل ينهىٰ عن ذلك. وقال: وأما السفر إلىٰ بقعة غير المساجد الثلاثة فلم يوجب أحد من العلماء السفر إليه إذا نذره حتىٰ نص العلماء علىٰ أنه لا يسافر إلىٰ مسجد قباء لأنه ليس من المساجد الثلاثة مع أن مسجد قباء يستحب زيارته لمن كان في المدينة، لأن ذلك ليس بشد رحل كما في الحديث الصحيح: «**من تطهر في بيته ثم أتىٰ مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة**»، قالوا: ولأن السفر إلىٰ زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، فمن اعتقد ذلك عبادة وفعله فهو مخالف للسنة ولإجماع الأئمة، وهذا مما ذكره أبو عبد الله بن بطة في الإبانة الصغرىٰ من البدع المخالفة للسُّنَّة والإجماع. مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٨٧).

مماتي فكأنما زارني في حياتي[١]، ونحو هذا من الأحاديث الموضوعة المكذوبة على النبي ﷺ، وهكذا لا يزال الناس على هذا المنهج حتى سمعنا بعض الناس يقول لما سُئل عن هذا: إذا خالفنا التيميون فعندنا السبكيون؛ يعني: صارت المسألة عصبية، والمسائل هذه شرعية يجب أن نتبع الدليل فيها لا نتبع فلانًا وفلانًا فيها يجب أن يكون المقصود معرفة الحق واتباعه.

وقوله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»: ليس المقصود فيه: النهي عن الدفن في البيوت، هذا شيء عرف من خطاب الرسول ﷺ، وإنما مقصوده لا تجعلوا بيوتكم معطلة من العبادة شبيهة بالقبور، يدلك على هذا الحديث الذي في صحيح مسلم حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[٢]، هذا ظاهر في أن المقصود لا تعطلوها من العبادة، وظاهر في أن القبور لا يقرأ عندها القرآن ولا تعمل عندها العبادات، وهذا يظهر في حمايته ﷺ جناب التوحيد كما أراد المؤلف رحمه الله بيان ذلك.

---

(١) سنن الدارقطني رقم (١٩٣)، وشعب الإيمان للبيهقي رقم (٤١٥١) عن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة**»، قال ابن حجر في التلخيص الحبير: وفي إسناده رجل مجهول. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٢٣١): لما ذكر هذه الأحاديث: «**من زارني وزار قبر أبي في عام واحد ضمنت له على الله الجنة**»، و«**من حج ولم يزرني فقد جفاني**»، و«**من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي**»، فهي أحاديث ضعيفة؛ بل موضوعة لم يرو أهل الصحاح والسنن المشهورة والمسانيد منها شيئًا. وقال رحمه الله: وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمري وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه، مثل قوله: «**من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي**»، فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من زاره في حياته وكان مؤمنًا به كان من أصحابه لا سيما إن كان من المهاجرين إليه المجاهدين معه، وقد ثبت عنه أنه قال: «**لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**» أخرجاه في الصحيحين، والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين، بل ولا شرع السفر إليه بل هو منهي عنه.

(٢) رواه مسلم رقم (٧٨٠).

قال المؤلف رحمه الله : وعن علي بن الحسين، أنه رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أُحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدِّي عن رسول ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، فإن تسليمكم يبلُغني أين كنتم» رواه في المختارة[1].

علي بن الحسين هو الذي يقال له: زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو من أفضل أهل البيت قال الزهري: ما رأيت قرشيًا أفضل منه[2]. كان مشهورًا في العبادة، وفي الزهد والتقىٰ، وفي الصدقة علىٰ المساكين، وتفقد أحوالهم حتىٰ إنه لما مات كان في بلده بيوت كثيرة كان يأتيهم الطعام، ولا يدرون من أين يأتيهم، فلما مات فقدروا ذلك فعلموا أنه هو الذي كان يأتيهم بذلك في الليل خفية.

قوله: «أنه رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فرجة»: الفرجة هي النافذة التي تكون في الجدار، وهذه الفرجة كانت في عرض الحائط، وليس في سقفه كما يقول القبوريون؛ لأنهم يقولون كان في سقفه فرجة إذا تأخر المطر كشفوا عنها فجاء المطر، هذا كذب، وهو من الدعايات المضللة وما أكثرها.

وهذه الفرجة كانت معروفة، ثم سدت لما صار الناس يدخلون منها وهذا كان قبل بناء الجدران الثلاثة؛ يعني: قبل الزيادة التي زادها الوليد بن عبد الملك في المسجد، وإدخاله حجر زوجات النبي ﷺ فيه، أما بعد ذلك فزالت وجددت الجدران وبني جدار الحجرة ورفع إلىٰ السقف، سقف المسجد حتىٰ لا يتمكن أحد

---

(١) المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٢/ ٤٩) رقم (٤٢٨) ومسند أبي يعلىٰ رقم (٤٦٩)، وابن أبي شيبة رقم (٧٥٤٢) وفيه: «**وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني**» وهو عند أحمد في المسند رقم (٨٨٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) تقريب التهذيب (١/ ٤٠٠) قال: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي زين العابدين ثقة ثبت عابد فقيه فاضل مشهور، قال ابن عيينة عن الزهري: ما رأيت قرشيًا أفضل منه، من الثالثة، مات سنة ثلاث وتسعين، وقيل غير ذلك.

من الدخول عليه، ثم بني من خلفه جدار، ثم من خلفه الجدار الذي هو مثلث حتىٰ لا أحد يستقبله في الصلاة لأن ذلك لا يجوز.

فكان الرجل يدخل من هذه الفرجة إلىٰ القبر، فرآه وهو كان جالسًا في بيت جدته فاطمة ﵂، فقال له: ماذا تصنع؟ قال: أسلم علىٰ النبي ﷺ، قال له: لا تصنع، ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء، سلِّم عليه أين ما كنت، ثم روىٰ له الحديث.

قوله: «فنهاه»: يدل علىٰ أن قصد القبر والإتيان إليه للسلام أو الدعاء أنه غير مسنون، وغير مطلوب، ولهذا ما كان أحد من الصحابة مع تمكنهم من الوصول إليه يفعل ذلك، وإنما رُوي عن عبد الله بن عمر فقط عن ابن عون، قال: سأل رجل نافعًا، فقال: هل كان ابن عمر يأتي القبر، فقال: نعم لقد رأيته مائة، أو أكثر من مائة مرة كان يأتي القبر فيقوم عنده فيقول: السلام علىٰ النبي، السلام علىٰ أبي بكر، السلام علىٰ عمر أبي[1].

قال معمر: فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر فقال: ما نعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر[2].

لأنهم فهموا من هذا الحديث ونحوه النهي عن الإتيان إلىٰ قبره والسلام عليه، فكان أحدهم إذا دخل المسجد صلىٰ علىٰ النبي ﷺ، فإذا صلىٰ إما أن يجلس، وإما أن ينصرف، ولهذا ذكروا عن الإمام مالك أنه كان يكره أن يقصد قبر النبي ﷺ، فيكره لفظ الزيارة يقول أحدهم: زرت النبي ﷺ، أو قبره ﵊ ويقول: لم يرد في لفظ الزيارة شيء عن رسول الله ﷺ، وجاء ما يدل علىٰ المنع من ذلك قال: «**لا تجعلوا قبري عيدًا...**».

(١) اقتضاء الصراط (١/ ٣٢٧) قال: رواه ابن بطة في الإبانة بإسناد صحيح، ورواه مالك في الموطأ رقم (٩٤٧) عن عبد الله بن دينار أن ابن عمر: كان إذا أراد سفرًا أو قدم من سفر جاء قبر النبي ﷺ فصلىٰ عليه ودعا ثم انصرف. وأخرجه البيهقي رقم (١٠٥٧٠).

(٢) مصنف عبد الرزاق رقم (٦٧٢٤).

ومعلوم تحري الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لاتباع السُّنَّة وتشديده في ذلك، وهو إمام أهل المدينة، وأعلم الناس في مثل هذه الأمور؛ لأنه كان في المدينة، ويأخذ عن علمائها والعهد كان قريبًا وليس بعيدًا.

قوله: «لا تتخذوا قبري عيدًا»؛ يعني: لا ترددوا عليه للسلام، ومعلوم أن الصحابة لا يأتون إليه ليعبدوه، أو ليدعوه، أو يسألوه عن علم، أو عن شيء قد يشكل عليهم؛ لأن الشيطان لا يطمع فيهم في ذلك لتمكن التوحيد في قلوبهم، وكونهم تلقوا عن رسول الله ﷺ الحق وعرفوا الباطل، وإنما طمع فيمن أتوا بعدهم فأدخل عليهم ما أدخل، وإلا الصحابة وقع لهم مشاكل وخلافات فلم يأت أحد منهم إلىٰ القبر يقول: يا رسول الله ما حكم كذا؟ أو ما أشبه ذلك، بخلاف المتأخرين الذين لو تمكنوا من ذلك لصنعوا أمور عجيبة غريبة، بل يصنعون مع غيره فكيف معه، والتي يتوهمون أنها قبور صالحين مع أنها قد تكون قبور شياطين كفرة مثل: قبر أحمد البدوي الذي يسمونه السيد البدوي، مع أن هذا البدوي كما يقول السخاوي: ما عرف إلا أنه جاسوس لدولة الرفض يتصيد الأخبار حتىٰ أنه ذكر قصة أنه حضره في بيت يوم جمعة حتىٰ قارب وقت الصلاة، فقالوا له الصلاة، فذهب معهم إلىٰ المسجد فجلس، يقول: حتىٰ إنه بال في المسجد، ثم خرج بدون صلاة، لم يصل ومع ذلك يقول الناس الذي يشاهدونه يحضر عنده ما يقرب من ثلاثة ملايين عند قبره في وقت العيد، يحجون إليه واختلاط نساء ورجال ومنكرات وشرك، كيف يفعل هذا في بلاد الإسلام.

وما أكثر القبور هناك، فكل من عرف أن له قبراً يشيد ويدعىٰ مثل: الشافعي، ومثل: زينب، والدسوقي، وغيرهم كثير جدًا، وكل هذا من هؤلاء دعاة القبور.

فقوله: «**لا تتخذوا قبري عيدًا**» هو من باب سد الذرائع؛ يعني: لا ترددوا عليه للصلاة والسلام، ولهذا قال: «**فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**».

يعني: ليس هناك داع أنكم تأتون تسلمون علي فإن تسليمك علي يبلغني؛ يعني: أن الله جعل ملائكة تبلغه سلام الذي يسلم عليه[١]، فإذا سلم عليه الإنسان في أي مكان فإنه يوصل إليه يقول: هذا فلان يصلي عليك، ومثل هذا ينبغي للإنسان أن يكثر منه؛ لأنه يُذكر اسمه عند رسول الله ﷺ.

فهذا من صيانته ﷺ للتوحيد ورحمته بالأمة ورأفته بهم، حيث أمرهم أن يؤدوا العبادة بعيدًا عن مظنة الأمور التي تكون داعية للشرك والوقوع فيه، فنهاهم عن التردد إلىٰ قبره وجعله عيدًا.

قوله: «رواه في المختارة»: هي لمحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبدالرحمن المقدسي الحنبلي ضياء الدين إختار فيها الأحاديث الصحاح التي لم يخرجها البخاري ومسلم فهي شبيهة بالمستدرك إلا أنها أفضل من المستدرك، فتصحيحه وانتقائه أحسن من انتقاء الحاكم، وأحسن من تصحيحه.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

المقصود بقوله: تفسير الآية دلالتها علىٰ الموضوع المعين الذي يتكلم فيه، ودلالتها واضحة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحِمى غاية البعد.

المقصود بالحمىٰ: الشرك، إبعاده أمته عن الشرك الذي قد يقعون فيه بتزيين الشيطان أو غيره. فالحِمىٰ هي جوانب الشيء، فقد حمىٰ جوانبه، وأبعد الناس

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٦٦٦)، والنسائي رقم (١٢٨١)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٥٧٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي ولفظه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة في الأرض سياحين يبلغوني من أمتي السلام».

الذين يقعون في المخالفات عن هذا الحمىٰ؛ يعني: أبعد وسائل الشرك وأسبابه أن تكون قريبة إلىٰ جوانب التوحيد.

❁ **الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.**

هذا هو وجه الاستدلال من الآية أنه حريص علىٰ هدايتنا، وأنه بنا رؤوف رحيم، ومقتضىٰ ذلك أن يحمينا ويبعدنا عن أسباب الشرك، ووسائله التي توقع العنت فينا وتوقعنا في العذاب.

❁ **الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.**

هذا يحتاج إلىٰ دليل، يظهر أنه رحمه الله أخذه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه ذكر هذا الكلام في كتابه الرد علىٰ البكري؛ لأن الشيخ ابتلي بهذه المسألة حتىٰ سجن حتىٰ حاول بعض قضاة وقته أنه يحكم بقتله من أجل ذلك فألف كتابًا يرد به علىٰ هؤلاء ويقول: أنه ما أنكر الزيارة، وإنما أنكر شد الرحل، وقال: إن زيارته من أفضل الأعمال، وهذا يحتاج إلىٰ دليل كيف تكون من أفضل الأعمال والرسول ﷺ ينهانا يقول بقوله: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»، وكيف تكون من أفضل الأعمال، ولم يفعلها الصحابة.

فالذين حاولوا أن يبرروا هذا الكلام، قالوا هذا دليله ما في الحديث: «**من سلم علي عند قبري سمعته، ومن سلم علي نائيًا بلغته**»، والحديث ضعيف فيه راويان أحدهما مجهول والآخر فيه كلام[1].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (١٥٨٣)، قال العقيلي في الضعفاء الكبير (٨/ ١١٣): لا أصل له من حديث الأعمش وليس بمحفوظ ولا يتابعه إلا من هو دونه. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (١/ ٢٣٨): وهذا قد رواه محمد بن مروان السدي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وهذا هو السدي الصغير وليس بثقة وليس هذا من حديث الأعمش. وقال ابن القيم في جلاء الأفهام (١/ ٥٤): وهذا الحديث غريب جدًا.

فسماعه ﷺ فيه مزية يجعل العمل فاضلًا، لكن يقال في الجواب:

هذا لو أمكن الوصول إلىٰ قبره وهو الآن غير ممكن، فكيف يقال كلام عام للناس: «زيارته من أفضل الأعمال».

ثم قوله إذا صح الحديث: «**من سلم علي عند قبري**»، وهذا ليس خاص به ﷺ، جاء هذا في آحاد الناس، إذا أتيت إلىٰ قبره وسلمت عليه يسمعك، ويرد عليك كما ثبت ذلك في أحاديث متعددة عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ أصحابه حتىٰ إنه ليسمع قرع نعالهم..**» الحديث(١)، وجاء أيضًا مثل هذا في أحاديث أخرىٰ.

والروح لا تموت بل هي حية، والحكم عليها، والحياة في القبر حياة غير هذه ربما تكون أكمل، وربما تكون لها أحكام أخرىٰ، والمقصود: أن الإنسان في قبره حي، وإن كانت روحه إذا كان مؤمنًا في الجنة، ولكن لها صلة بالقبر، فقد ثبت في مسند أحمد حديث صحيح عظيم فيه بشارة كبيرة يفرح بها المؤمن، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إدريس؛ يعني: الشافعي، عن مالك، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن النبي ﷺ قال: «**نسمة المؤمن طائر يَعْلَقُ شجر الجنة حتىٰ يرجعه الله**»(٢)؛ يعني: يوم البعث، وهذا خلاف ما جاء في الشهداء فإن أرواحهم في حواصل طير(٣)؛ يعني:

(١) رواه البخاري رقم (١٣٣٨)، ومسلم رقم (٢٨٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٥٧٧٨).

(٣) أخرجه الدارمي رقم (٢٤١٠) عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء ولولا عبد الله لم يحدثنا أحد قال: «أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلىٰ قناديلها فيشرف عليهم ربهم فيقول: ألكم حاجة تريدون شيئًا، فيقولون: لا إلا أن نرجع إلىٰ الدنيا فنقتل مرة أخرىٰ» ورواه مسلم رقم (١٨٨٧) عن مسروق قال: سألنا عبد الله «هو ابن مسعود» عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ =

محمولة الطير يطير بها وتسرح في أنهار الجنة حيث شاءت فلها خاصية غير هذه، فهذا لا يخالف كون لها صلة بالبدن الذي في القبر تعذب وتنعم، فقد ثبتت أحاديث عن النبي ﷺ أن العبد إذا وضع في قبره أتاه الملكان، وأنه فيما بعد سؤالهما يرىٰ منزله ويفتح له باب إلىٰ الجنة، أو إلىٰ النار كلاهما ينظر إليهما، فإن كان مؤمنًا قيل له: هذا منزلك من النار لو كفرت بالله، أما وقد آمنت فانظر إلىٰ منزلك، فيزداد غبطة وسرورًا وطمأنينة ويدعو ربه أن يقيم الساعة حتىٰ يذهب إلىٰ منزله، والثاني بالعكس يزداد حسرة وعذابًا يقال: هذا منزلك في الجنة لو آمنت بالله، أما وقد كفرت فانظر إلىٰ منزلك من النار، ثم يأتيه من حرها ولهبها في قبره، والآخر يأتيه من نعيمها ورَوحها في قبره[1].

فإذا كانت الروح إذا خرجت من البدن وعرج بها إلىٰ السماء وفتحت لها أبواب السماء إن كانت مؤمنة حتىٰ تصل إلىٰ السماء السابعة، ثم ترجع إلىٰ بدنها قبل أن يدفن كل هذا في وقت تجهيزه، فإذا دفن أعيدت روحه إليه فيأتيه الملكان فيقعدانه، المقصود أن الروح أمرها عجيب فلا يقاس عليها، ولهذا أهل السُّنَّة ينصُّون علىٰ أن نعيم القبر وعذابه علىٰ البدن والروح معًا، وليس علىٰ الروح فقط كما يقوله من يقوله من الظاهرية؛ كابن حزم رحمه الله.

= ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال: أما إنا سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعه فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتىٰ نقتل في سبيلك مرة أخرىٰ، فلما رأىٰ أن ليس لهم حاجة تركوا»، وأخرجه الترمذي رقم (١٦٤١) ولفظه عن الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمرة الجنة أو شجر الجنة**».

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٠٩٩٩) عن أبي سعيد الخدري.

والجسد وإن تفتت أجزاءه وكان ترابًا فهو يعذب أو ينعم، وإن احترق بالنار وصار رمادًا، فإنه يناله العذاب في جسده وروحه كلاهما، ولكن الحكم على الروح والبدن تبع، عكس الدنيا، فإن الحكم فيها على البدن والروح تبع، والروح تتألم لتألم البدن.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

مفهوم هذا أن الزيارة غير الكثيرة مأذون فيها، وهذا فيه نظر أيضًا، فالأصل ليس فيه زيارة بل هناك النهي عن الزيارة، فهل نفهم من هذا أن المقصود الإكثار والمؤلف فهم هذا من قوله: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»؛ لأن العيد الشيء الذي يعاود ويتردد إليه، فإذا وقع هذا مرة أو مرتين فليس داخل فيه، هذا وجه قوله النهي عن الإكثار من الزيارة، والله أعلم.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

الحث على العبادة مطلقًا في البيت ما عدا صلاة الجماعة، والنافلة في البيت أفضل للنصوص، كحديث ابن عمر : «**فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[1]، ومثل ذلك سائر القرآن كله إذا قرئ في البيت فهو مطلوب.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

متقرر عند الصحابة أن المقبرة لا يصلى فيها، وكذلك لا يُتعبد فيها مطلقًا، لا بصلاة ولا يقرأ القرآن فيها فليست محلًّا للعبادة، يفهم هذا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»؛ يعني: تعبدوا فيها.

(١) سبق تخريجه.

- **الثامنة: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.**

يعني: تعليل عدم الزيارة أو تكرار الزيارة جعله عيدًا.

- **التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.**

يعني: أن العرض خاص بالصلاة والسلام عليه ليس كل الأعمال تعرض عليه، هذا هو الذي جاء فيه الدليل، أما غيره من الأعمال مثل ما يذكرون من حديث واه لا يثبت به حكم.

الباب الثالث والعشـرون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.**

سبق أن الأوثان اسم لكل ما عُبِدَ من دون الله علىٰ غير صورة؛ يعني: غير صورة حيوان، أو صورة إنسان، فالشجر المعبود يكون وثنًا، والأصنام تكون أوثانًا إذا لم تكن علىٰ صورة إنسان، أو حيوان مثل: الحجر، والقبر، والمكان وما أشبه ذلك.

ومعلوم أن الناس الآن يعبدون أشياء كثيرة جدًا حتىٰ الحيوانات صارت تعبد من دون الله، مثل: البقر، والحية، والقرد، والفأر؛ يعني: من أرذل المخلوقات، وكذلك الشجر والماء وغيرها.

ومن أكبر المعبودات الهوىٰ والدنيا، وقد قال الله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وسيأتي حديث أبي هريرة الذي في البخاري أن الرسول ﷺ سمىٰ الإنسان عبداً للدينار والدرهم، والخميلة، والخميصة وغير ذلك.

ومقصود المؤلف رحمه الله في هذا الباب الرد علىٰ الذين يقولون: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وهم يقولون: لا إله إلا الله ويستدلون بمثل حديث جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»[(١)]، ولكنه يرضىٰ ببعض ما يسوِّله لهم، وقوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»[(٢)]، فأخبر أن الجزيرة العربية أنها تبقىٰ علىٰ الإسلام، وقوله ﷺ: «**إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد**»[(٣)]، وقوله ﷺ:

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٨١٢).
(٢) رواه البخاري رقم (٢٧٨٣)، ومسلم رقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس.
(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٣١٨٦).

«**لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**»[(١)]، وأشياء عمومات يستدلون بها من هذا القبيل، وهي لا تدل علىٰ مقصودهم فأراد المؤلف ﵀ أن يبين أن هذه الأمة يقع فيها الشرك مع قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله، وهم ظاهرون علىٰ الناس**»[(٢)] كما سيأتي.

قوله: «**ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**»: قال: «**بعض**»، فالأمة لا تضل كلها، ولكن يضل بعضها، والبعض يصدق علىٰ القليل وعلىٰ الكثير من الأمة.

وقوله: «**يعبد الأوثان**»؛ يعني: صراحة يعبدونها عبادة ظاهرة لا إشكال فيها.

✍ **ثم استدل بالآيات التي ذكرها، وهي قوله** ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

روىٰ ابن أبي حاتم وغيره عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلىٰ أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد. فقالوا: ما أنتم وما محمد؟. فقالوا: نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء، ونسقي الماء علىٰ اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ قالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلًا، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١][(٣)].

وجاء عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢٤٧٩) من حديث معاوية، وخرجه غيره.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٩٧).

قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم قال: نعم، قالوا: ألا ترىٰ إلىٰ هذا المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن؛ يعني: أهل الحجيج وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ونزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١] إلىٰ قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢](١). وهما من علماء اليهود ورؤسائهم وقدومهم إلىٰ مكة يحثون أهل مكة علىٰ قتال رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد وقعة بدر.

ورواه الإمام أحمد في مسنده بغير هذا اللفظ، ورواه غيره أيضًا، وهي قصة مشهورة.

فعلىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

الهمزة: للاستفهام.

وقوله: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾»:

المقصود بها: العلم، ألم تعلم كيف صارت حالتهم، وكيف فعلوا وكيف صار نهجهم، ومعلوم أن الجاهل قد يرتكب الأشياء التي تكون كبيرة بلا علم، ولكن هؤلاء أهل علم، ولهذا قال: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

﴿نَصِيبًا﴾؛ يعني: أوتوا حظًا من فهمه وعلمه. والكتاب المقصود به الكتاب المنزل، وهو التوراة التي أنزلها الله ﷻ علىٰ موسىٰ عليه السلام.

«﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾»: الجبت: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الجبت: الشيطان(٢).

---

(١) السنن الكبرىٰ للنسائي رقم (١١٧٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٤٦٣) ح رقم (٩٧٧٧) قال قتادة: في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، كنا نحدَّث أن الجبت شيطان، والطاغوت الكاهن. تفسير الطبري ٨/ ٤٦٣.

ومرة قال: الجبت: السحر[١].

وكذلك جاء عن ابن عباس، وعن مجاهد، وعن أبي العالية، وعكرمة وغيرهم[٢].

أما الطاغوت، فقد سبق الكلام فيه، والجبت ذكروا فيه أقوالًا متعددة منهم من قال: إنه الكاهن، ومنهم من قال: إنه الساحر، ومنهم من قال: إنه الشيطان، ومنهم من قال: إنه الأصنام، ومنهم من قال: إنه الشرك، والظاهر أنه كما قال الجوهري في الصحاح: الجبت كلمة تطلق علىٰ الشر، وعلىٰ الصنم، وعلىٰ الكاهن، وعلىٰ الساحر، فهي عامة[٣]. ثم يقول أن هذه الكلمة ليست من أصل اللغة العربية لاجتماع الباء والجيم في كلمة واحدة فكأنها دخيلة علىٰ اللغة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: إذا تكلم العرب بالكلمة وعرفت عنهم فهي عربية، ولا يقال: إنها غير عربية، ولا يقال أن القرآن فيه كلام غير عربي بل كله عربي، وإن كان الأصل قد يكون دخيلًا، ولكن العرب عرَّبوها فصارت عربية وهذا منها.

فإذا عربت الكلمة وأصبحت معروفة عندهم ويتكلمون بها عرفوا معناها فهي عربية، ولهذا ما يذكر في بعض المؤلفات أن القرآن فيه كلام حبشي، وفيه كلام رومي، وفيه كلام كذا وكذا، فهذا فيه نظر، ولا يجوز أخذه علىٰ إطلاقه؛ لأن الله سمَّاه عربيًا، فهو كله يصدق عليه ذلك.

والإيمان هنا ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الظاهر أن الإيمان هنا هو: الإقرار والرضىٰ فقط، يقصد به إقرار ذلك والرضا به ظاهرًا لا باطنًا، وإلا في الباطن

(١) تفسير الطبري (٨/ ٤٦٢) قال: عمر ﵁: «الجبت» السحر، و«الطاغوت» الشيطان.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٤) وفيه: وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي مالك وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، وعطية: «الجبت» الشيطان- زاد ابن عباس: بالحبشية. وعن ابن عباس أيضًا: «الجبت»: الشرك. وعنه: «الجبت»: الأصنام.

(٣) الصحاح في اللغة (١/ ٧٨) قال الجِبْتُ: كلمة تقع علىٰ الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

قد يكون مكروهًا مبغضًا كما هو الحال في هذه القصة، ولهذا يقول المؤلف في المسائل: وهي أهمها: ما معنىٰ الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟[1]؛ يعني: ينظر الإيمان هنا ما المقصود به هل هو الاقتناع به أو موافقة أهل الباطل مع كراهته في الباطن؟ وهو يقصد الأمر الأخير؛ يعني: أنهم وافقوهم فقط عليه مع كراهتهم له ومع ذلك سماهم مؤمنين به، فالمراد بإيمانهم هنا ليس علم القلب، وإنما هو موافقة علىٰ الباطل؛ لأنهم كرهوا الحق فدعاهم ذلك أن يوافقوا أهل الكفر في الظاهر فقط.

ثم يدلنا علىٰ أن الكفر يكون بالقول، ويكون بالفعل، ولو لم يكن القلب عالمًا بذلك وموقنًا به والأدلة عليه كثيرة وهو من الردود علىٰ المرجئة.

والنظر في الآية يدل علىٰ أن الجبت هو الشرك والأصنام؛ لأن الذين سألوا هم أهل الشرك وعبادة الأصنام، وأما الطاغوت فسبق تعريف ابن القيم رحمه الله له: أنه يطلق علىٰ كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع. بهذه الثلاثة الأشياء: المعبود والمتبوع المتبع، والمطاع يكون طاغوتًا إذا أطيع في المعاصي، وكذلك إذا اتبع في المعاصي بالتقليد دون علم وكذلك العبادة. فهاتان الكلمتان عامتان الجبت والطاغوت تطلق علىٰ أشياء كثيرة.

والإيمان بذلك هو اتباع أصحابه وموافقتهم عليه، ولو لم يكن مقتنعًا به، ولا موافقًا لهم عليه في الباطن فإذا وافقهم عليه في الظاهر، فقد آمن به كما هو واضح من هذه الآية.

ثم قال في تمام هذا ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يعني: للمشركين ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ فهذا تفضيل لطريقة الشرك علىٰ المسلمين، وكلام الله يأتي عامًا يقصد به البقاء إلىٰ يوم القيامة، ويدخل فيه كل من سار علىٰ هذه الطريقة في

---

(١) المسألة الرابعة.

المعنىٰ، فإذا فضل طريقة الكافرين علىٰ طريقة المسلمين الذين يتبعون الكتاب والسُّنَّة، فهو داخل في هذا، فكيف إذا فضل القوانين علىٰ الشرع يكون أعظم، ثم يقول ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ اللعن هو الطرد عن رحمة الله ﷻ؛ يعني: أن الله طردهم وأبعدهم عن مواطن الخير والرحمة، ومن فُعل به ذلك فإنه يختار الكفر والطاغوت علىٰ الهدىٰ والإيمان والحق بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ لا يمكن أن يهدىٰ إلىٰ حق بل يكون تولاه شيطانه، والشياطين إذا تولته تُبعده عن كل ما فيه خير -نسأل الله العافية- وهذا يدلنا علىٰ أن الجزاء من جنس العمل، إذا ارتكب الإنسان الباطل عمدًا فإنه يُكره إليه الحق ويُحبب إليه الباطل، ويصبح لا يطيق اتباع الحق، وإن كان يعرف أنه حق لكنه لا يتبعه فيتعمد اجتنابه وسلوك الباطل، وإن كان يرىٰ أن هذا باطلًا وهذا حقًا، ولهذا لا يكفي كون الإنسان يعرف أن هذا حق وهذا باطل، بل حتىٰ يحبب الله إليه الحق بعد معرفته ويتبعه ويُكرّه إليه الباطل بعد معرفته، فالأمر بيده الله ﷻ.

فهؤلاء جازاهم الله علىٰ هذا الأمر الفظيع العظيم الذي مآله إلىٰ الخسارة الأبدية، بل العذاب السرمدي الذي لا نهاية له ولا سيما إذا كانوا أهل علم، فأهل العلم ضلالهم ليس هو ضلال لأنفسهم فقط، ضلال لأنفسهم ولغيرهم، فيصبح عليهم وزرهم ووزر كل من اتبعهم فتضاعف العقوبات في الدنيا والآخرة.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالىٰ**: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

هذه قبلها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]، فإنهم كانوا يستهزئون بأهل الإيمان وبندائهم؛ يعني: الأذان

ولهذا قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

جاء أنهم قالوا لما سئلوا: ما رأينا أشر منكم أهل دين[1] يقولونه للمسلمين فقال الله ﷻ لهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾؛ يعني: أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ يعني: بالشر الذي قلتموه فينا الذي اعتقدتموه فينا بهتانًا وكذبًا، وهم يعلمون أنه ليس الأمر كذلك.

قوله: «﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾»؛ يعني: ثوابًا عند الله وجزاء عنده يوم ترجعون إلىٰ الله.

قوله: «﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾»: اللعن كما عرفنا: أنه الطرد عن الخير كله، والإبعاد عنه، فإذا كان مطرودًا عن الخير ومبعدًا عنه، فلا رجاء فيه.

وقوله: «﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾»: الغضب أشد من اللعن، فاللعن من آثاره؛ يعني: من آثار الغضب، وهذا يدل علىٰ أنه غضب لا يرجىٰ بعده رضىٰ، وهذه صفة اليهود هم أهل الغضب؛ يعني: أن الغضب يكون لمن فعل المخالفة عالمًا.

قوله: «﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾»: جعل؛ يعني: صيَّر منهم قردة.

قوله: «﴿وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾»: المفسرون اختلفوا في هذه الكلمة ﴿وَعَبَدَ﴾ إعرابًا ومعنىٰ، والصواب أنها معطوفة علىٰ ما سبق، ولكن الفاعل فيها غير الفاعل في السابق؛ لأن الفاعل هنا الأولىٰ أن يكون ظاهرًا، أو يكون مضمرًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾ يعني الله هو الذي جعل منهم ﴿ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، أو وعُبد الطاغوت؛ يعني: أن

(١) تفسير البغوي- (٣/ ٧٤) قال ابن عباس: أتىٰ النبي ﷺ نفر من اليهود، أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وغيرهما، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فلما ذكر عيسىٰ ﷺ جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظًا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ [المائدة: ٥٩].

هؤلاء مغضوب عليهم فهم عبّاد الطاغوت، والطاغوت عبادته لا تقتصر علىٰ عبادة صنم، أو عبادة شخص؛ بل عبادة الباطل واختيار الباطل علىٰ الحق مع العلم. هذه هي عبادة الطاغوت فهي عامة، وهذا كثير في اليهود، وفي أتباعهم وأشباههم.

والقردة والخنازير مسخ مسخوا فيه، كما أخبر الله ﷻ عن أهل القرية الذين تحيلوا علىٰ الحرام بالحيلة التي ظاهرها موافقة للحق وفي الباطن مخالفة، ولهذا صارت العقوبة من جنس الفعل؛ لأن القردة في الظاهر أقرب شيء للإنسان، وفي الباطن مخالفًا له ليس إنسانًا بل حيوان من الحيوانات فمسخوا، يقول بعض المفسرين: إن شبابهم صاروا قردة وشيوخهم صاروا خنازير(١)، والقصة معروفة مشهورة في التفسير وفي الآثار.

وقال ابن عباس: كانوا ثلاث أمم صاروا ثلاث طوائف، طائفة أنكرت وتبرأت وزايلت، وطائفة سكتت، وطائفة فعلت، ولكن المقصود أن هؤلاء يقال أنهم: أهل إيلات وهي علىٰ البحر.

والحيلة أن الله ﷻ أمرهم بتعظيم السبت فابتلوا وصارت الحيتان إذا جاء يوم السبت جاءت إليهم حتىٰ صارت علىٰ الشاطئ وتخرج خراطيمها إلىٰ البر يشاهدونها فإذا انتهىٰ يوم السبت ذهبت فلا يرون منها شيئًا فنصبوا لها الشبابيك والحفر والشصوص: يعني: الآلة التي يصيدون بها يوم السبت وتركوها حتىٰ غربت الشمس، وذهب يوم السبت فأخذوها، فلما فعلوا ذلك انقسموا ثلاثة أقسام: قسم أنكروا عليهم أشد الإنكار وزايلوهم لما لم يمتثلوا خرجوا من بين أظهرهم، وقسم سكتوا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فقال أولئك: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فلم ينتهوا واستمروا علىٰ هذا، وفي

(١) تفسير البغوي (٣/ ٧٥)، ورُوي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﵄: أن الممسوخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبَّانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير.

ليلة من الليالي جاء الصباح، فلم يخرج من أهل البلد أحد، والناس يشاهدون، فقالوا: هؤلاء لهم شأن فذهبوا إليهم فوجدوهم ممسوخين قردة وخنازير.

وهذا ظاهر جدًا أن التحايل على الحرام من أكبر الذنوب؛ لأن إتيان الحرام ظاهرًا بدون حيلة قد يكون أخف والله لا يخفى عليه شيء ﷻ.

والمقصود: ليس ذكر القصة التي وقعت وذكر المسخ الذي حدث في اليهود ولكن المقصود نحن.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالى**: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

هذه في قصة أصحاب الكهف الذين هم شباب خرجوا من قومهم هاربين بدينهم فأووا إلى الكهف وألقى الله عليهم النوم فبقوا نيامًا مدة طويلة كما ذكر الله ﷻ أنهم: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، ثم بعثهم الله فاستيقظوا ليكون آية، وليكون دليلًا على قيام الساعة وإتيان البعث، فلما قاموا أحسوا بالجوع فسأل بعضهم بعضًا كم لبثتم؟ فقالوا: يومًا أو بعض يوم، فأرسلوا أحدهم بنقود معهم يأتيهم بطعام وأمروه بالتلطف وأن لا يشعر به أحد، ولكن الله أظهر أمرهم؛ لأن العملة التي جاءوا بها فُقدت لا وجود لها، والأمم تغيرت بعدهم تغير كل شيء، فلما أخرج النقود التي معه مسكوه قالوا: من أين جئت بها ؟ لا بد أن عندك كنز فظهر أمرهم، فلما جاءوا مع صاحبهم ألقي النوم عليهم مرة أخرى، فاختلفوا فيهم ماذا يصنعون معهم ذكر الله ﷻ أن: الذين غلبوا على أمرهم قالوا لنتخذن عليهم مسجدًا، يقول ابن جرير رحمه الله في التفسير: وقد اختلف في قائلي هذه المقالة، أهم الرهط المسلمون، أم هم الكفار؟[1]، وعلى كلٍ المقصود أن هذا

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٦٤٠)، ثم ذكر عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: عمَّى الله على الذين أعثرهم =

الفعل مذموم سواءً وقع من المسلمين، أو من غيرهم، وهو اتخاذ المسجد على الأموات، أو على القبور؛ لأن هذا يجر صاحبه إلى الشرك.

المقصود بهذه الآيات وجه الدلالة منها وهو ما يأتي في الحديث : أننا لا بد أن نسلك مسالك أهل الكتاب الذين قبلنا فما وقع فيهم سيقع في هذه الأمة وتفضيل طريقة الكافرين على المؤمنين لا بد أن يقع فيه من يقع من هذه الأمة، وهو كفر وشرك بالله ﷻ، وفيه الرد على الذين يقولون: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وكذلك الرضى بالطاغوت وبالجبت ومسلك من يسلك عبادته لا بد أن يقع من هذه الأمة، وكذلك اللعن والغضب لا بد أن تفعل أسبابه من هذه الأمة فيلعن ويغضب عليه، وكذلك عبادة الطاغوت، كما في الآية الأولى، أما القردة والخنازير، فقد ثبت في صحيح البخاري أنه يكون في هذه الأمة مسخ، فعن أبي مالك الأشعري أنه: سمع النبي ﷺ يقول: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير، والخمر، والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم -يعني: الفقير- لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غدًا فيبيتهم الله، ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة**»(١)، ويكون فيها كذلك «**قذف ومسخ**»(٢).

والمسخ أنهم يمسخون مثل ما مسخ اليهود، وهذا جاءت فيه نصوص متعددة، ولكن يكفنا الحديث الذي في الصحيح: «**يبيت قوم على عزفهم وعلى لهوهم فيصبحون ممسوخين**»(٣)، وكذلك القذف معناه أن يرموا بالحجارة كما رمي قوم

= على أصحاب الكهف مكانهم، فلم يهتدوا، فقال المشركون: نبني عليهم بنيانًا، فإنهم أبناء آبائنا، ونعبد الله فيها، وقال المسلمون: بل نحن أحق بهم، هم منا، نبني عليهم مسجدًا نصلي فيه، ونعبد الله فيه.

(١) رواه البخاري رقم (٥٥٩٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٦٥٢١) من حديث عبد الله بن عمرو، وابن ماجه رقم (٤٠٦٢)، والترمذي رقم (٢١٥٣) و(٢١٨٥) و(٢٢١٢) من حديث عائشة وابن عمر وعمران بن حصين ﷺ.

(٣) أخرج الحاكم في المستدرك رقم (٨٥٧٢).

لوط، ومعلوم أن سُنَّة الله لا تختلف، فهذا هو وجه الاستدلال أن هذا وقع في الأمم السابقة، وأنه سيقع في هذه الأمة، وهو دليل على أن قول الذين يقولون: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة باطل بالنصوص التي في كتاب الله ﷻ والتي ذكرها.

ثم ذكر الحديث الذي يعين أن المراد بهذه النصوص التي تليت علينا في صفة اليهود نحن أما هم فلا ينتفعون بذلك في شيء، ولكن تحذيرًا لنا حتى ما نسلك مسلكهم فنقع فيما وقعوا فيه فيُفعل بنا ما فعل بهم.

قال المؤلف رحمه الله: عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذَّة[1]، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» أخرجاه[2].

قوله: «لتتبعن»: التاء المفتوحة والنون المشددة التي هي للتأكيد.

وقوله: «سنن»: بالضم وبالفتح أيضًا من العلماء من رجح الفتح، ومنهم من رجح الضم يقول ابن التين في صحيح البخاري: قرأناه بالضم[3]؛ يعني: أخذه عن مشايخه بالضم.

قوله: «من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: قلنا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» أخرجاه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٧١٣٥)، والطبراني في الكبير رقم (٧١٤٠) عن شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ: «ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم أهل الكتاب حذو القذة بالقذة».

(٢) رواه البخاري رقم (٣٤٥٦)، ومسلم رقم (٢٦٦٩) ولفظه عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن».

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٠١) قال فيه: قوله: «لتتبعن سنن» بفتح السين للأكثر، وقال ابن التين: قرأناه بضمها، وقال المهلب: بالفتح أولى لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشبر وهو الطريق، قلت: وليس اللفظ الأخير ببعيد من ذلك.

يعني: في الصحيحين، ولكن اللفظ فيه اختلاف، فلفظ الصحيحين: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشر وذراعًا بذراع حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه...» الخ**، فيجوز أن يكون ذكر القذة في غير الصحيحين، وقد أخرجه الإمام أحمد بألفاظ مختلفة، منها هذا اللفظ في بعض رواياته.

وقوله: «لتتبعن»: تأكيدًا لسلوك بعض هذه الأمة مسلك اليهود النصارىٰ.

وقوله: «سنن»: جمع سُنَّة، وإذا قلنا: «سَنَن»؛ يعني: طريقة من كان قبلكم.

وقوله: «حذو القذة بالقذة»: القذة يقولون: إنها ريشة السهم الذي هو النبل، تكون مشابهة للأخرىٰ بل تكون مثلها تمامًا بلا زيادة ولا نقص، ولهذا جاء في بعض روايات هذا الحديث: **«حذو النعل بالنعل»**[(١)]؛ يعني: النعل اليمين تشبه النعل اليسار، والعكس ما تختلف عنها.

المفهوم من هذا إنكم سوف تسيرون مسيرهم تمامًا تتبعونهم وتفعلون كفعلهم بلا اختلاف. وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث مبالغة في المتابعة يقول: **«حتىٰ لو كان فيهم من يأتي أمة علانية لكان في هذه الأمة من يفعل ذلك»**[(٢)] يعني هذا من المبالغة والتشنيع.

ومعنى ذلك: أن هذه الأمة ستسلك مسلك اليهود والنصارىٰ في هديها، وفي كلامها، وفي أكلها وشربها، وفي لباسها، وفي مساكنها ومراكبها، وفي كل أمورها كما

(١) رواه الترمذي رقم (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ..»**.

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»**.

هو الواقع، ولكن ليس الأمة كلها وإنما بعضها، ومن ذلك عبادة القبور، وعبادة الصليب، وعبادة الطاغوت فهم وقعوا فيها، ولا يلزم أن هذه الأمة تقع في عبادة الصليب، ولكن يكفي أن تقع في عبادة غير الله.

والنصارى منهم من يقول: عيسى ابن الله، ومنهم من يقول: هو الله، فهل يقع في هذه الأمة؛ لأن خبر الرسول ﷺ يدل على هذا، فقد قالوا في الرسول ﷺ مثل ما قالت النصارى: إلا أنهم جاءوا بالمعنى فقط دون اللفظ، ولهذا يقول البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه

يعني: في كل شيء قل فيه فقط اترك ما قالت النصارى أنه ابن الله، أو أنه الله، ولهذا أعطاه ما لله ﷻ قال:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وقال:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم

يعني: عبادة للرسول ﷺ وغير ذلك يقول:

هذه علتي وأنت طبيبي ... ليس يخفى عليك في القلب داء[٢]

أعطاه علم الغيب، وحتى علم القلوب، وأيضًا أعطاه أنه يشفي من الأسقام، ويغني من الفقر، وينصر من العدو وغير ذلك، هذه في الحقيقة التي رضي الشيطان منها، وهي تكفي؛ لأنها هي المقصود.

(١) الرد على البكري (١/ ٤٢٨) وجاء فيها:

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

(٢) البردة والهمزية للبوصيري. وانظر شرح البردة ليحيى محمد حلو ص ٢٦٦.

وعلىٰ هذا نقول: إن الرسول ﷺ أخبر خبرًا عن الواقع فوقع كما أخبر ﷺ فصار هذا من دلائل نبوته؛ لأنه وقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه قبل أن تقع.

وقوله: «حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: الضب معروف فلماذا اختاره الرسول صلىٰ اله عليه وسلم مع أنه غير موجود في الحجاز، وهو من حيوانات نجد ومع ذلك مثَّل به الرسول ﷺ؟ وقد جيء إليه بضب هدية، فلم يأكل منه، وأخبر عنه بأنه اختص من بين الحيوانات التي تحفر الجحور بأن جحره أشد الجحور وأصعبها دخولًا؛ لأنه إذا حفر لا يحفر سامتًا بل يحفر بالتواء متجهًا إلىٰ الأسفل حتىٰ أنه لا يستطيع الداخل أن يدخل عليه، لأجل ذلك مثل به رسول الله ﷺ يقول: لو قدر أنهم يسلكون هذا المسلك الصعب الذي ما يسلك إلا بكل كلفة لكان في هذه الأمة من يسلك ذلك خلفهم، هذه مبالغة في اتباع اليهود والنصارىٰ، وكذلك المجوس؛ لأنه جاء في رواية إدخالهم معهم في مسالكهم كلها.

والمتأمل إذا سبر حال المسلمين الآن يجد أن كثيرًا منهم لا يختلف عن اليهود والنصارىٰ.

قوله: «قالوا: اليهود والنصارىٰ يا رسول الله؟»؛ يعني: تعني اليهود والنصارىٰ؛ لأنه قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» احتاجوا إلىٰ الاستفهام، هل هم الذين قبلنا اليهود والنصارىٰ؟.

قال: «فمن»؛ يعني: من المتحدث عنهم إلا اليهود والنصارىٰ؛ يعني: هم الذين قصدت.

وبهذا يتبين أن الاستدلال بهذه الآيات واضح للترجمة؛ لأن الآيات في اليهود وكذلك في الذين بنوا المساجد علىٰ القبور سواءً كانوا من اليهود، أو من النصارىٰ، وسواءً كانوا من المسلمين أو من الكافرين المشركين فهي طريقة مذمومة، ومن سلكها يكون سالكًا طريقهم المذموم الذي ذموا عليه.

قال المؤلف رحمه الله: ولمسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها - أو قال: من بين أقطارها- حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا»(١).

ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: «وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين، ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يوم القيامة. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله تبارك وتعالى»(٢).

قوله: «عن ثوبان رضي الله عنه»: ثوبان هو مولىٰ رسول الله ﷺ.

قوله:: «إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها.» إلىٰ قوله : «حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضـًا.» إلىٰ هنا لفظ مسلم، وهذا ليس فيه شاهد للترجمة ولكن البقية.

«رواه البرقاني في «صحيحه»»: صحيح البرقاني هو كمستدرك الحاكم جمع الأحاديث التي علىٰ شرط البخاري ومسلم، وهو أفضل من المستدرك، وهو من شيوخ الخطيب، وقد أثنىٰ عليه كثيرًا قال: إنه من علماء هذا الشأن.

وزاد: «وإنما أخاف علىٰ أمتي»؛ يعني: في رواية مسلم.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٨٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٢٣٩٥)، وأبو داود رقم (٤٢٥٢).

قوله ﷺ: «**إن الله زوىٰ لي الأرض**»: زوي الشيء هو جمعه؛ يعني: أن الأرض جمعت لي حتىٰ رأيت أقصاها مثل ما أرىٰ أدناها، وهذا الجمع قد يكون حقيقة وقد يكون تمثيلًا، ولكنه حق رآها وشاهدها، ثم ذكر المشارق والمغارب فقط، ولم يذكر الجنوب والشمال، ولهذا لم يمتد ملك أمته جنوبًا، ولا شمالًا، وإنما ذهب شرقًا وغربًا فذهب غربـًا إلىٰ والمغرب علىٰ المحيط الهادي والأندلس ، وأما الشرق فوصل ملك أمته إلىٰ حدود الصين فهذه مشارقها ومغاربها.

قوله: «**وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**»؛ يعني: الذي شاهده منها ستملكه أمته، وقد وقع هذا ولكن فيما بعد صارت تمزق الأملاك وصارت يتوازعها الكفار وغيرهم كما هو الواقع الآن.

قوله: «**وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**»: «أل»: هنا للتعريف كأنه شيء معروف، الأحمر عبارة عن الذهب، والأبيض عبارة عن الفضة والجواهر.

ويقول العلماء: إن الأحمر هو كنز الروم؛ لأن الغالب عندهم الذهب، وأما الأبيض فهو كنز الفرس؛ لأن الغالب عندهم الفضة والجواهر.

وقوله: «**أعطيت الكنزين**»: معلوم أن هذا وقع بعد وفاته ﷺ بمدة ولكن ليست طويلة؛ لأنه وقع في خلافة عمر رضي الله عنه أنه جيء بكنوز كسرىٰ، وكذلك قيصر إلىٰ المدينة وأنفقت في سبيل الله حتىٰ جيء بالتاج الذي كان يلبسه كسرىٰ، وهو تاج يكون علىٰ مجلسه لا يحمله رأسه من ثقله، ولهذا يجعلون له حبلًا فوقه يمسكونه بشيء حتىٰ لا يثقل رأسه، وهو في مجلسه[1]، وهو مكلل بالجواهر التي أقيامها غالية جدًا، مع ذلك جيء وألبس سراقة بن مالك أعرابي من أعراب المسلمين ،

(١) البداية والنهاية (٧/ ٧٧): «فكان إذا جلس علىٰ كرسي مملكته ودخل تحت تاجه، وتاجه معلق بسلاسل الذهب؛ لأنه كان لا يستطيع أن يقله علىٰ رأسه لثقله، بل كان يجيء فيجلس تحته ثم يدخل رأسه تحت التاج والسلاسل الذهب تحمله عنه».

فدعا به فألبسه إياه، ثم قال: الحمد لله الذي سلب هذا كسرىٰ وألبسه أعرابيًا من أعراب المسلمين[١]. وهذا أيضًا تصديق لقوله ﷺ في حديث الهجرة، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «**كيف بك إذا لبست سواري كسرىٰ**»؟ قال: فلما أتىٰ عمر بسواري كسرىٰ ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقة رجلًا أزب كثير شعر الساعدين وقال له: ارفع يديك فقال: الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرىٰ ابن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي رجل من بني مدلج ورفع بها عمر صوته[٢]. في هذا الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ يتابع، ويطارد حتىٰ يريدون قتله، يخبره بأنه سيلبس تاج كسرىٰ، فوقع بعد وفاته ﷺ كما هو معروف.

والمقصود: أن إعطاءه الكنزين هو إعطاء أمته، أعطيت أمته هذه الكنوز فأنفقت في سبيل الله، وجاء في رواية، عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[٣]، فأنفقت في سبيل الله والحمد لله.

قوله: «**وإني سألت ربي لأمتي**»: هذا الذي ذكر سؤالين، وقد جاء في صحيح مسلم أنها ثلاثة أسئلة، وأعطىٰ اثنين ومنع الثالث.

(١) سنن البيهقي رقم (١٣٤١٧) عن الحسن: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بفروة كسرىٰ فوضعت بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم قال: فألقىٰ إليه سواري كسرىٰ بن هرمز فجعلهما في يده فبلغا منكبيه، فلما رآهما في يدي سراقة قال: الحمد لله سواري كسرىٰ بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج، ثم قال: اللهم إني قد علمت أن رسولك ﷺ كان يحب أن يصيب مالًا فينفقه في سبيلك وعلىٰ عبادك وزويت ذلك عنه نظرًا منك له وخيارًا، اللهم إني قد علمت أن أبا بكر رضي الله عنه كان يحب أن يصيب مالًا فينفقه في سبيلك وعلىٰ عبادك فزويت ذلك عنه نظرًا منك له وخيارًا، اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مكرًا منك بعمر ثم قال: بلىٰ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

(٢) الإصابة لابن حجر (٣/ ٤١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ١٧٤).

(٣) رواه البخاري رقم (٣١٢٠)، ومسلم رقم (٢٩١٨).

قوله: «**أن لا يهلكها بسنة بعامة**»: بسنة المقصود بها الجدب، الذي يكون بمنع القطر، فيهلك الماشية فتهلك الأمة بسبب هلاكها، وهلاك زرعها وضرعها فأعطاه الله ﷻ أن لا يهلكهم بسنة بعامة. والمعنىٰ أنه لا يهلكهم بعذاب يعمّهم، ليس المقصود بالجدب فقط أنه لا يهلك هذه الأمة بعذاب يعمّهم كهلاك الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم شعيب كذلك قوم لوط وغيرهم، هذا وعد من الله ﷻ.

والباء في قوله: «**بعامة**» زائدة؛ لأنها وصف لسنة.

والمقصود بالسنة: المَحْل الذي يكون متتابعًا علىٰ الأمة فيهلك حرثها ومواشيها وأموالها كما أخبر الله ﷻ أنه جعل ذلك عذابًا لآل فرعون بالسنين وهو الجدب(١)، وقد دعا الرسول ﷺ علىٰ مضر وقريش قال: «**اللهم اشدد وطأتك علىٰ مضر وابعث عليهم سنين كسني يوسف**»(٢)، وسني يوسف قبل فرعون الذي أرسل إليه موسىٰ ﵇ غير الذي كان في وقت يوسف ﵇، وفرعون اسم لكل من ملك مصر كافرًا، كما أن كسرىٰ اسم لكل من ملك الفرس كافرًا، وقيصر اسم لمن يملك الروم كافرًا، والنجاشي اسم لمن يملك الحبشة، فهو لا يطلق علىٰ شخص بعينه بل هو اسم جنس كل من ملكهم أطلق عليه هذا الاسم.

قوله : «**أن لا يسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم**»: من غيرهم؛ يعني: من غير دينهم من الكفار، هاتان مسألتان أعطيهما رسول الله ﷺ:

الأولىٰ: أن الله لا يهلك الأمة بعمومها بمحل يعمهم جميعًا، ولا ينافي

---

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] يقول الطبري في تفسيره ١(٣/ ٤٥) «بالسنين»، يقول: بالجُدوب سنة بعد سنة، والقحوط. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٠): ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهي سِني الجوع بسبب قلة الزروع.

(٢) رواه البخاري رقم (٦٩٤٠)، ومسلم رقم (٦٧٥) عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام والوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك علىٰ مضر وابعث عليهم سنين كسني يوسف».

أن يصيب جهة من جهاتها أمحال وأجداب فيه عقاب ولكن لا يعمهم ذلك، وهذا مثل ما كان يصيب الأمم السابقة التي تكذب رسلهم فإنها تصاب بعذاب عام يهلكهم عن آخرهم، مثل ما قص الله علينا قصص الأمم مثل ثمود وعاد وقوم لوط فلا يبقىٰ منهم أحد. فهذه أمنة لهذه الأمة أنهم لا يصابون بالعذاب العام الذي يأخذهم عمومًا.

والثانية: أنه لا يسلط عليهم كافرًا **«يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»** يعني أهل الأرض كلهم.

والبيضة اختلف فيها ؟ فقيل البيضة هي حوزتهم وما يملكونه من الأموال والبلاد، وقيل البيضة وسط الشيء وقلبه وما يرجع إليه أطرافه وجوانبه وهذا هو الأقرب.

فيكون مثلًا: أئمتهم، وقادتهم، وعلمائهم، وما يملكونه أصلًا لهم ، المقصود أنه لا يُستباح ذلك ، ولو اجتمع عليهم أهل الأرض كلهم لذلك، ولكن هذا مغيًّا بغاية ومشروط بشرط، وهو أن لا يقاتل بعضهم بعضًا، وأن لا يحصل بينهم الخلاف الذي يؤول إلىٰ الاقتتال، فإذا وجد ذلك فإنه يجوز أن يسلط عليهم من يسلبهم بلادهم وملكهم وأنفسهم، وهذا دل عليه الواقع، فمثلًا بلاد الأندلس كانت من أعظم بلاد المسلمين حضارة وعلمًا واقتصادًا ونظامًا، وكانت يسمونها جنة الدنيا، فلما تسلط بعضهم علىٰ بعض، وصارت دويلات كل دولة صارت تغير علىٰ الأخرىٰ سلط عليهم الإفرنج فأخذوا جميع ما يملكون، وقتلوهم وأخذوا نساءهم، وأطفالهم وأدخلوهم في دينهم وصاروا يبحثون عمن بقي علىٰ الملة الإسلامية إما يقتلوه، وإما يفتنوه عن دينه، فمحي الإسلام من هذه البلاد نهائيًا لم يبق فيه إلا الآثار من القصور والمباني التي لا تزال، وكذلك في أصل بلاد المسلمين ففي البلاد التي كان فيها الخليفة لما حصلت الخلافات بينهم وصار كل قائد من قواد الدولة

يقتطع جزء من البلاد، ويكون أميراً عليها سلط عليهم العدو، وهم التتار فجاءوا فسلبوا بلادهم، وقتلوا الخليفة، وقتلوا العلماء وأفسدوا وعاثوا في بلادهم بأمور يقول المؤرخون: إنه ما سبق في الدنيا مثلها حتىٰ أنهم ذكروا أشياء عجيبة جدًا يقول ابن الأثير: بقيت سنين مترددًا هل أكتب هذه الواقعة، أو لا أستطيع كتابتها، كيف أكتب إزالة الدولة الإسلامية بما فيها من خليفة ومن علماء، ومن علم فكتب ذلك، وهو يقول: كتابة تفطر الأكباد وتذيب القلوب، ولكن هكذا وقع، حتىٰ أنه قتل في بغداد وحدها ثلاثة ملايين من المسلمين، والكتب التي كتبها العلماء من القرن الثاني إلىٰ ذلك الوقت رميت في دجلة وجعلت جسرًا تمشي عليه الخيل حتىٰ أنهم يقولون: إنه تغير ماء دجلة من الحبر؛ يعني: فساد إلىٰ حد ما سبق؛ لأن هؤلاء همج لا يعرفون لا علم، ولا يعرفون حضارة.

والمقصود أن هذا بسبب الخلاف، فهذا دل عليه هذا الحديث: «**حتىٰ يكون بعضهم يقتل بعضًا وبعضهم يسبي بعضًا**»، فحتىٰ هنا للغاية إذا وجد هذا فإنه يسلط عليهم العدو، وهذه الأمور يجب أن تكون دروسًا للأمة تعتبر بها وتفكر فيها، وتتحاشاها أن تقع مرة ثانية، ولا خير فيمن لا يتعظ بمن سبق.

وقوله: «**وإن ربي قال يا محمد: إذ قضيت قضاء فإنه لا يرد**»: القضاء والقدر سواء، وقد قيل: إن القضاء هو ما فرغ منه، والقدر أعم من هذا فالقضاء هو الأمر المبرم، ولكن شراح الحديث بعضهم قسم القضاء إلىٰ أمرين:

قال منه قضاء مبرم وهذا القضاء المبرم هو الذي لا يتغير، ولا يتبدل، ولا ينسخ.

وقضاء معلق بأسباب وشروط إذا وجدت تم ذلك، وإذا لم توجد لم يتم، واستدلوا علىٰ هذا بهذا الحديث بقوله: «**حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا**»، فقالوا هذا شيء مقيد، وأنه إذا وجد جاء هذا القضاء وإذا لم يوجد لم يأت، وهذا فيه نظر

وإن قاله من قاله من أهل السُّنَّة، وذلك أن الله علام الغيوب ولا يخفىٰ عليه شيء يعلم الذي يقع ما هو والذي لا يقع، أما التعليقات والأسباب فهي من القضاء الذي يقضيه، فالقضاء شيء واحد ليس فيه شيء مبرم وشيء معلق بأنه قد يقع أو لا يقع، فيكون هذا شبه الشيء الذي لا يدري هل هو يقع، أو لا يقع، وإن كانوا يقولون: إن الله يعلم الذي يقع نقول: إن الأحاديث والمعاني، معاني الأحاديث تدل علىٰ خلاف هذا وأن قضاء الله شيء واحد، ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة -قال- وعرشه علىٰ الماء**»[(١)]. هذا شيء عام، حتىٰ ذكر العلماء فيه نبض العروق والاختلاج الذي يصيب البدن من حركة أو غيرها، مسجل في ذلك الوقت مكتوب.

أما ما جاء: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر**»[(٢)]، فهذا لا يدل علىٰ أن القضاء يكون معلقًا؛ لأن الدعاء من القضاء الذي أُبرم، وكذلك الصلة من القضاء الذي أبرم، فقد علم الله ﷻ أن هذا يدعو فلا يُصاب بالعذاب الذي يكون بسبب تخلف الدعاء فمكتوب ذلك شيء واحد، وكذلك علم هذا أنه يصل رحمه، وتكون صلة رحمه سببًا في زيادة عمره، وليس معناه أنه كتب له عمران عمر إن وصل كان عمره كذا، وإن قطع كان عمره كذا، بل المكتوب شيء واحد، ولكن كل شيء جعل الله له سببًا والأسباب مكتوبة في الأزل.

أما قوله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، فالضمير في «لا ينقص من عمره» لا يعود إلىٰ المعمر، وإنما يعود إلىٰ

(١) رواه مسلم رقم (٦٩١٩).

(٢) رواه الترمذي رقم (٢١٣٩) وهو عند أحمد في المسند رقم (٢٢٤٣٨) عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر**» وأخرجه الطبراني في الكبير رقم (١٤٤٢).

آخر، فهو كقولك: عندي دينار ونصفه. الضمير في نصفه ليس عائدًا إلىٰ الدينار، فهذا نقص عمر آخر مكتوب أنه ناقص في الأزل(١).

وكذلك قول الله ﷻ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فإن هذا المحو اختلف فيه ؟ جاء عن ابن عباس: أن الذي يمحىٰ ما في صحيفة الملك الذي يكتبها، فإذا أمسىٰ محي الشيء الذي لا عقاب فيه، ولا ثواب مثل: أعطني الكتاب، أعطني القلم وما أشبه ذلك، وأثبت الشيء الذي فيه العقاب، أو الثواب، هذا قول(٢).

القول الثاني: وهو الذي رجحه شارح الطحاوية ابن أبي العز أن المحو في الشرائع في النسخ يمحو الله ما يشاء مما يشرعه، ويثبت ما يشاء قال: هذا هو الراجح(٣).

أما أن يكون الشيء الذي كتب في اللوح المحفوظ يمحىٰ، فالذي كتب لا يتغير، ولهذا قال ﷻ هنا: «**قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**»، نقول هذا عام كل قضاء يقضيه ربنا ﷻ، فإنه لا يرد، ولكن قد يرد علىٰ هذا سؤال، وهو سؤال قديم وصار فيه شبهة، وهو إذا كان كل شيء مفروغ منه فما فائدة الدعاء؟

نقول أولًا: الدعاء سبب من الأسباب، والداعي لا يدري ما الذي كُتب، وهو مأمور بالدعاء.

ثانيًا: الدعاء عبادة لله ﷻ، وهو مثاب علىٰ الدعاء علىٰ كل حال، سواء أُجيب في دعائه، أو لم يجب.

---

(١) قال ابن كثير ﷺ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائد علىٰ الجنس، لا علىٰ العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير علىٰ الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه» أي: ونصف آخر. تفسير ابن كثير (٦/ ٥٣٨). وقال البغوي في تفسيره (٦/ ٤١٦): ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لا يطول عمره، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ يعني: من عمر آخر، كما يقال لفلان: عندي درهم ونصفه، أي: نصف درهم آخر، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٩).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٤٢).

ولهذا جاء عن علي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فأخذ شيئًا فجعل ينكت به الأرض فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسَّر لما خُلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥، ٦][1]، فالشيء الذي قضى سييسر له أسباب منها: الدعاء سواءً في الدعاء على الكفار، أو غيرهم فالله سوف ييسر الدعاء، ويثيب عليه.

فكل شيء بتدبير الله جل وعلا لا يمكن أن يقع شيء على خلاف إرادته أبدًا، ولهذا سوف يأتينا النهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة، أو ما أشبه ذلك: «**فإن الله لا مكره له**»[2] لا أحد يكره الله على شيء أبدًا لا دعاء، ولا غيره الذي يريده سيقع فيكون الإنسان متصورًا بأنه عبد مدبر، وأنه مأمور بالدعاء فيقبل عليه بكل ما يحتاج إليه، وهو يثاب عليه وقد يعطى دعوته والله أمر بدعائه ووعد على ذلك الإجابة، والخلق كلهم لا يدرون ماذا كتب، فلهذا يجتهدوا وكل شيء مما سيقع له أسباب سييسرها الله جل وعلا ويهيؤها ويقع بها.

فقوله: «**وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**»: هذا حديث قدسي، وقد كثرت الأحاديث القدسية وألف فيها الناس مؤلفات، ولكن ينبغي التفرقة بين الحديث القدسي، والحديث النبوي، ومن الفروق المشهورة أنهم يقولون الحديث القدسي: ما كان لفظه ومعناه من الله، ولكن الرسول عبر عنه بلفظه وبكلامه. أما الحديث النبوي ما كان معناه من الله، ولفظه من الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٩٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٣٣٩)، ومسلم رقم (٢٦٧٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له**».

والصواب: أن الحديث القدسي ما كان لفظه ومعناه من الله، وهذا هو الظاهر وهو اختيار البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما هو ظاهر من صنيعه في الصحيح وغير البخاري. يبقىٰ أن نعرف الفرق بين الحديث القدسي وبين كلام الله الذي هو القرآن، الفروق بينهما كثيرة:

- **أولًا**: القرآن تحدي بلفظه فهو معجز.
- **ثانيًا**: القرآن متعبدًا بتلاوته، فلكل قارئ بحرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها.
- **ثالثًا**: لا يجوز للجنب أن يقرأه وكذلك الحائض.
- **رابعًا**: المصحف يجب أن يحترم ويعظم؛ لأن فيه كلام الله، ولا يمسه إلا طاهر، وغير ذلك من الفروق التي ذكرها العلماء.

وقوله: «**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**»: في صحيح مسلم: «**سنة عامة**» في الموضع الثاني ليس فيها الباء.

«**وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها**»؛ يعني: من سواهم من الكفار «**بأقطارها**» جوانبها.

«**حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا**»: هذه هي الغاية التي غُيَّت بها، والشرط الذي قيد به هذا العطاء في هذه المسألة، وهو عدم تسليط الكفار عليهم بشرط أن لا يكون بعضهم يسبي بعضًا، أو بعضهم يقتل بعضًا، فإذا وجد ذلك فإنه يجوز أن يسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولذا قال: «**حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا**»، وقد وقع هذا في الشرق والغرب.

ثم يقول: «**وراوه البرقاني**»: البرقاني هو أحمد بن محمد بن أحمد الخوارزمي من مشائخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٣٦هـ، وتوفي سنة ٤٢٥هـ، وصحيحه هذا جمع فيه ما في الصحيحين من الأحاديث وزاد عليها الأحاديث التي علىٰ شرطهما

فهو ليس علىٰ طريقة الحاكم، ولا علىٰ طريقة المقدسي صاحب المختارة؛ لأنه جمع أحاديث الصحيحين وزاد فيها ما هو نظيرها.

وقد أثنىٰ عليه الخطيب البغدادي كثيرًا قال: وكان ثقة ورعًا، متقنًا ثبتًا فهمًا، لم ير في شيوخنا أثبت منه، حافظًا للقرآن، عارفًا بالفقه، له حظ من علم العربية، كثير الحديث حسن الفهم له، والبصيرة فيه[1].

فهو زاد في رواية هذا الحديث: «إنما أخاف..»، وهذه الزيادة قد رواها أبو داود في سننه.

قوله: «**إنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين**»: يقول العلماء الأئمة الذين يخاف علىٰ الأمة منهم الرسول ﷺ هم قادة الناس، وهم العلماء والعباد والأمراء؛ لأن هؤلاء الذين يُقتدىٰ بهم، وهم الذين إذا صاروا علىٰ شيء معظم الناس يتبعهم يكون معهم كمل قيل: «**الناس علىٰ دين ملوكهم**»، وذلك أن أكثر الناس ليس عنده تمييز ومعرفة للحق علىٰ ما هو عليه فينظر ماذا يصنع العظماء والكبراء فيتبعهم تقليدًا، فأعظم من يضل الناس العلماء وكذلك العباد فإذا ضلت هاتان الطائفتان ضل الناس كلهم تبعًا لهم؛ لأنهم يرون أنهم هم أهل الحق وهم الذين يعرفون الكتاب والسُّنَّة، وهم الذين يميزون بين الصواب والخطأ فيسلكون طرقهم يسيرون معهم، وهؤلاء هم الذين خافهم رسول الله ﷺ علىٰ أمته.

وكذلك المنفذون للأوامر قد يكون مثلًا العلماء يأمرون القادة فينفذون، وقد يكون الأمر بالاتفاق يسيرون علىٰ نهج واحد، وقد يكون بالعكس فالأمور تختلف باختلاف الأحوال والزمان.

---

(١) علل الدارقطني (١/ ٢٧)، قال ابن كثير في البداية والنهاية ١(٢/ ٤٥): «كان عالمًا بالقرآن والحديث والفقه والنحو، وله مصنفات في الحديث حسنة نافعة».

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يوم القيامة»: هذا خبر؛ يعني: الرسول ﷺ يخبر عن واقعة وقعت؛ يعني: إذا وقع السيف بأيديهم وبفعلهم، فإنه يبقىٰ إلىٰ قيام الساعة.

والسيف وقع بقتل خليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه، فلم يزل بالأمة إلىٰ الآن، ولكنه في وقت من الأوقات يكثر ويزيد، وفي جهة من الجهات يكثر، ويزيد، ويقل، وإلا سيستمر إلىٰ يوم القيامة. هذا خلاف ما يقوله أصحاب المقالات مثل: الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، وهو مشهور جدًا، وكثير ما ينقل العلماء منه ويكون هو مرجعًا لهم، وقد وقع في أخطاء فظيعة في هذا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه جارىٰ الرافضة في ذلك(١)؛ لأنه ألف هذا الكتاب لأحد ملوك بني بويه الرافضة التي اختزلت جزءًا كبيرًا من الدولة الإسلامية، وهذه الدولة هي سبب وجود الرفض في إيران؛ لأنهم أرغموا الناس علىٰ اعتناق المذهب، بل وهي السبب في وجود النخاولة في المدينة، هم الذين جاءوا بهم ووضعوهم في المدينة فصارت بذرة سيئة إلىٰ الآن.

فهو ألف هذا الكتاب لأحد ملوكهم، ولهذا لما ذكر سبب سل السيف يقول: أسباب سل السيف في هذه الأمة هو الخلاف في الخليفة ويقول: وأول سيف وأعظم سيف سل في الخلافة في طلب الخلافة(٢)، وهذا كذب ليس صحيحًا، ولم يسل

(١) منهاج السُّنَّة النبوية (٦/ ٣٠٥)، (٣٠٦)، (٣٠٧)، قال رحمه الله تعالىٰ: وبالجملة فالشهرستاني يظهر الميل إلىٰ الشيعة إما بباطنه وإما مداهنة لهم، فإن هذا الكتاب كتاب الملل والنحل صنفه لرئيس من رؤسائهم وكانت له ولاية ديوانية، وكان للشهرستاني مقصود في استعطافه له، وكذلك صنف له كتاب المصارعة بينه وبين ابن سينا لميله إلىٰ التشيع والفلسفة، وأحسن أحواله أن يكون من الشيعة إن لم يكن من الإسماعيلية أعني المصنف له، ولهذا تحامل فيه للشيعة تحاملًا بينًا منه وإذا كان في غير ذلك من كتبه يبطل مذهب الإمامية فهذا يدل علىٰ المداهنة لهم في هذا الكتاب لأجل من صنفه له.

(٢) الملل والنحل (١/ ٢٠) قال: لخلاف الخامس: في الإمامة وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام علىٰ قاعدة دينية مثل ما سُلَّ علىٰ الإمامة في كل زمان.

سيف في طلب الخلافة، لا أحد سل سيفه حتىٰ يكون أبي بكر هو الخليفة، بل الصحابة كلهم اتفقوا علىٰ أن أبا بكر هو الذي له الأحقية، وهو الذي يجب أن يكون هو الخليفة، وهذا هو الذي أشار إليه الرسول ﷺ، كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «**هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده**»، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «**قوموا**». قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم(١). هذا الكتاب الذي أراد أن يكتبه جاء مفسرًا في رواية أخرىٰ أنه قال لعائشة في مرضه: «**ادعي لي أبا بكر، وأخاك حتىٰ أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنىٰ متمن، ويقول قائل: أنا أولىٰ، ويأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»(٢)، فعدل عن ذلك، وهذا مرات يهم به ثم يعدل عنه، فرأىٰ أن تركهم بلا كتابة أحسن حتىٰ يجتمعوا وينظروا في رأيهم، ويتفقوا علىٰ ذلك.

وهذا هو الذي يتخذه الرافضة حجة لهم بأنه أراد أن يكتب لعلي بالخلافة، ولكن عمر وإخوانه حالوا بينه وبين كتابة الرسول ﷺ، ولو أراد أن يكتب شيئًا، فلا يمكن أحد أن يحول بينه وبينه، لا عمر ولا غيره، كيف يحول بينه وبين ما يريد، والصحابة كلهم يتسابقون لطاعته في ذلك.

والمقصود أن الشهرستاني ذكر عددًا كبيرًا مما سل به السيف وسبب الخلاف غير صحيح مثل ما وقع في السقيفة، وما وقع في موته ﷺ، فهو يقول أول خلاف وقع

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٣٨٧).

في موته فاختلفوا هل مات أو لم يمت، ثم الخلاف الثاني في تغسيله نغسله في ثيابه، أو نجرده، ثم الثالث في الصلاة عليه، ثم الرابع في دفنه، ثم صار يذكر هذه الأشياء التي في الواقع ليست خلافًا[١]، وإنما الخلاف الذي صار له أثر، وصار بسببه سل السيف، ووقوع السيف بالأمة هو قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان ﷺ، بسبب الدُخلاء الذين دخلوا في الإسلام وأرادوا الفتك به، فوقع السيف بقتله فاستمر، ولكنه استمر في ذلك الوقت اقتتال أمتين عظيمتين من المسلمين كما أخبر الرسول ﷺ بذلك، ثم عطل الجهاد بسبب هذا القتال في خلافة علي ﷺ كلها أربع سنوات، فطمع العدو في بلاد المسلمين فصاروا يأخذون من أطرافها؛ لأن القتال استمر فيهم وصار القتل فيما بينهم، بين أهل الشام، وأهل العراق إلىٰ أن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، فهذا يصدق ما أخبر به الرسول ﷺ بقوله: «**ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**»[٢]، فكان الحسن كثيرًا ما يعيب علىٰ والده القتال وينهه عن ذلك من الأصل، فلما صار الأمر إليه تنازل لمعاوية وسُمِّي ذلك العام بعام الجماعة، لأنهم اجتمعوا علىٰ ذلك، ولكن لم يرفع السيف بقي، فصار القتل أحيانًا في باطل وأحيانًا في حق.

قوله: «**ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حَيٌّ من أمتي بالمشركين**»: يلحق؛ يعني: يصير معهم بالارتداد واعتناق مذاهبهم. «حَيٌّ»، والحي واحد الأحياء وهي القبيلة، أو الجماعة من القبيلة. هذا هو الشاهد وما بعده من الحديث علىٰ الباب.

قوله: «**من أمتي**»؛ يعني: المستجيبين لي الذين استجابوا، وهذا هو محل الشاهد من الحديث؛ يعني: أنه يقع الشرك في أحياء في هذه الأمة، ويدل علىٰ هذا ما

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٠).

(٢) رواه البخاري رقم (٣٦٢٩) من حديث أبي بكرة ﷺ قال: أخرج النبي ﷺ ذات يوم الحسن فصعد به علىٰ المنبر فقال: ... ثم ذكر الحديث.

ثبت في الصحيحين من أحاديث كثيرة كما في حديث أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أليات نساء دوس علىٰ ذي الخلصة**»، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[١]. وقد وقع هذا في الزمان المتأخر قبل ما يقرب من مائة سنة فقط، صاروا يطوفون عليه، وصاروا يعبدونه في ذلك الوقت حتىٰ صارت المرأة إذا أرادت أن تصلح لبنها تذهب عنده حتىٰ تكبر الزبدة ويحسن اللبن. وهذا معروف عندهم حتىٰ قيض الله من هدمه وأزاله، وربما يُبعث مرة أخرىٰ، وذكر بعض المؤرخين أن أهل الطائف لما كانوا يعبدون ابن عباس هذا أمر اشتهر فهم افتتنوا به فتنة عظيمة يعبدون قبره يقول: إن هذا القبر الذي كانوا يزعمون أنه لابن عباس ليس قبر ابن عباس، بل هو اللات التي هدمها الرسول ﷺ فبُعثت مرة أخرىٰ حتىٰ أزيل مرة ثانية، ووجد أشياء من هذا القبيل كثيرة في جزيرة العرب من أشخاص، وقبور، وأماكن، وبنايات، وغيران، وشجر في نجد، وفي غيرها، كانوا يعبدونها ويفتتنون بها. كلهم علىٰ هذا النهج، حتىٰ ذكر ابن غنام في تاريخه أن رجلين أتيا من اليمن لطلب العلم في مكة وكان أحدهما أفقه من الآخر، فلما أقبلا علىٰ الطائف، قال أحدهما لزميله: أهل الطائف لا يعرفون الله، وإنما يعرفون ابن عباس، فقال له زميله، معرفتهم لابن عباس تكفيهم عن معرفة الله، ابن عباس يعرفهم بالله. هذا من طلبة العلم فكيف بالعوام.

فقوله: «**حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين**»: المشركون يطلق علىٰ الكفرة عموم؛ لأنه يلزم من الكفر الشرك.

قوله: «**وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان**»: نقول أيضًا: هذا أمر آخر وهو دليل آخر للباب. والأوثان سبق أنها تطلق علىٰ كل معبود إذا لم يكن علىٰ صورة إنسان،

(١) سبق تخريجه.

أو صورة حيوان. فالقبر يكون وثنًا، والشجر وثنًا، وكل معبود يكون وثنًا حتىٰ المال يكون وثنًا إذا كان قصد الإنسان بالعمل المال، فقد جاء ما يدل علىٰ هذا كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**»[(١)]، فسمَّاه عبدًا له؛ لأنه يعمل لأجله.

وقوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، يدل علىٰ أن الهوىٰ يُعبد وهو صريح، بل هو أكبر معبود من دون الله علىٰ وجه الأرض، كما هو الواقع الآن.

قوله: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين»: هذا أيضًا من عجائب بني آدم، فكيف المسلم يقرأ في كتاب الله جل وعلا: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وغير هذه من النصوص علىٰ أنه خاتم النبيين، وأن النبيين خُتموا به، ثم يُصدق أن من ادعىٰ أنه نبي فيتبعه، وقد بدأ هذا في حياة الرسول ﷺ فادعىٰ الأسود العنسي في صنعاء أنه نبي واتُّبع علىٰ هذا، وصار له قوة وسلطانًا حتىٰ قيض الله قتله في وقت النبي ﷺ قبل موته، وكذلك مسيلِمة ادعىٰ النبوة، واتبعه بنو حنيفة علىٰ ذلك، وصار قتال عظيم بينه وبين الصحابة، حتىٰ قتل من الصحابة عدد كبير في واقعته، وهذا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جاء في صحيح البخاري رقم (٤٣٧٩): قال عبيد الله بن عبد الله: سألت عن عبد الله بن عباس عن رؤيا رسول الله ﷺ التي ذكر فقال ابن عباس: ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم أريت أنه وضع في يدي سواران من ذهب ففظعتهما وكرهتهما فأذن لي فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان**». فقال عبيد الله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة الكذاب.

وكذلك طليحة الأسدي[1] أيضًا ادعىٰ النبوة واتبعه عليه قومه، وقاتله خالد بن الوليد ﷺ، ثم هزمه وهزم قومه، وهو الذي قتل عكاشة بن محصن، ولكنه كما يقول المؤرخون: تاب وقاتل في قتال الفرس حتىٰ قتل شهيدًا.

وكذلك سجاح في بني تميم امرأة ادعت النبوة، وآمن بها قومها واتبعوها، ويقال: إنها تابت، فهذه في وقت مبكر، ثم تتابع الكذابون وليس المقصود كل من يدعي النبوة، فإن هذا لا حصر له، ولكن بعضهم يكون مريضًا، وإنما المقصود الذي يكون له قوة وسلطان يُتبع عليه.

ومنهم المختار ابن أبي عبيد في وقت خلافة ابن الزبير، قام في العراق أول الأمر أحبه الناس واتبعوه؛ لأنه صار يتتبع قتلة الحسين فقتل أكثرهم، أو الذين شاركوا في قتله فأحبوه من أجل ذلك، ثم جاءه الشيطان وزين له أنه يوحىٰ إليه فادعىٰ النبوة، ثم قاتله مصعب بن الزبير وقتله من أجل ذلك.

وقوله: «كلهم يزعم أنه نبي»: والمقصود: أن هذا العدد الذي ذكره الرسول ﷺ كما يقول القاضي عياض: عُدَّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلىٰ الآن ممن اشتهر بذلك، وعرف واتبعه جماعة علىٰ ضلالته، فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا. قال الحافظ ابن حجر[2]: وليس المقصود كل من ادعىٰ النبوة فهذا لا حصر له، ولكن الذين كان لهم قوة واتباع بلغوا هذا العدد، وإنما بقي الكذاب الكبير الذي سيأتي، وهو الدجال.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١(٣/ ٨٧) وفيه: وفي حديث ابن الزبير: «أن بين يدي الساعة ثلاثين كذابًا منهم الأسود العنسي صاحب صنعاء وصاحب اليمامة يعني مسيلمة، قلت: وخرج في زمن أبي بكر طليحة بالتصغير بن خويلد وادعىٰ النبوة ثم تاب ورجع إلىٰ الإسلام، وتنبأت أيضًا سجاح ثم تزوجها مسيلمة ثم رجعت بعده».

(٢) فتح الباري (٦/ ٦١٧) قال ﷺ: وليس المراد بالحديث من ادعىٰ النبوة مطلقًا فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة ومن قامت له شبهة.

ولكن بعد هذا القول جاء أيضًا من ادعىٰ النبوة وصار له أتباع عدد هم كبير، ومن آخرهم غلام أحمد القادياني الذي ادعىٰ النبوة وصار له أتباع وقوة ولا يزال له أنصار، يساعده الإنجليز وغيرهم ويبذلون لهم الأموال؛ لأنهم يفسدون دين الإسلام.

وقال: «ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة»: ولا تزال؛ يعني: أنها ستستمر، وهذا معناه الدوام وأنها لا تُفقد؛ يعني: ما يأتي وقت تكون مفقودة هذه الطائفة بل هذا يدل علىٰ الاستمرار من وقت الرسول ﷺ إلىٰ قيام الساعة. ولكن الكلام في الطائفة ما هي؟

يقول النووي رحمه الله: تطلق علىٰ جماعة، وقد تكون هذه الجماعة كبيرة، وقد يكون لها قوة وسلطان وجيش وراية تخفق وجهاد في سبيل الله، ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أنواع أخرىٰ من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض. وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالىٰ من زمن النبي ﷺ إلىٰ الآن، ولا يزال حتىٰ يأتي أمر الله المذكور في الحديث، وفيه دليل لكون الإجماع حجة وهو من أصح ما استدل به من الحديث»[(١)].

وقد تقل حتىٰ يصدق علىٰ أن تكون واحدًا، ثم قال: والطائفة المنصورة في دولة المأمون هو الإمام أحمد وحده ومن كان علىٰ نهجه، فإنه هو الذي قام في وجه الباطل وصمد وصبر، ولم يقم في هذا الأمر غيره فصار هو الطائفة المنصورة، وهذا من العجب؛ لأن معنىٰ ذلك أن الخليفة والقضاة والقواد ليسوا هم الطائفة المنصورة، بل هو هذا الرجل وحده؛ لأنه هو الذي ثبت علىٰ الحق.

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (٣/ ٦٧).

فالمقصود أن هذه الطائفة لا تزال، ثم قد جاء وصف هذه الطائفة في بعض الروايات مكانها وتسميتها في حديث معاذ الذي جاء في صحيح البخاري أنه قال: «**وهم في الشام**»(١)، وفي رواية: «**في بيت المقدس**»(٢)، بيت المقدس من الشام لا يختلف ذلك، ولكن جاء في أحاديث أخرىٰ: «**هم العرب**»، وفي أحاديث أخرىٰ: «**هم أهل الغرب**»(٣) الغرب ليس معناه الجهة معناه: الدلو الكبيرة الذي ينزع به الماء كما هو معروف.

وكل هذا لا يدل علىٰ أن الطائفة تتعين في هؤلاء، ولكن تدل علىٰ أن هذه الطائفة تكون من هؤلاء في وقت من الأوقات ولا يمنع أن يكون من غيرهم.

وهذا فيه بشارة عظيمة من الرسول ﷺ أن الحق لا يزال قائم، والآية العجيبة أنه: «**لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم**».

والخذلان يكون ممن هو علىٰ عقيدتهم، ولكنه لا ينصرهم ولا يساعدهم بل يتوقف ويخذلهم.

أما الخلاف يكون ممن يخالفهم عقيدة ومنهجًا، فذكر أنه لا يضرهم الخذلان ممن هو يعتقد صوابهم، وأنهم علىٰ الحق، ولا من يخالفهم ويقاتلهم.

واستدل العلماء بهذا علىٰ صحة إجماع الأمة؛ لأنها إذا اجتمعت الأمة ففيها هذه الطائفة، وقد شهد الرسول ﷺ لهم علىٰ أنهم علىٰ الحق فيلزم من ذلك أن يكون الإجماع حقًا وهذا فرد من أفراد الأدلة علىٰ هذا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (٢٢٣٢٠) عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس**» وأخرجه الطبراني في الكبير رقم (٧٥٤).

(٣) رواه مسلم رقم (١٩٢٥).

قوله: «**حتىٰ يأتي أمر الله ﷻ**»: في رواية «**حتىٰ تقوم الساعة**»: وهذه الرواية هي رواية خالد الجهني عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد، وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم، فبينما هم علىٰ ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله؟ فقال عقبة: هو أعلم وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون علىٰ أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتىٰ تأتيهم الساعة وهم علىٰ ذلك**»، فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفسًا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقىٰ شرار الناس عليهم تقوم الساعة»[1].

قوله: «**أمر الله**»: هو ما ذكره عبد الله بن عمرو وهو المقصود بالساعة في بعض روايات الحديث؛ يعني: ساعتهم التي جعلهم الله يموتون فيها.

وقوله: « **تبارك وتعالىٰ**»: تبارك من البركة؛ يعني: تعاظم، والبركة نوعان: نوع هي صفة الله ﷻ. ونوع: هي فعله. فالله ﷻ هو المبارِك علىٰ من يشاء وإذا بارك في شيء فهو المبارك.

وتكون من إضافة الصفة إلىٰ الموصوف والفعل منها تبارك، أما النوع الثاني الفعل منها بارك، ولهذا لا يجوز أن يقال لأحد من الخلق تبارك، هذا خاص بالله ﷻ، فالبركة من الله ﷻ.

أما «**تعالىٰ**»، فهي من العلو، والله ﷻ له العلو المطلق علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

وهذا الحديث من دلائل النبوة، فكل جملة فيه تدل دلالة واضحة علىٰ أن

(١) رواه مسلم رقم (١٩٢٤).

الرسول ﷺ جاء من عند الله. ودلائل النبوة من الأمور التي ينبغي للعبد أنه يعتني بها؛ لأنها تثبت الإيمان وتزيده.

وقد يعرض للإنسان بعض الشبه التي يلقيها أعداء الله، فهم يتلمسون مواقع الضعف عند الناس في العقيدة ، فيأتون بشبه يشبهون بها على الذين لم يتمكنوا من العلم.

ودراسة سيرة رسول الله ﷺ كفيلة بأن يكون العبد على ثقة تامة بصدقه، وأنه رسول من عند الله مع أن تأمل أحواله يكفي، فهل يُعقل أن يأتي عاقل إلى قوم كفار وهو وحده ليس له دولة ولا قوة يستند إليها من البشر ومن المادة، ثم يتحداهم ويقول لهم: أرسلت إليكم بالذبح إن لم تستجيبوا لي وتؤمنوا بي فإن الله سيسلطني عليكم فآخذ أموالكم، وأقتل رجالكم وأستولي على بلادكم، فهل يمكن لشخص عاقل يأتي للأعداء بهذا الكلام وهو وحده؟ معنى هذا أنهم يسرعون إلى قتله بكل ما يستطيعون، لا بد أن يكون هذا نبي من الأنبياء الذين حماهم الله ﷻ، فهذا من الدلائل على صدقه.

وقد سمعت في بعض أشرطة الناس التي تنشر الآن كلامًا سيئًا في الواقع، وهو قياس الرسول ﷺ على الناس فيذكر شيئًا من هذا ويقول: هذا من الشجاعة. هذه ليست من الشجاعة هذه من النبوة، هذه من الثقة بالله ووعده، مثل قصته مع أبي جهل والأعرابي، رجل جاء بجمل إلى مكة فاشتراه أبو جهل فصار يماطله بحقه فجاء إلى جمع من كبار قريش وهم جالسون عند الكعبة فشكا إليهم قال: ألا أحد ينصفني من هذا الرجل ويأخذ حقي منه، أنا غريب ولي وقت وأنا أطالبه وهو يماطلني؟ فقالوا يستهزئون به: انظر إلى ذاك الرجل الذي يصلي هو الذي يأخذ حقك- يعنون: رسول الله ﷺ، وهم يعرفون العداوة التي بين الرسول ﷺ وبين أبي جهل- فذهب إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه، فقال: نعم اتبعني، فذهب معه،

فطرق الباب علىٰ أبي جهل فقال: أدي حق هذا إليه، فلما رآه انتقع وجهه، وقال: سمعًا وطاعة الآن آتي به، فدخل فجاء بحقه فأعطاه إياه.

وقد أرسلوا رجلًا ينظر ماذا يكون فجاء يتعجب قال: رأيت عجبًا ما هو إلا أن طرق عليه الباب فكأن الرجل نزل عليه أمر ليس سهلًا حتىٰ تغير لونه وذهب وقال: سمعًا وطاعة وجاء بحق الرجل فأعطاه إياه بدون تلكؤ وبدون إباء، فبينما هم جالسون إذ جاءهم أبو جهل، قالوا: ما شأنك؟ قال: شأني والله لو امتنعت. ثم ذكر هذا صاحب الشريط وقال: هذا من الشجاعة بل هذه من الآيات.

المقصود أن هذا الحديث فيه دلائل كثيرة، وسبق قوله: «**إن الله زوىٰ لي الأرض**» هذا أيضًا منها، والعلماء لهم في قوله: «**زوىٰ**» قولان:

أحدهما: أن المعنىٰ أنها مثلت لي كهيئة الشيء المجموع، أن هذا تمثيل للأرض، وهذا القول مرجوح.

الثاني: أنه علىٰ ظاهره، أن الله أزال الحواجز وأعطاه في بصره ما يستطيع أن ينظر إلىٰ مشارقها ومغاربها فيكون علىٰ ظاهره، ولكن الزوي معناه الجمع، فهو جمعها فصارت أمامه ينظر إليها، وهذا مثل ما وقع له صلوات الله وسلامه عليه في الإسراء لما قال له الكفار: صف لنا بيت المقدس؛ لأنه ما سبق أن ذهب إلىٰ بيت المقدس، وكان عليه الصلاة والسلام أتىٰ إليه ليلًا ولم يتأمله، فرُفع إليه فصار ينظر إليه ويصفه لهم[1].

وكذلك قوله ﷺ كما في صحيح مسلم: «**إني لأرىٰ قصر بصرىٰ**» في حديث، وما أشبه ذلك، فكل هذا من الدلائل الواضحة علىٰ نبوته ﷺ، وهي آيات من آيات الله جل وعلا جعلها الله جل وعلا علىٰ صدق الرسول ﷺ دلالة وعلامة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٨٨٦)، ومسلم رقم (١٧٠) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لما كذبني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**».

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الآيات التي ذكرت كلها في أهل الكتاب، غير أن آية الكهف في الذين غلبوا علىٰ هؤلاء الذين اطلعوا علىٰ أهل الكهف بعد الاختلاف ماذا يصنعون أيبنون عليهم مسجدًا، وهذا من باب الذم لهم؛ لأن بناء المساجد علىٰ الأموات من دواعي الشرك وأسبابه ولا يكون فاعله إلا آثمًا، فهو جاء من باب التحذير للأمة أن تفعل كفعلهم.

الثانية: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

هو الأخير؛ يعني: هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها، والذي عين ذلك أسباب النزول والقرائن التي حُفَّت بذلك؛ لأن أهل الكتاب أهل علم ويعلمون أن الشرك باطل ويكرهونه ولا يفعلونه، ولكن دعاهم الحسد والكبر أن لا يتبعوا الحق، فدفعهم ذلك إلىٰ موافقة المشركين في الظاهر عنادًا وبغضًا للحق.

الثالثة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلًا من المؤمنين.

وهذا أيضًا من أسباب كفرهم ولعنهم كونهم فضَّلوا المشركين علىٰ المؤمنين، وقطعًا أنهم يعلمون أن المؤمنين أفضل منهم وأهدىٰ سبيلًا، ولكن الحسد والكبر هو الذي حملهم علىٰ ذلك.

الرابعة: وهي المقصودة بالترجمة: أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

«**أن هذا**»: إشارة إلىٰ المتقدم كله مثل تفضيل الكفر علىٰ الإيمان؛ يعني: تفضيل أحكام الطواغيت علىٰ شرع الله جل جلاله، ولا يلزم أن يكون كلهم يعني طوائف

منهم وكونهم أيضًا يبنون على القبور كما بنت اليهود عليها، وكذلك يكونون مع الكافرين طائفة منهم على المؤمنين كما كان هؤلاء مع الكافرين على المؤمنين، وكذلك يقع في هذه الأمة من يلعنه الله ويغضب عليه، وكذلك يقع فيها من يمسخه الله ﷻ قردة وخنازير، ومن يقذفه الله ﷻ بالحجارة كما جاءت الأخبار بذلك عن رسول الله ﷺ؛ لأن هذا مذكور في آية المائدة، وذلك إذا تحيلوا على الحرام واستباحوه؛ لأن اليهود حُرمت عليهم الحيتان في السبت فوضعوا آلات الصيد من الحفر وغيرها مما يُمسك السمك ويبقيه في الماء حتى يخرج يوم السبت فيأخذوها من الماء ولكن قد أمسكتها الآلات، فهذه حيلة فيزعمون أنهم أخذوها ليلة الأحد؛ لأن يوم السبت ذهب، فلما تحيَّلوا على ما حرم الله ﷻ، مسخهم الله ﷻ إلى هذا الحيوان الذي هو أقرب شبه للإنسان، لأن عملهم هذا فيه شبه من الشيء الحلال ولكنه حيلة فصار جزاؤهم من جنس فعلهم، والمقصود أن هذه الأمة تتحيل، كما تحيل اليهود بخبر الرسول ﷺ، وأنهم يعاقبون كعقابهم ويكون ذلك لطائفة وليس هذا لكل الأمة.

۞ **الخامسة: التصريح بوقوعها؛ أعني: عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.**

وكذلك عبادة الطاغوت، وكذلك من يلعنه الله ﷻ، وكذلك من ضل من العلماء فهو مشابه لهم فيكون ملعونًا - نسأل الله العافية - الضلال أن يستبدل بالحق الضلالة ويكون ذلك عن قصد وعمد وإرادة فيستحق بذلك اللعنة كما استحق اليهود بفعلهم ذلك، بل إذا فعلوا ذلك فعقابهم أشد من عقاب اليهود؛ لأن من كان دينهم أفضل ونبيهم أفضل، فالمناسب أن يكون عقابهم أشد.

۞ **السادسة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق. وفيه: أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح،**

وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

لأن الإنسان من أعجب المخلوقات، فلو مثلًا: ظهر الشيطان بصورته الحقيقية للناس ودعا الناس، لن يعدم تابعًا، لا بد أن يتبعه من يتبعه، وهذا من العجائب.

السابعة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

وعرفنا أن قيام الساعة المقصود به الريح التي تأتي وتقبض كل مؤمن، ثم لا يبقىٰ إلا شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة؛ يعني: النفخ في الصور.

الثامنة: ما فيه من الآيات العظيمة.

منها: إخباره بأن الله زوىٰ له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنىٰ ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال. وإخباره بأنه أعطي الكنْزين. وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين. وإخباره بأنه مُنع الثالثة. وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة. وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

الباب الرابع والعشـــرون

قال المؤلف رحمه الله**: باب ما جاء في السحر.**

سبق أن المؤلف رحمه الله بعد ما ذكر وجوب التوحيد، ووجوب الإخلاص، وكذلك الدعوة إلىٰ التوحيد والخوف من الشرك، وذكر تفسير التوحيد، ثم قال بعد ذلك وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب يعني إلىٰ آخر الكتاب، فكله شرح وتفسير لشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا الباب من ذلك، والتفسير قد يكون بإيضاح الجمل لغة وكذلك اصطلاحًا وتبيين ذلك، وقد يكون بذكر ضده كما قيل: «وبضدها تتبين الأشياء».

قوله: «باب ما جاء في السحر»؛ يعني: من النصوص، ويستنبط من ذلك حكمه.

والسحر في اللغة: هو ما خفي ولطف سببه، ولهذا يخفىٰ علىٰ كثير من الناس، فهو لا يدرك بالأمور الظاهرة ومنه ما جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحرًا**»(١)؛ لأن السامع يخيل له أن الكلام الذي سمعه من المتكلم حق فيغطي علىٰ الباطل، فيسحر من سمعه، ومنه السَّحَر الذي يكون آخر الليل لأنه يأتي خفيًا.

ومعناه في الاصطلاح: عزائم وعقد وتمائم وأدهنة وأبخرة تؤثر في القلوب وفي الأبدان، وتفرق بين المرء وزوجه، وله حقيقة كما يقول أهل السُّنَّة، وهو أنواع متعددة، وبعض أنواعه يسمىٰ سحرًا من باب التغليب مثل العزائم والتدخين.

والمؤلف رحمه الله فيما يظهر أنه يرىٰ أن السحر من الشرك وأنه ينافي التوحيد وهذا يؤخذ من استدلاله بالآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ

(١) رواه البخاري رقم (٥١٤٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا أو إن بعض البيان لسحر**».

وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والذي ليس له في الآخرة من خلاق -يعني: نصيب- فهو في النار.

وقد اختلف العلماء في ذلك، فالشافعي رحمه الله يرىٰ أنه من الكبائر إلا إذا اشتمل علىٰ الكفر يقول: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر -مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلىٰ الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها- فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر. انتهىٰ. وكونه من الكبائر هذا أمر متفق عليه وإذا كان من الكبائر فهو منقص للتوحيد ومذهب لكماله ومعرض صاحبه لعذاب الله جل وعلا.

وذهب طائفة من السلف إلىٰ أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء لا يضر فلا يكفر.

والصواب أنه أنواع، منها ما هو شرك وكفر، وهو ما كان بواسطة الشياطين، وهذا هو مناسبة ذكره في كتاب التوحيد، ولهذا يستهين الساحر بكتاب الله وبدينه وأسمائه وصفاته حتىٰ يتقرب بذلك للشيطان، ثم يعمل الشيطان عمله فتتعاون النفوس الخبيثة علىٰ الشر، فيحصل الأذىٰ للمسحور، فالسحر الحقيقي لا يكون إلا مع الشرك.

والسحر صناعة، كل من تعلمه يكون ساحرًا، فهو من الصناعات ومن الأمور التي تعرف وتدرك بالتعليم، لكنه من العلوم الخبيثة التي هي من علوم الشرك والكفر بالله جل وعلا، فهذا هو مناسبة ذكره في كتاب التوحيد لأنه إما أن يكون مضادًا للتوحيد، أو مُذهبًا لكماله ومُنقصًا له ومعرضًا صاحبه لعذاب الله جل وعلا.

ولقد كثر السحر في الناس هذه الأيام، وسوف يأتي في المسائل أن منه الصرف والعطف، والصرف هذا من أسهل أنواعه وهو ما يسمونه محببًا يعني يحبب الزوج

إلىٰ زوجته أو بالعكس أو غيرها، وهو نوع من أنواع السحر، منتشر الآن، وقد يكون أعظم من هذا، ولا يكون هذا إلا بواسطة الشياطين، ولكن إذا احتمىٰ الإنسان بذكر الله ﷻ وبالمعوذات فإنه لا يضره ولا يصل إليه، لأن الشياطين لا تستطيع الذي يتحصن بذكر الله ﷻ وهم دائمًا يتحينون الفرص، ووقت الغفلة، فيأتون الإنسان في وقت غفلته عن ذكر الله ﷻ، فقد يجدون فرصة يؤذون الإنسان ، أما إذا كان دائمًا علىٰ ذكر الله متحصنًا به تاليًا لكتاب الله ﷻ، فإنه لا يستطيع الشيطان أن يقربه، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»(١).

فإذا احتمىٰ العبد بذكر الله وباللجوء إليه فإنه يكون محروسًا من الشيطان، ولذلك غالبًا أن السحر وملابسة الجن لا يصيب إلا الجهلة والغافلين عن ذكر الله، والمتلبسين بالأغاني والصور التي تكون مجلبة للشياطين ومطردة لملائكة الله ﷻ، غير أن الله ﷻ إذا أراد شيئًا وقضىٰ أمرًا فلا بد أن تهيأ الأسباب له، فلا بد أن يحصل غفلة ويحصل سهو وما أشبه ذلك حتىٰ ينفذ أمر الله ﷻ، وكل هذا بإذنه ﷻ الكوني القدري.

والسحر قديم جدًا في الأمم، ولهذا نجد في كتاب الله في قصص الأمم أنهم يرمون أنبياءهم بأنهم سحرة، أو أنهم مسحورون، من قوم نوح عليه السلام وما بعده، والله ﷻ أخبرنا أن فرعون ووزراءه وعظماء دولته جلبوا السحرة وجاؤوا بسحر عظيم كما في قوله ﷻ:﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف :١١٦] وقوله : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ [الشعراء: ٤٤] فصار يخيل إليهم أنها تسعىٰ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وفيه قولان للمفسرين سواء بالتخييل أو بالفعل، فمنهم من قال إنه يخيل للناظر أنها تسعىٰ،

(١) رواه مسلم رقم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فمعنىٰ هذا أنهم وهذا نوع من السحر وهو التخييل، فيخيل للإنسان أنه يدخل في الحيوان ويخرج منه مثل ما جاء في قصة جندب الذي قتل الساحر في زمن الوليد، كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيي الموتىٰ! ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملًا علىٰ سيفه، فلما ذهب يلعب لعبته اخترط سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقًا فليحيي نفسه. وتلا قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣] فغضب الوليد إذا لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم(١). وهذا في نظر الناس، فهو تخييل، ولا يمكن أن يقتلها ثم يحييها، وإنما هو تخييل في أعين الناس.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**حدُّ الساحر ضربة بالسيف**» رواه الترمذي(٢). وفي رواية: «**ضربُهُ بالسيف**»(٣)، وكلاهما صحيح.

أما قلب الحقائق كونه يقلب الشيء إلىٰ خلاف ما هو عليه، كثير من العلماء ينكر هذا ويقول إنه لا يمكن، والله ﷻ أعطىٰ موسىٰ ﵇ آية من هذا النوع، ولكنها لا يمكن أن تكون سحراً لأنها عصا حقيقية إذا ألقاها صارت ثعبان كبير ومع هذا يسرع مثل سرعة الجان، فمع كبرها تتقلب بسرعة، وكانت تلتقط ما أمامها، فلما وقع ذلك آمن السحرة كلهم لأنهم علموا أنه ليس بسحر، إنما هي آية ولا يمكن أن تكون سحراً.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٥)، والبيهقي رقم (١٦٩٤٤).

(٢) رواه الترمذي رقم (١٤٦٠) من حديث جندب، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا مرفوعًا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري، قال وكيع: هو ثقة ويروي عن الحسن أيضًا، والصحيح عن جندب موقوف، والعمل علىٰ هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم.

(٣) أخرجه البيهقي رقم (١٦٩٤٢).

وبعض المعتزلة أنكر وجود السحر وقالوا أنه مجرد تخيل في أعين الناس ولا وجود للسحر، وقالوا أيضًا أنه لا يمكن أن يُمرِض ولا يمكن أن يقتل، وأنكروا أن يكون الرسول ﷺ سُحر، مع أن الحديث في الصحيحين، والسبب في إنكارهم أنهم يقولون لو أثبتنا هذا لالتبس الأمر بآيات الرسل ومعجزاتهم، وهذا حسب عقولهم وأنظارهم، وإلا لا يمكن أن يكون الساحر ملتبسًا بالنبي؛ لأن الساحر شيطان من أخبث الخلق، والنبي تقي نقي من أبر الخلق، ولهذا لما قال هرقل وهو من علماء أهل الكتاب: هل عرفتم عليه الكذب؟ هل يأمركم بشيء ويخالفه؟ ثم قال بعد ذلك: إن كنت صادقًا فوالله ليملكنَّ ما تحت قدمي، فإنه نبي فهو سأله عن أحواله.

ومثل ذلك قول خديجة ﵂ وهي كانت راجحة العقل، فلما قال: «**لقد خشيت على نفسي**». فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[(١)]، فهي استدلت بهذه الأحوال على أنه لا يأتيه الشيء الذي يأتي من قبل الشياطين، فالمقصود أن إنكارهم له لا وجه له في الواقع، وليس هذا من الشبه التي يمكن أن تلتبس، يعني أحوال السحرة لا تلتبس بأحوال الرسل.

قال المؤلف ﵀: **وقول الله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

يعني: علم اليهود والذين يتلون على ملك سليمان ويتَّبعون ما تتلوه الشياطين: يتبعون ما تقوله الشياطين وتكذب على الناس فيه ويزعمون أن سليمان ساحر، وأنه بسحره استطاع أن يُسخر ملوك الجن وكبرائهم، فملوك الجن كانوا مسخرين له بأمر الله ﷻ يعملون حسب أمره، فاليهود كذبوا، فهم يجعلون سليمان ملكًا وليس

(١) رواه البخاري رقم (٣)، ومسلم رقم (١٦٠).

نبيًا، قاتلهم الله، وفي الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: «**إن عفريتًا من الجن تفلت عليَّ البارحة- أو كلمة نحوها- ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلىٰ سارية من سواري المسجد حتىٰ تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]». قال روح: فرده خاسئًا(١).

فالمقصود أنه رسول ملك، وقد خير الله ﷻ نبينا ﷺ بين أن يكون نبيًا ملكًا أو عبدًا نبيًا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا ﷺ، وليس هذا معناه أن سليمان ليس عبدًا لله ﷻ، بل هو عبد لله ﷻ من عباده الكرماء علىٰ الله، ولكنه سأل ربه أن يهب له ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فسخر الله له الشياطين وسخر له الريح وكذلك سخر له الأمور الطبيعية مثل النحاس: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢]، القطر يقولون: إنه النحاس، فصار يسيل كالماء يصرفه كيف يشاء، ومعلوم أن هذا في الوقت الحاضر وغير الحاضر لا بد من نيران توقد عليه حتىٰ يسيل كما ذكر الله ﷻ في قصة ذي القرنين أنه أمر بالنفخ عليه حتىٰ سال ثم صبه علىٰ الحديد، وعلىٰ السد الذي بناه ليتماسك.

فالمقصود أن ملك سليمان ﵇ لا ينبغي لأحد من بعده، ولهذا خشي الرسول ﷺ أن يكون خلاف دعوته فتركه، فالمقصود أن اليهود اتبعوا الكذب الذي كذبته الشياطين فإنهم كتبوا كتب السحر ودفنوها، فلما توفي سليمان ﵇ وذهبت فترة أخرجوا هذه الكتب وقالوا هذه الكتب التي كان سليمان يسخر الجن بها وهي كتب سحر، فزعم اليهود أن هذا هو الحقيقة، وهذا من الكذب الذي تعاونت عليه شياطين الإنس وشياطين الجن، ولهذا أبطله الله ﷻ في كتابه قال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا

(١) رواه البخاري رقم (٤٦١)، ومسلم رقم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﵁.

تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] تتلوا يعني تقرؤه وتذكره وتخبر الناس به: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وهذا أيضًا يدل على أن السحر كفر صريح ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ ﴾، والآية فيها أدلة تدل على أن السحر كفر، ولكن المؤلف رحمه الله اقتصر على آخرها.

قوله: «﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ ﴾»؛ يعني: اليهود بما عندهم من الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام علموا ذلك من كتاب الله الذي هو التوراة أن من اعتاض بالسحر عن الإيمان أنه ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ من نصيب هذا هو معنى الآية؛ لأن معنى ﴿ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ أخذه عوضًا عن الإيمان واتباع الرسول، أخذوا السحر بدل الإيمان، وهذا يدل على أن الإيمان لا يجامع السحر، إذا وجد السحر فُقد الإيمان، وإذا كان الإيمان موجودًا فلا يكون هناك سحر لأنهما متضادان.

وقوله: «﴿مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾»: الخلاق هو النصيب والحظ. وهذا يدل على أن الساحر كافر، والذي ليس له في الآخرة من نصيب فهو كافر -نسأل الله العافية-.

وكذلك في الآية قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾، فدل هذا أيضًا على أنه كفر وأخبر الله جل جلاله أن الساحر لا يفلح حيث أتى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩] وهذا يدل أيضًا على أنه كفر.

فهذه الآيات تدل على أن الساحر كافر وهذا الذي حققه كثير من المحققين وقالوا: إن السحر الحقيقي لا ينفك عن الشرك، ولا يقع إلا بواسطة الشياطين، والشياطين لا تطيع الناس إلا إذا خدموهم وجاؤوا بالشيء الذي يرضيهم، وهم لا يرضيهم إلا الكفر والشرك وترك الإيمان.

فجمهور العلماء على أنه كفر وهو قول الإمام أحمد والإمام مالك والإمام أبي حنيفة رحمهم الله.

وذهب الشافعي رحمه الله إلىٰ أنه لا بد أن يكون مشتملًا علىٰ الكفر وإلا لا يحكم بأنه كفر، وعلىٰ ذلك يكون حكم فاعله لأن الشافعي رحمه الله يقول: نقول لساحر صف لنا سحرك، فإن وصفه بما يقضي الكفر حكمنا عليه بأنه كفر وأنه يكون بذلك كافر، وإن وصفه بما يدل علىٰ أنه ليس كفر وليس فيه شرك لم نحكم عليه بأنه كفر.

وبهذا يتبين أن الخلاف ليس خلافًا معنويًا؛ لأن الذين يعرفون السحر يقولون: إنه لا ينفك عن الشرك، ولا يمكن لسحر أن يوجد إلا مع الشرك؛ لأنه بواسطة الشياطين، والشياطين لا يأتون بالسحر إلىٰ الإنسان حتىٰ يطيعهم في عبادتهم ويكفر بالله جل وعلا، أما ما كان من العزائم والرقىٰ والتدخين والأبخرة وغير ذلك، فهذا يقولون ليس سحرًا، وإنما هو سحر من باب التغليب؛ كالنميمة مثلًا، فإذا تبين هذا دل علىٰ أنه ليس فيه خلاف.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالىٰ:** ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وهذه الآية تقدمت في الباب الذي مضىٰ، والمقصود هنا الجبت لأنه ذكر بعد هذا أن عمر رضي الله عنه فسر الجبت بالسحر، أما الطاغوت فإنه فسره بالشيطان(١). وابن كثير رحمه الله في تفسيره يقول: هذا تفسير جيد(٢)؛ يعني: تفسير الطاغوت بالشيطان، ذلك أنه عام، لأن الشيطان ، لا يقنع بالمعصية القليلة، فليس معنىٰ ذلك أن

(١) صحيح البخاري ٨٧، باب قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [المائدة: ٦] وقال جابر: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان. وقال عمر: الجبت السحر والطاغوت الشيطان. وقال عكرمة: الجبت بلسان الحبشة شيطان والطاغوت الكاهن. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٩٨) عن عمر قال: «الجبت: السحر». وروي عن أبي العالية، ومجاهد، والشعبي في إحدىٰ الروايات، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء الخراساني، وسعيد بن جبير نحو ذلك.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٣)، ومعنىٰ قوله في الطاغوت: إنه الشيطان قوي جدًا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.

الشيطان ذاته فقط، ولكن الشيطان وما يأمر به، وما يرضىٰ به كله يدخل في هذا.

أما الجبت يقولون هذه الكلمة أصلها ليست عربية لأنهم يقولون إنه ما اجتمعت الجيم والباء في كلمة عربية، وعلىٰ هذا يقولون أن أصلها معربة، ولكن شيخ الإسلام ينكر هذا الشيء ويقول: كل ما تكلم به العرب فهو عربي، سواء كان اشتقاقه من أشياء معينة أخذ منها أو من لغات أخرىٰ أخذوها، فهم يتكلمون بالعربية والقرآن ليس فيه شيء غير عربي، لأن الله ﷻ وصفه بأنه عربي مبين، والمسألة فيها خلاف بين العلماء، ولكن هذا هو الظاهر الذي يقوله شيخ الإسلام ﷀ.

وأهل اللغة يفسرون الجبت بأشياء عامة: يقولون: الجبت الشر كله، وكل ما لا خير فيه بل ليس فيه إلا الضر فليس مقصورًا علىٰ السحر، ولكن تفسير السلف ﷭ يفسرون الأشياء العامة بأفراد من معانيها وما دلت عليه، بحسب حاجة السامع، ولهذا تأتي التفسيرات في هذا كثيرة عن الصحابة وليس هذا من اختلاف التضاد لأن الاختلاف نوعان: اختلاف تضاد واختلاف تنوع. واختلاف التنوع كونه ينوع الكلام والعبارات حسب الحاجة، حاجة السامع حتىٰ يفهم، وهذا كثير جدًا، فالخلاف الموجود عن السلف في التفسير وغيره من هذا القبيل؛ يعني: من خلاف التنوع فإذا كان الجبت هو السحر فهذا فرد من أفراد معنىٰ الجبت فهو داخل فيه بلا شك، ولهذا قصره عمر ﷛ عليه قال: الجبت السحر.

وهذا أيضًا في ذكر ذم أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وسبق قول المؤلف ﷀ: تأمل ما الإيمان هنا؟ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها

ومعرفة بطلانها؟.[1] وهذا مراده لأنه وافقوهم في الظاهر فقط مع اعتقادهم أن هذا الذي وافقوهم عليه باطل وأنه كفر، ومع ذلك أخبر الله ﷻ عنهم أنهم يؤمنون به، فعلىٰ هذا إذا وافق الإنسان علىٰ الشر وعلىٰ الكفر ولو كان في عقيدته أنه لا يرضىٰ به، فإذن يكون حكمه حكم الكافر - نسأل الله العافية -.

فهذا في ذكر أهل الكتاب، فما وجه الاستشهاد بالآية علىٰ أن السحر كفر وأنه مضاد للتوحيد؟ لأنه إذا كان في اليهود، فهذه الأمة بريئة مما تفعله اليهود، والوجه هو ما تقدم أن المؤلف يقول: إن الذي صنعته اليهود وفعلته لا بد أن تفعله هذه الأمة لقول الرسول ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»[2]، فمعنىٰ ذلك أن هذا واقع فينا؛ يعني: في الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لخبر الرسول ﷺ وللواقع، وما ذكر في القرآن عن اليهود والنصارىٰ ليس المقصود به هم فقط، وإنما المقصود نحن لأن لا نفعل ما فعلوا حتىٰ لا نكون مثلهم.

فهذا يدلنا أن الراضي بالعمل يكون كالفاعل لا فرق، لأن الله هنا نسب الاشتراء في قوله: ﴿لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ [البقرة: ١٠٢] لجميعهم، وإن كان الذي عمله بعضهم، وكذلك مع الآية الأخرىٰ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] معلوم أن الذين نزلت فيهم الآية هما حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، رجلان من أحبار اليهود ورؤسائهم، فنسب العمل لجميعهم؛ لأنهم راضون بهذا.

فإذا وافق الإنسان علىٰ أمر في الظاهر وهو كفر يكون بذلك كافرًا ولا يستثنىٰ من هذا إلا المكره بشرط أن يكون قلبه مطمئن بالإيمان، وهذا من أبلغ ما يرد به علىٰ المرجئة.

---

(١) الباب الثاني والعشرون المسألة الرابعة: قال: وهي أهمها: ما معنىٰ الإيمان بالجبت والطاغوت؟

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رحمه الله: **وقال جابر** رضي الله عنه: **الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد. (رواه ابن أبي حاتم)**[١].

الطواغيت: جمع طاغوت والطاغوت فاعول؛ يعني: أخذ من الطغيان، والطغيان هو تجاوز الحد الذي حده الله جل وعلا للمخلوق، ومعلوم أن المخلوق حده أن يكون عبدًا لله جل وعلا لا يكون مشاركًا لله جل وعلا في السلطان وفي الكبرياء وفي العلو، يجب أن يكون عبدًا لله جل وعلا، فإذا تجاوز هذا صار طاغوتـًا، ولهذا عرَّف ابن القيم رحمه الله الطاغوت بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع[٢].

فجعل هذه الأقسام الثلاثة التي تدور في الناس، ثم قال بعد ذلك: وهذه طواغيت العالم إذا تأملتها ونظرت فإذا الأرض مملوء من هذه الطواغيت فلا يخلو الأمر في اتباع المخلوق الذي تجاوز حده أنه يتبع على أنه معبود، أو أن يتبع على أنه يطاع في المعصية، أو أنه يقلد فيما يفعله في ذلك ، فالطاعة تكون شرك، وكذلك العمل الذي لا يكون مقيدًا بكتاب الله وسُنَّة رسوله بل تجاوز الكتاب والسُّنَّة.

قوله: «كهان»: الكاهن هو الذي يكون له صلة بالجن وبالشياطين، يكلمونه ويخبرونه عن الأشياء، وكانوا في العرب كثيرون، كان في كل قبيلة كاهن وأكثر، وكانوا يفتخرون بذلك، ولا يزال الكهان في الناس الآن ولكن منهم من يجهل هذا الأمر، ويجهل طرقه، ويجهل كيف يتصل بالشياطين مثل ما كان أولئك يتصلون

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم رقم (٥٤٩٠) قال: «هم كهان تنزل عليهم شياطين»، وفي الدر المنثور (٢/ ٥٨٢) قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال: سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها؟ قال: إن في جهينة واحدًا، وفي أسلم واحدًا، وفي هلال واحدًا، وفي كل حي واحدًا، وهم كهان تنزل عليهم الشياطين.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٥٠) يقول رحمه الله: والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم.

بهم، وقد تكون صلتهم عن غير اختيار منهم في أول المبدأ، وقد ذكر العلماء أشياء من هذا كثيرة جدًا في كتب السير والتاريخ ولا سيما عند مبعث الرسول ﷺ، ولكن لم يزل العرب وغيرهم يجعلون لهم حاكمًا يحكم لهم كما تحكم لهم الكهان قد يسمونه السَّلْم -سلمنا كذا- وقد يسمونه الكبير أو الريس، فإذا حصل عندهم خلاف ما ذهبوا إليه يتحاكمون عنده فما قاله وحكم به رضوا به واتبعوه، والكهان هذا شأنهم، وعندهم أمر آخر وهو إخبارهم عن الأمور المستقبلة، وسيأتي الفرق بين الكاهن والعراف والمنجم في الكلام الذي سيذكره المؤلف إن شاء الله.

وقوله: «**ينزل عليهم الشيطان**»: قد أخبر الرسول ﷺ بذلك كما في صحيح مسلم عن يحيىٰ بن عروة أنه سمع عروة يقول: قالت عائشة: سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ليسوا بشيء**». قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانًا بالشيء يكون حقًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة**»(١)، فبين أن الذي يكون واقعًا ليس من صنع الشياطين، ولا من صنع الكهان، وإنما هو شيء تختطفه الشياطين من الملائكة، وقد أخبر الله ﷻ عن ذلك في كتابه، وأخبر أن النجوم خلقت لأمور ثلاثة كما سيأتي: زينة للسماء، وعلامات يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، وفي ظلمات الليل، ورجومـًا للشياطين يرجمون بها حتىٰ ما يسترقوا السمع ويُغووا عباد الله ﷻ.

ولكن في مبعث النبي ﷺ ازداد الأمر بحيث إن الشياطين ما استطاعت أنها تستمع للملائكة بصورة من الصور كما أخبر عن ذلك الله ﷻ عن مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩]؛ يعني: مرصدًا مُعَدًّا قوله: ﴿كُنَّا﴾؛ يعني: قبل

(١) رواه البخاري رقم (٦٢١٣)، ومسلم رقم (٢٢٢٨).

هذا الوقت، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ وذلك حماية للوحي حتىٰ ما يخطفون القرآن الذي تتحدث به الملائكة بين السماء والأرض تكون آية أو كلمة وما أشبه ذلك، فيكون في ذلك فتنة للناس، وهذا من رحمة الله ﷻ.

وكذلك تحرس السماء لغير ذلك، والشياطين قد يكونوا من الإنس، فهؤلاء الذين يطلقون الصواريخ والأقمار الصناعية ويقولون أنهم يغزون الفضاء سوف يقفون عند حد معين لا يتجاوزونه، وإلا يحدث لهم ما أخبر الله ﷻ به: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، السلطان بعضهم يقول أنه العلم، الآن علموا فصاروا ينفذون، ولكن لو نفذوا لحصل لهم ما قال الله ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، يرسل عليهم الشواظ من النار والنحاس فيهلكون بذلك، وقد بدأ شيء من هذا للأمريكان لما أُرسل علىٰ صاروخهم الذي أرسلوه شهاب من السماء فأحرقه ودمره، وبعد ذلك قالوا هذا هو النهاية، وانتكس أمرهم انتكاسًا عظيمًا، ولكن لا يذكرون هذا للناس ويبينونه.

فالمقصود أن السماء محروسة مطلقًا، وإنما هذا شيء محدود، ولهذا جاء في الحديث أنهم يصلون إلىٰ العنان فقط، والعنان معناه السحاب، والملائكة تكون هناك تدبر أمر الله ﷻ (١).

وقوله: «**في كل حيٍّ واحد**»: هذا في الغالب. الأحياء قبائل العرب، وكانوا يفتخرون به.

وكونه طاغوتـًا لأنهم يتحاكمون إليه ويخبر بالمغيبات، ولهذا يقول الشيخ ؒ:

---

(١) رواه البخاري رقم (٣١٢٠) عن عائشة ؓ زوج النبي ﷺ: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلىٰ الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**».

رؤساء الطواغيت خمسة[(١)]، ثم قال: ومنهم الذي يدعي علم الغيب هذا من رؤسائهم ليس طاغوتًا فقط بل من رؤسائهم، فالغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقد يُطلع الله ﷻ بعض رسله علىٰ شيء من ذلك ليكون آية له، أما الكهان فأمرهم محدود جدًا مثل ما أخبر الرسول ﷺ أنه يخبر بالكلمة ثم يكذب معها مائة كلمة، ولكن مثل ما يقول الشيخ في المسائل يقول: النفوس تميل إلىٰ الباطل، وإلا كيف يصدقون مائة من أجل كلمة واحدة[(٢)].

والآن الدول الكافرة وغيرها صارت تتخذ السحرة والكهان يستخبرونهم في الأمور التي يديرونها ويتبعونهم في ذلك، وهذا ليس غريبًا لأن الكفر يجمع الشر كله.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[(٣)].

قوله: «اجتنبوا»: كونوا في جانب بعيد عن هذه الخصال، فهذا من أبلغ النهي والزجر، كونوا في جانب بعيد عن الوقوع فيها وفي ملابساتها وعملها، وهو أبلغ من قولك: (اتركوا).

قوله: «السبع»: (أل) في قوله: «السبع»، قد تأتي للتعظيم، وقد تأتي للحصر، وقد تأتي للتعريف، وقد تأتي للعهد، فهي تختلف باختلاف السياق، والتعظيم؛

---

(١) ثلاثة الأصول قال رحمه الله: والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عُبد وهو راض، ومن دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه، ومن ادعىٰ شيئًا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله.

(٢) الباب الخامس عشر المسألة الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة؟

(٣) رواه البخاري رقم (٢٧٦٦)، ومسلم رقم (٨٩).

كقوله ﷻ: (القارعة) (الحاقة)؛ يعني: الأمر الهائل الذي يقرع القلوب والأسماع فيزعجها إزعاجًا هائلًا جدًا.

فالسبع هنا ليست للحصر، قد تكون للعهد لأن الموبقات ليست محصورة في سبع فقط، وقد ورد أحاديث كثير في الزيادة علىٰ السبع، والمذكور ليس فيه العقوق، وقد جاء أن العقوق من الموبقات، وليس فيه شهادة الزور، وكذلك قول الزور، وقد جاء أن هذا من الموبقات[(١)]. ولهذا اختلف العلماء في معنىٰ قوله السبع مع أن ابن عباس ﵄ سئل عن الكبائر فقال: هن إلىٰ السبعين أقرب منهم إلىٰ السبع[(٢)]. وفي رواية إلىٰ السبعمائة أقرب منهن إلىٰ السبع[(٣)]. وقد جاءت أحاديث كثيرة في تعداد ذنوب كثيرة أنها من الكبائر، ولهذا حاول بعض العلماء حصرها فأوصلها إلىٰ قرابة سبعمائة. وهي تنقسم إلىٰ كبائر فعلية، تفعل بالجوارح، وكبائر في القلب اعتقادية مثل الكبر وبطر الحق وما أشبه ذلك، وهي أيضًا جرائم وكبائر، وعلىٰ هذا يطلب الجواب عن قوله ﷺ: «**اجتنبوا السبع**»، لماذا قال السبع؟ قال بعض العلماء: ليس المقصود الحصر في هذا العدد، فالعدد غير مراد؛ يعني: ذكر العدد بأنها سبع غير مراد.

وقال بعضهم: إنه أعلم بهذا أولًا وذكر ذلك، ثم أُعلم بالبقية فيؤخذ بما هو أكثر، وذكروا أجوبة غير هذين الجوابين؛ لأنه ذكر ﷺ كل ما يذكر حسب الحال

(١) رواه البخاري رقم (٢٦٥٤)، ومسلم رقم (٨٧) عن أبي بكرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا، قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**- وجلس وكان متكئًا فقال:- **ألا وقول الزور**». قال: فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته يسكت.

(٢) مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٧٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٩٤) عن ابن طاووس عن أبيه قيل لابن عباس: الكبائر سبع، قال: هي إلىٰ السبعين أقرب.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٣٣)٧، وقال سعيد بن جُبير: قال رجل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلىٰ السبعمائة أقرب منها إلىٰ السبع؛ غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار.

التي يكون عليها السامع أو السائل، فاختلفت الأعداد لاختلاف الأحوال واختلاف السامعين، فإذا جاءت (أل) ودخلت على الاسم فإنها تدل على الحصر، ولكن هذا الحصر لا يلزم منه العدد قد يقصد به الشيء المعهود لكم الذي علمتموه وعرفتموه مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، أولًا قال: ﴿رَسُولًا﴾ ثم قال: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦] لأنه معلوم سبق معرفته وذكره فجاء بأل التي للتعريف، وهي تدل على العهد؛ يعني: عُهد وعرف.

فهنا يدل على أن الصحابة عرفوا هذه السبع قد سبق لهم العلم بها، أُعلموها من قِبل الرسول ﷺ ولهذا قال: «**السبع**».

قوله: «**الموبقات**»: هذا وصف لها، الموبق المهلك الذي يوبق إما في النار أو في الإثم، فالموبقات؛ يعني: المهلكات التي تهلك من فعلها.

وهذا يدلنا على أن المعاصي فيها موبق، وفيها غير موبق، فمعنى ذلك أن المعاصي تنقسم إلى قسمين: كبائر وصغائر، وقد اختلف الناس في هذا اختلافًا كثيرًا، والصحيح هو هذا؛ لأن القرآن دل على ذلك ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، فلما ذكر الله ﷻ الذين يجتنبون كبائر الإثم قال: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، واللمم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اللَّمة من الزنى، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمة من السرقة، ثم يتوب ولا يعود؛ واللَّمة من شرب الخمر، ثم يتوب ولا يعود، قال: فتلك الألمام(١).

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٣٥)، وجاء عن ابن عباس قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] قال: كلّ شيء بين الحدّين، حدّ الدنيا وحدّ الآخرة تكفّره الصلوات، وهو اللمم، =

وقد جاء التحذير من الرسول ﷺ عن الصغائر فكيف بالكبائر؟ وضرب مثلًا للصغائر عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن علىٰ الرجل حتىٰ يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتىٰ جمعوا سوادًا فأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها**»[(١)]، فكذا يقول الصغائر تجتمع حتىٰ تهلك صاحبها، فينبغي للإنسان أن يكون منتبهًا لهذا الشيء.

فقوله: «**الموبقات**» كل هذا يدلن علىٰ شفقة الرسول ﷺ علىٰ أمته مبالغته في هذا قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، ثم إن الإنسان يجب أن يعلم الشيء الذي يُنهىٰ عنه أو يؤمر به، ولهذا قال الصحابة -رضوان الله عليهم-: «يا رسول الله ما هن؟»، فلا بد من المعرفة والعلم بها.

وهذا لا يدل علىٰ أنهم لم يعرفوا هذه الموبقات، ولكن الصحابة كانوا إذا أخبر الرسول ﷺ بخبر توقعوا أنه أمر جديد، وأنه يخبر بخبر عير السابق، ولهذا لما قال يوم النحر: «**أي شهر هذا؟**» سكتوا، وهم يعرفون أنه ذو الحجة، وكذلك قوله: «**أي بلد هذا؟**» سكتوا وهم يعرفون أنها مكة، ولكنهم ظنوا أنه سوف يسميها بغير اسمها[(٢)].

قوله: «**الشرك**»: والشرك من أعظم الذنوب كما أخبر الله ﷻ أنه لا يغفر لصاحبه الذي يموت عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وكما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه

= وهو دون كل موجب؛ فأما حدّ الدنيا فكلّ حدّ فرض الله عقوبته في الدنيا؛ وأما حدّ الآخرة فكلّ شيء ختمه الله بالنار، وأخّر عقوبته إلىٰ الآخرة. وهو مذكور عن قتادة وعكرمة. تفسير الطبري (٢٢/ ٥٣٧).

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٨١٨).

(٢) رواه البخاري رقم (١٧١٤)، ومسلم رقم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.

عندما سأل الرسول ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**». قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**»[1].

فالمقصود أنه ذكر هنا أن أعظم الذنوب أن تجعل لله ندًا، ومعلوم أن الله هو الخالق وحده، ولكن هذا يدل على أن الشرك لا عذر لأحد في فعله لأنه قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»؛ يعني: عندك البرهان واليقين أن الله هو الخالق وحده فكيف تشرك به، وذكر الذنوب، وذكر من كل نوع أكبر ما يقع منه، فذكر بعد ذلك القتل بأشد أنواعه وأبشعها وهو قتل الولد خشية الإطعام، وذكر الزنى بذكر أشد أنواعه وهو الزنى بامرأة الجار.

والشرك يكون فيه الكبير وفيه الصغير، وصغيره من الكبائر لأن الله ﷻ قطع الرجاء عن صاحبه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، و"أن" هذه مصدرية، والمصدرية من أدوات العموم هي وما دخلت عليه، فيكون المعنى أن الشرك كله غير مغفور، وهذا يكون لمن مات عليه بدون توبة، أما التائب فإنه إذا قبل الله توبته كان كمن لا ذنب عليه.

والشرك هنا عام يدخل فيه الشرك في الربوبية، والألوهية، والشرك في توحيد الأسماء والصفات، وكلها واقعة في الأمة.

قوله: «**والسحر**»: هذا هو الشاهد، وهذا يدل على أن الصحابة يعرفون السحر فلو كانوا لا يعرفونه سألوا عنه، فكفى أنه قال: «**السحر**» وهو معروف مشهور في الناس من قديم، وله أنواع متعددة وكثيرة، وبعضها يخفى على كثير من الناس، فيجب أن يجتنب السحر بأنواعه، واجتنابه بأن لا يفعله ولا يُفعل له، ولا يرضى

(١) رواه البخاري رقم (٤٤٧٧)، ومسلم رقم (٨٦).

بفعله، ولا يكون مع الذين يفعلونه، لا بد من هذه الأمور هذا هو الاجتناب، أما إذا كان يفعله أو يشاهده ويرضىٰ به ويتفرج عليه فهو لم يجتنبه في الواقع، فقد وقع في النهي، وإن كان فعله أعظم من هذا ولكن الراضي بالفعل كالفاعل لا فرق.

وجعل السحر يلي الشرك لأن السحر في الغالب لا ينفك عن الشرك، وضرره بالنسبة للغير أعظم من ضرر الشرك لأنه يتعدىٰ إلىٰ الغير، وقد يقتل الإنسان، وقد يذهب بعقله، وقد يُفرق بينه وبين أهله، وقد يُمرضه مرضًا شديدًا، فعلىٰ هذا يتبين لنا أن السحر له حقيقة وليس كما تقوله المعتزلة أنه تخيلات لا حقيقة لها لأن الله ﷻ يقول: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] فيقال في الجواب عن ذلك: أن هذا في بعض أنواعه يكون تخيلًا، وكثير منه ليس تخييلًا حقيقة، فقد سُحر النبي ﷺ حتىٰ صار مثل ما قالت عائشة رضي الله عنها يخيل له أنه فعل الشيء ولم يفعله.

كما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتىٰ كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله حتىٰ إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال: «**يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان**». فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: «**يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين**». قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: «**قد عافاني الله فكرهت أن أثوِّر علىٰ الناس فيه شرًا**». فأمر بها فدفنت[(١)]. فشفاه الله ﷻ لما أبطل.

وقوله: «**في مشط ومشاطة**»: المشاطة هي ما يتساقط من الشعر إذا مشط.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٦٣)، ومسلم رقم (٢١٨٩).

وقوله: «**جف طلع نخلة ذكر**»؛ يعني: كافور النخلة الفحل، وجاء فيه أنه وضع فيه إبر ومسامير وغير ذلك، وكل ذلك بواسطة الشياطين.

ولبيد بن الأعصم يهودي عرف أنه أعظم سحرتهم، وأنه أعلمهم بالسحر وليس في هذا ما يقدح في عصمة النبوة، لأن العصمة باتفاق العلماء تكون فيما يبلغه، وعقله لم يذهب وما يبلغه لم يتأثر في ذلك، ولكن الذي تأثر بدنه وبدنه ﷺ سبق أنه مثل البشر أنه تصيبه الأدواء، وتصيبه جراح العدو، وأذاهم وقد حاولوا قتله، وكذلك يصيبه الألم كغيره من البشر، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: «**وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق**»: المقصود بالنفس النفس المؤمنة، ولهذا قيدها بقوله: «**إلا بالحق**»، فليس كل النفوس محرم قتلها، فالكافر مباح القتل إلا إذا كان مسالمًا غير محارب وله عهد، أما إذا كان حربي فهو مباح القتل بل مأمور بأن يُقتل سواء كان من أهل السلاح والحرب، أو من أهل الرأي، أو من أهل الإعانة والتمويل أو غير ذلك من الذين لهم يد في حرب الحق لا فرق بينهم.

وقوله: «**إلا بالحق**» قد جاء بيان ذلك أنها ثلاثة وهي «**النفس بالنفس**»؛ يعني: إذا قتل الإنسان آخر محرم عليه قتله فإنه يُقتل به بحق قصاصًا، أو يكون زانيًا بعد الإحصان أو ترك دينه وارتد إلىٰ دين آخر هذه التي جاء النص بها عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدىٰ ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة**»[1]. وما عدا ذلك فلا يحل قتل المسلم بحال من الأحوال.

قوله: «**وأكل الربا**»؛ يعني: أن هذا أيضًا من الموبقات، وعبَّر عنه بالأكل عن سائر الانتفاعات لأنه هو الغالب وهو غالب ما يقصد من أجله، والمقصود تعاطيه

(١) رواه البخاري رقم (٦٨٧٨)، ومسلم رقم (١٦٧٦).

بأي أمر كان أكله أو لم يأكله، لأن الشيء قد يُعبر عنه بأعظم مقاصده، والمال من أعظم مقاصده الأكل، والربا مأخوذ من الزيادة لأنه يزيد بالوقت أو يزيد بالتأجيل وما أشبه ذلك وهو يزيد بدون مقابل وهو من أعظم الذنوب، وقد جاءت النصوص بالوعيد لفاعله كما قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] إلىٰ قوله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فالأمر فيه شديد جدًا يقول ابن دقيق العيد رحمه الله: إن أكل الربا مجرب لسوء الخاتمة - نسأل الله العافية - آكل الربا يختم له بخاتمة سيئة غالبًا.

وقد ذكر النبي ﷺ أنه من أسباب عذاب القبر، وأنه يعذب إلىٰ أن تقوم القيامة، بأن يكون في نهر يسبح مثل الدم بطنه كبير جدًا وعنده ملك يلقمه حجارة يفغر فاه فيلقمه حجر، ثم يذهب يسبح ثم يعود فيلقمه حجرًا وهكذا[1].

وقوله: «**وأكل مال اليتيم**»: وهذا أيضًا التعبير بالأكل مثل التعبير بأكل الربا، والمقصود أخذه بأي وجه كان، سواءً أكله أو لم يأكله.

واليتيم هو الصغير الذي لم يبلغ، وقد مات والده فقط، لأن الوالد هو الذي يقوم عليه وهو الذي يكتسب له.

وهذا التعظيم في النهي لأنه ضعيف لا يستطيع أن ينتصر، ولا يستطيع أن يحول بين من أراد أخذ حقه، والله ﷻ يتولىٰ الانتصار له ولهذا توعد صاحبه، وما يلاقيه بعد الموت عظيم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ

---

(١) رواه البخاري رقم (١٣٨٦) من حديث جندب الطويل في الرؤيا وفيه: «قالا: انطلق فانطلقنا حتىٰ أتينا علىٰ نهر من دم فيه رجل قائم علىٰ وسط النهر، قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم: وعلىٰ شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمىٰ الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمىٰ في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا»، ثم قالا له: «والذي رأيته في النهر آكلوا الربا».

فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، والرسول ﷺ يقول: «**اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة**»[(١)]، ومعنىٰ أحرِّج: أمنع.

وقوله: «والتولي يوم الزحف»: التولي هو الإدبار والذهاب والفرار والانصراف والانهزام عن ملاقاة العدو.

و«الزحف»؛ يعني: كون أحد المتقاتلين يزحف بعضهم إلىٰ الآخر، والغالب أنه عند القتال ليس هناك سرعة إنما يدنوا بعضهم إلىٰ بعض رويدًا رويدًا لأنهم كل واحد يستعد ويشاهد الموت، ففي هذا الموقف يجب علىٰ المؤمن أن يثبت، ويجب عليه أنه يتعرض لفضل الله الذي وعد به المؤمن الصابر المقتول في سبيل الله، فأشرف القتل هو الشهادة.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلًا جاء إلىٰ الصلاة والنبي ﷺ يصلي بنا، فلما انتهىٰ إلىٰ الصف قال: اللهم ائتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، قال: فلما قضىٰ النبي ﷺ الصلاة قال: «**من المتكلم آنفًا؟** قال الرجل: أنا، قال: **إذن يعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله**»[(٢)].

فهذا أفضل ما أعطاه الله الصالحين من عباده، الشهادة هي أعلىٰ المنازل، فكيف يفر الإنسان منها، مع أن المسلم موعود بإحدىٰ الحسنيين ولا بد، إما النصر والظفر بالعدو، وإما الشهادة فلا ينفك عن الحسنىٰ، فإذا فر وتولىٰ فمعنىٰ ذلك أنه يرغب في الدنيا عن الآخرة، ولهذا جُوزي بأن تُوعد بالنار، وغضب الله ﷻ، إلا أن

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٩٦٦٦)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٩١٤٩)، وابن ماجه رقم (٣٦٧٨)، والحاكم في المستدرك رقم (٢١١) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) مسند البزار رقم (١١١٣)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٢٩٢١)، وابن حبان في صحيحه رقم (٤٦٤٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٤٨) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

يكون توليه للتهيؤ للقتال، أو الانحياز إلىٰ فئة تقاتل، كما أخبر الله ﷻ بذلك، وبهذا استدل العلماء علىٰ أن المسلم إذا حضر الواقعة بين المؤمنين والكافرين أنه يتعين عليه أن يقاتل فيصبح في هذه الحالة القتال عليه فرض عين، وكذلك يلحق بهذا إذا داهم الكفار البلد الذي هو فيه من بلاد المسلمين يُصبح القتال عليه فرض عين، والحالة الثالثة التي يكون فيها القتال فرض عين إذا عينه الإمام وقال له أنت تقاتل، هذه الحالات الثلاث هي التي يكون القتال فيها فرض عين، وما عدا ذلك يكون من فروض الكفاية.

قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»: القذف المعرف أنه يكون بالحجارة ، ولكن الكلام قد يكون أبلغ وأنكىٰ من الحجارة، ولا سيما إذا كنَّ غافلات مؤمنات.

قوله: «المحصَنات» بفتح الصاد: اللاتي أحصنهنَّ الله ﷻ بحفظهن عن الوقوع في الزنىٰ، وسواء كانت متزوجة أو غير متزوجة بإجماع العلماء.

والمحصِنات بالكسر اللاتي حفظن فروجهن من الزنىٰ، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة.

قوله: «الغافلات»؛ يعني: غافلات عن هذا الأمر لسلامة قلوبهن، وسلامة أعراضهن وبُعدهن عن التفكر في ذلك، فهذا الأمر لا يدور في نفوسهن، ولا يتحدثن به، رميهن في هذه الحالة من أعظم الذنوب لأنه بُهت لأنها إذا سمعت بهذا بهتت، بشيء لم تكن تنتظره.

قوله: «المؤمنات» يخرج بذلك الكافرات فرميهنَّ ليس من الكبائر، ولكنه لا يجوز، وهذا ليس خاصاً بالمرأة بل حتىٰ الرجال فقذف الرجل أو المرأة في هذا من الموبقات.

قال المؤلف رحمه الله: وعن جندب مرفوعًا: «حَدُّ الساحر: ضربُه بالسيف»، رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف[١].

قال: الصحيح أنه موقوف علىٰ جندب، والترمذي رواه مرفوعًا وإذا كان موقوفًا فمعناه أن هذا حكم شرعي لا بد له من مستند من كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ، وإذا قال الصحابي: الحكم كذا وكذا، فهذا له حكم المرفوع، وهذا منه.

جندب اختلف فيه هل هو جندب بن عبد الله البجلي أو جندب الخير، والشارح صحح إنه جندب الخير الذي ستأتي قصته.

هذا الأثر في حكم الساحر، أنه يُقتل، فإذا كان هذا حكمه أنه يقتل، دل علىٰ أن السحر كفر؛ لأن قتله يكون كفرًا وليس حدًّا.

قال المؤلف رحمه الله: وفي صحيح البخاري عن بَجالة بن عَبَدة قال: كتب عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر[٢].

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٤٦٠) وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: هو ثقة ويروي عن الحسن أيضًا، والصحيح عن جندب موقوف والعمل علىٰ هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم. وأخرجه البيهقي رقم (١٦٩٤٢) وقال: إسماعيل بن مسلم ضعيف، والحاكم في المستدرك رقم (٨٠٧٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح وله شاهد صحيح علىٰ شرطهما جميعًا في ضد هذا. وقال الذهبي: صحيح غريب. وقال ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٣٦): في سنده ضعف.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦٥٧) عن عمرو بن دينار سمع بجالة يقول: كنت كاتبًا لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس فأتانا كتاب عمر قبل موته بسنة: أن اقتلوا كل ساحر، وربما قال سفيان: وساحرة، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس وانهوهم عن الزمزمة فقتلنا ثلاثة سواحر ..». وأخرجه البيهقي رقم (١٦٩٤٠)، والبزار رقم (١٠٦٠)، وأبو يعلىٰ رقم (٨٦٠)، وابن أبي شيبة رقم (٣٢٦٥٢). وأصله عند البخاري رقم (٢٩٨٧) عن عمرو قال: كنت جالسًا مع جابر بن زيد وعمرو بن أوس فحدثهما بجالة سنة سبعين عام حج مصعب بن الزبير بأهل البصرة عند درج زمزم قال: كنت كاتبًا لجزء بن معاوية عن الأحنف فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة فرقوا بين =

هذا جاء في كتاب عمر لما كتب إلىٰ الذين كانوا في بلاد الفرس لما حدث أن الرسول ﷺ أخذ من مجوس هجر الجزية فأمر أن يفرق بينهم وبين محارمهم لأنهم ينكحون الأمهات والأخوات والبنات في دينهم المجوسي فقال: «**فرقوا بينهم وبين محارمهم حتىٰ نلحقهم بأهل الكتاب**»؛ يعني: تأخذ منهم الجزية «وأمر أن يقتل كل ساحر وساحرة»، وهذا يدل علىٰ أن السحر كفر، وأن حده القتل.

واختلف العلماء هل يستتاب قبل أن يقتل، أو أنهم لا يستتابون؟ منهم من قال لا بد من استتابتهم، فإن تابوا لم يقتلوا وإن لم يتوبوا قتلوا، ومنهم من قال: لا يستتابون؛ لأن ظاهر هذا الأثر، وكذلك ظاهر أثر جندب يدل عدم الاستتابة، ولأن السحر علم والعلم لا يُتاب منه، وهذا الخلاف في حكم قتله، أما ما بينه وبين الله فلا خلاف أنه إذا تاب صادقًا أن توبته تقبل كالمشرك.

قوله: «**فقتلنا ثلاث سواحر**»؛ يعني: نساء ساحرات.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وصحَّ عن حفصة** رضي الله عنها **أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت**[1]. **وكذا صح عن جندب.**

حفصة رضي الله عنها أعتقت جاريتها عتقًا مدراً بعد موتها فسحرتها فأمرت بها فقتلت والتدبير: أنها تعتقها بعد موتها، تقول: أنت مملوكة لي، فإذا مت فأنت عتيقة فاستبطأت موتها، فعملت لها سحرًا حتىٰ تقتلها حتىٰ تعتق، فأمرت بها فقتلت.

قوله: «**وكذا صح عن جندب**»: هذا بلا تردد هذا جندب الخير فقد وقع له قصة في زمن الوليد شاهد ساحرًا يلعب يدخل في البقرة من دبرها ويخرج من فمها

= كل ذي محرم من المجوس ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتىٰ شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.

(١) الموطأ رقم (٣٢٤٧) حدثني يحيىٰ عن مالك عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبَّرتها فأمرت بها فقتلت.

والناس يتعجبون، ثم يأخذ إنسان فيقتله فيلقي رأسه، ثم يعيده فشاهده جندب، ثم لما كان من الغد جاء مشتملًا علىٰ السيف، فلما صار يلعب لعبته اخترط السيف فقتله فقال: أحيي نفسك إن كنت صادقًا، فأخذه الوليد فسجنه(١).

وجاء في أبي داود وغيره أن النبي ﷺ كان في سفر، وكان يقول: «**جندب وما جندب، يضرب ضربة واحدة فيبعث أمة وحده**»(٢)، قال العلماء: المقصود ما فعله جندب، فدل هذا علىٰ أن هذا حق، وأنه دليل علىٰ أنه مُصيب.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.**

يعني: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ عمر بن الخطاب، وجندب الخير وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، لم ينكر عليهم أحد، ولم يأت أن أحدًا منهم قال لا يقتل فيكون هذا من الإجماع السكوتي لأنه لو كان باطلًا لأنكر، وهذا الإجماع هو الإجماع الذي ينضبط وهو إجماع الصحابة.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٧٧) عن الأعمش عن إبراهيم قال: كان ساحرًا يلعب بين يدي الوليد يريهم أنه يدخل في فم الحمار ويخرج من ذنبه أو من دبره ويدخل في أست الحمار ويخرج من فيه، ويريهم أنه يضرب رأس نفسه فيرمي به ثم يشتد فيأخذه ثم يعيده مكانه، فانطلق جندب إلىٰ الصقيل وسيفه عنده فقال: وجب أجرك فهاته، قال: فأخذه فاشتمل عليه ثم جاء إلىٰ الساحر مع أصحابه وهو في بعض ما كان يصنع فضرب عنقه فتفرق أصحاب الوليد ودخل هو البيت وأخذ جندب وأصحابه فسجنوا. وفي تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٨٠) قال أبو عثمان النهدي: كان ساحر يلعب عند الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فيأخذ سيفه فيذبح نفسه ولا يضره، فقام جندب فأخذ السيف فضرب عنقه، ثم قرأ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]. إسناده صحيح.

(٢) مصنف عبد الرزاق رقم (١٨٧٤٨) النبي ﷺ قال لجندب: «**جندب وما جندب يضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل**»، فإذا أبو بستان يلعب في أسفل الحصن عند الوليد بن عقبة وهو أمير الكوفة، والناس يحسبون أنه علىٰ سور القصر يعني وسط القصر، فقال جندب: ويلكم أيها الناس أما يلعب بكم والله إنه لفي أسفل القصر إنما هو في أسفل القصر، ثم انطلق واشتمل علىٰ السيف ثم ضربه فمنهم من يقول قتله ومنهم من يقول لم يقتله، وذهب عنه السحر، فقال أبو بستان: قد نفعني الله بضربتك وسجنه الوليد بن عقبة.

وبهذا يتبين:

- أولًا: أن السحر كفر.
- ثانيًا: أن حكم الساحر القتل.

بقي ما هي المناسبة في إدخال السحر في كتاب التوحيد؟

المناسبة: أن السحر مضاد للتوحيد، وما كان مضادًا له يكون مفسرًا له؛ لأن الأشياء تتبين بأضدادها.

قال المؤلف ﵀: فيه مسائل:

الأولى: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

أن الطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو كل ما تجاوز الحد الذي حُد، أما الجبت فهو السحر، أو أنه الشر، فيكون بينهما فرق في العموم والخصوص.

الباب الخامس والعشـــرون

قال المؤلف رحمه الله: باب بيان شيء من أنواع السحر.

يشير المؤلف إلىٰ أن السحر أنواع متعددة، وأنه في هذا الباب سيذكر شيئًا مما يلحق بها وهو بعيد عن السحر الحقيقي، وإنما ألحق به من باب القياس، والتشبيه به، لينبه علىٰ أن هناك أنواعـًا أعظم من هذه يتعاطاها كثيرٌ من الناس، والسحر في هذا الزمن كثر لأسباب منها:

أولًا: كثرة الوافدين من بلاد بعيدة.

ثانيًا: الجهل، وتهاون الناس بارتكاب المعاصي.

ثالثًا: تعلق الناس بالدنيا، فصارت أكثر عباداتهم للدنيا فهم يريدون الشيء الذي يناسبهم وإن كان الطريق محرمًا.

قوله: «بيان شيء»: شيء هنا للتقليل؛ يعني: بيان شيء من أنواع السحر التي قد يتوهم الكثير أنها ليست من السحر. والسحر سمي بهذا: لخفاء سببه، ولطفه علىٰ الناس.

قال المؤلف رحمه الله: قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنا حيّان بن العلاء، حدثنا قُطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطَّرْق، والطيرة من الجبت»، قال عوف: العيافةُ: زجر الطير، والطَّرْقُ: الخط يُخط في الأرض. والجبت: قال الحسن: رنَّة الشيطان. إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه[1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠٦٠٤)، وأبو داود رقم (٣٩٠٧)، والبيهقي رقم (١٦٩٥٨)، وابن حبان رقم (٦١٣١).

والسحر منه ما هو بواسطة الشياطين، وهذا يكون شركًا، ومنه ما هو بالعقد والنفث والأبخرة والأدوية وغير ذلك، فالمؤلف ﷺ أراد أن يبين أن ما كان مماثلًا للسحر أنه يُلحق به، وإن لم يكن حكمه حكمه لأنه سبق لنا أن الساحر كافر، وأن حده أن يضرب بالسيف حتىٰ يموت.

وهذه الأشياء التي ذكرها هنا ليس هذا حكمها، ولكنه في العمل تكون مماثلة للسحر فتلحق به من ناحية الفساد والإفساد فيكون لها حكمه، ولهذا ذكر هذه الأنواع التي فسرها عوف «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

هذا الحديث لم ينفرد به أحمد، لكن ليس عند النسائي تفسير عوف. وعوف هو ابن أبي جميلة العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة، مأمون عارف باللغة يرجع إليه قومه في ذلك، وهو من أهل الاستقامة مات سنة- ست أو سبع- وأربعين وله ست وثمانون سنة.

قوله: «**العيافة**»: زجر الطير، تقول: عاف يعيف عيفًا إذا زجر وحدس وظن. وزجر الطير معناه أنه إذا كان ساكنًا واقعًا، يُطيره حتىٰ يسمع ماذا يقول ويرىٰ ماذا يفعل، فهي من الطيرة لأن الطيرة للتشاؤم والشر، والعيافة في الفأل للتفاؤل وقد تستعمل بما تستعمل به الطيرة.

فهو إثارة الطير حتىٰ يستدل بذلك علىٰ الأمور المستقبلية، فمن كان محسنًا للحدس والتخمين لهذه الأشياء؛ يعني: في زجر الطير ونحوه من الحيوانات، سموه عائفًا كما سيأتي.

وقد كانت عند العرب كثيرة جدًا، وقد اشتهر بنو أسد بها وغيرهم من القبائل، فمثلًا إذا رأىٰ عقابًا طار تفاءل بأنه سيعاقب من يعاديه، وإذا رأىٰ غرابًا تفاءل بأن من يعاديه سوف يغترب ولا يرجع يموت، فهم يأخذونه من الاسم، ويأخذونه من الفعل الذي هو الطيران، وقد لا يكون مقصورًا علىٰ الطير وإنما في الحيوانات

والناس وغيرها.

وعلىٰ هذا يكون زجر الطير من السحر؛ لأنه يعمل عمله حيث أن الساحر يخبر بخبر الشياطين وإن كان يعمل عملًا من أعمالهم متعاونًا معهم حتىٰ يضر الساحر الشخص الذي أريد ضرره.

وقوله: «**والطرق**»: فسره بأنه الخط الذي يُخط بالأرض، وهو من علوم الجاهلية حيث أنهم يخطون خطوطًا يستدلون بها علىٰ الغائب أو الغريب أنه سيأتي أو لا يأتي، أو أنه مات أو أنه موجود، ويستدلون بها علىٰ الأمر المستقبل هل يحصل لهم كذا أو لا، ويكون هناك رجل معين لهذا الشيء يأتون إليه يسمونه العائف ويكون عنده غلام، فإذا جاء إليه يقدم له شيء من الحلوان فيخط خطوطًا كثيرة بسرعة بحيث لا يستطيع أن يحسبها ثم يبدأ يمسح والغلام عنده يتكلم بكلام علىٰ حسب سجعهم وكهانتهم، ثم يبدأ يمسح اثنين اثنين، فإن بقي خطان تفاءل وقال: إن الأمر ناجح، وإن كان واحدًا فهو دال علىٰ الخيبة وهي كلها أمور وهمية من الشيطان لا حقيقة لها، ولهم طرق أخرىٰ أيضًا في الخط. وقد جاء في صحيح مسلم: أن النبي ﷺ سُئل عن الخط «قال: قلت: ومنا رجال يخطون، قال: كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»(١)، يعني أنه جائز، قال العلماء: هذا من الأمر المستحيل الممتنع لأن الله جعل لهذا النبي آية وهي الخط الذي يخطه فيخبر به عن الأمر المستقبل، أما بعد ذلك فقد عدم العلم به فلا يُصار إليه.

قوله: «**فمن وافق خطه فذاك**»؛ يعني: من وافق خطه أصاب، ولكن لا علم لأحد بهذا فإذا صار العلم به ممتنع صار العمل به لا يجوز.

فيبقىٰ الخط بالأرض كالضرب بالحصىٰ لا فرق بينها فهي من المحرمات التي يُدعىٰ بها علم الغيب، ولهذا ألحقه بالسحر.

---

(١) رواه مسلم رقم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

قوله: «والطيرة»: سيأتي الكلام فيها إن شاء الله.

قوله: «من الجبت»: تفسير الحسن أنه رنة الشيطان، يقول الشارح: لا أدري ما معنىٰ هذا(١). ولكن عن الحسن وغيره أن الشيطان رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب(٢).

والرنة معناها: التصويت بحزن، الصوت المحزن.

وعن سعيد بن جبير قال: لما لعن إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة فخرج لذلك فرنَّ رنة، فكل رنة في الدنيا إلىٰ يوم القيامة منها(٣).

قوله: «فكل رنة في الدنيا إلىٰ يوم القيامة»؛ يعني: الرنين الخبيث الذي يكون أصله من التحزن والتسخط.

ثم يقول سعيد: لما أهبط رن رنة أخرىٰ ولما أنزل علىٰ رسول الله ﷺ وقام يصلي بمكة رن رنة اجتمعت له جنوده، فقال لهم: أيسوا أن نريد أمة محمد علىٰ الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفتنوهم في دينهم وافشوا فيهم النوح. (٤).

فرنينه ينتج عنه أمور خبيثة من حثه جنوده واجتهاده في إغواء الناس، وإضلالهم والعمل علىٰ أن يكتسب منهم خلقًا كثيرًا يكونون معه في النار، فالرنة لها أثر.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٤٩)، قوله قال الحسن: رنة الشيطان لم أجد فيه كلامًا.

(٢) الدر المنثور (١/ ١٦) قال: وأخرج وكيع في تفسيره، وابن الأنباري في المصاحف، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال: رن إبليس أربعًا حين نزلت فاتحة الكتاب، وحين لعن، وحين هبط إلىٰ الأرض، وحين بعث محمد ﷺ. قال في مجمع الزوائد (٣/ ١٣) وعن ابن عباس قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة رن إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده فقالوا: ايئسوا أن تردوا أمة محمد علىٰ الشرك بعد يومكم هذا ولكن افتنوهم في دينهم وأفشوا فيهم النوح. رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون. وقال في موضع آخر: وعن أبي هريرة أن إبليس رن حين أنزلت فاتحة الكتاب وأنزلت بالمدينة. رواه الطبراني في الأوسط شبيه المرفوع ورجاله رجال الصحيح (٦/ ٣١١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٦١).

(٤) المعجم الكبير للطبراني رقم (١٢٣١٨) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومعنىٰ ذلك أن الجبت من عمل الشيطان الذي يعمله ويدعو إليه يكون هذا هو المفهوم من قوله: «**رنة الشيطان**» وقد جاء عن السلف تفسيرهم الجبت بالشيطان(١)، فيدخل في الجبت السحر، وعمل الشياطين وعمل الشيطان (رنته) ينتج عنها التحريش بين الناس وإغوائهم فيكون من هذا الباب كعمل الساحر أو أشد.

وأصل الجبت الجبس وهو الشيء الخبيث الذي لا خير فيه، قال الجوهري رحمه الله: الجبت كلمة تطلق علىٰ الشر كله، هذا لأنها تجمع الشر(٢).

والسلف رحمهم الله كانوا يفسرون الشيء العام ببعض معانيه فتفسيرهم الجبت بالشيطان يكون تفسيرًا جزئيًا، وهذا التفسير الجزئي يكون لحاجة السامع، ففسر عمر رضي الله عنه الجبت بالسحر، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، الجبت هنا فسر بالشرك بالله(٣) والكفر به، والطاغوت: بالشيطان(٤) الذي يدعو إليه، يدعو إلىٰ الكفر ويزينه ويحسنه، وعطف الطاغوت علىٰ الجبت إما من عطف التغاير أو من عطف الخاص علىٰ العام، فيكون الطاغوت أخص من الجبت والجبت أعم.

ووجه الاستدلال بهذا الحديث: أنه فسر الجبت بأنه السحر كما سبق وهو تفسير عمر رضي الله عنه، وفي هذا نص علىٰ أن هذه المذكورات من السحر؛ أي: نوع من أنواع السحر هذا هو وجه الاستدلال، فالسحر يغطي علىٰ الأمور الخفية ويجعل الإنسان يتخيل أنه يحدث شيء غريب جدًا، لا يعرف أصله، وقد يأتي بالمتضادات

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٤) قال: وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي مالك، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، وعطية: «الجبت» الشيطان- زاد ابن عباس: بالحبشية.

(٢) الصحاح في اللغة (١/ ٧٨) قال: الجِبْتُ: كلمة تقع علىٰ الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. قال في القاموس المحيط (١/ ١٩١): الجبت بالكسر: الصنم والكاهن والساحر والسحر، والذي لا خير فيه، وكل ما عبد من دون الله تعالىٰ.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٤): وعن ابن عباس أيضًا: «الجبت»: الشرك. وعنه: «الجبت»: الأصنام.

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٤) عن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبت»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان.

مثل أن يتخيل له أنه يقتل هذا الحيوان ثم يحييه، وهو لا يقتل ولا يحيي ولكنه سحر يسحر به الأعين كما قال الله تعالىٰ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦] وهو نوع من السحر الحقيقي، ونوع آخر من السحر التخييلي وهو يجعل الشيء نفسه الذي تشاهده علىٰ خلاف ما الحقيقة، وقد يخيل للإنسان أنه نفس الساحر يأتي له بفواكه وبأشياء يعرفها ثم إذا انجلىٰ الأمر وانتهىٰ السحر فإذا هي ليست بشيء وربما تكون خبيثة، يعني أنه يقلب الأشياء بعين الإنسان ربما تكون بعرة ويصورها كأنها تفاحة، أو يأتي بشيء يخيل له أنه ذهب وهو مثلًا حصىٰ ليس ذهبًا، وهذا الشيء هو الذي يقول إنه لا حقيقة له، وإنما هو تخييل أمام الناس وهذا نوع منه.

ونوع آخر أعظم منه فهو ملحق به لأن الخطوط بالأرض إذا خط الإنسان بالأرض ثم وافق قدرًا وقد أخبر بهذا الشيء يخيل إليه أنه يعرف من المغيبات وهو لا يعرف شيئًا وإنما هي أمور خيالية، وهذه العادة لا تزال عند الناس في بعض المدن، وقد جعلوها طريقًا لهم للتعيش من السذج والعوام، فالإنسان إذا فقد له شيء أو غاب له قريب أتىٰ إليهم فخطوا له خطوطًا فقالوا له: إن قريبك كذا وكذا، وإن المسروق في كذا والسارق فلان، وهو كذاب ليس عنده من ذلك شيء وإنما هي ظنون، وبعضهم يعبد الشيطان فيأتي الشيطان فيخبره بالأشياء الغائبة؛ لأن الشياطين تستطيع أن تطلع علىٰ ما لا يطلع عليه الإنسان، فهو لا يخلو إما أن يكون كذاب دجال ليس عنده من ذلك شيء أو يكون قد عبد الشياطين فهم يخبرونه هذا بالنسبة للطرق.

أما العيافة فلا يحسنها إلا من تعاطاها، والذي يتعاطاها قد يبتلي بشيء من ذلك وسوف يأتي أن هذا لا يجوز، بل إن هذا واضح أنه من الجبت.

أما الطيرة فلها باب مستقل.

قال المؤلف رحمه الله: **وعن ابن عباس** رضي الله عنهما **قال: قال رسول الله** ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**» **رواه أبو داود**[١] **وبإسناد صحيح.**

قوله: «اقتبس»: أخذ، واقتباس الشيء أخذه. كاقتباس العلم.

قوله: «شعبة»: القطعة من الشيء والطائفة منه، ولهذا جاء في الحديث: «**الحياء شعبة من الإيمان**»[٢].

قوله: «النجوم»: النجوم لا يؤخذ منها شيء، ولا أحد يستطيع أن يصل إليها وإنما المقصود العلم الذي يتعلق بها، الاستدلال بحركاتها وأفولها وطلوعها واقترانها ومسيرها ونحو ذلك على ما يحدث في الكون أو ما يحصل للناس من ولادة وسعادة ونحوس وغير ذلك.

فقوله: «اقتبس شعبة من النجوم» أخذ قطعة من الاستدلال من العلم الذي يدعيه وإلا ليس هناك علوم في الواقع يستدل بها وإن كان التنجيم له كتب وله علماء ولا يزال إلى الآن الناس يعملون به، ولكن كثير ما يتبين أنه كذب، وهذا مثل الكاهن يأتيه الشيطان بكلمة فيضع معها مئة كلمة كذب فالكلمة التي يسمعها من الملائكة يضع معها مائة كذبة، وهذا قد يوافق قدرًا فيقع ما أخبر به فيصدق الكذب الكثير الذي لا حصر له، وهذا من جنس ما مضى فإنه دعوى باطلة، ادعاء لا علم لمدعي فيه فالذي يقتبس شيئًا من هذه النجوم؛ يعني: يستدل بطلوعها أو بأفولها أو بسيرها أو باجتماعها واقترانها على الأمور المستقبلة من خير وشر يكون كاذبًا ومدعيًا لعلم الغيب، ومن المعلوم أن السحرة كذبة، وأهل باطل، فهذا يشبهه

(١) أبو داود رقم (٣٩٠٥)، وأحمد في المسند رقم (٢٨٤٠)، وابن ماجه رقم (٣٧٢٦).

(٢) رواه البخاري رقم (٩)، ومسلم رقم (٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان**».

فأعطي حكمه، فهذا مثل الخط والعيافة والطَّرق الذي يكون بالحصىٰ، وقد يكون بالودع الذي يؤخذ من البحر، وقد يكون بغير ذلك مثل ما يفعله الآن المنحرفون الجدد الذين يقولون بقراءة الفنجان والكف، هذا من هذا النوع والنظر في الطالع وبعض الصحف والمجلات التي تكتب في هذا منتشرة بين الناس.

قوله: «**فقد اقتبس شعبة من السحر**»: يعني أنه إذا فعل ذلك يكون له حكم الساحر، وليس حكمه من كل وجه كما سبق لأن الساحر السحر الحقيقي الذي مضىٰ بيانه، الذي لا يكون إلا بواسطة الشياطين حكمه أنه كافر، فإن الساحر يتعاون مع الشيطان، والشيطان لا يعاونه حتىٰ يأتيه بما يريد من عبادة غير الله ﷻ أو الاستهانة بشيء مما له صلة بالله ﷻ من أسمائه أو آياته، وهذا يحدث كثيراً من السحرة، ولا يعمل سحرهم إلا بهذا، وهذا قول علىٰ الله ﷻ في الحكم علىٰ الأمور المستقبلة من مخلوقات مسخرة مدبرة لا علم لها بما يدعيه هذا المقتبس.

قوله: «**زاد ما زاد**»: هذا اختُلف فيه هل هو من كلام الرسول ﷺ أو أنه من كلام الراوي؟

والصواب أنه كلام الرسول ﷺ؛ يعني: أنه كلما زاد اقتباسًا من النجوم، زاد شرًا أو سحرًا وكفرًا بهذا.

ولا حقيقة له في الواقع وإنما هو تلبيس، وتحايل علىٰ الإحياء وأسرار الغيب، وكذلك قد يكون فيها أكل أموال الناس، ومن فعل ذلك فقد وقع في نوع من أنواع السحر المحرم.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئًا وكل إليه»(١).

---

(١) النسائي في السنن الكبرىٰ رقم (٣٥٤٢)، والطبراني في الأوسط رقم (١٤٦٩).

الساحر يعقد العقدة في الخيط ثم ينفث فيها، حتىٰ ينعقد ما يريده في المسحور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]؛ يعني: السواحر التي يفعلن ذلك.

والنفث: هو نفخ مع الريق دون التفل. وهذا قد يكون من الراقي وقد يكون من الساحر، فيجتمع كما يقول ابن القيم رحمه الله في النفث فعل الساحر فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخًا معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذىٰ مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية علىٰ أذىٰ المسحور فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي(١).

فمن عقد عقدة ثم نفث فيها وإن كان لا يحسن السحر لأنه تشبه بالساحر، وأراد أن يحصل له ما حصل لهم، ولهذا قال: «**فقد سحر**»؛ يعني: أنه ارتكب السحر، ارتكب ما ارتكبه الساحر، فهذا الحديث يدل علىٰ أن من تشبه بالساحر في فعله فإنه يُعطىٰ حكمه في الإثم، وهذا يدل علىٰ أنه راضيًا بهذا الفعل ويعجبه، والراضي كالفاعل.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك»: هذا دليل علىٰ أن السحر مصاحب للشرك، وأن الساحر يكون مشركًا، فهو لا ينفك عن الشرك وهذا هو السحر الحقيقي؛ لأن هناك سحر مجازي، فالسحر الحقيقي هو الذي يكون بواسطة الشياطين، والشيطان لا يمكن أن يعاون الإنسان ويخدمه إلا إذا أطاعه فيحصل الاستمتاع من الشيطان من الإنسي الذي ذكر الله جل وعلا، ثم إذا كان مطيعًا له وعابدًا ولو بوجه من الوجوه فإنه يعاونه علىٰ الشر والأذىٰ فيحصل ما يحصل.

ولهذا سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التحرز من الشيطان وأمرنا الله جل وعلا في كتابه بذلك

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤٧).

فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فيلجأ الإنسان إلىٰ ربه من الشيطان، يستعيذ به منه لأنه غير منظور وغير مشاهد وإنما يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، ومن رحمته ﷻ أن جعل ذكره حرزًا من الشيطان، وكذلك آياته التي يتحرز بها المؤمن، وقد ثبت أن من قرأ آية الكرسي حينما يأوي إلىٰ فراشه أنه لا يقر به شيطان ولا يزال عليه من الله حافظ إلىٰ أن يصبح، وكذلك ذكر الله ﷻ، وهذا من فضل الله علينا.

ومعلوم أن من الإنس شياطين يناسبهم حالات شياطين الجن فهم يجتمعون علىٰ الشر ويتعاونون عليه ولكن لا يمكن التعاون إلا بالاستمتاع، هذا سيتمتع من هذا بما يحب، وهذا كذلك يعني: الجن يستمتع من الإنسي بعبادته وطاعته واتباعه علىٰ الباطل والكفر بالله ﷻ، والإنسي يستمتع من الجني ببعض المنافع التي ينفعه بها إما ضرر عدوه أو ما أشبه ذلك.

والذكر يمنع من الشيطان، تجد الذين تتسلط عليهم الشياطين هم أهل الغفلة وأهل الجهل والذين لا يذكرون الله ولا سيما في أماكن الشياطين، فإن الشياطين لها أماكن تأوي إليها مثل الحمامات وأماكن القذر لأنها تليق بهم وتناسبهم، ولهذا سُن لمن أراد دخول الخلاء أن يسمي ويذكر اسم الله، وأخبر الرسول ﷺ أن ستر ما بين عوراتنا وأعين الجن ذكر الله ﷻ (١)، فإذا ذكر الله وسمَّىٰ كان هذا حارسًا له من الشيطان، أما إذا دخل الخلاء دون أن يسمي فقد يلابسه الشيطان، وكذلك الاسم عند الدخول للمنزل وغير ذلك، وقد علمنا أن الله ﷻ قال للشيطان: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهو يشارك في الأكل، وفي المبيت وفي غير ذلك،

---

(١) الترمذي رقم (٦٠٦) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بذاك القوي، وقد روي عن أنس عن النبي ﷺ أشياء في هذا. وابن ماجه رقم (٢٩٧) عن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول بسم الله».

وقد يشارك في الولد، كما في الحديث أنه ثبت عنه ﷺ قال: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللَّهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن قُدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدًا**»(١)، ولهذا تجد كثيرين من الأولاد فيهم شبه من الشياطين في أفعالهم.

فالمقصود أن الواجب على المسلم أن يحترز من الشيطان وإذا كان له ورد لا يخل به فلن يضره لا سحر ولا غيره؛ يعني: الذي بواسطة الشياطين؛ لأن الشيطان إذا أراد أن يصيب الإنسان بالسحر تحين الفرص يتحين الغفلة، أما إذا كان له ورد فلن يصل له، ولا يقال على هذا أن الرسول ﷺ أصيب بالسحر وهو أفضل عباد الله ﷻ ولم يُخل بذكر الله، لأن هذا لحكمة أرادها الله ﷻ، وإذا أرد الله ﷻ شيئًا قيض له أسبابًا.

قوله: «**ومن تعلق شيئًا وكل إليه**»: هذا جاء في أحاديث أخرى، والغالب أنه يقصد بالتعلق فعل القلب، تعلق بكذا؛ يعني: قلبه به، بخلاف عَلق وعلْق هذا يكون بفعله.

ومعلوم أن العاقل لا يفعل فعلًا إلا وقد تقدم قلبه الباعث للجوارح على ذلك، ولا يمكن أن يكون هناك عمل بلا إرادة سابقة إلا إذا كان ساهيًا أو سكرانًا.

والعموم في قوله : «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»، يدل على أن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء فإن الله يكله إليه ويتخلى عنه، وهذا أمر مشاهد. والواجب على الإنسان أن يكون اعتماده على ربه، وتعلقه به، وأن هذه التي تجري بين الناس من الأمور أسباب جعلها الله أسبابًا قد تؤدي إلى ما وضعت له وقد لا تؤدي، وقد تنعكس بإذن الله ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه.

ومن تعلق قلبه بالسحرة والشياطين وكله الله ﷻ إليهم، ومن تعلق قلبه بالله ﷻ فإنه يكفيه ويكون هو حسبه وكافيه، أما الذي يتعلق على الأسباب الظاهرة يكون موكلًا إليه و«من تعلق شيئًا وكل إليه» عام مطلق، وكونه يُوكل إليه؛ يعني: أن الله يُخلي بينه وبين ما قصده وأراده وتعلق قلبه عليه، وكل من وكل إلى مخلوق فقد وكل إلى ضعة وإلى ضعف فيكون ضائعًا ولا يتحصل له من المراد الذي قصده شيء، إلا شيئًا وافق القدر الذي كتبه الله ﷻ ولا يمكن أن يتخلف، ولكن هذا لا يفيد شيئًا.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وعن ابن مسعود** رضي الله عنه**: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضهُ؟ هي النميمة: القالة بين الناس» رواه مسلم**(١).

قوله: «ألا»: أداة تنبيه وعرض.

قوله: «هل أنبئكم»: أخبركم وأعلمكم بالشيء الذي يجب أن تجتنبوه، وتحذروه أن تقعوا فيه فيترتب على هذا الوعيد الشديد.

قوله: «ما العَضْهُ»: يقول ابن الأثير: هكذا يروى في كتب الحديث (بفتح العين)، وفي كتب الغريب بكسر العين وفتح الضاد «**العِضَهُ**»(٢).

يقول النووي رحمه الله في شرح مسلم: هذه اللفظة رووها على وجهين: أحدهما العِضَه بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العِدَة والزِّنة. والثاني: العَضْه بفتح العين وإسكان الضاد على وزن الوجه، وهذا الثاني هو الأشهر في

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٠٦) عن عبد الله بن مسعود قال: إن محمدًا ﷺ قال: «**ألا أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة القالة بين الناس**» وإن محمدًا ﷺ قال: «**إن الرجل يصدق حتى يكتب صدّيقًا ويكذب حتى يكتب كذّابًا**».

(٢) النهاية في غريب الأثر (٣/ ٤٩٦) هكذا يروى في كتب الحديث. والذي جاء في كتب الغريب: «ألا أنبئكم ما العضه؟» بكسر العين وفتح الضاد.

روايات بلادنا والأشهر في كتب الحديث وكتب غريبه، والأول أشهر في كتب اللغة. ونقل القاضي أنه رواية أكثر شيوخهم، وتقدير الحديث والله أعلم: ألا أنبئكم ما العضه الفاحش الغليظ التحريم[(١)].

وقد فسرها النبي ﷺ بأنها (النميمة).

والنَّم هو الزيادة والتكثير، ونمه إذا زاد فيه وكثره، أو نمه إذا ذكره، نم الحديث إذا ذكره للغير.

والنميمة: هي نقل الحديث إلىٰ الغير علىٰ وجه الإفساد. فيخرج من هذا النصيحة فهي ليست من هذا الباب.

والنميمة شبيهة بالسحر بالفعل، وقد تكون في أثرها أبلغ من السحر كما جاء في الأثر عن يحيىٰ بن كثير رحمه الله أنه قال: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر[(٢)]؛ لأن الساحر يفرق بين المرء وزوجه كما ذكر الله جل وعلا ذلك، وكذلك النمام يفرق بين الأحبة وبين المتفقين علىٰ أمر من الأمور لما ينمه من الكذب، أو من الحديث الزائد أو الذي غُير عن وجهه أو أنه ذكره ولم يغيره عن وجهه ولكن يريد بذلك الإفساد.

وهذا دليل واضح علىٰ أنها من المحرمات؛ لأن الإسلام جاء بالأمر بالإصلاح والصلة وربط القلوب بعضها ببعض، وإزاحة الأمور التي يكون فيها مباينة أو مقاطعة، ولا يجوز أن يكون هناك مقاطعة ولا مباغضة إلا في الله جل وعلا، فالنميمة من المحرمات بل هي من أكبر الكبائر، وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[(٣)]. والقتات هو النمام، وفي رواية:

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١٦/ ١٥٩).

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٧٠).

(٣) رواه البخاري رقم (٦٠٥٦) حذيفة: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قتات**»، ومسلم رقم (١٠٥).

«**لا يدخل الجنة نمام**»[١]، وهذا وعيد عظيم.

وقوله: «**القالة بين الناس**»؛ يعني: الفاشية بين الناس الكثيرة المنتشرة، التي تكثر فيما بينهم، فصار الناس يقولونها وكثرت بينهم، أو أنها التي يتقولها الناس فيما بينهم، فهذا يدل على أنها كثيرة، هذا في زمن الرسول ﷺ وهذا خبر يدل على التحريم والمنع، وهذا يدل على عموم تحريم النميمة؛ يعني: بين الناس كلهم، وقد ذكر ابن حزم رحمه الله أن هذا مجمع عليه قال: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة، فهو أمر لا خفاء فيه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن من البيان لسحرًا»[٢].

قال ابن عبد البر[٣]: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان.

يعني أن قوله: «**إن من البيان لسحرًا**»: أنه يثني عليه ويمدحه، فكيف يكون الشيء الممدوح المثنى عليه مشبهًا بالسحر التشبيه البليغ «**إن من البيان لسحرًا**»، ثم يستدل على هذا أنه جاء رجلًا فتكلم عند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وطلب حاجة فأحسن في المسألة وأبان وأفصح، ببلاغة ووجازة يقول: فقال أمير المؤمنين: هذا والله السحر الحلال. انتهى.

فهل يكون من السحر شيء حلال؟ وأكثر المحدثين يرون أن هذا من باب الذم وليس من باب المدح، وهذا هو الصواب، فهو خرج مخرج الذم، فليس هناك من

---

(١) رواه مسلم رقم (١٠٥).

(٢) رواه البخاري رقم (٥١٤٦)، ومسلم رقم (٨٦٩).

(٣) التمهيد (٥/ ١٧١).

السحر سحرًا حلال، السحر كله شر، ولهذا ذكره الإمام مالك ﷬ في الموطأ في باب -ما يذم من الكلام-[(١)] فهذا ظاهر جدًا أنه يرىٰ أنه من باب الذم، وكذلك قال أبو داود في سننه أنه من باب الذم، وقال إنك تسمع الفصيح البليغ يتكلم في الباطل فيغطي عليه من بيانه وفصاحته وبلاغته ما يجعلك تتخيل أنه حق، ثم يتكلم بالشيء الحق فمن بلاغته وفصاحته يغطي عليه ويجعله كأنه باطلًا لمراده، وهذا شبيه بالسحر تمامًا، وهذا وجه إلحاقه بالسحر، وقد ذكروا سبب ورود هذا الحديث أنه جاء أُناس من قبل المشرق إلىٰ النبي ﷺ فسأل أحدهم: ما تقول في فلان؟ وهم حاضرون: فتكلم فيه كلامًا يثني عليه فيه، فقال المتكلم فيه: إنه يعلم مني أفضل من هذا ولكنه حسدني يا رسول الله، فتكلم فيه كلاماً ذمه فيه وبالغ ، ثم قال: والله يا رسول الله ما كذبت لا في الأولىٰ ولا في الثانية، ولكني رضيت فقلت أحسن ما أعلم، وغضبت فقلت أسوأ ما أعلم[(٢)].

فدل هذا علىٰ أنه من باب الذم، وهذا هو الصواب، وهذا الذي ذكره المؤلف ﷬ من أجله أن البيان والفصاحة الزائدة عن الحاجة قد تغطي الحق، ويلتبس الحق بالباطل إذا كان عنده بلاغة وفصاحة شبيهًا بالساحر الذي يغطي علىٰ الحق ويستره فيكون ملحق به، وهذا واضح في مراد المؤلف، وهذا هو معنىٰ الحديث عند المؤلف ﷬ فيكون الشاهد علىٰ ذلك واضحًا، ولهذا جاء في حديث أم سلمة الذي في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها**»[(٣)]، فقوله: «**ألحن**»؛ يعني: أفصح وأبين وأقدر علىٰ إظهار ما يريد،

---

(١) الموطأ (٢/ ٩٨٦) (٣- باب: ما يكره من الكلام بغير ذكر الله).
(٢) المستدرك (٣/ ٧١٠) عن أبي بكرة.
(٣) رواه البخاري رقم (٢٦٧٨٠)، ومسلم رقم (١٧١٣).

وتغطية الحق الذي يكون عند صاحبه، ولهذا جاء قول الشاعر في ذكر العسل:

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول: هذا مُجاج النحل تمدحه وإن تشأ قلت: هذا قيء الزَّنابير
مدحًا وذمًا وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرىٰ الظلماء كالنور(١)

يعني: أن الفصاحة والبلاغة إذا قصد بها نصرة الباطل وإضعاف الحق أو تغطيته وستره تكون ملحقة بالسحر في الحكم، وهذا هو مراد المؤلف في الحديث، فيكون الحديث واضح في إراده الذم في هذا الباب، ولهذا جاء ذم البليغ الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة**»(٢).

وقد وصف الله المنافقين بالبلاغة والفصاحة، قال ﷻ: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ يعني: تسمع لقولهم لفصاحتهم وبلاغتهم، فهذا من باب الذم، ليس من باب الثناء وهو واضح، فعلىٰ هذا يكون الحديث خرج مخرج الذم وليس مخرج المدح كما قال ابن عبد البر.

والمقصود في قوله: «**إن من البيان**»؛ يعني: البيان الباطل، أما البيان الذي يقصد به نصرة الحق، وقمع الباطل، فهذا لا يكون داخلًا في ذلك، والشريعة مبنية علىٰ هذا كلها، الشرع بُني علىٰ تنمية الخير وتكثيره وعلىٰ إزهاق الشر أو تقليله إذا لم يستطع ذلك.

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٨٥٣)، وأخرجه أحمد في المسند رقم (٦٥٤٣)، وأبو داود رقم (٥٠٠٥)، وفيه: «**الباقرة بلسانها**».

وعلىٰ هذا لا يكون من السحر سحرًا حلالًا كما يقوله بعض الكُتَّاب هذا خطأ، فالسحر ليس فيه شيء حلال.

وهناك أمور تلتبس علىٰ كثير من الناس قد تدخل في هذا الباب مثل ما يقع لبعض المشعوذين والدجالين وبعض خدمة الشياطين وعبدة الشياطين من الأمور التي يُخيل للإنسان أنها كرامات وأنها من الله ﷻ، والواقع أنها إهانات، أو أنها حيل وشعوذة وكذب، فقد يَدَّعي أو يُدَّعىٰ له أنه من الأولياء والله يكرم أوليائه بأنه يُوجد علىٰ أيديهم ما يخرق به العادة التي تجري عليها سنن الله في الحياة، وعلماء أهل السُّنَّة يذكرون هذا في العقائد يقولون: إنه يجب التصديق بكرامات الأولياء؛ لأن أهل البدع ينكرون ذلك ويجعلونه من باب واحد يجعلونه كله من الشيطان، وأنه كذب، زاعمين أنه لو تم الإقرار لأحد من الناس بأنه يحصل له هذه الآيات لالتبس هذا بآيات الأنبياء فلا نفرق بين النبي وبين الولي، هذا زعمهم فهم ينظرون إلىٰ ما تهديهم إليه عقولهم فيحكمون به عمومًا، والواجب اتباع كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ.

وقد ذكر الله ﷻ في كتابه شيئًا من كرامات الأولياء حتىٰ نؤمن بها مثل ما قال عن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، والمحراب هو المكان الذي يُتخذ للصلاة، وليس هو الطاق الموجود الآن ويسمىٰ محرابًا، فهذا من البدع ولم يكن معروفًا، وإنما اتخذ كما يقول بعض العلماء من باب المصالح المرسلة فقط؛ لأنه يوفر علىٰ الناس صفًا، وهو مثل المنارة اتخذت لأجل المصلحة العامة التي تسمىٰ المصالح المرسلة حتىٰ يكون الصوت منتشرًا مسموعًا في الحي كله، والآن أصبحت المنارة مجرد علامة علىٰ المسجد، والمقصود من المنارة الذي كان قديمًا ذهب بوجود المكبرات.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

۞ **الأولى: أن علم النجوم من نوع السحر.**

يعني: ليس علم النجوم مطلقًا وسيأتي أن علم النجوم ينقسم إلىٰ قسمين: علم تيسير وعلم تأثير، والذي يلحق بالسحر هو علم التأثير؛ لأن الاستدلال علىٰ الحوادث التي تحدث بما يكون للنجوم من طلوع أو أفول أو اقتران أو مسير يكون ملحقًا بالسحر من هذا النوع، ومعلوم أن مثل هذا كذب؛ لأن النجوم مدبرة ومسخرة، وسيأتي أن الله خلقها لأمور ثلاثة التي ذكرها الله ﷻ في القرآن، وأن من ادعىٰ غير ذلك فهو مخطئ وضال ومضيع لنصيبه عند الله ﷻ، فالمقصود أن الاستدلال والادعاء علىٰ أمر من أمور الغيب هو قول علىٰ الله ﷻ وكذب، وكونه ينسب إلىٰ مخلوق من المخلوقات هذا قد يلتبس علىٰ بعض الجهلة من الناس فيكون مثل تلبيس الساحر وتغطيته للحق فيكون ملحق به.

۞ **الثانيـــة: العقد مع النفث من ذلك.**

يعني: عقد الخيوط مع النفث، والنفث هو إخراج النفس مخالطًا للريق، والنفوس تختلف منها نفوس خيرة طبعت علىٰ الخير ولا تريد إلا خيرًا، ونفوس شريرة طبعت علىٰ الشر وتريد الشر بالناس، والشر يختلف عند الناس هناك نفوس حسدة يصيبون الناس بأعينهم ونظرهم، ونفوس شريرة ليس عندها هذا الأمر ولكنها تطلب الشر وتريده وتحرص عليه، فلهذا يسعون في السحر، فهم إذا نفث النافث يخرج مع نفثه ريق مخالط للشر من النفس الشريرة ثم يتعاون مع الشيطان فيعقد العقد التي يقصد بها أن ينعقد ما أراده هذا قصده من العقدة، فينعقد بإذن الله الكوني لا بإذنه الشرعي؛ لأن الله ﷻ لا يأمر بالفساد شرعًا ولا أمرًا، ولكن لا يقع شيء إلا بإرادته ﷻ؛ لأنه هو المتصرف في الكون كله ﷻ وقد جعل لذلك أسبابًا.

الثالثة: أن النميمة من ذلك.

يعني: أنها في حكمه فتلحق به.

الرابعة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

قال: بعض الفصاحة؛ لأن الفصاحة إذا قصد بها نصر الحق وإظهاره وبيانه فهي مشروعة ومطلوبة، وإنما المذموم لبس الحق بالباطل، وتغطية الحق وإظهار الباطل، وإذا كان هذا المقصود فهي من أنواع السحر، وهذا دليل على أن المؤلف ﷺ يرى أن الحديث خرج مخرج الذم لا مخرج المدح، فإذن هذه الأمور التي ذكرها ملحقة بالسحر زجر الطير، والخطوط في الأرض، وضرب الحصى والاستدلال بذلك على الأمور المستقبلية أو الغائبة، وكذلك ضرب الودع والخرز، وفي ذلك ما يسمونه بقراءة الكف أو بقراءة الفنجان أو ما أشبه ذلك ، كلها ملحقة بهذا، وفي ذلك أيضًا النميمة ومن ذلك الفصاحة والبلاغة التي يُراد بها إظهار الباطل وتغطية الحق، فهذه من أنواع من السحر ملحقة به؛ لأن ضررها يكون شبيهًا بالسحر فأعطيت حكمه.

أما حكم الساحر فهو كافر يقتل شرعًا، وهذا؛ لأن دليله خاص فخرج بخصوص الدليل عن هذه الأنواع التي ألحقت بالسحر.

الباب السادس والعشرون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: باب ما جاء في الكهان ونحوهم.

«الكاهن» هو الذي يتصل بالشياطين، يأخذ الأخبار عنهم. والشياطين يسترقون السمع من الملائكة، وقد وصف الرسول ﷺ فعلهم ذلك بأنه يركب بعضهم بعضًا حتىٰ يصلوا إلىٰ قرب السحاب ثم يتنصتوا لما تتكلم به الملائكة من الأمر الذي أمرهم الله جَلَّ وَعَلَا به في تدبير أمور الخلق في الأرض، وإنزال المطر والريح وما أشبه ذلك مما يتصل بالناس، فيخطف الفوقاني الكلمة من الملَك، ويلقيها علىٰ من تحته إلىٰ أن تصل إلىٰ من في الأرض ثم يذهب بها مسرعًا إلىٰ صاحبه من الكهان فيقرها في أذنه ويزيد معها مائة كذبة، ثم إن الكاهن قد يزيد أيضًا، هكذا جاء وصف استراق السمع.

وكانت الكهانة في العرب كثيرة، وكانت لها منزلة عندهم، ويفتخرون بها، حتىٰ أنه إذا كان في القبيلة كاهنًا صاروا يفتخرون بذلك علىٰ غيرهم ممن ليس عندهم، وكانوا يتحاكمون إليهم ويسألونهم عن الأمور التي تشكل عليهم فلما بُعث رسول الله ﷺ حُرست السماء حراسة مشددة بالشهب التي يرجم بها الشياطين، فلم يستطيعوا أن يسمعوا شيئًا لأجل ذلك، وقد ذكر الله جَلَّ وَعَلَا ذلك عن مؤمن الجن بقوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٩، ١٠] ثم لما انتهىٰ الوحي، وتوفي رسول الله ﷺ عاد الأمر إلىٰ ما كان عليه، فالكهان لا يزالون موجودين ولكنهم ليسوا بالكثرة التي كانوا عليها بالجاهلية.

فعلىٰ هذا نقول: الكهانة هي الأخذ عن الشياطين، والإخبار بالمستقبل، يعني ادعاء معرفة الأمور الغيبية في المستقبل والإخبار عنها.

قوله: «**ونحوهم**»؛ يعني: يلحق بالكاهن من كان بهذه الصفة أو قريبًا منها مثل العراف، والعراف هو الذي يدعي معرفة الأشياء المغيبة عن الناس مثل المسروق ومكان الضالة، ومكان الغريب الذي ذهب عن أهله وما أشبه ذلك، غير أنه لا يعرف ذلك بنفسه وإنما هو بواسطة الشياطين، والشياطين لهم مقدرة علىٰ معرفة الأمور أكثر من الإنس وقد يكون مجرد حدس وظن.

وكذلك الذين يتعاطون معرفة الأشياء، بشيء مما يتوهم أنه سبب، وهو ليس سببًا مثل الضرب بالودع والحصىٰ والخط بالرمل، وكذلك ما يسمىٰ حديثًا بقراءة الفنجان وقراءة الكف، والنظر في الطالع وما أشبه ذلك من الخرافات، وقد تُوكل بها أموال الناس وكل هذا داخل في الكهانة.

والأصل في هذا أن من ادعىٰ علم الغيب فقد نازع الله ﷻ في صفة من صفاته ومن نازع الله في شيء من خصائصه يكون كافرًا، ولهذا أخبر الله ﷻ في القرآن أنه لا يعلم غيب السماوات والأرض إلا هو ﷻ، ومعلوم أن الإنسان ظلوم جهول وإنه لا حد لظلمه وكثير من الناس يُنازع ربه ﷻ في أشياء كثيرة ولكن الأصل في الكهانة هو هذا.

والواجب علىٰ الإنسان أن يكون عنده بيان وفرقان، يفرق به بين الحق والباطل، ولا يكون ذلك إلا بكتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ، نعم العاقل قد يكون عنده شيء من ذلك ولكن العقل لا يستقل بمعرفة الأشياء لا بد أن يرشد، ولهذا يلتبس علىٰ كثير من الناس أشباه الكهان أنهم أولياء لله ﷻ، وأن ما يحدث علىٰ أيديهم يكون من خوارق للعادة يكون كرامة، فيحتاج الإنسان في هذا أن يكون بصيرًا.

والأصل في هذا النظر في عمل الإنسان نفسه وحالته التي يكون عليها، فإن الإنسان إذا قال أنا صادق أو قال إنه من أولياء الله دعوىٰ قد يدعيها الصادق مع أن الغالب أن الصادق لا يدعي هذا ولا يذكر ذلك، بل المعروف أن أولياء الله يزدرون أنفسهم ويحتقرون أعمالهم ويخافون كثيرًا من ربهم ﷻ؛ لأن الذي يقول مثل هذا القول يدعو الناس إلىٰ أن يعظموه ويُجلوه فهو يدعو إلىٰ مراد نفسه وما يهواه، ولكن علىٰ سبيل الفرض الذي يكون وليًا لله لا يختلط ويلتبس أمره بالفاجر الكاهن والسحرة، كما أن النبي الصادق لا يلتبس بالمتنبئ الكاذب وهذا أمر واضح، حيث إنه إذا قال قائل: إنه نبي يخبر عن خبر الله ﷻ فلا يخلو الحال إما أن يكون هو أفضل الناس وخيرهم أو هو شر الناس وأكذبهم وأبعدهم عن الله ﷻ، ومعلوم أن هذان لا يلتبس أحدهما بالآخر عند سبر حالهم والنظر إليهم، وكذلك في هذه الأمور، فمثلًا الذي يدعي أنه ولي لله ﷻ ثم يدعو إلىٰ عبادته أو إلىٰ عبادة غيره من المقبورين أو إلىٰ عبادة من يدعي أنه من الأولياء، فيقول مثلًا: إذا كان لك حاجة يمكن أن تأتي إلىٰ قبر فلان أو غيره فتسأله حاجتك منه، كما يذكر ذلك كثير ممن يؤلف في طبقات الأولياء علىٰ حد زعمهم ولكنهم من دعاة الشرك -نسأل الله العافية-.

وكذلك الذي يُلبس علىٰ الناس كأن يدخل في النار ويقول إنها لا تضره أو أنه يضرب نفسه بالسكين مثلًا ويقول إنها لا تدخل في جسده ولا تضره؛ لأنه ولي، أو أنه يمسك الحيات والعقارب ونحوها ويقول إنها لا تضره؛ لأنه ولي من الأولياء، فمثل هذا هو من إخوان الشياطين الكهنة.

فالمقصود أن الواجب الرجوع إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ في الفرقان والبيان في أحوال الناس وأفعالهم حتىٰ لا يلتبس الحق بالباطل، فإن كثيرًا من الناس يشتبه عليه هذا الباب كثيرًا فيحتاج إلىٰ بيان.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **روىٰ مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء -فصدقه بما يقول- لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**(١).

قوله: «عن بعض أزواج النبي ﷺ»: جاء في بعض طرق الحديث تسميتها وهي حفصة رضي الله عنها.

قوله: «من أتىٰ»: الإتيان يدل علىٰ أمور: إما شك في كذبه، أو أنه مصدق له وهذا أعظم، أو يريد أن يأخذ عنه ويقتبس منه، أو ينتفع بأقواله وما يذكر.

قوله: «عرافًا»: العراف هو الذي يتعاطىٰ علم الغيب، فدخل فيه الكاهن وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

قوله: «فسأله»: السؤال مرتب علىٰ الإتيان، فالغالب أنه لا يأتي إليه إلا ليسأله، وإن كان قد يأتي من باب النظر والاختبار، ولكن إذا كان مشهورًا بأنه عراف، فالغالب أن الذي يأتي إليه ليسأل وينتفع بزعمه.

قوله: «فصدقه»: هذه الكلمة ليست في صحيح مسلم، الذي في الصحيح: «**من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»، وإنما كلمة «صدقه» في مسند الإمام أحمد في نفس سند هذا الحديث، ويجوز أن يكون هناك بعض نسخ الإمام مسلم تكون مذكورة فيه، ولكن شراح الحديث لم يذكروا ذلك والله أعلم، ولكن الجزم أن هذه الكلمة ليست في صحيح مسلم تحتاج إلىٰ الاستقصاء والتتبع.

والمقصود في هذا أنه لا يجوز تخطية العلماء علىٰ سبيل الجزم والظن في كونك اطلعت علىٰ كتاب أو كتابين أو نسخة أو نسختين، يجب أن تتوقف في هذا وتعلم أن الشيء الذي خفي عليك أكثر مما اطلعت عليه، وهذا مجرد مثال فقط،

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٣٠)، وليس فيه: «**فصدقه بما يقول**»، وهي عند أحمد في المسند رقم (١٦٦٣٨).

ومثل ذلك يقال في الأحاديث التي تضعف في مثل هذا الكتاب الذي هو عمدة وأصل يرجع إليه. فكثير من الناس أُغرم بالتصحيح والتضعيف مع أن التضعيف والتصحيح في وقتنا هذا لا يعتبر من هؤلاء؛ لأنه كما قال ابن الصلاح وغيره والعز بن عبد السلام يقولان: التصحيح في وقتنا غير ممكن، وإنما قصار الأمر أن يجتهد في أقوال السابقين أما أن يصحح أو يضعف فهذا ممتنع؛ لأن التصحيح والتضعيف يحتاج إلىٰ العلم بأحوال الرواة، وهذا انتهىٰ فلا يُقدر عليه ولا يوصل إليه، فهي اجتهادات فكون الإنسان ضعَّف هذا الحديث أو صححه هذا قد يستأنس به، ولكن لا يعتمد عليه، ويجب أن تبحث عن طرق الحديث والبحث عن طرقه ورواياته قد تكون متعذرة لتفرق العلماء في البلاد والكتب وغيرها.

والغالب أن الأحاديث التي يذكرها المؤلف هنا وتنتقد أنه جعلها من باب المعاضدات ومن باب الاستشهاد، أما الاعتماد فهو علىٰ الآيات والأحاديث الصحيحة ولكن بعضها قد يكون فيه بيان وإيضاح فيأتي به وإن كان فيه ضعف وهذا أمر مقبول ولا يجوز الاعتراض عليه.

قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»: القَبول قد يقصد به سقوط الفرض، وقد يقصد به الإثابة يعني أن الله رضيه وأثاب عليه، وقد اختلف في هذا القبول فجزم النووي ﵀ في شرح مسلم فقال: وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلىٰ إعادة، ونظير هذه الصلاة في الأرض المغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء ولكن لا ثواب فيها، كذا قاله جمهور أصحابنا، قالوا فصلاة الفرض وغيرها من الواجبات إذا أتىٰ بها علىٰ وجهها الكامل ترتب عليها شيئان سقوط الفرض عنه وحصول الثواب، فإذا أداها في أرض مغصوبة حصل الأول دون الثاني ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون علىٰ أنه لا يلزم من أتىٰ العراف إعادة صلوات أربعين ليلة فوجب

تأويله والله أعلم[١].

وهذا غير صحيح؛ لأنه ليس هناك ملازمة بين القبول وبين عدم الإعادة، فقد لا يأمر الإنسان بالإعادة وهي مجزأة عقابًا وهذا كثير، ثم عدم القبول مفسر بأمور: فسِّر بعدم الاعتداد بها، وفسِّر بأنه لم يأت بما أمر الله به ﷻ علىٰ الوجه الذي يعتبر شرعًا، ويفسر بعدم ثوابها، وهذه التفاسير ذكرها العلماء في مثل هذا.

فليس هناك تلازم بين الأمر بالقضاء وعدم القبول فيكون الحديث علىٰ ظاهره؛ يعني: صلاته لا تقبل ولا تعتبر وليس له فيها ثواب ولا يسقط عنه الفرض، ولا يلزم أنه يعيد فيكون غاية الأمر الذي حدد بأربعين يومًا أنه من باب العقاب، وهذا عقاب شديد إذا كان العبد حرم من قبول الصلاة هذه المدة الطويلة فهو من أعظم العقاب - نسأل الله العافية - وهذا مرتب علىٰ الإتيان والسؤال، سواء صدَّقه أو لم يصدقه؛ لأن قوله: «**فصدقه**» يقولون: إنها ليست في الصحيح وقد يقال: إن الرواية التي في المسند يكون فيها زيادة بينا فيرجع إليها فتكون مبينة لما يذكر في هذه الرواية، ولكن كونه قيد بالأربعين هذا يدلنا علىٰ أنه ليس بكافر؛ لأنه لو كان كافرًا، لقال لا تقبل له صلاة؛ لأنه كفر.

ولكن سيأتي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ**»[٢]، والذي في سنن أبي داود فيه زيادة، فهو هنا اقتصر علىٰ محل الشاهد فقط وتمام الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا -قال موسىٰ في حديثه- فصدقه بما يقول -ثم اتفقا- أو أتىٰ امرأة -قال مسدد: امرأته حائضًا- أو أتىٰ امرأة -قال مسدد: امرأته في دبرها- فقد برئ مما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ**»، وبعض العلماء اعترض علىٰ هذا وقال: إن هذا فيه شذوذ

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١٤/ ٢٢٧).
(٢) أخرجه أبو داود رقم (٣٩٠٤)، وأخرجه أحمد في المسند رقم (٩٥٣٦).

والشذوذ في ذكر الحائض، وقد أجيب علىٰ ذلك، والمقصود هنا ذكر الكاهن.

في الظاهر أن تعارض هذا الحديث مع الذي قبله ، ولكن كلمة «صدقه» في الحديث الذي قبله ليست موجودة عند مسلم فيحتمل أنها وضعت خطأ من الناقل فلا إشكال فيه، فيكون التصديق أمرًا زائدًا عن الإتيان والسؤال، ولهذا قيل له: «كفر بما أنزل علىٰ محمد»، والذي أنزل علىٰ محمد ﷺ هو الإسلام القرآن والسُّنَّة التي جاء بها النبي ﷺ، وهذا يأتي كثيرًا في كلام الرسول ﷺ علىٰ فعل من الأفعال أنه ينافي التوحيد.

قوله: «كفر»: هل يؤخذ علىٰ ظاهره، أو يؤول؟

المعروف أن كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ، يجب أن يؤخذ علىٰ ظاهره، ولا يجوز تأويله إلا بدليل، ولا دليل هنا، فهل الكفر هنا يقصد به الخروج من الإسلام؛ أي: الكفر الحقيقي، أو أنه يسكت عنه كما قال الإمام أحمد ؒ: لا يفسر ويسكت عنه ويكون من نصوص الوعيد التي يقول كثير من المحققين إن الواجب أن لا تؤول ولا تفسر مع اعتقاد أن الفاعل لا يكون كافرًا. وقصار الأمر في هذا أن الناس في مثل هذا لهم ثلاث مذاهب:

المذهب الأول: مذهب جمهور العلماء، وهو أنه لا بد من تأولها حتىٰ تتفق مع النصوص الأخرىٰ، فمثلًا قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، مع قوله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، مع قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ومن المعلوم أن الأخوة هنا ليست أخوة النسب، وإنما هي أخوة الدين، فإذًا القاتل عمدًا لم يكفر، فعلى هذا لا بد من تأويل ذلك، فنقول: هذا جزاؤه لو جوزي، أو هذا جزاؤه الذي يستحقه، ولكن الله يعفو لمن يشاء ونحو هذا من الكلام حتى يتفق مع النصوص الأخرى.

وكذلك قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ إلى أن قال ﷻ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وهذا كثير، فإذًا هذه النصوص من نصوص الوعيد التي قصد بها الزجر ومنع الناس عن اقتراب واقتراف هذه المعاصي، ولا تدل على أن الفاعل يكون كافرًا بدليل النصوص الأخرى.

المذهب الثاني: وهو أيضًا لأهل السُّنَّة، وأن هذه النصوص يجب أن يوقف معها حيث جاءت ولا تُؤول ولا تفسير مع اعتقاد أن الفاعل لا يكون كافرًا وخارجًا من الدين الإسلامي، وهذا يفارق القول الأول في عدم التعيين والمقصود، ويعلِّلون هذا بأمرين:

الأمر الأول: يقولون إننا لا ندري مراد الله ﷻ، ولا مراد رسوله ﷺ في ذلك على الجزم، فيكون أسلم للإنسان حتى لا يقع في القول على الله بلا علم.

الأمر الثاني: أن هذا إذا تُرك بلا تأويل أدعى للانزجار، والابتعاد عنها وهو مقصود من مقاصد الشارع، فيكون هذا أرجح من القول الأول.

المذهب الثالث: وهو مذهب باطل قطعًا وهو قول الخوارج الذين يكفرون بالكبائر، فهم يقولون إن من فعل هذا فهو كافر، هذا معلوم بطلانه من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

فقوله: «فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد»: من العلماء من يقول إنه لا يكون علىٰ ظاهره بدليل حديث مسلم السابق أنها «**لا تقبل له صلاة أربعين يومًا**»، فإذا كان كذلك فإنه يحتاج إلىٰ الجمع بينه وبين حديث مسلم، ومفهوم هذا أنه بعد الأربعين تقبل فهذا دليل علىٰ أنه ليس كافرًا.

ومن العلماء من يقول: إن الكفر، كفر أكبر، وكفر أصغر، كما أن الشرك أكبر وأصغر، فيجوز أن نحمل هذا علىٰ الكفر الأصغر ونقول كفر دون كفر، ونقول هذا يحتاج إلىٰ دليل؛ لأنه من المعلوم أن الله ورسوله لا يطلقان اسمًا علىٰ شيء ثم يجوز لنا أن نقيده بكذا وكذا، فهذا لا يجوز إلا بدليل.

والظاهر أنه علىٰ ظاهره؛ لأن تصديقه هو تصديق بأنه يعلم الغيب والذي يدعي علم الغيب هو من رؤوس الطواغيت، فإذا صدقه فمعنىٰ ذلك أنه وافقه وربما رضي بعمله وهو لم يأت إليه إلا وهو راض بذلك، وعنده الدافع الذي دفعه لذلك وهذا هو الراجح في قوله: «كفر» أنه يبقىٰ علىٰ ظاهره، وأنه كفر بالله ﷻ، وعلىٰ هذا لا نحتاج إلىٰ الجمع بين هذا الحديث والحديث الذي في صحيح مسلم؛ لأن الحديث الذي في صحيح مسلم ليس فيه: «**وصدقه**»، وإنما هو إتيان فقط وسؤال؛ لأن الإتيان يحتمل غير الإتيان لتصديق كاكتشاف الأمر أو التفكير أو الاعتبار.

ومعلوم أن هذا لا يدخل فيه الإتيان للإنكار والمنع من هذا ومعاقبته، وفي هذا دليل علىٰ أن الإتيان يكون أعم من التصديق، ولهذا قيل فيمن: «صدقه» أنه كفر.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وعن أبي هريرة** رضي الله عنه **عن النبي** ﷺ **قال: «من أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد** ﷺ**» رواه أبو داود**[1].

(١) أبو داود رقم (٣٩٠٤) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من أتىٰ كاهنًا» قال موسىٰ في حديثه: «فصدقه بما يقول»، ثم اتفقا: «أو أتىٰ امرأة»، قال مسدد: «امرأته حائضًا أو أتىٰ امرأة»، قال مسدد: «امرأته في دبرها فقد برئ مما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ».

وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما عن ..«من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(١).

هذا مثل الذي قبله تمامًا غير أنه قال: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا**» ففرق بين العراف والكاهن، والأول جعله كاهنًا فقط، فهذا يدل على أن العراف أعم من الكاهن، وأن الكاهن يدخل في العراف كما عرَّف ذلك شيخ الإسلام، وذكر أن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال والزاجر وغيرهم ممن يتعاطى هذه الأمور.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **ولأبي يعلى -بسند جيد- عن أبي مسعود مثله موقوفًا.**

وهذا الأثر رواه البزار أيضًا ولفظه: «**من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»(٢).

وهذا الحديث هو الذي قيل إن فيه زيادة منكرة وهي «امرأته حائضًا- أو أتى امرأة- قال مسدد امرأته في دبرها»، وهذا الذي قيل إنه ضعيف وقيل إنه منكر من أجل ذلك ولا نكارة فيه؛ لأن إتيان المرأة في دبرها جاء فيه أحاديث كثيرة جاءت بهذا الوصف، وإنما تكون النكارة فيمن أتى حائضًا وقد علم أن هذه من المحرمات التي نص عليها كتاب الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فأمر باجتنابهن واعتزالهن في المحيض فيكون قصده بأنه منكر وصفه بأنه كفر، والمؤلف رحمه الله ترك الزيادة التي فيه واقتصر على محل الشاهد فقط.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٩٥٣٦)، البيهقي رقم (١٦٩٣٨)، والطبراني في الأوسط رقم (١٤٥٣).
(٢) رواه أبو يعلى رقم (٥٤٠٨)، والبزار رقم (١٨٧٣).

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له، ومن أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد[١]، ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتىٰ كاهنًا» إلىٰ آخره.**

قوله: «ليس منا»: إذا أخذنا هذا علىٰ ظاهره؛ يعني: أنه ليس من المسلمين، فإذا لم يكن من المسلمين فهو كافر، فهذا من نصوص الوعيد الشديدة ، غير أنه سوف يأتينا في باب الطيرة قول ابن مسعود: «ليس منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل»[٢]، كره أن يذكر اللفظة؛ لأنها لا تناسب المسلمين والتقدير أنه ليس منا إلا وقد يقع في قلبه شيء من ذلك هذا هو الظاهر، «ولكن الله يذهبه بالتوكل» وهذا لا ينافي النصوص؛ لأنه سوف يأتينا في باب الطيرة أن الضابط في هذا أنه ما أمضىٰ الإنسان أو رده، هذا هو حدها، ولكن الكهانة والسحر لا تقيد بمجرد الفعل يكفي فيها المشاركة في الأمر والرضا ونحوهما ولهذا جاء في الحديث الذي مضىٰ «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»[٣]، يعني: من تشبه وإن كان لا يحسن السحر، فيكون حكمه حكمهم، وهكذا جميع الأشياء تأخذ هذا الحكم.

وهذه من الأمور التي مُيزت فيها الكبائر بهذه اللفظة «ليس منا»، وقد يشكل كذلك قوله ﷺ: « **من غشنا فليس منا** »[٤]، وقوله: «**ليس منا من حمل السلاح علينا**»[٥]، علىٰ هذا يقال إن هذه نصوص لا يؤخذ بظاهرها المتبادر من اللفظ من ناحية اللغة وإنما يُرجع في هذا إلىٰ قواعد الشرع وكلياته، وكذلك النصوص

(١) البزار رقم (٣٥٧٨).

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٩١٠)، والترمذي رقم (١٦١٤).

(٣) رواه النسائي رقم (٤٠٧٩) من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم رقم (١٠١) من حديث أبي هريرة.

(٥) رواه البخاري رقم (٧٠٧١)، ومسلم رقم (١٠٠) من حديث أبي موسىٰ.

الأخرىٰ التي جاءت في فعل معين يدل النص علىٰ أنه كفر، فإن هذا يكون أخص من هذه، ومعلوم أن الخاص يقضي علىٰ العام فلا يكون هناك إشكال، فيقدم الخاص ويبقىٰ العام علىٰ عمومه علىٰ القاعدة التي يذكرها العلماء.

قوله: «**من تطير**»؛ يعني: فعل التطير بنفسه كما هو ظاهر، والتطير هو التشاؤم بالطيور بأصواتها وأفعالها وطيرانها، وليس هذا مقصورًا علىٰ الطير، وقد ذكر الله ﷻ التطير عن الكفار وأنه سنتهم وطريقتهم وأنهم يتطيرون بالرسل.

وقوله: «**أو تطير له**»؛ يعني: أنه أمر غيره أن يفعل ذلك، فقبله وصدقه واتبعه وعمل بمقتضاه، فيكون مثل الفاعل، وهكذا يقال في البقية.

قوله: «**تكهن**»؛ يعني: فعل الكهانة ولو لم يكن محسنًا لها، كما أن التطير أيضًا ولو لم يكن من الذين يحسنون التطير فإنه إذا فعل ذلك فإنه يكون له حكم من كانت هذه صنعته.

وقوله: «**أو تكهن له**»: كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه. ومثل هذه:

قوله: «**أو سحر أو سحر له**»؛ يعني: كونه سحر أو سحر له، **أي**: أمر من يسحر له أو أمر بمن يصنع السحر له ولو كان لغيره فإنه يكون داخلًا في حكم الساحر. وكذلك الذي يتطير له أو يُتكهن له يصير مثل الفاعل؛ لأن المسلم يجب أن يكون بعيدًا عن الأمور التي تنافي التوحيد وتناقضه أو تذهب بواجباته.

وقوله: «**ومن أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ**»: كأن هذا فيه مغايرة، الأمور الأولىٰ قال فيها: «**ليس منا**» وهنا قال: «**ومن أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر...**»، وعند تأمل ذلك قد يظهر أن الأخير أخف من الأول وفي الواقع أنه ليس كذلك؛ لأن الكفر ليس سهلًا، بخلاف قوله: «**ليس منا**» فإنه قد يتطرق إليه احتمالات، وابن حجر رحمه الله جزم بمثل هذا فقال: قال: «ليس منا»،

أي: من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين.[(١)].

ومعلوم أن العبد إذا لم يكن علىٰ سُنَّة الرسول ﷺ وطريقته فأقل أحواله أنه يكون مرتكبًا لمعصية ويكفي هذا، وهذا يدلنا علىٰ أن الراضي بالفعل كالفاعل والمصدق للكاذب هو مثله في الإثم والجزاء، فالمتطير ولو لم يحسن الطيرة قد أخذ حكم من يحسن ذلك، فجزائه يكون مثله، وكذلك المتكهن والطالب للكهانة؛ لأنه ما طلبها إلا لأنه يريد أن يعمل بمقتضاها، ومن عمل بمقتضاها فلا فرق بينه وبين من فعل ذلك بنفسه، ومثل ذلك الذي سُحر له؛ يعني: من أمر غيره أن يسحر، والسحر الآن منتشر في الناس بكثرة منهم من يصنعه بنفسه، ومنهم من يذهب إلىٰ الساحر يبذل له المال حتىٰ يسحر له من يريد وحكمهما سواء كلهم إخوان الشياطين ولو أُمضي الحكم عليهم لوجب قتلهم؛ لأنهم من المفسدين في الأرض الذين يجب أن تطهر الأرض منهم.

✍ قال المؤلف رحمه الله: قال البغوي: العراف: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدلُّ بها علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يُخبر عمَّا في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العرَّاف: اسم للكاهن، والمنجم، والرَّمّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق[(٢)].

قوله: «العراف»: أخذ له الاسم عراف؛ لأنه يعرف الأشياء التي يحتاج إليه فيها، وهي أمور غائبة.

(١) فتح الباري (٣/ ١٦٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٧٣).

وقوله: «**بمقدمات**»: مثل زجر الطير، ومثل الخط الذي يخطه في الأرض، ومثل الضرب بالحصىٰ، ومثل النظر في النجوم وما أشبه ذلك، ومعلوم أن هذه لا دليل فيها علىٰ الأمور المستقبلة وإنما هي دعاوىٰ باطلة.

وقوله: «**يستدل بها علىٰ مكان المسروق أو مكان الضالة..**»: وأي علم بالخط علىٰ أن المسروق في كذا؟ ولكن الشيطان قد يقترن بالإنسان أو يُبتلىٰ فيقع ذلك ثم يكون بلوىٰ وفتنة لمن يكون عنده ريب وشك في ذلك؛ لأن الواجب تكذيب مثل هؤلاء بلا تردد، ولا يكون عند المسلم أي تردد بأنهم كذبة وأنهم إخوان الشياطين.

وقوله: «**وقيل: هو الكاهن**»: سبق أن العراف اسم لمدعي معرفة الأشياء بواسطة الرمال والخطوط، أو بواسطة الحصىٰ أو لمن هو متعاط الكهانة بواسطة الشياطين، أو أنه يخبر عن نظره في النجوم أو غيرها كلها يُطلق علىٰ من فعل ذلك أنه عراف، ولهذا ذكر قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم. يعني يدخل فيه كل من ادعىٰ معرفة الأشياء بواسطة أشياء لا حقيقة لها في معرفة الأمور الغائبة.

وقوله: «**وقيل: الذي يُخبر عما في الضمير**»: وهذا قد يكون بالحدس، وقد يكون بالاستدلال والنظر في وجه الإنسان وتصرفاته، وقد يكون بالكشف، ولهذا اغتر بهذه الأمور كثير من الناس وحكموا علىٰ من هو أبعد الناس عن تحقيق التوحيد بل عن التوحيد نفسه بأنه ولي من أولياء الله، لأنه يُخبر عن الأشياء الغائبة، وبأنه قد يُخبر الإنسان عما في بيته ومقصده، وهذا من رجم الغيب، وقد يكون الشيطان الذي يعبده يُخبره عن أمور قد نظر إليها قبل أن يأتي أو أمور سمعه يتكلم بها فأخبر بها وليه من العرافين والكهنة فلا يجوز أن يغتر بأخبار الناس بأن هذا اطلع علىٰ شيء مغيب أو أدعىٰ بأنه ولي، ودعوىٰ الإنسان بأنه ولي يكفي دليلًا علىٰ أنه

ولي للشيطان وليس وليًا للرحمن؛ لأن أولياء الرحمن لا يزكون أنفسهم بل يعودون علىٰ أنفسهم باللوم والاحتقار بل بالمقت، يمقتون أنفسهم كما قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتىٰ يمقت الناس كلهم في ذات الله ° ثم يعود إلىٰ نفسه فيكون لها أشد مقتًا.[1]؛ لأنه لا يرىٰ أنه قام بما أوجب الله عليه، قيل لطاووس رَحِمَهُ اللهُ: ماذا تقول بعد تهجدك؟ قال: أقول اللهم لا تمقتني. يعني: ما يدل بشيء من عمله وهو يعرف ربه جَلَّ وَعَلَا المعرفة التي تهدي إلىٰ الحق وإنما يغتر بعض الجهلة ويدل علىٰ الله بأمور قد يكون فيها مسيئًا وليس محسنًا.

ولهذا العلماء يقولون: لا تغتر بمن يمشي علىٰ الماء، ولا بمن يطير في الهواء، حتىٰ تسبر أحواله، هل هو يقف أمام المحرمات، ويعمل بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا [2]، أو أنه علىٰ خلاف ذلك، فالأفعال لا يغتر بها؛ لأنها تحتمل أن تكون من باب الكرامة أو من باب الإهانة؛ لأنه يوجد من الناس من يأتي من بلاد بعيدة إلىٰ الحج يوم عرفة فقط ويقف مع الناس ويرجع إلىٰ بلده ويزعمون أن هذه كرامات يكرم بها هذا الإنسان فيطير في الهواء والواقع أن الذي يطير به شياطين، ولهذا يدخل الحرم بلا إحرام، وهذا ليس حجًا بل هذا أمر مبتدع يعاقب عليه من فعل ذلك.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ذكر الفروق التي يفرق بها بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وليست

(١) الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٥٤٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٦٦) قال رَحِمَهُ اللهُ: وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي علىٰ الماء فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلىٰ أنه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا- يعني الليث بن سعد- قال: لو رأيت صاحب هوىٰ يمشي علىٰ الماء فلا تغتر به فقال الشافعي: لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوىٰ يطير في الهواء فلا تغتر به.

الأفعال، أما الأفعال فلا يفرق بها؛ لأن الأفعال تتشابه؛ لأن أفعال ولي الشيطان قد تشبه أفعال وليّ الرحمن، وولي الله ليس له فعل في الكرامة، الكرامة ليست من صنعه، وإنما تحصل الكرامة إما بدعاء أو بحاجة يحتاجها، أما كونه يدعي أنه ولي فهذا كاف بأن يكون وليًا للشيطان؛ لأن الله قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

قوله: «**وقال أبو العباس ابن تيمية**»: هذه كنيته، مع أنه ﷺ لم يتزوج، فيجوز أن يُكنىٰ ولو لم يكن له ابن، وجهاده وطلبه للعلم لم يمكنه من الزواج، فوقته كله مشغول منذ وجب عليه الأمر فكانت حياته كلها جهاد، وكثيرًا ما كان يودع السجون، سجن قرابة ثمان سنوات أو أكثر، بل مات مسجونًا حتىٰ إنه أخذت من عنده الكتب والأقلام والأوراق وكل شيء حتىٰ لا يكتب.

قوله: «**العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم**»: فمعنىٰ هذا أنه اسم عام، يدخل فيه من لحق بهم ممن يشبههم ممن يستنجد بالشياطين وإخوانهم ، ولهذا قال: «ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق» يعني: يتكلم بالأمور الغيبية، أما الذي يدعي أنه يستخدم الجن ويدعي أنهم مسلمون وأنه يستعين بهم علىٰ إخراج الجن من الناس، فهذا قد يدخل في هذا ويكون حكمه حكم هؤلاء؛ لأن الجن عقلاء لا يمكن أن يأتوا للإنسان هكذا اعتباطًا، ويقولون نخدمك ونعطيك كذا وكذا، لا بد أن يقدم لهم شيئًا يرضون به، وإذا لم يرضوا لم يأتوا إليه، والغالب أن هؤلاء أعداء بل هو الأصل أنهم أعداء لبني آدم فيضلونهم ويلابسونهم، ثم كيف نصدِّق أنهم مسلمون وهم الذين يخبرون عن ذلك، لو كان مسلمًا ما تلبس بالمسلم، بل هذا يدل علىٰ أنه كافر خبيث، أو أقل شيء أنه جاهل ظالم مرتكب جرمًا والذي يقره علىٰ ذلك يكون مثله.

قال المؤلف ﵀: **وقال ابن عباس ﵄ في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم: ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق**(١).

هذا الأثر ضعيف، وقد رُوي مرفوعًا وهو ضعيف أيضًا، ولكن جاء عن ابن عباس من طرق أخرىٰ حسنة.

قوله: «**يكتبون أبا جاد**»: هذا ما يسمىٰ علم الحروف والمقصود به أنه يستدل بالحروف علىٰ أمور غائبة وهذا علم قديم يسمونه علم الحروف، وهو علم فاسد، باطل لا حقيقة له بل هو دعاوي وهو الذي أراده ابن عباس ﵄ فهو من أعمال العرافين وهم داخلون فيها.

وليس المقصود كتابة أبا جاد للتهجِّي، أو معرفة الجُمل، ومعرفة الأعداد فهذا لا بأس به؛ لأنه نوع من العلم.

وقوله: «**وينظرون في النجوم**»؛ يعني: أنه يستدل بسير النجوم وطلوعها وأفولها واقترانها وافتراقها علىٰ الحوادث المستقبلة التي تكون في الأرض.

وقوله: «**ما أرىٰ**»: يجوز فتح الهمزة بمعنىٰ لا أعلم، ويجوز ضمها بمعنىٰ: لا أظن.

قوله: «**من فعل ذلك له عند الله من خلاق**»: الخلاق معناه النصيب والحظ، ومن ليس له عند الله خلاق فهو هالك، وهو من أصحاب النار -نسأل الله العافية-.

---

(١) مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٨٠٥)، والبيهقي رقم (١٦٢٩١)، ومصنف ابن أبي شيبة رقم (٢٥٦٤٨)، ولفظه عن ابن عباس قال: إن قومًا ينظرون في النجوم وفي حروف أبي جاد قال: أرىٰ أولئك قومًا لا خلاق لهم. وعند الطبراني في الكبير رقم (١٠٩٨٠) عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عنه الله خلاق يوم القيامة**»، قال في مجمع الزوائد (٥/ ١١٧): رواه الطبراني وفيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.**

هذا يدل على أن المؤلف رحمه الله يرى أن تصديق الكاهن كفر أكبر بالله جل وعلا. فإذا كانا لا يجتمعان فيكون ضده، فإذا كان ضد القرآن فهو الشرك ومناقضة الإخلاص والتوحيد وهذا وجه إدخاله في كتاب التوحيد.

والقرآن يخبر بأن الغيب من خصائص الله جل وعلا والكاهن يدعي علم الغيب فكيف يجتمع هذا مع هذا، ولا يلزم من هذا أن المؤلف رحمه الله يقول: أن من أتى كاهنًا أنه يكون كافرًا.

❁ **الثانية: ذكر من تُكهن له.**

يعني: أنه حكمه حكم الكاهن؛ لأنه معلوم أن هذا يكون بإذنه ورضاه.

الباب السابع والعشـرون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء في النشرة.**

والنُّشرة، من النشر وهي الإزالة، إزالة المرض الذي يداخل المريض، ومن الانتشار وهو حل الشيء وإذهابه.

وهي ليست خاصة بالسحر بل في كل مرض يقال له نشرة، إما بالعلاج أو بالرقية وما أشبه ذلك؛ لأنه يُزيل عنه ما كان مخامرًا له في بدنه، والمقصود بها هنا حل السحر كما هو واضح، وذلك أن المؤلف رحمه الله لما ذكر السحر ذكر ما يكون حكمه حكم السحر ناسب أن يذكر النُّشرة، يعني حل السحر هل يجوز أن يكون ذلك بسحر مثله أو لا يجوز؟

والعادة التي جرىٰ عليها رحمه الله أن الباب إذا كان فيه خلاف أنه لا يجزم في الحكم في الترجمة، كما هو واضح هنا «باب ما جاء في النُّشرة»؛ يعني: هل هي من السحر المحرم أو هي جائزة أو فيها تفصيل؟ وهذا يتبين بما ذكره.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **عن جابر** رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **سئل عن النُّشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»، رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود[1] وقال: سئل أحمد عنها؟**

فقال: ابن مسعود يكره هذا كله[2].

«أل» في قوله: «النشرة» هي للعهد يعني النُّشرة المعهودة عند الجاهلية،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٤١٣٥)، وأبو داود رقم (٣٨٦٨)، قال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢٣٣): ووصله أحمد، وأبو داود بسند حسن عن جابر.

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ١٨٣) قال جعفر: سمعت أبا عبد الله سئل عن النشرة، فقال ابن مسعود: يكره هذا كله.

فالمسؤول عنه شيء معلوم، ولهذا أجاب بأنها من عمل الشيطان فلا يدخل في هذا النشرة بالرقية والأدوية الجائزة فإنه غير مسئول عنه، وإنما السؤال عما هو سحر، ولهذا يكون حكم النشرة بالسحر علىٰ ما يأتي في النصوص التي ذكرها.

وقوله: «**هي من عمل الشيطان**»: عمل الشيطان من المعلوم أنه محرم لا يجوز أن يوافق علىٰ عمله، وقد جاء أن الرسول ﷺ قال: «**إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها**»(١)، وهذا خبر سواء قصد به الإخبار عن الواقع أو قصد به الحكم، والظاهر أنه أورد الحكم الذي يجب أن يتبع.

قوله: «**وقال: وسئل أحمد عنها**»؛ يعني: أبو داود وهذا هو الظاهر.

قوله: «**فقال: ابن مسعود يكره هذا كله**»: سبق أن ابن مسعود رضي الله عنه يكره التمائم سواءً كانت من القرآن أو من غير القرآن، والكراهة كما هو معلوم كراهة التحريم؛ لأن الكراهة التي تصرف إلىٰ التنزيه هذه كراهة اصطلاحية لم يكن السلف يعرفونها فإذا جاء لفظ الكراهة في كلام السلف فإنه محمول علىٰ المحرم كما هو أيضًا ظاهر القرآن كقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]- بعد ما ذكر جملة من المحرمات.

فعلىٰ هذا لا يدخل فيه النشرة بالأدعية وبآيات الله جل وعلا، وبأسمائه وبالأشياء الجائزة المباحة من الأدوية وغيرها فإن هذا لا يُعلم أن أحدًا من العلماء كرهه أو نهىٰ عنه.

---

(١) أخرجه البخاري معلقـًا عن ابن مسعود في كتاب الأشربة باب شراب الحلواء والعسل، والبيهقي في السنن (١٠/ ٥) رقم(٢٠١٧١)، و الطبراني رقم (٧٤٩)،والطحاوي في معاني الآثار (١/ ١٠٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢١٨)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٢٣٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٨٦): رجاله رجال الصحيح خلا حسان بن مخارق، وقد وثقه ابن حبان.

قال المؤلف رحمه الله: **وللبخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طبٌّ أو يؤخذ عن امرأته أيُحل عنه أو يُنشر؟ قال: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه»**(١).

المسيب: يجوز الفتح ويجوز الكسر، ولكن كان رحمه الله يقول: سيب الله من سيبني، ولهذا كثير من العلماء يرويه بالكسر «المسيِّب» حتىٰ لا يدخل في دعائه.

قوله: «رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته»: طِب بكسر الطاء يُقصد به السحر أنه أصيب بالسحر، وهذا يطلق علىٰ السحر من باب التفاؤل، ولهذا قال ابن الأنباري: هو من الأضداد. يقال لعلاج الداء: طب والسحر من الداء، ويقال له: طب. فهو يقال له هذا تفاؤلًا بأنه يطيب ويسلم كما قالوا للديغ سليم، وللأرض التي تكون مهلكة أو سلوكها فيه خطورة مفازة تفاؤلًا بأن من سلكها يفوز، وهذا معروف في كلام العرب.

وقوله: «أو يؤخذ عن امرأته»: الأخذ والأُخذة هو الكلام الذي يقوله الساحر. يعني أنه حيل بينه وبين الوصول إلىٰ زوجته عن طريق السحرة بالشيء الذي صنعوه له.

قوله: «لا بأس به»: فهذا ظاهره جواز حل السحر بالسحر، ولكن شُراح

(١) البخاري تعليقًا باب ٤٨ هل يستخرج السحر؟ قال في تغليق التعليق (٣/ ٢٤٣): قوله: باب هل يستخرج السحر، وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر، قال: لا بأس به إنما يريدون الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه. قال أبو جعفر بن جرير في تهذيب الآثار عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يرىٰ بأسًا إذا كان الرجل به سحر أن يمشي إلىٰ من يطلق ذلك عنه، قال: هو صلاح. قال: وكان الحسن يكره ذلك ويقول لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: لا بأس بالنشرة إنما نهي عما يضر ولم ينه عما ينفع. إسناده صحيح. قال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد عن سعيد بن المسيب: في الرجل يؤخذ عن امرأته فليلتمس من يداويه، قال: إنما نهىٰ الله عما يضر ولم ينه عما ينفع، هكذا ذكره الأثرم في السنن وإسناده صحيح أيضًا.

الحديث حملوه علىٰ غير هذا قالوا: لا يُظن بابن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يفتي بالإتيان إلىٰ الساحر الذي أخبر الرسول ﷺ بأن الإتيان إليه كفر، وسؤاله كذلك وعمله من أعمال الشياطين، وإنما الواجب أن يحمل علىٰ نوع من حل السحر الذي يعلم أنه ليس سحرًا بل هو من الأمور المباحة إحسانًا للظن بالعلماء. وقالوا: وإن قُدِّر أنه قال ذلك فالواجب اتباع الدليل، والدليل يدل علىٰ خلاف هذا كما في النصوص عن النبي ﷺ.

وقوله: «**إنما يريدون به الإصلاح**»: يدل علىٰ أن ذلك يقصد به حل السحر بالسحر، ولهذا قال: «فأما ما ينفع فلم ينه عنه» يعني: أن المنهي عنه هو الذي فيه الضرر، وهذا يرجع فيه إلىٰ أهل العلم، فهل يجوز إذا كان الشيء فيه نفع وإن كان في الأصل محرمًا أن يستعمل؟

هذه القاعدة لا يجوز العمل بها ولا طردها بالشرع؛ لأن أكثر المعاصي فيها نفع، لكن إذا كان ضرره أعظم فالقاعدة أنه محرم مثل شرب الخمر فقد أخبر الله جَلَّ وَعَلَا أن فيه نفعًا ولكن ضررها أعظم وأكثر، وهذا لا يخلو منه ذنب من الذنوب ومن ذلك السحر، فالأصل أنه ممنوع ومحرم، فليست القاعدة مطردة، يعني أن ما كان فيه نفع وفيه إصلاح لبعض الناس أنه يكون جائزًا، علىٰ كل حال المسألة فيها خلاف، ولكن الخلاف فيها ضعيف، فأكثر العلماء علىٰ المنع من ذلك، ولهذا قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يحل السحر إلا ساحر»[1]، ومعنىٰ ذلك أنه لا يجوز أن يذهب إلىٰ الساحر ليحل السحر، وسبق قوله: «ليس منا من سحر أو سحر له»، فالذي يذهب إلىٰ الساحر ليسحر له يدخل في هذا وإن كان يريد إزالة السحر عن نفسه لكنه بسحر.

وهذا الأثر رواه ابن الجوزي في جامع المسانيد[2]، وذكر الحافظ أن إسناده

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٣٣) قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر.

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ١٨٣) قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد: النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر، وقد قال الحسن: لا يطلق السحر إلا ساحر إلا أنه لا يجوز ذلك.

حسن، وقال أنه رُوي مرفوعًا عن النبي ﷺ إنه قال: «**لا يحل السحر إلا بساحر**».

وقال ابن كثير رحمه الله: الصواب أنه موقوف أو الأشبه بالصواب أنه موقوف.

قال المؤلف رحمه الله: قال ابن القيم: النُّشرةُ: حلُّ السحر عن المسحور وهي نوعان: أحدهما: حل السحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمُنتشر إلىٰ الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النُّشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز(١).

فالنشرة تنقسم إلىٰ قسمين:

الأولىٰ: جائزة، وهي ما كانت بأسماء الله وصفاته وآياته، أو بالعلاجات الطبيعية وقد تكون مستحبة يؤجر الإنسان عليها مع النية.

الثانية: ونشرة لا تجوز علىٰ القول الصحيح الذي هو قول جمهور العلماء، وهي ما كانت بالسحر؛ لأن السحر محرم والرسول ﷺ قال: «**ما جعل الله شفاء أمتي في ما حرم عليها**»(٢)، وجاء هذا في العلاج لما قيل له إن الخمر فيه علاج وإنما حرمه الله ﷻ للضرر الذي فيه وهو أعلم بعباده وأرحم بهم، فمن أجل ذلك حرمه عليهم.

وعلىٰ هذا نقول إن النشرة بالسحر لا تجوز، ومعلوم أن السحر لا يحله إلا ساحر، والساحر يجب أن يقتل، ويجب أن لا يُقر علىٰ عمله الإفسادي، فإنه يفسد في الأرض ويقتل، ويفرق بين الأحبة فلا يجوز إقراره في المجتمع، بل يجب أن يُعمل علىٰ إزالته بالكلية، فكيف يُذهب إلىٰ مثل هذا، والذهاب إليه إقرار له.

---

(١) إعلام الموقعين: (٤/ ٣٩٦).

(٢) سبق تخريجه. وجاء عند أبي داود رقم (٣٨٧٤) عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله -تعالىٰ- أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا، ولا تداووا بحرام**»، وعند الطبراني في الكبير رقم (٦٤٩) وعن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق الداء والدواء فتداووا ولا تتداووا بحرام**»، قال في مجمع الزوائد (٥/ ٨٦): رجاله ثقات.

وقد يقال إن الذهاب إليه من باب الضرورة، وحالات الضرورات تراعىٰ شرعًا، فهي تباح بها المحظورات كما هي القاعدة التي يذكرها العلماء.

فيقال: إن هذا لا ينطبق علىٰ القاعدة التي يذكرها الفقهاء من كل وجه وإن انطبق عليها من وجه واحد ففيه مخالفة لما ذكرنا أن الساحر لا يجوز إقراره بخلاف من اضطر إلىٰ الأكل يجوز أن يتناول الشيء الذي يسد رمقه مما هو محرم عليه، إما من مال الغير أو من ميتة أو نحو ذلك، فإن هذا يفارق الساحر من هذا الوجه، فلا يكون الحكم مطابقًا فيختلف، وقد ذكر أهل العلم كثيراً من الأدوية ومن التعوذات ومن الآيات التي ذكرت في السحر أنها كافية عن الذهاب إلىٰ السحرة، وإن كان هذا قد يختلف بالنسبة لحال كثير من الناس، فإذا كان المرء لا يحسن ذلك يجوز أن يذهب إلىٰ غيره ممن يحسن هذا فينتفع به فإن هذا مباح، وإذا فعل هذا بنفسه فهو مستحب، وأما إذا كان بالطلب فهو جائز.

ومن ذلك ما ذكره ابن وهب في جامعه كما نقله الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقال الشعبي لا بأس بالنشرة العربية التي لا تضر، والنشرة العربية أن يخرج الإنسان في موضع عضاه فيأخذ عن يمينه وشماله من كل ثمر يدقه ويقرأ فيه ثم يغتسل به، وفي كتب وهب أن تؤخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه في الماء ويقرأ فيه آية الكرسي وذوات قل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله»(١).

القواقل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]. وهذا جائز؛ لأنه جمع بين العلاجين، والعلاج الروحي بآيات الله جل وعلا بالاستعاذة به واللجوء إليه أو بالعلاج الطبيعي ويجوز أن يكون في بعض النبات وغيره من الخاصية ما يكون فيه نفع وهذا لا يُدرك إلا

(١) مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٧٦٣).

بالتجربة، ولكن يجب أن يعتقد أن النفع من الله ﷻ، وأنه لا ينفع بذاته، أما التعوذات واللجوء إلىٰ الله فهذا من التوحيد والعبادة، وأما الورق فإن فقد يجعل الله فيه شفاء ونفعًا، وجميع الأدوية التي تُستعمل هي من هذا النوع، والغالب أنها لا تدرك إلا بالتجربة.

وخلاصة الأمر في هذا أن حل السحر عن المسحور إذا كان بسحر فإنه علىٰ القول الراجح لا يجوز، وإن كان بالأمور المباحة فأمره ظاهر، إما أن يكون مستحبـًا أو يكون مباحًا.

وسبب ذكر المؤلف ﵀ لباب النشرة في كتاب التوحيد أنه لما ذكر باب السحر المنافي للتوحيد؛ لأنه شرك لا يقع إلا بواسطة الشياطين، فلا يجتمع التوحيد والسحر أبدًا ، وذكر الأشياء التي قد تُلحق بالسحر وليست منه، أو قد يطلق عليها بأنها سحر من باب القياس وإلحاق الشيء بنظيره ناسب أن يذكر النشرة وهي داخلة في السحر؛ لأنها إذا كانت بالسحر فهي سحر، أما إذا كانت من غير سحر فهي من المباح أو الأمر المستحب.

الباب الثامن والعشـرون

✍ **قال المؤلف** ﷺ: **باب ما جاء في التطير.**

هكذا ثبت "ما جاء في التطير"، فالظاهر أنه من تغيير النساخ والمطابع.

والطيرة يقولون هذه اللفظة مصدر ولم يأت في اللغة العربية علىٰ هذا الوزن إلا لفظتان فقط: الطيرة، والخيرة، ومعنىٰ ذلك أن هذا نادر فهي مأخوذة من فعل الطير، والأصل أنهم كانوا يتطيرون بأصواتها وأفعالها.

وقوله: «**التطير**»: التطير: التفعل أخذ من الطيرة، والطيرة هي التشاؤم بفعل الطيور، وكذلك الحيوانات وغيرها من السوانح والبوارح التي كانت الجاهلية تعمل بها وتتبعها وتقصدها، وذلك أن هذه أمور وهمية من وساوس الشيطان وأوهامه وتخويفاته فلا يجوز العمل بها بل ولا الالتفات إليها، فإن ذلك مناف للتوحيد، أو مُذهب لكماله، ولهذا ذكره في التوحيد؛ لأن هذا من تفسير شهادة أن لا إله إلا الله كما سبق؛ لأن الأشياء تُفسر وتُبين بأضدادها وهذا منها، وكذلك بيانها بالفعل الذي يجب أن يُفعل ويكون ذلك من مقتضاها فإنه أيضًا تفسير لها.

فالتطير هو التشاؤم، ومعنىٰ ذلك أنهم يعتقدون أن هذا يدل علىٰ أمر مستقبل سيقع ولا سيما إذا كانت الأسماء قد تُطابق المعاني التي تقع في نفوسهم مثل لفظة غراب فإنها تدل علىٰ الغربة، أو علىٰ الكربة وما أشبه ذلك، ولهذا كانوا يتشائمون به كثيرًا، وكذلك الحيوانات، ثم سرىٰ الأمر في كل شيء في الكلمات، والأشخاص وغيرها فإذا سمع شيئًا تطير، وهذا من الشرك في الربوبية، والشرك في الربوبية أعظم من الشرك في الألوهية؛ لأنه أمر واضح جلي، ولأن الرب ﷻ هو الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، والمصرف لكل شي، فهو أمر ظاهر وهو أصل توحيد العبادة

مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فالمعنىٰ: كيف يقرون بأن الله هو خالقهم المتصرف فيهم ثم يصرفون العبادة لغيره؟ هذا تناقض، بل هذا ضلال، فصار توحيد الربوبية يوجب توحيد العبادة، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] يعني: هل يوجد غير الله يفعل شيئًا مما ذكر؟ يقرون أنه الله وحده، فإذا أقررتم أنه المتفرد بذلك فيجب أن تُفردوه بالعبادة.

فالمقصود أن توحيد الربوبية أمره ظاهر جلي، وأدلته موجودة في الكون كله وفي الأنفس والمخلوقات، ولهذا ما وجد في الأمم السابقة من أشرك في توحيد الربوبية إلا بعض الطغاة الكبار، والذي حملهم علىٰ ذلك الرئاسات، والانفراد بتصريف الناس مثل فرعون الذي يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وهذا من التمويه والدجل، ولكن أكثر الناس غوغاء ولا سيما إذا صدر الأمر من كبير فإنهم يتبعونه ويصدقونه، وإن كان كذبه واضحًا أوضح من الشمس، أما الأمم التي ذكر الله مع الرسل فكلهم يقرون بأن الله هو الخالق المدبر المتصرف، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فلا أحد ينكر هذا؛ لأنه هو الذي خلقنا، وخلق الذين من قبلنا، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] يعني: تعلمون أنه هو المتفرد بما ذكر علمًا يقينيًا. فنهاهم أن يقعوا في الشرك مع وضوح الأدلة، أدلة توحيد الربوبية.

وفي آخر هذه الأمة وقعوا في شرك الربوبية كثيرًا، الشرك الذي لم يقع فيه

الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، فأصبح كثيرًا منهم يدَّعون أن الولي يتصرف في هذا البلد وأنه لا يدخله أحد إلا بإذنه، وأنه يستطيع أن يصرف العدو، ويستطيع أن يشفي المريض ويُنجي من النار، حتىٰ وصل الأمر أن تدَّعىٰ الولاية في من هو مسلوب العقل، فالذي يُطالع بعض كتبهم يعجب، فهذا الشعراني في كتابه الذي يسميه «طبقات الأولياء» يقول إن بعض سادته وشيوخه يقول إذا صار يوم القيامة لا أترك أحدًا من مريدي يدخل النار. ويقول إذا صار يوم القيامة نصبت خيمتي علىٰ النار فلا أدع أحداً يدخل النار، فهذه سخافات.

فالمقصود أن التطير شرك في الربوبية، وذلك أنهم يُضيفون الفعل الذي يعتقدون وقوعه إلىٰ ما يسمعون من نعيب طير أو طيرانه، ولهذا جعلوا لها أسماء مثل السانح أو البارح، والناطح والنطيح، والقاعد والقعيد، وهي معروفة في أشعارهم.

فالسانح هو ما ولَّاك ميامنه، والبارح الذي يولِّيك مياسره، والناطح الذي ينطحك بوجهك، والقاعد الذي يأتيك من الخلف، فهم يعتنون بهذه الأشياء، وكذلك الحيوانات مثل الأرنب والثعلب، حتىٰ تعدىٰ الأمر إلىٰ الأشخاص فكانوا إذا رأىٰ أحدهم شيئًا من هذه الأشياء التي وضعوها وهم يكرهونه رجعوا وتركوا الذي قالوا إنه يدل علىٰ كذا وكذا. يعني علىٰ الشر، وقد يقع الشيء الذي يحبونه ثم يمضون ويستبشرون ويفرحون، بالإضافة إلىٰ ما اتخذوه من الاستقسام بالأزلام وهي نوع من الشرك، وهي أشياء كتبوا فيها اِفعل وفي الأخرىٰ لا تفعل، وواحد مغفل ليس فيه كتابة، ثم إذا أراد أحدهم أن يذهب أخرجها ثم ألقاها علىٰ الأرض ثم ينظر ماذا يخرج له، فإن خرج اِفعل مضىٰ، وإذا كان لا تفعل أحجم، وإذا خرج المغفل الذي لم يُكتب فيه شيء أعاد الضرب مرة أخرىٰ، فهم ينظرون في الأمور التي لا حقيقة لها، وصار هذا من الشرك؛ لأن الأمر والتدبير والتقدير كله بيد الله ﷻ.

فعلىٰ هذا نقول: التطير الذي هو فعل الطيرة، هو من فعل المشركين والكفار، والله ﷻ ذكر عن الكفار أنهم تطيروا بالرسل كما سيأتي فلا يجوز أن يقع من المسلم.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وقوله تعالىٰ:** ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

هذه الآية في قصة موسىٰ عليه السلام أخبر الله ﷻ أنهم إذا أصابتهم النعم قالوا نحن لها وخليقون بها، كما قال سبحانه : ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وإن تصبهم بذنوبهم ما يكرهون إما قحط، أو كون الثمار لا تنتج، أو مرض، أو موت وما أشبه ذلك قالوا هذا بسبب موسىٰ لشؤمه كما قال سبحانه : ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قالوا لموسىٰ إنا تطيرنا بك كما قال غيرهم، فأخبر الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قوله: «﴿طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾»؛ يعني: أن الذي أصابهم من القحط، أو من الأمراض، أو من غيرها من العذاب هو بجزاء فعلهم جاءهم من الله ﷻ جزاءً وفاقًا، وليس بسبب الرسل، الرسل يأمرونهم بالخير، يأمرونهم بامتثال أمر الله ﷻ الذي هو الطريق إلىٰ السعادة في الدنيا والآخرة، فتطيرهم في غير محله، مع أن التطير نفسه هو فعل المشركين كما في هذه الآية ونحوها، وفعل المشركين خاص بهم لا يجوز أن يفعله مسلم.

وقد اختلف المفسرون في معنىٰ قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ منهم من يقول إن الطائر والشؤم والشر ما وصل إليهم إلىٰ الآن، ولكنه سيأتيهم بعد موتهم وملاقاتهم الله ﷻ وإلقائهم في النار، وهذا أعظم مما أصابهم.

ومنهم من يقول إن هذا بتقدير الله، وليس بكون موسىٰ عليه السلام هو السبب؛ لأن موسىٰ عليه السلام مرسل من عند الله، لم يأت إلا بالخير وبأسباب السعادة، فكيف يعكسون القضية فيجعلون الخير الذي هو امتثال أمر الله واجتناب نهيه، يتطيرون به إذا جاءهم.

فالمقصود إما أن يكون «**طائرهم عند الله**» يعني: عذابهم الذي يصيبهم بسبب ذنوبهم، أو أن هذا الذي فعلوه أمر مقدر قدره الله جل وعلا قبل وجودهم، ولكنهم السبب وسوف يلقون جزاءهم، فدلت الآية علىٰ المنع من طريقين:

أحدهما: أن هذا أمر وهمي غير صحيح، وهو إرجاع الأمور إلىٰ ما لا علاقة لها به، فيكون هذا من الشرك في الربوبية.

الأمر الثاني: أن هذا من أفعال المشركين الخاصة بهم فلا يجوز فعله، ولا اتباعهم عليه ، وكلا الأمرين دلت عليه الآية.

فيكون المعنىٰ مثل ما ذكر الله جل وعلا في سورة النساء: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ يعني: بسبب عملك، وهذه الآية لا تخالف الأولىٰ، وذلك أن الآية الأولىٰ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني تقديرًا، وخلقًا، وإيجادًا ولكن كونه قُدّر، وخُلق، وأُوجد بسبب العمل، بسبب عملك الذي عملت فأنت تُجازي بما تعمل وتكون هذه الآية مثل تلك.

قوله: «﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾»: يدلنا علىٰ أن فيهم من يعلم أن الأمور كلها بيد الله ولكنه يعاند ويكابر وقد يؤمن.

قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون حقيقة الأمر وأن هذا من عند الله، وأن مآلهم ومرجعهم إلىٰ الله ثم يجازيهم بما يستحقونه، ولا يعلمون أن الرسل جاؤوا بالهدىٰ

وبالأمر بالتوبة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ وبالسعادة فهم يأمرون بتوحيد الله ﷻ، وترك الشرك واجتنابه، ومعصية الشيطان وهذا فيه الخير في الدنيا والآخرة غير أنهم جهلوا هذا، وقلدوا كبراءهم ورؤساءهم فردوا الحق أو عموا عنه، فصاروا لا يعلمون، وهذا دليل علىٰ أن الإنسان مؤاخذ بفعله لا يُعذر بعدم العلم.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالىٰ:** ﴿قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

هذا أيضًا في قصة الرسل الذين بعثوا إلىٰ أهل القرية وعددهم ثلاثة، قال قومهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يس: ١٨]، فقالت الرسل لهم: ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ يعني: بسبب كفركم ومخالفتكم، إذا أصابكم شر أو جزاء فإنه من جزاء فعلكم، فهو معكم يعني بسبب أفعالكم، فأنتم السبب فيما أصابكم، هذا هو الظاهر في معنىٰ الآية.

قوله: «﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾»؛ يعني: أئن ذكركم الرسل بأمر الله ﷻ والرجوع إليه، والتوبة مما أنتم فيه، تتطيرون بهم وتنسبون إليهم الشر الذي أصابكم بسبب ذنوبكم، فهذا هو فعل المسرف، ولهذا قال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي: الذين خرجوا عن الاعتدال وعن الحق فهم ظالمون بفعلهم وبقولهم وتطيرهم وحكمهم.

فالآيتان تدلان علىٰ أن التطير من شأن الكفار، وأنهم يتطيرون بالخير وأهله، والطيرة لا تكون إلا بالشر، والفأل يكون بالخير كما سيأتي، ولهذا أضافوها إلىٰ الرسل وزعموا أنهم جاءوهم بالشر فهو عكس الواقع وهي دعوىٰ باطلة، وأن التطير أمر قديم معروف في الأمم السابقة، وأنه ليس خاصـًا بالعرب بل هو في الكفار كلهم، تفعله وتقضي به، وتنسب الرسل إلىٰ الشر فإذا أصيبوا بسبب أعمالهم نسبوا ذلك إلىٰ الرسل.

وعند تأمل هذا تجده في الناس بكثرة في كلماتهم وأفعالهم، فيجب على العبد أن يكون بصيرًا في هذه الأشياء حتى لا يقع فيما قد يكون سببًا في عذابه.

قال المؤلف رحمه الله: **عن أبي هريرة** رضي الله عنه: **أن رسول الله** ﷺ **قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجاه**[1]**. زاد مسلم: «ولا نَوء، ولا غول»**[2].

هذا الحديث قد يوهم أنه معارض لأحاديث أخرى يظهر منها أنها مخالفة له مثل قوله ﷺ: «**الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابة**»[3]، وفي رواية: «**الفرس**»[4]، كما في حديث يعيش الغفاري قال: «دعا رسول الله ﷺ بناقة يومًا فقال: **من يحلبها؟** فقال رجل: أنا، قال: **ما اسمك؟** قال: مُرة، قال: **اقعد**، ثم قام آخر فقال: **ما اسمك؟** قال: جمرة، قال: **اقعد**، ثم قام آخر فقال: **ما اسمك؟** قال: يعيش، قال: **احلبها**»[5].

وجاء في رواية: فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أتكلم أم أصمت؟ فقال: «**بل اصمت وأخبرك بما أردت**»، فقال: فأخبرني يا رسول الله. قال: «**ظننت يا عمر أنها طيرة**»، قال: «**لا طير إلا طَيْرَه، ولا خير إلا خَيْرَه، ولكني أحب الفأل الحسن**»[6].

والظاهر أن هذا من باب التأديب، ليس من باب الطيرة، وكراهة التسمية القبيحة مثل: حرب، ومرة، وصخر وما أشبه ذلك، وكانت العرب عادتها أنهم يتخيرون لأبنائهم الأسماء القبيحة ويسمون خدمهم بأحسن الأسماء؛ لأن الخدم

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٥٧)، ومسلم رقم (٢٢٢٠).

(٢) مسلم رقم (٢٢٢٠) و(٢٢٢٢).

(٣) رواه البخاري رقم (٥٧٥٣)، ومسلم رقم (٢٢٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) البخاري رقم (٢٨٥٨)، ومسلم رقم (٢٢٢٥).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٧١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده حسن.

(٦) الجامع لابن وهب (٢/ ١٥٣).

لهم، وأبناءهم لعدوهم هكذا زعموا، والرسول ﷺ نهىٰ عن هذا الشيء، وعاقب عليه، فهذا الحديث من العقاب والتأديب.

ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله: ﷺ «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**»[(١)]، قالوا: هذا أيضًا معارض له، وفي حديث آخر: «**وفر من المجذوم كما تفر من الأسد**»[(٢)]، وفي حديث أسامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**الطاعون رجس أرسل علىٰ طائفة من بني إسرائيل أو علىٰ من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه**»[(٣)]، ومعنىٰ هذا أن فيه عدوىٰ وغير ذلك، ومن هنا نشأ الإشكال، وقد زعم ابن خلدون رحمه الله في مقدمته المشهورة: أن ما يذكره الرسول ﷺ من أمور الطب والدنيا فإنه ليس عن وحي، وإنما هو إما ظن، وإما بما يكون عنده ﷺ خبر من خبره وما أشبه ذلك[(٤)]. وتبعه علىٰ ذلك طوائف من الذين ألفوا ولا سيما في الوقت الحاضر وهذا ضلال.

وعلىٰ المسلم أن يعرف أولًا: أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يمكن أن يتناقض، وأن كلامه ﷺ صدق وحق ولا نحتاج إلىٰ إثبات ذلك من الأطباء أو من غيرهم، بل هو وحي عن الله جل وعلا علام الغيوب، سواء أدركه الناس أو لم يدركوه، فإن أدركوه فهو بادرة خير، وإن لم يدركوه فهو حق ولا يجوز أن يعارض بكلام أحد من الخلق.

أما من يذكر من التأبير فهذا شيء أخبر به عن ظنه كما ثبت من رواية مسلم

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٢١) أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوىٰ» ويحدث مع ذلك: «**لا يورد الممرض علىٰ المصح**».

(٢) رواه البخاري رقم (٥٧٠٧) تعليقًا، ووصله أحمد في المسند رقم (٩٧٢٢).

(٣) رواه البخاري رقم (٣٤٧٣)، ومسلم رقم (٢٢١٨).

(٤) مقدمة ابن خلدون (١/ ٣٠١).

قوله : «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنًا فلا تؤاخذني بالظن،».وليس عن أمر الوحي الذي يخبرهم به ويقول : «إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله ﷻ ، فهذا لا يدخل فيما نحن فيه.(١)

قوله ﷺ: «**لا عدوىٰ ولا طيرة ولا هامة**» الخ، لا يخلو الأمر إما أن تكون «لا» في قوله: «**لا عدوىٰ..**» الخ، ناهية أو نافية.

فإذا كانت ناهية فلا إشكال في هذا، والأمر فيها واضح، فيكون نهيًا عن هذه الأفعال التي كانت الجاهلية تفعلها، يعني نهي عن الطيرة، ونهي عن اعتقاد الهامة واعتقاد الصفر الذي يقوله المشركون، وكذلك اعتقاد أن الأنواء عندها خير أو عندها شيء مما يكون، كما تفعله العرب، وكذلك الغول، ولكن هذا ليس المشهور عند شراح الحديث، فالمشهور أنه نفي وليس نهيًا، نفي للعدوىٰ، ونفي للطيرة، ونفي للهامة، فإذا كان نفيًا فإنه يحتاج إلىٰ بحث عن المعنىٰ، وتكلم العلماء عليه:

فمنهم من رده، واستدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**» وقالوا: نأخذ بهذا دون قوله: «**لا عدوىٰ**»؛ لأنه كما جاء أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يحدث بحديث «**لا عدوىٰ**»، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**»، ثم إن أبا هريرة اقتصر علىٰ حديث: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**» وأمسك عن حديث: «**لا عدوىٰ**» فراجعوه، وقالوا: سمعناك تحدثه، فأبىٰ أن يعترف به، هذا في رواية مسلم فيجوز أنه منسوخ.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٣٦١) عن موسىٰ بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم علىٰ رؤوس النخل فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟** فقالوا: يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثىٰ فيتلقح، فقال رسول الله ﷺ: **ما أظن يغني ذلك شيئًا**، قال: فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: **إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنًا فلا تؤاخذني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله ﷻ** ».

ومعنىٰ: «لا يورد ممرض علىٰ مصح» أن الإنسان إذا كان له مثلًا إبل مصابة بالجرب فلا يجوز له أن يأتي بها إلىٰ إبل صحيحة، لئلا يصيبها ما أصابها، ويدخل في هذا كل مرض معد حتىٰ لا يتعدىٰ المرض إلىٰ غيره بواسطة الهواء والإفرازات والجراثيم وما أشبه ذلك، والآن ثبت عند الأطباء أن بعض الأمراض تسبب العدوىٰ وانتقال المرض إذا خالطه الصحيح إما عن طريق التنفس أو غير ذلك، وهذا أمر ثابت، ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يأتي بشيء يخالف الواقع هذا محال، وهو ﷺ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

وقد استشكلوا أحاديث عدة منها حديث الذباب إذا وقع في الإناء[1]، قالوا هذا الذباب لا يقع إلا علىٰ القاذورات وغيرها فكيف يقال مثل هذا، والناس أكثرهم أو جهلهم لا يؤمنون إلا بالواقع إذا وقع لهم الشيء وشاهدوه صدقوا، وهذا دليل علىٰ ضعف الإيمان فليس عندهم إيمان قوي بأن ما قاله الرسول ﷺ حق ويأخذونه علىٰ القبول ويصدقونه وإن كذبه الناس، ولكن كثيرًا من الناس يتوقف ويتردد وإن كان طالب علم، ثم إذا قال له الطبيب إن الشيء هذا كذا وكذا قال هذا دليل صدق الرسول ﷺ ثم زاد إيمانه، وهذا نقص في العبد حيث جعل تصديق الرسول ﷺ متوقفًا علىٰ إخبار الأطباء أو ما أشبههم، فالواجب أن تكون من أول وهلة تصدق ما قاله الرسول ﷺ؛ لأنه كما قال الله عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، ولا يجوز أن يكون إثبات أنه حق بالاكتشاف الذي اكتشفوه، وليس عن طريق تصديق الرسول ﷺ.

والرادُّون لحديث «لا عدوىٰ» يقولون: إن هذا إما نسي أو نسخ، والنسخ لا يكون بعد الرسول ﷺ، وإذا قدرنا أنه نسي فهذا لا يضر؛ لأن هذا رواه جماعة من الصحابة مثل أنس وعبد الله بن عمر، وجابر وغيرهم، فقد صح عنه ﷺ

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٢٠) عن أبي هريرة ﷺ يقول: قال النبي ﷺ: «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في إحدىٰ جناحيه داء والأخرىٰ شفاء».

هذا الحديث: «**لا عدوىٰ**» فلا قيمة لهذا القول.

القول الثاني: عكسه، قالت طائفة: نأخذ بهذا الحديث: «**لا عدوىٰ**» ونرد قوله: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**» مع الأحاديث التي جاءت في هذا المعنىٰ مثل: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**» وهذان القولان باطلان؛ لأنهما رد لهذا، ورد لهذا، وقد صحت الأحاديث بهذا وبهذا.

القول الثالث: الجمع بين القولين في حالتين مختلفتين، قالوا: إذا كانت حال الإنسان عنده من القوة والإيمان والتوكل واليقين، فإن هذا يقال له: «**لا عدوىٰ**»، أما إذا كان الإنسان عنده ضعف في التوكل والإيمان واليقين، فهو لا يستطيع أن يدفع الشيء الذي قد يرد عليه في نفسه فهذا يستعمل معه قوله: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**» حتىٰ لا يضعف إيمانه، وهذا أحسن من القولين السابقين وإن كان فيه نظر.

القول الرابع: ذكره الحليمي في المنهاج وأخذه تلميذه البيهقي عنه، وقال به ابن القيم[1] وابن رجب[2] وغيرهم، أن قوله: «**لا عدوىٰ**» علىٰ الوجه الذي تعتقده

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٦٤) قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٤/ ٤٠): والأولىٰ أن حديث: «**لا عدوىٰ ولا طيرة**» نفي لاعتقاد الجاهلية أن ذلك يعدي بطبعه ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بفعل الله تعالىٰ وقدره، فيكون قوله: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**» إرشادًا منه ﷺ إلىٰ الاحتراز.

(٢) لطائف المعارف (١/ ٧٥) قال: والصحيح الذي عليه جمهور العلماء: أنه لا نسخ في ذلك كله ولكن اختلفوا في معنىٰ قوله: «**لا عدوىٰ**» وأظهر ما قيل في ذلك: أنه نفي لما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن هذه الأمراض تعدي بطبعها من غير اعتقاد تقدير الله لذلك، ويدل علىٰ هذا قوله: «**فمن أعدىٰ الأول؟**» يشير إلىٰ أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني وما بعده. خرج الإمام أحمد، والترمذي من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يعدي شيء**» قالها ثلاثًا، فقال أعرابي: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فما أجرب الأول لا عدوىٰ ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها**»، فأخبر أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، فأما نهيه ﷺ عن إيراد الممرض علىٰ المصح وأمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن الدخول إلىٰ موضع الطاعون فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالىٰ وجعلها أسبابًا للهلاك أو الأذىٰ، والعبد مأمور باتقاء أسباب البلاء =

أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلىٰ غير الله تعالىٰ، وأن هذه الأمور تُعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح للمريض سببًا لانتقال المرض إليه، ولهذا قال: «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**»، وقال: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**»، وقال في الطاعون: «**من سمع به في أرض فلا يقدم عليه**»، وكل ذلك بتقدير الله تعالىٰ. انتهىٰ[1].

فأهل الشرك كانوا يعتقدون أن المرض ينتقل بقوته وطبعه إلىٰ الشخص الآخر، فهذا الذي نفاه الرسول ﷺ ولم ينف كون مخالطة المريض الصحيح قد تكون سببًا لمرضه، فهذا غير منفي، فبهذا تجتمع الأحاديث، ويدل لهذا أن الرسول ﷺ لما قال: «**لا يعدي شيء شيئًا**» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فمن أجرب الأول ؟ لا عدوىٰ ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس فكتب حياتها ومصائبها ورزقها**»[2].

ولكن إذا نظرنا إلىٰ قوله: «**لا عدوىٰ**» فالأمر يحتمل أن تكون «لا» هنا ناهية

= إذا كان في عافية منها، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذي فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم أو القدوم علىٰ بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالىٰ هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره ...

(١) السنن الصغرىٰ للبيهقي رقم (٢٦٣٢)، وأما قوله ﷺ: «**لا عدوىٰ**» فإنه أراد والله أعلم علىٰ الوجه الذي كانوا يعتقدون في الجاهلية من إضافة العمل إلىٰ غير الله تعالىٰ، ثم قد يجعل الله تعالىٰ بإرادته مخالطة الصحيح من به شيءٍ من هذه العيوب سببًا يحدثونه به، وقد قال النَّبي ﷺ: «**لا يرد ممرض علىٰ مصح**».

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٤١٩٨)، والترمذي رقم (٢١٤٣) من حديث ابن مسعود وهو عند البخاري رقم (٥٤٣٩) أخصر من هذا عن أبي هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا عدوىٰ**». فقام أعرابي فقال: أرأيت الإبل تكون في الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعير الأجرب فتجرب؟ قال النبي ﷺ: «**فمن أعدىٰ الأول**».

أو تكون نافية، فإذا كانت نافية فالمنفي لا بد أن يكون باطلًا «**لا عدوىٰ**» يعني كما قاله ﷺ.

فإذا كانت نافية فالأمر مثل ما قاله الحليمي والبيهقي أن المنفي هو ما كانت تعتقده الجاهلية، وليس كون المرض قد يكون سببًا؛ لانتقال مثله لصحيح عند المخالطة، وهذا قد يكون، ولا يلزم؛ لأن الإنسان إذا اعتمد علىٰ ربه، وتوكل عليه في دفع الأذىٰ فإنه قد لا يصيبه توكلًا علىٰ الله، واعتمادًا عليه، وكذلك إذا قوي توكله علىٰ ربه ﷻ وفوض إليه أمره، وعلم أنه بيده كل شيء، وأنه لا يقع لا حركة ولا سكون ولا ضرر ولا نفع إلا بإذنه ﷻ، فإنه قد يقدم علىٰ هذا الشيء ولا يضره.

يقول ابن رجب رحمه الله: فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره: والعبد مأمور باتقاء أسباب البلاء إذا كان في عافية منها، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة بأنه يُهلك أو يُؤذي، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم أو القدوم علىٰ بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالىٰ هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره[1].

وأما إذا قوي التوكل علىٰ الله، والإيمان بقضاء الله وقدره، فقويت النفس علىٰ مباشرة بعض هذه الأسباب، اعتمادًا علىٰ الله، ورجاء منه لا يحصل به ضرر، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة، وعلىٰ هذا يحمل ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما حاصر حصنًا من حصون الكفار ممتنع، وقالوا: لن ننزل علىٰ أمرك حتىٰ تأكل هذا السم، وأعطوه سمًا، قالوا: إذا تحسيته ننزل، فأخذه ووضعه في كفه وقال: باسم الله ثقة بالله توكلًا علىٰ الله، ثم أكله

(١) لطائف المعارف (١/ ٧٥).

وصار يتصبب عرقًا ولم يضره[١]. وهذا اعتمادًا على الله ﷻ أنه ينصر دينه؛ لأن الكرامات إما لنصر الدين، وإما لحاجة الإنسان لنفسه ولا فعل له فيها. ولكن تكون للمؤمن المتوكل على ربه، وهذا شيء آخر ليس من هذا الباب؛ لأن هذا عام للناس كلهم ليس لطائفة معينة، وكذلك ما جاء عن سعد بن أبي وقاص، وأبي مسلم الخولاني عندما مشوا بالجيوش على البحر اعتمادًا على ربهم وتوكلًا عليه، ومع التوكل ثقة بالله ﷻ أنه يهيئ لهم ذلك.

وكذلك إبراهيم التيمي كان فقيرًا وكان له عيال، جاءته زوجته فجلست تؤنبه تترك أولادك يموتون من الجوع وأنت جالس للناس تعلمهم، أُخرج وأتي لنا بالطعام، فخرج وركب راحلته وذهب ولم يك معه شيء، فذهب يومًا أو يومين ثم رجع ليس معه شيء وقد عرف الناس الذين كان ساكنًا عندهم أنه قد خرج؛ لأنه يُفقد، فلما أقبل كره أن ينظر الناس إليه وقد رجع وليس معه شيء، فأناخ بعيره عند رمل فملأ ما معه من الأوعية رملًا حتى إذا شاهده الناس قالوا أتى بالطعام فدخل في بيته وأنزل ما معه وذهب إلى مجلسه، فذهبت المرأة مسرعة فلما فتحت وجدت حبًا أحمرًا نقيًا من أفضل ما يكون، فجعلت تشكره وتدعو له وتقول: أتيتنا بشيء لا يحتاج إلى تعب.

فالمقصود أن هذه أمور من الله ﷻ لا يُقال إنها عامة، أما قوله: «**لا عدوى**» فهذا أمر عام للأمة كلها.

فيكون المقصود النفي «**لا عدوى**»؛ يعني: بالطبع الذي تعتقده الجاهلية، ومعناه أنه لا يُعدي المريض الصحيح؛ يعني: أنه لا يخالطه؛ لأن هذا من الأسباب،

---

(١) مسند أبو يعلى رقم (٧١٨٦) نزل خالد بن الوليد الحيرة على أمر بني المرازبة، فقالوا له: احذر السم لا يسقيكه الأعاجم، فقال: ائتوني به فأتي به فأخذه بيده ثم اقتحمه وقال: بسم الله فلم يضره شيئًا.

والإنسان مأمور بفعل السبب، ولهذا لما ذهب عمر ﷺ إلىٰ الشام فنادىٰ عمر في الناس إني مصبح علىٰ ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هَبطت واديًا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرىٰ جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه**» قال: فحمد الله عمر ثم انصرف[1].

قوله: «ولا طِيَرَة»: فإذا كانت «لا» نافية فمعناه أنه لا حقيقة لها، وإنما هو أمر متوهم، يتوهم الإنسان فيلقي الشيطان في نفسه ذلك، وقد يُعاقب بسبب كونه تطير وأطاع الشيطان في ذلك والجزاء من جنس العمل، ولهذا تكون الطيرة إلىٰ المتطير أسرع من السيل في المنحدر، بخلاف الذي لا يتطير فإنه لا تضره.

والطيرة: مأخوذة من فعل الطير أو صوته، أو أنها تشاؤم بالأشياء التي يسمعها أو يراها.

وهي أوهام ووساوس من الشيطان وتخويفات يخوف بها الإنسان لا حقيقة لها، فأيُّ تأثير عند الطائر إذا طار علىٰ صفة معينة، أو نعب وصوَّت، وكذلك غيره من الحيوانات، والغريب أنهم يفرقون بينها يجعلون بعضها مشؤومًا وبعضها بخلاف ذلك ولو عكس عاكس الأمر ما كان فيه خرق فهم يتشاءمون بالأرنب أشد التشاؤم ويتفاءلون بالثعلب وإذا رأوه فرحوا ومضوا لشأنهم، ما هو الفرق بين الثعلب وبين الأرنب؟ أوهام كلها من أوهام الشيطان فليس عندها شيء، غير أنهم يقولون: الأرانب ضعيفة تلاقي العصا، وكل يهم بها ويقتلها، أما الثعلب فهو محتال

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٢٩)، ومسلم رقم (٢٢١٩).

ومكار فينجو بنفسه بمكره وكيده، فيتفاءلون بذلك، ولكن أي خبر عندها عن المستقبلات والأمور التي تصيب الإنسان.

ومن ذلك الغراب فإنهم يقولون إن الغراب يدل علىٰ الغربة، فمعنىٰ ذلك أن أحدهم إذا خرج ونعب في وجهه غراب فإنه سوف يموت، وأنه يغترب غربة لا يرجع بعدها، فكلها أوهام، وتعليق للأمور علىٰ غير أسبابها، فيكون شركًا بالربوبية، فالله ﷻ هو الذي يدبر الأشياء ويقدرها فلا يجوز أن يُلتفت إلىٰ مثل هذه الأشياء، ولهذه جاء التصريح بأن الطيرة شرك، فإذا كانت شركًا فهي منافية للتوحيد، و إذا كانت من الشرك الأصغر فهي منافية لكماله الواجب الذي يجب علىٰ الإنسان فعله ، ويؤاخذ علىٰ تركه.

وكذلك الأفعال التي تجري من الطيور، فلهم عادات معروفة يسمونها السوانح والبوارح، والناطح والنطيح، والقاعد والقعيد كما تقدم، وتكون من الطيور وغيرها كما هو واقع في أفعال الجاهلية كثيرًا، وقد يكون في الناس من إذا خرج وشاهد من يظن أنه مشؤوم رجع عن فعله، وقد يعثر أو يصاب بأي حدث يحدث وإن قل فيقول هذا مسير مشؤوم، أو هذا طريق مشؤوم فيرجع، هذا كله من الشرك ومن أعمال الجاهلية، فليس خاصًا بالطير الذي أُخذت الطيرة في الأصل منه، بل هو عام شامل؛ لأن المخلوقات كلها ليس لها شيء من التدبير، وليس عندها شيء من علوم الغيب، فعلم الغيب من خصائص الله ﷻ، ولهذا تكون الطيرة شركًا من وجهين:

أحدهما: أن الإنسان يجعلها سببًا لما يقع، وهذا شرك في الربوبية.

الثاني: أن الإنسان إذا توهم فيها أنه يترتب عليها ما سيقع أصبح عنده مرض في قلبه وظنون سيئة، فإما أن يمضيها ويعمل بها، وإما أن يصبح مترددًا، والواجب أن يجزم جزمًا أكيدًا أن الأمور بيد الله، وهذه المخلوقات لا تصرُّف عندها ولا علم،

فإن انضاف إلىٰ ذلك تعاطي الأمور المستقبلية فإنه يكون شركًا علىٰ شرك حيث إنه أدعىٰ أن هذه تُعلم بها الأمور الغيبية، وهذا من خصائص الله، وفيه تكذيب بالقرآن حيث أخبر أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ﷻ، فكانت الطيرة شرك من هذه الوجوه.

وأما ما ذكر في حديث: «**الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار**» فهذا جاء بألفاظ منها: «**إن يكن الشؤم ففي ثلاث..**»(١)، وفي رواية الجزم: «**الشؤم في ثلاث**»(٢)، وجاء في حديث آخر أن امرأة أتت إلىٰ النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله دار سكناها والعدد كثير والمال وافر، فقلَّ العدد وذهب المال، فقال رسول الله ﷺ: **دعوها ذميمة**»(٣)، فهذا يتفق مع قوله: «**الشؤم في ثلاث**» فيكون هذا بالنسبة للمتطير -المتشائم- من تشاءم في هذه الأمور وقعت له ولكن لماذا خصت هذه الثلاث؟ إذ غيرها مثلها.

فأُجيب عن هذا: بأن هذه الثلاث تكون ملازمة للإنسان غالبًا، المرأة تكون ملازمة للرجل، فإذا لم يرتح إليها فمن الشؤم كونه يلازمها ينبغي أن يفارقها بطلاق واستبدالها ويرتاح، أما إذا لازمها فقد فعل الشؤم، وكذلك الدار إذا كانت ضيقة ولم تكن مناسبة فينبغي أن يستبدلها ويرتاح منها، وكذلك الفرس؛ لأنها كانت

(١) الطبراني في الكبير رقم (٥٨٠٣)، وعند البخاري رقم (٤٨٠٥): «**إن كان الشؤم في شيء**»، وعند مسلم: «**إن الشؤم في شيء**».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ رقم (٣٥٦٧)، وأخرجه أبو داود رقم (٣٩٢٤) عن أنس بن مالك ولفظه: «**جاء رجل**»، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٩١٨) وقال: في إسناده نظر. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم (١٩٥٢٦) ولفظه عن عبد الله بن شداد بن الهاد أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله ما سكنا دارنا ونحن كثير فهلكنا وحسن ذات بيننا فساءت أخلاقنا وكثيرة أموالنا فافتقرنا قال: «**أفلا تنتقلون عنها ذميمة**» قالت: فكيف نصنع بها يا رسول الله؟ قال: «**تبيعونها أو تهبونها**»، قال ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٦٢): وله شاهد من حديث عبد الله بن شداد بن الهاد أحد كبار التابعين، وله رواية بإسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق.

بمنزلة الولد عندهم، يربونها ويعتنون بها؛ بل يقدمونها على أولادهم؛ لأنه بها يذودون عن نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وأبنائهم، فهم يعتنون بها كثيرًا، ويلازمونها، وأحدهم إذا كان عنده فرس لا يفرط فيها ولا سيما ما كان منها معروفًا من سلالة عربية أصيلة، فإذا تشاءم الإنسان منها ولازمها هذه الملازمة الطويلة يكون هذا من الشؤم فينبغي أن يريح نفسه منها، فكأنه يقول ارتاحوا؛ لأن النفوس جُبلت على كراهة الأشياء التي يحصل له منها ضرر، فملازمته الشيء الذي يحصل فيه ضرر يكون فيه تعذيب للنفس، فكونه يفارقه ويرتاح منه أولى هذا معنى كلام ابن القيم في ذلك[1].

القول الثاني: أن هذا بالنسبة لما كان يعتقده الناس، وهم يعتقدون أن الشؤم في هذه الأشياء، وهذا القول جاء عن عائشة ﵂ وأنكرت أن يقول رسول الله ﷺ: «**الشؤم في ثلاث**»، ولكنه أخبر: بأن الناس أكثر ما يتشاءمون في هذه الأشياء.

قوله: «**ولا هامة**»: الهامة بالتخفيف، واختلفت فيها على تفسيرات:

أحدها: أن هذا شيء يعتقده أهل الجاهلية، وهو أن الإنسان إذا مات يخرج من هامته طائر يصيح يقول: اسقوني، وإذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من قبره ويصيح

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٧) قال ﵀: وبالجملة فإخباره ﷺ بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها، وإنما غايته إن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه ويعطي غيرهما ولدا مشؤومًا نذلًا يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعودًا مباركة ويقضي سعادة من قارنها وحصول اليمن له والبركة، ويخلق بعض ذلك نحوسًا يتنحس بها من قارنها، وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة ولذذ بها من قارنها من الناس وخلق ضدها وجعلها سببًا لإيذاء من قارنها من الناس والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر.

علىٰ القبر: اسقوني، اسقوني، حتىٰ يؤخذ بالثأر، ولهذا جاء في أشعار بعضهم، قال:

«إنك إلا تذر شتمي ومنقصتي أضربك حتىٰ تقول الهامة

يعني: حتىٰ تموت، وهذا توهم لا حقيقة له، وإذا كان هذا نفي فهو نفي للوجود، وإنما هو أمر زينه الشيطان، وخرافة اعتقدها أهل الجاهلية.

القول الثاني: وهو الصحيح: أن المقصود بالهامة أنها البومة، وهو الطائر المعروف الذي يكون في الليل، وهي تألف البيوت الخربة، وكانوا يتشاءمون بها أشد التشاؤم، فإذا وقعت علىٰ بيت أحدهم قال: نُعِتَت إلي نفسي.

فنفىٰ الرسول ﷺ ذلك عنها؛ لأنها طائر لا تدبير له وليس عنده شيء من التصرف، وليس دليلًا علىٰ كون هذا يموت أو يحيا، أو أنها تنعي له نفسه أو غيره، فتكون من نوع الطيرة، لكنها خاصة؛ لأنهم خصوها بهذا الشيء.

وقوله: «ولا صفر»: فيه أيضًا أقوال:

أحدها: جاء عن الإمام مالك أنه فسَّرها بنسيء الجاهلية وأنه زيادة في الكفر، وهو أن الله حرم القتال في الأشهر الحرم، والأشهر الحرم كما هو معلوم منها ثلاثة أشهر متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، فكان يطول عليهم هذا الزمن، في كونهم يمتنعون من القتال فكانوا يتحيلون فيؤخرون المحرم يجعلونه صفرًا؛ يعني: يحرموا صفرًا ويحلون الشهر المحرم في سنة، وفي السنة التي تليها يدعونه كما هو؛ يعني: ثلاثة أشهر محرمة، ويسمون هذا النسيء؛ يعني: ينسؤون المحرم إلىٰ صفر فأخبر الله ﷻ أن هذه زيادة في الكفر، فالنفي هنا لما كان يفعله الجاهلية. وهذا لا حقيقة له، في كونهم يجعلون هذا حرام وهذا حلال هذا دعوىٰ باطلة، فلا يكون الذي حرموه محرمًا، ولا الذي أحله حلالًا، بل هو علىٰ ما وضعه الله ﷻ.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٥٩)، والبيت منسوب لذو الإصبع العدواني كما في الروض الأنف (١/ ٣٥١).

القول الثاني: أن المقصود بصفر أنه دابة تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدىٰ من الجرب عند العرب علىٰ حد زعمهم، وعلىٰ هذا يكون داخل في قوله: «**لا عدوىٰ**» غير أنه نص عليه؛ لأنه يعتقد أنه بخصوصه يقع ويكون له الأثر البالغ، فنفاه الرسول ﷺ وأبطله.

القول الثالث: أن المقصود بصفر أنهم يتشاءمون بشهر صفر، كما كانوا يتشاءمون في بعض الأيام وبعض الشهور، وكانوا يتشاءمون بشوال فلا يتزوجون فيه وفي صفر فلا يرحلون فيه ولا يتزوجون، ولا يزال هذا يوجد عند بعض الناس.

وهذا أيضًا جاهلية وكذب علىٰ الله ﷻ، وقول عليه بغير علم ، فأبطل الرسول ﷺ هذا المعنىٰ، وهذا القول هو الذي رجحه الحافظ ابن رجب رحمه الله.

قوله: «وزاد مسلم: «**ولا نوء**»» النَّوء: مأخوذ من النهوظ بثقل والارتفاع والأنواء منازل القمر كما سيأتي إن شاء الله في بابه، وهي ثمانية وعشرون منزلًا، وهي نجوم معينة كل ليلة ينزل واحدًا منها أربعة عشر تدور علىٰ القطب الشمالي، والبقية تدور علىٰ القطب اليماني، ودائمًا يكون منها علىٰ سطح الأرض أربعة عشر، وتحت سطح الأرض أربعة عشر دائمًا كلما غرب واحد خرج مقابله من الشرق، فهذا هو النوء وهو يطلق علىٰ الطالع والغارب، وكانوا يضيفون نزول المطر إليه، يقولون مطرنا بنوء كذا، ويقولون النوء الفلاني محمود، وهذا سعود وهذا نحوس، وهذا من الكذب والتزوير، بل من الشرك وهو مشهور عند العرب.

قوله: «**ولا غول**»: من التغول وهو التغير والتلون، والذي نفي هنا ما كان يعتقده الجاهلية وهو أن الشياطين تترآىٰ لهم وتتلون، تأتي مرة في لون كذا، ومرة في لون كذا حتىٰ تضلهم عن الطريق، فكانوا يعتقدون هذا، ولا سيما إذا سلك الإنسان البراري وحده فإنها تظهر له.

فهل المنفي الوجود أو المنفي التلون؟

بلا شك أن الشياطين موجودة، والجن موجودون وأنهم يظهرون للإنسان وقد يتعرضون له بشر، وقد يضلونه عن الطريق، وقد يؤذونه إلىٰ حد إذهاب عقله وأذاه، ولهذا جاء في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه يقول: إنه كان له تمر يضعه في السهوة وكانت الغول تأتي فتأخذ منه[1].

الغول يعني: الشياطين، فالشيء إذا لم يذكر اسم الله عليه قد تأتي وتأخذ منه، مثل ما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعليَّ عيال ولي حاجة شديدة قال: فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة**». قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا فرحمته فخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**». فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**». فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك**». قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا فرحمته

(١) رواه الترمذي رقم (٢٨٨٠) وقال: حديث حسن غريب. ولفظه عن أبي أيوب الأنصاري: «أنه كانت له سهوة فيها تمر فكانت تجيء الغول فتأخذ منه قال: فشكا ذلك إلىٰ النبي ﷺ قال: فاذهب فإذا رأيتها فقل بسم الله أجيبي رسول الله ﷺ، قال: فأخذها فحلفت أن لا تعود فأرسلها فجاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: **ما فعل أسيرك**؟ قال: حلفت أن لا تعود، فقال: كذبت وهي معاودة للكذب، قال: فأخذها مرة أخرىٰ فحلفت أن لا تعود فأرسلها فجاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: **ما فعل أسيرك**؟ قال: حلفت أن لا تعود فقال: كذبت وهي معاودة للكذب، فأخذها فقال: ما أنا بتاركك حتىٰ أذهب بك إلىٰ النبي ﷺ فقالت: إني ذاكرة لك شيئًا آية الكرسي اقرأها في بيتك فلا يقربك شيطان ولا غيره، قال: فجاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: **ما فعل أسيرك**؟ قال: فأخبره بما قالت: قال: **صدقت وهي كذوب**». وأخرجه أحمد في المسند رقم (٢٣٥٩٢)، والطبراني في الكبير رقم (٤٠١١)، وابن أبي شيبة رقم (٢٩٧٤٣)، والحاكم في المستدرك رقم (٥٩٣٤) وقال: هذه الأسانيد إذا جمع بينهما صارت حديثًا مشهورًا، والله أعلم.

فخليت سبيله قال: «**أما إنه كذبك وسيعود**». فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتىٰ تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتىٰ تصبح فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة**». قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: «**ما هي**»؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح -وكانوا أحرص شيء علىٰ الخير- فقال النبي ﷺ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة**»؟ قال: **لا قال**: «**ذاك شيطان**»(١).

فالمقصود أن القول الذي نفىٰ هنا هو ما كان يعتقده العرب أنها تتلون بألوان متعددة حتىٰ تضل الناس، وقد جاء في الحديث: «**إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان**»(٢).

فذكر الله ﷻ يخيفهم ويطردهم، ثبت في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتىٰ لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل حتىٰ إذا ثوب بالصلاة أدبر حتىٰ إذا قضي التثويب أقبل حتىٰ يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتىٰ يظل الرجل لا يدري كم صلىٰ**»(٣).

(١) رواه البخاري رقم (٢٣١١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٤٢٧٧) ولفظه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سرتم في الخصب فأمكنوا الركاب أسنانها ولا تجاوزوا المنازل، وإذا سرتم في الجدب فاستجدوا وعليكم بالدلج فإن الأرض تطوىٰ بالليل، وإذا تغولت لكم الغيلان فنادوا بالأذان، وإياكم والصلاة علىٰ جواد الطريق والنزول عليها فإنها مأوىٰ الحيات والسباع وقضاء الحاجة فإنها الملاعن**».

(٣) رواه البخاري رقم (٦٠٨)، ومسلم رقم (٣٨٩).

فالمنفي هو ما كان تعتقده الجاهلية، وليس عدمها لحديث: «لا غول ولكن السعالي».

السعالي: هم سحرة الجن.

وهذا الحديث فيه إبطال التعلق علىٰ غير الله ﷻ، أو كون الأسباب تكون مرتبة علىٰ أشياء ليست أسبابًا لها، فإضافة الأمور إلىٰ غير خالقها وموجدها من باب الشرك إما أن يكون الشرك اللفظي، أو شرك اللفظ والعقيدة والفعل.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **ولهما عن أنس بن مالك: عن النبي ﷺ قال: «لا عدوىٰ ولا طيرة ويعجبني الفأل»، قال: قيل: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»**[1].

قوله: «**ويعجبني**»: الشيء الذي يعجب الرسول ﷺ معناه أنه مستحب، وأنه حسن، ولا يكون داخلًا في المنهي ولا في الشرك.

قوله: «**الفأل**»: الفأل استُثني من الطيرة، فهو ليس منها، وقد فسَّره النبي ﷺ بقوله: «**الكلمة الطيبة**»، وهي التي يسمعها الإنسان، فدل هذا علىٰ أن الفأل نوع من الطيرة ولكنه ليس مذمومًا، قالوا: لأن الفأل فيه رجاء، وفيه أمل خير، فالنفس تؤمل خيرًا وتفرح بذلك، وكل ما رجا الإنسان ربه، وأمل فيه خيرًا فهو علىٰ خير، وإن كان السبب ضعيفًا والله ﷻ عند حسن ظن عبده به فرجاء الله، وأمل الخير منه أمر مطلوب، فإذا كان إنسان مريض ثم سمع شخصًا يقول: يا سالم، فقال: إنه يسلم، أو كان فاقدًا شيئًا فسمع قائلًا يقول: يا واجد أو يا راشد، فوقع في نفسه أنه سيرشد إليها أو أنه سيجدها، فهذا هو الفأل، ومن هذا ما جاء في السيرة أن النبي ﷺ لما ذهب إلىٰ خيبر ونزل المسلمون بساحة اليهود وفوجئ أهلها بهم وهم في طريقهم إلىٰ أعمالهم ومعهم الفأس والمساحي فقالوا: «محمد والخميس»،

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٧٦)، ومسلم رقم (٢٢٢٤).

فقال الرسول ﷺ: «**الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»(١)، فهذا من الفأل؛ لأن المساحي والفأس آلات هدم.

إذًا الفأل يكون بالكلمة، ويكون بالشيء الذي يُرىٰ بالأعين وليس من الطيرة؛ لأنه في الخير، والخير كله من الله ﷻ، فالإنسان إذا رجىٰ الله ﷻ كان علىٰ خير، فهذا هو السبب في كون الفأل خرج من الطيرة وإلا فلا يعتقد كون الشيء له تأثير فهو يرتاح إلىٰ هذه الكلمة ويمضي في عمله، والمضي في الأعمال والعزيمة عليها أمر مطلوب وإن كان هذا ليس له تعلق بالواقع، غير أن فرح النفس وسرورها والعزم علىٰ الأفعال أمر مطلوب، فيكون الإعجاب من هذا الوجه، وهذا مفارق للطيرة فليست منها؛ لأن الطيرة كما سيأتي «**ما أمضاك أو ردَّك**»، أما كون الإنسان يُؤمل خيرًا، ويستبشر بأمر مستقبل أنه سيحصل له فهو ظن بالله حسن، والظن الحسن مطلوب ومرغب فيه فيكون العبد في ذلك علىٰ خير، وعلىٰ هذا يكون الفرق بين الفأل والطيرة واضحـًا فليس هو منها، ولهذا كان يعجب النبي ﷺ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا تردُّ مسلمًا، فإذا رأىٰ أحدُكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»**(٢).

---

(١) رواه البخاري رقم (٦١٠)، ومسلم رقم (١٣٦٥) عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتىٰ يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم. قال: فخرجنا إلىٰ خيبر فانتهينا إليهم ليلًا فلما أصبح ولم يسمع أذانًا ركب وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس قال: فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «**الله أكبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٩١٩)، والبيهقي رقم (١٦٢٩٨)، وابن أبي شيبة رقم (٢٦٣٩٢)، وقال النووي في شرح النووي علىٰ (١٤/ ٢٢٤): رواه أبو داود بإسناد صحيح.

الصواب أنه عن عروة بن عامر، وأكثر العلماء علىٰ أن عروة ليس صحابيًا وبعضهم أثبت له صحبة، وعلىٰ هذا يكون الحديث مرسل.

قوله: «**وأحسنها الفأل**»: يدلنا علىٰ أن الفأل من الطيرة، ولكنه أحسنها؛ لأنه يكون في الخير، فهو مُفارق لها والإنسان إذا رجىٰ خيرًا فإنه يكون علىٰ أجر؛ لأنه يجب عليه أن يظن بالله خيرًا دائمًا؛ لأنه لا يصاب بضرر أو بسوء إلا من نفسه، من جراء عمله، والشر ليس إلىٰ الله ﷻ، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(١)؛ يعني: لا يضاف إليك، لا خلقًا مثل أن تقول: خالق الشر. ولا فعلًا ، ولا وصفًا، ولهذا إذا ذكر الشر فإنه يكون بالنسبة إلىٰ أفعال الله علىٰ أحد ثلاثة أوجه:

أحدهما: إما أن يُحذف فاعله كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]،

الثاني: أن يكون مضافًا إلىٰ المخلوق مثل قوله تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأسند إبراهيم عليه السلام المرض إليه.

الثالث: أو يكون داخلًا في العموم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

والفأل قد فسر بأنه الكلمة الطيبة يسمعها الإنسان، أو تقال له مثل لو كان الإنسان فاقدًا شيئًا فيسمع من يقول: يا واجد، فيتفاءل أنه سيجده، أو يكون مريضًا فسمع من يقول: يا معافىٰ أو يا سالمًا وما أشبه ذلك، فيتفاءل بأنه يسلم، فالتفاؤل مطلوب وهو حسن، ولكن ليس في كل شيء وإنما إذا سمع الإنسان الشيء الذي في باله أما أن يتقصده فهذا يكون من باب الطيرة.

---

(١) قطعة من حديث طويل عند مسلم رقم (٧٧١).

قوله: «ولا ترد مسلمًا»: تدل على أن المسلم ليس من خُلقه ومن فعله أنه يتعلق على غير الله ﷻ؛ لأنه معروف أن الدواب والطيور وغيرها ليس عندها خير ولا شر ولا نفع ولا ضر، وإنما هي تسرح وتذهب حسب مصلحتها التي خُلقت لها، وهي لا تعلم عما يقوله المتطير أو يفعله، ولهذا نقول: إن التطير نقص في العقل، وشرك في الفعل، فالمسلم إذا رأى شيئًا خلاف ما يزعمه المتطير لا يجوز أن ينقدح في ذهنه شيء من أنه يرجع عما خرج إليه، ولا يلتفت إلى ذلك، ولكن لو قدر أن هناك شيء من الأمور التي يفعلها أهل الجاهلية من التطير فينبغي أن ينفيها من أول الأمر، مثل ما وقع لابن عباس رضي الله عنهما، فعن عكرمة قال: كنت عند ابن عباس فمر طائر فصاح فقال رجل: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر(١). أي لا شيء عند هذا الطائر.

وكذلك طاووس رحمه الله خرج مع صاحب له في سفر فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاووس: وأي خير عنده، والله لا تصحبني(٢).

فإذا نظر العاقل بعقله فإذا الواقع ليس عندها خير ولا شر، ولا تعلم عن شيء في المستقبل، الأمر كله بيد الله ﷻ، ولكن العبد قد يُعاقب إذا اعتقد ذلك.

والواجب على العبد أن يتحرز من الشيطان، وأوهامه ووساوسه وشكوكه، فإن الإنسان إذا أصغى إلى الوهم الذي يلقيه الشيطان زاد فعله ونماه وربما كثير حتى صار مرضًا وعسر التخلص منه، فالواجب حسم الأمر من أول وهلة، فيعرض عنه نهائيًا ولا يلتفت إليه ويعلم العلم اليقين أن الأمور كلها بيد الله ﷻ، وأن ما قدره الله ﷻ أنه لا بد من وقوعه، وما لم يقدره لا يقع وليس عند هذه المخلوقات شيء مما قضاه الله ﷻ وقدره؛ لأنها ليست علامات على الغيب ولا تأثير لها في الحوادث

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢١٥) قال: أخرجه الطبري.
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٥).

فيؤمن بهذا ويعزم ولا يلتفت إلىٰ توهيمات الشيطان ووساوسه وتخويفاته التي يريد أن يوقع الإنسان في الالتفات إلىٰ غير الله ﷻ، أو في الشرك إذا كان العبد قوي الإيمان رضي الشيطان بالشيء القليل يصيبه منه.

قوله: «**فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره**»؛ يعني: فيما يظن أنه فيه شيء من ذلك فليبادر إلىٰ دفع هذا الأمر عن نفسه وما يقع في قلبه، وليلجأ إلىٰ الله ﷻ؛ لأنه هو الذي بيده كل شيء.

قوله: «**فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»؛ يعني: أن الخير والشر، والنفع والضر كله بيد الله ﷻ والإنسان لا يصاب إلا بما قدره الله ﷻ، وإصابته بما يؤلم أو يؤذي لا يكون علىٰ كل حال ضرر عليه بل قد يكون خيرًا، فالمؤمن إذا أصيب بالمصائب في الدنيا تكون كفارات لذنوبه كما جاء في الحديث: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»[(١)] بمرض أو غيره، وإنما الشقي الذي تُؤخر سيئاته حتىٰ يوافىٰ بها يوم القيامة كاملة فيُجزىٰ بها.

ثم إن الأمور كلها مقدرة قبل وجود الخلق بآلاف السنين كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه علىٰ الماء**»[(٢)]. الأشياء عامة لا يخرج منها شيء كبر أو صغر حتىٰ نبض العروق وحركاتها واختلاجها كله مكتوب لا يخرج منه شيء، فكيف يلتفت العبد إلىٰ أمور مدبرة مسخرة قد قضىٰ عليها في الأزل، كيف يُنيطها بأشياء لا علاقة لها بها؟ فالواجب التسليم لأمر الله ﷻ، وأنه هو الرب المتصرف في ملكه كيف يشاء يؤمن بهذا ويسلم لربه ﷻ، ولهذا قال: «**اللهم لا خير إلا خيرك**»؛ يعني: أي خير يقع للعباد فهو منك

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) رواه مسلم رقم (٣٦٥٣).

ومحض فضلك وكرمك وجودك من غير استحقاق منهم بل تفضلت به وتكرمت عليهم بذلك.

وقوله: «اللهم لا يأتي بالحسنات»: الحسنات يدخل فيها كل ما ينفع سواءً من أمور الدنيا أو الآخرة.

وقوله: «ولا يدفع السيئات إلا أنت»: السيئات كل ما يسوء الإنسان في نفسه أو دينه ولا يدفعها عن الإنسان إلا ربه ﷻ فهو الذي بيده كل شيء، يتصرف فيه كيف يشاء، فهذا تفويض إلىٰ الله واستسلام له.

وقوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك»؛ يعني: أنه لا تحول لأحد من حالة إلىٰ أخرىٰ إلا بمشيئتك وإرادتك، وهذا تبري من الحول والقوة، فالتحول من حال إلىٰ أخرىٰ لا يكون إلا بالله ﷻ، فالأمور كلها تحت تصرفه ﷻ، ليس للإنسان قوة في نفسه، ولا في غيره من المخلوقات، وليس له في نفسه تصرف، وتدبير وإيجاد للأشياء إلا بعد إذن الله وإرادته ﷻ، وإن كان الإنسان له قوة، وله مشيئة، فقوته ومشيئته بعد مشيئة الله ﷻ، فمعنىٰ هذا أنه يجب التفويض لله ﷻ، وأن الأمر كله بيده ﷻ، وهذا الذكر من أفضل الدعاء، والإخلاص لله والتسليم له، فكان هذا من أفضل ما يلجأ إليه العبد في مثل هذا وغيره؛ لأنه من التوحيد الذي هو ضد الطيرة.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «الطيرة شرك، الطيرة شرك» وما منا إلا! ولكن الله يُذهبه بالتوكل. رواه أبو داود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود[(١)].

هذا فيه التصريح بأن الطيرة من الشرك وذلك أن نسبة الأشياء إلىٰ الطيور أو الحيوانات أو الأشخاص نسبة خاطئة وهي من الشرك؛ لأن التصرف كله لله عز وجل

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٦٧٨)، وأبو داود رقم (٣٩١٠)، وابن ماجه رقم (٣٥٣٨)، والترمذي رقم (١٦١٤).

يتصرف كيف يشاء سبحانه.

قوله: «**وما منا إلا**»؛ يعني: وقع في نفسه أو قلبه شيء، وهنا حذف الكلام المفهوم كراهة ذكر الأشياء المكروهة وأن تسند إلىٰ النفس، وهو أسلوب معروف من أساليب العرب من أحسن الأساليب والمعنىٰ مفهوم من ذلك؛ أي: ما منا إلا ويقع في قلبه شيء من ذلك؛ يعني: أنه قد يتوهم في نفسه شيئًا من الأوهام فقط، أما أن تكون الطيرة التي يفعلها المشركون بأن يرجع أو يمضي من أجل ذلك فهذا لا يقع للمسلم كما في الحديث السابق، لكن كون الشيطان يُوقع في النفس الوهم من الوسوسة والتوهم هذا هو الذي قد لا يسلم منه العبد، ولكن هذا يذهب بتوكل العبد علىٰ الله واعتماده علىٰ ربه، وقول ما أرشد إليه الرسول ﷺ: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**».

قوله: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»؛ يعني: هذا الذي وقع في القلب يذهب بالتوكل علىٰ الله والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه.

وقوله: «**وجعل آخره من كلام ابن مسعود**»؛ يعني: قوله: «وما منا إلا» وهو الصحيح؛ لأن الرسول ﷺ لا يقع في نفسه شيء من ذلك، وفي هذا دليل أن هذا لا يضر إذا كان هذا مجرد وهم توهمه، فإنه يكون من إلقاء الشيطان ووسوسته كما سبق، فإذا توكل العبد علىٰ الله فإنه يذهب، ولا يكون لهذا أثر هذا هو معناه.

قال المؤلف رحمه الله: ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك» [1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٧٠٤٥)، قال في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٥): رواه أحمد، والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وهذا الحديث من حديث ابن لهيعة ومعروف الكلام فيه، هو في نفسه ثقة ولكنه احترقت كتبه فصار إذا حدث يخطئ، ولهذا ضعفوه من هذا الوجه.

قوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**»: هذا مثل ما سبق فيه أن الطيرة شرك، ووجه كونها من الشرك أنه علق السبب علىٰ مخلوق لا صلة له فيه؛ يعني: أنه يجعل المسببات منوطة بأسبابها لم يجعلها الله ﷻ سببًا ، فإذا اعتقد ذلك فهو من الشرك والشرك في هذا يرجع إلىٰ التدبير والتصرف ويرجع أيضًا إلىٰ دعوىٰ علم الغيب وعلم الغيب خاص بالله ﷻ.

قوله: «**من ردته الطيرة عن حاجاته**»: جعل هذا هو الحد الذي يكون فيه الإنسان مشركًا وهو أن يرجع عن حاجته وما قصده حينما يسمع أو يرىٰ ما يكره، أو يلقىٰ في نفسه من أوهام الشيطان ووسوسته الشيء الذي ينقدح في ذهنه أن مطلبه لا يتم، وأنه ينعكس عليه أمره، ومعلوم أن العبد إذا انفتح له باب الوسوسة وتوهيمات الشيطان فإنه يتنغص عليه عيشه وتتكدر عليه حياته، وتصبح الأمور أمامه كلها مشوشة، وقد يكون هذا عقاب من الله ﷻ؛ لأن من سُنَّة الله ﷻ في خلقه أنه يعاقب الإنسان بنقيض قصده، أو أنه ﷻ يُوقع فيه ما توهمه عقابًا له، عقوبة طارئة من هذا العمل، وليس ترتيبًا لوجود هذه الأشياء علىٰ هذه الموهومات؛ لأنه لا دخل لها فيه وإنما ذلك عقاب لتوهماته واتباعه الشيطان، وهذا كثير في الناس الذين يتتبعون هذه الأشياء، والذي يعرض عنها يصبح مطمئنا، والإعراض ليس لمجرد اطمئنان النفس بل لأجل أنها لا علاقة لها بذلك أصلًا، وأن هذا خلاف ما أمر الله به ﷻ وشرعه للعباد.

قوله: «**قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك**»: هذا القول لا بد أن يعتقد معناه، ويعمل به، أما مجرد قول بلا اعتقاد ما دل عليه وبلا عمل به فإنه لا يجدي، ولا ينفع، فيجب أن يلجأ إلىٰ الله ﷻ ويعتمد عليه في كل ما يحدث للعبد من الأمور التي يتوقعها سواءً كانت

الأسباب منوطة بمسبباتها أو كانت أوهامًا وظنونًا وشكوكًا؛ لأن العبد إذا لم يلجأ إلىٰ ربه تخطفته الشياطين من كل جانب، واستولت عليه فتنكدت عليه حياته كلها، وتنغصت، فلا بد من اللجوء إلىٰ الله ﷻ، والتسليم له، والانقياد له، وأن يكون الإنسان عبدًا لله ﷻ حقًا وعبودية الإنسان لربه بفعله أن يستشعر في نفسه أنه عبد، وأن كل من سوىٰ الله ﷻ من عبيده المدبرة المسخرة التي لا تملك لنفسها فضلًا عن غيرها نفعًا ولا دفعًا فإذا آمن بهذا وسلم سلمت عقيدته وانقاد علىٰ الطريق المستقيم.

وهذا يدل علىٰ أن هذا الفعل الذي هو التطير من الشرك الأصغر، وليس من الأكبر؛ لأنه لو كان من الأكبر ما كان كفارته هذا القول إلا أن يُقال هذا فيه التوبة والإخلاص والرجوع إليه؛ لأنه قال: «ولا إله غيرك».

ففيه أنه يقر بالتأله لله ﷻ وحده، ومن لازم الإله أن يكون هو المدبر هو النافع الضار؛ يعني: بيده النفع والضر وحده، وغيره لا يملك شيئًا من ذلك، فإذا اعتقد هذا وقاله تائبًا وراجعًا يكون كفارة حتىٰ من الشرك الأكبر.

قوله: «ولا خير إلا خيرك»: هذا يبطل الطيرة؛ ويعني: أن كل خير يأتي الإنسان فهو منك وحدك.

وقوله: «ولا إله غيرك»؛ يعني: لا أتجه بقلبي إلا إليك، ولا أدعو وأرجو إلا إياكَ.

✍ قال المؤلف ؒ**: وله من حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» رواه أحمد.**

هذا الحديث ضعيف وفيه انقطاع بين مسلمة راويه وبين الفضل.

والفضل: هو أكبر أولاد العباس قتل يوم اليرموك وكان عمره اثنتين وعشرين سنة.

قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»: هذا هو حد الطيرة التي تكون لها هذه الأحكام وهو الشيء الذي يحققه الإنسان بالفعل أو بالترك أما مجرد أمور تعرض له في ظنه، ووهمه ولكنه لا يعمل علىٰ مقتضىٰ ذلك ولا يترك فإن هذا لا يضره، ولا يكون داخلًا في الطيرة غير أنه قد يتأذىٰ بذلك بحسه وفي عمله يعني يكون عنده شيء من التوهم، والتوهم فيه أذىٰ فيجب عليه أن يتوب من ذلك؛ لأن هذا يكون داخل في المضي وفي الرد؛ لأن مبنىٰ الأعمال كلها علىٰ ما في القلب غير أن هناك أمورًا لا حقيقة لها وهمية، فالأمور الوهمية إذا نماها الإنسان واسترسل معها تزيد وقد تكون مستولية عليه فيجب أن يحسم المادة من أصلها ولا يلتفت إليها أصلًا، ويعلم أنه لا حقيقة لها، فإذا كان بهذه المثابة مجرد أمور عرضت ثم لم يتتبعها ولم ينمها ويسترسل معها فإنها لا تضره، وإنما الذي يضر ويكون له حكم الطيرة إن عمل بمقتضىٰ ما سمع أو ما رأىٰ من الفعل أو من الترك يكون هذا حدًا للطيرة المذمومة التي هي من الشرك، وهو أمر واضح لا إشكال فيه.

قال المؤلف رحمه الله **: فيــه مســائل:**

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾.

يعني: أن الآيتين ليس بينهما تعارض ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: جزاء كفرهم وأعمالهم عند الله، وما عند الله أشد وأنكىٰ مما وقع لهم من جراء تكذيبهم الرسل.

و﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ يعني: الشؤم راجع إليكم بسبب أعمالكم التي عملتموها كفركم وردكم وتكذيبكم الرسل وهذا هو الذي سيصيبكم من جرائه.

الثانيــة: نفي العدوى.

وهذا يدل علىٰ أن الشيخ رحمه الله يرىٰ أن «لا» للنفي وهذا هو الراجح، والمنفي هو ما يعتقده الجاهليون وهو أنه ينتقل بطبعه وقوته.

الثالثة: نفي الطيرة.

الطيرة موجودة عند الناس كثيرة لا تزال، ولكن المقصود نفي الحقيقة؛ أي: ليس لذلك أي حقيقة وإنما هي أوهام وتخويفات من الشيطان، ولهذا صارت من الشرك.

الرابعة: نفي الهامة.

علىٰ ما ذكر من التفسيرين لها وكلها خرافة.

الخامسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.

يعني: ليس من الطيرة؛ لأنه استثنىٰ قال: «**ويعجبني الفأل**» فهو ليس من الطيرة المذمومة والفرق بينهما أن الفأل من الظن الحسن والأمل الجميل، وإذا أمل الإنسان خيرًا حصل له بإذن الله.

السادسة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل.

يعني: ما يقع في قلب الإنسان من هذه الأوهام أنه لا يضره في دينه، وكذلك لا يضره في دنياه؛ لأنه مجرد وهم والوهم لا حقيقة له، فيعلم حقًا أنه لو وقع له شيء من المكروه أنه فليس بسبب ذلك بل هذا أمر مقدر، والذي وقع في وهمه من وساوس الشيطان وتخويفاته لا صلة له في هذا، فإذا اعتقد هذا فإنه لا يضره بخلاف ما إذا ربط هذه الوقائع أو المصائب بالشيء الذي رآه أو سمعه فإنه يضره في دينه وقد يضره في بدنه كما هو الواقع لكثير من الناس -نسأل الله السلامة-.

السابعة: ذكر ما يقول من وجده.

يعني: الدعاء الذي أرشد إليه الرسول ﷺ.

۞ **الثامنة:** تفسير الطيرة المذمومة.

يعني: كما في حديث الفضل ابن العباس يعني: «**ما أمضاك أو ردك**»، وإن كان هذا الحديث ضعيفًا ولكن معناه صحيح؛ لأن فيه حد الطيرة المذمومة وهو أمر معلوم.

فهرس المحتويات

تم بحمد الله